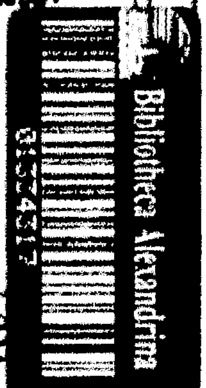
المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية الدنيوي والديني

تاريخ سوريا في القرن الثاني وما يليه
الى فتح الخلفاء الراشدين لها في القرن السابع

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود



دار نظير عبود

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الرابع

تاريخ سوريا في القرن الثاني وما يليه
الى فتح الخلفاء الراشدين لها في القرن السابع

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار نظير عبود

فهرس

عدد　　　　　　　　　　　　صفحة

الباب الثالث

تاريخ سورية في القرن الثالث

القسم الأول في تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

ما كان في سورية من الأحداث في أيام هؤلاء الملوك

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثالث

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

المشاهير والشهداء في سورية بهذا القرن

الفصل الثالث

ما كان من المباحث الدينية والبدع والمجامع في سورية في القرن الثالث

الباب الرابع

تاريخ سورية في القرن الرابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

الملوك الرومانيين والقسطنطينيين في هذا القرن واعمال بعضهم في سورية

الفصل الثاني

اطوار السوريين في القرون الاربعة الاولى

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في القرن الرابع

الفصل الثاني

اساقفة سورية في القرن الرابع

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء الاساقفة في سورية من مشاهير الاساقفة والعلماء في غيرها

الفصل الرابع

المجامع التي عقدت في سورية إلى القرن الرابع

الفصل الخامس

اشهر الكنائس التي انشئت في سورية في هذا القرن

الفصل السادس

القديسون الذين كانوا في القرن الرابع في سورية من شهداء ومعترفين

الفصل السابع

ما كان من البدع والمبتدعين في سورية في القرن الرابع

الباب الخامس

تاريخ سورية في القرن الخامس

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

ذكر الملوك القسطنطيين الذين تولوا سورية في القرن الخامس

الفصل الثاني

بعض الاحداث في سورية في هذا القرن

الفصل الثالث

مشاهير العلماء الدنيويين في سورية ومن عاصرهم في غيرها

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الخامس

الفصل الثالث

غير هؤلاء البطاركة والاساقفة من المشاهير في سورية في القرن الخامس

الفصل الرابع

من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم في غير سورية

الفصل الخامس

البدع والمبدعون بسورية في القرن الخامس

الفصل السادس

المجامع التي عقدت في سورية أو شهدها سوريون في القرن الخامس

ملحق

في تاريخ الموارنة

الباب السادس

تاريخ سورية في القرن السادس

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الملوك القسطنطينيون في هذا القرن وما كان بسورية في أيامهم

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية ومن عاصرهم بغيرها في القرن السادس

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدينيين غير البطاركة والاساقفة

الفصل الثالث

المجمع الخامس المسكوني وما كان في سورية من المجامع والبدع في هذا القرن

ملحق

في تاريخ الموارنة في هذا القرن

الباب السابع

تاريخ سورية في القرن السابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل في الملوك الرومانيين في هذا القرن وما كان بسورية في ايامهم

الباب الثالث

تاريخ سورية في القرن الثالث

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

عد ٥٤١

تمهيد في ذكر الملوك الرومانيين الذين كانوا في هذا القرن

مرّ في أول الباب السابق أنّ سبتيموس ساويروس استوى على منصّة الملك سنة ١٩٣م واستمرّ عليها إلى السنة ٢١١م التي فيها خلفه ابناه كركلاّ المسمى مرقس اورليوس انطونينوس باسيانوس وجيتا، فكركلاّ ولد لسبتيموس في ليون سنة ١٨٨م من امرأته يولية (جوليانة) دُمنة ابنة كاهن (معبد) حمص. ويقال أنه عجّل موت أبيه وما لبث إذ تسنّم أريكة الملك أن قتل أخاه جيتا في حضن أمه، وألحَقَ به كل من كان لائذاً بعقوته، ولم يُبقِ على ذلك الفقيه الشهير بابينيان البيروتي، وأمر بنهب الإسكندرية لمجرّد الوشاية له بأنّ أهلها لم يكونوا مماثلين له، وكان يعظّم قدر اسكندر الكبير ويحب أن يقتدي به، فاتخذ رجلاً اسمه فستوس كما كان افيسون عند اسكندر ثم أماته مسمماً ليبكيه كما بكى اسكندر نديمه، ولقّب نفسه الجرماني والبرتي لأنه حارب الجرمانيين والبرتيين مع أنّ محاربته لهم عادت بالعار والوبال عليه إلى أن قتله مكرين رئيس الحرس سنة ٢١٧م وأراح المملكة منه. وقد ذكر وادنيكتون خطَين عثر عليهما في عثيل في حوران عد ٢٣٧٤ ينبئ أولهما بإقامة

نصب تكرمة للملكين كركلاّ وجيتا ويلزم أن يكون أقيم في المدة الوجيزة التي كانت بين وفاة سبتيموس ساويروس ومقتل جيتا، والثاني حوى اسم كركلاّ وحده فكأنه نُقش بعد قتل أخيه. ووُجد خط آخر في الجرين في حوران عد ٢٤٥٥ مؤذن بأنّ أهل هذا المحل أقاموا أثراً تكرمة للملك كركلاّ وآخر في أذرع عد ٢٤٧٩ دال على إقامة أثر هناك أيضاً لسلامة الملك وانتصاره، إلّا أنّ هذا الأثر قد يكون تكرمة لمرقس اورليوس، فإنّ ألفاظه غير صريحة. وعثر رنان على خط في فتقا بكسروان كُتب عليه باليونانية ما مؤداه: «في السنة الأولى للقيصرين مرقس انطونيوس وجيتا مولينا أقيم في هذا الهيكل الناووس والمذبح». ويلزم أن يكون هذا الخط كُتب سنة ٢١١م إذ لم يملك الملكان معاً إلّا سنة واحدة.

وخلف كركلاّ مكرين المذكور وسمي مرقس اورليوس مكرينوس وُلد سنة ١٦٤م في قيصرية نوميديا وبعد قتله كركلاّ أو معاونة القاتلين على قتله نادى به الجنود ملكاً. على أنّ صرامته المفرطة لم تلبث أن أثارت الجنود عليه وأقام الفيلق الذي كان في حمص أليوكبل عاهلاً وقتل مكرين في الكبادوك سنة ٢١٨م. أما أليوكبل هذا فسمى فاريوس افيتوس باسيانوس أليوكبل، وحسبه بعضهم ابناً لكركلاّ سومياس ابنة خالته، وكان كاهناً لأليوكبل (وتأويله إله الجبل أو الإله الجابل أي الخالق) وهو حجر أسود كان أهل حمص في سورية يعبدونه ويريدون به الشمس. وبعد أن سمي أليوكبل عاهلاً سنة ٢١٨م انتصر على عسكر مكرين في تلك السنة، وأمنت في أيامه تخوم المملكة من جهة الجرمانيين والبرتيين. لكنه أقدم في روما على فظائع وغرائب منها أنه أخذ من حمص الحجر الاسود وأقام له هيكلاً في روما وقدّمه على سائر آلهتهم، وأنشأ ندوة من النساء وجعل أمه رئيسة عليها. وكان يتزيّا أحياناً بزيّ النساء ويبذر خزينة الملك على معاصيه. ورغب إليه بعض ذويه أن يتبنّى نسيبه اسكندر ساويروس فهمّ أن يهلكه حسداً منه، فآثر بعض عماله أن يقتلوا أليوكبل ويخلفوا اسكندر له فكان كذلك سنة ٢٢٠م.

أما اسكندر ساويروس هذا (وفضّل بعضهم أن يسميه ساويروس اسكندر). فسمي بعد ملكه مرقس اورليوس ساويروس اسكندر، وكان وُلد في فينيقية (ويقال في عرقا) سنة ٢٠٩م وكانت أمه يولية ممّا أخت سومياس المذكور فكان نسيباً لأليوكبل. ولما أُقيم عاهلاً، كان عمره أربع عشرة سنة واختار رئيساً للحرس اولبيان البيروتي الفقيه الشهير. وأصلح بعض العادات السيئة وعنى بتقديم العلوم وأظهر

الإنعطاف إلى المسيحيين، ووضع صورة ابراهيم ويسوع بجانب تماثيل آلهة الوثنيين. وجيّش على أرتحششتا ملك الفرس ولكن لم تكن لحملته عليه عائدة تذكر. وعزم أن يحارب الجرمانيين فثار عليه جنوده وقتلوه بدسيسة مكسيمينس الذي خلفه في منصّة الملك سنة ٢٣٥م. وسنأتي على ترجمة ساويروس بأكثر تفصيل لأنه سوري.

أما مكسيمينس فسمي بعد أن تبوّأ سرير الملك غايوس يوليوس فاروس مكسيمينس، وُلد في تراسة، وبعد مقتل الجنود اسكندر ساويروس نادوا به ملكاً في معسكر جرمانيا. وأقام جنود الفيلق الذي في افريقية كورديان الأول واشترك في الملك مع ابنه كورديان الثاني فقتل مكسيمينس كليهما. وفي رواية أنّ كورديان الأب انتحر عندما بلغه أنّ قائد جيش مكسيمينس ظهر على ابنه في قرطجنة، وأقامت الندوة حينئذٍ بابيان وبلبان، فزحف مكسيمينس بجيوشه لمحاربتهما فقتله جنوده على أسوار أكولايا التي كان محاصراً لها سنة ٢٣٧م، وعثر ودينكتون على خط عدد ٢٣٩٩ في كفرلحى في حوران مؤداه أنّ أهل المحل المذكور أقاموا أثراً تكرمة للملك مكسيمينس وابنه مكسيموس، وأما بابيان وبلبان فلم يملكا إلّا بعض أشهر وقتلهما رؤساء الحرس سنة ٢٣٨م وأقاموا مكانهما كورديان الثالث ابن بنت كورديان الأول وعمره ثلاث عشرة سنة. ورتعت المملكة في أيامه بالراحة والأمن وتزوّج سنة ٢٤١م ابنة ميزيتا قائد الجيش، وانتصر على الألبنين (شعب من التتر) والغطط (شعب من البربر أصله من سكندينافية انتصروا على البندالة وأقاموا نحو القرن الثالث في جنوبي روسيا وسموا استروكوت أي الغطط الشرقيين وفيزيكوت أي الغطط الغربيين بالنظر إلى موقع إقامتهم في البلاد التي حلوها ويسميهم المؤرخون العرب القوط) سنة ٢٤٢م. على أنه قضى سنة ٢٤٣م متسمماً على ما يقال بسعي نائبه فيلبوس العربي. وقد عثر ودينكتون على خط في بترا عد ١٩٠٨ مؤداه أنّ أهل هذه المدينة أقاموا نصباً لسلامة الملك مرقس انطونيوس كورديان في سنة ١٣٤م في تاريخ بترا يوافق سنة ٢٣٩م، وقد كان ملك سنة ٢٣٨م كما رأيت. وقد وُجد أثر آخر لتكرمته عند ينبوع ماء في قرية عيون بحوران خط ١٩٦٨، ووُجد خط في عطنى احدى قرى دمشق منبئ بإقامة أثر نذراً لسلامة الملكة سابينا اغوسطا قرينة الملك كورديان (خط ٢٥٦٢ من خطوط ودينكتون).

أما فيلبس العربي هذا فسمي مرقس يوليوس فيلبس، وكان مولده بصرى ببلاد حوران التي كان الرومانيون جعلوها قصبة الإقليم العربي فهو سوري. إنّ ودينكتون

عند ذكره خط ١٩٠٧ الذي عثر عليه في كنيسة بصرى حاوياً اسم فرونتو و
والياً في العربية في النصف الأول من القرن الثاني استطرد إلى الكلام في تـ
بصرى فكتب فيه فصلاً مشبعاً نلخّصه هنا قال: «إنّ صورة هذا الاسم السامية
خطّت في بعض الخطوط التي عثر دي فوكوى عليها في تدمر مطابقة لاسـ
بالعربية بصرى أو بصرا كما سماها أبو الفدا في تاريخه، على أنّ البحث عما
كانت بصرى هذه وباصر أو بصر. المذكورة في «الكتاب» واحدة أنشأ خلافاً
أقوال العلماء فذهب اوساييوس والقديس ايرونيموس (في كلمة باصر) أنّ بصـ
في بلاد العرب هي باصر مدينة اللجا في شرقي الأردن في نصيب سبط رأو
ويرد على هذا القول بأنّ نصيب سبط رأوبين لم يكن ممتداً إلى الشمال ـ
يشمل بصرى لأنّ نصيب رأوبين، كان فيه ميدبا وحشبون ونصيب جاد ومنسى
يكونا يتجاوزان بحيرة طبرية والجولان وبصرى بعيدة عن هذه المواقع».

ثم إنّ بصرى الوارد ذكرها في نبوّة ارميا (فصل ٤٨ عد ٢٤) بقوله «قريـ
وبصرة وسائر مدن ارض مواب» لا يمكن أن تكون بصرى هذه لأنّ أرض
ومواب لم تكن تمتد شمالاً حتى تدخل فيها بصرى وكذلك قل في بصرة وبـ
الوارد ذكرهما في سفر المكابيين الأول (فصل ٥ عد ٢٦ وغيره) بقوله «إنّ كثـ
منهم قد حصروا في بصرة وباصر». لأنّ الكتاب صرّح هناك أنّ هاتين المدـ
كانتا في جلعاد أي في الجبال الممتدة في شرقي الأردن لا في السهول كما
بصرى. وصرّح أيضاً أنّ يهوذا المكابي كان حليفاً وصديقاً للنبطيين فلا يأخذ مـ
تخصّهم. واختتم ودينكتون كلامه بأنه لا يظن أنّ بصرى كانت في أيام
إسرائيل بل هي أحدث عصراً منهم. وإن أقدم مؤلف ذكرها إنما هو شيشرون الـ
ذكر في سنة ٥٤ ق م أنّ شخصاً من بصرى راسل الرومانيين، وربما كان ذلك
أيام عروة بمبايوس. وإنّ هذه المدينة بناها النبطيون وهي في حوران، وأنه وجد هـ
خطوطاً كثيرة نبطية وكثيراً من سكة الملوك النبطيين من نحاس. وإنّ هذه المـ
أخذها كورنيليوس بلما قائد جيش ترايان وأقام فيها والي هذا الإقليم من المملـ
وقد جمّلها هذا الملك بأبنية وسماها في بعض سكاته بصرى الحديثة الترايا
وجعلها اسكندر ساويروس جالية رومانية. وكان منها الملك فيلبس المذكور وبـ
أسقفها الآتي ذكره، وعقد فيها المجمع الذي شهده اوريجانس كما سترى. على
كون الملك فيلبس وُلد في بصرى غير مجمع عليه، فربما يكون وُلد في شـ

(شهبا) التي حقق ودينكتون في خط ٢٠٧٢ أنها فيليبيون القديمة في اللجا. وقال أنّ فيلبس وُلد فيها أو في قرية أخرى من اللجا قريبة منها، ولذلك جعلها مدينة وسماها باسمه وخوّلها حق الجاليات الرومانية. ويظهر من الخط المذكور أنّ أباه كان يسمى مارينوس. وعن الخط ٢٠٧٧ أنه كان له أخ اسمه برسيكوس قد أقامه فيلبس أميراً على جنود المشرق، ولكن يظهر من خط في روما أنه كان في عهد هذا الملك رئيساً للحرس يسمى برسيكوس، وكان قبلاً والياً على ما بين النهرين فيُحتمل أنّ برسيكوس أخا فيلبس سماه أخوه بعد تسنّمه أريكة الملك رئيساً للحرس بعد أن كان والياً في ما بين النهرين كما يظهر من الخط ٢٠٧٧ في شهبة. ويظهر من خط عُثر عليه في دمر عد ٢٥٦٢ أنّ فيلبس كان له ابن سمي قيصر، وتاريخ هذا الخط سنة ٢٤٥م. وحقق ودينكتون في كلامه في الخط ٢٤٦٣ أنّ تاريخ بصرى يبتدي سنة ١٠٥م إذ فتح كرنيليوس بلما هذه البلاد وقرض دولة النبطيين، وبقي التعامل بهذا التاريخ إلى ما بعد ظهور الإسلام.

وترقّى فيلبس بشجاعته إلى المناصب الأولى في الجندية واشتهر ببسالته في حرب الرومانيين مع الفرس، وبعد مقتل كورديان في ما بين النهرين لُقّب عاهلاً سنة ٢٤٤م. وصالح الفرس تاركاً لهم ما بين النهرين، وعاد إلى روما سنة ٢٤٧م ليحتفل بمعظم الحفاوة بعيد الألف سنة لتأسيس روما. وثار بعض المزاحمين له منهم يوتيبيان في سورية، وباكتيان في فرنسة، وماريوس في ميسيا من آسيا الصغرى. فأرسل فيلبس داشيوس لمحاربة ماريوس، فسماه جنوده ملكاً. وعاد على فيلبس فقتله في فرونا (بايطاليا) سنة ٢٤٩م. ويُظنّ أنّ هذا الملك كان مسيحياً. وكتب العالِم اوب مقالة في أنّ الملك فيلبس كان مسيحياً. وقال اوسابيوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢٤٦م أنه أول من صار مسيحياً من جميع الملوك الرومانيين. وجاء في تاريخ روهربخر في كلامه في القديس ايبوليطس «أنه كتب رسالة أو إرشاداً إلى الملكة ساويرا، ويظن بصواب أنها امرأة الملك فيلبس. وفي هذه الرسالة على ما يظهر من فقرة منها ذكرها توادوريطس يتكلّم ايبوليطس في سرّ التجسّد وقيامة الموتى. فجاء ذلك مثبتاً ما رواه بعض القدماء أنّ الملك فيلبس وأسرته كانوا مسيحيين. أما داشيوس فسمي ماسيوس كوينوس ترايانوس، وكان وُلد سنة ٢٠١م في آسيا الصغرى، وصار والياً على ميسيا وارتقى المناصب في طريقة الجندية، وأقامه

الجنود ملكاً سنة ٢٤٩م وأقرّ الرومانيون بملكه بعد قتله الملك فيلبس. واشتهر بانتصاراته على الغطط الذين كانوا دخلوا المملكة الرومانية وأكثروا فيها من المضار، وظلّ إلى أن قُتل في حربٍ أخير معهم في تراسة سنة ٢٥١م. واشتهر بإثارته الاضطهاد على المسيحيين وقد ابتدأ به في السنة الأولى لملكه.

وخلفه غلّوس وكان قائداً للجيش في ميسيا، ويقال أنه هو الذي غدر بالملك داشيوس وقتله في حربه مع الغطط، وجعل الجنود يسمونه ملكاً في سنة ٢٥١م المذكورة. واشترك في الملك معه أولاً اوسيليان بن داشيوس لكنه ما لبث أن قتله، واشترك مع ابنه فوليسيان في الملك وابتاع من الغطط صلحاً مذللاً ومعيباً له. وزاحمه اميليان في الملك فساق جنوده عليه فقلبوا لملكهم المجن وقتلوه في اميريا في ايطاليا ٢٥٤م. وخلفه اميليان المذكور وسمي اميليوس اميليانوس وكان مولده في موريتانيا سنة ٢٠٦م، ونُصب والياً على ميسيا في أيام غلّوس سنة ٢٥٣م، فلم تقرّ له الندوة بالملك بل أقرّت به لفالريان، فانقلب عليه الجنود وقتلوه سنة ٢٥٤م.

أما فالريان فسمي ليشينيوس فالريانوس، وكان قد وُلد سنة ١٩٠م وتقلّب في مناصب الجندية وأقامه جيش فرنسا وجرمانيا ملكاً بعد مقتل غلّوس سنة ٢٥٣م، وشارك ابنه غاليان في الملك وانتصر على الغطط وعلى اذينة ملك تدمر. وزحف لمحاربة سابور ملك الفرس، وبعد استظهاره عليه انكسرت جنوده في جانب الرها بخيانة مكريان أحد المتقربين إليه سنة ٢٦٠م، وأُرغم أن يستسلم إلى سابور فأماته بعد أن عذّبه سنين عديدة. وفالريان من جملة الذين أثاروا الاضطهاد على المسيحيين سنة ٢٥٧م. وبعد وفاة فالريان خلفه ابنه غاليان وسمي ليشينيوس اغناطيوس غاليان وكان وُلد سنة ٢٣٠م وشاركه أبوه في الملك سنة ٢٥١م. ولما أسر سابور أباه سنة ٢٦٠م لم يحفل بنجاة أبيه من الاسر بل صرف جهده ليقرّ له بالملك، فأقرّ به كل إقليم لواليه، فكان حينئذٍ ما يسميه المؤرخون حكومة الثلاثين مستبداً. وحاول غاليان على ضعفه وانكبابه على ملاذه أن يخضعهم لسلطته فانتصر على انجانوس في ايليريا وعلى بسطون في فرنسا. ولكن قتله أحد المتآمرين عليه إذ كان محاصراً اورولس في ميلان سنة ٢٦٠م . وقد كان الفرنك سنة ٢٥٥م حملوا على المملكة فاضطرّ إلى مناصبتهم العداء وأن يدفع الغطط عن داشيا. وأما الثلاثون مستبداً المار ذكرهم فالمعروف من اسمائهم سبعة عشر، ولكن سماهم

المؤرخ ترابليوس يوليوس ثلاثين فأخذوا عنه تسميتهم كذلك وأخضعهم الملوك على التعاقب. وعند موت غاليان نادى الجنود بكلود الثاني ملكاً سنة ٢٦٨م وسمي مرقس اورليوس كلود، ولُقّب بالغططي لانتصاره على الغطط، وكان وُلد في دلماسيا سنة ٢١٥م وأخضع بعض المستبدين المذكورين وطرد الالمان من تخوم ايطاليا. وظهر على الغطط سنة ٢٦٩م ثم مات بالوباء بعد أن ملك سنتين فقط ولُقّب بترايان الثاني لشجاعته وعدله وحلمه.

وخلف كلود الثاني كنتلوس أخوه وسمي مرقس اورليوس كلود، أقامه الجيش الذي كان يقوده في اكويلايا عند وفاة أخيه، ولكن انقلبوا عنه عندما عرفوا بانتخاب اورليان في روما فانتحر هو ولم يملك إلّا سبعة عشر يوماً.

وكان كلود الثاني عيّن اورليان للخلافة له، فخلفه سنة ٢٧٠م وسمي لوشيوس دوميسيوس اورليان، وكان وُلد في آسيا الصغرى سنة ٢١٢م وأبوه من عامة القوم، فترقى بحذاقته في المناصب حتى سماه فالريان قنصلاً سنة ٢٥٨م، واستظهر على الغطط والبندالة وغيرهم وقهر زينوبية أي زبيدة ملكة تدمر سنة ٢٧٣م وأخذها أسيرة إلى روما. وأخضع سنة ٢٧٤م أيضاً تتريكوس الذي كان قد استبدّ في حكومة فرنسا سنين عديدة وقوبل بحفلة الإنتصار عند عوده. واستتبّ له الأمر وجمّل روما ببعض البنايات، وحط من الأموال الأميرية وأجرى إصلاحات نافعة وسنّ شرائع محكمة إلى أن غدر به أحد معتقيه سنة ٢٧٥م.

وخلف اورليان تاسيت وسمي مرقس كلود تاسيت أجبرته الندوة على قبول الملك في سنة ٢٧٥م وعمره سبعون سنة، فنجح وأفلح ودفع حملات الغطط والأنيين وانتصر على الفرس وهمّ بأن ينظّم الجندية، ولكن فاجأه غادر فقتله في نيسان سنة ٢٧٦م. وكان يدّعي أنه من نسل تاسيت المؤرخ وأقام تمثاله وتآليفه في المكاتب، وبعد مقتله خلفه فلوريان وكان أخا تاسيت لأمه وسمي مرقس انطونيوس فلوريان، وأقرّت له الندوة بالملك على أنه لم يملك إلّا شهرين وهاج عليه جنوده فقتلوه إذ كان زاحفاً إلى بروبس الذي أقامه الفيلق الذي في سورية ملكاً.

إنّ الجنود المخيمين في سورية لما بلغهم خبر مقتل تاسيت أقاموا بروبس ملكاً وسمي مرقس اورليوس بروفس. وكان قد وُلد في آسيا الصغرى سنة ٢٣٢م وترقى بشجاعته في المناصب في أيام اورليان وتاسيت. وبعد أن استوى على أريكة الملك

دفع الصرمطيين (قوم منشأهم البلاد الواقعة بين البلتيك وبحر قزوين في جوار التتر) وأمن مصر ونجى فرنسا من غزوات الجرمانيين فيها، وذلّل ساتورنينوس وبونوزوس وبروكولس من المستبدين المذكورين. ودخل إلى روما بحفلات النصر سنة ٢٨١م وكان يشغل الجنود بالأشغال النافعة للجمهور ليقيهم سوء غائلة البطالة. فجفّف بعض المستنقعات وافتتح طرقات وأقنية وكان يناظر بنفسه على تلك الأعمال وحسب الجنود تلك الأعمال حاطّة من قدرهم فثاروا عليه وقتلوه سنة ٢٨٢م، واستحقّ أن يلقّب بروبس أي التقي أو الفاضل وأجرى إصلاحات عديدة.

وخلف بروبس في الملك كاروس وسمي مرقس اورليوس كارس وكان رئيس الحرس ووُلّي القضاء في أيام بروبس فاختاره الجنود خليفة له بعد مقتله، واستردّ ما بين النهرين من الفرس مع سلوقية وقطيسفون، لكن عاجلته المنية في هذه المدينة سنة ٢٨٣م. قال بعضهم انّ صاعقة انقضّت عليه، وقال غيرهم أنّ بعض الخونة اغتاله. وخلفه بعد موته كاران ونمريان ابناه اللذان كان قد سماهما قيصرين فاقتسما الملك بينهما، وكان نصيب كاران ايطاليا وايليرية وفرنسا واسبانيا وافريقية وكان قاسياً لكنه شجيع، فاستظهر على يوليانس الذي كان قد استبدّ في حكومة بنونيا وظفر أولاً على ديوكلتيان، لكن تغلّب ديوكلتيان عليه في ميسيا. وبعد انكسار جيشه فتك به ذووه سنة ٢٨٥م. وأما نمريان أخوه فقتله ألبر صهره بعد ثمانية أشهر من ملكه فقتل ديوكلتيان ألبر المذكور.

أما ديوكلتيان المذكور فوُلد في ديوكلية في دلماسيا سنة ٢٤٥م ويقال أنه كان ابن رقٍ فدخل الجندية وسمي في أيام بروبس قائداً لجيش ميسيا، ثم سمي قنصلاً سنة ٢٨٣م وسماه نمريان رئيس خدمة القصر سنة ٢٨٤م، وقتل بيده قاتل نمريان كما مرّ، ونودي به ملكاً في نيكوميديا بالرغم من معارضة كاران أخي نمريان. وبعد مقتل كاران استتبّ له الملك واستبدّ به إلى أن شارك فيه سنة ٢٨٦م مكسيميان هرقل وأمّره على الجيش في المغرب فأمن بريطانية التي كانت ثائرة، ورأى ديوكلتيان الملك فسيح الأرجاء منبسطاً فعوّل أن يقسمه بين أربعة أمراء. ففي سنة ٢٩٣م سمي كالر وقسطنس قيصرين بعد أن تبناهما وزوّج كالر ابنته وسمى نفسه ومكسيمياس عاهلين، وحفظ دوكلتيان لنفسه تراسة وآسيا ومصر، وجعل نكوميدية عاصمة له. وقد ذكر ودينكتون خطأً عثر عليه في تدمر ٢٦٢٦ كتب فيه لمصلحي العالم المدافعين عن النوع البشري مولينا ديوكلتيان ومكسيميان العاهلين الظافرين

وقسطنس ومكسيميان (كأنه لقب كالر) القيصرين الشريفين بنيت هذه القلعة بعناية سوسيانس هيادكليوس الوالي». وقد حارب ديوكلتيان الفرس وانتصر عليهم بمعاونة كالر له سنة ٢٩٤م وأخذ منهم بلاد ما بين النهرين العليا وأخضع مصر الثائرة عليه. وأراد أن يغيّر نظام المملكة وأدخل فيها عادات الملوك الشرقيين من وضع تاج على رأسه، وحظّره أن لا يكلمه أحد إلّا وهو جاثٍ ولا يكلمه إلّا بضمير الغيبة، وفصل بين المناصب الجندية والمناصب الملكية وجعل رئاسة الحرس لأربعة رؤساء. وزاد عدد الأقاليم من سبعة وثمانين إلى مئة وعشرين إقليماً. وكان ديوكلتيان يأنف من الاضطهاد ومع ذلك حمله كالر على إبراز منشور سنة ٣٠٣م نهى به المسيحيين عن الاجتماعات العامة. وكان يعاقب المخالفين بالموت واضغطت المشاق ديوكلتيان فاعتزل الملك سنة ٣٠٥م، ومات في سالون بدلماسيا وكانت أطلال قصره فيها باقية إلى القرن السادس عشر.

الفصل الأول

ما كان في سورية من الأحداث في أيام هؤلاء الملوك

عد ٥٤٢

ما كان فيها من الأحداث في أيام كركلاّ وماكرين وأليوكبل

لم نعثر إلى الآن على شيء من الأحداث التي كانت في سورية على عهد كركلاّ إلّا تكملة أبنية أبيه في بعلبك، فهو الذي انشأ الرواق والعرصة أمام هيكل المشتري على ما روى دوري في تاريخ الرومانيين عن ديون كاسيوس المعاصر لهذا الملك.

أما ماكرين فكان قد شخص إلى المشرق ليبكت ملك الفرس الذي كان استحوذ على ما بين النهرين، فلم يستطع إزاحته عن هذه البلاد بل صالحه وأطلق الاسرى الذين كان قد أخذهم من جنوده ودفع إليه خمسة عشر مليوناً من الدراهم، فارتضى بها ارتابان ملك الفرس، وتخلّى عن البلاد. وذلّ ماكرين أيضاً لملك الأرمن المسمى تريدان وردّ عليه أمه التي كان كركلاّ قد سباها، وتخلّى له عن بعض الأرضين في الكبادوك وأتى ماكرين يقيم في انطاكية، وكتب منها إلى ذويه في روما يقول إنه لم يقم في انطاكية ليشاهد الراقصين ويسمع المغنين بل ليردّ الجنود من المشرق الذي أمّنه إلى المحال التي استؤتوا منها.

وكان من وغادة هذا الملك أنه بعد وفاة دمنة الحمصية امرأة سبتيموس ساويروس وأم كركلاّ نفى إلى حمص أختها ميزا وبنتيها سومياس أم افيتوس باسيانوس وهو أليوكبل، وممّا أم اسكندر الذي صيّر بعد عاهلاً وسمي اسكندر ساويروس. وكانت هؤلاء النسوة ذكيات ماكرات وكنّ على جانب كبير من الثروة ولم يكن يذخرنَ المال في سبيل نيل المراتب، وكانت سومياس بديعة الجمال غير ضنينة بشرفها، وكان اتصال نسبهنّ بالاسرة الملكية معاوناً لهنّ على الفوز برغائبهنّ، ولم يكن باقياً من أسرة باسيانوس كاهن هيكل حمص إلّا هؤلاء النسوة الثلاث والابنان المار ذكرهما وسومياس وممّا أرملتان، وكنّ مجاورات هيكل الشمس في حمص، وكان السوريون يجلّون هذا الهيكل عظيم الاجلال ويقرّون له بحق الملجأ بمعنى أنّ من لجأ إليه لم يمسه أحد بضرّ، فاستودعنَ مالهنّ وانفسهنّ لهذا المعبد وأرسل ماكرين بوغادته فرقة من الجنود تقيم حذاء هذا الهيكل ومفاتيحه بيد ميزا وابنتيها اللاتي تعمدنَ حط العاهل وتنصيب غيره، وأقمنَ أكبر الابنَين وهو افيتوس كاهناً في هيكل حمص وارثاً لأسرة باسيانس، وختّنه عملاً بعادة البلاد ومنعنه من تناول لحم الخنزير، وتظاهرنَ بالتقوى والورع حتى وجد خط قديم يسمى «ميزا الكليّة القداسة». ووُجدت مسكوكات تمثل سومياس بالزهرة الكوكب المعروف. وبما كانت تراسل اوريجانس على ما روى اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢١) وكان لافيتوس باسيانس حينئذٍ من العمر أربع عشرة سنة وكان جميل المنظر يتّشح ببرفير معلّم بالذهب، ويخرج على رأسه إكليل مرصّع بالحجار الكريمة، وإذا شخص إلى الهيكل ليكمل الخدم الكهنوتية، شخصت الأبصار إليه وتطاولت الأعناق وازدحمت الأقدام لرؤيته. وكان الجنود المخيّمون في جانب المدينة يأتون ويعجبون

بالحبر الشاب ويجلّونه. وكانت العامة تسمّيه أليوكبل باسم معبودهم. ويدعوه بعض الحشم في قصر أمه ابن كركلاّ. ووُجد اسمه كذلك في أحد خطوطه فما كانت هؤلاء النسوة يبذرنه من المال ويبدينه من المواعد، حمل كل راغب في نفعه على التصديق. وكانت ميزا تؤثر التاج الملكي على كل مال. وفي حكم سومياس أنّ البرفير يغطي كل عيب والجنود يؤثرون نفعهم المالي على شأن مملكتهم.

وهذا مثال لممّا أم اسكندر ساويروس مأخوذاً عن تمثالها في متحف اللوفر.



ففي ذات ليلة أتى أليوكبل إلى معسكر حمص ومن ورائه مركبات تقلّ أكياساً من الذهب، ولم يسفر النهار إلّا ونودي به ملكاً، وسمي مرقس اورليوس انطونينوس أليوكبل. وكان ذلك في السادس عشر من أيار سنة ٢١٨م. وكان اولبيوس يوليانس أحد الحرس الملكي في جوار حمص، فأسرع مع بعض الفرسان إلى المعسكر وحاول أن يفتح أبوابه، فدفع وهاجم ثانيةً فلم ينل بغية، ولما رأى جنود يوليانس ارفاقهم يرونهم من أعلى الاسوار من يسمونه ابن كركلاّ وأكياس الذهب التي أتت بها ميزا، قلبوا ظهر المجن لقائدهم وقتلوا رؤساءهم وانضمّوا إلى جيش أليوكبل وخفقت أعلام العسكريين معاً.

أما مكرين فلم يعتد لأول وهلة هذه الثورة إلّا حركة نساء ييسر له تخميدها دون تكلّف، وإذ وافاه رسول من معسكر حمص قائلاً أبشر فقد أتيتك برأس أليوكبل وطرح الرأس أمامه، فإذا هو رأس يوليانس قائده، فأقلقت مكرين جسارة الثائرين عليه بإرسال هذا الرأس، ودُهش بيسالة هذا الجندي الذي أحضره ولجأ إلى الوسيلة الكبرى للنجاة وهو الذهب، فوعد كلاً من جنوده بخمسة آلاف درهم ينقد كلاً منهم ألفاً منها معجلاً بحجّة أنه يريد أن يمنح ابنه لقب اغوسطس، فلم ينجع بالجنود هذا السخاء الناشيء عن الخوف بل أخذ بعضهم في كل يوم يغادرون محلاتهم ويأتون معسكر حمص. وكانت فرقة في اباميا فأتت برمتها وانضمّت إلى عسكر أليوكبل حتى أصبح جيشه يطمع بالإستظهار على مكرين والتقى الجيشان على تخوم سورية وفينيقية، وكان خصي لمّا اسمه كانيس أمّرته على جيش أليوكبل، فأخذ استحكامات حصينة للحرب، وتقدّمت ميزا وسومياس وأليوكبل في طلائع جيشهم ليزيدوه شجاعة، فتولّى الرعب مكرين وروّعه الصراخ والهتاف وخيانة بعض جنوده. فانهزم تاركاً رؤساء الجيش في الوقيعة يدافعون عن شرف جيشهم إلّا أنهم لما رأوا نذالة ملكهم وسمعوا مواعيد أليوكبل بأنه يُبقي كلاً منهم على مقامه وشرفه غادروا سلاحهم واستسلموا إليه فأصبح كاهن هيكل الشمس عاهلاً للرومانيين في ٨ حزيران سنة ٢١٨م. ويقال أنّ أليوكبل بنى ذكراً لانتصاره هذا مدينة شيتوبولي في فلسطين في محل عمواص على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون (في تاريخ سنة ٢٢٤م).

أما مكرين فأرسل مبشراً إلى انطاكية بانتصاره ولدى وصوله إلى ضواحيها جزّ

شعره وحلق لحيته وتنكّر وجدّ مسرعاً في طريق بيزنطية واوروبا، فجاوز آسيا الصغرى ولم يعارضه أحد، على أنّ مشقّة السفر واحتياجه إلى المال أجبراه أن يتوقف في احدى ضواحي خلكيدونية. وكتب رقعة إلى عمال الخزينة ليمده بمال فعرف وقبض عليه ودفع إلى جنود أليوكبل الذين كانوا يتتبعون خطاه منذ فراره من إنطاكية، وكان قد كلّف بعض الأمناء له أن يأخذوا ابنه إلى الفرس الذين كان قد حالفهم حديثاً. فأدرك فرسان أليوكبل الشاب قبل أن يجتاز الفرات، فقتلوه وبلغ الأب خبر مقتل ابنه وهو مسوق إلى الظافر، فطرح نفسه من مركبته فانحطمت كتفه فأكمل الجنود قتله وكان له من العمر أربع وخمسون سنة. ومن الملك أربعة عشرة شهراً ولا يُعرف لمكرين أثر إلّا قوس انتصار أقامه له أهل مدينة زانا في الجري لأنه كان من تلك الأنحاء، وعُثر على خط في تلك المدينة مؤذن بذلك.

ومن بعد ظفر أليوكبل هذا اتّخذ لنفسه كل الألقاب الملكية دون أن ينتظر أن تقرّه الندوة في الملك كما كانت العادة. وسافر من حمص مصطحباً معه الحجر الاسود الذي كان يعبد فيها كغيره من الحجارة في مدن أخرى في المشرق، وأتى انطاكية وأراد أن يجعل ما فيها غنيمة لجنوده، فافتدى الأهلون نفوسهم وأموالهم بدفعهم لكل جندي خمس مئة دينار، وأرسل من هناك رسائل إلى روما يعد بها أنه يدبر الحكم كمرقس اورليوس، ويهدّد كلاً من رجال الندوة إذا تشيّعوا لسلالة مكرين.

ودخل أليوكبل روما متشحاً بثوب من البرفير معلّماً بالذهب، وبجيده عقد من جواهر كريمة، ووجهه مخضب على عادة الشرقيين، وميزا وبنتاها من ورائه مع غيرهنّ من النساء. ومن أعماله في روما أنه أقام ندوة للنساء وجعل أمّه رئيسة لهذه الندوة التي كان من خصائصها أن تعيّن الأزياء ومقدار الذهب والحجار الكريمة التي تتحلّى بها كل امرأة بحسب حالها، وكيفية زين الخيل والمركبات إلى غير ذلك. وأما ممّا أم اسكندر فكانت معتزلة مهتمة بتربية ابنها، وكان لهذا الملك خلاعات وفظائع تحطّ من شرفه وقدره، على أنّ إخلاص الجنود له في الطاعة وبعض بواكير أعماله أكسبته هيبة وسلطة وانبسط الأمن في المملكة، وتهيّبه الجرمانيون فلم يتخطّوا حدود المملكة. وكان للفرس مشاغل تصدّهم عن السطو على الرومانيين، وأما سكان روما فكانوا يشمئزون من فظائع أليوكبل ويأنفون من تقديم الحجر الاسود

على آلهتهم. وكان الملك يبني له في كل سنة هيكلاً في ضواحي روما ينقله إليه بمعظم الاحتفاء، وكان يأذن لأصحاب كل مذهب أن يصنعوا طقوس مذهبهم في هيكل إلٰهه يهوداً كانوا أو سامريين أو مسيحيين أيضاً، قاصداً أن يعرف كهنة أليوكبل سر كل مذهب، وزاد على ذلك أنه دفع أعظم مناصب المملكة إلى سفلة القوم.

أما ميزا جدته فكانت ترى عاقبة تصرّفه وخيمة تعود عليه بالوبال، فحملته على العزم بأن يسمي اسكندر ابن خالته قيصر، ويتّخذه ابناً له فيعاونه في أعياده وفي خدمة الآلهة وتدبير المملكة. ولم يكن لاسكندر حينئذٍ من العمر إلّا إثنتا عشرة سنة، لكنه كان ذكياً ليّن العريكة طلِق الوجه حزوماً حتى كانت جدته وأمه تتوقعان منه نجاح أسرتهما. وأقامت له أمه مهذبين يلزمونه دائماً ويعصمونه من كل فساد ورذيلة. وأكثرت من عطاياها إلى الحرس فمال الجمهور إليه وسخط عليه أليوكبل، وأخذ يبحث عن ذريعة يهلكه بها. وكانت ممّا يقظة على سلامته تمنعه من كل طعام أرسله الملك إليه. وأقامت له خداماً تثق باخلاصهم فأشاع يوماً ما سنة ٢٢٠م خبر موت اسكندر ليعلم ما يعمله الجنود إذا قتله، وعرفوا أنّ الخبر غير صادق فصاحوا طالبين أن يروه واستدعوا الحرس الذين كانوا يرسلونه كل يوم إلى القصر وأقاموا في معسكرهم مهددين، فاضطر أليوكبل تخميداً لثورتهم أن يمضي مع اسكندر ليروه، وتبعتهما أمه وممّا أم اسكندر تثير كل منهما الجنود على واحد منهما فعلا الهتاف واتصل الحشد إلى العراك، فقتل الجنود أصدقاء أليوكبل ووزراءه وسومياس أمه نفسها واضطرّ أليوكبل أن يختفي في مرحاض المعسكر. فقُتل هناك وجُرّت جثته في الاسواق، ثم طُرحت في نهر التيبر وألحقوا به إلٰهه أي الحجر الاسود. وكان ذلك في ١١ آذار سنة ٢٢٢م، ونادى الجيش بابن خالته اسكندر ملكاً وسمي مرقس اورليوس اسكندر. وزاد الجنود عليه اسم ساويروس ذكراً لمن كان بعضهم يظنه جداً له. فكان هذا الملك الشهير من سورية أيضاً. انتهى ملخّصنا عن فيكتور دوري في تاريخ الرومانيين عن ديون كاسيوس وهروديان وغيرهما. ومن الآثار الخط الذي عثر عليه ودينكتون في قنوات بحوران عد ٢٣٣٢ مؤذن بإقامة أثر لسلامة الملك أليوكبل وجدته يولية ميزا. وقال ودينكتون أنّ اسم ميزا كُتب غالباً في الآثار مع اسم أليوكبل حفيدها.

وإليك مثالاً للملك أليوكبل مأخوذاً عن أحد متاحف فرنسا.



عد ٥٤٣

ما كان من الأحداث في أيام اسكندر ساويروس

قلَّ ما كان من الأحداث في سورية في عهد هذا الملك، على أننا نطيل الكلام فيه لأنه سوري ، ونرى السوريين دبروا شؤون المملكة في ذلك العصر نيفاً وأربعين سنة متتالية، فكل ضليع بالتاريخ يعلم ما كان لدمنة ابنة كاهن حمص عقيلة الملك سبتيموس ساويروس من الكلمة النافذة بل من السلطة القاطعة عند هذا الملك، وما كان لها من الاجتماعات بالفلاسفة وأعيان المملكة، حتى كان لها منتدى خاص لذلك. وإنّ بابينيان البيروتي واولبيان الصوري أو البيروتي ويوليوس بولس الصوري كانوا رؤساء الحرس عند هذا الملك، وكان لهذا المنصب المقام الأول في المملكة

بعد الملك، إذ كان من خصائصه الرياسة على أخصّ الجنود المقربين إلى الملك وحرسه والقضاء في جميع الدعاوى الجزائية والمدنية أيضاً. وبعد وفاة سبتيموس ساويروس وخلافة كركلاّ وجيتا ابنَيه له، كان لأمهما دمنه النفوذ الكبير في تدبير المملكة. وبقي بعض الرؤساء المذكورين على رياسة الحرس في أيام كركلاّ. وإن نفى أليوكبل بعضهم فقد استرجع اسكندر ساويروس المنفيين دون إبطاء كما ذكرنا. وفي أيام أليوكبل كان تدبير المملكة بيد ميزا جدته أخت دمنه وبيد أمه سومياس وخالته ممّا بنتَي ميزا. ولما استوى اسكندر على أريكة الملك كانت أمه مدبرة له وللملك يساعدها في ذلك اولبيان البيروتي رئيس الحرس. واستمرّت الحال على ذلك إلى وفاة هذا الملك سنة ٢٣٥م وقد رأيت أنّ سبتيموس ساويروس ملك سنة ١٩٣م فتكون هذه المدة سنة ٤٢ تخللها مدة ملك مكرين ١٤ شهراً وفي النيف والأربعين سنة كان تدبير المملكة بيد السوريين.

وكانت ميزا جدة الملك اسكندر معروفة بالحكمة والسداد وأمه ممّا مشهورة بعلو المدارك وحسن الآداب، فأقامت لابنها أفقه المعلمين وأفضلهم حتى قال هروديان (ك ٦ فصل ١) إنه كان لهذا الملك عند استوائه على العرش كل ما يليق بملك من وزراء وحاشية وحشم، لكن كان مدار تدبير المملكة موكولاً إلى الأميرتَين جدته وأمه، وصرفتا قصارى جهدهما في العود إلى الخصال الممدوحة والرصانة القديمة، فانتخبتا من رجال الندوة ستة عشر رجلاً ممّن حنّكهم الدهر وشهدت لهم العامة بالفضل، وألفتا منهم ديوان مشورة للملك فلم يكن أمر ينفذ إلّا برأيهم. فسُرّ الشعب والجنود والندوة بهيئة هذه الحكومة وحظّرت ممّا أن يدخل قصر ابنها كل من كان معروفاً بالسفه أو سوء الخصال لتقيه التلطّخ بالرذايل وركب مطية الغرور خيفة أن تسوقه إلى ذلك السلطة المطلقة واراغة الشبيبة وعشرة هؤلاء. وفي الجملة لم تأل جهداً في جعل ابنها صالحاً للملك واستدعت إليها اولبيان ابن وطنها الفقيه الشهير وأقامته رئيساً على الحرس متولياً القضاء. وكان هذا المنصب يجعله الثاني بعد الملك ولكن كان المقام الأول لاولبيان بالنسبة إلى سن الملك، فلم يكن أحد يقابل الملك بغير حضرته، وهو كان يرفع إليه دعاوى الناس ويلقنه كيف يتصرّف بها. وعليه فكان اولبيان مدبراً أمور الملك بجملتها، فانبسطت العدالة وعمّ الأمن والراحة وكان كل من أثقل الشعب أو اعتسف أو جار في القضاء لقى جزاء عمله وعوقب بما جنت يداه، فلم يكن من يهضم حقه أو يحكم عليه دون مرافعة دقيقة.

وأصلح كثيراً من الشرائع وعدّل بعضها وفاز بتمام الحرية كل من عُرف من الرعية بالطاعة وحسن السريرة. وأقام لجنة مؤلفة من أربعة عشر قنصلاً تقضي مع والي روما في جميع الدعاوى في الأربعة عشر حياً من المدينة. فكان ذلك مجلساً بلدياً لعاصمة الملك مانعاً من استبداد واليها إلى غير ذلك من الرسوم العائدة لخير المملكة وتحبيب الملك إلى الشعب. وقد قال كاتب ترجمة هذا الملك أنه كان من أقلّ الملوك تمسكاً بالوثنية، وكأنه مسيحي بما كان يبدي من حميد سجاياه وحسن أدابه والإقتصاد في عيشه وملبسه حتى كان نافعاً بمثله أكثر من نفعه بسننه. وقد كتب على باب قصره ما ورد في الإنجيل: «لا تصنع بغيرك ما لا تريد أن يصنعه غيرك بك». وكان يمضي في كل يوم إلى المحل المقامة فيه صوَر من كان يسميهم المحسنين إلى الانسانية من أمراء وفلاسفة ومُنشئي ممالك أو ديانة. وكان يُكثر المطالعة في كتاب أفلاطون في الجمهورية، ومقالات شيشرون في الفروض، ورسائل أوراس ليقتبس منها قواعد يستسير بموجبها. وكان كل سبعة أيام يمضي إلى الكبيتول ويزور معابد المدينة، ولم يكن يكثر من التقادم إليها بل كان يقول أنّ الآلهة يسرّون بممارسة الفضائل ولا يحتاجون إلى الذهب، لكنه كان جوّاداً على الفقراء وأصدقائه ومن أتمّ فروضه من عماله. وزاد الضرائب على مصنوعات البذخ وعلى صانعي الحلى الذهبية والفضية والأفرية، وحطّ من الخراج على غيرها. وكان يتأوه لو أمكن إلغاء الأموال الأميرية برمتها، ومنع المتمولين من أن يقرضوا مالهم بأكثر من ثلاثة في المئة. ووضع نظاماً على الأزياء وعلى ملابس الصيف والشتاء ليكتفي كل من الرعايا بما تمكنه منه حالته. ولما كان هذا يشتمّ منه رائحة الصبوة أوقف اولبيان وبولس مدبراه بعض هذه المراسيم، وكان إذا أراد أن ينصب عاملاً أذاع اسمه وكلّف الأهلين أن يعلموه بما إذا كان من اختاره ارتكب جناية أو أقدم على ما يجعله غير أهل للمنصب. وإنّ من افترى كذباً على أحد هؤلاء يعاقَب شديد العقاب إن لم يثبت شكواه بالبيّنة القاطعة. وقد مرّ أنه وضع صورة المسيح وصورة ابراهيم بين صوَر آلهة الوثنيين ومشاهيرهم. على أنّ بعض المؤرخين يشكون هذا الملك بأنه لم يكن شديد العزيمة قوي البأس. على أنّ لمبريد قال في ترجمة هذا الملك «إنّ الجنود سمّوه ساويروس أي صارماً أو قاسياً لصرامته على الجنود، ومما أورده من الأدلّة على ذلك أنّ الشعب كانوا عند ممرّ الجنود في الاسواق يتراكضون لرؤيتهم لتهيبهم الجنود كأنهم رجال الندوة. ومما قاله أنّ أحد رجال الندوة أتى يوماً

يحيي الملك وهو في الإسطبل فصاح به بقول شيشرون في كاتلينا «يا للزمان ويا لسوء الخصال أيحيى أو يأتي إلى الندوة». ومن الآثار الدالة عليه في سورية الخط ٢١١٤ الذي عثر عليه ودنيكتون في العيت في البثنية وقد كُتب فيه: «في سنة ١٣ لاسكندر ساويروس بنى ادورروس وفاروس هذا الصرح وكان الوالي اركليتوس». ومن التاريخ بسني الملك كسائر خطوط البثنية وحوران في القرن الثاني وبعض الثالث يظهر أنّ تاريخ بصرى لم يكن استعماله حينئذٍ عاماً.

وحصلت بعض ثورات في ما بين النهرين وفي المغرب فتداركها بحكمة، ومن هؤلاء ثائر في روما استدعاه الملك وأخذه إلى الندوة وأشغله بأعمال فيها، ثم إلى المعسكر وعهد إليه بأشغال أخرى، فلم تمضِ أيام حتى أعياه التعب وأضرب عما كان يرغب فيه. وسأل الملك أن يعود إلى بيته ليعيش مستريحاً غفلا وأتى سورية لمحاربة الفرس الساسانيين وكانت أمه ممّا معه. واختلفت الروايات في ما كانت نتيجة الحرب، فمن قائل أنّ الحرب كانت سجالاً فلم يظفر أحد الفريقين بالآخر حق الظفر. والظاهر من خطبته في الندوة في ٢٥ ايلول سنة ٢٣٣م أنه انتصر على الفرس وأخذ منهم ثلاث مئة فيل، وقتل مئتي فيل، وأتى إلى روما بثمانية عشر فيلاً منها. وأنه استظهر على مئة وعشرين ألف فارس وقتل عشرة آلاف منهم وأخذ كثيرين من الاسرى وباعهم، وأنه استردّ كل البلاد الواقعة بين النهرين، وأنه هزم ارتحششتا ملكهم إلى آخر ما ذكره في خطابه من أخبار ظفره الذي عيّد الرومانيون له في اليوم التالي وأقاموا الملاعب.

وثار الجرمانيون وقطعوا الطريق المؤدية إلى فرنسا وتهددوا المملكة بالحملة عليها. ففي سنة ٢٣٤م سار بجيشه إلى فرنسا تصحبه أمه، وخيّم في مينس على الراين وعنى أولاً بأن يتنكب الحرب ويسترضي الثائرين بمال وهدايا، فعزّ على الجنود الرومانيين أن يعطي غيرهم هذا المال. وكان من قوادهم رجل اسمه مكسيمينوس من تراسة حمل الجنود على الإنقلاب على الملك عائثاً بينهم بأنّ مدة ملكه طالت وأنه استفرغ خزينته في نفقات الحرب الأخيرة، وأنّ أمه البخيلة لا تترك مفتاح ما بقي من المال، فألقى الجنود إليه ذات يوم البرفير الملكي وساروا به متدججين بسلاحهم نحو محلة الملك، فأمر الحرس بالقبض عليهم. ثم أضرب عن ذلك وقال دعوهم يدخلوا، فدخلوا وفتكوا به وبأمه في ١٩ آذار سنة ٢٣٥م.

فملك اسكندر ١٣ سنة ولكن لم يبلغ من العمر إلّا ستاً وعشرين، واعتباره للمسيح وابراهيم ومراسلات أمه واوريجانس وَقَتْ اليهود والمسيحيين في أيامه من كل اضطهاد. وكان خصام في أيامه بين كنيسة روما وبين بعض الخمارين على أرض فقضى للمسيحيين بها قائلاً الأولى أن تكون هذه الأرض محلاً للصلوة من أن تكون محلاً للدعارة. وقال لمبريد أنه عزم أن يبني هيكلاً للمسيح ليقيمه في مصاف الآلهة فصرفه عن عزمه الكهنة عالمين أنّ ذلك يؤول إلى هجر باقي المعابد. وزعم بعضهم أنّ أمه ممّا كانت مسيحية وأنكر ذلك غيرهم وقالوا بل كانت هائمة فقط بأن تقف على أسرار هذا الدين الحديث كما كان ابنها وكثيرون في ذلك العصر. انتهى ملخصاً عن تاريخ فيكتور دوري عن ديون ولمبريد وغيرهم من المعاصرين لهذا الملك أو القريبين من عصره.

دونك مثالاً للعاهل اسكندر ساويروس مأخوذاً عن تمثاله في متحف الواتيكان



عد ٥٤٤

استحواذ سابور ملك الفرس على سورية وانتصار اذينة امير تدمر عليه في أيام فالريان

إنّ سابور الأول ملك الفرس هو ابن ارتحششتا الأول، تسنّم اريكة الملك سنة ٢٣٨م إلى سنة ٢٧١م. وقد استحوذ اولاً على ما بين النهرين سنة ٢٤٢م إلى أن ظهر عليه كرديان ملك الرومانيين، على أنه أرسل بعض أعوانه فقتل كسرى ملك ارمينية وعاد إلى محاربة الرومانيين في أيام فالريان الملك فاستردّ ما بين النهرين. واستمرّ الرومانيون في مدينة الرها يصدّون الفرس عن التقدّم إلى آسيا الصغرى وسورية. وأتى فالريان إلى انطاكية وسار بجيشه إلى الرها التي كان الفرس يحاصرونها، فوجد أنّ الوباء أتلف كثيرين من جنوده، واستظهر عليه سابور في وقعة فعمد إلى طلب الصلح، وأبى سابور مقابلة رسله طالباً أن يتشافها فاغترّ فالريان ووافاه بقليل من الجند، فقبض عليه فرسان سابور في طريقه واشخصوه إلى ملكهم أسيراً سنة ٢٦٠م. وأقام فالريان في أسره ست سنين يقاسي مرّ التبريح والتذليل. هذا ما رواه زوزيموس (ك ١ فصل ٣) وعن زونارا (ك ١٢ فصل ٢٢) أنه أسر في أثر وقعة دارت عليه الدوائر فيها وثار جنوده عليه فاستسلم إلى سابور، فأذلّه حتى كان يطأ على ظهره ليتسلّق على جواده ثم أماته مسلوخاً. وبعد أن قبض سابور على فالريان زحف إلى سورية فافتتح انطاكية وانتهبها جنوده.

عمّ الرعب باقي الأعمال فدانت له، وقال بعضهم أنّ حمص وقاها إلٰهها من فظائع جنود سابور، وهذا محمول إما على أنه لم يطرق حمص إلّا شرذمة من الجنود الذين كان معظمهم في الشمال، إما على أنّ سابور احترم هيكل حمص سياسة لاجلال السوريين له. ثم انصرف سابور إلى آسيا الصغرى فافتتح كيليكية وأخذ قيصرية عاصمة الكبادوك وغيرها.

وبعد انصراف سابور عن سورية، جمع مرقيان نائب الملك فالريان وباليستا الذي كان رئيس الحرس الملكي من بقي من جيش الرها وتحصّنا في سميساط. ومضى باليستا إلى قبرص فألب بعض الجنود وأركبهم بعض السفن، وكان يشنّ الغارة بهم على سواحل كيليكية ظافراً. على أنّ المعين الأقوى للرومانيين أتاهم من

حيث لم يكونوا يتوقعونه. فقد كان التدمريون في حاجة كبرى إلى مصادقة سابور لرواج تجارتهم، فأرسلوا إليه عند استحواذه على سورية وفوداً وهدايا نفيسة راغبين في موالاته. فألقى سابور الهدايا في النهر ومزّق الرسالة التي دفعها الوفد إليه، وقال أنه لا يريد موالاة بل خضوعاً مطلقاً لسلطته. وكان أمير تدمر حينئذٍ سبتيموس اذينة الذي مرّ ذكره فاستشاط من معاملة سابور لوفده، وبثّ بين قومه أنّ الحرب ضربة لازب لإصلاح شأنهم وإلحام ثلمة شرفهم. واستدعى شيوخ العرب وذكّرهم بتخريب سابور عطره مدينتهم، وأفصح لهم في بيان ضياع حريتهم وثروتهم إن قويَ سابور على تقلّص سلطة الرومانيين عن سورية. وللعرب ميزتان: التشبث بالدين والنخوة، فمالآوه وتألبوا إليه وتضافروا على حرب الفرس. وكان في تدمر حامية رومانية فضمّها اذينة إلى رجاله وإلى جيش العرب ولحق بهم كل من فرّ من سورية، حتى كان لاذينة جيش عرمرم زحف به نحو معسكر الفرس من جهة الجنوب، وكان باليستا ومن بقي من حامية الرها يضايقون الفرس من جهة الشمال، فوجس سابور وسار بجيشه نحو الفرات تاركاً وراءه حاميات أبادها اذينة بجحافله. وبلغ جيش الفرس الفرات فقطع الطريق عليه جيش روماني معسكر في الرها. فأرغم الفرس أن يبتاعوا ممرّهم بكل ما غنموه من سورية من ذهب وفضة ونفائس. وكان اذينة مجدّاً في لحاق الفرس والرجال من بدو وحضر يزدحمون إليه من كل فجّ رغبةً في الغنيمة والفتك بالأعداء، إلى أن ضمّ باليستا إليه. وسوّلت له نفسه أن يسترد ما بين النهرين فنال ما أمل، وتتبّع آثار ترايان وسبتيموس ساويروس إلى قطيسفون حيث كانت له وقعة مع الفرس استحوذ بها على جانب من خزائن سابور. وسبى بعض حرمه على أنه لم يستطع أن ينقذ فالريان من الاسر، لكنه أسر كثيرين من ولاة الفرس وأرسلهم إلى روما. فسرّ بهم كاليان الذي كان متناسياً أباه وأقام حفلات لهذا الظفر أجرى فيها معظم الاحتفاء به.

وعاد اذينة من هذه الغزوة أعظم من أن يبقى أميراً. فسماه قومه والعرب ملكاً، وسماه كاليان غازياً ورئيس الجيش الملكي في تلك الأنحاء، بغية أن يستمر خادماً نصوحاً نافعاً له، وكان ذلك في أوائل سنة ٢٦٢م. وبعد أن قام بعبء خدمات لدولته أقرّ له بلقب اغوسطوس. هذا ما رواه بعض المؤرخين على أنّ دي فوكوى (في كتابه في الخطوط السامية صفحة ٢٩ وما يليها) أبان أنّ تسمية اذينة اغوسطوس أنكرها كثيرون وهي مخالفة لنصّ الآثار، وإنّ الراجح أنّ العاهل

الروماني سمى ملك تدمر امبراطوراً أي غازياً. وقال ودينكتون (في كتابه في الخطوط السورية) إنّ كتّاب تدمر لم يكونوا يحفلون بالتدقيق في ترجمة كلمات المناصب الرومانية. ومن هذا القبيل تسميتهم زينب (زبيدة) في أحد الخطوط اغوسطا بما أنها كانت أرملة ملك سمى اغوسطوس، وقد قضى اذينة هذا الثاني بهذا الاسم سنة ٢٦٦ أو سنة ٢٦٧م على ما روى دي فوكوى في المحل المذكور، طالع ما ذكرناه في عد ٥٢٨ .

عد ٥٤٥

زينب (زبيدة) ملكة تدمر ومحاربة اورليان لها

إنّ زينب أو زبيدة كانت تدّعي اتصال نسبها بالبطالسة ملوك مصر، وأنها من سلالة قلوبطرة، وهي بنت أمير عربي متوطن في ما بين النهرين. وقد عثر ودينكتون على خط في تدمر وهو ٢٥٩٨ من خطوطه كُتب فيه على عمود اسم زينوبيوس وتجاهه عمود آخر كُتب عليه اسم زينوبية، فظهر أنّ العمودين أُقيما تذكرة لهما، وإنّ اسم ابيها زنوبيوس. ويقال أنها كانت بديعة الجمال ذات عفّة فإنّ تطلّبها المعالي والمجد أغفلها الملاذ البدنية. وكانت تفقه جميع اللغات التي يتكلّم بها أهل تدمر وأثينا إلى غيرها من اللغات حتى اللاتينية. وقال بعضهم أنها ألّفت تاريخاً موجزاً لاسكندر والمشرق. وكانت مولعة بمطالعة كتب اوميروس وافلاطون، وكانت تباحث لنجين الفيلسوف في مباحث الفلسفة والفصاحة، وتفاوض بولس السميساطي بطريرك انطاكية في المباحث اللاهوتية. وقد تزوّجت بأذينة ملك تدمر المار ذكره وشاركته في ملكه. وكانت مرافقة له في صيده وحربه، وقهرت الفرس معه وحاولت أن تتولى مصر من دونه. وقد شكاها بعضهم بأنها مالأت على قتله. وتلك تهمة لم يقم الشاكون عليها دليلاً بل تخالف الواقع. فإنّ اذينة قتله ابن أخيه مونيوس ليأخذ ملكه لا ليدفعه إلى الملكة. ومما ذكره زونارا (ك ١٢ فصل ٢٤) في ذلك أنّ مونيوس خرج يوماً مع عمه الملك إلى الصّيد ولما أبصرا قنيصاً رماه مونيوس بسهامه قبل الملك فقتله. وكان ذلك يخالف احترامهم للملوك، فانتهره الملك على أنّ رغبته في كسب الشهرة بالقنص حرمته الفطنة، فلم يرعَ حرمة الملك بل عاود رمي سهامه قبله. ولما كانت الإهانة مشتهرة لم يغض الملك عليها وأنزله عن جواده وكان ذلك بمثابة حطّه

عن منصبه، فحملت الشاب حدّة الصبا أن يهدّد الملك، فألقاه في السجن ثم عفا عنه. وأكمن مونيوس الضغينة على الملك وتآمر عليه مع بعض الأشقياء إلى أن فتك به وبابنه هيروديس في حفلة. فلم يكن لزينب مدخل بهذه الفعلة بل أثارت الجنود على الغادرين وبعثتهم على تسمية ابنها وهبلات (وهب اللّات) ملكاً وتسمية ابنَيها الآخرين قيصرين، وعرضتهم على الشعب والجنود متّشحين بالبرفير الروماني، وحفظت لنفسها حقيقة تدبير الملك مسماة ملكة، وفي عرف التدمريين اغوسطا. وكان يلذّ لزينب ذكر قلوبطرة فتأتي بذكرها متواتراً، وكانت أشبه بها في جمالها واقتدارها لكنها لم تضارعها في إبداء بسالة الرجال في آخر أيامها، فإنّ قلوبطرة آثرت موتها على استسلامها إلى خصمها، وزينب تحملت أسر اورليان لها صاغرة. وكانت هيئة حكومتها أشبه بهيئة الملوك الرومانيين فكانت تركب جوادها وتشمّر عن ساعديها والخودة برأسها وتخطب في جنودها بصوت جهير، وتكرّ معهم تارة على جواد وطوراً مترجّلة. وقد نطق اورليان بالحق إذ قال فيها «إنّ من يقولون أني انتصرت على امرأة لا يعلمون من كانت تلك المرأة، ولا ما أحكمها في آرائها، وأثبتها في أحكامها، وأبسلها مع جنودها، ولا ما أحلمها وأقساها بحسب ما تقتضيه ظروف أحوالها. فلولاها ما انتصر اذينة على الفرس ولم ينكف العرب والسراكسة والأرمن عن إثارة الفتنة إلّا خيفة من بسالتها (رواه تربيليوس بوليون).

وقد عزمت زينب أن تضمّ إلى ملكها مصر وآسيا الصغرى فأرسلت إلى مصر جيشاً استحوذ على الإسكندرية. وقد رغب أهل آسيا الصغرى الإنضواء إلى ولايتها ولم يأبها إلّا أهل بيتينيا، فكان ذلك وبالاً عليها. فإنّ بيتينيا المجاورة للبوسفور كانت ممراً للجنود من اوروبا إلى آسيا، فاستمرت هذه الطريق مفتوحة لاورليان. وعن زوزيموس المؤرخ أنّ جيش زينب المرسل إلى مصر كان سبعين ألف رجل، وأنهم استحوذوا على هذه البلاد كلها، ولا أقل من استيلائهم على الأعمال الشمالية منها، وأرسلت حكومة روما جيشاً إلى المشرق يقوده رجل اسمه بروبس، فحلّ في مصر السفلى وضمّ إلى جنوده بعض المتطوعين وضرب جنود زينب فانتصروا عليه عند منف وقبضوا عليه فانتحر. وظلّت زينب تلي مصر السّفلى، وقد وجدت نقود مضروبة في الإسكندرية وعليها رأسا اورليان وابن زينب كأنهما قرينان في الولاية. وآخر ما وجد منها مؤرخاً في السنة السابعة لوهبلات يظهر منه أنّ هذه الحال دامت إلى سنة ٢٧٢م.

وفي ربيع السنة المذكورة زايل اورليان ايطاليا يصحبه جيش جرار لإصلاح شؤون آسيا، وبلغ إلى بيتينيا فقبله أهلها بالترحاب بمنزلة منقذ، ثم توغّل في البلاد إلى كيليكية وبلغ انطاكية وكانت زينب هناك مع فريق من فرسانها، واضطرمت نار الوغى بين الجيشين فافتتح جيش الرومانيين انطاكية فتقهقر التدمريون نحو كلشس وهي قنسرين مدينة في الجنوب الغربي من انطاكية. وخاف كثير من سكان انطاكية أن يعاملهم اورليان معاملة المتشيعين للملكة زينب، فلحقا بعسكرها فأرسل الملك منادياً يؤمنهم على حياتهم وأموالهم فعاد أكثرهم إلى مواطنهم.

وبعد أن دبّر اورليان شؤون انطاكية جدّ في لحاق الأعداء، فأدرك ساقتهم (أي الخفر الأخير منهم) على مقربة من قنسرين فأزاحهم عن رابية كانوا عليها. وسار التدمريون لا يلوون على محل إلى أسوار حمص وألّبت زينب هناك سبعين ألف رجل وأقامتهم في حصون وأمامهم سهل فسيح يتّسع به المجال للفرسان. واتقدت نار الحرب بين الجيشين يدافع فيها الرومانيون عن مجدهم القديم والتدمريون عن مجدهم الحديث. وكان اورليان وجساً لأول وهلة لانقراض أكثر فرسانه، فحمل حملة شديدة على قلب جيش التدمريين فزحزحه من مواقفه واستبشر بالظفر. لكنه خسر خسائر كبيرة حتى لم يستطع لحاق العدو، ولدى حمي الوطيس في معمعان القتال نذر أن يبني هيكلاً للشمس وهي كانت أعظم معبودات التدمريين. وحكى بعض المؤرخين الوثنيين أنهم رأوا الإله يعنى بجمع صفوف الجند المتشتتة دلالة على أنّ هذا المعبود ترك شعبه، وقد كثُرت مثل هذه الحكايات في تواريخهم.

وأما زينب فعقدت لجنة مشورة مع قادة جيشها في حمص فأجمعوا على الإنصراف إلى تدمر، واهمين أنه تعسّر على الجيش الروماني اجتياز بلاد العطش متعرضاً لمقاومة الرحّل له في طريقه. ولكن خاب ظنّهم، فإنّ الجيش الروماني سار في أثرهم إلى عاصمة البرية التي كانت محصّنة بخليج وأسوار تتراكم عليها آلات الحرب حتى لم يكن اورليان يحسب أنّ أعداءه يدافعون هذا الدفاع الشديد. فكتب إلى زينب رسالة هذه ترجمتها «من اورليان عاهل العالم الروماني وغازي المشرق إلى زينب ومن يلوذ بها، أنه كان يلزمكم أن تصنعوا من أنفسكم ما أنا آمر به برسالتي هذه، وأمري لكم أن تستسلموا إليّ وأنا أعدكم بأنني ابقيكم أحياء. وأما أنتِ يا زينب فتُعزلين مع أسرتك إلى المحل الذي أعيّنه لكِ بعد مشورة رجال الندوة، وتتخلّين إلى خزينة روما عما تملكينه من نفائس وذهب وفضة وحرير وخيل

وجمال وتبقى للتدمريين حقوقهم سالمة». (ذكر هذه الرسالة فوبيسكوس في ترجمة اورليان فصل ٢٦).

فأجابته زينب بما ترجمته «من زينب ملكة المشرق إلى اورليان اغوسطس، لم يجسر أحد أن يطلب ما طلبته برسالتك والحرب تقضي بيني وبينك في كل شيء فأنت تريد أن استسلم إليك وكأنك جاهل أنّ الملكة قلوبطرة آثرت الموت على أن يمنّ عليها ملك بالحياة، وإني أتوقع نجدة الفرس لي دون إبطاء، وقد لاذ بي السراكسة والأرمن، وإذا كان لصوص سورية أنزلوا الوبال بجنودك فما تكون حالك يا اورليان؟! إذا وافانا المدد الذي ننتظره من كل فج، فلا جرم أنك تستبدل حينئذٍ لهجة الصلف هذه التي بها تطلب خضوعي لك كان جنودك منتصرون في كل محل». (روى فوبيسكون هذه الرسالة في المحل المذكور فصل ٢٧).

ولم يبقَ بعد هذه الرسائل المهيجة إلّا افتتاح المدينة عنوة وإما التضييق عليها ليستسلم أهلها لجوعهم. فأحاط الجيش الروماني بالمدينة وكانت زينب تعتمد على الفرس وتتوقع إنجادهم لها. على أنّ هؤلاء كانوا في أسوأ حال من جري الإختلافات الأهلية بينهم حتى بدلوا في ثلاث سنوات ثلاثة ملوك. واما العرب والسراكسة والأرمن فتولاهم الرعب أو رشاهم الرومانيون لينكفوا عن نجدة زينب. فبقيت وحدها لا منجد لها من محالفيها، وقد رأت أنّ الأقوات غير كافية لقومها مدة طويلة فيهلكون جوعاً. فعزمت أن تفرّ إلى بلاد فارس آملة أن تستحثهم على إرسال نجدة تعود بها لمعاونة جنودها الذين كانت ترجو ثباتهم زماناً، فركبت الهجين مجدّة في سيرها، ولكن أدركها الفرسان الرومانيون عند الفرات فقبضوا عليها وبلغ الخبر إلى تدمر فأوقع البلبال بين جنودها، ورام بعضهم أن يواصل الدفاع، ويئس الأكثرون وتركوا سلاحهم وفتحوا أبواب المدينة، فلم يغيّر اورليان شيئاً من الشروط التي كان عرضها عليهم وعامل الأهلين بالحلم والرقّة وترك لهم حقوقهم، واكتفى بأن يأخذ خزينة زينب.

وعاد اورليان إلى حمص وأقام محكمة للحكم على زينب ووزرائها. ولدى سؤالها كيف جسرت أن تزري بعظمة الملوك الرومانيين، أجابت أقرّ لك بأنك عاهل روماني لأنك تعلم أن تغلب وتقهر ولم يكن كاليان وغيره كذلك، ولا يخفى في كلامها من التملّق له، وهي صادقة بتفضيله على سواه. وقال بعضهم أنها ألقت

مسؤلية الحرب على مستشاريها وتلك تهمة أو حيلة اصطنعها اورليان ليعفو عن الملكة ويقتل بعض خدامها. فقضى القضاة بقصر الجناية على أولئك الخدام، فصدر الأمر بقتلهم وكان بينهم لنجين وزيرها الفيلسوف الآتي ذكره، وقد تقدّم إلى العقاب غير مضطرب ولا وجل، وكان ذلك سنة ٢٧٣م. أما زينب فأرسلها اورليان إلى روما. وعند الاحتفاء بانتصاره بدت مغلّلة بقيود من ذهب وأقامها في حديقة بديعة في تيفولي حيث أدركتها المنية. وعن اوسابيوس في الكرونيكون أنه كان في روما في أيامه اسرة تسمى زينوبيا نسبةً إليها. ويُنسب إلى هذه الملكة آثار كثيرة في سورية ولبنان من جسور وأقنية ماء وغيرها. ولا يظهر أنّ مدة ملكها الوجيزة كانت كافية لإنشاء مثل هذه الآثار. وروى بعض المؤرخين العرب أنه بعد انقراض دولة زينب تولّى قبائل العرب بعض ملوك أو ولاة من ذرية أمير اسمه ملك. وذكر ودينكتون أنه وجد في قرية في البثنية خطاً دالاً على إقامة العرب الرحّل أثراً لادريان سعيد ملك خط ٢١٩٦، فكأنّ الجد سمي ادريان باسم الملك ادريان لأنه كان في أيامه.

ودونك مثالاً لزينب مأخوذاً عن تمثال لها في متحف الواتيكان.



وقد كان اورليان ترك سورية عائداً إلى روما مطمئناً لكنه لم يبلغ تراسة إلّا وبلغه الخبر بأنّ التدمريين ثاروا على حامية الرومانيين وقتلوهم وأقاموا رجلاً اسمه انطيوكس ملكاً. فأرسل اورليان إليهم جيشاً. وعن ممسن (في تاريخ الرومانيين) أنّ اورليان عاد إليهم هو بنفسه وقد وجد ودينكتون في تدمر خطاً وهو ٢٥٨٥ من خطوطه يتبيّن منه أنّ انيساوس بعث التدمريين بعد أسر زينب على الثورة وتمليك انطيوكس. ووجد ذكر انطيوكس هذا أيضاً في خط ٢٦٢٩. ويوصف بأنه نسيب زينب ولم تبلغ إلينا أخبار حملة اورليان هذه، ولكن علمنا من احدى رسائله إلى قائد اسمه شيونيوس باسوس أنّ الجنود فتكوا بالتدمريين فتكاً ذريعاً لأنه يقول له لا يلزم أن يواصل الجنود العمل بسيوفهم. فقد قتلوا كثيرين من التدمريين، فلم نشفق على امهات وقد قتلنا الأطفال وذبحنا الشيوخ وأبدنا سكان القرى، فإلى من نترك البلاد ومن يسكن المدينة. فيلزم استحياء العدد اليسير الذي بقي من السكان. وقد اتعظوا بما أصابهم من العذاب وأريد أن يجدد هيكل الشمس الذي انتهبه الجنود.



اورليان الملك مأخوذاً عن تمثال له في متحف الواتيكان

وعندك من خزينة زينب ثلاث مئة ليبرا ذهب وألف وثماني مئة ليبرا فضة من أملاك التدمريين، وعندك المجوهرات الملكية. فاصرف كل هذه الأموال في زينة الهيكل فتصنع بذلك ما يرضي الأله ويرضيني. وسأكتب إلى الندوة لترسل حبراً يدشّن الهيكل، ولم تنهض تدمر من خرابها إلى هذا اليوم. ومن الآثار في بلادنا لهذا الملك ما جاء في الخط ٢١٣٧ الذي نسخه ودينكتون عن حجر في قرية شقه (في البثنية) كُتب فيها «ذوتيسيوس إلى اورليان التقي السعيد اغوسطوس الجرماني العظيم (يريدون قاهر الجرمانيين) الغططي العظيم أبي الوطن القدير الحليم الظافر بالألمانيين» وهذا مثال لأورليان الملك مأخوذاً عن تمثال له في متحف الواتيكان (راجع الصفحة السابقة).

عد ٥٤٦

ملوك بني غسان في دمشق وما يليها

رأينا قبل الكلام في ملوك بني غسان في سورية أن نمهّد له توفيراً للفائدة وبياناً لأصل هؤلاء، ليعلم القارئ من أية طبقة من العرب كانوا. أجمع المؤرخون على قسمة العرب إلى ثلاث طبقات، العرب البائدة أي من باد ذكرهم إلّا خمس قبائل أو ثلاث ذكرهم المؤرخون وهي عاد وثمود وطسم وحديس وجرهم. فعاد هو ابن عوص بن آرام بن سام بن نوح وثمود بن عابر بن آرام بن نوح وطسم هو ابن لود ابن آرام بن سام بن نوح وحديس هو ابن عابر أخو ثمود وجرهم ابنه. لم يذكر أبو الفداء من أبناء العرب البائدة إلّا عاد وثمود وجرهم. وذكر ابراهيم الحاقلي (في تاريخ العرب صفحة ١٥٠) أربع قبائل فقط وهنّ عاد وثمود وطسم وحديس. وكانت مواطنهم في اليمامة في بلاد العرب إلى أن انقرضوا وبادوا. وذكر اربولوتيوس (في مكتبته الشرقية صفحة ١٢٠) علّة انقراضهم وهي إما انتقام الله منهم لأنه أرسل إليهم أنبياء فلم يسمعوا لهم، أو طوفان محلى يسمونه سيل العرم (وهو نهر هناك أو سدّ له) كما عرض لطسم وحديس، أو عداوات أهلية بينهم على عادتهم. وقد ذكر الجغرافي النوبي بقاء بقايا من عاد وثمود إلى أيامه. ووُجدت قبيلة أخرى تسمى جرهم مواطنها العربية الحجرية. حالفهم اسماعيل وتزوّج امرأة منهم سماها الكتاب (تكوين فصل ٢١ عد ٢١) مصرية ونسبها المؤرخون المسلمون إلى جرهم.

وأما العرب العاربة فارتأى كثير من المؤرخين أنّ أصلهم قحطان أو يقطان بن عامر بن شالح. وذكر بعض المؤرخين المسلمين أنّ أصلهم قحطان بن حميذة بن نبايوت بن اسماعيل بن ابراهيم. كذا قال هشام بن كلب وشرف بن كتم على ما روى الحاقلي في كتابه المذكور صفحة ١٥٢، وقالوا إنّ قحطان هو من سماه القرآن هود، وأنه هو جد العرب الذين توطنوا في العربية البرية والحجرية المسمين بجرهم. وأما قحطان الآخر ابن عامر فهو أبو العرب الذين يسكنون العربية السعيدة ويسمون يمينيين. وهذا القول الأخير يوافق ما جاء في التوراة. قال السمعاني لا أماري بأنه وجد قحطان آخر يُنسب إلى اسماعيل، ولكنه أنكر قحطان وهوداً واحد. ولا سيما لأنّ المؤرخين العرب مجمعون أنّ العرب الذين أصلهم من اسماعيل أو من قحطان حفيده هم غرباء عن العرب وبعدهم زماناً، وهم المسمون العرب المستعربة.

وقد وُلد لقحطان بن عابر ثلاثة عشر ابناً هم أجداد العرب اليمنيين ومنهم سبا الذي كان جدّاً لخمس فصائل من العرب اليمنيين وهي حمير وكهلان وعمرو واشعر وعاملة. فحمير بكر سبا أبو الحميريين كان أصلاً لثلاث فصائل تبّع وقهناعة وتسمى قضاعة وشعبان. أما كهلان بن سبا الثاني فكان من ولده ازد وطي ومزحج وهمدان وكندة. وازد ولد عمراً والاوس والخزرج وخزاعة وأربعة بنين آخرين، ومن ولد عمرو بن ازد فصيلة غسان التي ظعنت من اليمن إلى سورية في القرن الثاني للميلاد على ما يظن. ونزلوا على ماء في الشام يسمى غسان نُسبوا إليه. ولذلك قال حسان ابن ثابت الأنصاري.

أما سالت فأنا معشر نجب «الأزد نسبتنا والماء غسان»

وظعن مع بني غسان بنو عاملة بن سبا مع سبعة أحياء أخرى وتوطنوا في دمشق ونواحيها، وأقام بنو عاملة في جبل هناك يسمى إلى الآن بجبل عاملة. وأما العرب المستعربة فجدهم اسماعيل بن ابراهيم من امرأته هاجر، ووُلد له بنون منهم اسماعيل الذي ولد له نبايوت جد النباطيين وقيدار الذي ذكره المؤرخون المسلمون. وقد ورد في الكتاب مرات اسم قيدار ونبايوت وغيرهما من ولد اسماعيل. وقد كان العرب بنو غسان الذين كلامنا فيهم مسيحيين (ملخص عن السمعاني في المكتبة الشرقية المجلد الرابع في مقالته في السريان النساطرة الصفحة ٥٧٠).

يظهر أنّ بلوغ بني غسان إلى الشام كان في القرن الثاني للميلاد أو بدء القرن الثالث. فإنّ ودينكتون في كلامه في خط ٢٣٩٣ الذي عثر عليه في دير اللبن في حوران حيث ذكر بني ازد أنّ هؤلاء تركوا اليمن وانتجعوا سورية نحو سنة ٢٠٥م وكان رئيسهم جفنة والاوس وغيرهم. ثم عاد بعضهم نحو سنة ٣٠٠ إلى الحجاز وبقي الآخرون في سورية وهم المعروفون في التاريخ ببني غسان. انتهى كلام ودينكتون ملخصاً. وكان قبل غسان في سورية عرب يقال لهم الضجاعمة من بني سليح من بطون نذار وعدنان فأخرجوهم عن ديارهم، وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم، وسمى قومهم رؤساءهم ملوكاً وكانوا عمالاً للملوك الرومانيين في دمشق والجولان والبلقا. وعن أبي الفدا في تاريخه أنّ ابتداء ملكهم كان قبل الإسلام بما يزيد على أربع مئة سنة، وقيل أكثر من ذلك. وعن ابن خلدون عن ابن سعيد عن صاحب تواريخ الأمم إنّ جميع ملوك بني غسان إثنان وثلاثون ملكاً ومدتهم ستماية سنة. وقد استمر ملكهم إلى أيام خلافة عمر بن الخطاب وقالوا أنّ أول ملك عليهم كان يسمى جفنة بن عمر بن ثعلبة. وعن أبي الفدا وغيره أنه بني بالشام عدة مصانع (أي قرى وقصور وحصون) إلى أن يقول أنه خلفه ابنه عمرو وبنى بالشام عدة ديورة منها دير حالى، ودير أيوب ودير هند. وملك بعده ابنه ثعلبة وبنى صرح الغدير في أطراف حوران، ثم ملك الحارث ثم جبلة ابنه ثم الحارث بن جبلة، وكان مسكنه بالبلقا فبنى الحفير ومصنعه أي قصره وكانت أمه تسمى مارية ذات القرطين، وكان يُضرب بقرطيها المثل في التنافس. وفيها وفيهم يقول حسان بن ثابت الأنصارى.

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المعم المخول

والحارث هذا هو أبو المنذر الأكبر والنعمان وجبلة والايهم وعمر الذين تتابعوا على الملك بعده إلى أن ملكٓ جفنة الأصغر ابن المنذر الأكبر وهو الذي أحرق الحيرة، فسموا ولده آل محرق. ويقال أنّ أخاه النعمان الأصغر خلفه وانه تملّك بعده النعمان بن عمر بن المنذر. وهو الذي قال فيه:

عليّ لعمر نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

وبنى النعمان قصراً يسمى السويداء، وآخر يسمى قصر حارب. ولا يمكن التوصل إلى معرفة السنين التي ملك فيها كل من ملوك غسان، وقد ذكر بعضهم شيئاً من ذلك لكن لا يمكن القطع به. وقد عثر ودينكتون على خط يوناني في قرية من قرى البثنية وهو ٢١١٠ بين خطوطه كُتب فيه «بنى فلافيوس البانوس وابنه البانوس هذا الصرح من أسه إلى أعلاه في أيام المنذر البطريق سنة ٤٧٣». لتاريخ بصرى تبتدي هذه السنة في ٢٢ آذار سنة ٥٧٨ للميلاد. وقال ودينكتون في أثر ذلك ما ملخّصه أنّ المنذر هذا من آل غسان الذين حكموا في العرب في حوران وبرية سورية إلى ظهور الإسلام. وهو ابن الحارث الخامس الذي تولّى على رواية كوسان دي برسفال (تاريخ العرب ك ٥ صفحة ٢٣٣) من سنة ٥٢٩م إلى سنة ٥٧٢م. وروى توافان أنّ الحارث هذا أتى إلى قسطنطينية سنة ٥٦٣م ليقدّم إلى الملك يوستينانوس ابنه الذي سيخلفه، لكنه لم يذكر اسم الابن ولم نجد ذكراً للحارث. بل روى ميناندر ابنه كان سنة ٥٦٧م ملكاً على العرب خاضعاً للملك القسطنطيني. ويظهر من الخط الذي ذكرناه أنه كان باقياً في ولايته سنة ٥٧٨م. وقد ذكر المنذر هذا ابن العبري في تاريخه، ويوحنا الأفسسي (في تاريخه الذي وُجد عن قرب وطُبع سنة ١٨٦٢م). وقد لجأ بطريرك اليعاقبة إبان اضطهاد ملّته إلى المنذر. هذا على ما روى ابن العبري وذكره السمعاني في المجلّد الثاني من المكتبة الشرقية في كلامه على ابن العبري. وقد حارب المنذر قابوس ملك الحيرة وظهر عليه فلم يحسن الملك يوستينوس مجازاته. فانقلب على الرومانيين وانقطع في البرية، وترك عرب الحيرة يشنون الغارة على إقليم انطاكية ثلاث سنين. ثم صالح الرومانيين وغزا الحيرة ثانية واتفق مع موريق قائد جيش الرومانيين وحارب الفرس وانتصر عليهم وعلى الغرب معاً انتصاراً بيّناً بعد مبارحة موريق له (يوحنا الأفسسي ك ٦ فصل ٣ وما يليه). وكان ذلك في أواخر ملك يوستينوس الملك وبدء ملك طيباريوس سنة ٥٧٨ أو سنة ٥٧٩م. وأدركت الوفاة المنذر بعد ذلك وهو الذي كتب اسمه في خط ٢٥٦٢ من خطوط ودينكتون على برج في حوران حيث قيل ما ملخصّه: «أقام المنذر هذا البرج وهو يشكر الله لذلك». وخلفه الحارث السادس أخوه. ومن بواكير أعماله محاربته المنذر الرابع ملك الحيرة وظهوره عليه سنة ٥٨٣م على ما روى كوسان دي برسفال (صفحة ٢٤٢). ولم يذكر المؤرخون العرب المنذر هذا بل نصّوا على أنّ الحارث السادس خلف الحارث الخامس والخط المذكور

يسدّ هذا الخلل ويوجب إضافة اسم المنذر هذا إلى جدول ملوك غسان. ولقب البطريق كان لأبيه أيضاً. وقد عُثر على خط آخر على مقربة من بحيرة هجانة (على مسافة ست ساعات شرقاً من دمشق). انتهى كلام ودينكتون ملخصاً.

وكان أحد ملوك غسان في صدر الإسلام يسمى جبلة بن الإيهم وهو الخامس بهذا الاسم. وقد أسلم لما افتتح المسلمون الشام وهاجر إلى المدينة. وأحسن عمر ابن الخطاب نزله وأكرم وفادته حتى إذا كان يوم التطواف بالبيت وطئ رجل من بني فزارة طرف إزاره فانحل عنه فغضب جبلة ولطم الفزاري لطمة هشّم أنفه. فشكاه الفزاري إلى عمر فقال لجبلة: دعه يلطمك كما لطمته. فقال جبلة أيقاد في دينكم للسوقة من الملوك؟ فقال عمر أجل هما في الحق سواء وإن أبيت ضربت عنقك. فقال جبلة إذن أرجع عن دينكم. وصبر إلى الليل حتى اجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى الشام، ثم سار منها إلى قيصر في القسطنطينية، ولم يزل فيها حتى مات سنة عشرين من الهجرة (ملخص عن تاريخ ابن خلدون وتاريخ أبي الفدا). ويظهر أنّ بني غسان كانوا أبداً مخلصّين في الطاعة للرومانيين، فلم نعثر على خبر نفار أو حرب بينهم وبين مواليهم، إلّا ما رويناه عن المنذر.

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثالث

عد ٥٤٧

برفير الفيلسوف الصوري

وُلد برفير في صور سنة ٢٣٣ أو سنة ٢٣٢ للميلاد. وكان اسمه ملكو أو ملك، فسمي في اليونانية برفير. ودرس الفصاحة في اثينا على لنجين الفيلسوف السوري أيضاً. وانكبّ على درس الفلسفة في روما على بلوتين الفيلسوف المصري، وصحبه من سنة ٢٦٣ إلى مماته سنة ٢٧٠م. وكان برفير ضليعاً بجميع العلوم المعروفة في تلك الأيام. وكتب في أكثرها ممتازاً بسرعة الخاطر وسهولة الانشاء أكثر من تعمّقه النظر في أحكامه. وبعد وفاة استاذه بلوتين علّم الفلسفة والفصاحة في روما. وقد أثنى العلماء حتى الآباء القديسون على غزارة علمه وطول باعه. فقد سماه القديس اغوسطينوس (في كتابه الموسوم بمدينة الله ك ١٩ فصل ٢٢) «اعلم الفلاسفة» ودعاه في محل آخر «الفيلسوف الوثني الشريف». ونفسه في تآليفه جلي منسجم لكنه يخلو غالباً من تحليته بضروب الفصاحة. وقد أدركته المنية سنة ٣٠٥، وعلى رواية أخرى سنة ٣٠٤م في روما. وروى القديس ايرونيموس (في تفسيره نبوّة حزقيال) أنه توفي في صقلية. وقد جمع العالِم سميت في معجمه التاريخي في تراجم اليونان والرومان كل ما يقال في برفير، وكتب اوساب من القدماء ترجمته في جملة تراحم الفلاسفة.

أما تآليفه فكثيرة اتلفت غير الأيام بعضها. ومما بلغ إلينا منها كتاب في ترجمة بلوتين استاذه ترجمه إلى الإفرنسية ليوسك دي بوريبي. ثم ترجمه بيتاغوروس حاوية تاريخاً فلسفياً في أربعة كتب آخر طبعاتها في لبسيك سنة ١٨١٣م، ثم مقالة في القناعة والإمتناع عن أكل اللحم. كلامه فيها كلام زاهد ورع يردد صدى كلام

الانجيل في عبارات عديدة . فيحضّ الانسان أن يقتدي بالله قائلاً هذا هو الخير الحقيقي والوحيد، وإنّ الكمال قائم في قمع الأميال النفسانية، وإنه لا ينبغي الكلام بالفلسفة مع الفلاسفة ومع من يفقهون أنّ السعادة قائمة في التشبه بالله. وهؤلاء يلزمهم أن يضحّوا بكل شيء حتى حياتهم في سبيل إتمام فروضهم. ومن أقواله قد رأينا كثيرين من السريان واليهود آثروا الموت على مخالفة سننهم. فلِمَ لا نرى مثل هذه البسالة عند اليونان. وهذه المقالة قد ترجمها إلى الإفرنسية ليوسك دي بوريني وطبعها سنة ١٧٤٧. ولبرفير أيضاً رسالة إلى انيبون الكاهن المصري في الآلهة والشياطين طُبعت في أكسفرد سنة ١٦٧٨ وله كتاب على سبيل المقدمات لمقالات ارسطو يتبيّن منه آراء القدماء في ماهيات الكليات ترجمه برتلمى سان ايلار وأذاعه مع منطق ارسطو. وكتاب في مبادئ المعقولات ضمّنه خلاصة تعليم المدرسة الأفلاطونية الحديثة أذاعه أولاً هولاستان في روما سنة ١٦٣م، ثم ترجمه إلى الإفرنسية العالِم لافاك مع فقر أخرى كثيرة لبرفير. وقد وُجدت له رسالة لامرأته مرسلة نشرها العالِم ماي في ميلان سنة ١٨٤٦م.

وأما كتبه المفقودة فمنها تنقيحه وإذاعته تآليف استاذه بلوتين وكان هذا الكتاب منقسماً إلى أربع وخمسين مقالة، فجمعها برفير في ست مقالات ينطوي كل منها على تسعة فصول، وسماها انياداس أي التسعية. ومنها وأشهرها كتابه الموسوم بخطبه في ردّ مزاعم المسيحيين. فهذا الكتاب قد ألّفه برفير في صقلية سنة ٢٩٠ إلى سنة ٣٠٠م، وقد فنّده كثير من الآباء القديسين وأحرقه الملك توادوسيوس الثاني. فلم يصل إلينا كتابه برمّته ولم تبقِ لنا الأيام على كل ما فنّده به الآباء. فجلّ ما اتصل بنا فقر من الكتاب ورده يظهر منها أنّ برفير كان عالماً بالكتاب المقدّس في العهدين القديم والحديث وكان يحاول التنديد به احياءً لمذهبه الوثني الذي كان يراه حينئذٍ على حافة وهدة الإضمحلال. وقد ادّعى أن يخطيء اوريجانس في تفسيره بعض آيات الكتاب بالمعنى الرمزي، وقال إنه عرف في صبائه اوريجانس وأثنى على تآليفه. ذكر ذلك اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ١٩) وقد قسّم تآليفه هذه إلى خمسة عشر كتاباً. وقد فنّده من الآباء القديس متوديوس أسقف صور (الذي توفي سنة ٣١١م) ولكن لم يبقَ لنا من كتابه إلّا فقرات رواها يوحنا الدمشقي. ثم اوسابيوس في تاريخه وابولينار والقديسون اغوسطينس وايرونيموس وكيرلس الأورشليمي ثم توادوريطس وغيرهم. وكان برفير يسلم

كأستاذه بلوتين بنوع من الثالوث مقراً بأنّ فيه ثلاثة أقانيم يسمى الأول منها اون وهو الله بنفسه دون صفاته والثاني نوس وهو الفهم أو الحكمة والثالث بسوكي أي الروح. ويقول أنّ أول هذه الأقانيم أكملها والأقنومين الآخرين منبثقان منه.

عد ٥٤٨

لنجين ويوليوس

هو كاسيوس لنجين وقد ذكر المؤرخون أنه سوري وأنه كان في القرن الثالث، ولم نرَ منهم من ذكر مكان مولده ولا سنته. وقد ذكره اوسابيوس في تاريخه (ك ٦ فصل ١٩). درس لنجين الفلسفة على بلوتين في الإسكندرية، ثم افتتح مدرسة في اثينا يدرّس فيها الفلسفة الأفلاطونية، وكان برفير من تلامذته. وسمعت زينب (زبيدة ملكة تدمر) بأخبار شهرته فاستقدمته إليها وأقامته اولاً استاذاً في بلاطها ثم استوزرته فكان كبير وزرائها. وعند افتتاح اورليان تدمر أمر بقتله فتحمّل العذاب المبرح باسلاً جلداً لا يهزه وجل أو ارتعاد كما مرّ. وقد ألّف كتباً عديدة في الفصاحة والفلسفة لم يتوصل إلينا منها إلّا مقالة في أسلوب الكلام السامي من أحسن ما ألّف في انتقاد الكلام. على أنّ بعضهم في هذه الأيام يعزو هذه المقالة إلى بلوترخ أو إلى ديونسيوس الأليكرناسي. وقد طُبعت هذه المقالة مرات، ومن طبعاتها الأخيرة طبعة وايسك في أوكسفرد سنة ١٨٢٠م، وطبعة أجر في باريس سنة ١٨٣٧م وممن ترجموها إلى الإفرنسية العالِم بوجولا سنة ١٨٥٣م.

أما يوليوس فوُلد وثنياً ثم تنصّر، وقد وصفه اوسابيوس (في الكتاب ٦ من تاريخه فصل ٣١) بالإفريقي وتابعه على ذلك كثيرون من المؤرخين، على أنّ اوسابيوس لم يذكر محل مولده ووصفه بالإفريقي يتحمل المعنى أنّ أسرته كانت في افريقية. ثم هاجر اجداده إلى فلسطين وسموا فيها الأفريقيين كما يسمى الآن مثلاً البيروتي من ظعن أهله من بيروت وأقاموا في طرابلس. وقد قال اوسابيوس في المحل المذكور أنه ألّف كتباً عنوانها بكلمة جستا معناها امور عديدة أو متفرقات أو لفيف. وجاء في حواشي تاريخ اوسابيوس (في طبعة مين) ما ملخصه أنّ عبارته هذه يلزم اسقاطها إذ خلت عنها ترجمة روفينوس. ولا ذكر لهذا الكتاب في تآليف

ايرونيموس. ولأنّ الجستا كتاب في التطبّب بالأعشاب والمعادن والرقوات وهذا يترفع عنه مؤلف مسيحي، ولأنّ يوليوس الإفريقي الذي كتبه هو غير الإفريقي المؤرخ، فالأول وُلد في ليبيا كما شهد شويدا وغيره، والثاني وُلد في فلسطين في قرية عمواص كما قال اوسابيوس في الكرونيكون. وكان هذا مسيحياً والأول وثنياً كما يظهر من كتاب الجستا. فهذه خلاصة ما جاء في الحواشي المذكورة وعليه فنود أن نحسب يوليوس الإفريقي سورياً، وإن لم يكن سورياً مولداً فلا جرم أنه سوري موطناً، لأنّ المؤرخين الذين يعتدونه افريقياً يصرّحون بسكناه في فلسطين. والذي رواه روهربخر وغيره أنه كان من عمواص. أما الكتب التي ألّفها يوليوس هذا فقد ذكرها اوسابيوس في المحل المذكور وغيره من المؤرخين، وهي خمسة كتب في التاريخ ضمنها ذكر الأحداث التي كانت من بدء العالم إلى مجيء المسيح. ثم خلاصة تاريخ كل ما كان من مولد المخلّص إلى أيام مكرين. وكتب رسالة إلى اوريجانس في تاريخ سوسنة الذي كان يزعم أنه غير قانوني لخلو النص العبراني عنه ولعدم مطابقته لهذا النص. وروى اوسابيوس أنّ اوريجانس أجابه جواباً مشبعاً على هذه الرسالة. وله أيضاً رسالة إلى اريستيد يوفّق بها بين نسبي المسيح اللذين ذكرهما متى ولوقا، ويحلّ ما يرد على ذلك من الاعتراضات. وقد أتبع القديس اغوسطنس أولاً قوله أنّ يوسف خطيب مريم كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي. وعن نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٤ جزء ثالث) أنه لم يبقَ من تآليف يوليوس الإفريقي إلّا رسالته إلى اوريجانس وبعض فقر من باقيها رواها اوسابيوس في تاريخه، والقديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير البيعيين. وقد كان يوليوس من العمدة التي أرسلها أهل عمواص إلى الملك أليوكبل ووكل إليه هذا الملك تجديد مدينتهم التي كانت أُحرقت. وسمى الرومانيون هذه المدينة نيكوبولي أي مدينة النصر. هذا وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي يوليوس الإفريقي هذا في قصيدته التي يعدّد فيها المؤلفين ووصفه بأسقف عمواص (ولم نرَ من وصفه بهذا الوصف غيره). وإليك ترجمة قوله عن السريانية: «للطوباوي الإفريقي اسقف عمواص تفسيرات في العهد الجديد وكرونيكون (تاريخ). وقال العلامة السمعاني في حواشيه المعلّقة على هذه القصيدة (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ١٤) «اشتهر الإفريقي في عهد الملكين أليوكبل واسكندر ساويروس وعزا إليه موسى بركيفا في كتابه في الفردوس (كما رويت مجلد ٢ صفحة ١٢٩) كتاب تفسير

بشارة يوحنا وذكر ذلك فبريشيوس أيضاً (في المكتبة اليونانية صفحة ٢٧٠). وقد أخذ ديونسيوس بطريرك اليعاقبة أخباراً كثيرة عن تاريخ الإفريقي مما لم يجد له ذكراً في كرونيكون اوسابيوس. وله مقالة في تاريخ سوسنة مثبتة مع رسالة اوريجانس إليه في هذا الشأن في الكتاب المخطوط اليوناني في المكتبة الواتيكانية. وأشرت إلى هذا الكتاب في آخر المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣. انتهى قول السمعاني.

مثال ليولية (الجوليانة) دمنة عن تمثال لها وُجد في روما وهو الآن في متحف الواتيكان.



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في سورية في هذا القرن

عد ٥٤٩

بطاركة انطاكية في القرن الثالث

قد مرّ في تاريخ القرن الثاني أنّ سرابيون رُقيَ إلى الكرسي الأنطاكي في أواخر القرن المذكور. وبعد وفاته خلفه اسكلابياد سنة ٢١٣م على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون. وجاء في كتاب ايليا النصيبيني أنه ترقّى الكرسي الأنطاكي في السنة ٥٢٣ اليونانية الموافقة سنة ٢١١ أو سنة ٢١٢م. وقال فيه اوسابيوس (في تاريخه ك ٦ فصل ١١) «وبعد موت سرابيون في انطاكية رقي اسكلابياد إلى اسقفية هذه المدينة، وجاهر في الإيمان في أبان الاضطهاد وفاز بمجد باذخ. وقد ذكر ترقيته اسكندر الأورشليمي في رسالته إلى الأنطاكيين قائلاً: «من اسكندر عبدالله وأسير يسوع المسيح إلى كنيسة الإنطاكيين السعيدة السلام، قد كان لي تعزية من الله في أيام رياستي إذ علمت أنّ اسكلابياد الرجل الكثير النفع للإيمان، قد رقي بالعناية الإلهية إلى اسقفية كنيستكم المقدّسة». وقد أرسل اسكندر رسالته هذه إليهم مع

كاهن كان اسمه اكليمنضس امتدحه كثيراً بعلمه وتقواه. وقد استمرّ اسكلابياد في الاسقفية إلى سنة ٢١٨م على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون.

وخلف اسكلابياد في السنة المذكورة فيلبس كذا سماه اوسابيوس في الكرونيكون. لكنه سماه في تاريخه (ك ٦ فصل ٢١) فيلانس، وكذا سماه نيكوفورس (ك ٥ فصل ٢٦)، واستمرّ في البطريركية إلى سنة ٢٣٠م وخلفه زابينوس في تلك السنة. ذكره اوسابيوس في الكرونيكون وفي تاريخه (ك ٦ فصل ٢٣) ولكن في كتاب ايليا النصيبيني إنّ ترقيه إلى الاسقفية كان السنة ٥٤٠ اليونانية الموافقة لسنة ٢٢٨ أو لسنة ٢٢٩ للميلاد. ولم يذكر اوسابيوس مدة بطريركيته، ولكن قال نيكوفورس أنه بقي فيها ثماني سنين ثم توفي. وخلفه بابيلا ولم يذكر اوسابيوس في الكرونيكون إقامة بابيلا، لكنه ذكر فيه استشهاده في تاريخ سنة ٢٥٤، وقال فيه في تاريخه أنه مات في السجن مغللاً بالقيود. وقال فيه ابن العبري في تاريخه أنه دبر البطريركية ثماني سنين وأنه منع يوماً والي المدينة عن الدخول إلى الكنيسة فحنق لذلك وقتل كثيراً من المسيحيين والاسقف نفسه مع ثلاثة أحداث من تلامذته. وروى لاكويان أنّ نيله إكليل الشهادة كان في السنة الثانية لداكيوس وهي عنده سنة ٢٥١م. لكن الذي في الكرونيكون أنّ داكيوس استوى على منصة الملك سنة ٢٥٤م واستمرّ عليها سنة وثلاثة أشهر. وذكر في تاريخ تلك السنة أنه قام فيها في انطاكية فابيوس إلى أن ذكر إقامة دمتريانوس في تاريخ سنة ٢٥٨م. والذي عليه المحققون الآن أنّ داكيوس رقي اريكة الملك سنة ٢٤٩م وتوفي سنة ٢٥١م. وروى ابن العبري في فابيوس أنه نال إكليل الشهادة مع كثيرين في أيام داكيوس. ولكن قال معلقو الحواشي على تاريخ ابن العبري أنهم لا يعلمون أنّ أحداً غير ابن العبري قال باستشهاد فابيوس، وإنّ لاكويان لم يأتِ بذكر شيء من ذلك في المشرق المسيحي (مجلد ٢٠ صفحة ٧٥٠). وذكر القديس ايرونيموس (في جدول المشاهير البيعيين) فابيانس بدلاً من فابيوس. وذكر اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٤٣) رسالة مطوّلة من كرنيليوس الحبر الروماني إلى فابيوس هذا في شأن من يجحدون الإيمان في وقت الاضطهاد، ثم يرعوون ثابتين إلى الكنيسة وأنه لا يلزم نبذهم. وينبئه بما كانت نتيجة المجمع الذي عقده في روما وما ورد من اساقفة العالم من الرسائل في هذا الشأن. ولم يبقَ في البطريركية إلّا سنة وبعض أشهر على ما روى اوسابيوس في تاريخه في الفصل المذكور. وخلفه

ديمتريانس سنة ٢٥٨م على ما في الكرونيكون. وذكره اوسابيوس في تاريخه أيضاً (ك ٦ فصل ٤٦) وأقام في البطريركية إلى سنة ٢٦٣م. فتكون مدة إقامته على ذلك خمس سنوات وروى آخرون سبعاً وعن نيكوفورس أنه أقام أربع سنين.

وخلف ديمتريانس بولس السميساطي، فهذا وُلد في سميساط من والدَين فقيرين واستباح التوسّل إلى الغنى بوسائل منهيّ عنها، ولا يُعلم بأية ذريعة توصّل إلى أن يخلف ديمتريانس في الكرسي الأنطاكي بين سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٣م على اختلاف الأقوال. وبعد أن ارتقى إلى البطريركية كان همه مصروفاً إلى زيادة ثروته وغناه، وإلى الإنهماك بالملاذ. وكان يصحب معه أين أقام أو رحل امرأتين جميلتين يقضي معهما أكثر أوقاته.وكان شديد العناية بتعظيم نفسه فيوجه أكثر خطبه حتى ما يلقيه منها في الكنائس لمدح نفسه والتنديد بغيره من الرؤساء، ويحضُّ ذويه على الإطراء له في المحافل، وأدخل في الكنائس بعض أناشيد منظومة تقريظاً له. وكانت له حظوة كبرى عند زينب (زبيدة) ملكة تدمر حتى وكلت إليه جباية الخراج في ولاية انطاكية. وكان حرصه على القيام بفروض هذا المنصب أشد منه على إتمام فروض البطريركية. وأمن بذلك من مقاومة اكليروس رعيته وشعبها له فتمادى بشرّه واعتسافه حتى اتصل إلى إبداع بدعة زعم فيها أنّ ابن الله لم يكن من الأزل، ولم يكن قبل مريم بل حلّ فيه كلمة الله وحكمته عندما وُلد من العذراء، وكان الحاصل من ذلك ضلاله الآخر أنه كان في المسيح أقنومان وابنان لله. أحدهما بالطبيعة، والآخر بالتبني. وتابع بذلك سابيليوس المبتدع الآتي ذكره على إنكار الثالوث الأقدس، كما يظهر من رسائل القديس ديوتسيوس البطريرك الإسكندري إليه. فإنّ هذا القديس إذ بلغته أخبار ضلال السميساطي أنفذ إليه رسائل عديدة يبيّن له غواياته ومخالفتها لنصوص الكتاب وشهادة الآباء. وقد جاوبه بولس على بعض هذه الرسائل مواربا ومواريا ضلاله. ثم اجتمع كثيرون من الاساقفة في انطاكية لإفحامه وإبكامه في ضلاله آملين ارعواءه عنه.

وكان من مشاهير هؤلاء الاساقفة القديس غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة، وأخوه اتينودورس، وفرميليانس أسقف قيصرية الكبادوك، وهيلانس أسقف ترسيس، ونيكوماس أسقف قونية، وهيمانس رئيس أساقفة اورشليم، وتيوتانس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيمينس أسقف بصرى. ولم يتمكن القديس ديونيسيوس الإسكندري من أن يشهد هذا المجمع لمرضه وشيخوخته، ولكنه كتب رسالة مشبعة يبيّن بها رأيه

وغواية السميساطي. وبعد أن تفحّص الآباء عن الأمر وأكثروا من الجدال مع السميساطي ليذعن للحق فلم يفعل، كتبوا رسالة إلى البابا الروماني وإلى مكسيمس البطريرك الإسكندري (الذي كان خلف ديونسيوس الذي توفي وقتئذٍ) وأذاعوها في كل محل يبينون فيها معائب السميساطي وإصراره على ضلاله. وإذ ما فتئ مصراً مراوغاً تارةً بأنه مستغيث من حكم هؤلاء الاساقفة، وطوراً بإنكاره ما يعزى إليه من الضلال عقد في انطاكية مجمع آخر حضره أساقفة أكثر عدداً من الأولين، وحطوا السميساطي عن رتبته، وخلعوه من البطريركية، وأقاموا مكانه دُمنوس الآتي ذكره، فاستعصى في دار البطريركية معتمداً على حماية زينب له. فلجأ الاساقفة إلى الملك اورليان فحكم بأن تكون الدار لمن يحكم بها حبر روما وأساقفة ايطاليا، فكان ذلك شهادة من ملك وثني لرئاسة أحبار روما على الكنيسة كلها. وكان ذلك لسنة ٢٧٠م وإن قيل أنه كان لسنة ٢٧٢م. روى ما لخصناه هنا اوسابيوس في تاريخ (ك ٧ فصل ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) وكثيرون من المحققين.

خلف بولس السميساطي دُمنوس كما يظهر من رسالة آباء المجمع الإنطاكي إلى البابا ديونيسيوس حيث ذكروا معائب السميساطي وفضائل دُمنوس وانتخابهم له. والظاهر من الكرونيكون أنّ دُمنوس لم يتبوّأ كرسي البطريركية إلّا أربع سنين أم خمساً. إذ روى اوسابيوس ثمة أنّ تيموتاوس خلفه سنة ٢٧٤م بعد أن ذكر انتخابه سنة ٢٧٠م، وعن نيكوفورس أنه استمر في البطريركية سنتين لعلّه لأنه قال رقيها سنة ٢٧٢م وخلف دُمنوس تيموتاوس. ذكره اوسابيوس في تاريخه أيضاً (ك ٧ فصل ٣٢) إذ قال: «وولّي حينئذٍ تيموتاوس الكنيسة الإنطاكية بعد دُمنوس». ويظهر من الكرونيكون أنه استمرّ في البطريركية ثماني سنين أو تسعاً إذ روى إقامة خليفة له في تاريخ سنة ٢٨٢م. وعن نيكوفورس أنّ مدة بطركيته عشر سنين وخلفه كيرلس على ما في الكرونيكون. وفي التاريخ لأوسابيوس (ك ٧ فصل ٣٢) حيث قال أنه كان في أيامه دوروتاوس كاهن انطاكية العلامة (الذي سنأتي على ذكره). وإنّ هذا البطريرك بقي حياً إلى أيامه، وأنه استمر في الحبرية عشرين سنة أي إلى سنة ٣٠٣م. وعن نيكوفورس إن لم يبقَ بطريركاً إلّا خمس عشرة سنة. وقد ذكر ابن العبري جميع هؤلاء البطاركة على النمط الذي ذكرناهم به.

عد ٥٥٠

بطاركة أورشليم في القرن الثالث

قد مرّ عد ٥٣٣ نرسيس البطريك الأورشليمي استمرّ في البطريركية إلى سنة ٣١٢م والذي في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢١٥م أنّ اسكندر أقيم وقتئذٍ أسقفاً على أورشليم، ونرسيس جئ مدبر الكنيسة معه. وقال اوسابيوس في تاريخه أيضاً (ك ٦ فصل ١١) أنّ نرسيس لما أعجزه كبر سنه عن القيام بأعباء الاسقفية أوحى الله إلى اسكندر الذي كان أسقفاً في الكبادوك أن يأتي إلى أورشليم ويعاون نرسيس في تدبير كنيستها، فأتاها بغية التعبّد وزيارة الأماكن المقدّسة، فأقامه نرسيس معاوناً له في حياته وخلفاً بعد مماته. وقد بقيت إلى الآن رسالة من اسكندر علّق على آخرها «يقريكم السلام نرسيس الذي دبّر هذه الكنيسة قبلي وهو متّحد معي».، وروى عنه اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٢٠) «إنه أنشأ مكتبة في أورشليم جمع فيها كثيراً من كتب العلماء ورسائلهم وأنه (أي اوسابيوس) أخذ عنها مادة غزيرة لتآليفه. وقال فيه في الكتاب المذكور (فصل ٢٧) إنّ اسكندر أسقف أورشليم وتيوكتيستوس أسقف قيصرية كانا يكثران التردّد إلى اوريجانس ليسمعا كلامه. وقد قلّداه وحده تفسير الكتاب المقدّس وشرح تعليم الكنيسة للشعب. وقال في الكتاب المذكور (فصل ٣٩) إنّ اسكندر أسقف أورشليم اقتيد مرة أخرى إلى محكمة الوالي (في أيام داكيوس) فجاهر بالإيمان بالمسيح غير وجل، وألقي في السجن في قيصرية حيث قضى حباً بالإيمان، وخلفه مازابان في أسقفية أورشليم. روى اوسابيوس أيضاً (ك ٦ فصل ١٣) إنّ اكليمنضس الإسكندري وجّه إليه كتابه في دستور الكنيسة رداً على من يستمسكون بأضاليل اليهود. وذكر له (في ك ٦ فصل ١١) رسالته إلى الإنطاكيين التي مرّ معنا ذكرها في عد ٥٤٨ في اسيكلابياد بطريرك انطاكية. وفي (فصل ١٩) رسالته الأخرى إلى ديمتريوس الإسكندري في شأن اوريجانس. وذكر في محل آخر (فصل ١٤) رسالته إلى اوريجانس، ويتبيّن منها أنّ اسكندر كان صديقاً وعشيراً لبنتانس الفيلسوف الشهير ،ولاكليمنضس الإسكندري. وقد دبّر اسكندر الكنيسة الأروشليمية ثماني وثلاثين سنة من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢٥٠م على ما روى اوسابيوس. وتعيّد لذكره كنيسة الروم في ١٦ أيار وفي ٢٢

كانون الأول، والكنيسة اللاتينية في ١٨ آذار على ما في المشرق المسيحي للكويان، (ك ٧ فصل ٥) وخلف مازابان اسكندر سنة ٢٥٠م وقد ذكره اوسابيوس (ك ٦ فصل ٣٩) أنه خلف اسكندر. والذي في الكراونيكون أنّ استشهاد اسكندر وخلافة مازابان له كانا في سنة ٢٥٤م واستمرّ مازابان في البطريركية ست عشرة سنة على ما روى ايرونيموس، وتوفي سنة ٢٦٦م والذي في الكرونيكون لأوسابيوس أنّ هيميناوس صير بطريركاً على أورشليم سنة ٢٦٩م.

أما هيميناوس خليفة مازابان فقال فيه اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ١٤) «وبعد وفاة مازابان رُقيَ هيميناوس إلى الكرسي الأورشليمي واشتهر في أيامنا بفضائله المستوجبة الثناء. وروى لاكويان في المشرق المسيحي أنه شهد المجمعين اللذين عُقدا في انطاكية كبتاً لبولس السميساطي: الأول سنة ٢٦٥م والثاني سنة ٢٧٢م. ولا يتّفق القول بحضوره في المجمع الأول سنة ٢٦٥م وهو أسقف مع القول بأنه صير أسقفاً سنة ٢٦٦م إلّا بأن حضر ذلك المجمع وهو كاهن، أو أنّ المجمع كان بعد سنة ٢٦٥م ويظهر أنه استمر في البطريركية من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٩٨م أي اثنتين وثلاثين سنة على ما روى القديس ايرونيموس. وعن لاكويان في المشرق المسيحي والذي في الكرونيكون لأوسابيوس أنّ خليفته زبدى أو زبداس لم يرتقِ المقام البطريركي إلّا في سنة ٣٠٣م. وقال القديس ايرونيموس في زبدى خليفة هيميناوس أنه رقيَ إلى الاسقفية سنة ٢٩٨م كما مرّ. وعن نيكوفورس أنه أقام في الاسقفية عشر سنين، والذي رواه القديس ايرونيموس أنه لم يقم فيها إلّا إلى سنة ٣٠٢م أي أربع سنين والذي قال اوسابيوس (في ك ٧ فصل ٣٢) فهو: «أما في أورشليم فبعد وفاة هيميناوس، تولّى تدبير هذه الكنيسة زبداس ومات بعد أمد قليل. وروى في الكرونيكون أنّ خليفته هرمون رُقيَ إلى الاسقفية سنة ٣٠٦م».

عد ٥٥١
من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الثالث

ممن نعرفهم من أساقفة صور في هذا القرن الأول مارينس، ذكره ديونسيوس البطريرك الإسكندري في رسالته إلى اسطفانوس الحبر الروماني في جملة الاساقفة الذين تولاهم السرور بحصول كنائس المشرق على السلم والطمأنينة بعد زوال

الاضطهاد وتضارب الآراء بشأن بدعه نوفاتوس، وعادوا يرون رأياً واحداً قويماً شاكرين الله. وقد روى هذه الرسالة اوسابيوس في تاريخه (ك ٧ فصل ٥).

والثاني تيرانيوس ذكره اوسابيوس (ك ٨ في تاريخه فصل ١٣) في عداد الشهداء الذين قاسوا أعذبة اليمة في اضطهاد ديوكلتيان حباً بالإيمان المسيحي. وإنّ المعذبين طرحوا هذا الاسقف أخيراً في البحر ففاضت نفسه القدوسة ويعيّد لذكره في السنكسار الروماني في ٢٨ شباط.

والثالث متوديوس كان أولاً في اولمبيا وباتارا ببلاد اليونان، ثم نُقل إلى أسقفية صور. وقد نُفي بسعاية الأريوسيين إلى أن نال إكليل الشهادة سنة ٣١٢م. وذكره القديس ايرونيموس في جدول المؤلفين البيعيين، وألّف كتاباً في تفسير سفر التكوين ومقالة في الحرية وله قصائد نحو من عشرة آلاف بيت يرد فيها مزاعم برفير الصوري وغيره. ولم يبقَ من تآليفه إلّا مقالة موسومة بعيد العذارى طُبعت في باريس سنة ١٦٥٧م مع ترجمتها إلى اللاتينية وبعض فقر جمعها الأب كمباليس وعلقها على آخر تأليف امفيكلّوس وتعيد له الكنيسة الرومانية في ١٨ أيلول.

والذين نعرفهم من أساقفة اللاذقية في هذا القرن أولهم تلميدرس. فقد روى اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٤٦) أنّ ديونسيوس الإسكندري كتب رسالة إلى الأخوة الذين في اللاذقية وكان يتولّى أمرهم تلميدرس الاسقف. ثم ذكر اوسابيوس (ك ٧ فصل ٥) رسالة أخرى بعثها ديونسيوس إلى اسطفانوس الحبر الروماني. ومما قاله فيها أنّ اليودورس خلف تلميدرس في أسقفية اللاذقية في هذا القرن والثالث منهم سقراط ذكره اوسابيوس (ك ٧ فصل ٣٢) قائلاً: «وكان في اللاذقية اوسابيوس بعد وفاة سقراط أسقفها» وأما اوسابيوس المذكور وهو الرابع من أساقفة اللاذقية في هذا القرن فقال فيه اوسابيوس في المحل المذكور «إنه كان من الإسكندرية وقد زايل موطنه آتياً إلى سورية بداعي بدعة بولس السميساطي فأمسكه من كانوا مغرمين بالأمور السماوية عن العود إلى وطنه وصيّر أسقفاً على اللاذقية، وكان على ما نتذكر كنزاً شهياً للدين كما يظهر من كلام ديونسيوس الاسكندري. وقد ذكر اوسابيوس (ك ٧ فصل ١١) كلام ديونسيوس من رسالة له إلى دوميسيوس وديديموس حيث قال: «وأما اوسابيوس الذي قوّاه الله من بدء الاضطهاد وحمله على خدمة المعترفين الملقين في السجون وعلى تلافي شؤونهم.

فكان يدفن جثث الشهداء الطوباويين معرّضاً نفسه لخطر قطع رأسه». وعقب أوسابيوس ذلك بقوله أنّ اوسابيوس هذا الذي يسميه ديونسيوس شماساً، قد أُقيم بعيد ذلك أسقفاً على اللاذقية في سورية وذكر له (ك ٧ فصل ٢٢) مآثر مثل هذه في ابّان الحرب بين الإسكندريين والجنود الرومانيين قائلا: إنّ اوسابيوس كان يتقبّل جميع الجرحى كأب وطبيب ويبذل قصارى العناية في مداواتهم وسدّ اعوازهم. وقال اوسابيوس في الكرونيكون أنّ اوسابيوس هذا كان على عهد اورليان الملك وصير أسقفاً سنة ٢٧٦م.

الخامس اناطوليوس وكان من الإسكندرية أيضاً. وأتى إلى سورية فرقّاه تيوتكنوس أسقف قيصرية في فلسطين إلى المقام الاسقفي ليكون خليفة له. ثم أتى انطاكية ليشهد المجمع الذي عُقد فيها لمقاومة بولس السميساطي. ومرّ في اللاذقية وكان اوسابيوس أسقفها لقي ربه. فأمسكه المؤمنون فيها وجعلوه أسقفاً عليهم فكان خير خلف لخير سلف. وقال فيه اوسابيوس (ك ٧ فصل ٣٢) أنه كان له بلا مراء المحل الأول بين علماء عصرنا في الفلسفة والرياضيات وغيرهما . وقد بلغ قمّة الكمال في علوم الحساب والهندسة والفلك والفصاحة والطبيعيات وغيرها من العلوم والفنون. ولذلك رغب إليه أهل مدينة الإسكندرية أن يجدد عنهم مدرسة ارسطو. وقد أجمعوا على تنويله أول رتبة بين أشرافهم، وله بينهم مكرمة تُذكر فتُشكر إذ بعث ندوتهم بسديد برهانه على أن يتركوا العجّز والنساء والأطفال ينحازون إلى معسكر الرومانيين حين محاصرتهم الاسكندريين لينجو أولئك من الموت جوعاً أو ابسالاً. ويبقى زادهم قوتاً لرجال الحرب. إلى أن قال اوسابيوس في المحل المذكور، وقد بقي لنا من تآليفه الدالة على فصاحته وطول باعه مقالة في الفصح ويوم التعييد له والمطابقة بين الحساب القمري والشمسي. وله أيضاً عشرة كتب في الحساب والهندسة فضلاً عما له من الآثار في العلوم المقدسة. هذا ملخّص ما ذكره اوسابيوس في تاريخه. ويظهر من كلامه في الكرونيكون أنه صير أسقفاً على اللاذقية سنة ٢٨٠م ولم يبقَ إلى أيامنا من تآليفه إلّا مقالة في الفصح طُبعت في مجموعة بوغاريوس سنة ١٦٣٤م وبعض فقر. وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٣ تموز.

السادس اسطفانوس خلف اناطوليوس. وقال فيه اوسابيوس (ك ٧ فصل ٣٢) أنه صير أسقفاً على هذه الكنيسة قبل الاضطهاد (في أيام ديوكلتيان) وكانت له

شهرة كبرى بعلم الفلسفة وفنون اليونان، على أنه لم يكن متمكناً كثيراً في الدين كما ظهر عند ثوران الاضطهاد، لأنه كان إذ ذاك وغداً جباناً لا فيلسوفاً حقيقياً. ولكن لم تمس الكنيسة بجحوده وتدارك الله إصلاح شؤونها بإقامة توادوطوس أسقفاً على هذه المدينة. فكان توادوطوس السابع من أساقفة اللاذقية في هذا القرن. وقال فيه اوسابيوس في المحل المذكور أنه قام حق القيام بأعباء منصبه وبالمدافعة عن الحق. وكان أبرع أطباء أيامه في مداواة أمراض الجسد أيضاً. ولم يكن له نظير في علاج أدواء النفوس. وقد تفرّد بمحبته الإنسانية وخلوص الطوية ولين العريكة والرحمة والغيرة على إسعاف كل ذي حاجة. وكان فقيهاً ضليعاً في العلوم الإلهية. هذا ملخّص ما رواه اوسابيوس عنه، وقيل في ترجمته في السنكسار الروماني في الثاني من تشرين الثاني توادوطس أسقف اللاذقية بسورية كان مجمّلاً بحلى الفصاحة والفضائل. ولا نعلم متى كانا هذان الاسقفان أفي أواخر القرن الثالث أم في بداية الرابع؟ فلم يذكرهما اوسابيوس في الكرونيكون ولم نرَ في غيره ما نعتمده في بيان مدة اسقفيتهما. ولا شك في أنهما كانا في أيام ديوكلتيان. وهو تبوّأ منصة الملك في سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥م.

ومن أساقفة صيدا في هذا القرن نعلم زينوبيوس. فقد روى توافان أنّ زينوبيوس الذي نال إكليل الشهادة في أيام ديوكلتيان كان أسقفاً على صيدا. ولكن قال اوسابيوس (ك ٨ فصل ١٣) إنّ أشهر الشهداء في فينيقية من رعاة القطيع المسيحي تيرانيوس أسقف صور وزينوبيوس الكاهن في صيدا.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن نعلم اوتاليوس. روى لاكويان (مجلد ٢ من المشرق المسيحي صفحة ٨٢٠) أنه جاء في مناوون الروم وفي السنكسار الروماني في ١٣ من حزيران ذكر القديسة اكولينا التي نالت إكليل الشهادة في أيام ديوكلتيان، وكان عمّدها اوتاليوس أسقف جبيل كما ورد في ترجمتها في كتب البولانديين. ونعلم من أساقفة عكا في هذا العصر يوحنا جاء ذكره في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنه كان في أيام البابا مرشيلنوس الذي استوى على السدّة الرسولية من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٠٣م.

ومن أساقفة حمص في هذا القرن سلوانس الوارد ذكره في الكتاب المذكور أنه أول أسقف على هذه المدينة. وبعد تعذيبه أربعين يوماً مع بطلَين من صناديد الإيمان

في أيام مكسيميان طارت روحه مكلّلة بإكليل الظفر إلى مقرّ الراحة والمجد. وقد ذكره اوسابيوس (ك ٩ من تاريخه فصل ٦) قائلا ما ملخّصه: «إنه كان في جملة من نالوا إكليل الشهادة في أيام مكسيميان ثلاثة أبطال في مدينة حمص في فينيقية جاهروا بإيمانهم فطُرحوا فريسة للوحوش، منهم سلوانس الاسقف الشيخ الذي كان قد خدم في المقام الكهنوتي أربعين سنة. وذكره اوسابيوس أيضاً في كتابه في شهداء فلسطين (فصل ٧) قائلاً: إنه كان كاهناً ومجاهداً في قيصرية فلسطين، ورُقي بعد ذلك إلى الاسقفية إلى أن لقى ربه شهيداً مع بعض رفقائه بعد أن غلّلهم الوالي بالقيود ثم حكم بإبسالهم.

ومن أساقفة غزة في هذا القرن سلوانس، ذكره اوسابيوس (فصل ١٣ من كتابه في شهداء فلسطين) قائلاً ما ملخّصه إنّ والي فلسطين بعد أن قبض على جمّ غفير من المعترفين وقضى عليهم بالنفي والأشغال الشاقّة في قبرص ولبنان، عذّب من أعجزهم سنّهم أو ضعفهم أو مرضهم عن المسير إلى المنفى. وأخصّ هؤلاء سلوانس أسقف غزة وكان رجلاً يقتدى بكماله وفضله في الدين المسيحي. وقد عانى العذاب والتنكيل مذ أول يوم من الاضطهاد إلى آخره. فكان خاتمة جهاد المجاهدين في هذا الاضطهاد. ونعلم من أساقفة قيصرية فلسطين تيوكتيستوس. ذكره اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٧) قائلاً انّه كان يسمع مع اسكندر أسقف أورشليم خطَب اوريجانس متواتراً بمنزلة استاذ، وإنهما خصّاه وحده بتفسير الاسفار المقدّسة وشرح التعليم المسيحي للشعب. وروى (في الكتاب المذكور فصل ٤٦) إنّ ديونيسيوس الاسكندري قال في رسالته إلى كرنيليون الحبر الروماني أنّ تيوكتيستوس أسقف قيصرية وغيره من الاساقفة استدعوه إلى المجمع الأنطاكي. وروى (ك ٧ فصل ٥) إنّ ديونيسيوس في رسالته إلى اسطفانوس الحبر الروماني ذكر تيوكتيستوس في جملة الاساقفة الذين سُرّوا باستحواذ الأمن والسلم في الكنيسة وزوال الخلاف الذي كان بسبب بدعة توفاس. ثم ذكر اوسابيوس (ك ٧ فصل ١٤) وفاة هذا الاسقف فقال: «واما في قيصرية، فبعد وفاة تيوكتيستوس خلفه دمنوس» وقال فيه (ك ٦ فصل ١٩) إنه كتب رسالة إلى ديمتريوس أسقف الاسكندرية يعتذر بها عن الترخيص لأوريجانس بأن يخطب في الكنائس بحضرة الاساقفة، قبل أن يكون كاهناً ويبيّن أنّ لا بأس بذلك. ويورد له أمثلة من التواريخ. وأما دمنوس خليفته فلم نعثر له على خبر إلّا في قول اوسابيوس المار ذكره هنا.

ولعلّه لأنه لم يعش إلّا قليلاً إذ عقب اوسابيوس قوله بقوله «وبعد زمن وجيز زايل هذه الدنيا وخلفه تيوتكنوس الذي بقي حياً إلى أيامنا». ويقال أنه كان من تلامذة اوريجانس.

وقد ذكر اوسابيوس (ك ٧ فصل ٢٨ وفصل ٣٠) تيوتكنوس بين مشاهير أساقفة المشرق في ذلك العصر. وروى أنه شهد المجمع الأنطاكي الذي عُقد لمناصبة بولس السميساطي. وكان الرابع بين الستة عشر أسقفاً الذين كتبوا رسالة مجمعية إلى ديونسيوس الحبر الروماني، ومكسيمس أسقف الاسكندرية، وإلى جميع أساقفة المسكونة وكهنتها وشمامستها، يبيّنون فيها معايب السميساطي ورذلهم تعليمه. وروى أيضاً (فصل ٣٢ من الكتاب المذكور) إنه رقى اناطوليوس إلى درجة الاسقفية ليكون معاوناً له في حياته وخليفته بعد مماته. على أنّ اناطوليوس انتقل بعدئذٍ إلى أسقفية اللاذقية كما مرّ.

وخلف تيوتكنوس في قيصرية اغابيوس ذكره اوسابيوس (ك ٧ فصل ٣٢) قائلاً وبعد وفاة تيوتكنوس الذي دبّر هذه الكنيسة بكل اجتهاد خلفه اغابيوس الذي أكثر من الجهاد والعناية بخير رعيّته وتدارك جميعهم، ولا سيّما الفقراء بسخائه وجوده على ما نعلم.

ايبوليطوس أو هيبوليطس اختلف في مكان أسقفيته، فمن قائل إنه كان أسقفاً في برتوس بروما على نهر التيبر، ومن قائل إنه كان أسقفاً على مدينة في بلاد العرب. ويرجّح عندنا هذا القول الثاني لشهادة اوسابيوس والبابا جيلاسيوس الأول الذي كان قريباً من عصره. وقد ذكره اوسابيوس (ك ٦ فصل ٢٠ من تاريخه) بعد ذكره بريلٍ أسقف بصرى. وذكر في فصل ٢٢ تآليف ايبوليطس التي توصلت إلى أيامه قائلاً وفي هذا الزمان (أي زمان الملك اسكندر ساويروس) ألّف ايبوليطس كتاباً في الفصح وهو من جملة الآثار الدالة على حذقه. وضع فيه ضوابط ودستوراً لمعرفة يوم تعييد الفصح في مدة كل ست عشرة سنة. وابتدأ فيه من السنة الأولى لاسكندر ساويروس. ومن باقي تآليفه بلغ علمنا إلى كتابه في الستة الأيام التي خلق الله العالم فيها وما صنعه بعدها. وكتابه في ردّ مزاعم مركيون، وتفسيره سفر نشيد الانشاد وبعض فصول من نبوّة حزقيال. وكتاب تفنيده جميع البدع، وغيرها كثير، وقد وصفه جيلاسيوس الأول الحبر الروماني في كتابه طبعيْ المسيح قائلاً:

«ايبوليطس الشهيد والاسقف في قصبة بلاد العرب» وهي بصرى حينئذٍ. وقد نال إكليل الشهادة سنة ٢٣٥م. وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٢١ آب. ونشر فبريشيوس مؤلفاته في همبرج سنة ١٧١٦م وكتابه في تفنيد البدع عُثر عليه في جبل اثوس سنة ١٨٤٢م، وطبع في أكسفرد سنة ١٨٥٢م، وفي لندرة وباريس سنة ١٨٥١م. وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته قائلاً: «القديس ايبوليطس الاسقف الشهيد ألّف كتاباً في سرّ التجسّد وتفسيراً لسفر دانيال الصغير (وهو المتضمّن خبر سوسنة وصلوة عزريا وتسبحة الفتية الثلاثة وخبر بعل والتنين) ومقالات رداً لمزاعم غايوس المبتدع ومدافعة عن صحة رؤيا يوحنا وإنجيله». وصوّب السمعاني في شرح هذه القصيدة (في مجلد ٣ صفحة ١٥) انه كان أسقفاً في بلاد العرب لا في ايطاليا. وقال أنه اشتهر سنة ٢٢٠م وأنّ مكاريوس أحد قسس دير القديس مكاريوس جمع ٢٤٠ قانوناً عربياً وعزاها إلى ايبوليطس. وانه عثر على ذلك في كتاب خط سنة ١٣٧٢م في المكتبة الواتيكانية. وإنّ أبا البركات ذكر هذه القوانين في كتابه في الفروض الألهية فصل ٧. وذكرها فبريشيوس أيضاً مع كتاب آخر له موسوم بتدبير الرسل. وهذا الكتاب عثر عليه السمعاني في مجلد سرياني في المكتبة الواتيكانية، وأشار إليه في ذيل مجلد ٢ صفحة ٤٠٨، وعثر على مقالات له في المسيح الدجّال، وفي مجيء المسيح الثاني، ونهاية العالم في كتاب مخطوط يوناني عد ١٢ في المكتبة الواتيكانية، وعلى تفسير لنشيد الإنشاد في اليونانية، وعلى كتاب في تراجم الرسل الاثني عشر، والسبعين مبشراً، وعلى فقرات له في تفسير الحيوانات الأربعة التي ذكرها ارميا، وفي الموالد الخمسة التي أضرب متى عن ذكرها في نسب المسيح. وأشار إلى كل هذه الكتب في فهرست الكتب الواتيكانية الذي علّقه في آخر كل مجلد من مكتبته الشرقية.

وكان من أساقفة هذا القرن في سورية بريل أسقف بصرى. وقد قال بعض العلماء اللاتينيين أنّ هذه المدينة في العربية والصحيح أنها كانت قصبة بلاد أدوم. وهي في حوران الآن. ثم جعلها الملك ترايان قصبة إقليم العربية. وهذا مما حمل المؤلفين اللاتينيين على قولهم المذكور، مع أنها ضمن تخوم سورية، وهي على مئة وثلاثين كيلومتراً من دمشق جنوباً. وقد اشتهرت بأنها كانت مولد الملك فيلبس الروماني. وكان فيها أساقفة، منهم بريل المذكور في أواسط القرن الثالث، فهذا الاسقف قال فيه اوسابيوس (ك ٦ فصل ٢٠) وكثير من المؤرخين أنه كان أسقف

بصرى، وأنه ألّف كتباً كثيرة شاهدة بحذقه وطول باعه، خلا رسائله وشروحه العديدة. ثم قال فيه (فصل ٣) من كتابه المذكور أنه خالف إيمان الكنيسة وابتدع تعليماً حديثاً مناقضاً المعتقد الكاثوليكي، زاعماً أنه لم يكن ليسوع المسيح قيام قبل أن يتجسّد. وإنه ابتدأ يكون إلٰهاً بعد أن ولدته العذراء. ولم يكن إلٰهاً إلّا لأنّ الآب كان حالاً فيه حلوله في الأنبياء. فقاومه كثير من الاساقفة ليرعوي من غوايته، وظلّ مصرّاً عليها. فاستدعوا إليه اوريجانس وجامله ولاطفه إلى أن استطلع كنه رأيه، ثم أخذ يبيّن له متلطفاً ضلاله ويفنّد مذهبه بالحجج القاطعة والأدلّة الساطعة، حتى أفحمه وأبكمه، وأقرّ بريل بخطإه وارعوى معترفاً بالإيمان القويم. وكانت بينه وبين اوريجانس بعد ذلك مراسلات عديدة، وقال اوسابيوس هناك أنّ جدال اوريجانس مع بريل والمنافشات التي جرت بينهما في المجمع الذي عُقد لهذا الداعي وحجج اوريجانس وبيّناته وكل ما جرى حينئذٍ كانت محفوظة إلى أيامه، وعن نطاليس اسكندر أنّ هذا المجمع عُقد في بصرى سنة ٢٤٧ أو سنة ٢٤٩م.

الفصل الثاني

المشاهير والشهداء في سورية بهذا القرن

عد ٥٥٢

اوريجــانس

لم يكن اوريجانس سورياً لأنه وُلد في الإسكندرية لكنه توطّن سورية مدة متطاولة، وصار كاهناً وألّف فيها كثيراً من كتبه ومات في صور. فقد وُلد هذا النابغة في الاسكندرية سنة ١٨٥م. وعن اوسابيوس (في الكرونيكون) سنة ١٨٤م وأبوه لأنيد توفي شهيداً في سنة ٢٠٢م وقد انكبّ اوريجانس على العلم منذ نعومة أظفاره، وكان استاذه اكليمنضوس الإسكندري في مدرسة الإسكندرية. وخلف

استاذه في تدبير هذه المدرسة الشهيرة. وقد دوّن اوسابيوس ترجمته في فصول عديدة من الكتاب السادس من تاريخه آخذاً بعضها عن رسائله، وبعضها عن تلامذته الذين بقوا أحياء إلى أيام هذا المؤلف. قال إنّ لانيد أبا اوريجانس أقام ابنه منذ حداثته في مدرسة الإسكندرية وأمره أن يدرس الاسفار المقدّسة، فعكف عليها حتى كان يقرأها عن ظهر قلبه ويرددها كل يوم. وكان اوريجانس يحسن طاعة أبيه في ذلك. فنشأ وقلبه مفعم بحب الدين والغيرة عليه وبه وجد وهيام إلى نيل إكليل الشهادة حباً بالمسيح. حتى عرض نفسه مرات ليكون في عداد الشهداء في الاضطهاد الذي أثاره سبتيمس ساويروس على المسيحيين ولا سيما في الاسكندرية. وكانت أمه تمانعه من ذلك، واتصلت ذات يوم إذ كان أبوه في السجن لأجل الإيمان أن تنزع عنه ثيابه لئلا يمضي فيشترك مع أبيه في العذاب، ولما لم يتمكن من الذهاب كتب إليه رسالة يحضه فيها على الثبات، ومما قاله فيها: «حذار يا أبتِ أن يغيّر العذاب رأيك في دعوانا». ثم لقي أبوه ربه تاركاً له أمه وستة أخوة أصغر منه. وضبطت الحكومة ما يملكون فأمسى اوريجانس في أشد الفاقة فشفقت عليه امرأة غنية شريفة وأقامته لديها. ولكن كان في بيتها رجل اراتيكي تبنته اسمه بولس، وكان في انطاكية. أفرغ اوريجانس قصارى جدّه ليرده عن ضلاله فلم يقلع عنه ولم يطاوع اوريجانس في إقامة الصلوة فزايل دار المحسنة إليه.

وإذ كان في الثامنة عشرة من سنه أقيم مدبراً لمدرسة الإسكندرية، وكانت الناس تتقاطر لسماع كلامه، حتى الوثنيون. وكان من هؤلاء بلوترخس الذي نصّره ثم قضى شهيداً شهيراً. ثم أخوه هركلياس الذي رُقيَ الكرسي الاسقفي في الإسكندرية بعد وفاة ديمتريوس أسقفها، وولّى الاسكندرية رجل اسمه اكويلا فأكثر من الاضطهاد على المسيحيين. وكان اوريجانس يتفانى في تشجيعهم وحضّهم على الثبات وقضاء حاجاتهم. فبالغ الوثنيون في السعاية به وحاولوا القبض عليه وإنزال السوء به. ولما كان يخطب في الإسكندرية كان الرجال والنساء من كل رتبة وسنّ يتسارعون لسماع كلامه. وكان حريصاً على عفّته وطهارة ذيله. ويخشى أن يرشقه خصماؤه وحسّاده بنبال اغتيابهم. فخصا نفسه مفسراً كلمة خصوا من قول المخلّص «خصيان خصوا نفوسهم من أجل ملكوت السماء» بمعناها الحقيقي وهي بالمعنى المجازي، أي انقطعوا عن الملاذ البدنية متبتلين حباً بالله. وقد تعجّب ديمتريوس أسقفه من فعلته هذه، ثم تذرّع بها للإعتراض على ترقية تيوتكتسيوس أسقف قيصرية

واسكندر أسقف أورشليم له إلى المقام الكهنوتي كما سيجئ. ثم مضى اوريجانس إلى روما يزور سافرينس حبرها، ثم عاد إلى الإسكندرية وعاود التعليم في مدرستها بإلحاح ديمتريوس الاسقف عليه. لكن لم يرَ نفسه كفوءاً وحده للتعليم فيها وإدارة مهامها فأشرك تلميذه هركلياس في قسم منها وقلّده تعليم الموعوظين والمعمدين حديثاً؛ ونبغ في هذه المدرسة في أيامه علماء وشهداء كثيرون ذكرهم اوسابيوس في الفصل الرابع من كتابه المذكور، وتعاظم غيظ الوثنيين وضغائنهم عليه حتى لم يرَ نفسه آمناً في الاسكندرية، فهاجرها إلى فلسطين فقبله اسكندر أسقف أورشليم وتيوكتيستوس أسقف قيصرية مرحبين به. ولما كان بلغهما من شهرة علمه وكانا يسمعان خطبه وقلّداه شرح التعليم المسيحي وأصول ديانتنا للشعب فشقّ ذلك على ديمتريوس أسقف الإسكندرية، وكتب إليهما عاتباً كما مرّ. ولما رأيا جهاده في خير الدين وتفرّده بالعلم بين أهل عصره رقاه تيوكتيستوس في قيصرية إلى درجة الكهنوت. فأخذ ديمتريوس أسقف الأسكندرية يندّد به ويبيّن أنه لم يكن أهلاً للكهنوت لا سيما للجناية التي اقترفها بخصي نفسه. وأذاع هذا الأمر في كل ناحية وبين المؤرخين خلاف في ما إذا كان حق لديمتريوس أن يعارض رسامة اوريجانس كاهناً بحجة خصاء نفسه. وهل خصاء الرجل نفسه مانع قانوني عن ترقيته درجة الكهنوت. فأوجب ذلك بارونيوس وغيره سنداً إلى أنه جاء في سفر التثنية (فصل ٢٣) منع الخصيان من أن يكونوا كهنة، وإلى أنه جاء في القوانين المنسوبة إلى الرسل مثل هذا المنع. وأنكر نطاليس اسكندر كون ذلك مانعاً لأوريجانس وأسند قوله إلى ما جاء في تاريخ اوسابيوس (ك ١ فصل ٨) من أنّ ديمتريوس لم يعب اوريجانس اولاً بخصاء نفسه بل زاد في كرامته. وإذ كان عابه به بعداً فلحسد وحنق منه واستشهد نطاليس بالقديس ايرونيموس أيضاً (فصل ٦٥) في جدول الكتّاب البيعيّين حيث يخطئ ديمتريوس بإذاعة خصاء اوريجانس نفسه ومعارضته له في كهنوته. ورد ما يرد على ذلك في سفر التثنية بأنّ وصايا السنّة القديمة لا يلتزم بها أهل السنّة المسيحية، وبأنّ القوانين المنسوبة إلى الرسل أُلفت بعد زمان اوريجانس.

وقد انكبّ اوريجاس على درس الفلسفة في مذهب بيتاغورس وأفلاطون ليستعين بذلك على رد مزاعم اولي البدع وعلى تفسير الكتاب. وكان صديقاً لامونيوس الفيلسوف المسيحي، إذ كان في الإسكندرية. وقد أبكم بريل أسقف

بصرى في المدافعة عن ضلاله حتى ردّه عنه وردّ أيضاً بعض العلماء العرب عن غواية كانوا استمسكوا بها. وجعل رجلاً شريفاً غنياً اسمه امبروسيوس يقلع عن ضلال والتنيانوس (على ما روى اوسابيوس ك ٦ فصل ١٨) أو عن ضلال مرقيون على ما روى ايرونيموس في كتابه المذكور. فكان ايرونيموس هذا صديقاً صدوقاً لأوريجانس يجري الرزق عليه وينفق على ما يؤلفه من كتبه. وزار اوريجانس المؤمنين في اخائيا (بلاد اليونان) يرشدهم ويثبتهم في الإيمان ويحضّهم على تحمّل الاضطهاد من أجل المسيح بالصبر الجميل. وأتى إلى انطاكية فدعته إليها ممّا والدة الملك اسكندر ساويروس وأجلّته وأكرمت مثواه وأقام أياماً عندها وكتب إلى الملك فيلبس (الذي يقال أنه كان مسيحياً) وإلى والدته رسائل ذكرها القديس ايرونيموس.

ولم ينجُ اوريجانس من الاضطهاد والعذاب من أجل المسيح. فقد روى اوسابيوس (ك ٦ فصل ٣٩) إنه قاسى في اضطهاد داكيوس أعذبة أليمة مبرحة، فإنّ ابليس أفرغ قواه في إثارة الظالمين عليه ليقوّض دعامة الإيمان. فألقي في السجن (في صور) وغُللت رجلاه بالقيود وجرت عليه أعذبة متنوعة. ولكن لم يقضِ عليه القاضي بالقتل. ويتبيّن من خطبه ورسائله التي كتبها بعد ذلك كم احتمل وكم عانى من العذاب والضيق. وجاء في كتاب القديس ايبفان في البدع (بدعة ٦٤) إنّ اوريجانس نجا من التعذيب بتقديمه بخوراً للأصنام، واضطره إلى ذلك الوالي بأن أدخل عليه حبشياً يقتسره على صنع الفحشاء ووضع في يده بخوراً وأمامه مجمرة، وخيّره في صنع أي الأمرين شاء. وكان اوريجانس شديد الحرص على عفّته فآثر أن يلقي البخور في المجمرة على اقتراف المنكر. على أنّ ايبفان لم يعيّن زمان سقوط اوريجانس ولا مكانه. ولذلك قال كثيرون من المحققين منهم هوتيوس العالِم الشهير إنّ هذا لم يكن في اضطهاد داكيوس الذي ذكر اوسابيوس تعذيب اوريجانس به لأنه كان حينئذٍ في فلسطين بل كان في اضطهاد سبتيمس ساويروس، إذ كان اوريجانس في الاسكندرية وبين مشاهير المؤرخين خلاف كبير في صحة هذا الخبر، فأنكره بارونيوس أمام المؤرخين سنداً إلى أنّ اعداء اوريجانس زادوا هذه الحكاية على كتاب ايبفان، وأنه يظهر من كلام ايبفان نفسه في كتابه في المكاييل والموازين ما يخالف تلك الرواية. وإنه لو صحّ ذلك في اوريجانس لما غفل ديمتريوس البطريرك الاسكندري عن ذكره في مقاومته لأوريجانس وتعييبه بخصاء نفسه كما مرّ. ولما أهمل ذكره برفيريوس عدو المسيحيين الألدّ الذي نقب عن زلات كثيرين

من علمائهم، ولما صمت عنه اوسابيوس وغيره من الآباء والعلماء إلّا من اغتربوا بالحكاية الواردة في كتاب ايفان. على أنّ نطاليس اسكندر أفرغ جدّه في إثبات هذا الخبر مستمسكاً بقول ايفان المذكور، وبمقالة ليوستنياس في اغلاط اوريجانس، ومستشهداً لأونيتوس في كتابه في البدع، ونيميسيوس الاسقف الفيلسوف في كتابه في الطبع البشري، ونيقيطا في الكتاب الرابع من كنز الإيمان، وانسطاس صاحب المكتبة إلى غير هؤلاء. وتابع العلامة يوحنا منسي نطاليس على تأييد رأيه في حواشيه على تاريخه. لكن غيره ممن علقوا الحواشي لهذا التاريخ فنّدوا زعمه وقالوا إنّ جميع من قالوا بسقوط اوريجانس اغتروا بما رواه ابيفان، وإنّ حجج بارونيوس هي أشدّ وأسدّ وإن ساغ لنا أن نبدي رأياً بين هؤلاء الفطاحل قلنا يظهر لنا أنّ أدلّة من كذبوا هذا الخبر أظهر وأقوى وأفضل. وقال كثير من المؤرخين إنّ اوريجانس أمسى بعد هذا التعذيب أكسح من قِبل الجراح التي انزلتها القيود برجلَيه. وإنه عاش بعد ذلك نحواً من أربع سنين غير منكفٍ عن جهده في التأليف والمكاتبات والخطب إلى أن توفاه الله سنة ٢٥٦م. وعن اوسابيوس في الكرونيكون سنة ٢٥٥ وعمره سبعون سنة وكانت وفاته ودفنه في مدينة صور.

وأما ما كتبه نادرة ذلك العصر فكثير نذكر جلّه عن اوسابيوس في الكتاب السادس من تاريخه، كان جلّ عناية اوريجانس مصروفة إلى إثبات الاسفار المقدّسة وتفسيرها، فقد نشر الكتاب المقدّس اولاً مؤلفاً من أربع ترجمات: الأولى الترجمة السبعينية، والثانية ترجمة اكويلا، والثالثة ترجمة سيماخوس، والرابعة ترجمة تيودوسيوس. قاسماً صفحاتْ كتابه إلى أربعة مقاطع واضعاً في كل مقطع ترجمة. وسمى هذه النسخة الرباعية أي ذات المقاطع الأربعة. ثم أذاع نسخة أخرى ذات ستة مقاطع سماها السداسية زاد فيها على الترجمات الأربع المذكورة ترجمة كانت وُجدت في نيكوبولي ببلاد اليونان وأخرى وُجدت في محل آخر. ثم اشتهرت نسخة ذات ثمانية مقاطع زاد فيها على النسخة الثانية ترجمة كانت وُجدت في أريحا في أيام الملك كركلا بن سبتيمس ساويروس، وأضاف في أولها النص العبراني. ثم عكف على تفسير الاسفار المقدّسة ففسّر أكثرها وأخصّها ثلاثة مجلدات في تفسير سفر التكوين وتسعة مجلدات في غيرها. فضلاً عن خطبه في تفسير الزبور وله في العهد الجديد كتاب في تفسير بشارة متى، وكُتب في تفسير بشارة يوحنا، وكتاب خطب في تفسير رسالة بولس إلى العبرانيين. وله كتاب في

المبادئ، وكتابان في القيامة، وعشرة في موضوعات مختلفة سماها اللفيف، وثمانية كتب في ردّ مزاعم شلسيون الفيلسوف الوثني وهي أحسن ما أُلّف في المدافعة عن المسيحين والدين المسيحي، وكتاب في الإستشهاد أرسله إلى اومبروسيوس وبرتوكتانوس، ورسائل لا تُعَدّ منها رسالة إلى الملك فيلبس وساويرا الملكة ورسالة إلى يوليوس الإفريقي يبيّن بها صحة خبر سوسنة، وأعمال مجمع بصرى، وجداله بريل، وأعمال المجمع الذي أفحم به العلماء العرب الذين كانوا ينكرون خلود النفس، وكتاب في ترجمة بمفيليوس، وآخر إلى فابيوس الحبر الروماني وغيره من الاساقفة. وتعزى إليه كتب أخرى لم يتفق المؤرخون في نسبتها إليه. وكان امبروسيوس المذكور أقام له سبعة كتّاب يملي اوريجانس عليهم متعاقبين (لا يلقنهم معاً كما يتوهم البعض) ما خلا الناسخين والناسخات الذين كانوا يدوّنون بخطوط جميلة ما كتبه اولئك (رواه اوسابيوس ك ٦ فصل ٢٣) وقد بقي إلى أيامنا كثير من تآليف اوريجانس طُبعت مرات وآخرها طبعة مين في باريس في مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية.

قلّ ما حاز رجل من الشهرة والاجلال ما حاز اوريجانس في عصره، وندر من لقيَ المقاومة والتعنيف ما لقيه هذا النابغة في حياته وبعد مماته. ففي حياته ناصبه كثيرون حتى ديمتريوس أسقفه مشنّعاً له حتى في رسالته العامة إذ كان أساقفة فلسطين يحلونه ذرى المجد والجلال. وبعد مماته انقسم العلماء حتى الآباء إلى فريقين فبعضهم أثبت عليه الابتداع والضلال وبعضهم عظّم قدره وأجلّه، وبسط عذراً من أغلاطه مؤلاً كلامه لمعانٍ تطابق الايمان القويم، وإما مفترضاً أنّ أعداءه أدخلوا على كتبه ما يدلّ على ضلال. فمن حكم عليه من القدماء ديمتريوس أسقف الاسكندرية، وتاوفيلس أسقف انطاكية والقديسون ابيفان وايرونيموس وكيرلس الإسكندري وغيرهم. وممن برأوه اوسابيوس أسقف قيصرية وروفينوس وغيرهما. والذي عليه المعول إنّ بعض كتب اوريجانس تضمّنت أغلاطاً مخالفة الايمان، أخصّها ما يأتي أولاً تعليمه أنّ النفوس خُلقت قبل الأجساد. ثم تُرسل إليها تعاقباً لتسجن فيها لجرائم ارتكبتها ثانياً. إنّ الشياطين والهالكين سينتفعون من آلام المخلّص. بل إنّ المخلّص سيصلب ثانيةً لأجل الشياطين. ثالثاً إنّ عذاب الهالكين ليس أبدياً وسعادة الطوباويين ليست خالدة بل يمكن تبدّل حال الفريقين. رابعاً إنه سلم بقيامة النفوس لفظاً فقط وأنكر قيامة الأجساد قطعاً إلى غير ذلك مما يعزى إليه من

الأضاليل التي حرّمها بعض الأحبار الأعظمين ولا سيما البابا انسطاسيوس، ونُبذت في بعض المجامع ولا سيما المجمع الخامس المسكوني. إلّا أنّ شخص اوريجانس لم يحرم ولم تصدر الكنيسة حكماً باتاً أهالك هو أم خالص، لأنه كان يكتب ما كتبه مخضعاً إياه لسلطة الكنيسة ولقرّائه من العلماء. ولم ينبّه في حياته إلى ضلاله وأصرّ عليه ولا تنبذ الكنيسة الكاثوليكية كتبه التي لا ضلال بها بل تنزلها منزلة رفيعة من الاجلال وتعتمد على شهادته بها، ولا تعتد اراتيكياً من دافع عن اوريجانس بأنه لم يكتب هذه الأضاليل أم لم يقصد بها معنى مخالفاً الإيمان بل تحسب اراتيكياً من استمسك بما في كتبه مما تحسبه الكنيسة ضلالاً. وما برح الخلاف على أقوال اوريجانس بين العلماء إلى هذه القرون الأخيرة، فقد ضلّله نطاليس اسكندر (في تاريخه) زاعماً أنه أنكر الثالوث الأقدس ولاهوت الابن ولزوم نعمة المسيح. وبرأ ساحته من الضلال بها روهربخر في تاريخه البيعي مورداً من أقواله ما يدرأ عنه شبهة الضلال بها. ونختم كلامنا بما كتبه القديس ايرونيموس (رسالة ٦٥) إذ كان يقاوم شديد المقاومة الأوريجانيين. «وافقونا على أنّ اوريجانس انخدع في بعض الرسائل فلا يبقى لي ما أقول وإن اعترضنا من يحسدونه على فخره ببعض أغلاط له فليعلموا أنّ الخطأ من شيَم كبار الرجال فلا نتشبثنَ بزلات من لا نستطيع مباراته في فضائله».

عد ٥٥٣

بمفيل ودوروتاوس وملكيون

أما بمفيل فلم يذكر اوسابيوس من تاريخه إلّا ما صنعه بعد أن كان كاهناً في قيصرية. وقد عثرنا في تاريخ روهربخر (ك ٣٠) على ترجمته كاملة فقال إنه وُلد في بيروت من أسرة حسيبة، وانكبّ على العلوم فيها منذ صبائه. وصار حاكماً في بيروت ثم ترك كل شيء وانكبّ على درس الاسفار المقدسة ثم مضى إلى الإسكندرية. ويقال إنه خلف اوريجانس في تدبير مدرستها ثم أتى قيصرية فلسطين وأنشأ مدرسة فيها وكأنه رقي من ثم إلى المقام الكهنوتي لأنّ اوسابيوس يصرّح بأنه كان كاهناً إذ قال فيه (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢) وكان في هذا الزمان (أي إذ كان اغابيوس أسقفاً على قيصرية فلسطين) بمفيل الخطيب المصقع والفيلسوف

الحقيقي في سيرته وأعماله وقد ترقى المقام الكهنوتي في هذه الكنيسة. ويجدر بنا أن نبيّن ما كان عليه هذا الرجل الكبير من الفضل والعلم إلّا أننا أفردنا كتاباً مخصوصاً للكلام في سيرته والمدرسة التي انشأها وما عاناه من جهاد البسلاء في إبّان الاضطهاد وفوزه أخيراً بإكليل الشهادة.

وعن القديس ايرونيموس في جدول المؤلفين أنّ اوسابيوس كتب ثلاثة كتب في ترجمة بمفيل. وإنّ بمفيل أنشأ مكتبة في قيصرية. وعن ليسيدورس الفرمي إنّ هذه المكتبة اشتملت على ثلاثين ألف كتاب وإنّ كثيراً منها خطته يده. وقد أشار اوسابيوس إلى إنشائه هذه المكتبة في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ٣٢) وقال فيه في كتابه الثامن (فصل ١٣) متكلماً في بعض الشهداء «ولا ينبغي أن نغفل في تعداد هؤلاء عن ذكر فخر كنيسة قيصرية ومجدها الباذخ بمفيل الكاهن الذي أصبح لدى كل أهل عصرنا غرضاً للتعجّب.وسنأتي على ذكر بسالته وأعماله المجيدة».

وقال فيه في الفصل السابع من كتابه في شهداء فلسطين «وكان في جملة هؤلاء الشهداء الذين عذبهم الوالي وألقاهم في السجن، بمفيل أعزّ رفقائه إليّ من أحرز قصبات السبق على جميع شهداء عصرنا بما أبداه من البسالة الغريبة وبما ناله من الفخر والثناء».

وذكر (في الفصل ١١ من هذا الكتاب) خبر استشهاده مع إثني عشر شهيداً مفصلاً، وهاك ملخّص ما قال: «قد حان لنا أن نتكلّم في ذلك المشهد المفجع المشهور الذي نال فيه إكليل الشهادة بمفيل الذي يعزّ عليّ ذكره مع رفقائه الإثني عشر الذين كان هو أمامهم. وكان وحده كاهناً بينهم، وكان قد صرف حياته كلها مثابراً على ممارسة كل نوع من الفضائل، كهربه من مجد العالم واحتقاره له وجوده على الفقراء، واستخفافه بالكرامات الدنيوية التي كان على غاية الأهلية لها، وعيشته الفلسفية المنزهة عن كل سمعة وولوعه في مطالعة الاسفار المقدّسة أكثر من أهل عصرنا طراً. وعزيمته الشديدة، وجدّه الذي لا يكلّ في كل ما ينوي أن يبديه من الأعمال الصالحة، وغوثه كل من لجأ إليه في أي الأمور كان».

وقد كتبنا ترجمته في ثلاثة كتب أبنّا فيها فضائله وأعماله الخطيرة التي تقتصر عنها خطبة ولو مسهبة. فمن أحبّ زيادة إسهاب فليطالع كتبنا المذكورة (لم نظفر

بمطالعتها) ثم وصف كلاً من رفقائه على حدة إلى أن قال إلى الوالي المسمى فيرميليانوس بعد سجنهم مدة طويلة، وأجرى عليهم أعذية متنوعة ورآهم مبتهجين بما قاسوه من أجل ان إيمانهم استحضرهم إليه، وسألهم قائلاً أما تطيعون بعد كل هذا العقاب أمر الملك؟ فلم يسمع منهم إلّا كلمة ايثارهم الموت على مخالفة إيمانهم. فأمر بقتلهم ، وقد علّقوا بمفيل على خشبة وأضرموا النار عليه فبشّ وهشّ وكل ما سُمع من كلامه «يايسوع ابن الله كن معيني واسلم روحه القدوسة» وكان ذلك في أيام الملك مكسيمينس بعد أن أقام في السجن سنتين أي من سنة ٣٠٧ إلى سنة ٣٠٩م والكنيسة الرومانية تعيّد لذكره في اليوم الأول من حزيران. وقد خلف من التآليف نسخة في الكتاب المقدّس وكتاباً في تفسير كتاب أعمال الرسل. وكتاباً في المدافعة عن اوريجانس ألّفه بالإشتراك مع اوسابيوس كما ذكر هذا في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ٣٣) حيث قال في اوريجانس أنّ من يرغبون في الوقوف على حقيقة حاله «عليهم أن يطالعوا كتاب المدافعة الذي وضعته مع شهيد عصرنا بمفيل القديس محاماة عنه مما يغتابه به بعض الشّاكين الأردياء».

أما دوروتاوس فقال فيه اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢) وخلف في كرسي انطاكية كيرلس تيماوس، وقد عرفنا في أيامه دوروتاوس كاهن كنيسة انطاكية العلامة وكان ضليعاً جداً في الاسفار المقدّسة وتعلّم اللغة العبرانية ومهر فيها. وقد جمّله الله بعقل ثاقب وكان فقيهاً في العلوم الدنيوية بارعاً فيها. ووُلد خصياً، وتعرّف الملك به واستغرب خصاءه من حشا أمه كأعجوبة. وقرّبه إليه وأقامه قهرماناً على أملاك له في جهة صور، وقد سمعناه يفسّر الاسفار المقدّسة في الكنيسة تفسيراً فصيحاً بليغاً.

وكان في صور كاهن اسمه دوروتاوس أيضاً قضى شهيداً. وتعيّد له الكنيسة الرومانية في الخامس من حزيران، وقد حسب بارونيوس (في حواشيه المعلقة على السنكسار الروماني) دوروتاوس الإنطاكي، ودوروتاوس الصوري واحداً. وتعقبه بلوندلّس في مدافعته عن رأي ايرونيموس. وقال محشّى تاريخ اوسابيوس (في المحل المذكور) خطأ بلوندلّس بارونيوس فوقع في خطأ أكبر إذ حسب دوروتاوس الكاهن الأنطاكي الذي تكلم اوسابيوس فيه هنا دوروتاوس خصي الملك ديوكلتيان الذي ذكر اوسابيوس استشهاده في الكتاب الثامن واحداً. ولا امتري في أنهما إثنان لا

دالة واضحة منها أنّ دوروتاوس الكاهن الأنطاكي لم ينل إكليل الشهادة إذ لم يذكر ذلك اوسابيوس هنا ولا في كتابه الثامن حيث عدد الشهداء. وأتى بذكر لوشيانس الكاهن الإنطاكي لا دوروتاوس ولا محل ليغفل عنه وكان استاذاً للوشيانس ومنها أنّ درورتاوس الكاهن كان من أشرف القوم وتقلّب في مناصب الحكومة قبل أن يكون كاهناً. ودوروتاوس خصي الملك كان من سفلة القوم كعادة الخصيان ومنها أنّ دوروتاوس الكاهن كان في أيام كيرلس البطريرك الأنطاكي الذي استوى على هذا الكرسي في السنة الرابعة للملك بروبوس واستمرّ عليه إلى السنة السابعة عشرة لديوكلتيان.

فإذا كان دوروتاوس كاهناً في أيام ديوكلتيان، فلا يمكن أن يكون خصياً له أو خادماً في مخدعه وهو كاهن. والمتحصل مما مرّ، أنّ دوروتاوس الكاهن غير دوروتاوس الخصي الشهيد. وهذا مما لا أرى وجهاً للريبة فيه. وأما هل دوروتاوس الكاهن الصوري الشهيد غير دوروتاوس الكاهن الإنطاكي خلافاً لما رواه بارونيوس أمام المؤرخين، فهذا عندي فيه نظر ولا سيما لأنّ اوسابيوس ذكر أنّ دوروتاوس الإنطاكي جعله الملك قيّماً على ملكه في ناحية صور. فقد يمكن أن يكون قضى هناك شهيداً. وسماه بعضهم صورياً فتلقى بارونيوس هذه التسمية عنهم.

وأما ملكيون فكان عالِماً بارعاً وخطيباً مصقعاً في انطاكية، وكان رئيساً لمدرسة الجدليين فيها، ولاستمساكه الشديد بعروة الإيمان الوثقي، رُقي إلى المقام الكهنوتي في انطاكية. وأعظم ما اشتهر فيه جداله بولس السميساطي بحضرة الاساقفة المجتمعين في المجمع الإنطاكي، حيث أفحم هذا المبتدع وأبكمه، وفاق الجميع بالكشف عن أفكاره ومخادعاته وموارباته وتزييف أقواله. ذكره اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٢٩). وقال إنّ نصّ هذا الجدال الذي دوّنه كتبة المجمع باقٍ إلى الآن. واستشهد لاونتيوس (في ك ١ من رد مزاعم نسطور) بفقرة منه، وقال توادوريطس (ك ٢ في حكايات الهراطقة) إنّ ملكيون فاز بفخر ومجد عظيمين من تفنيده ضلال بولس السميساطي حتى استحق أن يعيّد له في ميناوون الروم في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الأول.

عد ٥٥٤

من عاصر هؤلاء المشاهير في سورية من الآباء والعلماء في غيرها

إننا رغبة في توفير الفوائد نذكر من كان في هذا القرن من مشاهير الآباء والعلماء في غير سورية أيضاً، على أننا نؤثر الإيجاز في كلامنا على هؤلاء لخروجهم عن دائرة غرضنا. وأولهم القديس كبريانوس وُلد في قرطاجنة في مبادئ القرن الثالث من والدين حسيبين غنيين. وكان فصيحاً علّم الفصاحة مدة متطاولة وكان اولاً وثنياً فردّه إلى الإيمان المسيحي كاهن من مواطنيه اسمه شيتيليوس. ثم انتُدب أسقفاً على قرطاجنة سنة ٢٤٨، وقد لقي مُرّ الاضطهاد في أيام الملك داكيوس، حتى أُرغم أن يزايل قرطاجنة إلّا أنه عاد إليها بعد أمدٍ وجيز ليخمد جذوة شقاق ثار فيها في إبان غيبته، وكان بينه وبين البابا اسطفانوس الحبر الروماني جدال عنيف في صحة تعميد المبتدعين والمشاقين. وكان كبريانوس يرى أنّ تعميدهم باطل وأنهم إذا عادوا إلى الكنيسة لزم تعميدهم ثانية. ويخالفه الحبر الروماني مثبتاً أنّ تعميدهم صحيح ثابت. واتسع نطاق هذا المبحث إلى كثير من أساقفة المشرق والمغرب إلى أن أذعن كبريانوس ومحازبوه من الشرقيين لرأي الحبر الروماني. ثم نُفي كبريانوس من كرسيه سنة ٢٥٨م وبعد أمدٍ قليل نال إكليل الشهادة وكتب لانتيوس شماسه ورفيقه في منفاه إلى يوم استشهاده ترجمته وخبر موته. وتعيّد لذكره الكنيسة الرومانية في ١٦ ايلول. وأخصّ مؤلفاته كتابه في من جحدوا الإيمان في اضطهاد داكيوس، وكتابه في وحدة الكنيسة، وكتابه في الصلوة الربية واحدى عشرة خطبة، واحدى وثمانون رسالة، وكتابه في اليهود الذين صلبوا المسيح. وقد عزا إليه بعضهم كتباً أخرى عديدة ولم يتحقق أنها له، وقد طُبعت مؤلفاته مرات وآخرها طبعة مين في مكتبة الآباء اللاتينيين، وقد تُرجم بعض كتبه إلى الإفرنسية.

ومن هؤلاء أيضاً مونيوس الفيلسوف المسيحي الإسكندري استاذ بلوتين واوريجانس ولنجين وغيرهم في مدرسة الإسكندرية، وقد تشبث بعرى الدين المسيحي خلافاً لما زعمه برفير من أنه جحد إيمانه. وقد برّأ ساحته من هذه التهمة اوساييوس في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ١٣) والقديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٥٥) قائلاً فيه: «إنّ من الآثار العديدة التي خلفها دالة

على حذقه وطول باعه كتاباً ألّفه في التوفيق بين موسى والمسيح، وكتاباً في القوانين الإنجيلية اتبعه فيه بعد ذلك اوسابيوس القيصري وقد اتهمه برفير أنه حجد المسيح وصار وثنياً ولا مراء في أنه ظلّ متشبثاً بعرى الدين المسيحي إلى وفاته». وله أيضاً في توفيق الأناجيل كتاب ولتاسيان السرياني كتاب بهذا العنوان فلم يميّز بعضهم بين الكتابَين والمؤلفَين، فعزوا كتاب تاسيان إلى امونيوس وكتاب امونيوس إلى تاسيان وأدركت الوفاة امونيوس سنة ٢٤١م.

ومنهم أيضاً القديس غريغوريوس الملقّب بصانع العجائب لكثرة ما صنع الله على يده من المعجزات. وقال فيه القديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٦٥) إنه إذ كان شاباً شخص من الكبادوك إلى بيروت طالباً العلوم اليونانية واللاتينية، ثم مضى إلى قيصرية فلسطين مع أخ له يسمى اتنادوروس. وكان اوريجانس فيها فرأى فيهما ملامح الذكاء والحذاقة وأغراهما بدرس الفلسفة فلازماه خمس عشرة سنة، وأكسبهما العلم واعتناق الدين المسيحي وعادا إلى وطنهما. وانتدب غريغوريوس إلى أسقفية قيصرية الحديثة في بنطوس سنة ٢٤٠. ويُروى أنه لم يكن في قيصرية حين ارتقائه إلى الاسقفية إلّا سبعة عشر مسيحياً، ولم يبقِ فيها عند موته إلّا سبعة عشر وثنياً. وقد شهد المجمع الإنطاكي الذي نبذ تعليم بولس السميساطي، وقد عانى عذاباً أليماً في اضطهاد داكيوس لكن الله نجّاه من الموت بأعجوبة وقد لقي ربه في ١٧ ت ٢ سنة ٢٦٥م. وفي رواية أخرى سنة ٢٧٠م. وكتب ترجمته القديس غريغوريوس النيصصي، وذكره اوسابيوس في تاريخه (ك ٦ فصل ٣٠) والقديس باسيليوس في كتابه الروح القدس (فصل ٢٩) وقد ألّف كتاباً في شرح عقائد الايمان. روى النيصصي في ترجمته أنه كتبه بوحي العذراء مريم ويوحنا الإنجيلي. وقد وصف القديس ايرونيموس (في كتابه المشاهير فصل ٦٥) هذا الكتاب بأنه موجز لكنه كثير الفائدة، وقال إنّ له عدة رسائل أخرى يعرفها الجمهور ومقالة في المدافعة عن اوريجانس تلاها على حشد من الناس بحضرته. وذكر له القديس باسيليوس (في رسالة ٦٤ إلى أهل قيصرية المذكورة) مقالة أخرى في شرح الإيمان تذرّع السابيليون بفقرة منها ليزعموا أنه كان يرى رأيهم. فأثبت القديس باسيليوس أنّ لكلام غريغوريوس معنى غير ما تمحلوه له. وقال آخرون إنّ هذه المقالة ليست له بل عزاها السابيليون إليه أو حرّفوها، وأثبت نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث) إنّ له رسالة مشتملة على قوانين في نوع التصرف مع من

يأكلون من الذبائح المقدّمة للأوثان أو يقترفون إثماً آخر بإغراء الوثنيين. وقال أجمع الشرقيون والغربيون على صحة نسبة هذه الرسالة إلى غريغوريوس.

ومن هؤلاء أيضاً القديس ديونيسيوس الإسكندري ذكره القديس إيرونيموس بين المشاهير (فصل ٦٩)، وقال إنه أشهر تلاميذ اوريجانس، وإنه دبر مدرسة التعليم المسيحي في الإسكندرية في أيام هرقل سالفه في الاسقفية، ثم ارتقى المقام الاسقفي في الكنيسة الإسكندرية، واستمر في من سنة ٢٤٨ إلى سنة ٢٦٥م. وقد ذكره اوسابيوس في فصول عديدة من الكتاب السادس من تاريخه. وكان ممالئاً القديس كبريانوس ومجمعه الإفريقي في لزوم إعادة تعميد الهراطقة رواه القديس ايرونيموس في الفصل المذكور. وقال إنه أنفذ رسائل عديدة إلى كثيرين في هذه المسألة وغيرها وإنّ هذه الرسائل كانت باقية في أيامه منها رسالة إلى فابيوس أسقف انطاكية في التوبة، ورسالة إلى الرومانيين انفذها بيد ايبوليطس كاهنه، ورسالتَين إلى فوستوس الذي خلف البابا اسطفانوس، ورسالتَين إلى فيلومان وديونيسيوس كاهنَي الكنيسة الرومانية، ورسالة إلى ديونيسيوس هذا بعد أن رقي إلى عرش الحبرية. وكتب رسالة إلى نوفاسيانوس (في تاريخ اوسابيوس إلى نوفاتوس وصحح بعضهم رواية ايرونيمس) الذي كان أحدث شقاقاً في روما يؤنبه فيها ويبيّن له بطلان اعتذاره بأن يفعل ما يفعل مجبراً من محازبيه. وله عدا هذه الرسائل وغيرها مقالة في الفصح وأخرى في السبت. وكتابان في رد مزاعم نيبوتي الاسقف الذي زعم أنّ المسيح سيملك ملكاً جسدياً ألف سنة بعد القيامة. وأربعة كتب رفعها إلى ديونيسيوس الحبر الروماني إلى غير ذلك من الكتب والمقالات والرسائل التي ذكرها القديس ايرونيموس في المحل المذكور وقد قُبض عليه في الاضطهاد الذي أثاره داكيوس وقصّ ما عرض له حينئذٍ من الضنك في رسالته رداً على جرمانوس. وروى كلامه فيها اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ١١). وتوفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥م. وفي رواية أخرى سنة ٢٦٤م. وكان في هذا القرن أيضاً القديس ديونيسيوس الحبر الروماني وله رسالة في تفنيد ضلال السابيليين لم يبقَ منها إلّا فقرة ذكرها القديس اتناسيوس في كتابه في رسوم المجمع النيقوي. وتعزى إليه رسالتان أخريان الأولى إلى اوربانس الوالي والثانية إلى ساويروس الاسقف، وليستا له حقيقة (عن نطاليس اسكندر في تاريخ القرن الثالث).

وكان أيضاً في هذا القرن القديس كرنيليوس الحبر الروماني قال فيه القديس

ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٦٦) إنّ القديس كبريانوس كتب إليه ثماني رسائل، وكتب هو رسالة إلى فابيوس (وفي رواية أخرى فابيانوس) أسقف انطاكية في ما كان في المجامع الروماني والإيطالي والإفريقي (في شأن إعادة عماد المبتدعين). وأنفذ إليه رسالة ثانية في شأن نوفسيانوس ومن جحدوا في زمان الاضطهاد. ووجه إليه رسالة ثالثة في ما كان في المجمع الروماني (سنة ٢٥١م)، ورسالة رابعة مسهبة تشتمل على ما حمل نوفاسيانوس على إبداع بدعة وعلى طعنه بالحرم. وقد دبر الكنيسة سنتين وقضى شهيداً (سنة ٢٥٢ أو سنة ٢٥٣م) في عهد الملكين غلوس وفولوسيان. انتهى كلام ايرونيموس وقد روى اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٤٣) قسماً كبيراً من رسالة كرنيليوس الرابعة إلى فابيوس الإنطاكي.

وكان أيضاً حينئذٍ مينوشيوس فيلكس وكان من مشاهير محامي الدعاوى في روما، وله محاماة عن إيمان المسيح على طريقة جدلية بين مسيحي ووثني ذكره القديس ايرونيموس (في فصل ٥٨ من كتابه في المشاهير) وكان أيضاً غايوس كاهن الكنيسة الرومانية في عهد البابا زافيرينوس ثم أُقيم أسقفاً على الأمم ولم تعيّن له أبرشية خاصة. وله محاورة مشبعة في تنفيذ مزاعم بركلس أحد أتباع منتانس ذكره اوسابيوس (في ك ٢ من تاريخه فصل ٢٤ وفي محال أخرى) والقديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٥٥).

عد ٥٥٥

الشهداء في سورية في القرن الثالث وأوائل الرابع

لا جرم أنّ الشهداء من أفضل المشاهير. فإن اشتهر العلماء بأتعابهم في تآليفهم، فقد اشتهر الشهداء بسفك دمهم حباً بدينهم. على أنّ توفّر عدد الشهداء في سورية في هذا القرن يقضي علينا بأن نوجز الكلام في أخبارهم. قد ذكرنا في عد ٥٣٨ من الاضطهادات التي أثارها الملوك الرومانيون على المؤمنين إلى الاضطهاد السادس. والآن نقول إنّ الاضطهاد السابع أثاره الملك سبتيمس ساويروس في أواخر ملكه سنة ٢٠٤م. وفي جملة الشهداء في هذا الاضطهاد لاوُنيد ابو اوريجانس. والاضطهاد الثامن أثاره الملك مكسيمينس سنة ٢٣٧م بغضاً لآل الملك اسكندر ساويروس الذين كان من رجال دولتهم كثيرون من المسيحيين. والتاسع أثاره الملك

داكيوس نحو سنة ٢٥٠م. وممن نالوا إكليل الشهادة فيه القديس فابيانس الحبر الروماني، واستمر هذا الاضطهاد في أيام الملك غلّوس وفولوسيان. وممن استشهدوا فيه القديس كرنيليوس الحبر الروماني والعاشر أثاره الملكان فالريان وكليان سنة ٢٥٩م. وممن نالوا إكليل الشهادة فيه القديسان اسطفانوس وسيستوس الحبران الرومانيان. والحادي عشر أثاره الملك اورليان سنة ٢٧٢م (على رواية بارونيوس) وقد استشهد فيه كثيرون. وإن قال اوسابيوس (ك ٧ فصل ٢٤) أنه كفّ عن هذا الاضطهاد إذ أيبس الله يد كاتبه حين كان يدوّن أمره باضطهاد المسيحيين. والثاني عشر هم اقساها وأطولها زماناً وقد أجراه الملكان ديوكلتيان ومكسيميان سنة ٣٠٢ أو سنة ٣٠٣م، وفيه هُدمت الكنائس وأُحرقت الاسفار المقدّسة، وتوفّر عِداد الشهداء على أنّ اوسابيوس في الكرونيكون وغيره لا يعدون من هذه الاضطهادات إلّا عشرة لإسقاطهم الاضطهادَين الأولَين اللذين كانا في أيام الرسل.

إنّ الشهداء والشهيدات في سورية في هذه الاضطهادات أكثر من أن يحصوا فنجتزئ بذكر بعضهم، ذكر منهم مؤلف الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة في صيدا زنوبيوس الكاهن في أيام الملك مكسيميان. وفي بانياس نيكوستراتس وانطيوخس ورفقاؤهما وتوادوسيا أو بروكوبيوس الشهيد مع إثنتي عشرة امرأة من أعيان هذه المدينة في عهد ديوكلتيان. وفي اطرابلس نال إكليل الشهادة اولاً لاونتيوس في أيام أدريان. وروى بروكوب أنّ الملك يوستنيانس أنشأ فيها على اسمه كنيسة بديعة. وصحبه في استشهاده ايباتوس وتريبونس وتوادولس. واستشهد فيها في أيام ديوكلتيان لوشيان ومتروبيوس وبولس وزينوبيوس وتباتيئس ودورسس وفي ابامیا على العاصي استشهد في أيام انطونينوس القديسان اسكندر وغايوس وفي اضطهاد ديوكلتيان القديس مكيسمس من أعيان هذه المدينة.

وفي دمشق فاز بإكليل الشهادة في أيام داكيوس القديسون ساپینس ويوليانس ومكسيمس ومكربيوس وكاسيوس وبولس مع عشرة آخرين من أبطال الدين المسيحي. وفي حمص استشهد القديس سلوانس أسقفها كما مرّ في الكلام عليه ونال الإكليل معه صنديدان من أبطال الإيمان في مدينته. ومن بيروت القديسة مرشيانا فازت بإكليل الشهادة في قيصرية في اضطهاد ديوكلتيان. وكان في أيام الملك يوستنياس كنيسة بديعة في بيروت تكرّم فيها عظام القديس كوارنس أسقفها الأول وأخرى من عظام القديسة مرشيانا هذه.

وفي انطاكية نال إكليل الشهادة في هذا القرن القديس ايبوليطس كاهن هذه المدينة الذي كان يدافع عن الإيمان مخالفاً النوفاسيانيين. وكان استشهاده في اضطهاد داكيوس سنة ٢٥٠م. وتبعه القديس نيكوفورنس بموته حباً بالإيمان في اضطهاد فالريان سنة ٢٦٠م والقديسان نيقيا وبولس وبخا والي انطاكية على قسوته فرفعهما ضحية لله سنة ٢٨٥م. والقديس بارولا سأله الوالي وهو حدث عن معتقده فأجابه أنه لا يعبد إلّا إله المسيحيين فقطع رأسه غير مراعٍ حداثة سنه والقديسون انطونيوس الكاهن ويوليانس وانسطاس وشلسس ومرشيوتيلاً وإخوتها السبعة وباسيليا العذراء أريق دمهم حباً بالله في اضطهاد ديوكلتيان سنة ٣٠٢م إلى غير هؤلاء في انطاكية.

وقد خلف لنا اوسابيوس القيصري كتاباً برمّته في شهداء فلسطين ينطوي على ثلاثة عشر فصلاً. قال في فاتحته في السنة التاسعة عشرة للملك ديوكلتيان في شهر نيسان أذاع افلابيانس والي فلسطين أمراً من الملك فحواه أن تُنقض الكنائس وتُحرق الاسفار المقدّسة، ويُنزع أصحاب الرتب من رتبهم ويُخلع من كان في منصب عن منصبه إذا تشبثوا بالدين المسيحي وبعد إذاعة هذا الأمر نشروا أمراً آخر مؤداه أن يُطرح جميع رؤساء الكنائس في الجن ويُرغموهم بكل نوع من التنكيل على تقدمة الذبائح للآلهة» ثم ذكر في الفصل الأول استشهاد لاكوبيوس وكان من أورشليم ومتوطناً باسان وقارئاً في كنيستها يترجم إلى الشعب ما يتلى في الكنيسة من الاسفار المقدّسة باليونانية إلى لغتهم السريانية. ثم رفيقيه في استشهاده وهما حلفى وزكى من مدينة كادارا (المسماة الآن أم قيس في عبر الأردن) فهؤلاء بعد أن عذّبهم عذاباً مبرحاً أمر بقطع رؤوسهم في قيصرية فلسطين. وذكر في الفصل الثاني القديس رومانس الشهيد وكان شماساً في كنيسة قيصرية فلسطين. ومضى إلى انطاكية وذهب يوماً ومعه كثير من النساء والأطفال إلى هيكل الوثنيين وهم مجتمعون فيه للذبيحة، فلم يطق أن يرى هذا المشهد صامتاً بل بعثته غيرته على تونيبهم والسخرية منهم فقبضوا عليه وأشخصوه أمام الوالي فحكم عليه اولاً أن يُحرق فأذعن للحكم باشاً وأراد الوالي أن يقطع لسانه فلبى تنفيذ الحكم عليه ودلعه طائعاً. وروى فم الذهب في خطبتين له في هذا الشهيد واوسابيوس في محل آخر أنه بقي يتكلّم بعد أن قُطع لسانه بقوة الله كما كان يتكلّم قبله، وبعد أن ساموه صنوفاً من العذاب أماتوه مشقوقاً إلى نصفين. وذكر في الفصل الثالث تيموتاوس

من غزة أماتوه محروقاً بالنار، واغابيوس وتقلا امرأته طرحوهما في غزة للوحوش الضارية، وثمانية شهداء آخرين منهم ديونيسيوس من اطرابلس واسكندر من غزة أماتوهم بقطع رؤوسهم في قيصرية.

وذُكر في الفصل الرابع استشهاد القديس ايفانيوس ويسمى امفيانس أيضاً قائلاً ما ملخصه إنه كان في مدينة باكاس في ليشيا (بآسيا الصغرى) ابن والدين حسيبين طلب علم الفقه وتعلّم اللغة اللاتينية في بيروت، وأقام فيها سنين مثابراً على إتمام فروض ديانته، حريصاً على عفّته لا تستغويه ملاذ الشبيبة ولا عشرة الأردياء الكثيرين في هذه المدينة. وبعد أن أكمل دروسه عاد إلى وطنه فلم يُطق الإقامة مع والدَيه وأنسبائه لتقاعدهم عمّا تقتضيه العيشة المسيحية فغادرهم غير مبالٍ بفروغ يده من النفقة اللازمة في سفره، وقادته العناية الربانية إلى قيصرية حيث كانت قد أعدّت له الإكليل، وأصدر حينئذٍ مكسيمينس أمره بجمع الأهلين في كل مدينة ليضحوا للآلهة الوثنيين. وكان الجنود يستاقون الناس لذلك فمضى ابيفانيوس من تلقاء نفسه وخفية عنا إذ كنا في بيت واحد وشخص أمام الوالي يحضّه أن يرعوي عن ضلاله ويكفّ عن اضطهاد المسيحيين، فوثب عليه أعوان الوالي كالوحوش الضارية وأثخنوه جراحاً وألقوه في السجن مغللاً. ثم استاقوه في اليوم التالي إلى القاضي وحاول إكراهه على التضحية للأوثان فتحمّل تباريح أليمة وانتثر لحمه حتى ظهرت عظامه، وهو لا ينثني عن ثباته، فأمر الوالي المعذبين أن يصبّوا زيتاً على رجلَيه وأطراف ثيابه ويلقوا النار عليه فأحرقت النار ثيابه ولحمانه وبقي فيه رمق، فكلفه الوالي أن يذعن لأمره فأبى، فأمر أن يُغرقوه في البحر بعيداً عن الشاطئ فاضطرب البحر وعصفت أرياح زعازع وتزلزلت قيصرية ومادت وقذفت الأمواج جثة الشهيد إلى باب المدينة. قال اوسابيوس كاتب هذه الترجمة لو لم أرَ بعيني هذه الآية وأتذكرها حق التذكر، ولو لم يكن شهود عيان كثيرون لما دوّنتها تذكرة للخلف. وذكر في الفصل الخامس اولبيانوس واوسيوس قائلاً إنهما كانا أخوين من صور وأشخصا أمام الحاكم أحدهما بعد الآخر، ولما أنكرا عليه التضحية للأصنام عذبهما شديداً فلم ينفكا عن ثباتهما فغرّقهما في البحر.

وذكر في الفصل السادس اغابيوس الشهيد (غير اغابيوس المار ذكره) وقال إنه كان في السجن من أجل إيمانه وأتى مكسيمينس الملك إلى قيصرية يحتفل بعيد مولده بعظيم الاحتفاء على عادتهم. وأراد أن يرى الحشد مشهداً غريباً فأشخصوا

اغابيوس أمام الملك وتملّقه وتهدّده ليجحد إيمانه فصرّح بعزمه أن يتحمّل كل عذاب مسروراً ولا يكفر بربه. وكان حينئذٍ في هذا المشهد رجلٌ قتل مولاه فعفا الملك عنه وأمر أن يُطرح بطل الدين للوحوش الضارية، فتسارع الشهيد إلى لقاء الدب الذي أطلقوه عليه فمزّق لحمانه، وبقي فيه رمق فأعاده إلى السجن. ولما استمر إلى الغد حياً علّقوا برجله حجراً وطرحوه في البحر فقضى نحبه.

وذكر في الفصل السابع توادوسيا العذراء ودومنينوس واوكسانيوس الشهداء. أما توادوسيا فكانت من صور وكانت في الثامنة عشرة من سنّها فأتت قيصرية ومضت يوم أحد القيامة تزور المسجونين من أجل الإيمان وتشجعهم وتسألهم أن يذكروها إذا لقوا ربهم. فشكاها السجّان إلى الوالي فاحتضرها وأمر بجلدها حتى انتثر لحمها وظهرت عظامها، ورآها مسرورة بتحملها العذاب من أجل إيمانها فأمر أن تُغرق في البحر فطارت نفسها من اللجة إلى لقاء ربها في السماء. وعاد الوالي إلى التنكيل بغيرها من السجناء. وكان بينهم رجل حسيب اسمه دومنينوس يعرفه كل أهل فلسطين بشدّة عزمه وصدق مقاله (ولم يذكر من أين هو) ولما لم ينثنِ عن ايمانه بوعد أو وعيد أمر أن يحرقوه حياً فكانت النار إكليل نور لنفسه. وكان من السجناء اوكسانيوس وكان شيخاً فأمر أن يطرحوه إلى الوحوش فافترست جثته ونجت نفسه إلى المجد الخالد. وقد ذكر اوسابيوس في هذا الفصل أيضاً سلوانس الاسقف وبمفيل اللذين مرّ معنا ذكرهما.

وذكر في الفصل الثامن والنتينا وامرأة أخرى وبولس، أما والنتينا فقال إنها كانت من غزة فقُبض عليها مع غيرها من الكنيسة، ولما أشخصوها أمام الوالي وبّخته على قسوته معترفة بإيمانها. فأمر بجلدها جلداً قاسياً وبين كان الجنود يعذبونها إذ صاحت امرأة من بين الحشد (ذكر اوسابيوس أنها من قيصرية ولم يذكر اسمها ويؤخذ عن ميناوون الروم في ١٥ تموز انه كان اسمها ثيا) قائلة: «وإلامَ تعذبون أختي هذه»؟ فأمر الوالي بالقبض عليها. ولما يئس من استمالتها بوعد أو وعيد لتضحي للآلهة أمر بأن يعذبوها بأمشاط من حديد حتى تناثر لحمها، ثم أمر بربط المرأتين معاً وإضرام النار عليهما حتى أبادتهما. وعلى أثر استشهادهما أتوا برجل يسمى بولس (لم يذكر اوسابيوس من أين هو) وحكموا عليه بقطع الرأس. فسأل سيّاف الوالي أن يمهله قليلاً ريثما يصلّي وأخذ يتضرّع إلى الله اولاً من أجل كنيسته، ثم من أجل اليهود والسامريين ليقبلوا في الإيمان، ثم من أجل الملك

والوالي والقاضي والسيّاف. فاغرورقت عيون الحاضرين بالدموع ولم يلن قلب الوالي فضرب السيّاف عنقه.

وذكر في الفصل التاسع انطونينوس وزابينا وجرمانس وايناتا العذراء. أما انطونينوس فكان كاهناً وزابينا كان من بيت جبرين، وجرمانس لم يذكر محله. فهؤلاء الثلاثة اشخصوا أمام الوالي في حين شدّة الاضطهاد إذ كان يضحي للآلهة وإذ سُئلوا أجابوا أنهم مسيحيون وأنّبوا الوالي على تكريمه لغير الإله الحق، فأمر بقطع رؤوسهم. وفي ذلك اليوم أحضر الشرط امرأة عذراء اسمها ايناتا من باسان، وإذ لم تذعن للوالي جلدوها اولاً ثم طوفوها في قيصرية عريانة ثم أمر الوالي بحرقها.

وفي الفصل العاشر ذكر خبر احراق الظالمين رجلاً اسمه اريس وقطعهم رأسَي بروبوس وايليا واحراقهم بطرس الراهب من بيت جبرين، واسكلابيوس الذي يقال إنه كان أسقف المرقيونيين. وروى في الفصل الحادي عشر خبر استشهاد القديس بمفيل ورفاقه. وقد مرّ معنا ذكره. وفي الفصل الثاني عشر ذكر خبر بعض الرؤساء الذين لم يكونوا أهلاً للرئاسة ، فبحكم الله العادل جزاهم الظالمون بأن جعلوهم ساسة لخيل الملك أو لرعاية مواشيه، فضلاً عن أنّ الإهانات التي كان نواب الملك أو مديرو النواحي ينزلونها بهم.

وفي الفصل الأخير ذكر استشهاد سلوانس أسقف غزة بعد جهاد مديد، إذ قطع رأسه بأمر الملك مكسيمينس مع أربعين شهيداً. منهم رجل اسمه يوحنا كان الظالمون قد فقأوا عينيه ثم كووه في محلهما، وكان يتلو في الاجتماعات فصولاً برمّتها من التوراة أو نبوّات الأنبياء أو الأناجيل، إذ كان يحفظ الاسفار المقدّسة عن ظهر قلب حتى قال اوسابيوس إنه دُهش به لأول مرة سمعه يتلو فصولاً من الكتاب، وخُيل له أن يقرا في كتابه، ودنا منه فقضى العجب العجاب من قوة ذاكرته وجودة بصيرته مع فقدان باصرته. وقد كشف العالِم كوراتون الإنكليزي عن كتاب عنوانه اوسابيوس القيصري في شهداء فلسطين. وعُثر عليه بين الكتب المخطوطة في المتحف البريطاني عدد ١٢١٥٠ منها مؤرخ في السنة ٧٢٣م للسلوقيين الموافقة للسنة ٤١١ أو للسنة ٤١٢ المسيحية. وهو مكتوب باللغة السريانية من أقدم الكتب المخطوطة فترجمه كوراتون إلى الانكليزية وأذاعه في لندرة

سنة ١٨٥١م. والمرجح عند العلماء أنّ هذا الكتاب كتبه اوسابيوس مطولاً بلغة شعب فلسطين السريانية حينئذٍ. ثم ترجمه بإيجاز إلى اليونانية في الكتاب المثبت بين كتبه المعروفة الآن. وقد ذكر السمعاني في المكتبة الشرقية بعض فقر من ترجمة الشهداء المذكورين فيه تطابق هذه النسخة السريانية (ملخص عن مجلة التمدن الكاثوليكي في نشرتها المؤرخة في ١٦ ت ١ سنة ١٨٩٧).

الفصل الثالث

ما كان في المباحث الدينية والبدع والمجامع في سورية في القرن الثالث

عد ٥٥٦

ما كان من المباحث الدينية في سورية في هذا القرن

كان من المباحث ذات الأهمية في الكنيسة في هذا القرن، المبحث في ما إذا كان تعميد الهرَاطقة صحيحاً أو باطلاً. وإذا رجع احدهم إلى الكنيسة الكاثوليكية أيُعاد تعميده أم يُحسب معمداً؟ ولم ينشأ هذا المبحث في سورية بل اشترك فيه كثير من أساقفتها وغيرهم من الاساقفة الشرقيين. وكان أول من قال بأنّ تعميد الهراطقة باطل وإنّ من رجع منهم لزم تعميده ثانيةً اغريينوس أحد أسلاف القديس كبريانوس في أسقفية قرطاجنة، وعقد لذلك مجمعاً أثبت فيه قوله نحو سنة ٢١٥م كما يظهر من رسالتَي كبريانوس الحادية والسبعين والثالثة والسبعين، ومن قول القديس اغوسطينوس (في ك ٢ في المعمودية). ولم ينحصر هذا الخطأ في افريقية بل امتدّ إلى أقاليم المشرق ووجد من يدافع عنه من مشاهير الشرقيين علماً وقداسة. نخصّ بالذكر فرميليانس أسقف قيصرية في الكبادوك والقديس ديونيسيوس أسقف الإسكندرية. وتابع هؤلاء كثيرون من أساقفة سورية على هذا الخطأ، وكان القديس

كبريانوس أسقف قرطاجنة شديد المدافعة عنه. وقد عقدت مجامع عديدة لتأييد هذا القول في نوميديا سنة ٢٥٦م حكم فيهما بلزوم تعميد الهراطقة، كما يظهر من رسالة ٧٠ لكبريانوس. ثم عقد القديس كبريانوس تلك السنة نفسها مجمعاً في قرطاجنة فأثبت المجتمعون فيه الحكم المذكور وحكموا أيضاً أنّ من نال الدرجات المقدّسة في الكنيسة ثم اتبع بدعة ثم رجع عنها فلا يقبل إلّا في مصاف العامة. وكتب القديس كبريانوس مع أساقفة هذا المجمع رسالة إلى اسطفانوس الحبر الروماني ينبئه بما كان في المجمع ويسأله بإلحاح أن يثبت أعمال المجمع ويؤيده بسلطان. وأنفذ رسائل أخرى إلى أساقفة آخرين، ثم عقد تلك السنة نفسها مجمعاً آخر في قرطاجنة حضره سبعة وثمانون أسقفاً افريقيون، وأيدوا الحكم ببطلان تعميد الهراطقة . فلم يثبت الحبر الروماني المذكور آنفاً حكمهم بل نبذه وحكم بأنّ تعميد الهراطقة صحيح إن باشروا متممين شرائطه. ولم يحسن قبول الوفود الذين انفذهم إليه فرميليانس وغيره من الاساقفة الشرقيين المستمسكين بهذا القول. والصّحيح أنه أفصح لهم في بيان الحقيقة مورداً لهم الحجج القاطعة المخالفة لرأيهم. ولعله هدّد بالحرم من يبقى بعد ذلك مصرّاً على رأيه. أما القديس كبريانوس فتردّد اولاً في الإذعان لما حكم به الحبر الروماني، وكتب رسائل أخرى يحتجّ فيها لرأيه إلى أن امتثل أخيراً هو وسائر الاساقفة الشرقيين ما قضت به أم الكنائس ومعلمهنّ. وزال الخلاف وأساقفة افريقية الذين كانوا حكموا مع القديس كبريانوس بتعميد الهراطقة نقضوا حكمهم بحكم آخر كما روى مصرّحاً القديس ايرونيموس (في ليوسفور فصل ٨). والخمسون أسقفاً الشرقيون الذين كانوا أيّدوا الخطأ المذكور في مجمع قونية رجعوا عنه في مجمع آخر كما صرّح بذلك القديس باسيليوس (في رسالته ٩٩ إلى امفيلكيوس). ومن المعلوم أنّ المبحث في مواد التهذيب لا في العقائد. فمكابرة بعض الاساقفة في التشبّث برأيهم اولاً لا توصم بضلال مخالف الإيمان ولا تمسّ سلطة الحبر الروماني بل كان من ذلك بيّنة على أنّ القول قوله وقد أذعن له الاساقفة طراً في المشرق والمغرب.

وقد نشأ في قرطاجنة أيضاً في منتصف القرن الثالث مبحث آخر اتصل إلى أكثر الكنائس الشرقية والغربية. وهو أيقبل في شركة المؤمنين من جحدوا الإيمان في زمان الاضطهاد دون أن يكفّروا عن زلّتهم؟ فإنّ كثيرين ممن جحدوا الإيمان في اضطهاد داكيوس بتقديمهم البخور للاصنام أو باشتراكهم في الضحايا المقدّمة لها أو

برشوتهم الظالمين وأخذهم شهادة منهم بأنهم فعلوا مثل ذلك كانوا يتطلبون بعد نجاتهم أن يقبلهم المؤمنون في شركتهم عفواً دون أن يعانوا توبة ظاهرة. وبعضهم كانوا يتوسلون إلى الشهداء بوسائل متنوعة فينالون منهم كتاب توصية إلى الاسقف ليعفو عنهم. فكان المؤمنون يجلّون وصايا الشهداء بعد وفاتهم ويحرصون على العمل بها. وكان في جملة هؤلاء الجاحدين خمسة كهنة في قرطاجنة جعلوا أنفسهم بين هؤلاء الجاحدين، فتألّب إليهم كثيرون منهم وانضمّ إليهم بعض أهلهم وأنسبائهم وأخذوا يتعنتون الاساقفة والكهنة ليقبلوهم في مصاف المؤمنين التائبين. فأبى القديس كبريانوس أن يقبلهم دون أن يصنعوا توبة ظاهرة عن إثمهم لئلا يسوّى بين الجاحد والثابت في الإيمان، وينهج سبيلاً إلى التراخي في المحافظة على الدين. وكان الكرسي الروماني فارغاً بعد وفاة القديس فابيان، فأنفذ رسالة إلى الإكليروس الروماني (الذي كان يدبر الكنيسة إلى أن ينتخب خلفاً له) فصوبوا ما عمله كبريانوس، وأرجأوا الجزم في هذا المبحث إلى أن تخمد جذوة الاضطهاد ويقام رئيس للكنيسة أو يُعقد مجمع لذلك. وأمروا أن يصنع هؤلاء التوبة المعتادة في الجرائم الكبيرة، وإذا أتمّوها قبلوا في الكنائس بوضع يد الاساقفة والكهنة. وجرت المصالحة فأبى الجاحدون قبول هذا الشرط فأمر الإكليروس الروماني تفادياً من الشقاق أن يحل في مرض الموت من كان من هؤلاء نال توصية من الشهداء. فأكثر الجاحدون من الهرج ومضى نوفاتوس أحد هؤلاء الجاحدين إلى روما فأثار القلق هناك منضمّاً إلى الجاحدين فيها. واتسع نطاق هذا القلق إلى أقاليم عديدة منها سورية أيضاً كما يظهر مما سيأتي. ولما قتل الملك داكيوس وعاد الأمن إلى الكنيسة ورجع القديس كبريانوس إلى كرسيه الذي كان غادره، وأُقيم كرنيليوس حبراً في الكرسي الروماني، عُقدت مجامع خاصة في شأن هؤلاء في محال عديدة وحُكم بالاجماع أنّ من قدموا بخوراً للأصنام لزمتهم أن يصنعوا توبة كاملة، وقُبلوا بين المؤمنين بعد إتمامها. وإن طرأ عليهم خطر حلوا قبله من إثمهم. ومن كان بيدهم كتاب توصية من الشهداء اقتصر لهم على ما صنعوه من التوبة من تلقاء أنفسهم في مدة ثوران الاضطهاد وصالحتهم الكنيسة.

وكان في روما حينئذٍ كاهن اسمه نوفاسيان هائماً بأن يكون حبراً رومانياً وكان مضطلعاً بفلسفة الرواقيين وفصيحاً. ولما انتخب كورنيليوس أورد عليه مع مريديه شكاوى فحص الاساقفة عنها فألفوها كاذبة، فخدع نوفاسيان ثلاثة أساقفة

أمين فرسموه أسقفاً على روما، فكان أول حبر دخيل على الكرسي الروماني. ومما علمه من الضلال أن ليس للكنيسة أن تصالح من جحدوا الإيمان لدن الاضطهاد مهما صنعوا من التوبة، ولا يحل البتة الإشتراك معهم. وأنفذ دعاة ورسائل إلى كثيرين من الاساقفة يخبرهم بارتقائه إلى أسقفية روما بحسب العادة، ويحضّهم جميعاً أن لا يقبلوا الجاحدين في شركة المؤمنين، بل يغروهم بالتوبة ويتركوا الحكم لله. فتعاظم القلق في الكنيسة وتوفرت الرسائل والمحادثات بين الاساقفة، من ذلك رسالة كتبها ديونيسيوس البطريرك الإسكندري إلى فابيوس البطريرك الأنطاكي أسهب فيها الكلام على توبة من جحدوا في زمان الاضطهاد، وبيّن لزوم حلّهم عند ساعة الموت، ولو لم يطلبوا الحل إلّا حينئذٍ (ذكر هذه الرسالة مطوّلة اوسابيوس في ك ٦ من تاريخه فصل ٤٤). وكتب البابا كرنيليوس إلى فابيوس البطريرك المذكور رسالتين في حرم نوفاسيان، ورسالة ثالثة أسهب بها في بيان جرائم هذا المبتدع ورجوع الجاحدين الذين كانوا قد أغواهم، وعدّد له الاساقفة ونوابهم الذين اجتمعوا في روما لهذا الغرض، وأعلمه أنّ الكرسي الرسولي بتّ هذا المبحث بلزوم توبة الجاحدين، وقبولهم بعدها وحلّهم عند احتضارهم دون توقف. ورذل هذا الشقاق واختلاف الآراء ونرى ديونيسيوس البطريرك الإسكندري كتب إلى البابا اسطفانوس سنة ٢٥٢ أو سنة ٢٥٣م رسالة يبشّره بها باستتباب الراحة والوفاق في الكنيسة الشرقية ومنها قوله: «فليكن معلوماً لديك أنّ جميع الكنائس التي كانت متضاربة الآراء أصبحت الآن متّحدة. فإنّ كنائس المشرق وما وراءه أيضاً وجميع الاساقفة على وفاق تام، وهم على غاية السرور بهذا السلام العام الذي لم يكونوا يأملونه. أخصّ بالذكر منهم ديمتريوس أسقف انطاكية، وتيوكتيستوس القيصري، ومزابان الأورشليمي، ومارينوس الصوري، واليودر اللاذقي، والانوس الطرطوسي، وجميع كنائس كيليكية، وفرميليان القيصري، وكل كنائس الكبادوك اقتصرت على ذكر مشاهير الاساقفة لئلا تملّ بمطالعة رسالتي». روى هذه الرسالة اوسابيوس (في تاريخه ك ٧ فصل ٢ و ٥) وذكر بعضهم أنّ ديمتريوس البطريرك الإنطاكي عقد مجمعاً سنة ٢٥٣م في مدينته نبذ فيه تعليم نوفاسيان. ويظهر من كل ما مرّ أنّ بحث الجاحدين وانشقاق نوفاسيان اتصل بسورية أيضاً.

عد ٥٥٧

المبتدعون والبدع في سورية في القرن الثالث

كان من المبتدعين السوريين في هذا القرن بريل أسقف بصرى في حوران ولكن أبان له اوريجانس ضلاله وأبكمه في المدافعة عنه، فغادره عائداً إلى الايمان الصحيح سنة ٢٤٧ أو سنة ٢٤٩م، وقد ذكرنا ذلك بأكثر تفصيل في عد ٢٥١. وكان حينئذٍ بعض العلماء من العرب أنكروا خلود النفس وقالوا بموتها مع الجسد وقيامتها معه. فردّ اوريجانس زعمهم في مجمع عُقد في السنة المذكورة . وعن بعضهم أنه شهده أربعة عشر أسقفاً، وأظن أنه عقد مجمع واحد في بصرى وجرى فيه البحث عن ضلال هؤلاء وغواية بريل، وإنّ هؤلاء العلماء الذين سمّاهم المؤرخون عرباً لم يكونوا من اليمن والحجاز بل كانوا من ولاية بصرى التي سماها الرومانيون قصبة بلاد العرب.

كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن أيضاً بولس السميساطي البطريرك الأنطاكي، وقد ذكرنا ضلاله ونبذه في مجمعين في انطاكية في عد ٥٤٩ وكان في هذا القرن في سورية سيماخوس، وكان سامرياً ولم يكن مبتدعاً بل منتصراً لابيون في بدعته في كتاب وضعه لهذا الغرض حتى سُمِّيَ أتباع ابيون سيماخوسيين. وكان في كتابه هذا يجهد نفسه ليثبت أنّ إنجيل متى الذي تعترف به الكنيسة محرّف ولا سيما الفصل المشتمل على نسب المخلِّص، لأنّ الأبيونيين حرّفوا إنجيل متى كما سبقت الإشارة إلى ذلك ذريعة لإثبات ضلالهم بأنّ المسيح ليس إنساناً ولده يوسف والعذراء، وإنّ حفظ سنّة التوراة ما برح لازماً، وسيماخوس هذا هو صاحب ترجمة الاسفار المقدّسة إلى اليونانية المعروفة باسمه والمثبتة في نسخة اوريجانس. وقد قال فيها أنه أخذ ترجمة سيماخوس لبشارة متى وباقي الاسفار المقدّسة من امرأة اسمها يوليانا اتصلت إليها هذه الكتب بطريقة الإرث (ملخص عن اوسابيوس في الكتاب السادس من تاريخه فصل ١٧ وعن حواشيه).

وكان في هذا القرن البدعة التي أنشأها في خارج سورية من أنكروا الثالوث الأقدس وزعموا أنّ الأقانيم الثلاثة في الله أقنوم واحد. كما هم ذات واحدة وأوّل من أنشأ هذه البدعة رجل من آسيا اسمه براكسيا، ثم تابعه على ضلاله رجل اسمه نواطوس من افسس. على ما روى القديس ابيفان او من ازمير على ما روى

تاودوريطوس. وأشهر من علم هذا الضلال ونُسبت هذه البدعة إليه إنما هو سابيليوس من تيبايس في مصر، أخذ ينشرها في مصر سنة ٢٥٧م وقد قاومه القديس ديونيسيوس الإسكندري وكتب في شأنه رسالته الثانية إلى سيستوس الحبر الروماني في المعمودية المثبت قسم منها في تاريخ اوسابيوس (ك ٧ فصل ٦٥). ومن شاء الإطلاع على تنفيذ هذا الضلال فليطالع كتاب تاريخ البدع مع دحضها للقديس الفونس ليكوري الذي ترجمته إلى العربية وطبعته.

ومن أشهر البدع في هذا القرن بدعة المانويين قال فيها اوسابيوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢٨١م «وظهرت بدعة المانويين المضرَّة بالنوع البشري في السنة الثانية لبروبس الملك، وسنة ٣٢٥م لتاريخ الإنطاكيين، وسنة ٤٠٢م لتاريخ الصوريين، وسنة ٣٢٤م لتاريخ اللاذقيين، وسنة ٦٨٧م لتاريخ الرهاويين، وسنة ٣٨٠م لتاريخ العسقلانيين. إنّ في منشيء هذه البدعة اقوالاً نرى أظهرها ماروّاه نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٣ جزء ٩) ورّوهربخر (ك ٢٩ من تاريخه). وهو أنّ أول من أنشأ هذه البدعة رجل اسمه شيتيان من السراكسة (قبيلة في بلاد العرب) مارس التجارة فأيسر، ومضى إلى مصر فانكبّ على درس علوم اليونان ولا سيما الفلسفة، وتزوج بامرأة مثرية وألّف أربعة كتب بثّ فيها ضلاله بوجود مبدأين أي إلٰهين، إلٰه الخير وإلٰه الشرّ. ثم زايل مصر وأتى إلى اليهودية لا في زمان الرسل كما يستلمح من قول القديس ابيفان بل بعد انقضاء القرن الثالث كما يظهر من مقاومة كهنة الكنيسة الأورشليمية له وعدم تمكنه من إغواء المؤمنين. وقد صعد إلى شرفة بيت وطرح نفسه من أعلى لينخدع الناظرون بسحره فهلك. وكان له تلميذ يسمى تريلّوس ورث ماله وكتبه وبدعته. وإذ رأى افتضاح أمر معلمه في أورشليم ولم يكن في مأمن فيها فرّ إلى بلاد فارس وسمى نفسه بودا فناصبه كهنتهم العداء. وكانت بينهم وبينه جدالات عنيفة. وأراد أن يبدي آية يفحم بها خصماءه، فصعد إلى سطح بيت عال وطرح نفسه عن جداره ففاضت نفسه التعيسة كمعلمه. وكان نزيلاً عند امرأة اسمها اسوس فأخذت ماله وكتبه وشرت رقيقاً فارسياً اسمه كربيك اعتقته وتبنته وعنيت بتعليمه علم الفرس، وجعلته وارثاً للمال والكتب المذكورة. وسمته ماني او مانيكاوس وتأويله معطى المن أو المانح. فاقتبس من تلك الكتب الضلال المذكور وجد بنشره مترجماً كتب معلمه. ومرض ابن الملك فوعد أبوه أن يجيز من إبرآه خير جائزة. فحاول ماني أن يشفيه فمات

الولد، فطرح الملك ماني في السجن مغلّلاً بالقيود، فرشا السجّان وفرّ إلى أطراف ما بين النهرين. وأرسل دعاة إلى أصقاع عديدة ينذرون بتعليمه الفاسد، وسمي نفسه يسوع المسيح، ثم البارقليط أي روح القدس. وأرسل ملك الفرس في طلبه فقبض عليه بعض أعوانه وأمر بسلخه حياً. وبعد أن قضى ترك جثته للكلاب والطيور وحشا جلده تبناً وعلّقه على أبواب المدينة، واستمر إلى أيام القديسين كيرلس الأورشليمي وابيفان كما شهدا بذلك.

قد وُلد ماني سنة ٢٣٩م، وعن ايليا النصيبيني أنه وُلد سنة ٥٥١ اليونانية الموافقة سنة ٢٤٠م. وطفق يبث ضلاله سنة ٥٧٩ الموافقة سنة ٢٦٨م وكانت وفاته سنة ٢٧٤م وقال ابن العبري فيه (في تاريخ بطاركة انطاكية) «إنه كان في زمان دمنوس البطريرك الأنطاكي، وإنه كان يتفاخر اولاً بأنه مسيحي وكاهن. ويفسر الاسفار المقدّسة ويجادل اليهود والوثنيين، ثم دعا نفسه المسيح واختار له أثني عشر تلميذاً . وأرسلهم يعلمون بالمبدأين أي الإلهين: أحدهما صالح والآخر شرير» إلى غير ذلك من الغوايات التي ذكرها نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٣). منها عدا ما مرّ زعمه مع اتباعه أن الجسد خُلق من المادة والمادة خلقها الإله الشرير. ولذلك زعموا أنّ المسيح لم يكن ذا جسد حقيقي بل خيالي، ولم يمت ولم يقم حقيقة. ومنها أنهم كانوا يحرمون الزواج ولا يمنعون أنفسهم من مباشرة النساء إلى غير ذلك من الغوايات التي ذكرها نطاليس اسكندر عن القديس اغوسطينوس في كتابه في البدع (فصل ٤٦)، وعن القديس ايفان في بدعة ٦٦، وعن توادوريطوس في كتابه في حكايات المبدعين فصل ٢٦. وكان لماني جدال طويل مع ارشيلاوس أحد أساقفة ما بين النهرين ذكره روهربخر في المحل المذكور ملخصاً، ومنه يتبيّن أنّ ماني أُفحم وأُبكم واضطر إلى الفرار.

عد ٥٥٨

المجامع التي عقدت في سورية في القرن الثالث

مما نعلمه من المجامع التي عُقدت في سورية في هذا القرن المجمع الذي عُقد في بصرى من أعمال حوران بداعي الضلال الذي علمه بريل أسقف هذه المدينة. وشهد اوريجانس هذا المجمع، وأفحم بريل فأقلع عن غوايته، وكان ذلك لسنة ٢٤٧

أو سنة ٢٤٨م. وأظن أنه في هذا المجمع نفسه بحث عن بدعة بعض العرب الذين زعموا أنّ النفس تموت مع الجسد وتقوم بقيامته. ورد اوريجانس زعمهم بالحجج الساطعة والبيّنات الدامغة وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك.

ومنها مجمع عُقد في انطاكية سنة ٢٥٣م فإنه لما ظهر انشقاق نوفسيان باختلاسه الرئاسة على الكرسي الروماني ومناصبته البابا كرنيليوس الحبر الشرعي العداء، وابتداعه الضلال بأنه ليس للكنيسة السلطان على حلّ من جحدوا الايمان في زمان الاضطهاد، ولا على مغفرة الجرائم المقترفة بعد المعمودية. وكاتب رؤساء الكنيسة في المشرق والمغرب مبشراً بتسنمه كرسي الحبرية الرومانية وملمعاً إلى تعليمه. فعقد القديس كبريانوس مجمعاً في قرطاجنة نبذ فيه رئاسته وتعليمه. وكذا عقد ديمتريوس البطريرك الأنطاكي مجمعاً في مدينته أجمع فيه الاساقفة على رذل نوفسيان ونوفاتوس الذي كان تابعه على ضلاله، وعلى نبذ تعليمهما وتحريمه.

ومنها مجمعان آخران عقدا في انطاكية أيضاً لتدارك ضلال بولس السميساطي بطريرك هذه المدينة، فإنه لما ظهر ضلاله بأنّ المسيح لم يكن إلّا انساناً كعامة الناس، اجتمع الاساقفة في انطاكية لردعه كذئب عن القطيع، واستدعوا ديونيسيوس البطريرك الاسكندري ليأتي إلى انطاكية، فأعاقه مرضه وشيخوخته عن المسير إليهم، وأنفذ إليهم رسالة مشبعة بيّن بها رأيه في هذا المبحث. وأشهر الاساقفة الذين شهدوا هذا المجمع فرميليانوس أسقف قيصرية في الكبادوك، وغريغوريوس واثنادورس أخوه الاسقفان في بنطس، وهيلانس الترسيسي، ونيكوما أسقف قونية، وهيمانوس أسقف أورشليم، وتيوتكنس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيموس أسقف بصرى وغيرهم كثيرون، عدا الكهنة والشمامسة. وأجمع هؤلاء على نبذ ضلال السميساطي فأنكر هو احداثه هذا الضلال، فأثبت عليه كهنة كرسيه تجديفه على المسيح وبث غوايته، فأظهر الارعواء عن غلطه، ووعد بازالة العثار الذي تسبب به. فوثق الآباء بكلامه ولم يحطّوه عن مقامه. وكان هذا المجمع سنة ٢٦٤م، وفي روايات أخرى سنة ٢٦٥ أو سنة ٢٦٦م.

على أنّ السميساطي ما انفك يبثّ ضلاله ويزيد العثار بسيرته السيئة. فاجتمع الاساقفة مرة أخرى في انطاكية وكان عددهم يزيد كثيراً على عدد المجتمعين أولاً وزيفوا تعليمه. وممن امتازوا حينئذٍ ببيان الحقيقة وافحام بولس بضلاله ملكيون كاهن

كنيسة انطاكية العلامة المفضال، وأجمع الآباء الملتئمون - ولا مخالف على نبذ ضلال بولس السميساطي - وحطّوه عن الاسقفية، ودوّنوا رسالة عامة إلى ديونيسيوس الحبر الروماني ومكسيموس البطريرك الاسكندري (إذ كان توفي ديونيسيوس سالفه في هذه الفترة). وجميع الاساقفة والكهنة والشمامسة في العالم الكاثوليكي أبانوا بها ضلال السميساطي ومعايب سيرته وحرمهم له، وحطّه عن مقامه الاسقفي. وذكر اوسابيوس هذه الرسالة مطوّلة في تاريخه (ك ٧ فصل ٣٠). وعنه لخصنا ما مرّ من كلامنا هنا. وكان هذا المجمع الثاني سنة ٢٧٢م وعن بعضهم سنة ٢٧٠م، وقد مرّ أنّ السميساطي حاول أن يبقى على كرسيه اعتماداً على حماية زبيدة ملكة تدمر له إلى أن خُلعت هي من ملكها وأخذها اورليان أسيرة إلى روما.

الباب الرابع

تاريخ سورية في القرن الرابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

الملوك الرومانيون والقسطنطينيون في هذا القرن واعمال بعضهم في سورية

عد ٥٥٩

الملوك الرومانيون في القرن الرابع وفي قسطنطين الكبير

مرّ في عد ٥٤١ أنّ ديوكلتيان اعتزل الملك سنة ٣٠٥م تاركاً فيه مكسيميان هرقل وقسطنس كاور وكالر، وسمّى ديوكلتيان لدن اعتزاله ساويروس فلافيوس قيصر ثم سماه كالر عاهلاً سنة ٣٠٦م. وتولّى ايطاليا وافريقية وحمل على مكسنس بن مكسيميان هرقل الذي سمى نفسه عاهلاً في ايطاليا عند وفاة قسطنس كاور، فانتصر مكسنس عليه في رفنّا وقتله. وفي رواية أنه انتحر في السنة ٣٠٦م المذكورة. وأما مكسنس فهزم كالر مع ابيه مكسيميان هرقل الذي كان اعتزل الملك

عند تخلّي ديوكلتيان عنه سنة ٣٠٥م، لكن عاد إليه سنة ٣٠٦م فأرغم ابنه مكسنس أن يفرّ إلى إفرنسة، ثم عاد منها إلى روما مبدياً شديد القسوة خاصةً على المسيحيين. فحمل عليه قسطنطين واستظهر عليه عند أسوار روما وغرق مكسنس في نهر التبر سنة ٣١٢م، وكان ديوكلتيان أيضاً سمى مكسيميان دايا أو داذا قيصر، وقسم ولاية المشرق بينه وبين كالر. ولما أدركت الوفاة كالر سنة ٣١٠م استبدّ مكسيميان بولاية المشرق، لكن كان ليشينيوس بن كالر بالتبني يزاحمه في هذه الولاية إلى أن انتصر ليشينيوس على مكسيميان في وقعة في ادريانبل وفرّ من وجهه وانتحر متسمماً في ترسيس سنة ٣١٣م.

عد ٥٦٠
قسطنطين الكبير وأبناؤه

إنّ قسطنس كاور خرمته المنية سنة ٣٠٦م وكان له ولد اسمه قسطنطين من امرأته هيلانة وُلد لهما سنة ٢٧٤م، وكان متزلفاً إلى ديوكلتيان عزيزاً لدى الجنود. وتزوّج بابنة الملك مكسيميان هرقل فلقّب باغوسطوس عند وفاة والده. ونادى باسمه الفيلق الذي كان في بريطانيا، وبعد أن نشر بساط الأمن في افرنسة توغّل في حروب أهلية ألجأته إلى قتل حميه الملك مكسيميان هرقل سنة ٣١٠م، وحمل على مكسنس بن مكسيميان الذي كان أقيم ملكاً في روما. وفي مدة هذه الحرب رأى في الجو علامة الصليب مكتوباً عليها «بهذه العلامة تنتصر على أعدائك». وإليك رواية اوسابيوس هذه الآية (في ك ١ في ترجمة قسطنطين فصل ٣).

«إنّ قسطنطين طفق يلتمس عون الله ويصلّي خاشعاً إليه ليعرفه بذاته المقدّسة ويمده بغوثه في أعماله. فظهرت لهذا الملك وهو يصلّي ويتضرّع آيةٌ في السماء، ولو أنبأنا بها رجلٌ أيّاً كان لتعسّر على السامعين تصديقه. على أنّ هذا الملك الظافر نفسه قصّ هذا الخبر على كاتب هذا التاريخ بعد زمان إذ ساعدنا الحظ على التعرّف إليه ونيل الحظوة لديه، فروى ذلك لنا مشفعاً اياه باليمين على صحته، فمن يخامره بعد هذا الشك في صدق هذه الرواية لا سيما أنّ ما عقب ذلك كان مصداقاً لشهادته. ذلك أنه ظهر له عند الزوال في كبد السماء صورة صليب مؤلف

من أشعة الشمس، ورأى بعينيه مكتوباً عليه بهذا تنتصر. وقد أبصر هذه الآية هو وجميع الجنود الذين كانوا يتبعونه. ودُهشوا كثيراً وأخذ قسطنطين يفكر في ما يكون المشهد الذي رآه. ولما كان الليل ظهر له المسيح في منامه مع العلامة التي كان قد شاهدها في الجوّ، وأمره أن يصنع أعلام جيشه على مثالها فتكون له منجدة في حروبه. ولما استيقظ صباحاً أعلم أصحابه بما كان له ليلاً وصنع أعلام جنوده على حسب المثال الذي رآه». وبعد انتصار قسطنطين على مكسنس ودخوله روما ظافراً، أقامت الندوة والشعب الرومانيان قوس انتصار ما برحت أطلالها في روما مكتوباً عليها «أقامت الندوة والشعب الرومانيان قوس الانتصار هذه للملك قيصر فلافيوس قسطنطين العظيم السعيد لأنه انتقم للحكومة ووقاها من الظالم ومحازبيه مدفوعاً إلى ذلك من قِبل الإله وعزة نفسه ومصحوباً بجنوده». ونصب له سكان روما تمثالاً من ذهب كالآلهة. وقد أراد هو أن يمثل وبيده صليب طويل مكان الحربة، وأن يكتب على أسفله «بهذه العلامة الخلاصية سمة الشجاعة الحقيقة عتقت مدينتكم من نير الجور والاعتساف ورددت الندوة والشعب إلى فخارهم القديم».

قد أجهد فيكتور دوري نفسه في كلامه على قسطنطين لينكر هذه الآية ويزيّف قول اوسابيوس بها. وقد طالعت متأنياً فصله المتطاول في هذا الشأن فلم أجد فيه حجّة راهنة تؤيد زعمه وتنديده بكلام اوسابيوس ابي التاريخ في العهد الجديد، إلّا تهماته له بدون بيّنة بأنه عمد إلى كذب يختاله نافعاً للدين. وإلّا زعمه أنّ لا مدخل للآيات في التاريخ، وأنّ زيف قول اوسابيوس فما يقول في أقوال كثيرين من الآباء القريبين من ذلك العصر. وقد ذكروا هذه الآية وبشهادة الآثار التي أوردنا بعضها فهو لا يؤمن بالآيات فلا يحق له أن ينبذ أقوال من يؤمنون بها دون حجة قاطعة.

وبعد أن استظهر قسطنطين على مكسنس وأحزابه دانت له ايطاليا وافريقية وأكثر اوروبا. وبقي ليشينيوس الذي سمي ملك المشرق بعد ظفره بمكسيميان دايا. فتزلّف أولاً إلى قسطنطين فزوّجه اخته قسطنتة. وملك لوشينيوس في المشرق، ثم وقعت النفرة بينهما فانتصر قسطنطين عليه بعد وقائع سنة ٣١٤م وأرغمه على صلح مذلل له. ثم تلظّت الحرب بينهما ثانيةً فظهر عليه قسطنطين في ادريانبل سنة ٣٢٣م ونفاه إلى تسالونيك ثم قتله سنة ٣٢٤م واستبدّ قسطنطين في الملك وحده

واستتبت الراحة في المملكة. واذاع قسطنطين أمرين: الأول سنة ٣١٢م والثاني سنة ٣٢٤م بهما أباح الكاثوليكيين مباشرة فروض دينهم واقامة كنائسهم وقبولهم لها التقادم والهبات. وفرض شرائع نافعة للمسيحيين منها أن ترد على المسيحيين الكنائس والمدافن والعقار وكل ما ضبطته الحكومة وهو لهم. ومنها أن يعود المنفيون بسبب الدين المسيحي إلى أوطانهم، وأن ينكفّ كل اضطهاد لهم ومنها أنّ الشهداء والمعترفين الذين لم يبقَ لهم وارث تحسب الكنيسة وارثاً لهم. ولم يكن ينصّب والياً في بلاد كثُر المسيحيون فيها إلّا أن يكون مسيحياً، ومن كان منهم وثنياً حظّر عليه أن يقدّم الذبائح للآلهة. وبنى في أورشليم بطلب والدته الملكة هيلانة كنيسة بديعة على قبر المخلّص، وأخرى في بيت لحم فوق مغارة مولده، وأخرى في جبل الزيتون. ونقد كثيراً من معابد الأصنام منها هيكل الزهرة في افقه الذي كان ماخوراً ومجلساً للعواهر، وجعل البيزنطية عاصمة لملكه، وباسمه تسمّت قسطنطينية نحو سنة ٣٢٦م. وحضر مجمع نيقية بنفسه وعاون الاساقفة على تأييد عقائد الدين خلافاً لاريوس المبتدع الذي نفاه كما سيجيء. وقد كتب إلى اوسابيوس القيصري أن يستنسخ له خمسين نسخة من الاسفار المقدّسة بأحسن الخطوط وأن يُعنى بضبطها. وأمر خازن الحكومة أن يدفع له كل ما شاء من النفقة عليها. فأتمّ اوسابيوس ذلك كما روى في ترجمة قسطنطين (ك ٤ فصل ٢٩). وبنى في القسطنطينية كنائس عديدة منها كنيسة على اسم الرسل جعل مدفنه فيها. ويقال أنه هو الباني للكنيسة المعروفة بآجيا صوفيا أي الحكمة المقدّسة. وقد عاب زوزيموس واوطرُب والقديس ايرونيموس قسطنطين بأنه اغتال ليشينيوس بعد أن أمّنه ونفاه إلى تسالونيك. والتمس سقراط عذراً له بأنّ ليشينيوس أخذ يهيّج خصوم الملك عليه ولم يأتِ اوسابيوس ببنت شفة في هذا الأمر. وأشنع من ذلك قتله ابن ليشينيوس بعد ابيه وهو ابن اخته. ولم يكن له من العمر إلّا احدى عشرة سنة. ثم اغتياله بكره كريسبوس بسعاية امرأته فوسطا. وقد ظهر له بعد ذلك براءته ومكر فوسطا ربيبته فأماتها ببخار الحمام. وقد صمت اوسابيوس عن كل هذه الأحداث ربما لأنه غالى بمدح قسطنطين وقد خرمت المنية الملك قسطنطين سنة ٣٣٧م بعد أن نال سر العماد المقدّس قبل وفاته بأيام قليلة على الأظهر. وقد جاء في كتاب أعمال البابا سلبيستروس المنسوب إليه أنّ البابا عمّده قبل بضع سنين من المجمع النيقوي.ومن الآثار التي جاءت فيها اسماء قسطنطين وابنائه في بلادنا عمود من الحجر المحبب

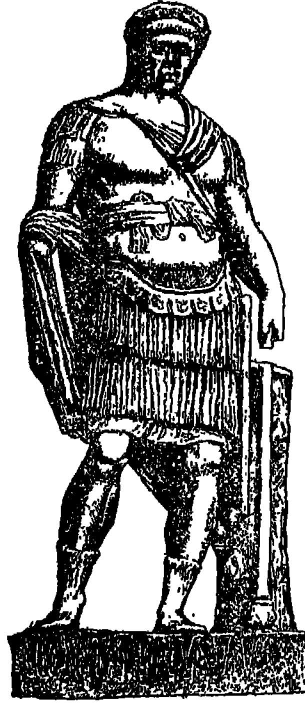
وُجد ساقطاً في أعلى الرأس الذي عند نهر الكلب كان دالاً على الميل التاسع من بيروت. ذكره وادنيكتون خط ١٨٤٧ ورنان في بعثة فينيقية صفحة ٣٤١ كُتب عليه «للملك القيصر فلافيوس قسطنطين العظيم الغازي المنتصر أبداً اغوسطوس ولفلافيوس كلوديوس قسطنطين وفلافيوس يوليوس قسطنس وفلافيوس يوليوس قسطنت أبنائه القياصرة الشرفا» وهذا الخط نُقش بين سنة ٣٣٣ وسنة ٣٣٧م.

وترك قسطنطين الملك مقسوماً بين أبنائه قسطنطين وقسطنس وقسطنت فكان نصيب قسطنطين بعد موت أبيه سنة ٣٣٧م افرنسة واسبانيا وبريطانيا الكبرى. ونصيب قسطنس المشرق وبلاد اليونان ونصيب قسطنت ايطاليا وافريقية. وأراد قسطنطين أن يستحوذ على نصيب أخيه قسطنت، فحشد جيشاً وسار فيه إلى ايطاليا. فظهر عليه أخوه وشتت شمل جيشه وقتله في وقعة في اكويلايا سنة ٣٤٠م فلم يملك إلّا ثلاث سنين. واستبدّ قسطنت في ملك المغرب وانغمس في الفواحش وصال وجار فثلّ منينس عرشه وقتله سنة ٣٥٠م.

أما قسطنس ملك المشرق فهبّ إلى المغرب بعد مقتل أخيه قسطنت. وظهر على منينس واستبدّ في الملك شرقاً وغرباً لكنه أكثر من الانتقام والجور والاعتساف والاضطهاد للمسيحيين وسمي غلوس ابن اخي قسطنطين قيصر في المشرق سنة ٣٥١م فانتصر على الفرس. لكنه أجرى مظالم لا تقدّر في سورية فاستدعاه قسطنس وحكم عليه بقطع رأسه سنة ٣٥٤م واستمرّ هو على جوره حتى حمل الجنود على اقامة يوليانس ملكاً مكانه فحمل على يوليانس وبينما هو في طريقه أدركته المنية في سفح جبل طورس في ت ٢ سنة ٣٦١م وبعد أن نال سرّ العماد من يد اوزويوس البطريرك الانطاكي الاريوسي. وكانت أيام ملكه موعبة بالحروب مع الفرس وبالمشاحنات الدينية بين الاريوسيين والكاثوليكيين. وكان يؤثر الاريوسيين واضطهد القديس اثناسيوس البطريرك الاسكندري كما سيجئ. وكان فلافيوس دوميسيوس لاونتيوس والي المشرق تحت أمرة قسطنس وسمي قنصلاً سنة ٣٤٤م فأقام له أهل بيروت تمثالاً للشهادة باستئهاله وقد وُجدت صفيحة من رخام في بيروت أقامها البيروتيون تحت التمثال وهذه الصفيحة نُقلت من بيروت إلى قنصلية المانيا في أورشليم يتبيّن منها ما ذكرناه وبين شرائع توادوسيوس شرائع سنة ٣٣٨ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤م موجهة إلى فلافيوس المذكور. وروى رنان (في بعثة فينيقية صفحة ١٠٥) عن شدرانوس في مختصر التاريخ، وعن توافان في الكرونيكون أنّ

قسطنس جدّد بناء انتيرادوس (طرسوس) وسماها قسطنسية. وقد عثر على خط في قلعة يحمور تُقرأ فيه أحرف قسطن ولا يُعلم أقسطنس أم قسطنطين هو المراد بهذا الاسم.

وهذا مثال لقسطنطين الكبير مأخوذاً عن تمثال وُجد في حمامات قسطنطين في روما.



عد ٥٦١

يوليانوس الجاحد

إنّ يوليانوس كان ابن عم قسطنس ووُلد في القسطنطينية سنة ٣٣١م، ولما اغتال قسطنس أبناء عمه استبقى يوليانس لصغر سنه، لكنه أبعده إلى آسيا الصغرى. ثم رخّص له أن يمضي إلى أثينا طلباً للعلم. ثم استدعاه إلى بلاطه وسماه قيصراً

وعهد إليه بالولاية على افرنسة وأقام في باريس واشتهر بغزواته للجرمانيين وظهوره عليهم في ستراسبورغ سنة ٣٥٧م، وبنى قلاعاً وحصوناً على تخوم المملكة في تلك الناحية. ولما كان قسطنس متضايقاً في حربه مع الفرس أرسل إلى يوليانس وفداً ورسالة يطلب إليه أن يوجّه نخبة من جنده لنجدة جيش الملك. فأظهر يوليانس الامتثال لأمره وأوعز سراً إلى الجنود أن يأبوا تلبيته، فنبذوا الطاعة ونادوا باسم يوليانس ملكاً فكتب إلى قسطنس رسالتين اعتذر في احداهما عن تسمية الجنود له ملكاً. جبراً عليه. وتهدّده في الثانية إن لم يجارهِ على قسمة الملك بينهما وذكّره باغتياله أهله. فأجابه قسطنس مؤنباً منكراً عليه سؤاله، فزحف بجيش كثيف انتهى به إلى قسطنطينية. وسار قسطنس بجيشه من حيث كان لمحاربة الفرس فأدركته المنية في الطريق سنة ٣٦١م كما مرّ واستبد يوليانس في الملك.

وكان يوليانس اولاً مسيحياً واستمرّ كذلك إلى أن أدرك العشرين من عمره. وكان كثير التردّد إلى الكنائس والاديار، وكثيراً ما قام في رتبة قارئ في الكنيسة كما قال عن نفسه في أحد كتبه. إلّا أنّ معاشرته الاساقفة والعلماء الاريوسيين الذين أنكروا لاهوت المسيح جعلته يجحد الايمان المسيحي اولاً في باطنه ثم يجاهر بكفره وانحيازه إلى الوثنية ولا سيما بعد أن استوى على أريكة الملك. ولذلك لُقّب بالجاحد. وبعضهم يسميه العاصي. وقد اجرى اضطهاداً قاسياً على المسيحيين في امكنة كثيرة وأتى انطاكية سنة ٣٦٢م في شهر تموز فخرج الشعب إلى لقياه واستقبله الوثنيون بمنزلة إله. وكانوا يسمونه كوكب السعد الطالع في المشرق، لكنه كان يسمع بين أصوات التهليل أنين النساء الوثنيات باكيات على ادونيس إذ كان عيده يومئذٍ . فتشاءم من ذلك. وقد زار في هذه المدينة جميع معابد الأوثان بل مرتفعاتهم أيضاً التي على الاكام والجبال. وقد تسلّق على جبل كاسيوس المعروف اليوم بالجبل الأقرع ليزور معبداً للمشتري في قمته. وأسرع إلى الاحتفاء بعيد ابلون في دفنه القريبة من انطاكية وقدّم الذبائح والبخور. وقال رنان (في بعثة فينيقية ٢٨٧) إننا نعلم أنّ قسطنطين كان أبطل عبادة ادونيس في افقا بنقضه هيكل الزهرة الذي كان هناك، ونقله سكان افقا إلى بعلبك. ولكننا نرى الهيكل المذكور قد جُدّد فيُحتمل أنّ يوليانس أمر بتجديده. ونرى أنه جرى كذلك في هيكل المشنقة الذي روى اوسابيوس أنّ قسطنطين نقضه، ثم جُدّد في أيام يوليانس. وأنبأنا سوزيتوس الذي كان في القرن الخامس أنّ الوثنيين كانوا يجتمعون في أيامه في

افقا. ويختلق كهنة هيكلها معجزات (سوزيموس ك ١ فصل ٥٨). وهذا يؤيد ما مرّ من أنّ يوليانس جدّد بناء الهيكلين على أنهما نُقضا مرة أخرى في أيام اركاديوس. ولعله أشار إليهما في أمره الذي أصدره سنة ٣٩٩م حيث قال: «إذا وُجدت هياكل في الحقول فلتُنقض دون معاونة الجنود ودون ضوضاء. فإذا نُقضت انتسخت عادة العبادة الباطلة». وقد نشر المسيحيون حينئذٍ في انطاكية أشعاراً منطوية على السخرية منه والتهكم عليه لطول لحيته وقصر قامته وسخف عقله بجحوده دينه. فسخط من هذا التهكم شديد السخط، وأذاع اشعاراً سماها ميزوبركون أي عدو اللحية، يسخر بها من الانطاكيين ويعيّرهم برذائلهم. فزادوا عليه وأخذوا يعيّرونه بأنه أثار الحرب على كي وكيا مع أنهما لم يصنعا به شراً. بل غمراه بأيديهما، ويريدون بكي، كريستوس أي المسيح، وبكيا قسطنطين وأولاده. ولكي يثأر منهم ألّف كتاباً يتهكّم فيه على القياصرة. روى ذلك اميان مرسلان (في ك ٢٢ فصل ١٤) الانطاكي الذي كان معاصراً له بل مرافقاً له في حربه مع الفرس.

إنّ يوليانس عزم أن يجدّد هيكل أورشليم زاعماً أن يثبت بذلك كذب المسيح بقوله أنه لا يبقى في الهيكل حجر على حجر. وكذّب الأنبياء الذين تنبأوا بأنه يبقى خرباً إلى الأبد. فينقض العهدين القديم والحديث. وكتب رسالة إلى اليهود غالى فيها بمدح أمّتهم والرثاء لتشتتهم والحضّ لهم على استئناف بناء هيكلهم في أورشليم. ليكون جامعة لهم كما كان قبلاً. ولم يقتصر على هذه الرسالة بل استدعى بعض وجهائهم وسألهم لِمَ لا يقدّمون ذبائح لآلهتهم؟ فأجابوه للحظر علينا أن نقدّم ذبيحة خارجاً عن هيكل أورشليم. فقال: إنه لدى بحثه في أسفارهم المقدّسة تبيّن له أنّ مدة سبيهم قد انقضت. وأنه يلزمهم العود إلى أوطانهم والمحافظة على سنّتهم. ثم كشف لهم عن عزمه، وأمر بارسال العَمَلَة من كل صوب إلى أورشليم. وأمر خزّانه أن يعدّوا المال اللازم لهذا البناء. وأقام اليبيوس الذي كان يدعوه اخاه العزيز قيّماً على البناء. ووجهه إلى أورشليم. وكانوا يعاونون بأيديهم ومالهم تجهيز ما يلزم للبناء. وكانت نساؤهم يدفعنَ حليّهنّ وكل ما يملكنَ من نفيس لنفقة البناء، وبعضهنّ ينقلنَ التراب والكلس بثيابهنّ أيضاً. وأخذ العَمَلة اولاً ينقضون أسس البناء القديم ويعدّونها للبناء الحديث. وأتمّوا نبوّة المسيح بأنه لا يبقى هناك حجر على حجر. ولما أراد البناؤون وضع الحجار في الاساس، انبعثت منها لهبات نار التهمت الفَعَلة وكل ما كانوا اعدّوا من الاخشاب. وحاولوا مرات أن

يأخذوا في العمل فصدّهم شبوب النار عن الدنو إلى المحل، فغادروه خجلين. روينا كل هذا بكلمات اميان مرسلان نفسها (ك ٢٣ فصل ١) وهو مؤرخ مدقق أمين وثني كان خادماً ليوليانس ومقرباً إليه. وممن روى هذه الآية من المسيحيين القديس امبروسيوس (رسالة ٤٠) والقديس يوحنا فم الذهب (خطبة ٥ في اليهود) والقديس غريغوريوس النزينزي (خطبة ٤) وروفينوس (ك ١ فصل ٣٧) وسقراط (ك ٣ فصل ٢٠) وسوزومان (ك ٥ فصل ٢١) وتوادوريطوس (ك ٣ فصل ٢٠). وكل هؤلاء كانوا في القرن الخامس، وتكلموا في هذه الآية كأمر معلوم مشهور لا سبيل إلى انكاره. بل ذكر هذا الحدث أحد مشاهير الربيين اليهود في القرن التالي قائلاً: «روت تواريخنا أنه لنحو سنة ٤٣٤٩ للعالم حدث زلزال عظيم في الأرض كلها فقوّض الهيكل الذي كان اليهود بنوه بنفقات وافرة بأمر يوليانس الجاحد. وفي اليوم التالي انحدرت نارٌ من السماء فأذابت كل ما كان فيه من الحديد وأهلكت كثيرين من اليهود (جنايل وربرتون) وما لنا وكثرة الشهود لهذه الآية، فيوليانس نفسه شهد لها مجبراً. فإنّ هيكل ابولون في دفنه كان احترق فاعترضه بعضهم قائلاً: إنّ ابولون الإله العظيم لم يعلم أن ينبئ أو يتدارك احتراق هيكله فأجاب بما ملخصه: «لا يدعينّ أحد بأن يعترضنا بالسفسطات أو يرهبنا بكلامه بالعناية الربانية فلا غرو أنّ انبياء اليهود قد تهددونا بمثل هذه النوازل، ولكن ما يقولون هم أنفسهم في هيكلهم الذي انتقض ثلاث مرات ولم يُبنَ حتى الآن... وقد اردت أن أجدد بناء هذا الهيكل تكرمة للإله المعبود فيه. ولم أذكر هذا المثال إلّا لأبيّن أنّ ليس شيء ثابتاً في الأمور العالمية» (فقرات يوليانس صفحة ٢٩٥) فيوليانس أقرّ إذاً بتجديد بناء الهيكل وأنّ النار منعته من ذلك. وانّ هذه النازلة تنبّأ بها الأنبياء.

قد صرف يوليانس الشتاء سنة ٣٦٣م في انطاكية يعدّ العُدد ويحشد الجنود لمحاربة الفرس. وكانت مملكة الفرس حينئذٍ فسيحة الأنحاء تنطوي على ثماني عشرة ولاية. حتى عدّ اميان مرسلان الصّين من جملتها. وكان سابور ملكهم يسمى ملك الملوك واخا الشمس والقمر. ومع هذا عرض على يوليانس الصلح وحكمه بوضع شروطه. فنبذ يوليانس رسالته وقال إنه يذاكره بالصلح مشافهةً معتمداً على استشارتها الآلهة والعرافين . وكان ينوي استئصال النصارى من مملكته بعد عوده من الحرب. وأقام في انطاكية قبل سفره والياً مقلقاً قاسياً جائراً قائلاً: إنه يعلم أنّ هذا الرجل ليس أهلاً للولاية لكن أهل انطاكية أهل لأن يولّى عليهم. وزايل هذه

المدينة في آذار سنة ٣٦٣م بعد أن قدّم الضحايا للأوثان. وبلغ في اليوم التالي إلى حلب وتلبّث فيها يوماً مقدماً ضحية للمشترى. وخطب في منتدى المدينة حاضّاً على عبادة الأصنام. فتملّقه الكثيرون ولم يذعن لخطابه أحد. وكان رئيس مجلس حلب ساخطاً على ابنه لتركه دينه وتديّنه بمذهب الملك. وقد حرمه ارثه وطرده من داره. فمضى الابن يشكو أمره إلى يوليانس ويسأله انصافه. فوعده أن يصلح بينه وبين ابيه. وأدب يوليانس لوجهاء المدينة وأجلس هذا الأب إلى جانبه وقال له: لا أشاء أن يكره أحدٌ غيره على دينه فلا تطلبنّ من ابنك أن يتبع دينك. فأجابه الأب: أتعني هذا الأثيم الرذيل الذي آثر الكذب على الحق؟ فساء الملك جوابه لكنه تحلّم وقال: دعنا من القدح. والتفت إلى الشاب فقال له اتخذني أباً إذ قد تركك أبوك.

وبارح حلب فمرّ ببطنه مدينة بالجنوب الشرقي من ايرابولس تسميها الآثار المصرية بادانا. وانتهى إلى ايرابولس القريبة من الفرات. فاستقبله أهلها بمعظم الاحتفاء ولكن سقط رواق على بعض جنوده فقُتل منهم خمسون جندياً وجُرح كثيرون. واجتاز الفرات ولم يمرّ بأورفه لأنّ أهلها مسيحيون. وبلغ إلى أملاك الفرس واستحوذ على مدن فيها. بعضها استسلم أهلها إليه، وبعضها افتتحها عنوة. وعبر دجلة تجاه سلوقية وقطيسفون وظهر على الفرس بوقعة هناك. فأوفد إليه سابور أحد كبراء دولته عارضاً عليه أن يستبقي لنفسه ما استحوذ عليه، وأن يوقعا على عهدة صلح ومحالفة بينهما. وكان هرمزدا اخو سابور على خلاف مع أخيه فانضمّ إلى يوليانس. فحلّ موفد سابور ضيفاً على هرمزدا وسأله أن يبلغ الملك كلام سابور. فأسرع هرمزدا إلى حضرة الملك فكأنه يبلغه بشرى على أنّ يوليانس لاعتماده على أنواع من الفأل وعلى خزعبلات سفسطي معه اسمه مكسيموس لم يحسن استقبال هرمزدا وأمره أن لا يبوح لأحد بسرّ الوفادة إليه واهماً أنّ مجرد ذكر الصلح يوهن قوى الجنود. وحاصر قطيسفون فلم ييسر له فتحها. فاقتصر على تخريب ضواحيها وعزم أن يسير تواً لمحاربة سابور: وبينما هو مفكر في أي الطرق يسير، أتاه فارسي يخدعه بأنه فرّ من وجه سابور لسخطه عليه، وإنّ الملك يائس واجس من شدّة صولة يوليانس. وإنّ أفضل التدبير أن يترك يوليانس النهر ويتوغّل في البلاد. وإنّ السفن الكثيرة التي كان أدخلها بالفرات إلى دجلة تعرقل نجاحه فالأولى تركها أو حرقها. فصدقه يوليانس بطيشه وأحرق سفنه فساء الجنود هذا الصنيع وأبعد يوليانس في البلاد وأحرق عمال سابور القرى والمزارع والزروع التي كانت استحصدت

فتعسّر على الرومانيين أن يخطوا إلى الأمام، وتوجسوا من القهقرى وعازهم الزاد واستحال عليهم أن يمضوا في وجهة ولا يضايقهم فرسان الفرس، واستحوذ الرعب على الجنود وأخذوا يجددون الاسف على حرق السفن. واستشار يوليانس آلهته فكان انباؤهم مزيداً من الالتباك. وبينما هم في هذه الحيرة أقبل عليهم جيش الفرس وكان ذلك في الليل بين ٢٥ و ٢٦ حزيران. وتسارع الرومانيون إلى السير لمقابلة أعدائهم، وسار يوليانس في طلائع جنده فنبئ بأنّ الفرس يضربون ساقة جيشه، فأسرع إلى هناك وقيل له أنّ الفرس يضربون طلائعه. وهجم فرسان الفرس على ميمنة عسكره فانكسرت. فأمر يوليانس أن ينجدوا الميمنة فقهقر الفرس وعجّل يوليانس إلى لحاقهم فأصابه سهم حطّم يده واصمى كبده. وحاول أن ينتزع السهم فقطع أصابعه، وسقط عن جواده وحُمل إلى مأمن. وإذ كان بعض ذويه يبكيه قال له ما هذه الوغادة أن تبكوا ملكاً إذا مات ضمّ إلى الكواكب في السماء؟ وأدركته المنية في ٢٧ حزيران سنة ٣٦٣م. هذا ما رواه عن موته اميان مرسلان الذي كان من حرسه. وروى توادوريطوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٢٠) أنه عند جرحه ملأ راحته من دمه وطرحه إلى الجو قائلاً: «انتصرت يا جليلي» يريد المسيح.

وروى سوزومان كذلك (ك ٦ فصل ٢) ولكنه قال هذا: «ما يقوله بعضهم». وعن القديس غريغوريوس النزينزي (خطبة ٤) إنّ رواية موته مختلف فيها. فمن قائل إنّ أحد جنوده قتله وإنّ الفرس عيّروا الرومانيين بعدئذٍ بذلك. ومن قائل إنّ سركسياً أو فارسياً قتله، وإنه بعد أن جُرح حُمل إلى دجلة وطرح نفسه في النهر ليختفي عن أعين الناس ويعدّ إلٰهاً كرامولس وغيره. وقد أمر الملك يوفيان الذي خلفه بنقل جثته إلى ترسيس، فنُقلت إليها ودُفنت في احدى ضواحيها على مقربة من مدفن مكسيمنس دايا. وتلا في تلك الأثناء القديس غريغوريوس النزينزي خطبتيه الشهيرتين حيث يبيّن خلاعة هذا الجاحد وجرائمه واضطهاده للمسيحيين. وقد كان تنبأ بذلك لما رآه في أثينا ويحضّ المسيحيين أن لا يثأروا من الوثنيين بل يعاملوهم بالرقّة والرفق والمجاملة ليعلموهم بمثالهم فروض الإنسانية والفضيلة. وقد بقي من تصانيف يوليانس مقالات هزلية في الاثني عشر قيصر، ومقالته الموسومة بعدو اللحية المار ذكرها، وخطب سياسية ودينية ورسائل. وقد جمع سبانهيم تآليفه وطبعها في لبسيك سنة ١٦٩٦م وترجمها تلبوت إلى الافرنسية سنة ١٨٦٣م.

وهذا مثال ليوليانس مأخوذاً عن تمثال في أحد متاحف افرنسة.



عد ٥٦٢

يوفيان الملك

استمرّ الجيش بعد أن هلك يوليانس يحدّق به عساكر الفرس ويمنعون من وصول الميرة والنجدة إليه. واجتمع رؤساؤه يتشاورون باقامة ملك عليهم، فأجمعوا على انتخاب ساكوف رئيس الحرس في المشرق. فأبى الملك لشيخوخته وأمراضه، فانتخبوا يوفيان أحد أركان الحرس وكان عمره يومئذٍ ٣٢ سنة. وكان الجنود يحبونه ويجلّونه متذكرين فضل ابيه دارونيان الذي كان رئيساً على الفرقة الأولى من الجنود. وكان طويل القامة متوقّد الذكاء لطيف الأخلاق. وروى توادوريطوس (ك ٤ من تاريخه فصل ١) أنه مذ أُقيم ملكاً جاهر لجنوده بأنه مسيحي، وأنه لا يحب أن يملك على وثنيين. وأنّ الجنود أجابوه بأنهم مسيحيون أيضاً. وأنّ ملك

يوليانس القصير المدة لم ينسهم ما تعلموه في أيام قسطنطين. وشهد له اميان مرسلان (ك ٢٥ عد ١٠) وهو وثني بأنه كان مسيحياً غيوراً. وصرف بواكير اهتمامه لتخليص الجيش من الضيق الذي كان فيه. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، فإنّ الفرس جدّوا في لحاقهم متتبعين آثارهم من كل صوب، حتى لم يمكنهم أن يسيروا في اليوم الأول إلّا ثلاثة أرباع الميل. واستمروا في اليومين التاليين في مواقفهم مدافعين إلى أن يسّروا ببسالتهم وثباتهم المسير. وبلغوا دجلة وحاولوا أن يعبروه على أطواف، فلم يمكنهم منه طغيان النهر. وتداركتهم العناية الربانية بأنّ سابور أرسل وفداً يطلب عقد عهدة مع الرومانيين لهلاك كثير من جنوده وقائدين من قادتهم، ولثورة ارساس ملك الأرمن عليه. فوقع يوفيان على هذه العهدة متخلياً بمقتضاها عن خمسة اعمال في عبر دجلة ومتعهداً بأن لا ينجد الأرمن. فكانت هذه العهدة مذلة للرومانيين، لكن يوفيان الجأ إليها بقضاء الضرورة (رواه اميان مرسلان ك ٢٥ عد ٩).

وخاف الوثنيون وقلقوا خشية أن يضطهدهم يوفيان لأنه مسيحي، فأمّنهم بأمر أذاعه أن يتركوا ما يدينون به وأن تفتح معابدهم إن كان قد أُقفل بعضها بعد وفاة يوليانس. ولم يصدر هذا الأمر إلّا سياسة لأنه كان يجاهر بأنه مسيحي. وقد أمر جميع عماله أن يمكّنوا المسيحيين من الاجتماع في كنائسهم. وأطلق لكل من أبعدوا عن أوطانهم من المسيحيين أن يعودوا إليها. وردّ على الاكليروس والعذارى والأرامل ما خولهم الملوك المسيحيون من الحقوق، وأعاد توزيع الميرة على الكنائس لقوت الأرامل والأيتام. وكان أحد عماله المسمى ماينوس أحرق كنيسة بيروت، فعزم يوفيان أن يقطع رأسه لكن تشفّع فيه بعض المقربين فاقتصر الملك على أن يغرّمه نفقة تجديد بناء الكنيسة من ماله (كما يظهر من كتاب شرائع توادوسيوس).

ولما بلغ اثناسيوس البطريرك الاسكندري مقتل يوليانس عاد إلى كرسيه الذي كان قد نفاه منه، وكتب له يوفيان رسالة هذه ترجمتها (نقلاً عن المجلد الثاني من تآليف اثناسيوس) «إلى اثناسيوس محب الله الكلي الورع من يوفيان. لما كنا نُعجب كثيراً بقداسة سيرتكم التي يتلألأ بها شبه إله الكون، وغيرتكم على دين المسيح مخلّصنا، شئنا أن نتخذك اليوم تحت حمايتنا أيها الاسقف الكلي الاحترام.وأنت أهل لذلك بتلك الشجاعة التي ازدريت بها الأعمال الشاقة واعتبرت المخاطر الجسيمة وصرامة المضطهدين وسيوف المهددين كشيء لا يعتد به، ضابطاً بيدك دفة

الايمان العزيز لديك. وما فتئت تذب عن الحق وتعنى بتعمير الشعب المسيحي الذي يرى فيك مثال الفضائل جمعاء. ولهذا ندعوك الآن ونحضك أن تعود وتعلّم تعليم الخلاص. فارجع إلى الكنائس المقدّسة وامّن شعب الله. ونتوخى أنّ الراعي يصلّي من أجلنا وهو في مقدمة رعيته. فإننا موقنون أنّ الله يمنّ علينا وعلى من كانوا مسيحيين نظيرنا بنعمة خاصة إذا مننتم علينا بغوث صلواتكم». روى ذلك توادوريطوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٢) وبعد أن عاد الملك إلى انطاكية كتب ثانيةً إلى القديس اثناسيوس يسأله أن يشرح له عقائد الايمان ولا سيما ما خصّ بدعة آريوس. فلبى القديس سؤاله برسالة مشبعة شفعها بارساله إليه قانون الايمان الذي وضعه المجمع النيقوي. فلم يجتزئ الملك بهذه الرسالة بل كتب إليه يدعوه إلى انطاكية راغباً في أن يراه ويسمع كلامه مشافهةً. فشخص القديس إلى انطاكية ولم يبلغها إلّا وقد انتهى إليها بعض رؤساء الاريوسيين ليشكوه إلى الملك. وكثيرون من المؤمنين ليدافعوا عنه، فلم يصغِ الملك إلى تهم الاريوسيين وتعنّتهم بل ازدجرهم ساخطاً عليهم فعادوا من انطاكيةَ يائسين.

وقد زايل يوفيان انطاكية قاصداً القسطنطينية وشرع سكانها يعدّون حفلات الاحتفاء بدخوله إليها. وسافرت الملكة شاريتون عقيلته للقياه يصحبهما كثيرون من الاعيان ونساؤهم. وإذ كانوا على مقربة من موعد اللقاء فاجأت المنية الملك في الليلة بين ١٦ و ١٧ شباط سنة ٣٦٤م في محلة دارستان في آسيا الصغرى. ومن قائل أنه فطس ببخار الفحم، ومن قائل أنه اعتراه فالج، ومن قائل أنّ الخصيان دسّوا له سماً في طعامه كما يظن اميان مرسلان (ك ٢٥ عد ١٠) وحقق فم الذهب (خطبة ١٥) فانقلب سرور الملكة والكنيسة إلى حزن ونوح وبدلت مطارف الفرح بأطمار الحداد ولم يكن عمره حينئذٍ إلّا ٣٣ سنة وفي الشهر الثامن بعد ملكه.

عد ٥٦٣

والنتنيـــان

استمرت المملكة بعد وفاة يوفيان ستة أيام خلواً من ملك، واجتمع اقطاب المملكة وأركان الجنود في نيقية. وروى سوزيموس أنهم عرضوا على سالوست أن يرتقي منصّة الملك، فأبى لشيخوخته، ولم يشأ أن يتولاه ابنه لصغر سنه، فأجمعوا

على انتداب والنتنيان وكان رئيس فرقة من الحرس. فسُرّ الجنود بانتخابه فنادوا به ملكاً في ٢٦ شباط سنة ٣٦٤م، وأخذ يخطب في الجنود. فصاح بعضهم سائلين أن ينتخب له من يشاركه في الملك مخافة أن يبقوا يوماً ما دون ملك كما عرض قبله مرتين. فقال أيها الجنود إنّ لكم أن تنتخبوني ولكن إذا ارتضيت الملك لم يبقَ لكم أن تقضوا بما يعود على المملكة بالنفع، فلا أكره أن يكون لي شريك على أنه لا بدّ لي في انتخابه من زمان اتدبر الأمر فيه. فصمتوا وتهيبوه عالمين أنّ لهم ملكاً غيوراً على سلطته. وبعد ثلاثة أيام جمع أركان جيشه ليستشيرهم في انتداب شريك له. فقال له أحد القادة دون حياء (أيها العاهل المعظّم إن أحببت أسرتك فاختر أخاك، وإن أحببت المملكة فابحث عمن كان أكثر أهلية». فوارى الملك استياءه من هذا الكلام ورقى قائله بعدئذٍ إلى مقام القناصل (رواه اميان ك ٢٦ عد ٢ و ٤). وفي ٢٨ آذار تلك السنة جعل أخاه والنس شريكاً له في الملك وكان عمر والنتنيان حينئذٍ ٤٣ سنة عمر أخيه ٣٦ سنة. وكان ابوهما غراسيان غير حسيب لكنه ترقى في المناصب إلى أن كان والياً في افريقية ثم في بريطانيا. واقتسم والنتنيان ووالنس الملك فأخذ الأول المغرب والثاني المشرق في أول ملكه.

أما والنتنيان فأباح جميع المسيحيين والوثنيين ممارسة فروض دينهم وحظّر على الوثنيين استعمال السحر وتقدمة الضحايا ليلاً. ثم منعهم من تقدمة الذبائح وأباحهم تقدمة البخور. وسنّ شريعة حظّر بها على المانويين والدوناتيين وسائر الهراطقة الاجتماعات الدينية. وعاد بعد ذلك يرعى حرمة الكهنة الوثنيين ويحافظ على امتيازاتهم فكان كثير التقلّب (اميان ك ٣ فصل ٩) وروى سوزومانس (ك ٦ فصل ٧) أنّ بعض أساقفة المشرق أرسلوا إليه ايباسيان أسقف هرقلية يسألونه أن يرخّص لهم بعقد مجمع لاصلاح تعليم الايمان فأجابهم: «إني من مصاف العامة فلا مدخل لي في هذه الأمور التي هي من خاصات الاساقفة. فلهم أن يجتمعوا حيث شاءوا». وروى القديس امبروسيوس (رسالة ١٣) عنه أنه قال: «إنه لا يصلح أن يكون قاضياً بين الاساقفة». وقد سنّ شرائع عادلة ونافعة للمسيحيين منها تجديد أمر قسطنطين بالامتناع عن الاعمال القضائية أيام الآحاد. وزاد عليه أنه حظر على العمال والقضاة تعقّب المسيحيين في تلك الايام. وأمر تكرمة لعيد الفصح أن يخلى سبيل جميع المجرمين في هذا العيد ما خلا أصحاب الجرائم الكبيرة كالقتل والمجوسية والمتطاولين على الملك. وقدكان ميالاً إلى القسوة أكثر من الحلم. ومن أوامره أنّ الاكليريكيين

لا يحاكمهم إلّا اكليريكيون من مصافهم. فلا يحاكم الاسقف مثلاً إلّا أسقف نظيره. وإنّ ما يحكم به على الاكليريكي من الغرامة يُدفع إلى الفقراء لا إلى خزينة الحكومة. وكان قسطنين وابنه قسطنس اعفيا عقار الكنائس واشخاص الكنسيين من كل ضريبة غير عادية أو واضعة من قدر الاكليريكيين كالسخرة. فنقض هذه الشريعة يوليان وجددها والنتنيان. وكان الاكليريكيون يعفون من جميع التكاليف الشخصية، لكن عقارهم اسوة غيره في الخراج العام. ويظهر أنّ اعفاء الاشخاص المكرسين للعبادة من التكاليف الشخصية مأمور بشريعة طبيعية. فإننا نجده عند الشعوب طرّاً.

وكانت هذه الشرائع عامة في المغرب والمشرق وقد اتفق الملكان عليها. وقهر والنتنيان الالمانيين الذين كانوا قد استحوذوا على افرنسة وغيرهم من القبائل في اوروبا وافريقيا. وقضى بسورة حنق انزلت به فالجاً سنة ٣٧٥م وله ابنان غراسيان ووالنتنيان الثاني. وذكر ودينكتون خطاً لاتينياً في ام الجمال (في حوران) وهو في عد ٢٠٥٨ كُتب فيه ما ملخصه «لسلامة موالينا والتنيان ووالنس وغراسيان الملوك الظافرين ابداً قد بنى هذا البرج يوليوس الكنت الشهير معلم الجنود الفرسان والمشاة في قنصلية مولانا غراسيان اغوسطوس وبروبوس الرجل الشهير».

وهذا مثال لوالنتنيان الأول مأخوذ عن تمثال يظن أنه له في متحف اللوفر.



عد ٥٦٤

والنس الملك

أما والنس فجعل عاصمة ملكه القسطنطينية وكان مطواعاً لامرأته وكانت اريوسية، فعمّده اودكسيوس البطريرك القسطنطيني أحد أقطاب الاريوسيين وحمله عند تعميده على أن يقسم أنه يؤيد بدعة هؤلاء المارقين فتشبث بها واضطهد الكاثوليكيين ولا سيما الاساقفة. من ذلك أنه لدن زيارته (فيومي) مدينة التتر أراد أن يحض ونزيتون أسقف هذه القبيلة أن يشترك مع الاريوسيين. ودخل الملك إلى الكنيسة وكان الاسقف شديد التمسك بقانون المجمع النيقوي، فترك الملك في الكنيسة ومضى إلى كنيسة أخرى، وتبعه الشعب ولم يبقَ إلَّا الملك وحاشيته، فاستاء من عمل الاسقف ونفاه لكنه أرغم أن يسترده من منفاه مخافة أن يثور التتر عليه. وبينما كان ماضياً إلى انطاكية توفي اوكسيوس بطريرك القسطنطينية، فانتخب الاريوسيون ديموفيل مكانه. والكاثوليكيون القديس افاغريوس. فنفى والنس هذا القديس وأثبت انتخاب الاسقف الاريوسي فأرسل الكاثوليكيون إليه وهو في نيكوميدية وفداً ثمانين اكليريكياً، فأمر مورست رئيس حرسه أن يقتلهم عن آخرهم. فلم يشأ أن ينفّذ الأمر مجانبة للقلق بل أظهر أنه يريد نفيهم ووضعهم في سفينة. ولما أبعد البحارة عن البر ألقوا ناراً في السفينة وانحدروا هم إلى زورق، فلقي هؤلاء الشهداء ربهم من بين النار والماء (سقراط ك ٤ فصل ١٦ وسوزومانوس ك ٦ فصل ١٤). وقد اضطهد القديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي، واثناسيوس كما سترى في ترجمتهم.

وافى والنس إلى انطاكية فنفى القديس ملاتيوس أسقفها إلى ارمينية وطرد الكاثوليكيين من كنائسهم، فتألّبوا في سفح جبل قريب من انطاكية حيث مغاور يقال أنّ القديس بولس الرسول اختبأ فيها. وكانوا هناك يسبحون الله متحملين البرد القارس والثلج أيام الشتاء والحرّ الشديد أيام الصّيف. فأرسل الملك جنوداً طردوهم من هناك. فاجتمعوا على شاطئ العاصي وطردهم من هناك أيضاً فتألّبوا في الساحات التي يتمرّن فيها الجنود، فأمات كثيرين منهم بأعذبة متنوعة ولا سيما بتغريقهم في العاصي. وبينما كان يوماً جالساً على شرفة قصر انطاكية رأى شيخاً متدثراً أطماراً رثّة، وقيل له أنه الراهب افرهات الذي يجلّه الشعب كثيراً، فاستدعاه الملك وأخذ يسأله في شأن خروجه من ديره فأجابه افرهات لو كنت بنتاً متحصنة

في بيت أبيها ورأت النار تشبّ فيه أأبقى جالساً في مخدعي متفرجاً على التهام النار له أم أهرع إلى الماء فأصبّه لأخمد لظاها؟ فأنت ألقيت النار في بيت أبي فتتسارع لإطفائها. فصمت الملك، على أنّ أحد الخصيان هدّده بالقتل فلم يلبث أن سقط في مرجل ماء يغلي فهلك. وكان الملك قد نوى نفي افرهات فعدل عنه. وكان افرهات فارساً حسيباً فآثر النسك والعزلة عن العالم وأتى انطاكية يعاون المسيحيين المضطهدين (توادريطوس ك ١ من تاريخه فصل ٢٥ و ٢٦). وذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين البيعيين. وقال أنه ألّف مجلدين في الحث على التقوى وصلوات نسّقها على أحرف الهجاء (السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٨٥).

هذا شيء من مظالم والنس للكاثوليكيين. وأما أعماله السياسية فمنها أنه آثر في بادئ بدء ملكه أن يأتي إلى سورية ليرقب عن قرب حركات سابور ملك الفرس، إذ لم يكن يثق بخلوصه بعد عهدة الصلح. وبينما كان في قيصرية الكبادوك، بلغه أنّ بروكوب أحد أنسباء يوليانس الجاحد أنتهز فرصة غيابه عن القسطنطينية فجعل بعض الجنود يسمونه ملكاً، واستحوذ على العاصمة فقلق والنس ووجس لأنه كان وغلاً جباناً. ولكن حمله أركان جيشه إلى المدافعة فأرسل فرقتين من الجند لكبت الثائرين على أنّ بروكوب أغوى قائديهما واستمالهما إليه. فنكس الجنود أعلامهم وانحازوا إلى بروكوب قاسمين بالمشتري يمين الأمانة له. وأمّر بروكوب على جيشه رجلاً وغداً اسمه اياركيوس. وكان لوالنس قائد آخر اسمه ادينتا. فاستمال جنود اياركيوس إليه وبعثهم على أن يقبضوا عليه ويأتوه به ففعلوا وانضموا إلى جيشه. واستمرت الحرب ثمانية أشهر إلى أن خان بروكوب قائدان من قادته وغادره جنوده فقبض القائدان عليه وأتوا به إلى والنس، فقطع رأسه ورأسيهما (اميان مرسلان ك ٢٦ عد ٦ وسقراط ٤ فصل ٢).

وكان لوالنس شبهة في أنّ بارا ملك ارمينيا يؤثر الفرس على الرومانيين فاستدعاه إليه إلى انطاكية بحجّة أن يحدّثه في أمور لازمة، وهو ينوي امساكه لديه واقامة ملك آخر. ودرى بارا وهو في ترسيس بمكيدة الملك فعاد إلى ارمينيا محافظاً على أمانته للرومانيين. فكتب الملك إلى ترايان قائد جيشه على تخوم ارمينيا فدعا القائد بارا إلى مأدبة أكثر فيها من الاحتفاء بلقياه، ولما صار في حوزته اغتاله وخلفه وارزدات أحد أنسبائه.

وفي سنة ٣٧٧م استظهر الهونيون (قبيلة أصلها على الراجح من الصّين) على الغطط (وقد مرّ تعريف هذه القبيلة) فاستحوذ هؤلاء على تراسة واتصلوا إلى أبواب القسطنطينية، فقلق والنس وعدل عن اضطهاد الاسافقة والرهبان وزايل انطاكية في مبادئ سنة ٣٧٨م، وبلغ قسطنطينية في ٣٠ أيار منها. وكان والنس حارب سنة ٣٦٩م هؤلاء الغطط وانتصر عليهم، ثم أبرم الصلح بين الفريقين على شريطة أن لا يتجاوز الغطط نهر الدانوب، وأنّ ملكهم المسمى اتاناريك يأخذ جعلاً من العاهل، على أنّ الهونيين ارغموهم، في سنة ٣٧٦م أن يسألوا الرومانيين أن يرخصوا لهم بعبور النهر والاقامة في أرضهم. فارتضى والنس بذلك مشترطاً أن يسلموا سلاحهم إلى عمّاله، وأن يقدموا له بعض صبيانهم ليكونوا رهينة له في آسيا. وكان رئيس الوفد الذي أرسله الغطط اولفيلاس أسقفهم، إذ كان جمّ غفير منهم مسيحيين. بل كان من هؤلاء شهداء أيضاً أشهرهم القديس سابا الذي أرسلت كنيسة الغطط ذخائره إلى القديس باسيليوس كما هو بيّن من رسالته ١٥٥ وغيرها. وتوافيل أسقفهم شهد المجمع النيقوي ووقّع عليه. وخليفته اولفيلاس وضع للغتهم الغططية الأحرف الهجائية آخذاً إياها عن اليونانية، وترجم الاسفار المقدسة إلى هذه اللغة. وقد وُجد قسم من هذه الترجمة، وهذه اللغة أشبه باللغة الألمانية وفيها كثير من الألفاظ الفارسية. وقد صرّح القديس ايرونيموس (في رسالته ١٠٦) بأنّ الترجمة الغططية تفضّل على الترجمات اليونانية.

على أنّ العمال والجنود الرومانيين أساءوا معاملة الغطط عند عبورهم الدانوب وتقاعدوا عن العمل بالشرط الذي وضعه الملك، وبدلاً من أن يأخذوا سلاح الغطط كانوا يأخذون منهم مالهم وكل ما استحسنوه من متاعهم، ويسبون نساءهم ويضيّقون عليهم بامتيار طعامهم. فعبر الغطط النهر بسلاحهم واليأس مستحوذ عليهم، وكان من غباوة لوبيسان قائد الجيش الروماني أن يدفعهم بجنوده ليبعدوا عن شاطئ الدانوب ويتوغلوا في البلاد، آملاً أن يضعفهم أو يهلكهم متفرقين. ودعا فرتيجرن ملك فصيلة أخرى منهم إلى مأدبة وقتل حرسه وتملّص الملك منتضياً سيفه، ولما أدرك جنده أصلى نار الحرب على الرومانيين، فجندل السواد الأعظم من جنودهم، فأرسل والنس جيشاً آخر مؤمّراً عليه ترايان. وتسعرت نار الحرب من الصباح إلى المساء، وتراكم القتلى من الجيشين وبلغ حينئذٍ والنس من انطاكية إلى القسطنطينية. وكان الغطط يشنّون الغارة في البلاد إلى أبواب هذه المدينة. وألّب

جيشاً منه فرقة من فرسان السراكسة[1] كان صحبهم من انطاكية. وعزل ترايان عن إمارته على الجنود مؤنباً له. فقال هذا القائد له: «لم أُغلب بل أنت غُلبت أيها الملك لأنك حاربت الله وذببت عن أعدائه البرابرة. ألا تعلم أنّ هؤلاء إنما هم من طردتهم من الكنائس ومن اسلمتهم إليهم» (رواه توادوريطوس ك ٤ فصل ٣٣). وكان تارنس أحد قادة جيشه قد اسمعه مثل هذا التأنيب إذ عاد إلى ارمينيا ظافراً. وسأله الملك ما تريد جائزة؟ فرفع إليه عريضة سأله فيها أن يهب الكاثوليكيين كنيسة. فمزّق الملك عريضته قائلاً: اسألنَ شيئاً غير هذا. فجمع تارنس فلذ عريضته وقال: «لا أسأل غير هذا وربك رب النيات». (توادوريطوس في الكتاب المذكور فصل ٣٢).

وكثُر التذمّر على الملك في قسطنطينية، وإذ كان مشاهداً الملاعب في ١١ حزيران هتف الشعب اعطونا سلاحاً فنمضي نحن للقتال. فحنق الملك وأسرع إلى الخروج مع جيشه مهدداً الأهلين بأنه سيعود ويدمّر مدينتهم. فالتقاه على أبواب المدينة ناسك اسمه اسحق فصاح به «أين تمضي أيها الملك وقد أثرت الحرب على الله؟ فهو لا يعينك بل أثار البرابرة عليك. فاكفف عن محاربتك له وإلّا فلا تعود». فسخط الملك وأمر أن يلقى في السجن إلى أن يعود، وقال له: لأعودنّ وأقتلك عقاباً على نبوّتك الكاذبة. فقال اسحق بأعلى صوته: «اقتلني إن وجدتني كاذباً». (توادوريطوس ك ٤ فصل ٣٤ وسقراط ك ٦ فصل ٤٠).

وعهد والنس بامارة الجيش إلى الكونت سابستيان الذي كان مغوياً بعقيدة ماني، ونال بعض الظفر اولاً، فزينت له نفسه الفوز التام. وكان غراسيان ابن ملك

---

(١) يراد بالسراكسة العرب ولكن لِمَ سموا كذلك ففيه اقوال فمن قائل انه سموا بذلك نسبة الى سارة امرأة ابرهيم وهذا غير صَحيح لان العرب يتنسبون الى هاجر واسماعيل لا الى سارة. وزعم بوخرت ان هذا الاسم من كلمة سرق العربية لاعتياد العرب السرقة، وهو غير صحيح لانهم لا يسمون انفسهم به بل يسميهم به جيرانهم. والاقرب الى الصواب ارتآه اسطفانوس البيزنطي في كتابه في المدنِ انهم سموا كذلك بنسبة الى محل اسمه سراكا في بلاد النبطيين في العربية الحجرية، ويسمى في الكتاب بالمقدس مسريفة (تكوين فصل ٣٦ عد ٣٩) ويسميه العرب مسريقاً. وقد اخذ اسم سراكسة عن نسبة هذا الاسم في اللغات الاعجمية، وكان يسمى به اولاً سكان العربية الحجرية ثم اطلق على العرب جميعاً (عن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٤)

المغرب أخي والنس قد ظفر بالألمانيين. وكتب إلى عمه يقول أنه آتٍ لإنجاده فلينتظره. فعجل والنس وقائده سابستيان بإصلاء نار الحرب قبل وفوده لئلا يفوتهما فخر الانتصار أو يشترك غراسيان معهما فيه. وفي ٩ آب سنة ٣٧٨م التحمت الحرب على مقربة من ادريانوبولي فكانت وقيعة لم يكن لها مثال بعد وقعة كان مع انيبال، فترك الملك قتلى جيشه وخمسة وثلاثين قائداً مجندلين على العفراء وهلك الملك نفسه. وما ذكره كثير من المؤرخين هو أنه جُرح وسقط عن جواده وحمله بعض ذويه إلى كوخ، ثم أتت شرذمة من الغطط وألقت النار في الكوخ فأهلكت كل من كانوا فيه إلّا أحد الحرس الذي تمكّن من الفرار، وقصّ الخبر. وبعد مقتل والنس تمادى الغطط إلى أن بلغوا أبواب قسطنطينية، فردّهم عنها الفرسان السراكسة الذين كانوا قد أتبعوا المذهب الكاثوليكي رغم إرادة الملك وقد حموا العاصمة. والغطط الذين جعلهم الملك يعتنقون بدعة آريوس قد غدروا به وقتلوه وحاولوا الاستيلاء عى ملكه لو لم يكتهم السراكسة.

عد ٥٦٥

غراسيان ووالنتنيان الثاني الملكان

بعد وفاة والنتنيان سنة ٣٧٥م خلفه ابنه غراسيان الذي كان قد شاركه في الملك منذ سنة ٣٦٧م، وبعد مقتل والنس أصبح مالكاً في المشرق والمغرب. وأشرك في الملك معه أخاه والنتنيان الثاني، مع أنه لم يكن له من العمر عند وفاة أبيه إلّا أربع سنين. وفي رواية أخرى عشر سنين. فأقام مع أمه يوستينا اولاً في ميلان بايطاليا، ثم في سرميوم في المجر. وأما غراسيان فكان عمره يوم ملك سبع عشرة سنة، ولم يكن له في بدء ملكه رجال محنكون بالسياسة والمخبرة بالحرب. وكان الكونت توادوسيوس من أكبر رجال أبيه، وقد خمد ثورة بريطانيا الكبرى ومدّ بساط الأمن فيها ثم أمّن افريقيا في بدء ملك غراسيان ببسالته وحكمته. ولا نعلم بأية دسيسة أمر هذا الملك بقطع رأسه بعد انتصاره على أعداء المملكة. ولم يطلب هذا الكونت وقتئذٍ إلّا فرصة زمان لينال فيه سرّ المعمودية، ثم مدّ عنقه للسيّاف فاعتزل ابنه المسمى توادوسيوس أيضاً في اسبانيا موطنه عاكفاً على تقدّم فن الزراعة بين مواطنيه. على أنّ غراسيان قد علم بعد سنتين فظاعة جنايته، واهتدى إلى

اصلاح ما فرط منه. فإنه لمّا أُنيط به بعد مقتل عمه والنس تدبير المملكة كلها استقدم توادوسيوس من اسبانيا وأقامه ملكاً على المشرق وشريكاً له في الملك مسمياً إياه عاهلاً. وجعل بلاد اليونان ومكدونية والايير وغيرها قسماً من مملكته. وسيأتي الكلام فيه. وقد صالح غراسيان الغطط وسمح لهم أن يقيموا بالمملكة سنة ٣٨٠م.

وقد جاهر غراسيان بتشبّثه بعرى الدين الكاثوليكي، وأمر مذ تسنّم أريكة الملك أن يعود الاساقفة المنفيون إلى كراسيهم، وأن تُردّ الكنائس على من كانوا خاضعين للحبر الروماني البابا داماسوس (كما روى توادوريطوس ك ٥ فصل ٢). ووجد بعض الاساقفة الكاثوليكيين بعد عودهم أساقفة اريوسيين يلون كراسيهم فأحبوا أن يبقى هؤلاء الاساقفة على رئاستهم بشرط أن يستمسكوا بالدين الكاثوليكي. ومنهم اولاليوس أسقف اماسيا، فإنه عرض على الاسقف الاريوسي أن يبقى مترئساً بحيث يتّحد مع الكنيسة الرومانية فأبى مع أنه لم يكن في المدينة إلّا خمسون اريوسياً، فغادره ذووه واتحدوا بالكاثوليكيين، وأرسل الملك مفوضاً من قبله إلى انطاكية ليصلح شؤونها الدينية. وسنعود إلى الكلام في ذلك عند ذكر بطاركة انطاكية.

ولما أراد غراسيان أن يسافر إلى المشرق لنجدة عمه والنس اقترح على القديس امبروسيوس أن يؤلّف له مقالة في لاهوت المسيح ليحجّ بها ذوي التعاليم الفاسدة في المشرق. فألّف القديس حينئذٍ كتابيه في الايمان. وكتب غراسيان إلى اكويلان نائب روما بتوقيعه وتوقيع أخيه والنتنيان الثاني أمراً فحواه أنّ الملكَين يأمران بتنفيذ الاوامر السابقة بأن يبعد مئة ميل عن روما من يحكم عليه مجمع أساقفة بأنه مقلق. ومثل ذلك أن يبعد من المدن من كان مشاغباً. وإنه يُلزم الولاة أن يُرسلوا إلى روما تحت الخفر كل من ضبط كنيسة خلافاً لحكم البابا داماسوس مع خمسة أساقفة أو ستة أو لحكم غير هؤلاء من الاساقفة الكاليكيين، وكل من دُعي إلى المحاكمة عند الاساقفة، وأبى الحضور حتى لو كان المتمرّد متربوليطاً لزمهم أن يكرهوه على أن يشخص إلى روما دون تأخر، أو أن يحضر أمام القضاة المعينين من الحبر الروماني. وإنّ أصحاب الأخلاق السيئة المعروفين بالسفه والغيبة لا تُقبل شكواهم ولا شهادتهم على الاساقفة. على أنه لمّا كان كل انسان لا يتبرأ من نقيصة كان غراسيان مولعاً بالصّيد ويؤثره أحياناً على مهام الملك تاركاً وزراءه يعتسفون الرعية. واستخدم كثيرين من الجرمانيين المشهورين بفن الصّيد وأكرم مثواهم عنده وأدناهم إليه، وكان يتزيا بزيهم فأسخط جنوده الرومانيين القدماء وكان

له قائد لجيشه في بريطانيا الكبرى يسمى مكسيموس سوّلت له نفسه أن يثلّ عرشه ويخلفه في الملك. وبعث الجيش الذي تحت أمرته يسميه ملكاً فلبّوا دعوته. وأسرع إلى افرنسة، فهبّ غراسيان لمناصبته والتقى الجيشان على مقربة من باريس. واحتال مكسيموس على تأخير الحرب أياماً، وأخذ يغري جنود الملك بتركه. فغادره السواد الأعظم منهم حتى رأى من نفسه العجز عن مصافة خصمه فآثر الهرب بثلاث مئة فارس تركه أكثرهم أيضاً. وأغلقت كل المدن أبوابها في وجهه، فتنكّر جائلاً من محل إلى آخر وفرسان مكسيموس تتعقبه. وبلغ إلى ليون فخانه رجل كان يأكل على مائدته وقد غمره باحسانه. فقد دعا هذا الخائن الملك إلى مأدبة، فتمنّع أولاً خيفة الغدر به، ولكن أقسم الخائن بالإنجيل أنه لا يدع ضراً يمسه. فانقاد لدعوته. وبعد تناوله الطعام وثب عليه غادر فاغتاله وقد أكثر الملك حينئذٍ من ذكر القديس امبروسيوس حتى كانت آخر كلمة فاه بها اسم هذا القديس. وقد روى ذلك القديس ايرونيموس نفسه والدموع تذرف من عينيه في تأبينه والنتنيان وقال إنه لا ينسى هذا الملك ما حيي، ولا ينفك عن ذكره في صلواته إلى الله. وكان يطرأ تقواه وفضائله في كل موقع. وقد ملك غراسيان بعد وفاة والده سبع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام. وكان مقتله في ٢٥ آب سنة ٣٨٣م.

وكان مكسيموس من بريطانيا على القول الراجح. وقد اجتاز كثيرون من بريطانيا إلى افرنسة واستوطنوا العمل المسمى الآن بريطانيا. وكان والنتنيان الثاني وأمه يوستينا في ميلان ينتظران أخبار ظفر غراسيان، فورد لهما منعاه. وايطاليا خالية من الجنود وتوادوسيوس في المشرق، ولا معين ولا مشير. فلجأت يوستينا إلى القديس امبروسيوس على مقتها له لأنها اريوسية. وأقامت ابنها بين يديه سائلة له بدموعها أن يهتم بهذا الملك الصغير ونجاة المملكة. فمضى القديس امبروسيوس إلى افرنسة يسعى بالوفاق والصلح بين مكسيموس ووالنتنيان، ولم يغفل عن تونيب مكسيموس على غدره بمولاه وإراقته دماً ذكياً. وقد نجح بوساطته إذ وقّع على عهدة صلح يكون بمقتضاها مكسيموس ملكاً على افرنسة واسبانيا وبريطانيا. ويبقى والنتنيان ملكاً على باقي المغرب. وكان الشعب ينتظر مكافأة كبرى للقديس امبروسيوس من قبل يوستينا وابنها على هذا الصنيع. على أنّ هذه الملكة الاريوسية غمطت النعمة واضطهدت هذا الاسقف لأنه لم يشأ أن يعطي الاريوسيين كنيسة في ميلان. وكادت تهلكه وتخرب المدينة بالشغب الذي حصل فيها. لذلك لولا

خوفها من مكسيموس الذي كتب إلى والنتنيان أن يكفّ عن هذا الاضطهاد. ثم وقعت النفرة بين مكسيموس ووالنتنيان وزحف مكسيموس بجيش جرار إلى ايطاليا ففرّ والنتنيان وأمه وهرع يستنجد توادوسيوس ملك المشرق. ولم يبلغ والنتنيان إلى تسالونيك إلّا واتقاه توادوسيوس. وزحف بجيشه إلى ايطاليا وقبض على مكسيموس حياً ونزع التاج عن رأسه. وكان يريد أن يستبقيه في الحياة لكن بعض أمراء جيشه أخرجوه من المعسكر وتوادوسيوس غافل، فقطعوا رأسه في ٢٨ تموز سنة ٣٨٨م بعد أن ملك نحو خمس سنين. وردّ توادوسيوس ملك المغرب إلى والنتنيان الثاني، فدبره من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٢م وقتله اربوكست أمير الجند غير الرومانيين، وكان مؤيداً للدين المسيحي وإن سطت أمه الاريوسية على أفكاره أحياناً.

عد ٥٦٦

توادوسيوس الملك ونقضه هياكل الأصنام وشرائعه الدينية

قد مرّ أنّ توادوسيوس هو ابن الكونت توادوسيوس الذي قتله غراسيان سنة ٣٧٦م ثم سمى ابنه توادوسيوس هذا ملكاً في المشرق سنة ٣٧٨م، وقد رأيت أنه قهر بعد ملكه الغطط وأباحهم أن يتوطنوا في تراسة ٣٨٦م بشرط أن يخدموا المملكة. وإنه انتصر لوالنتنيان الثاني وقتل مكسيموس خصمه. وسترى أنه بعد مقتل والنتنيان سنة ٣٩٣م حارب اربوكست قاتل هذا الملك واوجان الذي نصبه ملكاً واستظهر عليهما واستبدّ في الملك غربًا وشرقاً. وكان توادوسيوس كاثوليكياً يدافع عن الايمان الكاثوليكي، وقد عُني بعقد مجمع في القسطنطينية سنة ٣٨١م انتخب فيه القديس غريغوريوس النزينزي على الكرسي القسطنطيني ، وحرم بدعة مكدونيوس وناصب الارويسيين. وقد أمر توادوسيوس بنقض هياكل الوثنيين وأبطل جعل كهنتهم، ومنع عبادة أصنامهم حتى قلّ من بقي منهم في غير القرى والمزارع المسماة باللاتينية باجي (وعنها أُخذ اسم pagani وبالافرنسية païens المراد به الوثنيين).

أما نقض الهياكل الوثنية فقد حمل توادوسيوس عليه هياج أحدثه الوثنيون في الاسكندرية لرؤيتهم تغلّب الدين المسيحي على الوثنية. فثاروا على المسيحيين وقتلوا

كثيرين منهم. فكانوا يقبضون على بعض النصارى ويكلفونهم أن يضحوا للآلهة ومن خالفهم علقوه على صليب وحطموا ساقيه أو أجروا عليه عذاباً آخر. والكنيسة تعيّد لكثير من هؤلاء الذين آثروا الموت على الجحود. وعرض الامر على توادوسيوس فأثنى في جوابه أعظم ثناء على المسيحيين الذين فازوا بإكليل الشهادة في هذه الاحداث. وقال أنه لا يريد أن يمزج دم القاتلين بدم الشهداء بل يعفو عنهم رجاء أن يفقهوا أنّ الدين الذي يضطهدون أهله كان علّة بقائهم أحياء. لكنه يأمر بنقض هياكل الاسكندرية التي كانت منبعاً للفساد والمكايد. وعهد إلى تاوافيلوس بطريرك الاسكندرية بتنفيذ هذا الأمر. وأمر الوالي أن يمكّن الاسقف من ذلك. وأن يُدفع إلى الكنائس كل ما كان في هياكل الأصنام من الزينات والتماثيل لتباع ويُنفق ثمنها على سدّ فاقة الفقراء. فابتدأ تاوافيلوس في نقض هيكل سرابيس وكان أجلّ معبود في الاسكندرية، وحطّم تمثال هذا الإله الذي كان في هيكله وأحرقه. ولم يدع تاوافيلوس هيكلاً في الاسكندرية إلّا ودمره، ولا تمثال إلّا وكسره أو أحرقه. وأتبع بذلك هيكل كانوب وهي أبو قير وغيره من الهياكل في مصر. وكتب إلى سائر أساقفة مصر فاقتدوا بغيرته وسقطت الوثنية في مصر مع هياكلها وأصنامها، وأقبل كثيرون من الوثنيين إلى الايمان في تلك الاثناء.

وأما في سورية فأبى أهل كثير من المدن الطاعة لأمر الملك، منهم أهل غزة فإنهم عزموا أن يضحوا بنفوسهم فداء معبودهم مرناس. فاجتزئ الوالي بأن يقفل معابدهم، وأهل رافيا في فلسطين آلوا أن لا يطيعوا أمر الملك ولو قتلهم عن آخرهم فأغضى الوالي طرفه عنهم.

وأما في دمشق فحوّل هيكل الأوثان إلى كنيسة وكذلك هيكل الشمس الشهير في بعلبك إلى كنيسة بعد أن ذبّ عنه الوثنيون بالقنا والقواضب. ولما سمع أهل اباميا بأمر توادوسيوس هاجوا وماجوا واستدعوا رجالاً وثنيين من الجليل وصمموا على المدافعة عن هياكلهم. على أنهم لمّا رأوا حاكم المشرق في مدينتهم يصحبه قضاة وجنود عدلوا عن المقاومة. فدُمرت هياكلهم إلّا هيكل المشترى فإنّ بناءه كان متيناً وحجارته ضخمة مرتبطة بعضها ببعض بحديد ورصاص. فحاول الحاكم نقضه وكان تعب جنوده عبثاً. فأشار عليه القديس مرسل أسقف المدينة أن ينتقل إلى نقض غيره من الهياكل. وأخذ هذا القديس يصلّي إلى الله ليهديه إلى وسيلة لنقض هذا البناء. وكان الهيكل على رابية تحدق به من الجهات الأربع اروقة

قائمة على أعمدة محيط كل منها ست عشرة ذراعاً وصخرها صلد قلّما تؤثر الآلات به. فوفد على القديس رجل لا يعرف صناعة البناء قائلاً أنه يتكفّل بهدم الهيكل بنفقة يسيرة. وأخذ الرجل يحفر في جانب ثلاثة أعمدة فوجد أنها قائمة في أسسها على قطع من خشب الزيتون. فأضرم النار عليها فاحترقت ولما لم يبقَ للأعمدة الثلاثة أس ترسخ عليه تداعت وسقطت وجذبت معها باقي الأعمدة، وأتبعها باقي البناء فمجّد المؤمنون الله. وكان في احدى نواحي اباميا هيكل كبير يسمى اولون فمضى إليه الاسقف مع الجنود والشرط لأنّ الوثنيين كانوا تألّبوا للمدافعة عنه. واستمر مرسل الاسقف بعيداً عن ساحة القتال، فاستحوذ الجنود على الهيكل وخرج بعض الوثنيين ، ولما وجدوا الاسقف وحده وثبوا عليه وألقوه في نار لقيَ ربه بلظاها، وعزم ابناؤه أن يثأروا به بقتل قاتليه. فعقد الاساقفة مجمعاً اقليمياً نهاهم عن ذلك. والكنيسة اللاتينية تعيّد للقديس مرسل أسقف اباميا في ١٤ من شهر آب (روى ذلك توادوريطوس ك ٥ فصل ٢١ وسوزومانوس ك ٧ فصل ١٥).

وكان توادوسيوس يقيم في تسالونيك، ولدى تفحّصه عن حالة الدين في مملكته اتّضح له أنّ جميع مسوديه في المغرب إلى مكدونية مجمعون على الايمان الصحيح بسرّ الثالوث الأقدس. وأما سكان المشرق فمنقسمون إلى بدع عديدة ولا سيما في القسطنطينية فأصدر في ٢٨ شباط سنة ٣٨٠م شريعة مفتتحة بكلمة conctos populos (أي جميع الشعوب) وهاك نصها:

«من غراسيان ووالنتنيان وتوادوسيوس الملوك إلى شعب مدينة القسطنطينية، إننا نرغب في أنّ جميع الشعوب الخاضعين لولايتنا يتشبثون بالايمان الذي أرشد القديس بطرس الرسول الرومانيين إليه. كما يظهر من أنّ هذا الايمان حُفظ في روما إلى الآن، ويلزم أن نتابع عليه داماسوس الحبر الروماني وبطرس أسقف الاسكندرية المتّصف بالقداسة الرسولية. فإننا نعتقد بحسب إرشاد الرسل وتعليم الإنجيل أنّ للآب والابن والروح القدس لاهوتاً واحداً وعزةً متساوية في ثالوث مقدّس. ونأمر أنّ من يذعنون لهذه السنّة يسمون مسيحيين وغيرهم ممن نعتقدهم حمقى يسمون هراطقة . وإنّ مجتمعاتهم لا تسمى كنائس وندع عقابهم إلى انتقام الله اولاً ثم إلى ما يلهمنا الله إليه». وقد وجّه هذه الشريعة إلى القسطنطينية عاصمة الملك ليتيسّر اذاعتها في باقي أعمال المملكة. وذكر بطريرك الاسكندرية دون غيره من البطاركة، لأنّ كرسيه أقامه مرقس تلميذ بطرس. ولم يذكر بطريرك انطاكية لأنّ

هذا الكرسي كان حينئذٍ يتنازعه ملاتيوس وبولينوس. وفي تلك السنة نفسها أصدر شريعة حظّر بها على القضاة أن يتعقّبوا المجرمين في أيام الصوم لأنها أيام طلب المغفرة من الله كما يقول في شريعته. وأوقف ملاحقة الدعاوي في سبتّي الفصح وأيام الآحاد في السنة كلها. ومنع في هذه الأيام فتح المشاهد والملاعب والحضور فيها إلى غير ذلك من شرائعه المحكمة والمؤذنة برسوخه في الدين.

عد ٥٦٧

ثورة أهل انطاكية على توادوسيوس الملك

وفي سنة ٣٨٧م أراد توادوسيوس أن يحتفل لمضي السنة الرابعة وابتداء الخامسة لتمليك ابنه اركاديوس معه، ولكي يزيد هذا العيد بهجةً واحتفاءً، ضمّ إليه حفلات بلوغه السنة العاشرة من ملكه. وكان من عادتهم أن يكرموا في هذا المعرض الجنود بمال، فاضطرّ توادوسيوس أن يفرض على المملكة ضريبة غير عادية للقيام بالنفقات اللازمة لهذه الحفلات وللحرب التي كان يرى أن لا مناص منها. ولما بلغت أوامره إلى انطاكية لم يفرغ واليها من تلاوة منشوره، إلّا هاج الحاضرون وماجوا وهتفوا أنّ هذا العبء لا يُحتمل. وإنه لو باعتهم الحكومة وما ملكت يدهم لم يكونوا كفوءاً لوفاء هذه الضريبة. وانتشروا في المدينة يصيحون: «يا للخراب يا للداهية الدهماء» وانضمّ إليهم من كان في مدينتهم من الأجانب والأرقّاء والأشقياء، وأخذوا يطوفون في المدينة ويحطمون تماثيل الملك التي كانت كثيرة فيها وتماثيل الملكة وابنائها، وشدوا عنق بعض التماثيل بحبال وكانوا يجرونها في الأزقّة، وكسروا بعضها ودفنوا أفلاذها إلى الاحداث ليصنعوا بها كذلك. ثم استفاق هؤلاء الجهلة من سورة حنقهم فارتاعوا وهرب بعضهم واختبأ غيرهم، وكفى الجنود في تشتيت شمل الباقين تصويب بعض الاسهم إليهم. وأدرك الأهلون عاقبة صنيعهم الوخيمة، فارتعدت فرائصهم، ووجسوا لما سيحلّ بهم من العقب. وعزم أكثرهم على مهاجرة وطنهم. وأخذ الأغنياء يدفنون أموالهم أو ينقلونها بعيداً. وفي الصباح غصّت الشوارع بالرجال والنساء والاطفال والشيوخ هاربين من وجه رجال الحكومة ولا هربهم من الحريق. وانتشروا في الجبال والغابات والمغاور وصرف الوالي قصارى جدّه في توقيف رجال الندوة عن الفرار من المدينة. وفي الغد جلس القضاة على

كراسيهم في المحكمة وأخذوا يحكمون بالعذاب والسجن على كل من قبض الجنود عليه. ولو لم تكن له جريمة إلّا تقاعده عن منع هذه الثورة. وكثر العويل وولولة النساء وانطراحهن على أقدام الجنود ليمكنوهنّ من معاينة أولادهنَ أو معاونتهنّ لهم. ولما سدل الليل ستره فتح باب المحكمة وخرج كثيرون من وجوه انطاكية مكبلين بالقيود مثخنين بجراحهم يحدّق بهم صفّان من الجنود يستاقونهم إلى محل تنفيذ قضاء الموت عليهم. وتتبعهم نساؤهم وبناتهم وأمهاتهم حاسرات نائحات وقد غُمي على كثيرات منهنّ عند ابسال أهلهنّ. وحُملنَ إلى بيوتهنّ فوُجدت مقفلة بأمر الحكومة وقد ضُبط كل ما كان لأزواجهنّ من مال أو عقار أو متاع. واستمرت المحاكمة خمسة أيام على هذا النمط.

وكان أهل انطاكية في ذلك العصر منصبين على الترف والخلاعة وكان القديس يوحنا فم الذهب يعظ منذ سنتين على منابرها، وهو كاهن وكان أهلها نحواً من مئتي ألف نفس أكثر من نصفهم نصارى. ولم تكن فصاحته العسجدية تجذب لسماع كلامه إلّا قليلين، إذ كان الكثيرون منهم يؤثرون أن يشهدوا الملاعب والمراقص وترويح النفس بالجنائن على سماع كلام الله. وأما بعد حلول هذه المصائب، فأصبحت انطاكية كلها كأنها دير، تغصّ معابدها الفسيحة بالزائرين وتزدحم فيها الأقدام. واستمر يوحنا منذ يوم الجمعة ٢٦ شباط يوم حصول الثورة إلى يوم الخميس التالي صامتاً لا يقول شيئاً. وكانت الحكومة قد جزّت أخصّ المجرمين. وعاد إلى المدينة من أقصاهم روعهم عنها، فألقى فم الذهب حينئذٍ في مدة الصوم عشرين خطبة تزري بخطب فصحاء أثينا وروما. وكان يقيم بها سامعيه بين رجاء العفو من الملك واحتقار الموت ويصرف أفكارهم عن خيرات هذه الأرض إلى الرجاء بنَيل نعيم ملكوت السماء.

وكان رجال الحكومة قد أرسلوا سعاة إلى الملك توادوسيوس ينبئونه بما كان في انطاكية. وأحبّ أهلوها أن يوفدوا إليه من يشفع بهم فلجأوا إلى افلابيانوس بطريركهم وكان هرماً معززاً عند الملك، فلم تقعده شيخوخته ولا احتضار اخته الوحيدة العزيزة لديه، ولا مشاق السفر الطويل عن تلبية دعوتهم. فمضى مسرعاً إلى قسطنطينية وكان السعاة قد سبقوه إليها فاستشاط الملك غيظاً لاخبارهم، وأمر لأول وهلة بدكّ المدينة كلها ودفن أهلها تحت أنقاضها. ثم خمدت جذوة حدّته وأمر أن يتوجّه هلبيكوس القائد وقيصاريوس أحد وزرائه ليفحصوا عن المجرمين

ويجزوهم بما ينطبق على العدل. وأمرهم أن يقفلوا المشاهد والمنتديات والـ
العامة. وأن يجرّدوا المدينة من امتيازاتها ويلغوا تسميتها عاصمة أو قصبة حتى
إسوة أحدى القرى، وأن تصير اللاذقية عاصمة سورية. فالتقى المفوضان بـ
افلابيانوس في الطريق فزاداه غماً على غمه إذ أنبآه بما أمرهما الملك، وبلغ
الملك إلى انطاكية في ٢٩ آذار سنة ٣٨٧م وغصّت الطرق بمن خرجوا لـ
ومن محامد توادوسيوس انتخابهما من أفضل وزرائه وأكثرهم نزاهةً
وأشخصا في اليوم التالي جميع رجال ندوة المدينة، وأباحا كلاً منهم أن يدا
نفسه. ولم يكونا يتمالكان من ذرف الدموع عند بكاء المدعى عليهم أو ،
ولكن دون أن تحجف شفقتهما بما يقتضيه العدل. وأقاما المحكوم عليهم عند
ضمن سور مخفورين وكان أكثرهم من الوجهاء والأغنياء. وفي اليوم
أخرجاهم باكراً لإعلان الحكم وتنفيذه عليهم. فتولّت الكآبة سكان انطاكية
العويل واشتدّ النحب وتسارع الناس من كل صوب، ورأى المفوضان أنه
بهما جمّ غفير صفر الوجوه هَزْلَى الأجسام سود الملابس، وكان هؤلاء الحبس
ضواحي انطاكية قد تألّبوا حول المفوضين، ومدوا أعناقهم قائلين اقتلونا نحن
من هؤلاء. أو أرسلونا إلى الملك فنحن موقنون أنه مسيحي ورع فينعطف إلى
تضرعنا إليه. ولا نسمح لكم أن تلطخوا أيديكم بدم اخوانكم أو نموت معهم.
المفوضان في أن يتملصا منهم قائلين ليس في مقدورنا العفو عن هؤلاء ولا •
أمر الملك، وإلّا فنكون نحن مؤاخذين كشعب انطاكية. وسارا في طر
فالتقاهما شيخ قصير القامة، متّشح بخلقان رثّة، فأمرهما أن ينزلا عن جواد
فاستغربا جسارة هذا الشيخ وأرادا دفعه فقيل لهما أنه مكدونيوس الشهير في ا
حينئذٍ بنسكه وفضائله، فترجّل المفوضان وسألاه أن يغفر لهما ويعذرهما بتنفيـ
مولاهما. فقال لهما قولاً للعاهل أنت لست ملكاً فقط بل أنت انسان أيضاً ،
على من يساوونك طبعاً، والطبع البشري خُلق على صورة الله ومثاله فلا
صورة الله، ومن أتلف المصنوع أسخط الصانع، فالملك وأنتما ساخطون
وقعت على تمثال من نحاس، أوليس التمثال الحيّ المتنفس العاقل أعظم من تمثا
نحاس؟ فييسر لنا أن نقدّم للملك مكان التمثال عشرين تمثالاً، ولكن إذا
واحداً استحال عليه أن يحيي شعرة واحدة من رأسه. فكان لكلامه وقعٌ شديـ
قلب المفوضين ووعداه أن يبلغا الملك ما قال. وبلغ المفوضان أبواب المحكمة

اقتادوا المجرمين فاعترضهما الكهنة والاساقفة الذين كانوا في انطاكية يومئذٍ، وأوقفوهما معلنين لهما أنّ لا بدّ لهما من أحد أمرين: إما أن يدخلا المحكمة على جثثهم، إما أن يعدا بالعفو عن المقبوض عليهم. وأصروا على منعهما من الدخول، فحار المفوضان في أمرهما أيسخطان الملك بمخالفة أوامره أم يبديان القسوة على هذا الحشد، ولا سيما الاساقفة والكهنة والرهبان، وأشارا إلى الجمع بأنهما يجيبان سؤالهم. فهتف الجمهور هتاف السرور والشكر، وانطرح كثيرون على المفوضين يقبلون ايديهما وأرجلهما. ودخل والشّعب والكهنة إلى المحكمة ولم يتمكن الخفراء من صدّهم، وتعاظم صراخهم إلى القضاة أن يرفعوا الأمر إلى الملك فاغرورقت أعين الحاضرين والقضاة بالدموع، وعزموا أن يؤجلوا تنفيذ الحكم إلى صدور أمر آخر من جانب الملك توادوسيوس. وأتفق المفوضان أن يبقى هلبيكوس في انطاكية ويمضي قيصاريوس إلى قسطنطينية فيوقف الملك على جلّية ما كان. ورفع الكهنة والنساك عريضة للملك واستمر المجرمون في سجن دون تضييق عليهم.

ومضى قيصاريوس مسرعاً إلى قسطنطينية لا يصحبه إلّا خادمان، فبلغ إليها بعد سبعة أيام ودخل على الملك ورفع إليه عرض ما كان من أسباب الثورة وعقاب بعض الجانين وما كان معهما، فذرفت دموع الملك واستولى الحنان على قلبه ولم يكن افلابيانوس قابل الملك بعد إما لظنه أنّ الملك ما برح محتدماً، إما لأنّ الملك لم يسمح له بمقابلته. ومضى إلى القصر بعد بلوغ قيصاريوس وأذن له الملك بالامتثال أمامه. فوقف بعيداً مطرقاً الطرف باكياً كأنه حامل على نفسه جرائم مواطنيه. فاقترب الملك إليه متلطفاً وأخذ يذكره بما صنعه إلى أهل انطاكية، ويختتم كل عبارة من كلامه بقوله أهذا ما استحققت بسببه الاهانة من أهل انطاكية؟ وافلابيانوس لا يتكلم إلّا بذرفان دموعه وتنفس الصعداء. ولما فرغ الملك من كلامه قال ما ملخصه: «مولاي لا نجهل ما لك من العطف إلى موطننا وما يزيدنا حزناً أن نكون أسأنا إلى من أحسن إلينا وغمطنا نعمته، فاخرب أحرق أقتل إفعل ما شئت بنا فتكون جزيتنا بأقل مما نستحق، لأنّ الشرّ الذي اتيناه أشنع من ألف موت. ولو دمرّ البرابرة بلدنا لكان مصابنا أخفّ من اسخاطنا اياك لأنّ وجودك يجدد وطننا ويردّ علينا ما خسرنا وقد أسخطنا أحلم مولى وأحنّ أب، فأي ملجأ بقي لنا وخجلنا عظيم حتى لا نجسر أن ننظر إلى نور الشمس... قد أقلب بعض الجهلة تمثالك فييسر لك أن تقيم تماثيل أثمن منه في قلوب رعيتك وقلوب كل من عاش

على الأرض من البشر. فإنّ كل من عرف حلمك عجب بك وأحبك. رشق بعضهم تمثال قسطنطين بالحجارة فأعزاه بعض ذويه بالانتقام منهم قائلين قد شجوا رأسك فوضع يده على رأسه وقال مبتسماً لا تخافوا فلا خدش في رأسي. فنسي الناس انتصارات هذا الملك ومابرحت هذه الكلمة تتناقلها أفواه الناس وهي راسخة في قلوبهم. وما لي أذكرك بمثل الآخرين فأنت قلت في أمرك الذي عفوت به في عيد الفصح عن المجرمين وخليت سبيل المسجونين إنك تتمنى لو كان لك سلطان على إقامة الموتى فتبعثهم، فالآن يسهل عليك صنع هذه الآية، فما انطاكية اليوم إلّا مدفن، وما أهلها إلّا جثث فيها، فقد ماتوا قبل أن ينزل بهم العقاب الذي استحقوه، فكلمة واحدة من فيك تحييهم.

أنظر مولاي غير مأمور أنّ الغرض ليس هذه المدينة وحدها بل مجدك وفخر الدين المسيحي أيضاً. فقد عرف اليهود والوثنيون والبرابرة ما كان وهم ينتظرون أن يروا ما تصنع. فإن ظهر لهم حلمك وعفوك قال بعضهم لبعض ما أشدّ قوة الدين المسيحي إذ يجعل الملك القدير المطاع الأمر أحلم وأحكم من انسان يعسر عليه الانتقام لنفسه، وما أعظم إله النصارى إذ يصير بعض الناس ملائكة ويرفعهم إلى ما فوق الطبع البشري. لا تصغِ مولاي إلى من يقولون أنّ الفصح لهؤلاء يزيد غيرهم جسارة فإنما هذا يصدق على ما إذا صفحت عن عجز. وها هم أموات بجزعهم ويتوقعون العذاب الاليم في كل ساعة ولو قطعت رؤوسهم لكان عذابهم أخفّ. ولا أزيدك علماً بأنّ بعضهم افترستهم الضواري وهم تائهون في الغابات. وبعضهم قضوا أياماً وليالي ترتعد فرائصهم في المغاور وهم رجال وأحداث ونساء شريفات مخدرات، وقد أذاق عمالك كثيرين منهم مرّ العذاب. ليس أيسر للملك من التنكيل بعبيده المجرمين واما صفح الملوك عن الإهانات وهم قادرون على العقاب فمن أندر الفضائل وأعظمها. فدونك الآن فرصة تبدي فيها مثالاً يقتدي به الأجيال المقبلة، وتشترك منذ اليوم بكل ما ينشأ عن ذلك من أعمال الانسانية والحلم المشرفة. وكم يكون لك من الفخار إذا قيل فيما بعد أنّ مدينة كبرى اسخطت ملكها فارتاع سكانها ولم يجسر ولاتها ولا قضاتها ولا شعبها أن يفوهوا ببنت شفة إلّا شيخاً موسوماً بكهنوت الله امتثل أمام الملك واستعطف حنانه ورأفته، فكفاه للعفو عن أهلها انتصابه أمامه وإلقاؤه على مسمعه خطبة بسيطة. فلم يوفدني قومي إليك إلّا لتيقّنهم بأنك تجلّ كهنة الله وإن حقيرين مثلي. على أنني ما أتيتك من

قِبل الشعب وحده بل من قِبل الله رب الملائكة والناس لأقول لضميرك النقي الورع الشفيق إذا تركت للناس زلاتهم، ترك لك أبوك السماوي زلاتك. فإن كان لك زلّة ترغب في أن تكفّر عنها فكلمة واحدة من فيك كافية لمحوها من أسفار الله. غيري من الوفود يأتيك بذهب وفضة وتقادم وأما أنا فلا أقدّم لك إلّا سنّتنا المقدّسة محرضاً إياك أن تقتدي بمخلصنا الذي لا ينكفّ عن أن يتحفنا بنعمه وخيراته ولو أثمنا إليه كل يوم. فلا تخيّب آمالي وتجعلني أخلف وعودي لشعبك، وكن موقناً أنك إذا عفوت عن مدينتنا عدت إليها شاكراً مطريًا احسانك. وإن لم تعفُ عنها فلا أريّن أرضها واتبرأ منها ما دمت حياً.

ولم يكن الملك يستطيع أن يخفي ما كان لهذا الكلام من الوقع الشديد في قلبه ولم يفرغ الاسقف منه إلّا وذرفت عينا الملك بالدموع وقال أي عجب في أن نغفر للناس ونحن بشر مثلهم ومخلّص العالم نزل إلى الأرض وصار عبداً لأجلنا ونحن إليه آثمون. وصلبه من غمرهم باحسانه وهو يصلّي إلى أبيه من أجلهم. والتفت إلى افلابيانوس قائلاً عدّ يا ابني مسرعاً إلى شعبك وامّن انطاكية فقد عفوت عنها وعن كل من أهلها. وسأله الاسقف أن يرسل إليها ابنه اركاديوس فأجابه: تضرّع إلى الله ليخلصني من الحرب التي تهددنا، فتراني بنفسي هناك دون بطء فعاد افلابيانوس مسرعاً وأرسل سعاةً يجدّون السير ليبلغوا أمر الملك إلى هلبيكوس. ولا حاجة إلى بيان ما كان لهذه البشرى في انطاكية من السرور والبهجة والاحتفاء. ولا ما كان لافلابيانوس عند قدومه من حفلات الملتقى والاكرام. وقد أناله الله التعزية بأنَّ أخته حيّة بعد أن تركها محتضرة. وبأن يحتفل بعيد الفصح بين شعبه. وكان إذا سأله أحدٌ عما كان له مع الملك أجاب أنه لم يصنع شيئاً وإنّ الله صنع كل شيء بتخميده غضب الملك. وعطف قلبه إلى الشفقة على رعيته كما شهد فم الذهب في خطبته ٢١ وأقام أهل انطاكية تمثالين تكرمة لهلبيكوس وقيصاريوس.

عد ٥٦٨

مقتلة سالونيك وما كان بسببها للملك توادوسيوس مع القديس امبروسيوس

كانت سالونيك في ذلك العصر قصبة ايليريا وقد توفر عدد شعبها وثروتهم

وعكوفهم على الترف والملاذ وشغفهم بحضور الملاعب والمشاهد ولا سيما سباق العجلات. وكان أحد الساقة المشهورين في هذا الفن مسجوناً، فأتى بعض جهلة القوم يسأل الوالي التفريج عنه ليشترك في السباق، فأبى الوالي تخلية سبيله فهاج كثيرون وأدّى بهم الحمق إلى قتل رجال الحكومة ورجم الوالي بالحجارة. وكان الملك توادوسيوس وقتئذٍ في ميلان (بايطاليا) فاستشاط غيظاً وأمر اولاً بخراب المدينة والتنكيل بأهلها. فخمد القديس امبروسيوس والاساقفة الذين كانوا ملتئمين في هذه المدينة جذوة غضبه، ووعدهم أن يلزم جادة العدل والانصاف. على أنّ بعض عماله والمقربين إليه أغروه بلزوم كبح الثائرين والتنكيل بهم تأديباً لهم وإرهاباً لامثالهم. ولم يعسر عليهم اتقاد النار التي لم تكن طُفئت. فأخلف وعده وجزم أن يُنزل بعامة السالونيكيين عقاباً رادعاً، وأوصى ذويه أن يكتموا على امبروسيوس ما جدّ له من العزم. وأنفذ أوامره بقتل كثيرين من سالونيك وزايل ميلان حذراً من أن يكشف السرّ ويؤنبه القديس امبروسيوس على إخلاف وعده. وبلغ أمره إلى والي سالونيك فأعلن بأنه سيكون في اليوم التالي سباق المركبات. فأقبل جمّ غفير من الشعب إلى ساحة السباق غير مبالين. وكان الجنود محدقين بالساحة فأوعز الوالي إليهم أن يفتكوا بالقوم ، فاندفعوا يقتلون كل من وصلت يدهم إليه غير مميزين بين رجل وامرأة أو طفل أو شيخ أو بين بارّ ومجرم أو وطني وأجنبي. حتى كان عدد القتلى سبعة آلاف نفس. وعن بعضهم خمسة عشر ألفاً. ومما رووا أنّ أباً رأى ولدين له بيد الجنود فتضرّع إليهم أن يقتلوه بدلاً من ولديه فيدفع لهم كل ما يملكه من ذهب وفضة فأخذتهم الشفقة عليه وقالوا اختر واحداً من الولدين فنتركه ونقتل الآخر. فوقف الأب يجيل بنظره في كلٍ منهما ويبكي ولم يتمكن من التفريق بينهما فقتلهما الجنود بحضرته ثم أتبعوه بهما. أما توادوسيوس الملك فندم بعد مضي السعاة، وأرسل سعاة آخرين ينقض أمره الأول فلم يبلغ هؤلاء إلّا بعد المقتلة. وبلغت أخبار المقتلة إلى ميلان فساءت القديس امبروسيوس والاساقفة، لكنهم لم يريدوا أن يأتوا إلى الملك قبل أن يستفيق من فظاعة إثمه. وقبل يومين أو ثلاثة من عود الملك إلى المدينة خرج القديس امبروسيوس إلى البرية بحجّة انحراف صحته، وكتب إلى الملك رسالة بخط يده ليؤكد له أنه لم يعلم بها غيره، ومما قاله له فيها: «إنّ ضميري يبكتني متذكراً قول النبي إذ لم ينصح الكاهن الأثيم فيموت بإثمه، ويأثم الكاهن لتقاعده عن النصح فلا أنكر أيها الملك ما لك من الغيرة على الايمان

وما بقلبك من خوف الله على أنك ذو طبع متحفّز للغضب، وإذا حلمك أحد عدت سريعاً إلى الحلم فاسأل الله أن لا يكون لك من يهيّجك إذا لم يكن لك من يحملك على الحلم». ثم يبيّن له فظاعة ما جرى في سالونيك مستشهداً برغبته في نقض أمره الأول ومفصحاً له عمّا تولّى الاساقفة من الظلم والكدر إلى أن يقول إنّ اشتراكي معك لا يبرئك من الاثم بل يثقلني بخطيتك. ولا يبقى لك ناصح لتتوب إلى الله ليتوب عليك. ويذكره بأمثال الملوك الذين تابوا ولا سيما داود قائلاً: أنت انسان عُرضت لك تجربة فانتصر عليها، فالاثم لا يُمحى إلّا بالدموع. والله لا يغفر إلّا لمن تاب. ولا يستطيع ملك ولا رئيس ملائكة أن يغفر الخطايا إلّا بالتوبة. فأشير عليك وأتضرّع إليك وأحرّضك وأنصحك أن تتوب فلا أجسر أن أقدّم الذبيحة إذا رغبت في أن تشهدها فإنّ ذلك محظور على من أراق دم بريء واحد فما ترى في من أراق دماء كثيرين؟ فأنا أحبّك وأجلّك وأصلّي من اجلك فإن وثقت بذلك فارعوِ بالتوبة إلى الله، وإن لم تثق بصدق كلامي فاعذرني إذا فضّلت الله عليك (رسالة ٥١).

ومع هذا أصرّ الملك توادوسيوس بعد عوده إلى المدينة على أن يأتي إلى الكنيسة، فالتقاه القديس امبروسيوس إلى خارج الرواق وأبان له فظاعة المقتلة التي أجراها قائلاً: «كيف ترفع إلى الله يدان ما زالتا تقطران دماً أرقته جوراً؟ وكيف تقبل على هاتين اليدين جسد الرب المقدّس وتتناول دم الرب الكريم أنت الذي بسورة غضبك سفكت دماء الابرياء؟ فاعتزل من هنا ولا تزد إثماً على إثمك الفظيع». وأراد الملك أن يلتمس له عذراً بمثل داود الذي أقدم على الفسق والقتل فأجابه القديس: اقتديت بإثمه فاقتدينّ بتوبته. فانصرف الملك وأخذ يباشر أعمال التوبة بحسب نظام الكنيسة في ذلك العصر مدة ثمانية أشهر أي من شهر نيسان سنة ٣٩٠م إلى عيد الميلاد تلك السنة، فأرسل الملك حينئذٍ روفينوس أحد المقربين إليه يكاشف الاسقف بحله من إثمه. ونهض آتياً بأثره إلى الكنيسة قائلاً أمضِ وإن أنزل بي إهانة استحقها. ولم يدخل الكنيسة بل مضى إلى ردهة الاستقبال في جانبها متضرعاً إلى الاسقف أن يحلّه من إثمه، فقال له القديس امبروسيوس إنّ اتيانه على هذا النحو يخالف سنّة الكنيسة. فقال له الملك: أنا أحترم هذه السنن ولم أدخل رواق الكنيسة محافظةً عليها بل أتيت تواً إليك راجياً أن تحلّني من هذا الوثاق عملاً برأفة مخلّصنا، ولا توصد بوجهي باباً مفتوحاً لكل تائب. فأجابه

امبروسيوس: أية توبة صنعت بعد إثمك الفظيع، وبأي دواء عالجت جراح نفسك؟ فقال الملك أعلمني بما يلزمني فأتمّمه. فأجاب القديس علمت أنّ سرعة احتدامك بعثتك على هذه المعصية الكبرى، فعليك أن تروّض ميلك إلى الغضب وأن تفترض سنّة أن لا تنفذ الاحكام بالقتل وضبط الاملاك إلّا بعد شهر من صدورها. فكتب هذه السنّة لساعته ووقّع عليها بيده، فحلّه القديس امبروسيوس حينئذٍ ودخل الملك إلى الكنيسة ولم يصلِّ جاثياً أو منتصباً بل مكبّاً على الحضيض مكرراً قول النبي داود: «لصقت نفسي بالتراب فأحيني حسب كلمتك». وكان يذرف الدموع وإذا رآه الشعب في هذه الحال شاطره الصلوات والبكاء. روى هذا الخبر كثير من المؤرخين ولا سيما توادوريطوس (ك ٥ فصل ١٧) وسوزومانوس (ك ٧ فصل ٢٥).

ولا نعلم أيهما أحقّ بالاطراء القديس امبروسيوس على غيرته المتقدة التي لا تهاب سطوة الملوك، أم الملك توادوسيوس على ورعه وتذلله لرئيس دينه وإبدائه مثالاً صالحاً يُقتدى به.

عد ٥٦٩

ما بقي من أخبار توادوسيوس الملك إلى وفاته

قد مرّ أنّ اربوكست اغتال الملك والنتنيان سنة ٣٩٢م وخشي أن يرتقي إلى منصّة الملك وهو من البرابرة أي غير روماني. فاختار اوجان الذي كان كاتب سرّ الملك، وكان مشتهراً بفصاحته، فأوفده إلى الملك توادوسيوس يكاشفه برضاه عنه ويعرض عليه الاتفاق إذا أحبّ أن يشاركه في الملك. فأمسك توادوسيوس وفود اوجان أياماً عنده ثم صرفهم بعد أن أتحفهم بتقادم واسمعهم كلمات طيّبة. وأخذ يستعدّ للحرب إذ رأى أنّ شرفه وأمنيته يقضيان عليه أن لا يسالم خونة، بل أن يثأر منهم بدم والنتنيان نسيبه. ومن جملة معداته لهذه الحرب التجاؤه إلى الله بالصلوات وطلبه المؤمنين الاتقياء أن يصلّوا من أجله. ولدى عوده إلى المشرق جدّد اهتمامه بردّ الكنائس على الكاثوليكيين وضاعف جوده بالنفقات على بناء كنائس وأديار جديدة وعلى تزيينها. وروى البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخه أنّ الملك توادوسيوس هذا هو الذي بنى دير قنوبين كرسي بطريركية الموارنة، وجعل له الرئاسة على أديرة لبنان كلها. ومما سنّه في سنة ٣٩٢م شريعة حكم بها بالنفي

على من يلقي الشغب ممارياً في الايمان الكاثوليكي. وشريعة نهى بها الوثنيين أين كانوا عن تقدمة الذبائح والبخور والخمر للاصنام. وكان اوجان يستعد للحرب أيضاً. وفي سنة ٣٩٤م زايل توادوسيوس قسطنطينية عاهداً بتدبير مهام المملكة في المشرق إلى ابنيه اركاديوس وانوريوس الذي كان قد سماه اغوسطس في ١٠ ك ٢ سنة ٣٩٣م، وبلغ ايطاليا وجاوز جبال الالب وقتل فلافيان قائد جيش اوجان الذي كان يخفرها. وكانت له وقيعة مع اوجان في سهول اكويلايا دامت النهار بطوله. وكانت الحرب سجالاً، وظنّ اوجان أنه قهر توادوسيوس، وأنّ الحرب انقضت فأخذ يوزّع الجوائز على قادته وجنوده. وأما توادوسيوس فقضى ليله متهجداً في معبد في معسكره. وفي الغداة زحف بجيشه إلى العدو، ولما التحم القتال ترجّل عن جواده وانتضى بشأره ووثب على الاعداء. فارتاع جنوده للخطر الذي عرّض نفسه له. وأسرعوا إلى اتباعه، ولم يبلغ إلى مرمى السهم إلّا ادلهمّ الظلام في الجو، وسُمع دوي قاصف، وثارت ريح زعازع في وجه جيش لوجان انتزعت الخوذ عن رؤوسهم والسلاح من ايديهم، وأكسبت جنود توادوسيوس قوّة، فذُعر الاعداء وتشتتوا وقد حسب مؤرخو ذلك العصر حتى الوثنيين منهم هذا الحدث آية سماوية. وتهافت بعض جنود اوجان فغرقوا في نهر كان هناك، وفرّ بعضهم، ومن بقي منهم رمى سلاحه واستسلم إلى توادوسيوس، فلاطفهم وأمرهم أن يأتوه باوجان فتسارعوا إلى القمة التي كان عليها. وظنّ أنهم أتوه ببشرى الانتصار فأوثقوه وأشخصوه إلى توادوسيوس فوبّخه على اغتيال والتنتيان وتسببه بهذه الشرور وقضى عليه بالموت. فأبسله أحد جنوده، وعاد سائر جنوده إلى تهنئة توادوسيوس بظفره واستبدّ له الملك شرقاً وغرباً. وأما اربوكست فانهزم مذعوراً. ودرى أنّ الجنود يجدّون في لحاقه من كل صوب فانتحر. وعفا توادوسيوس عن اولاد اوجان واربوكست وغيرهم من المجرمين.

قد انهكت هذه المتاعب المتّصلة توادوسيوس وشعر بدنو منيته لفالج أصابه. ولم يكن قد بلغ الخمسين من عمره فدعا ابنه انوريوس من قسطنطينية وأقامه ملكاً في المغرب، وجعل ابنه اركاديوس ملكاً في المشرق، ونصب روفينوس معاوناً له في تدبير مملكته. ولم تكن وصيّته إلّا بيّنة أخيرة على تقواه وورعه ومحبته لمسوديه. فقد حرّض ابنيه على اتقاء الله والغيرة على حفظ نواميسه. ووقف أوقافاً على بعض الكنائس، وعفا عفواً عاماً عن كل من حاربوه أو أساءوا إليه. وأمر بنيه بالحط من

مال الخراج. وفرض نظاماً لذلك. وبعد أن فرغ من هذه الوصايا التي أكسبته شرفاً أعظم من انتصاراته شعر براحة، فشهد صباحاً بعض ملاعب الفرسان، ولكن عاودته نوبة من مرضه بعد غذائه فلقي ربه في الليل التابع في ١٦ من كانون الثاني سنة ٣٩٥م بعد أن ملك ست عشرة سنة إلّا يومين، وقد أبّنه القديس امبروسيوس معدداً فضائله السامية ومناقبه الغراء. نرجئ الكلام في اركاديوس إلى تاريخ القرن الخامس.

عد ٥٧٠

مشاهير العلماء الدنيويين في القرن الرابع

تغلّب الدين المسيحي على الوثنية منذ بداية هذا القرن، فندر فيه وجود العلماء الوثنيين، ووفر عداد العلماء المسيحيين وهم بطاركة وأساقفة وكهنة أو من العامة لكن جلّ كتبهم دينية. فالتاريخ الديني أحق بالكلام فيهم، وممن نعرفهم من المؤلفين الدنياويين الوثنيين ليبانيوس وهو أشهرهم. وقد وُلد في انطاكية سنة ٣١٤م ودرس العلوم في أثينا ثم علّمها في قسطنطينية ونيكوميدية (وهي المعروفة الآن باسيميد في آسيا الصغرى) وفي انطاكية. وكان من تلاميذه القديس باسيليوس والقديس يوحنا فم الذهب. وكان ليبانيوس يهنئ عصره لأنه نشأ فيه خطيب مصقع كيوحنا تلميذه. ولما احتُضر سأله تلاميذه من يرى أهلاً ليخلفه في كرسي تعليم الفصاحة والخطابة. فقال لكنت أفضّل يوحنا على كل من سواه لو لم يخطفه النصارى من يدنا. وكان ليبانيوس في انطاكية عند ثورة أهلها وارتياعهم من سطوة الحكومة كما مرّ. وأبان فصاحته بخطبة في النازلة. وكان جلّ ما يأسف عليه إنما هو انقطاع القوم عن ملاهيهم وملاذهم ومشاهدهم، وكان بعضهم يعزو إليه علّة هذا المصاب. لكنه برّأ ساحته أمام القضاة بعذب كلامه وذرف دموعه. وقد أبان لنا كل مرّ في ترجمة حياته التي كتبها بنفسه (مجلد ٢ من تآليفه) وقد ألّف خطبة ليتلوها بحضرة الملك توادوسيوس ليستعطفه بها إلى الحلم والعفو عن أهل مدينته. وخطبة أخرى ليشكر له على عفوه. وخطبتين يطرئ فيهما مفوضي الملك. وكان صديقاً للملك يوليانس الجاحد ولم يكن على شيء من الغلو في دينه بل كان دمث الخلق ليّن العريكة، لكنه لم يخلُ من حسّاد وشوا به أنه ساحر فنُفي سنة ٣٤٦م إلى مدة ما. وقد أدركته الوفاة في انطاكية سنة ٣٩٠م وله من التآليف خطب أحسن طبعة

لها كانت في التنبورك سنة ١٧٩١م، ورسائل في لبسيك سنة ١٧١١م وفقرات أشهرها باسمه انجلوماي وغيره. وكتب ترجمته اوناب العالِم الطبيب الذي كان معاصراً له.

والثاني اميان مرشيلينوس وُلد في انطاكية سنة ٣٣٠م، ودخل الجندية وتقلّب في مناصبها وحارب في جرمانيا وافرنسة، ورافق الملك يوليانس الجاحد في غزوته للفرس، ثم ترك الجندية وأقام في رومية مكبّاً على كتابة تاريخ الملوك الرومانيين في اللاتينية من نرفا سنة ٩٦ إلى أيام والنس سنة ٣٧٨م وينطوي على واحد وثلاثين سفراً منها الثلاثة عشر سفراً الأولى ابادتها غير الأيام، وهي حاوية تاريخ هؤلاء الملوك من سنة ٩٦ إلى سنة ٣٥٣م، وبقي منها ما هو أهم حيث يتكلّم على أحداث كانت في عصره من سنة ٣٥٣م إلى سنة ٣٧٨م. ولكلامه جزيل الاعتبار لأنه كان شاهد عيان لهذه الأحداث. وإن كانت عبارته اللاتينية منحطة لاستعماله ألفاظاً ليست لاتينية بحتة، ونراه لزم حدود الاعتدال في كلامه على الدين المسيحي والوثنية، فيظهر منه أنه مشرك منزه عن التطرف والغلو، وقد طبع تأليفه لأول مرة في روما سنة ١٤٧٤م، وطبع أخيراً في برلين سنة ١٨٧١م، وترجمه سلفت إلى الافرنسية وطبع ترجمته ١٨٤٨م. وكان من المعاصرين لهذين العالِمين تامستيوس وُلد في بفلاغونيا نحو سنة ٣١٧م، وطاف في مدن المشرق مشهوداً له بفصاحته، ثم أقام في قسطنطينية يدرس الفصاحة، وكان معززاً لدى الملوك وسمي في أيام توادوسيوس سنة ٣٨٤م والياً على قسطنطينية. وكان المسيحيون يجلونه لترفعه عن الغلوّ في دينه الوثني، وقد خدم كل الملوك الذين تتالوا في أيامه، وكان يقرظ جميعهم إلى أن توفي في أيام اركاديوس وله ٣٤ خطبة، أشهرها خطبته للملك يوفيان مدحاً وشكراً له على تنويله الشعب حرية التمسك بالدين، وخطبته للملك يوفنيان متضمنة نصائح له في سياسته. وله شروح على بعض تآليف ارسطو طُبعت في لبسيك في مجلدين سنة ١٨٦٦م. وأحسن طبعة لخطبه طُبعت في المدينة المذكورة سنة ١٨٣٢م.

وكان في هذا العصر أيضاً ايماريوس وُلد في بورسا واتقن العلوم في أثينا في أيام يوليانس الجاحد. وكان من تلاميذه في تعليم الفلسفة القديسان باسيليوس وغريغوريوس النزينزي. وله خطب أشهرها تقريظه ليوليانس الملك وقد طُبعت في

جانتك ببروسيا سنة ١٧٩٠م مع ترجمتها إلى اللاتينية وترجمة حـ
علماء الوثنيين.

ومنهم اوناب وُلد في هذا القرن في سرد بناحية ازمير، وأتـ
وعاد إلى وطنه يمارس صناعة الطب. وكان صديقاً للملك يوليا
له وعدواً للمسيحيين. ومن تآليفه كتاب في تراجم الفلسفة حو
تاريخ الفلاسفة والاطباء والخطباء الذين كانوا في أيامه. وقد طُبِـ
في انفر في البلجيك سنة ١٥٦٠م، وطُبع أخيراً بين كتب مكـ
لديدو سنة ١٨٤٩م، وله أيضاً كتاب تاريخ القياصرة في أربعة عـ
الثاني سنة ٢٦٨م إلى اركاديوس سنة ٤٠٧م. ولم يبقَ منها إلّا
كتابه تراجم الفلاسفة في امستردام سنة ١٨٢٢م. وقد شكا فـ
تاريخ الرومانيين في هذا القرن) من ندور العلماء الوثنيين في هذا ا
العلماء في هذا العصر ولم يكن من الخطباء إلّا من يتملّق الحكا
والفقه في روما نفسها أمست مشوّهة من حيث اللغة أيضاً، وأصبـ
فرقعة عبارات تربو فيها الالفاظ على المعاني فتغمضها.

ونبغ في آخر هذا القرن ثلاثة علماء وهم: سيماخوس (
الحكومة ووالياً في روما وهو خطيب مصقع). وكلوديان (وكا
وأقام في روما وكان شاعراً أقام له الرمانيون تمثالاً وشبهوه
وروتيليوس (كان والياً في روما أيضاً ونظم أشعاراً ضمنها أخبار ر
افرنسة). فأعادوا إلى اللغة اللاتينية شيئاً من رونقها لكنه كان سريـ
الكنيسة وحدها ازدهرت في هذا القرن بكثير من العلماء والخطب
لكن تعليم هؤلاء كان نافعاً للسماء أكثر من نفعه للأرض. «انتهى
مؤيد لقولنا بندور العلماء الدنيويين في هذا القرن على كثرة الـ

الفصل الثاني

أطوار السوريون في القرون الاربعة الأولى

نريد بأطوار السوريين أحوالهم من قبيل الحضارة والتجارة وغيرهما ونعتمد في كلامنا في ذلك على ما كتبه العلامة مومسن الألماني المدقق في كتابه تاريخ الرومانيين (مجلد ١١).

عد ٥٧١
الادارة السياسية في سورية بهذه الحقبة

بعد أن استحوذ بمبايوس على سورية سنة ٦٤ ق.م. أقام فيها اميليوس سكادورس والياً، ثم خلفه الولاة الذين ذكرناهم في عد ٤٦٧ على أنه ترك بعض الحكام القدماء على مناصبهم تحت أمرة الوالي الروماني. من هؤلاء الملوك النبطيون الذين كانوا يلون دمشق وما جاورها من البلاد. واغتنم فرصة النزاع الذي كان بين ارسطوبولس وهركان اميرَي اليهود على الولاية فأسر ارسطوبولس وابنيه اسكندر وانتيكون، وأخذهم إلى روما، وأقام هركان ملكاً على اليهودية تحت أمرة الرومانيين كما رأيت في عد ٤٦٣ و ٤٦٤، إلى أن أقام مرقس انطونيوس هيرودس ملكاً على اليهودية ووسّع تخوم مملكته، إذ ألحق بها ما وراء الأردن إلى جوار دمشق وإلى صحراء العربية. وقد أوصى هيرودس عند وفاته أن يُقسم ملكه بين ثلاثة من أبنائه. وأثبت الملك اغوسطوس قيصر وصيته فكان ارشيلاوس ابنه والياً في اليهودية حتى السامرة شمالاً، وبلاد الادوميين جنوباً، وهيرودس المسمى انتيباس والياً على الجليل وعبر الأردن أي الجولان جنوباً. وفيلبوس أخوه على الجيدور واللجا، وكانت أمرة ليسانياس تلي الابلية (وهي المعروفة اليوم بسوق وادي بردى) وما جاورها من

البلاد. أما ارشيلاوس فلم يحسن مسعاه حتى اضطر اغوسطوس أن يعزله عن و
في السنة التاسعة أو العاشرة للميلاد وأن يجعل اليهودية إقليماً رومانياً. وكان ا
الرومانيون يقيمون ولاةً عليها إلى بيلاطس البنطي كما رأيت ذلك طبق ما جا
بشارة لوقا (فصل ٣) حيث قال: «في السنة الخامسة عشرة من ملك طيبار
قيصر حين كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع
الجليل، وفيلبوس أخوه رئيس ربع على ايطورياه (الجيدور) وكورة انطرخون (الل
وليسانيوس رئيس ربع على الابلية» وأما هيرودس وفيلبوس فاستمرا يدبران ولا
إلى وفاتهما. وقد ضمّت الولايتان إلى واحدة في أيام اغريبا الاول ابن ارسطو
بن هيرودس الكبير، وفي أيام اغريبا ابنه الثاني الذي استمر على الولاية إلى
القرن الأول. وكان لوالي سورية بعض الامر على هؤلاء الحكام وعلى ا
اليهودية. وبقي لرؤساء كهنة اليهود حق إدارة مهامهم الدينية.

وقد قسمت أقاليم المملكة في أيام اغوسطوس بين العاهل والندوة. فاستـ
سورية اقليماً ملكياً كافرنسة. وكانت هذه الولاية مذ بادئ بدئها أهم الولا
وكانت تحت أمرة واليها أربعة فيالق من الجنود. وقد ضمّت إلى ولايته ولاية س
الكومجانية وامريات لبنان. على أنّ ادريان في القرن الثاني خصّ والي فلس
بفيلق من فيالق سورية الاربعة. ولما أراد جنود سورية وأهلها في أيام ساويروس
يقيموا بنجر ملكاً ذلّلهم ساويروس وقسم سورية إلى ولايتين جعل احداهما
الشمال وسماها سورية المجوفة، وأقام فيها فيلقين من الجنود، والثانية في الجـ
وسماها ولاية سورية فينيقية، وأقام فيها فيلقاً واحداً. وكانت هذه الفيالق منقـ
إلى كتائب أو فرق تقوم كل فرقة في مدينة أو حصن. وقد وجد الباحثون
الآثار خطوطاً عديدة دالة على هذه الفرق أو حاوية اسماء رؤسائها مع ما أتوه
المشروعات. وكان يفرّق بين الكتائب المقيمة في المدن حيث يسود الأمن ا
الكتائب المقيمة في الحصون على التخوم لتأمين البلاد من غزوات الرحّل وغير
من المعتدين. وكانوا اولاً يعهدون بهذه المحافظة إلى أمراء العربية واليهودية، ثم
الكتائب المقيمة في الاقليم العربي بعد أن جعلوه اقليماً رومانياً قصبته بصـ
بحوران، وإلى حكام تدمر ولا سيما قبل أن يستحوذوا على ما بين النهرين ليصـ
مهاجمات البرتيين مع الاستعانة بجنود سورية عند الاقتضاء. ولا نستطيع أن ؛
محل الثكنات العسكرية في تلك الايام على أنّ يوسيفوس (في ك ٧ فصل ١

مؤلفه في حرب اليهود) أنبأنا أنّ الكتيبة العاشرة في أيام نيرون كانت مقيمة في رافانا في الجنوبي الغربي من حماه (وقال هناك ك ٢ فصل ١٨) وأنّ الكتيبة الثانية عشرة كانت في انطاكية أو ما جاورها، وأنّ كتيبة أخرى أو أكثر كانت تخفر الفرات. وأنبأنا تاشيت (في ك ٢) أنّ الكتيبة السادسة كانت في أيام طيباريوس مخيّمة في حماه أو في ضواحيها. وعن بتلمايس (ك ٥ فصل ١٥) أنّ الكتيبة من الجند كانت بعد ذلك مقيمة في سميساط. وكان كثير من الجنود في الاعمال الواقعة بين دمشق وبصرى لتأمين هذه البلاد التي يكثر القلق فيها. يعاون هؤلاء الجنود والي سورية ووالي العربية على استتباب الراحة والامن.

وكان الجنود يقومون مقام رجال الشحنة في المدن أيضاً، ولا سيما في انطاكية والاسكندرية. ولذلك كان الجيش السوري أحطّ منزلة في حفظ النظام العسكري من الجيش في المغرب. فإنّ التجول في المدن كان يفسد آدابهم ويغفلهم التمرين الجندي. ولذلك نرى الملوك احتاجوا غالباً في حروب سورية إلى أن يستدعوا الجنود المقيمين في المغرب لسدّ الخلل الحاصل من قبل الجنود المقيمين في مدن سورية.

والحاصل أنّ الرومانيين بعد استحواذهم على سورية، عهدوا بتدبير شؤون بعض أعمالها إلى ولاة رومانيين يقيمهم الملوك. وأبقوا في بعض الاعمال الأخرى على ولاة من الاسر التي كانت تليها قبلاً. إلى أن نسخوا ولايتهم على التعاقب فأبقوا على هذا النحو في اليهودية ولاة من ولد هركان من نسل أمراء المكابيين، ثم ولوا هيرودس، ثم بنيه ارشيلاوس وهيرودس وفيلبوس، ثم اغريبا الأول ابن ابنه ارسطوبولس، وبعده ابنه اغريبا الثاني. وقرضوا ولايتهم في أوائل سني القرن الثاني. وأبقوا في دمشق الولاية تحت أمرتهم للملوك البنطيين، منهم اريتاس (اوارتاس) الذي ورد ذكره في رسالة بولس الثانية إلى القرنثيين (فصل ١١ عد ٣٢) حيث قال: «كان الحاكم في دمشق تحت أمرة ارتاس يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض عليّ». وقد سمى اليونانيون هذا الملك ايرتاس واسمه في لغة قومه حارثة أو حارث، وهو ابن عبيدة الذي كان خاضعاً للرومانيين في أيام اغوسطوس كهيرودس. وقد نجد الجنود الرومانيين في حملتهم على جنوبي العربية فأقاموه على محافظة تخوم سورية من دمشق إلى ما يليها شرقاً وجنوباً. وكان يسطو على ملك اليهودية فسخط عليه اغوسطوس لذلك وعلى ابنه حارثة (اريتاس) بعد وفاته، لأنه خلف أباه دون أن ينتظر أمر العاهل. وكان اغوسطوس يريد انتزاعه من الملك وتسليمه إلى هيرودس،

على أنّ سوء تصرف هيرودس جعله يترك عزمه، فأثبت حارثة في ملكه سنة ٧ قبل الميلاد. وبعد نحو من أربعين سنة أعلن الحرب على هيرودس انتيباس صهره لأنه طلّق ابنته كما مرّ. فانتصر عليه وأمر طيباريوس والي سورية أن يزحف إلى حارثة وينكل به. ولكن مات طيباريوس حينئذٍ سنة ٣٧ وغايوس خليفته لم يكن راضياً عن انتيباس فعفا عن حارثة الذي مات فخلفه ملكيو أو ملك، ونَجَد الرومانيين في عهد نيرون وفسبسيان في حربهم مع اليهود. وبعد وفاته خلفه ابنه رابل، وكان في أيام ترايان وهو آخر الملوك النبطيين لأنّ كرنيليوس بلما قائد جيش ترايان أخضع قسماً من العربية للرومانيين فجعلوه اقليماً رومانياً وألحقوا به قسماً من ولاية سورية. وأقاموا حكومته في بصرى بحوران سنة ١٠٦ أو سنة ١٠٥م واستغنوا عن النبطيين. ومما يثبت ذلك أنه وُجدت سكة في دمشق مكتوب عليها في اليونانية الملك اريتاس. وقد كُشف في دمر في جوار دمشق خط نبطي مؤرخ في شهر أيار سنة ٤٠٥ للسلوقيين. وفي سنة ٢٤ للملك رابل المذكور فيوافق ذلك ٢٤ أيار سنة ٩٤ بعد الميلاد. فكان ذلك مثبتاً بقاء الملوك النبطيين على ولاية هذه البلاد تحت أمرة الرومانيين إلى أن جعلها الرومانيون ولاية مستقلّة باسم ولاية العربية.

ويظهر أنّ الرومانيين اعتمدوا بعد ذلك في ولاية دمشق وما جاورها على بني غسان فكانوا يستعملونهم في هذه البلاد مسمين ملوكاً. ولما كان هؤلاء طوع ايدي الرومانيين فاستمروا على ذلك إلى ظهور الاسلام وفتح الخلفاء لدمشق.

وكذا أبقوا في لبنان الشرقي وما جاوره على أسرة بتلمايس بن مينا أي على ليسانياس الاول وابنه زينودر وعلى ليسانياس الثاني الوارد ذكره في بشارة لوقا كما مرّ آنفاً ولاة على كلشيس (عنجر في لبنان الشرقي) والابلية (سوق وادي بردى) وما يليهما. ولم نعثر على غير اسم هؤلاء من هذه الاسرة فكان الرومانيّون نسخوا ولايتهم بعد موت ليسانياس الثاني.

وقد استعمل الرومانيون في تدمر وما يليها آل اذينة كما رأيت في الكلام عليهم في القرنين الثاني والثالث، إلى أن قرضوا دولتهم باسرهم زبيدة ملكتهم سنة ٢٧٢م.

وكانت للسوريين في مدنهم الكبيرة ندوات ومجالس بلدية تعنى بمهامها الداخلية، وتصلح شؤونها وتهتم بتوسيع نطاق تجارتها وتجميل أبنيتها. فكذا كان في

انطاكية ودمشق وتدمر وغيرها. وقد أثقل الرومانيون أهل اليهودية بالخراج بعد افتتاح بمبايوس لها، على أنّ يوليوس قيصر أبطل بعد استبداده بالولاية تلك الضرائب، وأعفى اليهود من اداء الخراج على أرضهم والخدمة في الجندية. وردّ على اليهود يافا التي كان الرومانيون قد أخذوها منهم شريطة أن يدفع أهلها ربع غلال أرضهم في صيدا للرومانيين، وأن يعطي لهركان في مقابلة ذلك في صيدا أيضاً ٢٠٦٧٥ كيلاً من البر كل سنة، ويأخذ هركان من أهل يافا عشر غلال أرضهم أيضاً وهذا ظهر من أمر يوليوس قيصر الذي ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ١٧).

عد ٥٧٢

الزراعة في سورية في القرون الاولى

أعظم ما تباهى به السوريون في عصر السلوقيين والرومانيين هو الحراثة والزراعة. وكانت لهم وللمصريين المنزلة الاولى في أعمال المملكة الرومانية في الصناعة والتجارة. وكان السوريون يفضّلون فيهما على المصريين أيضاً في بعض الاحوال. وبلغوا في اتقان الزراعة في تلك الايام شأواً يكاد فن الزراعة في البلاد المتمدنة الآن يقصر عنهم، وعاونهم على ذلك خصب أراضيهم في محال كثيرة منها كمرج ابن عامر والجولان والارض الواقعة على ضفتَي العاصي والسهول الواقعة على شاطئ البحر المتوسط من السويدية إلى غزة. وكانت هذه السهول والجبال المشرفة عليها كثيرة العمران. ووصف مومسن أهل هذه البلاد بكونهم شديدي الذراع عاليي الهمة متوقدي الذهن. وقد أثبتت لنا الآثار أنّ مدينة اباميا حيث قلعة المضيق الخربة الآن كان فيها من السكان في أيام قورينوس الذي باشر الاحصاء في سورية ابان مولد المخلِّص مئة وسبعة عشر ألفاً من الاهلين الاحرار. ولا ريب في أنّ جميع الارضين الواقعة على ضفتَي العاصي من ينبوعه إلى انطاكية كانت كخمائل تبسق فيها الاشجار وينضر فيها كل نبات. والصحراء التي في شرقي حمص حيث لا تجد الآن ورقة خضراء ولا قطرة ماء كانت جميعها شجراء (كثيرة الشجر) معدّة للزراعة. وقد وُجد في شرقي حمص في جهة قرقلس أكثر من عشرين رحى من الارحاء الضخمة لعصر الزيتون. ومن شاء الآن أن يسير من حمص إلى تدمر لزمه أن يقل الماء على ظهر الجمال وهو يرى مسيرة آثار الجنات والخمائل وأطلال المدن

والقرى والمزارع. فقد عثر يوسف شرنيك المهندس النمساوي على أطلال وأخربة في أماكن شتى من الفلاة التي بين حمص وتدمر. وكشف العالِم ساش عن كثير من أقنية الماء في الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر.

وما لجيش أن يقتحم الآن ما اقتحمه جيش اورليان في لحاقه زبيدة من حمص إلى تدمر. وترى فيافي فسيحة مما يسمى الآن برية أو مفازة ما آلت إلى هذه الحال إلّا لعدم وجود العملة فيها. وقال كاتب الجغرافية في منتصف القرن الرابع «تكثر جداً في سورية اغلال من الحبوب والخمر والزيت». وقد توافر ارسال خمر دمشق إلى فارس وخمر اللاذقية وعسقلان وغزة إلى مصر ثم إلى بلاد الحبشة والهند. وكان الرومانيون يقدرون خمر جبيل وصور وغزة حق قدره. ولم تكن غوطة دمشق وجناتها في تلك الايام أقل نضارة وخصباً منهما في هذا العصر، حتى كانت تسمى لؤلؤة عقد سورية، كما سماها بعضهم شامة الدنيا. وتربة حوران واللجا والحمراء ذات خصب يقلّ لها النظير. ومع ذلك كانت هذه البلاد قبل ولاية الرومانيين متوعرة خربة بعيدة عن الحضارة مستغرقة بالهمجية لا يأهلها إلّا الرحّل ولا يستغلون من أرضها إلّا مرعى مواشيهم، وهم على نزاع مستمر بينهم وبين هذه المراعي. وأما بعد ولاية الرومانيين فقد أمنوا هذه البلاد وأكثروا من إقامة مخافر للجند فيها. وقد أنبأتنا الآثار والخطوط القديمة بذلك إذ جروا المياه لارواء كثير من أرضها. يستدل على ذلك بالقناة الموصلة الماء إلى كرك وبالقناة الاخرى الموصلة ماء الجبل إلى البلدة المعروفة اليوم بالراحة. والراجح أنّ ذلك كان في عهد ترايان. وهناك رواب ركمت فيها الحجارة البركانية التي كانت تغطي الحقول. وما ذلك إلّا دليل على عناية حكومة وهي حكومة الرومانيين. وما يُرى إلى الآن من آثار العمران في فلسطين وفي ما وراء الأردن يكفينا مؤونة البيان لما كانت عليه هذه البلاد من تقدّم الزراعة التي هي أس الثروة والعمران. فبينا كان أهل المدن الساحلية مكبين على التجارة والصناعة كان أهل الجبال والسهول منصبّين على الزراعة وعلى استثمار أرضهم المشهورة بخصبها وجودة تربتها. وفي فلسطين وفي ما وراء الأردن خاصة، آثار عديدة دالة على ما كان للرومانيين من العناية في تقدّم ثروة هذه البلاد بتمهيد طرقاتها وتسهيل وسائل النقل والمحافظة على الأمن فيها. وليس من يقيم نكيراً على أنّ هذا من أنفع الوسائل للزراعة.

عد ٥٧٣

الصناعة في سورية في القرون الاولى

قد اشتهر السوريون في تلك الاعصر في اتقان الصنائع وتوفيرها عندهم خلافاً لما نراه اليوم من ندورها وقلّة أحكامها. فقد كانت هذه البلاد منشأ لكثير من الصنائع ولا سيما الكتّان والبرفير والحرير وصنع الزجاج. فنسج الكتّان الذي بُدئ فيه في بلاد الكلدان قد تطرّق إليه السوريون في أقدم الدهر. فقد قال كاتب الجغرافيا في منتصف القرن الرابع: «إنّ باسان واللاذقية وجبيل وصور وبيروت كانت ترسل أنسجتها إلى العالم كله». وجاء في شريعة ديوكلتيان التي أشهرها سنة ٣٠١م مبيّناً فيها أثمان ما يُباع وأجرة العَمَلة. إنّ مصنوعات المدن الثلاث الاولى كانت من أحسن المنسوجات لا تقلّ قيمة عن منسوجات ترسيس ومصر، بل تُفضّل عليها. ومما لا يحتاج إلى برهان أنّ البرفير الصوري استمر حائزاً الافضلية على كل ما سواه، وقد وفّرت المعامل التي أُنشئت لمباراته. وقد اشتهرت أيضاً معامل أخرى بسورية في أصبغتها ونسجها للبرفير في صرفند والطنطورة وقيصرية فلسطين واللدّ. وكانوا يأتون حينئذٍ بالحرير غير منسوج من الصّين فتصبغه وتنسجه معامل سورية ولا سيما معامل بيروت وصور. ومعامل الزجاج في صيدا قد بقيت على شهرتها في أيام الملوك الرومانيين. وتجد في متاحف اوروبا كثيراً من الآنية الزجاجية منقوشاً عليها اسم عاملها في صيدا. وروى رنان (في بعثة فينيقية صفحة ١٥٤) عن شريعة ديوكلتيان المشار إليها أنّ مدينة جبيل أحرزت ثروة كبرى من تجارتها بالمنسوجات.

عد ٥٧٤

التجارة في سورية في القرون الاولى

قد اشتهر السوريون بالتجارة من أقدم الدهر وما برحوا مكبين عليها في القرون الاولى بعد الميلاد. فكانوا يشحنون مصنوعاتهم وغلالهم إلى الافاق ولا سيما إلى الغرب. ويتلقون سلع التجارة من باقي أقطار المشرق فيرسلونها إلى المغرب. على أن غلال العربية والهند كانت تنقل إلى المغرب في طريق مصر. لكن تجارة ما بين

النهرين وكل ما يتصل إلى فرض الفرات كانت تتداولها ايدي السوريين، وتقلها قوافل تدمر خاصة إلى مرافئ سورية. ومما يدل على أهمية هذه التجارة بين سورية والبلاد التي تليها من جهة المشرق استواء أثمان المسكوكات في أملاك الرومانيين في المشرق وأملاك الفرس في البلاد البابلية. وكانت الحكومة الرومانية تسكّ الفضة في سورية والكبادوك على مثال السكة الفارسية مخالفة لسكتها الملكية في اوروبا. وكانت مادة المصنوعات السورية ولا سيما الانسجة الصوفية والحريرية تؤخذ من غلال البلاد البابلية. وكان السوريون يوصلون إلى ايطاليا وسائر أنحاء العرب أكثر أصناف البضائع الشرقية كالانسجة الحريرية والفراء والطيوب والبهار والرقيق الشرقي. ومما امتاز به التجار السوريون عن غيرهم أنهم لم يكونوا يبيعون سلع تجارتهم من الاجانب فقط كما يصنع المصريون، بل كانوا ينقلونها بأنفسهم إلى الآفاق. وكان ربانو السفن في سورية جوقة كثيرة العدد شريفة، دلّ على ذلك كثير من الخطوط القديمة. وقلما خلت مدينة شهيرة في المغرب في أيام الملوك الرومانيين من تجار سوريين ومحال تجارية لهم على نحو ما كان في الاعصر العريقة بالقدم التي يتكلم فيها أومر. فكان للصوريين محلات تجارية في أعظم فرض ايطاليا ولا سيما اوستيا وبوزولي من أعمال نابولي. وقد وصف كاتب الجغرافية المشار إليها آنفاً صور بأنها أعظم محطة للتجارة في المشرق. ويتبيّن من مجموعة الخطوط القديمة (خط ٥٨٥٣ من الخطوط اليونانية وخط ١٦٠١ من الخطوط اللاتينية) أنه كان لهذه المحال التجارية السورية في ايطاليا غرض ديني أيضاً، هو أن ينشر السوريون دينهم عند الاجانب. وكان بعض هؤلاء التجار مسيحيين، وبعضهم وثنيين. وكان لهم في اوستيا ضريبة يستوفونها من المسافرين والتجار السوريين وينفقونها في سبيل الغرض المذكور، ويدفعون منها كل سنة ألف دينار مساعدة لجمعيتهم في بوزولي التي لم يكن دخلها وافياً بالمقصود.

وروى اوسترابون (ك ١٦ فصل ٢) في كلامه على صور وارواد أنّ منازلهم كانت رفيعة جداً مؤلفة من طبقات كثيرة، وكان لبيروت ودمشق وغيرهما من مدن سورية وفينيقية محلات تجارية في مراسي ايطاليا. فقد وُجد خطان لاتينيان (مجموعة الخطوط اللاتينية عد ١٦٣٤ وعد ١٥٧٦) في بوزولي يتبيّن منهما إقامة نصبَين للمشترى الاعظم البيروتي وللمشترى الاعظم الدمشقي. ووُجد في المجموعة المذكورة (خط ٢٢٧١) اسم جمعية هرقلية صورية واسم جمعية أخرى بيروتية.

وقد وجدت آثار للتجار السوريين في أيام الملوك الرومانيين لا في مدن كثيرة من ايطاليا فقط بل في سالونا بدلماسيا، وفي اسكولي (على الادرياتيك)، وفي ملاكا (اسبانيا)، وفي جرمانيا وافرنسة ولا سيما في بوردو وليون وباريس واورليان وتراف. وكان المسيحيون من هؤلاء التجار يجلبون معهم أزياءهم من بلادهم ويتكلمون في اجتماعاتهم بلغتهم.

وقد روى القديس غريغوريوس أسقف طور (ك ٨ فصل ١) أنه لما أتى الملك كونتران بن كلوتر الاول إلى اورليان خرج الشعب لملاقاته، وكانوا يجأرون بالدعاء له بالعبرانية والسريانية واللاتينية. وروى أيضاً (ك ١٠ في تاريخ الفرنك فصل ٢٦) أنه توفي في تلك الايام أسقف باريس فخلفه أحد التجار السوريين وأقام على تدبير منزله الاسقفي جماعة من أبناء وطنه. وقال القديس ايرونيموس (في تفسير نبوّة حزقيال فصل ٧): «ما برح السوريون حتى الآن على ما فطروا عليه من الولوع بالتجارة فيطوفون في المعمور بأسره كلفاً بالربح، وقد حملهم هوسهم بالاتجار على أن يسعوا في طلب الكسب بين السيوف المرهفات المجردة الآن في المملكة الرومانية (كتب ذلك في أواخر القرن الرابع ابان حرب توادوسيوس في المغرب) فيقتحمون الاخطار فراراً من الفقر». ويلحق بذلك ما ورد في الخطوط القديمة في المغرب عن السوريين فلا وجه لاقامتهم في اوروبا حيث دلّت آثارهم عليهم إلّا الاتجار كما يظهر من تلك الخطوط التي عُثر عليها في مقبرة مدينة كونكورديا (بايطاليا الشمالية). فالاجانب المدفونون هناك جميعهم سوريون والسواد الاعظم منهم أصلهم من اباميا (مجموعة الخطوط اللاتينية ك ٥ صفحة ١٠٦٠). ومثلها الخطوط اليونانية التي وُجدت في مدينة تراف (بافرنسة) فهي دالة على أناس سوريين (مجموعة الخطوط اليونانية خط ٩٨٩١ و ٩٨٩٢ و ٩٨٩٣). وهذه الخطوط مؤرخة بالطريقة التي يؤرخ بها السوريون وبفرع اللغة اليونانية الذي كان يستعمله بعض السوريين وقتئذٍ. وكان اكثر هؤلاء السوريين المشتتين في المغرب مسيحيين لا من اليهود الذين تشتتوا في العالم بل هم أعلى منزلة منهم.

وروى ثقاة أنّ شرفاء انطاكية كان بعضهم أصحاب معامل وبعضهم تجار، وعامة الشعب عملة وبحارة. وكان عدد العَمَلة في نسج الحرير في حمص نحواً من ثلاثة آلاف عامل. وكان القسم الاكبر من المال المكتسب حينئذٍ بالاتجار مع المغرب يذخر في صور واباميا، كما أمسى بعد ذلك أكثر المال المكتسب في المشرق يذخر في جنوا

والبندقية. وكانت المكوس المضروبة تلك الايام على الداخل والخارج قليلة، وبلاد التجارة فسيحة. وكان السوريون يتجرون لا بغلال بلادهم ومصنوعاتهم فقط بل بأصناف شتى من السلع والبضائع الاجنبية. فقد عُثر على خط في ضواحي ليون (ذكره دلمانوس خط ٢٤٩٨) كتب فيه أنّ رجلاً اسمه ثاموس يوليانس بن ساتي من عتيل قرية في جانب قنوات (بحوران) كان يتجر بمصنوعات اكويتانيا أو غلالها بائعاً مجملاً، وهذا ناطق بأنّ السوريين لم يكونوا يتجرون ببضائع وطنهم فقط بل كان منهم من يستثمر رأس ماله وخبرته ببضائع البلاد الاجنبية أيضاً.

إنّ آثار العمران والثروة في سورية ظاهرة في أطلال المدن الخربة بل في السباسب السائبة أيضاً ولا سيما التي على ضفة العاصي اليمنى من اباميا (قلعة المضيق) إلى منعرج النهر نحو البحر التي طولها من مئة وخمسين إلى مئة وثمانين كيلومتراً. فهناك إلى الآن أطلال نحو من مئة بلدة تعرف أزقتها وهي مبنية بالحجارة المنحوتة، وبيوت السكنى محاطة بأعمدة مزينة بشرف وأبوابها وشبابيكها مزخرفة بنقوش، وفيها حمامات وغرف للعب، وفي أسفلها معاصر للخمر والزيت، وفي جانبها جنات، وهناك أيضاً مدافن كبيرة منقورة في الصخور ملأى من التوابيت يدخل إليها بدهاليز قائمة على أعمدة وقصور منفردة لمصيف التجار وأصحاب معامل الصناعة من أهل اباميا وانطاكية دالة على وفرة ثروة اصحابها وعلى ترفهم. وكل هذه المدن المشبه بعضها بعضاً يظهر أنها بُنيت في أواخر ملك الرومانيين في هذه البلاد. فجلّها أُنشيء في بداية القرن الرابع وأحدثها في نحو منتصف القرن السادس. ولا شك في أنّ ساكنيها كانوا نصارى إذ وُجد فيها كثير من شعائر الدين المسيحي، ومن آيات الكتاب المقدّس، بل وُجدت كنائس ومعابد كثيرة. ويظهر أنّ هذا العمران بُدئ فيه قبل عهد قسطنطين الملك لكنه كُمّل وتوطّد في أيامه. ولم يكن العمران في تدمر وضواحيها وثروة أهلها وتجارتهم أقلّ مما كانت عليه هذه البلاد من النجاح. طالع ما مرّ في تاريخ القرن الثاني في تجار تدمر وقوافلها.

أما يهود فلسطين فكان كثيرون منهم قد هاجروا من هذه البلاد قبل خراب الهيكل وأورشليم. وأقامت جاليات منهم في اسكندرية وانطاكية وغيرهما. وكان لهم نصيب كبير في تجارة المدن التي حلّوا فيها، على أنّ الضغائن التي كانت بينهم وبين النصارى وحروبهم مع الرومانيين ومع مواطنيهم أضرّت بتجارتهم، وكان الدين جامعة للتجار السوريين الذين كانوا في البلاد الاجنبية، ولم يكن بنو إسرائيل

ينضمون إلى النصارى أو الوثنيين. وبينما كان الدين المسيحي يزداد انتشاراً في خارج سورية، كان اليهود يزدادون انفصالاً عن المسيحيين في كل محل، فآل ذلك إلى نفع غيرهم من السوريين. وكان اليهود يؤثرون أن يعاملوا بني ملّتهم على أن يعاملوا غيرهم ولو كانوا من مواطنيهم في سورية. فعاد ذلك بالوبال على تجارتهم وخسروا ما كان لهم من الثقة وحسن المعاملة في اسكندرية وانطاكية وغيرهما. على أنّ اليهود الذين كانوا في المغرب لم يكونوا جميعاً من المهاجرين للاتجار، بل كان جمّ غفير منهم من أسرى الحرب أو أولاد الاسرى. فكانت حالهم ولا سيما في روما حالة الصعاليك أو المتسولين. ولم يكن رأس مالهم إلّا رزم عشب يجمعونها من الحقول، أو سلّة ضمّت سلعاً بخسة الثمن. وعليه فكانوا في المغرب في أيام الملوك الرومانيين على أسوأ حال، ووحدة الدين سوّت بين المهاجرين وبين المسببين منهم بقضاء الله العادل.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع

نعتمد في هذا القسم على شهادات القديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير الدينيين، وفي ترجمته الكرونيكون لاوسابيوس القيصري، ثم على تواريخ سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس، لأنّ هؤلاء جميعاً كانوا شهوداً عيانيين لبعض ما كتبوا، وأخذوا ما بقي من كلامهم عن شهود عيانيين. فإنّ القديس ايرونيموس كان في هذا القرن في فلسطين وسقراط وتوادوريطوس وُلدا في أواخره. وسوزومانوس وُلد في فلسطين في بدء القرن الخامس. وقد كتبوا تاريخ القرن الرابع وبعض الخامس على سبيل تكملة لتاريخ اوسابيوس القيصري المكنّى بأبي التاريخ الديني. ولم نغفل عن مراعاة ما تعقبهم به المتأخرون ما أمكن استيثاقاً لكلامنا ورغبة في الاعتماد على الاصول، لأنّ كتب هؤلاء أصول تواريخ هذه الايام، فالاسناد إليها أولى من كلام المتأخرين.

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن الرابع

عد ٥٧٥

بطاركة انطاكية في هذا القرن

قد مرّ في تاريخ القرن الثالث أنّ كيرلس بطريرك انطاكية استمر في حبريته إلى سنة ٣٠٣م، وخلفه تيرانوس. ذكره اوسابيوس القيصري في الكرونيكون وقال إنه كان في سنة ١٩ لديوكلتيان وقال فيه في تاريخه (ك ٧ فصل ٣٢) وخلف تيرانوس كيرللس في كنيسة انطاكية. واشتدت في أيامه وطأة الاضطهاد على الكنائس. وقد ذكره أبو الفرج ابن العبري في تاريخه البيعي وايليا النصيبيني. وعن سعيد ابن البطريق أنه بقي في البطريركية ١١ سنة. وعن نيكوفوروس أنه استمر فيها ١٣ سنة. وعليه فقد أدركته الوفاة سنة ٣١٤ أو سنة ٣١٦م وخلف فيتاليوس تيرانوس في بطريركية انطاكية على ما روى القديس ايرونيموس في الكرونيكون. وذكره ابن العبري في تاريخه المذكور وقال إنه في أيامه حرم القديس بطرس بطريرك الاسكندرية آريوس الشماس فتمادى في شرّه وأخذ يبث بدعته. وروى نيكوفورس وتوافان أنه بقي في كرسي انطاكية ست سنين. وعليه فيكون توفاه الله سنة ٣٢٠م. قال لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) إننا وجدنا توقيعه في مجمعَي الكورة وقيصرية الجديدة سنة ٣١٤م.

وخلفه فيلوكنيوس، وروى القديسان ايرونيموس وفم الذهب أنّ بدعة آريوس فشت في آخر أيامه، وكان مناصباً لها لما كان انليكوس أسقف طرابلس ومكاريوس أسقف أورشليم. وقال ابن العبري أنه في أيامه صالح اكيلًا خليفة بطرس البطريرك الاسكندري آريوس، ورقّاه إلى درجة الشمامسة. ولما لم ينفك عن بث غوايته حرمه

ثانية. وتعقّب ابن العبري السيدان ابالوس ولامي مترجما تاريخه بقولهما أنّ اكيلًا رقى آريوس إلى درجة القسوس لا إلى درجة الشمامسة التي كان رقي إليها قبلاً. وقال توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ٢) «أما في انطاكية فخلف فيتالوس تيرانوس بعد أن استحوذ الامن في الكنيسة، وبنى فيتاليوس في باليا (في ضواحي انطاكية) الكنيسة التي كان الظالمون قد دمروها. ثم خلف فيلوكنيوس فيتاليوس في تدبير هذه الكنيسة. وأكمل بناء الكنيسة المذكورة، وكان متسامياً في الغيرة على المحاماة عن الحق في أيام ليشينيوس» عدو قسطنطين الملك. وقال لكويان (في المحل المذكور يظهر أنّ فيلوكنيوس قضى نحبه سنة ٣٢٣ أو سنة ٣٢٤م).

وخلفه في الكرسي الانطاكي بولينوس، وذكره القديس ايرونيموس في الكرونيكون مبيناً أنه خلف فيلوكنيوس، وكان بولينوس اولاً أسقفاً في صور وله فيها أعمال مبرورة مشكورة سنأتي على ذكرها عند الكلام في أساقفة هذا القرن. ولم يمكث طويلاً في أسقفية انطاكية بل توفاه الله سنة ٣٢٤م، لأنّ خليفته اوسطاتيوس حضر في المجمع النيقوي الذي عُقد في السنة التالية. وقال نيكوفوروس وتوافان وسعيد البطريرك الاسكندري أنه استمر على الكرسي البطريركي خمس سنين، وقولهم مردود بدليل أنه لم تمضِ فترة طويلة بين ظهور بدعة آريوس والتئام المجمع النيقوي. فقد ظهرت البدعة في أيام فيلوكنيوس كما مرّ. ولا مراء في أنّ المجمع النيقوي عُقد سنة ٣٢٥ وأنّ اوسطاتيوس شهده (لكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). أما اوسطاتيوس الذي خلف بولينوس فكان من بمفيلية. وقال فيه القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير) «إنه كان اولاً أسقفاً على حلب ثم دبر كنيسة انطاكية وألّف كتباً عديدة يقاوم بها غوايات الاريوسيين. وقد نُفي في أيام قسطنطين (أو قسطنس) إلى ترايانوبلي في تراسة حيث دُفن. ومن تآليفه كتاب في النفس وآخر في رد مزاعم اوريجانس ورسائل تشذّ عن العدّ». وقال فيه سوزومانوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢) «ولما اجتمع الآباء في نيقية وكانوا يقدّرون اوسطاتيوس حق قدره من قبيل سيرته الصالحة وعلمه السامي، قضوا بأنه أهل لأن يترأس على الكرسي الرسولي، ولذلك نقلوه من أسقفية حلب إلى كرسي انطاكية». وعن توافان إنّ آباء المجمع النيقوي أثبتوا هذا النقل الذي كان قد حصل قبل المجمع. وقد قرظ اوسطاتيوس الملك قسطنطين في المجمع. ولما كان من أكابر الآباء علماً وأبهة ساعد كثيراً على نبذ بدعة آريوس وانزال الحرم به.

ولذلك تصدّى الاريوسيون لمناصبته لمناصبته شديد المناصبة حتى نفاه الملك من انطاكية.
وقال توادوريطوس (ك ١ راس ٢٠ من تاريخه) في ذلك ما ملخّصه: «إنّ اوسابيوس أسقف نيكوميدية كان قد تغلّب على كرسي القسطنطينية وجدّ في استرضاء الملك عنه وتعزيز نفسه لديه، فأتى إلى انطاكية يصحبه بعض الاساقفة محازبيه فقبلهم باحتفاء اوسطاتيوس بطل الايمان العظيم، وأكرم مثواهم عنده. ثم توجهوا إلى زيارة الاماكن المقدّسة فوجدوا على شاكلتهم اوسابيوس أسقف قيصرية، وبتروفيلوس أسقف باسان، واكسيوس أسقف اللد، وتوادوطوس أسقف اللاذقية. ورجع هؤلاء معهم إلى انطاكية وأتى إليهم أساقفة آخرون بحجة التهنئة لهم بعودهم. وعقدوا مجمعاً، ودخيلة الامر أن يشجبوا اوسطاتيوس فيه. وأتوا بامرأة جميلة وأدخلوها غرفة الاجتماع وعلى ساعديها طفل رضيع، وأخذت تتهم البطريرك أنه ضاجعها فعلقت منه وأنّ الطفل ابنه. فسأل اوسطاتيوس وهو على يقين من أنه براء من هذه التهمة أن تأتي المرأة أو ذووها بدليل على ما تدّعي، فأُجيب أنّ لا بيّنة ولا دليل. فحكم القضاة الجائرون بأن تحلف الزانية يميناً فحلفت وحكموا على البطريرك بارتكاب الفحشاء متناسين قول الرسول الصريح «بأن لا تقبل الشكوى على القسيس إلّا بشاهدين أو ثلاثة شهود عدل». وأبى غير هؤلاء من الاساقفة المطاوعة على هذا الحكم الجائر، ورفع الجائرون الامر للملك وزيّنوا له لزوم نفي اوسطاتيوس ولو لمجانبة الانقسام بين الاساقفة، فنُفي بطل الشهامة والتقوى والعفاف إلى مدينة في تراسة. وقد أنبأنا توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢١) أنّ تلك المرأة التعيسة اعتراها مرض عضال فباحت بأنّ بعض الكهنة حملوها على تلك التهمة برشوة ودفعوها إليها. ولم تكن يمينها كاذبة على الاطلاق لأنّ ذلك الرضيع كان ابن رجل فلاح اسمه اوسطاتيوس. وروى سقراط (ك ١ فصل ٢٤ من تاريخه) أنه قد عقد مجمع في انطاكية وحُط فيه اوسطاتيوس بدعوى قورش أسقف حلب عليه بأنه يؤيد ضلال سابيليوس أكثر من رسم المجمع النيقوي. وقال بعضهم أنه حُطّ لجرائم تخالف تبتله على أنهم لم يأتوا ببيّنة على ذلك. وقد اعتاد الاثمة أن يعنّفوا الاساقفة بمثل هذه التهم دون أن يثبتوها. وقال جيورجيوس أسقف اللاذقية بسورية أنّ قورش أسقف حلب شكاه بضلال سابيليوس على أنه قال في محل آخر أنّ قورش هذا نفسه ثبت عليه اتباع هذا الضلال وعزل بسببه. فكيف يتفق أن يكون قورش تابعاً هذا الضلال، ويشكو اوسطاتيوس به. على أنّ

فالسيوس في حواشيه على تاريخ سقراط أثبت أنّ الاريوسيين إنما كانوا يتّهمون الاساقفة الكاثوليكيين باتباع سابيليوس لتعليمهم أنّ الابن مساوٍ للآب جوهراً، وأنّ القديس اثناسيوس أثبت في رسالته إلى النساك أنّ قورش أسقف حلب واوسطاتيوس أسقف انطاكية كانا من جملة الاساقفة الذين عزلهم الاريوسيون. ثم إنّ عزل اوسطاتيوس عن كرسيه أفضى إلى قلق كبير في انطاكية. وعظم الانقسام والخلاف حتى أوشك أهل المدينة أن يبيد بعضهم بعضاً، وكان فريق منهم يريد نقل اوسابيوس القيصري إلى كرسي انطاكية، والفريق الاخر يريد رد اوسطاتيوس إليه. فاعتفى اوسابيوس من الاذعان لهذا النقل ومدحه قسطنطين الملك على ترفعه عن قبوله هذا المنصب وتلافيه الخلاف، ودعاه سعيداً قائلاً له إنه أهل لأسقفية هذه المدينة بل لأسقفيات العالم كله. ومضى اوسطاتيوس إلى منفاه. انتهى كلام سقراط ملخصاً. ومثل ذلك قال سوزومانوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٨ و ١٩) قال لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) اختلف في سنة نفي اوسطاتيوس بين إن كان سنة ٣٢٧ أو سنة ٣٣١ أو سنة ٣٤٠م فبكل منها قائل.

وأما متى توفي اوسطاتيوس فقد روى سقراط (ك ٤ من تاريخه فصل ١٣) أنّ يوفيان استدعاه من منفاه وأتى إلى القسطنطينية يحضّ الكاثوليكيين على الثبات في الايمان. ولما مات اودكسيوس بطريرك هذه المدينة أقام الاريوسيون مكانه دموفيلوس. وانتخب الكاثوليكيون افاغريوس فرقّاه اوسطاتيوس إلى أسقفية القسطنطينية، وتابعه سوزومانوس (ك ٦ في تاريخه فصل ١٣) في ايراد هذا الخبر، وزاد عليه أنّ الملك لخوفه من حصول قلق في العاصمة أرسل جنوداً فقبضوا على اوسطاتيوس، ونفاه إلى قرية اسمها بيزدا في تراسة، ونفى افاغريوس إلى مكان آخر. وقال لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) إنّ الملك يوفيان دعاه من منفاه في القسطنطينية، وكان يخطب فيها في مساواة الابن للآب جوهراً، وقد عاش طويلاً. ويظهر أنه مضى إلى ربه سنة ٣٨٠م. ولكن قال فالسيوس (في حواشيه على تاريخ سقراط) إنّ بارونيوس في تاريخ سنة ٣٧٠م تعقب سقراط وسوزومانوس قائلاً إنّ اوسطاتيوس كان قد توفي من مدة طويلة في أيام قسطنطين الملك. وإنّ القديس ايرونيموس روى في كتابه في المشاهير أنه توفي ودُفن في ترايانبولي حيث كان منفياً. ولا يمكن أن يكون اوسطاتيوس عاش إلى أيام يوفيان لأنه شهد المجمع النيقوي الذي التأم سنة ٣٢٥م. فلو فرضنا أن كان له من العمر حينئذٍ خمس

وأربعون سنة ومن أيام هذا المجمع إلى السنة الثالثة من ولاية يوفيان خمس وأربعون سنة فيكون عمره يوم رقي افاغريوس إلى الاسقفية تسعين سنة وهذا يعسر تصديقه. وتحصيه الكنيسة إلى مصاف القديسين وتعيّد له الكنيسة اللاتينية في ١٦ تموز.

اولاليوس اختاره الاريوسيون بعد نفي اوسطاتيوس، فقد جاء في كرونيكون اوسابيوس الذي ترجمه القديس ايرونيموس «إنّ الاريوسيين استحوذوا على هذا الكرسي فأقاموا اولاليوس واوسابيوس وبلاشلوس واسطفانوس ويولنتيوس وادكسيوس وملاتيوس واوزويوس ودوروتاوس ثم ملاتيوس ثانية ولم أذكر سني كل منهم لاعتقادي أنهم أعداء المسيح لا أساقفة».

ويُستثنى من هذا الصف ملاتيوس لما ستراه. أما نحن فنذكر من تاريخهم ما عثرنا عليه في كتب المحققين. وقد ذكر توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢١) اولاليوس قائلاً: «أقام الاريوسيون مكان اوسطاتيوس اولاليوس ولم يعش إلّا قليلاً. فهموا بأن ينقلوا اوسابيوس من أسقفية قيصرية إلى انطاكية فتمنّع من هذا الانتقال ولم يرضه الملك». وذكر اوسابيوس ذلك (في ك ٣ من ترجمة قسطنطين). ولم يذكر سوزومانوس اولاليوس بل قال سقراط أنّ كرسي انطاكية استمر ثماني سنين دون بطرك. فردّ له قوله فالسيوس في حواشيه على تاريخه. أما افرونيوس فاختاره الاريوسيون بعد أن تمنّع اوسابيوس عن قبوله نقله إلى انطاكية. وقال فيه توادوريطوس في المحل المذكور، فأقام الاريوسيون افرونيوس لكنه توفي بعد سنة وبعض أشهر من ارتقائه إلى هذا الكرسي، وذكره سقراط (في ك ١ من تاريخه فصل ٢٤ ثم في ك ٢ فصل ٩). وقال فيه سوزومانوس (ك ٢ فصل ١٩) ولما علم الملك (قسطنطين) أنّ افرونيوس أحد كهنة الكبادوك وجيورجيوس كاهن ارتوسيا معروفان بصحة عقيدتهما أمر أن يرقوا إلى كرسي انطاكية أحد هذين الكاهنين أو غيرهما ممن يرونه أهلاً، فاختاروا افرونيوس ورقّوه إلى أسقفية انطاكية. ويظهر أنّ افرونيوس توفي سنة ٣٣٣م فاتنخب الاريوسيون بلاشلوس (وسماه توادوريطوس فلاشوس) بعد وفاة افرونيوس سنة ٣٣٣م على الراجح إذ نراه شهد مجمع صور سنة ٣٣٥، وحاول مع الاريوسيين الحكم على القديس اثناسيوس وأساقفة مصر. وقد ذكره توادوريطوس في المحل المذكور، وقال إنّ هؤلاء الاساقفة كانوا متلطخين بغواية اريوس لكنهم لم يكونوا يجاهرون بها، ولذلك كان كثيرون من الاكليروس والعامة يأبون الاشتراك معهم ويعلمون فروضهم الدينية على انفراد.

وروى سوزومانوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٥) إنّ بلاشيوس رأس المجمع الذي عُقد في انطاكية في أيام قسطنس الملك ودشّن كنيسة انطاكية وحكم على القديس اثناسيوس ثانية. وروى لكويان (في المشرق المسيحي) إنه كان من جملة الاساقفة الذين دشنوا في أورشليم كنيسة القيامة التي كان الملك قسطنطين قد بناها. وعن نيكوفورس وتوافان انه استمر في البطريركية اثنتي عشرة سنة بدؤها سنة ٣٣٣م.

وخلفه اسطفانوس انتخبه الاريوسيون بعد وفاة بلاشيلوس، مع أنه كان قد حُطّ عن درجة الكهنوت لرذائله، ولم يكن اوسطاتيوس ليرضى برده إليها. وقد دُعي إلى مجمع عُقد في سرديكا (وهي المسماة اليوم صوفيا قصبة البلغاريين) لنبذ ضلال الاريوسيين. فانحاز عن المجمع مع الاساقفة اشياع اوسابيوس أسقف نيكوميدية (اسميد) في فيلولوبولي، ووقّعوا على رسالة يخالفون فيها هذا المجمع. على أنّ هؤلاء الاساقفة الاوسابيين أنفسهم خلعوه بعد ثلاث سنين من بطريركيته. وقد أنبأنا بذلك توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٩) حيث ذكر بعض فظائع وقعت في انطاكية، منها أنّ اوناجر الرئيس على فصيلة من الجند استدعى امرأة إلى نزل الاسقف اوفراتاس وأدخلها إلى مخدعه وهو نائم. واستدعى صحبه لتقريع الاسقف وإقامة الشكوى عليه. ولدى البحث في حضرة القضاة أقرّت المرأة بما كان معها ولم ينكر اوناجر فعلته، وأثبت اسطفانوس بعثه عليها. وقد ذكر هذا الخبر ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية مسمياً الشاب المذكور افاغريوس فافتضحت جريمة اسطفانوس ومكيدته، وحطّه الاساقفة من مقامه وطردوه من الكنيسة. وعن نيكوفورس وتوافان انه استمر في البطريركية ثلاث سنين ثم خُلع منها سنة ٣٤٨م.

واختار الاساقفة الاريوسيون لاونتيوس خلفاً له، فكان على شاكلته أو شراً منه. فقد روى سقراط (ك ٢ فصل ١٦) «انه لما كان كاهناً حُطّ عن درجته لولوعه بمعاشرة امرأة اسمها اسطوليا وقد خصى نفسه بغية أن ينفي عن ريبة الفحش معها ويثابر على معاشرتها دون ظنة. ورغب الملك قسطنس بعد ذلك أن يرقي إلى أسقفية انطاكية فرقى إليها بعد وفاة اسطفانوس». وذكر توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٩) هذه الشائبة فيه وأردفها بتعداد غيرها من مساوئه وفساد تعليمه. وعن لكويان (في المشرق المسيحي) إنه قضى سنة ٣٥٧م.

ولما بلغ اودكسيوس أسقف مرعش نعي لاونتيوس هبّ إلى انطاكية وتغلّب على كرسيها سنداً إلى تأييد بعض حاشية الملك له. ولكن ناصبه جيورجيوس أسقف اللاذقية ومرقس أسقف ارتوسيا (التي كان موقعها عند مصبّ نهر البارد، رنان في بعثة فينيقية). وكان جيورجيوس ومرقس من أشهر أساقفة سورية في تلك الايام، وتابعهم على مناصبته كثيرون من الاساقفة فلم يرتضوا أن يرقوه إلى الكرسي البطريركي. ومع ذلك عقد مجمعاً في انطاكية مع محازبيه من الاساقفة وكان منهم اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين، واورانيوس أسقف صور، ونبذوا أن يقال في الابن أن مساوٍ للآب جوهراً كما حتّم المجمع النيقوي (وفي حواشي فالسيوس أنّ هذا المجمع عُقد سنة ٣٥٧م وعن بارونيوس أنّ عقده كان سنة ٣٥٦م). وكتب جيورجيوس أسقف اللاذقية رسالة مشبعة إلى القديس باسيليوس وغيره يبيّن بها مساوئ اوكسيوس وضلاله، وطرد اودكسيوس من انطاكية كثيرين من الاساقفة المقاومين له، فاجتمعوا في انكوره ورفعوا عريضة إلى الملك قسطنس يشكون اودكسيوس فيها. فأجابهم برسالة اثبتها سوزومانوس (في ك ٤ من تاريخه فصل ١٤) ومن فحواها أن لا يصدقوا قول اودكسيوس أنّ الملك أرسله إلى انطاكية، وأنه يأمر بطرده منها مع المتشيعين له، وأن يعقد مجمع في نيقية لتقرير أمور الايمان. وكان من دسائس الاريوسيين أن يعقدوا مجمعاً ثانياً في نيقية ينقض ما سنّه المجمع الاول فيها. فأبطل الله مكيدتهم إذ حدث زلزال في هذه المدينة روّع الاساقفة المجتمعين فيها فانصرفوا كلٌ إلى بلده. ثم عُقد المجمع في سلوقية بايسوريا فعُزل اودكسيوس بأكثرية أصوات الاساقفة (سوزومانوس في الكتاب المذكور فصل ١٢ و ١٣ و ١٤ وسقراط ك ٢ من تاريخه فصل ٣٧ و ٤٠ وتوادوريطوس ك ٢ فصل ٢٠ و ٢١ و ٢٢) ولم يقم في بطريركية انطاكية إلّا سنتين على أنه عندما عزل مكدونيوس من كرسي القسطنطينية تغلّب اودكسيوس بامداد الاساقفة الاريوسيين على هذا الكرسي (توادوريطوس وسقراط في المحال المذكورة). وقد جاء في الكرونيكون الاسكندري في تاريخ سنة ٣٦٠م وفي هذه السنة في ١٥ شباط كرّست الكنيسة الكبرى في القسطنطينية (اجيا صوفيا التي كان الملك قسطنطين قد بدأ في بنائها). وخُلع مكونيوس أسقف هذه المدينة عن كرسيه لجرائمه الكثيرة. وأُقيم مكانه اودكسيوس في ٢٧ حزيرن بحضرة ٧٢ أسقفاً» إلى أن توفي في أيام الملك والتنتيان الثاني بعد أن استوى على الكرسي

القسطنطيني تسع عشرة سنة (سقراط ك ٤ فصل ١٤) فتكون وفاته نحو سنة ٣٨٨م.

قد انتخب الاساقفة الكاثوليكيون انانيوس بعد عزلهم اودكسيوس في مجمع سلوقية. وكان من كهنة كنيسة انطاكية، ولكن قاومه تباع اكاشيوس الاريوسيون وسلموه إلى مفوضي الملك في المجمع، فأمسكاه مخفوراً ثم أرسلاه إلى المنفى على ما روى سقراط (ك ٢ فصل ٤٠) وسوزومانوس (ك ٤ فصل ٢٢). وقد ذكر ابن العبري (مجلد ١ من تاريخه في بطاركة انطاكية) هؤلاء البطاركة الاريوسيين كما ذكرناهم، وأسقط منهم انانيوس لأنه لم يتمكن من تدبير هذا الكرسي لما مرّ من نفيه كما قال ابلوس ولامي مترجما تاريخ ابن العبري إلى اللاتينية في حواشيهما عليه. وعن لكويان (في المشرق المسيحي) أنّ نيكوفورس وتوافان عداه من بطاركة انطاكية، وقالا إنه استمر في البطريركية أربع سنين.

وبعد نفي انانيوس انتخب الاساقفة الاريوسيون والكاثوليكيون معاً القديس ملاتيوس. وقد أنبأنا توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٢٧) إنّ قسطنس الملك بعد عوده من حرب الفرس أتى إلى انطاكية ودعا الاساقفة إليه للمذاكرة بعقائد الدين، فسأله بعضهم أن يقام اولاً أسقف على كرسي انطاكية إذ لم يكن ثمّ أسقف بعد نفي انانيوس. وكان ملاتيوس أسقفاً على مدينة في أرمينيا (هي سبسطية) فساءته غلاظة أطباع أهلها وعدم امتثالهم أوامره فتركهم وأقام في محل آخر. وكان الاريوسيون يظنونه مشايعاً لهم فسألوا الملك أن يقام اسقفاً على انطاكية، وكان الكاثوليكيون على يقين من صحة عقيدته وسمو فضيلته، فاستدعاه الملك وخرج للقياه الاساقفة والكهنة والاعيان بل اليهود والوثنيون أيضاً. وكلّف الملك ملاتيوس وغيره من الاساقفة أن يخطبوا في الشعب مبيّنين عقائد الدين، فكان لخطبة ملاتيوس أحسن وقع في النفوس. وسأله الشعب أخيراً أن يوجز ما أسهب في خطبته فأشار بثلاث أصابع ثم طوى اصبعين وترك الثالثة منبسطة وقال نعتقد بثلاثة ونقرّ بأنهم واحد. فامتعض منه الاريوسيون لمخالفته تعليمهم وتصدّوا لمقاومته حتى نفوه إلى ارمينيا. وكذلك روى سقراط (في ك ٢ من تاريخه فصل ٤٤)، لكنه زعم أنّ ملاتيوس بعد أن ترك اسقفية سبسطية في ارمينيا صار أسقفاً على حلب، ومنها نُقل إلى كرسي انطاكية فتعقبه فالسيوس في حواشيه قائلاً إنّ هذا يعسر تصديقه لأنّ توادوريطوس وسوزومانوس وقبلهما ايرونيمس رووا أنه نُقل من

ارمينيا إلى كرسي انطاكية ولم يأتوا بذكر حلب. فقد يكون أنه بعد تركه سبسطية أقام في حلب، ولكنه لم يدبر كنيستها. وقد خطّأ بارونيوس سقراط في روايته هذه (في تاريخ سنة ٣٦٠م) وظن أنّ ملاتيوس كان اولاً أسقفاً في حلب ثم في سبسطية ثم في انطاكية. قال فالسيوس ولا أرى ظن بارونيوس صحيحاً إذ لم يذكره توادوريطوس ولا سوزومانوس.

أما الاريوسيون فأقاموا بعد نفي ملاتيوس اوزايوس أسقفاً على انطاكية، وكان اوزايوس هذا من أخصّ المشايعين لاريوس وحُطّا معاً عن درجتهما. وجاهر ببدعته بعد أن تسنّم الكرسي الانطاكي فاضطر تباع ملاتيوس أن يفصلوا عن الاريوسيين ويجانبوا الاجتماع معهم في الكنائس ولم يكونوا قبلاً يعاملونهم كذلك لعدم مجاهرتهم ببدعتهم ولأنّ ملاتيوس رقاه الاساقفة الاريوسيون والكاثوليكيون معاً إلى الاسقفية، فانقسم سكان انطاكية إلى فرقتين، وإن كان الشعب على وفاق في عقيدة الايمان (سقراط ك ٢ فصل ٤٤ وسوزومانوس ك ٤ فصل ٢٨ وتوادوريطوس ك ٢ فصل ٢٧) وعلى خلاف في التشيّع لرؤسائهم. وتوفي الملك قسطنس سنة ٣٦١م وخلفه الملك يوليانس الجاحد. فرخّص للاساقفة المنفيين أن يعودوا إلى كراسيهم، فعاد ملاتيوس من منفاه فلم يتبعه إلّا محازبوه لداعي الانقسام المشار إليه. وكان يقيم الصلوات معهم ويوزع الاسرار عليهم في كنيسة باليا في خارج المدينة. وكان اوسابيوس من أساقفة ايطاليا، ولوشيفر من أساقفة سردينيا منفيين في الصعيد، ولما رخّص يوليانس للاساقفة المنفيين بالعود إلى كراسيهم مرّا في انطاكية وبذلا قصارى جهدهما في إزالة الخلاف فلم يتيسّر لهما أن يعيدا الوفاق بين تباع اوسطاتيوس وتباع ملاتيوس. وكان بولينوس الكاهن رئيس حزب اوسطاتيوس فرقّاه لوشيفر إلى الاسقفية كيلا يبقي مريدوه دون أسقف. فأمسى للكاثوليكيين أسقفان هما ملاتيوس وبولينوس. واستمر هذا الخلاف منذ بدئه في أيام اوسطاتيوس إلى نهايته في أيام اسكندر الآتي ذكره خمساً وثمانين سنة.

وقد سعى الاريوسيون بملاتيوس لدى الملك والنس فنفاه ثانيةً إلى ارمينيا سنة ٣٧٠م ولم يعد إلى كرسيه في انطاكية إلّا في أيام غراسيان سنة ٣٧٨م (توادوريطوس ك ٣ فصل ٢ وسقراط ك ٥ فصل ٥) ونشأ حينئذٍ في انطاكية حزب ثالث لابولينار اللاذقي الذي كان يزعم أنّ المسيح أتى بجسده من السماء ولم يأخذ نفساً بشرية. وفي تلك الاثناء أرسل الملك غراسيان معلم جيشه المسمى

سابور إلى انطاكية رغبةً في تدبير شؤونها والتوفيق بين أهلها على الكنائس وغيرها، وفي إذاعة منشوره المار ذكره (في الكلام عليه). وكان بولينوس يدّعي أنه محافظ على الايمان الروماني، وابولينار يدّعي كذلك، وملاتيوس صامت يزدري دعواهما. فنهض افلابيانوس أحد كهنة انطاكية وقال لبولينوس «إذا كنت تشترك مع داماسوس الحبر الروماني فاعترف بأنّ للثالوث ذاتاً واحدة وثلاثة أقانيم وخذ الكنائس». ثم التفت إلى ابولينار وقال: «أنت تعلم يقيناً أنّ داماسوس يعلم بأن الاله الكلمة أخذ الطبع البشري كاملاً وأنت تزعم أنه لم يأخذ نفساً، فإن كانت الشكوى كاذبة فاعترف اليوم بتعليم حبر روما وخذ الكنائس». وقال ملاتيوس لبولينوس متلطفاً (إذا كانت رعيتنا تعتقد إيماناً واحداً فلنجتمع في حظيرة واحدة، وإن كان الكرسي الاسقفي علّة خلافنا فلنضع الإنجيل المقدّس في الوسط ويجلس كلٌّ منا في جانب في مقدمة مصاف الكهنة، ومن بقي منا حياً بعد وفاة الآخر تولّى تدبير الرعية». فرضيَ مريدو ملاتيوس هذا التوفيق وأبى بولينوس وذووه أن يرضوه شريكاً له موردين حججاً باطلة. فحكم سابور مفوض الملك بعد أن تدبّر الامر بتسليم الكنائس إلى ملاتيوس. هذا ما رواه تودوريطوس (في ك ٥ من تاريخه فصل ٣) على أنّ القديس امبروسيوس الذي كان معاصراً هذه الاحداث صرّح (في رسالته ١٣) في المجمع الذي عُقد في ايطاليا بأنّ الاساقفة أصحاب بولينوس في المغرب اقترحوا عليه هذا الوجه للتوفيق. وروى سقراط (ك ٥ فصل ٥ وسوزومانوس ك ٧ فصل ٣) أنّ أصحاب بولينوس حملوه على التسليم بطريقة التوفيق المذكورة. وأقسم ستة من الكهنة الذين كانوا أهلاً للاسقفية عل أنهم يخضعون لمن يبقى حياً من الاسقفين، ولا يرضى أحد منهم أن يرتقي إلى الاسقفية في مكان الميت منهما، واتفق على ذلك الشعبان.

وفي سنة ٣٧٩م عُقد مجمع في انطاكية وقّع فيه ملاتيوس واوسابيوس أسقف سميساط وكثيرون من الاساقفة الشرقيين على دستور ايمان كان البابا داماسوس قد أرسله إليهم مصرّحاً فيه بمساواة الابن للآب جوهراً، وبلاهوت الروح القدس. ونبذ ضلال ابولينار اللاذقي. وفي سنة ٣٨١م مضى ملاتيوس إلى القسطنطينية ليشهد المجمع الذي عُقد فيها السنة المذكورة. فاعتراه هناك مرض عضال أدّى به إلى الموت. وابّنه القديس غريغوريوس النيصصي أخو القديس باسيليوس، ونقل ذووه جثته إلى انطاكية ودُفنت في جانب مدفن بابيلا الشهيد. ويقال إنّ الناس كانوا

يخرجون بمقتضى أمر الملك خارج كل مدينة مرّت الجنازة بها مرنمين بالتسابيح والمزامير ويدخلون نعشه المدن خلافاً لعادة الرومانيين (سقراط ك ٥ فصل ٩ وسوزومانوس ك ٧ فصل ١٠) وكنيسة الروم تعيّد لذكره في ١٢ شباط.

على أنّ أتباع ملاتيوس أبوا بعد وفاته الطاعة لبولينوس وأقاموا افلابيانس أحد كهنة ملاتيوس مكانه. ورقاه إلى الاسقفية ديودوروس أسقف ترسيس، واكاشيوس أسقف حلب، فعاد الانقسام إلى كنيسة انطاكية، لا من جهة الايمان بل من جهة التشيع للرؤساء. فانفصل كثيرون عن الاشتراك مع افلابيانس (سقراط ك ٥ فصل ٩) بل اتّسع نطاق هذا الخلاف. فإنّ الاساقفة المصريين والعرب والقبرصيين كانوا يؤيدون جانب بولينوس، وأساقفة سورية وفلسطين وفينيقية والكبادوك وغلاطية وبنطوس يناصرون افلابيانس. وأما الحبر الروماني وسائر أساقفة المغرب فاستاءوا من ترقية افلابيانس خلافاً لشرائط الاتفاق، وأنفذوا رسائلهم إلى بولينوس منزلينه منزلة بطريرك انطاكي. ولم يشاءوا أن يكاتبوا افلابيانس بل تمنّع ديودوروس واكاشيوس الاسقفان اللذان رقياه إلى الاسقفية من المخالطة له (سوزومانوس ك ٧ فصل ١١). واجتمع الاساقفة الشرقيون في القسطنطينية وقضوا بصحّة ترقية افلابيانس. وتوفي افلابيانس سنة ٣٨٨م ومابرح الخلاف في انطاكية لأنّ بولينوس لما شعر بدنو المنية اختار افاغريوس خليفة له. وقيل إنه رقاه وحده دون أن يشاركه في ذلك أسقف آخر خلافاً لقانون الكنيسة.ومع ذلك تشبث بالطاعة له محازبو بولينوس. وحضر افاغريوس مجمعاً عُقد في كابوا (بايطاليا) سنة ٣٩٠م عازماً أن يقيم دعواه على افلابيانس إن حضر المجمع فلم يحضر. وقد قبِل الحبر الروماني وأساقفة المغرب افاغريوس في شركتهم لكنه توفي سنة ٣٩٢م واستمرّ أساقفة المغرب يقاومون افلابيانس فاستقدمه توادوسيوس ليرسله إلى روما. فقال: «مولاي إن وقعت لمخالفيّ شبهة في صحة ايماني أو ظنّة بما يعيب سيرتي الكهنوتية فاقبل أن يكون الشاكون لي قضاة في دعواي وأذعن لحكمهم، وإن نازعوني الكرسي الاسقفي فلا أنازعهم إياه ولا أعارض من يهواه، بل اتخلّى عنه، فاعطه من شئت. فأعجب الملك كلامه وأمره أو يعود إلى انطاكية لتدبير كنيسته. ومضى الملك توادوسيوس إلى روما وأرسل افلابيانس إليها جملة من الاساقفة والكهنة وانشمامسة الانطاكيين، وفي مقدمتهم اكاشيوس أسقف حلب الشهير. فاسترضوا الحبر الرومامي بوساطة الملك أيضاً عن افلابيانس. وعاد السلم إلى الكنيسة وعمّ الوفاق أساقفة مصر أيضاً بعد أن

استمرّ الخلاف سبع عشرة سنة (رواه تودوريطوس ك ٥ فصل ٢٧) وذكره ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية. وروى بلاديوس في ترجمة فم الذهب أنّ هذا القديس أصلح بين افلابيانس وأساقفة المغرب ومصر وقبله في شركته وشركة الكنيسة الرومانية. وبعد أن قضى افلابيانس ٢٣ سنة في تدبير رعيته أدركته الوفاة سنة ٤٠٤م. وقد رأيت ما كان من وفادته إلى الملك توادوسيوس وخطبته بحضرته ليستعطفه على العفو عن الانطاكيين بعد ثورتهم. ولم يذكر افاغريوس خلفاً له. واوزايوس الاسقف الاريوسي قد حرمه المجمع القسطنطيني وحطّه عن مقامه على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية، وبعد وفاته انتخب الاريوسيون دوروتاوس (سقراط ك ٤ فصل ٣٥).

عد ٥٧٦
بطاركة أورشليم في القرن الرابع

إنّ آخر من ذكرناهم من بطاركة أورشليم في القرن الثالث إنما هو زبدي، فهذا خلفه هرمون، وقال فيه اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢): «إنه كان الاخير ممن امتطوا كرسي يعقوب الرسول المحفوظ إلى الآن في أورشليم قبل الاضطهاد الذي صار في أيامنا»، أي اضطهاد ديوكلتيان. والذي وجدناه في الكرونيكون أنه ارتقى إلى كرسي أورشليم في سنة ٣٠٦م، وإنّ مكاريوس خلفه سنة ٣١٨ وهي الثامنة لقسطنطين الملك. فتكون مدة بطريركيته ١٢ سنة. وروى لكويان (في مجلد ٢ من المشرق المسيحي في بطاركة أورشليم) عن نيكوفوروس وتوافان إنه استمر في البطريركية تسع سنين وإنه يعيّد لذكره فيميناون الروم في ٧ آذار، ويقال إنه أرسل أساقفة إلى أمم كثيرة.

وخلف هرمون بعد وفاته القديس مكاريوس سنة ٣١٨م على ما في الكرونيكون كما مرّ. وعن هذا الكتاب في طبعة سكاليجر أنه توفي سنة ٣٢٥ أو سنة ٣٢٦م، وسترى ما يخالف هذا القول. وقد عدّه اريوس في رسالته إلى اوسابيوس أسقف نيكوميدية من جملة خصومه. وترى هذه الرسالة مثبتة في تاريخ توادوريطوس (ك ١ فصل ٤). وكان مكاريوس من جملة الآباء الذين التأموا في

المجمع النيقوي (سوزومانوس ك ١ فصل ١٧). وفي أيامه أتت الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين الكبير إلى أورشليم وكشفت عن آلات آلام المخلّص سنة ٣٢٦ أو سنة ٣٢٧م، وقد عاونها مكاريوس في الكشف عن هذا الكنز الثمين. وقد أنفذ إليه الملك قسطنطين الكبير رسالة ضمّنها شكره العظيم لله على هذه الآية، وعزمه أن يبني كنيسة على مدفن المخلّص تفوق كل ما سواها من الكنائس. ويكل إليه النظر في اختيار أجود الاعمدة والرخام اللازم لذلك. وقد أثبت هذه الرسالة برمّتها تواودوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ١٦)، واوسابيوس القيصري في ترجمة قسطنطين (ك ٣ فصل ٣٠ و ٣١ و ٣٢). ويظهر أنّ مكاريوس توفي سنة ٣٣١م، ومكسيموس خليفته شهد المجمع الذي عُقد في صور سنة ٣٣٥م ويعيّد له في السنكسار الروماني في ١٠ آذار. ولا ذكر له في ميناون الروم (لكويان مجلد ٢ من المشرق المسيحي في بطاركة أورشليم).

وخلف القديس مكاريوس بعد وفاته القديس مكسيموس الثاني، وقال فيه سوزومانوس (ك ٢ فصل ٢٠) ما ملخصه: «إنّ مكاريوس رقى مكسيموس إلى أسقفية ديوسبولي (وهي اللدّ) لكن أهل أورشليم أمسكوه عندهم لما عُرف به من الفضل والعلم، وأضمروا أن يخلف مكاريوس بعد وفاته، وشقّ عليهم أن يغادرهم رجل خبروا فضيلته، ويتعرّضوا بعده للخلاف في انتخاب أسقف لهم، فالاولى أن يعاون مكاريوس في حياته ويخلفه بعد موته. ومن دققوا في الخبر رأوا أنّ مكاريوس ندم على ترقيته مكسيموس إلى أسقفية اللدّ. وآثر امساكه لديه كلفاً باخلاص خدمته وغيرته على الدين القويم، وخيفة أن يختار الاساقفة الاريوسيون بعده من كان مشايعاً لهم. فخلفه كما أحب سنة ٣٣١م. وروى لكويان (في المشرق المسيحي عن تواودوريطوس ك ٢ فصل ٢٦) إنّ مكسيموس فُقئت عينه وقُطعت ابهامه اليمنى لانتصاره للدين القويم. وقال سوزومانوس (ك ٢ فصل ٢٥) إنّ مكسيموس شهد ٣٣٥م مجمع صور الذي عقده الاريوسيون ليحكموا على القديس اثناسيوس بالعزل عن كرسيه. ولما رأى بفنوتيوس تحاملهم على القديس اثناسيوس أمسك مكسيموس بيده وأنهضه قائلاً هلمّ نذهب فلا يليق بنا فقد فُقئت عينانا وقُطعت ابهامنا حباً بالايمان أن نجالس مثل هؤلاء الاشرار المارقين. على أنّ سوزومانوس روى (ك ٣ فصل ٦) أنّ مكسيموس خدعه الاريوسيون في مجمع صور فمالأهم على حطّ اثناسيوس وكذلك قال سقراط (ك ٢ فصل ٨). ولكن روى بعضهم قوله بمعنى أنّ الاريوسيين ضيّقوا عليه ليمالئهم على

حطّه. ولذلك لم يحضر إلى مجمع انطاكية الذي عقدوه بعد ذلك لندامته على ما فرط منه في ممالأة الاريوسيين. على ما قال المؤلفان المذكوران أو لتحاشيه عن مضايقتهم على القول الثاني. وأنبأنا القديس اثناسيوس (في محاماته ٢) إنه بعد عوده من مجمع سرديكا (صوفيا) سنة ٣٤٧م عقد مجمعاً في فلسطين ودعا مكسيموس إليه. فوقّع قبل الجميع على الرسالة التي أنفذها هذا المجمع إلى أساقفة افريقيا. وزعم بعض المؤرخين أنّ الاريوسيين خلعوا مكسيموس من أسقفيته سنة ٣٤٩ أو سنة ٣٥٠م وأقاموا مكانه كيرلس الآتي ذكره. ولم يذكر القديس ايرونيموس في الكرونيكون هذا الخلع بل كل ما قاله في تاريخ سنة ٣٥٣م: «مات مكسيموس خليفة مكاريوس في الكرسي الأورشليمي وتغلّب بعد ذلك الاريوسيون على هذه الكنيسة فقام كيرلس واوطيخوس ثم كيرلس ثانية ثم ايرانيوس وبعده كيرلس مرة ثالثة ثم ايلاريون ومن بعده كيرلس مرة رابعة.

إنّ القديس كيرلس وُلد في أورشليم سنة ٣٥١م ورُقّي إلى كرسي بطريركية أورشليم سنة ٣٥١م على الراجح. وقد اشتُبه اولاً بصحة عقيدته لترقية اكاشيوس أسقف قيصرية الاريوسي له إلى الاسقفية. وقد أثنى توادوريطوس على كيرلس ودعاه المحامي الباسل عن التعليم الرسولي. ومهما يكن من أمر ترقيته إلى الاسقفية فقد محا وصمة الشبهة بمناصبته للاريوسيين ومغالبته لهم، حتى نفوه ثلاث مرات. وعاد من منفاه غالباً موقراً، ويرجح استواؤه على الكرسي البطريركية سنة ٣٥١م، ورفع هذه السنة في شهر أيار رسالة إلى الملك قسطنس قال له فيها أنها أول رسالة كتبها، وأنبأه بآية جرت في أورشليم في ٧ أيار من تلك السنة، وهي أنه ظهر نور باهر أكثر بهاء من نور الشمس، واستمر أياماً ممتداً من كنيسة القيامة إلى جبل الزيتون. وقد رآه كل من كانوا في أورشليم من المؤمنين واليهود والوثنيين ذكوراً وإناثاً. وتسارعوا إلى الكنيسة المذكورة مدهوشين من هذه الآية، وقد آمن حينئذٍ كثيرون. وذكر أيضاً هذه الآية سوزومانوس (ك ٤ فصل ٥) والكرونيكون الاسكندري صفحة ٢٩٢ (على ما روى لكويان في المشرق المسيحي في ترجمة هذا البطريرك)، وآخرون كثيرون. وفي سنة ٣٥٧م تحامل اكاشيوس أسقف قيصرية على القديس كيرلس وعني بحطّه ونفيه لاسباب منها أنّ كيرلس بعد ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي ادعى على اكاشيوس أسقف قيصرية أنّ له حق التقدّم عليه لأنه خليفة يعقوب الرسول. فاستاء اكاشيوس من ذلك لأنّ التقدّم كان قبلاً

لأسقف قيصرية، وأخذ يختلق تهماً على القديس كيرلس. وحصلت حينئذٍ مجاعة في فلسطين فأنفق كيرلس كل ما كان يملكه على المعوزين، حتى باع بعض آنية الكنيسة ومنذوراتها، ووُجدت بغيٍّ متّشحة بحلّة من هذه المنذورات فاتّهم كيرلس بأنه وهبها لها. ولدى البحث عن ذلك أقرّت المرأة بأنها ابتاعت الحلّة من التاجر، وأقرّ التاجر بأنه شراها من الاسقف، ومع ذلك تيسّر لاكاشيوس أن يعزل كيرلس متذرعاً بمثل هذه التهم (روى ذلك سوزومانوس ك ٤ فصل ٢٥)، وأقام الاريوسيون مكانه كاهناً اسمه اوطيخوس أو اوطاخى.

ثم عُقد مجمع في سلوقية بايسورية سنة ٣٥٩م شهده كيرلس واستأنف دعواه على اكاشيوس، فدُعي هذا مراراً وأبى الحضور فحكم المجمع عليه بالعزل (سقراط ك ٢ فصل ٤٠). ويظهر أنّ كيرلس عاد حينئذٍ إلى كرسيه ولكن إلى مدة وجيزة لأنّ اكاشيوس أغرى الملك قسطنس بعقد مجمع في القسطنطينية، وشايعه كثير من الاساقفة فعزلوا كيرلس سنة ٣٦٠م (سقراط ك ٢ فصل ٤٢ وسوزومانوس ك ٤ فصل ٣٠) وأقام الاريوسيون مكانه ايرانيوس الذي مرّ ذكره في كلام ايرونيموس كأنّ اوطاخى كان قد توفي. ولما مات قسطنس وخلفه يوليانس الجاحد وأمر بعود الاساقفة المنفيين إلى كراسيهم، رجع كيرلس إلى كرسيه في سنة ٣٦٢م لأنه يظهر أنه كان في أورشليم لما أخذ يوليانس يجدّد الهيكل. إذ روى روفينوس (ك ١ من تاريخه فصل ٣٧) أنّ كيرلس قال حينئذٍ يستحيل على اليهود مهما جدّوا أن يضعوا حجراً على حجر في الهيكل، فخرجت نار ومنعتهم عن العمل. ومات اكاشيوس سنة ٣٦٥م ولم ينكفّ الاريوسيين عن اضطهاد كيرلس، فإنهم سعوا لدى الملك والنس فأذاع أمراً فحواه أنّ الاساقفة الذين عُزلوا في أيام الملك قسطنس ورُدّوا إلى كراسيهم على عهد الملك يوليانس يلزم عزلهم ثانيةً. وبمقتضى هذا الامر عُزل كيرلس للمرة الثالثة، وأقام الاريوسيين مكانه ايلاريون كما رأيت في كلام القديس ايرونيموس، وكما يظهر في كلام ابيفان في بدعة ٦٦. ولم يعد كيرلس إلى كرسيه إلّا بعد وفاة والنس الملك سنة ٣٧٨ أو سنة ٣٧٩م على ما روى سقراط (ك ٥ فصل ٣). وقد شهد كيرلس المجمع القسطنطيني المسكوني سنة ٣٨١م (توادوريطوس ك ٥ فصل ٨). وقال سوزومانوس (ك ٤ فصل ٣٠): «انه بعد عزل كيرلس خلفه من الاساقفة الاريوسيين ايرانيوس، وهذا خلفه هرقل ثم خلف ايلاريون هرقل على ما اتصل بنا». وتعقبه فالسيوس في حواشيه قائلاً: «إنّ

هرقل هذا كان القديس مكسيموس قد عيّنه عند وفاته خليفة له، ولكن جنح الاريوسيون إلى كيرلس وانتدبوه بطريركاً واحتالوا بمكرهم على هرقل حتى ترك الاسقفية وعاد كاهناً كما قال ايرونيموس في الكرونيكون». وهذه عبارة ايرونيموس في الكرونيكون: «ومن شرّ الاريوسيين أنهم زيّنوا بحلى عديدة لهرقل الذي كان مكسيموس قد أقامه عند احتضاره خلفاً له أن يترك الاسقفية ويعود كاهناً».

وقد أدركت المنية كيرلس سنة ٣٨٦ أو سنة ٣٨٧م ويعيّد لذكره في الكنيسة اللاتينية في ١٨ آذار: وأخصّ تآليفه كتبه في التعاليم وهي منقسمة إلى ٢٣ تعليماً حاوية شروحاً مشبعة في عقائد الايمان والتقليدات القديمة. وقد طُبعت مرات، وآخر طبعاتها عني بها الأب مين سنة ١٨٥٧ إلى سة ١٨٦٠م في مكتبة الآباء.

وخلف يوحنا الثاني كيرلس على ما روى سوزومانوس (ك ٧ فصل ١٤) وسقراط (ك ٥ فصل ١٥)، وكان راهباً وكاهناً في كنيسة أورشليم، وكان عمره عند ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي نحواً من ثلاثين سنة، وكان صديقاً لتاوفيلوس البطريرك الاسكندري. وعدّه القديسان ابيفان وايرونيموس من المغويين بضلال اوريجانس. وكان بينه وبين هذين القديسين جدال عنيف استمر من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٣٩٧م التي صالح فيها ايرونيموس. وقد انتصر يوحنا لدعوى يوحنا فم الذهب فكتب إليه رسالته الثامنة والثمانين سنة ٤٠٤م.

وقد خدعه بيلاجيوس سنة ٤١٥م في مجمع ديوسبولي (اللدّ) وخدع غيره من الاساقفة فأيّدوا بدعته. وأرسل إليه القديس اغوسطينوس كتابه في الطبيعة والنعمة ثم رسالته في بدعة بيلاجيوس وهي ٢٥٢ من رسائله. وسماه المؤرخون اسماء عديدة، ولقي ربه سنة ٤١٧م بعد أن قضى ثلاثين سنة في الاسقفية. وقد ذكره من الاحبار الرومانيين انسطاس وزوزيموس، ومن الآباء اغوسطينوس وبولينوس وفم الذهب وايرونيموس وتوادوريطوس. وكلامهم مؤذن بالتوقير له، ولم يعزُ إليه ايرونيموس وغيره إلّا كتاب محاوراته مع ابيفان وايرونيموس على ما روى تلمون في تاريخه، مجلد ٢ صفحة ٣٤٢. وقد لخصنا كل ذلك عن لكويان في المشرق المسيحي (مجلد ٢ في سلسلة بطاركة أورشليم).

الفصل الثاني

أساقفة سورية في القرن الرابع

عد ٥٧٧

اوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين

وُلد اوسابيوس نحو سنة ٢٧٠م وعشق العلوم مذ حداثته، وآخاه القديس بمفيل العالِم الشهير الذي كان أتقن العلوم في مدارس بيروت كما مرّ، حتى تسمى باسمه فيسمى اوسابيوس بمفيل. وربما زار بمرافقته النساك في مصر والصعيد، وترقى في مراتب الكهنوت حتى صار أسقفاً على قيصرية سنة ٣١٥م، وانكبّ على الاشتغال بالعلوم ولا سيما التاريخ حتى سُمّي أبا التاريخ الديني، كما سموا هيرودت أبا التاريخ القديم الدنيوي. وكان صديقاً حميماً للملك قسطنطين الكبير، وقد كتب ترجمته كما سيأتي. وكان من جملة الآباء الذين شهدوا مجمع نيقية سنة ٣٢٥م بل هو الذي أنشأ قانون الايمان الذي وضعه هذا المجمع ونقحه آباؤه، وزادوا عليه كلمات منها مساوٍ للآب في الجوهر كما هو بيّن من الرسالة التي كتبها اوسابيوس نفسه إلى أبناء ابرشيته من هذا المجمع. وقد ذكرها توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ١١ وسقراط ك ١ فصل ٨). وقد انتخبه بعض الاساقفة عند عزل اوسطاتيوس بطريرك انطاكية ليكون خليفة له، فتمنّع من قبول هذه البطريركية كما مرّ. وقد ذكر اوسابيوس هذا الخبر (ك ٣ من ترجمة قسطنطين الملك فصل ٦٠). وروى رسالة الملك إلى الاساقفة بهذا الشأن على أنه قد مالأ الاساقفة الاريوسيين في مجمع انطاكية على عزل القديس اوسطاتيوس عن كرسيه الانطاكي، وأغرى قسطنطين الملك بنفي القديس اثناسيوس وإعادة اريوس من منفاه في مجمعَي قيصرية وصور سنة ٣٣٥م، بل قد اتهمه بعضهم بأنه تابع الاريوسيين

على تعليمهم على أنّ تلك تهمة لم تثبت بدليل، ولعلّها نشأت من تباهي الاريوسيين به. وقد برّأه منها سقراط مفرداً لذلك فصلاً من تاريخه (ك ٢ فصل ٢١)، مورداً كثيراً من أقواله التي هي نصّ في تأييد العقيدة الكاثوليكية بألوهيّة الابن ومساواته للآب جوهراً، وفي نقض بدعة اريوس نقضاً بيّناً. ومثل ذلك فعل توادوريطوس إذ أفرد الفصل الحادي عشر من الكتاب الاول من تاريخه لايراد رسالة اوسابيوس من المجمع النيقوي إلى أبرشيته، مضمّناً إياها قانون الايمان الذي أنشأه والقانون الذي عوّل عليه آباء المجمع بعد اصلاحات لا أهمية لها (وسيأتي ذكر هذه الرسالة بين جملة تأليف اوسابيوس).

ورد في الفصل الثاني عشر من الكتاب المذكور مزاعم الاريوسيين بأقوال اوسابيوس نفسها، ومنها أنّ كلمة مساوٍ جوهراً لم يختلقها آباء هذا المجمع حينئذٍ لوصف الابن بل كانت قبلهم، وبالجملة قد كان اوسابيوس داهية عصره وأعلم علماء عصره وقد توفاه الله نحو سنة ٣٣٨م (عن السمعاني في المكتبة الشرقية عن دينسيوس في الكرونيكون سنة ٣٤٠م). وقد ألّف وصنّف كثيراً من الكتب التاريخية والدينية والعلمية، منها تاريخه الديني ضمّنه في عشرة كتب تكلّم فيها على الاحداث ومشاهير الرجال والمسائل الدينية من أيام المخلّص إلى السنة العشرين لقسطنطين الملك، وهي السنة ٣٢٦ للميلاد. ومنها ترجمة قسطنطين الملك تنطوي على أربعة كتب شرح فيها أعمال هذا الملك التقوية، وضمّنها مراسيمه وأوامره الدينية. وألحقه بكتاب خاص ضمّنه نصائح إلى جماعة القديسين أي الكنيسة. عزاها إلى هذا الملك يبيّن فيها بعض أسرار الدين المسيحي وعقائده في ستة وعشرين فصلاً. وأتبعها بمقالة في مدح قسطنطين الملك ذات ثمانية عشر فصلاً. وله كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي جمع فيه كل ما كان مقدمة وبرهاناً على مجيء المخلّص. ونشر إنجيله من الاسفار المقدّسة والآثار القديمة، ومن جملتها فقر سنكونياتون البيروتي. ومن تآليفه أيضاً الكرونيكون أي تاريخ السنين بدأ فيه من تاريخ خلق العالم إلى سنة ٣٣٠ للميلاد، متكلماً فيه في الآباء والملوك والمشاهير والاحداث الملهمة بايجاز إلى أيامه. وأصل هذا الكتاب اليوناني مفقود، والموجود الآن ترجمة لاتينية له وضعها القديس ايرونيموس ملحقاً به تاريخاً حذا به حذوه إلى سنة ٣٨٢م وهو مقسوم إلى كتابين. وله إيضاً مقالة في استشهاد القديس بمفيل ورفقائه مأخوذة عن كتبه في ترجمة هذا القديس. وقد صرّح اوسابيوس بأنه كتب

في هذه الترجمة ثلاثة كتب لكنها لم تصل إلينا. وهذه المقالة ملحقة ف
(مجلد ٢٠ من مكتبة الآباء اليونان). بكتبه في الملك قسطنطين.
كتاب في شهداء فلسطين ينطوي على ثلاثة عشر فصلاً نشره مير
المذكور من مكتبة الآباء المذكورة. وقد وُجدت أخيراً نسخة من هذا
المتحف البريطاني، وقد نُشرت مرات مكتوبة في السريانية وأكثر إسها
المعروف. وتضاربت الاقوال في هذه النسخة، وأصحّ ما رأيته في بعض
الاقوال في شأنها أنّ اوسابيوس كتب هذا الكتاب أولاً في السرياني
وأسهب المقال تعميراً لشعبه بمثال هؤلاء الشهداء. ثم ترجمه موجزاً
الكتاب الذي تتداوله أيدينا الآن. ونُشر له هناك أيضاً فقراً من كتاب
الاقدمين وعشرة شهداء مصريين ورسالتين، احداهما إلى أبناء أبرشيته
النيقوي، والثانية إلى الملكة قسطنسية. وله أيضاً تأليف في المدافعة عن
كتبه مشتركاً فيه مع القديس بمفيل. وقد أشار إلى ذلك في تاريخه ،
٣٦) إذ قال بعد أن عدّ مصنفاته: «وترى البيّنات القاطعة على ذلك
السادس من محاماته الذي كتبناه نحن للمدافعة عنه». فالتأليف المذكور
ستة كتب. وقال في محل آخر أنّ بمفيل شاركه في تأليف هذا الـ

ولاوسابيوس أيضاً كتب في جغرافية اليهودية ومواقع الاما
واسمائها. فقد قال القديس ايرونيموس في مقدمة كتابه في مواقع الاما
واسمائها ما ملخصه: «إنّ اوسابيوس بمفيل القيصري بعد العشرة الكتب
في التاريخ البيعي، وبعد الكرونيكون الذي ترجمناه إلى اللاتينية، وشر
التي كان العبرانيون يستعملونها، وبعد كتابته جغرافية اليهودية وتبيين ما
من الاسباط من أرضها، وشروحه عن أورشليم والهيكل، اعتكف على
في مواقع الاماكن العبرانية واسمائها ذاكراً فيه المدن والجبال والانهر
كانت اسماؤها، وما طرأ على بعضها من التغيير. فأحببنا ترجمة هذا ا
حاذين حذو الرجل العجيب في نظام كتابه».

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين اوسابيو
وعدّ له من التآليف بعض ما ذكرناه له، وزاد عليه كتاباً في حلّ الم
الإنجيل مع عشرة قوانين لتفسيره. وقال السمعاني (مجلد ٣ من المـ
صفحة ١٨ في شرح هذه القصيدة) يريد الصوباوي بهذه القوانين

اوسابيوس في رسالته إلى كبريانوس ، ولذا اعتادوا أن يعلقوا هذه القوانين على كتاب توفيق الاناجيل لامونيوس، ونراها معلقة بالسريانية والعربية على نسخ الاناجيل المتناهية في القدم. وذكرها ابن صليبا وابن العبري في مقدمتيهما على الاناجيل. وقال الصوباوي أيضاً أنّ لاوسابيوس كتاباً في تاريخ الشهداء الغربيين أي الشهداء في سورية وفلسطين ومصر. وقال السمعاني يعزو السريان إلى اوسابيوس مثل هذا الكتاب. وقد أُتي من عهد قريب إلى المكتبة الواتيكانية بكتاب سرياني حوى تاريخ كثير من الشهداء وعدّ منهم نحو ثمانين شهيداً. وقال أترك لغيري الحكم أاوسابيوس كتب أخبار كل هؤلاء الشهداء أم غيره؟ وقد رأيت في دير القديسة مريم في الاسقيط كتابين مشتملين على تراجم كثيرين من القديسين، ومن المؤكد أنّ كثيراً منها لا يمكن أن يعزى إلى اوسابيوس. وذكر الصوباوي أيضاً خطبة لاوسابيوس في احتباس المطر. وقال السمعاني فيها لم أرَ من عزاها من اليونان أو اللاتينيين إلى اوسابيوس.

عد ٥٧٨

اوسابيوس أسقف حمص

أنبأنا سقراط في تاريخه (ك ٢ فصل ٩) نقلاً عن جيورجيوس أسقف اللاذقية الذي أفرد كتاباً لترجمة اوسابيوس الحمصي وكان عشيراً له إنّ اوسابيوس هذا كان من أسرة شريفة من الرها. ومنذ حداثة سنه تعلّم الاسفار المقدّسة، حتى كان يقرأ فصولاً منها عن ظهر قلبه. وهذا كان دأب كثيرين من أهل الرها في تلك الايام. ثم انكبّ يدرس العلوم على أستاذٍ ماهر في مدينته. وأخذ تفسير الكتاب عن اوسابيوس أسقف قيصرية، وبتروفيل أسقف باسان. ثم أتى إلى انطاكية وكان حينئذٍ أنّ قورش أسقف حلب شكا القديس اوسطاتيوس بطريرك انطاكية بأنه مغوي بغواية سابيليوس. فعُزل وأُقيم مكانه افرونيوس كما مرّ. فعاش اوسابيوس معه متآلفين متوادّين. وعُرض عليه أن يرقى إلى درجة الكهنوت فأبى لاحتسابه نفسه غير أهل لهذا الشرف. ومضى إلى الاسكندرية فانصبّ على درس الفلسفة. ثم عاد إلى انطاكية فعاش مع بلاشلوس خليفة افرونيوس بسلام. وعقد حينئذٍ مجمع في انطاكية فرقاه اوسابيوس بطريرك القسطنطينية إلى درجة الكهنوت،

ورغب في أن يرسله إلى الاسكندرية لتدبير كنيستها في مدة اثناسيوس عنها متيقناً أنّ ما تجمّل به من القداسة، وما تفرّد به من المصريين ما كانوا يرونه من ذلك في القديس اثناسيوس. فأبى هذا حنق الاسكندريين عليه، فأرسل أسقفاً إلى حمص، ولكن ثار الشعـ اللاذقية فلقيَه جيورجيوس أسقفها صديقه بالترحاب. فأقام عنده مد انطاكية وأُعيد إلى كرسيه في حمص. فسعى به حسّاده أنه سابيليوس، ولكنه كان معززاً عند الملك قسطنس، وكان يستصـ وروى عنه جيورجيوس أسقف اللاذقية المذكور أنّ الله صنع على يـ انتهى كلام سقراط عن جيورجيوس اللاذقي. وروى مثل ذلك (ك ٣ فصل ٦) وعن السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ٣ ص اوسابيوس توفي في انطاكية سنة ٣٦٠م. وروى كثيرون منهم ولكويان في المشرق المسيحي وقبلهما القديس ايرونيموس في الكرو لقسطنس أنه كان اريوسياً بل من أقطاب الاريوسيين. وقا ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٩١): «اوسابيوس أسقف البلاغة والفصاحة ألّف كتباً تشذ عن العد كان لها أحسن الشعب. وانكبّ على التاريخ خاصة، وكان كل من أحب الخط بكل رغبة، وأخصّها كتبه الحاوية رده على اليهود والوثنيين واتب وعشرة أسفار في تفسير رسالة بولس إلى الغلاطيين. وله مقالا الاناجيل موجزة لكنها كثيرة. وقد اشتهر ومات في عهد قسطنس انطاكية». وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي أيضاً في قصيدته «اوسابيوس الحمصي ألّف كتاباً رداً على اليهود ومباحث في العهد اسطفانوس». وقال السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة المباحث في العهد القديم لم نرَ من عزاه إليه إلّا الصوباوي. و استشهد في مقالته في تجسد أحد أقانيم الثالوث، وتألمه بأقوا الحمصي مأخوذة عن كتابه في الايمان، وعن خطبته في التغييرات خطبته التي تلاها في بيروت. انتهى كلام السمعاني على أنّ المقالا الاناجيل وإن كانت معزوة فقد أنكر نطاليس اسكندر أن تكون له لاتيني سنداً لشهادة بعض الفقهاء، وإلى أنّ عبارتها نفسها مشعر

باللاتينية وباليونانية ولا أقل من أنّ خمسين مقالة من الباقي منها هي لمؤلف لاتيني على ما أثبت بارونيوس وبلرمينوس وغيرهما من المؤرخين.

عد ٥٧٩

القديس ابيفان أسقف سلمينا في قبرص

أنبأنا سوزومانوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٢) بأخبار ابيفان قائلاً إنه وُلد في قرية في ناحية بيت جبرين بفلسطين، وربي منذ حداثته في أديار النساك الذين نما عرف فضلهم في تلك الناحية. ثم مضى إلى مصر وأقام فيها طويلاً بين نساكها يقتبس منهم الفلسفة الرهبانية فمهر فيها. وكان عالماً بخمس لغات وهي اليونانية والعبرانية والسريانية والمصرية واللاتينية على ما روى القديس ايرونيموس في محاماته ٢ رداً على روفينوس. وانتشر صيت قداسته وعلمه في مصر وسورية وقبرص أيضاً. فانتخبه القبرصيون رئيس أساقفة لجزيرتهم، وكان كرسيه في قسطنسة المسماة سلمينا، فتضوعت تلك الارجاء بشذا فضيلته وانبثّ فضله في كل صقع. فإنّ تفانيه في خير رعيته وتساميه بالفضيلة والعلم لم يحتجبا وهو مقيم في فرضة بحرية كثُر ترداد الخاصة والعامة إليها. وأنبأنا سوزومانوس أيضاً (ك ٧ فصل ٢٧) أنه كان جواداً على المعوزين وأصحاب الفاقة حتى أنفق في هذا السبيل المبرور كل ما يملكه. وكان إذا نفذ ما بيده أنفق على الفقراء من مال كنيسته، وكانت كنيسته تتتالى التقادم إليها من كل صوب. وقد تيقّن الناس بأنه موزّع حكيم يجود بما وصل إلى يده في سبيله بحسب نيّة المحسن وطلبه. فكان كل ذي مبرات يرسل إليه ما يجب، وكثيرون يوصون عند احتضارهم لكنيسته بمبالغ من النقود أو بعقار. وقال المؤرخ المذكور أنّ الله شاء أن يصنع على يده آيات منها أنّ قيّم الكنيسة أتاه يوماً يلومه على فرط سخائه على الفقراء، وإنه لم يبقَ بيده ما ينفذ بإعطائه أوامره، فصرفه قائلاً إنّ الله لا يضنّ على إخوة المخلّص بما يسدّون فاقتهم. ومضى القيّم إلى مخدعه ففاجأه شخص يقلّ كيساً مملوءاً من النقود الذهبية، ولم يعلم القيّم من المعطي ولا من المرسل. ولما كان من خارق العادات أن يكتم المحسن تبرعه بمثل هذه الهبة الجزيلة قضى كل سامع أنّ هذه الهبة إن هي إلّا آية سماوية. ومنها أنّ ابيفان كان سائراً ذات يوم في طريقه فأبصره عن بعد متسولان، ولطمعهما في أن

يجزل عطاءه لهما جعل أحدهما نفسه ميتاً، ووقف الآخر بجانبه يبكي وي
صدقة لينفق على دفنه، فرحّم ابيفان على الميت ودفع إلى الحي ما ينفقه على
صاحبه. وقال له صبراً يا ابني فادفن ميتك وكفّ البكاء فهو لا يقوم الآن، وق
الله ما قضى، فتحمله بالتآسي. ومضى القديس في طريقه فقال الواقف للمضجع
فقد أحسنت وأجدت بتشخيصك فقد نجحت حيلتنا وتعال نقضِ يومنا فرحين.
يكن من يسمع فوخزه برجله وجرّه وصاح به فلم تكن حياة لمن ينادي. فسعى
اثر ابيفان باكياً، ولما أدركه خرّ على وجهه منتحباً آسفاً على ما تعمّداه من ا
سائلاً إياه أن يعيد صاحبه حياً. فصرفه القديس محرضاً له على الصبر ومحذراً
من المكر بالله وبأوليائه.

وقد زار القديس ابيفان أورشليم سنة ٣٩٤م وحلّ فيها ضيفاً على ي
أسقفها، وكان يوحنا ممن يجلّون اوريجانس وابيفان ممن يقلونه. ومضيا ذات
إلى بيت لحم فخطب ابيفان منددا بالاوريجانيين فساء ذلك يوحنا، ودرى اب
فأقام في دير بيت لحم وحرّض القديس ايرونيموس (الذي كان حينئذٍ في
الدير) الرهبان أن يخالفوا البطريرك في رأيه هذا. ثم رقى ابيفان يولينيان
القديس ايرونيموس إلى الشمامسيّة والكهنوت، فجاهر البطريرك بالشكوى من ـ
حرمة ولايته، فكتب إليه ابيفان رسالة طويلة يعتذر بها عن فعلته بعادتهم في قب
ويشير إلى أنّ ما ساء البطريرك لم يكن ترقيته يولينيان بل تنبيهه له إلى أن يَ
عن مدح اوريجانس، ويجانب أغلاطه التي حصرها في ثمانية رؤوس. فالبطريك
يجب على هذه الرسالة بل كتب محاماة عن أوريجانس رسالة أرسلها
توافيلوس الاسكندري الذي كان حينئذٍ ممن يجلّون اوريجانس.

وأنبأنا سقراط (ك ٦ من تاريخه فصل ١٠ وسوزومانوس ك ٨ فصل ١٤
يليه) إنّ أبيفان كان يشاحن توافيلوس البطريرك الاسكندري لانحرافه عن ـ
الايمان القويم بتعليمه أنّ لله هيئة وأعضاء بشرية. وكان تاوفيلوس مخاصماً لي
فم الذهب بطريرك القسطنطينية ويرغب في عزله عن كرسيه. وأراد أن يع
بابيفان على تنفيذ مأربه، فتزلّف إليه برسالة يبيّن بها عدوله عن رأيه وإقراره بأنّ
منزّه عن كل صورة بشرية، ويسأله أن يحرّم تلاوة كتب اوريجانس لأنها ك
علّة للتشبث بهذا الضلال. وكان ابيفان ممن ينددون باوريجانس وبعض كتبه
مرّ، فعقد مجمعاً مع أساقفة جزيرته وحرّم تلاوة كتب اوريجانس، وكتب ر

إلى كثيرين من الاساقفة وإلى يوحنا فم الذهب ينبئهم بما كان في مجمعه، ويحرضهم على عقد مجامع، وحظّر من تلاوة كتب اوريجانس. فسُرّ تاوافيلوس بذلك لعلمه بأنّ فم الذهب لا يرضى هذا التحريم، فعقد مع أساقفة مصر مجمعاً وصنع ما صنعه ابيفان وكتب إلى فم الذهب، فازدرى فم الذهب عمل ابيفان وتوافيلوس ولم يجب على رسالتيهما.

وكان لفم الذهب خصوم أقوياء كما سيأتي في ترجمته. فسعوا لدى الملك بأن يعقد مجمعاً في القسطنطينية، فانتهز تاوافيلوس هذه الفرصة وأمر أساقفته أن يمضوا للحال إلى القسطنطينية، وكتب إلى ابيفان وغيره من أساقفة المشرق أن يلبوا الدعوة دون إبطاء. فمضى ابيفان مسرعاً إلى القسطنطينية والتقاه فم الذهب يحفُ به جمهور كهنته، ولم يتمالك ابيفان من أن يصرّح بجنوحه إلى تصديق الوشايات الواردة على فم الذهب. وكلّف أن يحلّ في المنازل الاكليريكية فأبى واعتذر من أن يدخل مع فم الذهب إلى منزله. وكان يدعو الاساقفة الذين كانوا في القسطنطينية يريهم على انفراد ما رسمه في مجمعه من تحريم كتب اوريجانس سائلاً إياهم أن يوقّعوا على ذلك. فأذعن له بعضهم وأبى كثيرون متابعته على ذلك، بل لام بعضهم ابيفان على إهانته عالماً توفي منذ سنوات متطاولة، وعلى نبذه ما أثبته القدماء. فاستمر فم الذهب يجامل ابيفان ويكلفه بأن يقدّس معه وينزل في داره. وابيفان يقول له إنه لا يدخل داره ولا يصلّي معه إن لم يحرّم كتب اوريجانس ويطرد من عنده رهباناً كان توافيلوس قد حرمهم ولجأوا إلى فم الذهب فقبلهم. وكتب إلى توافيلوس أن يحاكمهم، وفم الذهب يجيب أنه لا يستطيع أن يصنع ذلك إلّا بعد حكم قانوني. وزاد ابيفان على ذلك أنه رقى شماساً إلى الدرجات المقدّسة في كنيسة القسطنطينية دون استئذان فم الذهب. ودعا أعداء فم الذهب ابيفان أن يأتي إلى حفلة في كنيسة الرسل في القسطنطينية ويخطب في تحريم كتب اوريجانس، ولزوم مجانبة أولئك الرهبان لتمسكهم بأقواله. ولما أقبل ابيفان في اليوم الثاني على الكنيسة التقاه سرابيون من قبل فم الذهب الذي كان مترئساً على الحفلة، فقال له قد أقدمت على أمور كثيرة تخالف القوانين، فباشرت الترقية إلى الدرجات المقدّسة في الكنائس الخاضعة لولايتي، وأقمت قداسات احتفالية في هذه الكنائس دون علمي، وقد دعوتك اولاً أن تأتي إليها فأبيت، والآن تجيز لنفسك أن تأتي إليها وتخطب فيها. فحذار من أن تنشيء قلقاً في الشعب فتعرّض نفسك

للخطر، وتكون مؤاخذاً بعملك: «فلما سمع ايفان هذا الكلام ارتاع، وبعد وقت وجيز برح القسطنطينية عائداً إلى قبرص. وقال بعضهم أنه قبل سفره أرسل يقول لفم الذهب رجوت أنك لا تموت أسقفاً. وأنّ فم الذهب أجابه رجوت أنك لا تبلغ إلى وطنك». قال الراوي وهو سقراط، هل صدق من نقل هذا الكلام؟ لعمري لا أستطيع أن أوجب صدقه، على أنّ كلاً منهما أصابه ما دعا الآخر عليه به. فإنّ ايفان مات في سفره قبل أن يبلغ إلى قبرص. وفم الذهب عُزل بعداً عن كرسيه ونُفي. انتهى. وقد كذّب كثيرون من المؤرخين رواية دعاء هذين القديسين أحدهما على الآخر. وعدّها بارونيوس من الاقاصيص التي يسخر منها. واحترز سقراط من إعارتها جانب الصدق ولم يثبتها كما رأيت. أقول أنّ كلاً يرى أنها لا تليق بقديسين كاهنين، وأظنها مختلقة بعد الوقوع، أي بعد موت ايبفان ونفي فم الذهب ولم أذكرها إلّا مفاكهة.

قال بارونيوس في تاريخ سنة ٤٠٢م إنّ هذه المشاحنة بين فم الذهب وايبفان كانت في السنة المذكورة. ولم يتابع سقراط وسوزومانوس على أنّ وفاة ايبفان كانت في هذه السنة بل قال إنّ سنة وفاته مجهولة. قال فاليسيوس (في حواشيه على تاريخ سقراط) أُعجب ببارونيوس إذ وافق سقراط وسوزومانوس في رواية هذه المشاحنة بين هذين القديسين، وخالفهما في سنة وفاة ايبفان مع أنّ سوزومانوس كان من سلمينا أبرشية ايبفان، وسقراط كان في القسطنطينية، وكانا كلاهما معاصرين لايبفان أو قريبين من عصره. فالمعول إذاً على شهادتهما وأنّ ايبفان توفي في آخر سنة ٤٠٢م أو في بداية السنة التابعة.

قال القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ١٤) ايبفان أسقف سلمينا في قبرص ألّف كتاباً في جميع البدع. وكتباً أخرى كثيرة يصبو إلى مطالعتها العلماء للحقائق المنطوية عليها. وعامة الناس لفصاحة ألفاظها وهو حي إلى الآن. وصنّف في شيخوخته مصنّفات كثيرة. وذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين قائلاً: «ايبفان وضع كتاباً في الظهور الإلٰهي (ربما كان في ميلاد المخلّص وتجسده. والاظهر أنّ المراد مقالته في تجسد المخلّص وظهوره للعالم أو كتابه الموسوم بالمرساة الآتي ذكره. على ما قال السمعاني في شرح هذه القصيدة. مجلد ٣ من مكتبة الشرقية صفحة ٤٣) وله كتاب في البدع منذ البدء إلى أيامه». وعدّ نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الرابع فصل ٦ جزء ٢٩) مؤلفاته فقال هي

كتابه الذي عنونه الدرياق في البدع وقسمه إلى ثلاثة أسفار. ولم يكتفِ بأن يذكر تاريخ البدع بل بيّن كل ما يفنّد به كل منها. وكتابه الموسوم بالمرساة عنونه كذلك لأنّ غرضه منه توطيد النفس في تعليم الايمان ورسوخها فيه كما ترسخ السفينة بالمرساة. وعزا إليه القديس ايرونيموس (في رسالته ٢٨ إلى فابولا) وبتافيوس وغيرهما كتاباً في الحجارة (أو في الاثني عشر حجراً كما سترى في رواية السمعاني وأظنها الاثني عشر حجراً كريماً التي في أسس المدينة المقدّسة وأبوابها، كما في رؤيا يوحنا (فصل ٢١). قال فيه ايرونيموس أنه جزيل النفع للمطالعين. وعزا إليه فوتيوس كتاباً في الموازين والمكاييل، ولم ينكر أحد أنه له. ويعزى إليه كتاب في ترجمات الأنبياء وليس له حقيقة لكثرة ما فيه من الاغلاط. وتعزى إليه ثماني خطب أو مقالات، أي خطبتان في عيد الشعانين، وخطبة في دفن المسيح، وأخرى في قيامته، ثم في صعوده، وفي مديح العذراء، وفي عدد الاسرار. لكن يظهر من نفسها ونسقها وأدلّة أخرى أنها لابيفان آخر. إذ كان كثيرون من الكتّاب يسمون بهذا الاسم. وله رسالة إلى يوحنا البطريرك الأورشليمي كما مرّ آنفاً. ولكن ورد في آخر هذه الرسالة أنّ ابيفان مزّق ستاراً في احدى كنائس فلسطين كانت عليه صورة المخلّص أو صورة قديس، ونهى عن مثل هذه الصوَر. فأثبت الكردينالان بارونيوس وبلرمينوس أنّ هذه الفقرة مزيدة على رسالة ابيفان بيد عاثٍ لاحتوائها على ما يخالف عقيدة تكريم الصوَر والتماثيل. ولكن تأول نطاليس ما فيها من ذلك بمعنى كاثوليكي، فهذا خلاصة ما رواه نطاليس في مؤلفاته.

وقال السمعاني في المحل المذكور من المكتبة الشرقية أنّ في الكتب اليونانية التي في المكتبة الواتيكانية خطبة له في عيد الشعانين (في الكتاب ١١ من مكتبة بيوس الثاني) وأخرى (في الكتاب ١٣ من الكتب المذكورة) وخطبة في الاثني عشر حجراً (في الكتاب ٣٩ من الكتب المذكورة)، وخطبة في دفن جسد المسيح، وفي يوسف الرامي (في الكتاب الاول من الكتب التي أتى بها ابراهيم مسعد الماروني إلى المكتبة الواتيكانية وفي الكتابين ٩ و ١٢ منها)، وأخرى في والدة الله القديسة (في الكتاب ١٠ من الكتب المذكورة)، وأخرى في ميلاد الرب وظهوره (في الكتاب العاشر أيضاً)، وأخرى في رقاد العذراء (في الكتاب ١٢ من الكتب المذكورة). وفي المكتبة الواتيكانية بين الكتب السريانية فقر من كتابه في ترجمة الانبياء، ومن كتابه في الموازين والمكاييل، ومن كتابه في النقط وتفسير الحروف...

وإنّ كتابه الموسوم بالمرساة منه نسخ لاتينية ويونانية وسريانية وعربية. وإنّ المصريين يسمونه كتاب الهوجل أو كتاب المرسي. على ما ذكر أبو البركات (في كتابه في الفروض الإلٰهية فصل ٧) ولا نرى السمعاني تعرّض لنسبة الخطب المذكورة إلى غير القديس انيفان ولا نراه أيضاً أثبتها له نصاً.

عد ٥٨٠
القديس يوحنا فم الذهب

وُلد يوحنا في انطاكية نحو سنة ٣٤٧م من والدَين حسيبيَن، وقد سموا أباه ساكوندوس، وكان رئيساً في الجندية، وسموا أمه اننوزا، وكانا كلاهما مسيحيين. ومات أبوه وهو حدث فربّته أمه خير تربية، ودرس الفصاحة والخطابة متتلمذاً لليبانيوس الانطاكي الشهير واستمر صديقاً له. ثم اعتكف على درس الشريعة فنبغ فيها واشتهر بمحاماته في الدعاوي. ولم تكن العلوم العالمية تلذّ له، فرغب عنها وانصبّ على درس الاسفار المقدّسة على كريتاريوس وديودوس الذي صار بعد أسقفاً على ترسيس. ثم اعتزل العالم منفرداً في أحد جبال سورية. وهناك كتب كتابه في سيرة المتوحدين. وحمل اثنين من رفقائه في درس العلم على أن يحذوا حذوه: أحدهما توادوروس الذي صار بعد أسقفاً على المصيصة، وثانيهما مكسيموس الذي صار بعد أسقفاً على سلوقية بايسورية. ثم عاد يوحنا إلى انطاكية سنة ٣٨١م فرقاه القديس ملاتيوس بطريرك انطاكية إلى درجة الكهنوت سنة ٣٨٥م، وعهد إليه أن يخطب في الكنائس. فطارت شهرة فصاحته وسطعت أنوار غيرته، وألقى وقتئذٍ كثيراً من خطبه الغراء، مواعظه خلابة العقول. وكتب كثيراً من مقالاته البليغة. فكان في مدة الخلاف بين ملاتيوس وبولينوس بعيداً عن التشيّع لأحدهما ومرضياً لكليهما. ولما توفي نقطار البطريرك القسطنطيني واختلفت آراء الاكليروس والشعب في اختيار خليفة له، اجتمع المنتخبون والملك اركاديوس بأن يؤتى بيوحنا من انطاكية ويقام بطريركاً في القسطنطينية. فاستدعاه الملك ورقي إلى المقام البطريركي سنة ٣٩٨م بحضرة كثير من الاساقفة حتى توافيلوس البطريرك الاسكندري الذي بذل قصارى جهده ليقيم أحد كهنته مقام يوحنا فتعسّر عليه إدراك شأوه.

وطفق يوحنا يجاهد في إتمام فروض مقامه غير مراع في ذلك كبيراً أو غنياً أو صاحب سلطة أو أسقفاً أيضاً. وصرف جدّه في استئصال بعض العادات السيئة التي كان بعض الاكليريكيين استطرقوها. منها اعتياد بعضهم أن يعيشوا مع نساء تقيّات يتّخذونهنّ أخوات لهم، وكتب في ذلك كتابين. وقد ندّد تنديداً عنيفاً بطمع الكهنة في خطبه في رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس التي كان يلقيها في القسطنطينية، حيث كان يقرّع أيضاً أصحاب الخصال الذميمة. وكان شديد القسوة على كهنته آملاً أن تصلح القسوة حالهم أكثر من الحلم والرقّة. ولاعتماده على برارته وحسن طويته لم يكن يبالي بمسيء ولو عظُم قدره، ولا يغضي على زلّة أياً كان فاعلها. فكثر مبغضوه ومخالفوه، وكان لديه شماس اسمه سرابيون يحثه على الصرامة في تدبير كهنته، وقال له ذات يوم بحضرة كثير منهم، لا تستطيع أن تسوسهم إلّا بقضيب من حديد، فحنق السامعون على أسقفهم. وبعد مدة قطع كثيرين من شركة الكنيسة لأسباب متنوعة، فتآمروا عليه وطفقوا ينمّون به للشعب. ولم يقتصر فم الذهب على مغالطة الكهنة بل جافى كثيرين من الكبراء أيضاً غيرةً على سنّة الله. من ذلك أنه كان عند الملك اركاديوس خصي اسمه اوترب رفيع المنزلة، نافذ الكلمة حتى كانوا يسمونه أبا الملك، فهذا بعث الملك على أن ينسخ الشريعة الآمرة باحترام الكنائس، وأن يبطل التجاء المجرمين إليها، ولكن بقضاء الله العادل تغيّر الملك عليه وأراد قتله، فهرب اوترب إلى الكنيسة لاجئاً إليها، فعارض فم الذهب الملك بإخراجه منها، وألقى على مسمع اوترب خطبة عنّفه بها وأبان له سوء تصرفه، فشقّ على بعض السامعين معاملته كذلك في حين محنته وأسخط الملك.

وأتى في تلك الاثناء إلى القسطنطينية انطيوكس أسقف عكا، وكان خطيباً فصيحاً خطب في كنائس العاصمة فحشد مبلغاً من المال وعاد إلى عكا. ولما سمع ذلك سفريانوس أسقف جبلة شخص إلى العاصمة وكان فصيحاً أيضاً لكنه لم يكن يحسن الكلام باليونانية بل إذا تكلّم بها خالط كلامه ألفاظ سريانية، على ما روى سقراط (ك ٦ فصل ١١). فرحّب به فم الذهب وأكرم مثواه، وأطال سفريانوس مكثه في القسطنطينية، وتزلّف إلى الملك وكبراء العاصمة فأحبوه وأكرموه، واشتهر بخطبه على ما في ألفاظه من الركاكة. ومرّ سفريانوس يوماً وسرابيون شماس فم الذهب جالس فلم يقم ولم يبدِ امارة الاحترام بل استمر جالساً على كرسيه، فلم يتحمّل سفريانوس هذه الاهانة بل قال إن مات سرابيون مسيحياً فالمسيح لم

يتجسّد. فشكا سرابيون سفريانوس إلى فم الذهب وأخفى عليه عبارته الأولى وهي إن مات سرابيون مسيحياً، وادّعى أنه قال إنّ المسيح لم يتجسّد. وأورد شهوداً من المحازبين له شهدوا أنّ سفريانوس نطق بهذه العبارة. فطرد فم الذهب أسقف جبلة من القسطنطينية، فعظُم الامر على خلانه ومريديه ولامت الملكة اودكسية فم الذهب لوماً شديداً على فعلته هذه. فاستدعت سفريانوس فعاد من خلكدونية إلى العاصمة وقاطعه فم الذهب إلى أن أخذت الملكة ابنها توادوسيوس وهو حدِث متضرعاً إلى فم الذهب ليصالح سفريانوس فاصطلحا. وبقيت في قلب أسقف جبلة حزازات من حنقه على فم الذهب. فكان من أعدائه عند مصابه كما سترى. وقد رأيت ما كان له مع ايفان أسقف قبرص وعلمت أنه قبل الرهبان المصريين الذين أتوا إلى العاصمة يشكون بطريركهم توافيلس الاسكندري.

قد مرّ أنّ الملك اركاديوس كان قد استقدم الاساقفة للاجتماع في العاصمة فتسارع إليها توافيلس البطريرك الاسكندري مع أساقفته عازماً على عزل فم الذهب من كرسيه. وكان بعض الاساقفة يشايعونه في ذلك منهم بعض أساقفة من آسيا كان قد عزلهم، واكاشيوس أسقف حلب، وسفريانوس أسقف جبلة، وانطيوكس أسقف عكا المشار إليهما آنفاً. وثلاثة من كبراء الدولة كان توافيلس قد رشاهم وبعض الاكليروس القسطنطيني الذين كان فم الذهب قد أدبهم لاصلاحهم وثلاث أرامل غنيات كان قد انّبهنّ على إسرافهنّ وسوء سيرتهنّ، وفوق هؤلاء اودكسية الملكة التي كانت قد استاءت من خطب فم الذهب في ذمّ النساء وبهرجتهنّ وإسرافهنّ. فجميع هؤلاء عاونوا توافيلس الاسكندري على أنّ الملك يرخّص بعقد مجمع على فم الذهب. فالتأم المجمع وكان فيه ستة وثلاثون أسقفاً من بطريركية توافيلس. ودعا فم الذهب إليه فأجاب أنه يحضر بشرط أن يخرج من المجمع من سماهم من أعدائه. ولا أقل من أن يكونوا فيه بمنزلة شاكين لا بمنزلة قضاة. وبعد جوابه هذا دُعي ثانيةً، وإذ لم يحضر حكموا عليه حكماً غيابياً. وقد كان الاساقفة خصومه يرغبون في حمل الملك على مجازاته جزاء المعتدين على الملك لأنه شبّه الملكة في احدى خطبه بإيزابل، فاقتصر الملك على نفيه. ولما بلغه الامر قال إنه لا يريد أن يذعن له إلّا مكرهاً بالقوة. فأقنع خصومه الملك أن يرغمه على المسير، وأرسل بعض عماله فأنزلوه في سفينة ليلاً وأوصلوه إلى محل في عبر البوسفور.

على أنه لم يبقَ منفياً إلّا يوماً واحداً لأنّ الشعب عندما سمع خبر نفيه أبدى

من الهياج ما لا مزيد عليه. وعلت الضوضاء والصراخ في الكنائس والساحات والأزقة، وحدث في الليل زلزال قوّض كثيراً من أبنية المدينة وغرفة الملك نفسها. فارتاعت الملكة وسألته أن يستدعي للحال فم الذهب. وكتبت إلى البطريرك ما نصّه: «لا يخالنّ لقداستكم أني دريت بشيء مما كان. فأنا بريئة من دمك. إنّ بعض الأشرار العاثين نصبوا لك هذه الاحبولة والله شاهد لدموعي التي ذرفتها محرقة له من أجلك، وهل أنسينّ أنّ يديك المقدستين عمدتا أولادي». وتقدمت إلى الملك باكية قائلة لا وسيلة لنا لنجاة المملكة من الدمار الذي يهددها إلّا بإعادة فم الذهب. فأرسل الملك عمالاً تباعاً فلم يهتدِ إلى موضعه إلّا بريزون أحد حاشية الملك. ولما دنا من المدينة هبّ الشعب رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً للقياه حتى غطّت السفن وجه البوسفور. وكان الجمهور يرنّم ترانيم أُلّفت لذلك. وانتهوا به إلى كنيسة الرسل يصحبه أكثر من ثلاثين أسقفاً، وكلفوه أن يرقي إلى المنبر داعياً بالسلام للشعب على عادتهم. فتمنّع من ذلك قبل أن يبرئه مجمع آخر يربو أساقفته على عدد أساقفة المجمع الذي حطّه، بل لم يشأ اولاً أن يدخل القسطنطينية واوقف في احدى ضواحيها المسماة مريان، ولكن أكرهه إلحاح الشعب على أن يلقي خطبة موجزة شبّه بها كنيسته بسارة، وتوافيلس بملك مصر الذي حاول أن يمسّ عفافها فمنعه ملاك من ذلك. وشكر الله على أنه منّ بعوده، ولم يغفل ذكر معرفته جميل الملكة لمسعاها بذلك. وأكثر الشعب من إبداء أدلّة استحسانهم لكلامه حتى ما تمكّن من تكميله، ويظهر أنّ هذا كان سنة ٤٠١م.

وسأل فم الذهب الملك بعد ذلك أن يستدعي أساقفة أكثر من الاولين ليفحصوا دعواه، فكتب إلى كل جهة يستدعي الاساقفة. ولما درى توافيلس بذلك خاف أن يثبت عليه ما كان ضميره يؤنبه عليه فبرح العاصمة ليلاً لا يعلم إلّا أساقفته الذين سافروا معه، فلم يبقَ في القسطنطينية إلّا أصحاب فم الذهب. على أنّ فرار توافيلس كان بيّنة كافية لبراءة فم الذهب. لكنه لم يكتفِ بها ولم يكفّ عن سؤال الملك أن يستدعي الاساقفة إلى المجمع. فأمر الملك توافيلس أن يعود ليجيب على ما صنع. فاعتذر ولكن عاد انطيوكس أسقف عكا وسفريانوس أسقف جبلة. ويظهر أنه لم يُعقد مجمع حافل ولكن الاساقفة الكثيرين الذين اجتمعوا حينئذٍ في القسطنطينية وقّعوا على قرار فحواه أنهم يعترفون بأنّ فم الذهب إنما هو الاسقف الشرعي لهذه المدينة ولا عبرة لشيء مما جرى قبلاً.

على أنّ الراحة لم تستتب زمناً طويلاً في العاصمة بعد عود فم الذهب. فقد أُقيم حينئذٍ تمثال من فضة لاودكسية الملكة على باب الندوة، وفي جانب كنيسة القديسة صوفيا. وعند تدشين هذا التمثال جاوز الشعب حدّ الوقار والادب بالرقص والغناء والملاهي، فلم يتحمّل فم الذهب حصول مثل هذا التهتك والخلاعة تجاه باب الكنيسة، وشكا من ذلك بخطبة أطال فيها لسانه منددا بالعاملين والآمرين بمثل هذه الخلاعات، فاستشاطت اودكسية من هذا التنديد وعزمت أن تعقد مجمعاً حديثاً على البطريرك، فلم يبالِ فم الذهب بسخطها عليه ولم يجبن، بل ألقى خطبة أخرى صرّح فيها بكلامه على الملكة، واستهلها على ما روى سقراط (ك ٦ فصل ١٨) بقوله: «عادت هيرودية ترقص حنقة متطلبة رأس يوحنا على طبق» فنشأت مكيدة أخرى على فم الذهب وكتب خصومه إلى توافيلس الاسكندري يسألونه أن يأتي فيدبرهم أو يشير عليهم بما يصنعون. فلم يأتِ بل أرسل ثلاثة أساقفة وسلّم إليهم قانوناً كان الاساقفة الاريوسيين قد وضعوه في دعوى القديس اثناسيوس في مجمعهم في انطاكية سنة ٣٤١م، وفحواه «إنه إذا عزل أسقف في مجمع ثم عاد إلى كرسيه من تلقاء نفسه فيستمر معزولاً أبداً ولا يُسمح له بأن يبرئ نفسه». وهذا القانون كان مجمع سرديكا (صوفيا البلغار) سنة ٣٤٧م قد نقضه.

فاجتمع الاساقفة من كل صوب ولم يقاطع فم الذهب خصماؤه لئلا يرد شهادتهم بالعداوة. وأتى عيد الميلاد فلم يحضر الملك إلى الكنيسة بحسب عادته وأرسل يقول للبطريرك أنه لا يشترك معه في العبادات إلى أن يبرئ ساحته. وفتح المجمع وتشبث خصوم البطريرك بالقانون الذي كان توافيلس قد أرسله إليهم فأجاد فم الذهب برده، ثم انتصب البيديوس أسقف اللاذقية (بسورية) مثبتاً للملك أنّ فم الذهب لم يُعزل عزلاً قانونياً في المجمع الاول، وإنّ هذا القانون سنّه الهراطقة ونقضه مجمع سرديكا. وإنّ يوحنا لم يعد إلى كرسيه إلّا بأمرِ الملك نفسه ومع هذا قد حمل انطيوكس أسقف عكا ومحازبوه هذا الملك الضعيف الجبان على لزوم إبعاد البطريرك عن كرسيه قبل عيد الفصح. وأرسل الملك يقول للبطريرك أنه يلزمه أن يخرج من الكنيسة دون إبطاء كما حكم عليه في مجمعين. فأجابه: «إنّ الله سلّم إليّ هذه الكنيسة للعناية بخلاص شعبها، فلا يمكنني تركها والمدينة لك، فإن شيءت أن لا أقيم فيها فاطردني مكرهاً منها لتكون لي معذرة قانونية» وكان هذا في أيام الصوم سنة ٤٠٤م. وفي نهار السبت اعظيم أرسل إليه الملك بلاغاً آخر،

فلم يمتثل له. فاستدعى الملك اكاشيوس أسقف حلب، وانطيوكس أسقف عكا، وسألهما ما ينبغي أن يصنع فقالا ما قاله رؤساء اليهود عن المخلِّص: «عزل، على رؤوسنا» وبقي اثنان وأربعون أسقفاً يناصرون البطريرك ومضوا لمقابلة الملك والملكة في كنيسة الشهداء. وخشعوا إليهما باكين ليستعطفوهما على تدارك كنيسة المسيح وراعيها فأعاراهم أذناً صماء. فهدّد أحدهم الملكة بغضب الله قائلاً: «خافي أيتها الملكة الله واشفقي على بنيكِ ولا تدنسي عيد قيامة المخلِّص بإراقة الدم». وعاد الاساقفة يئسين فقضى كل منهم فروض تلك الايام المقدّسة في منزله بالكآبة والدموع. أما الكهنة الأمناء لبطريركهم فجمعوا الشعب في منتدى فسيح تلوا فيه الاسفار المقدّسة كالعادة وأخذوا يعمدون الموعوظين. فطلب اكاشيوس وانطيوكس وسفريانوس إلى المحافظ أن يفرّق جموعهم لئلا يأتي الملك إلى الكنائس فيجدها فارغة ويتأكد ميل الشعب إلى فم الذهب. فاعتذر بأنّ الجمع غفير والوقت ليل فيخشى غائلة طردهم، وألحّوا عليه فأرسل فريقاً من الجند وأوصى رئيسه أن يفرّق الجمع ملايناً لهم أو يكلفهم أن يأتوا إلى الكنيسة. فرشا خصوم البطريرك الرئيس ورشوا جنوده ليفتكوا بالجمع إن لم يمتثلوا بالملاينة، فانتضوا سيوفهم ووثبوا على ذلك الجمع، وانتهى الرئيس إلى محل التعميد فأقلب آنية الماء ورفس حامل الميرون فأراقه وعلا صراخ النساء المتعريات لقبول العماد، وفرّ الكهنة بملابسهم الكهنوتية وجرح بعض، ودخل الجنود إلى محل التقديس، ودنسوا الاسرار المقدّسة، وقبضوا على كثيرين من الكهنة والشمامسة واودعوهم السجن.

وكتب فم الذهب إلى البابا اينوشنسيوس يسأله أن يتدارك هذه الشؤون بسلطانه ويكفّ المعتدين عن خرق قوانين الكنيسة، ويأمر إذا شاء بمحاكمته مع خصومه محاكمة قانونية. وكذلك كتب الاثنان والاربعون أسقفاً المناصرون له وأوفدوا بهذه الرسائل أربعة أساقفة وشماسَين. وكان توافيلس قد رفع عريضة للحبر الروماني ينبئه بها بعزل البطريرك القسطنطيني، ولم يبن لذلك سبباً، ولا من كان الحاكم عليه. فتردّد البابا في الجواب لتوافيلس، ولما بلغ الوفد القسطنطيني وأطلعه على كل ما كان أجابه قائلاً: «إنك وأخانا يوحنا البطريرك القسطنطيني في شركتنا وقد كتبنا ونكتب إليك كلَّ ما خاطبتنا أننا إذا تفحصنا بحسب القانون كل ما جرى بالمشاحنة فلا يمكننا أن نُخرج يوحنا من الشركة دون حجّة. فإن كنت على ثقة من حكمك عليه، فاحضر إلى المجمع الذي سيُعقد قريباً إن أحب

الله، وبيّن شكاويك بحسب قانون مجمع نيقية. فالكنيسة الرومانية لا تعرف قانوناً غيره» يريد أنها لا تعرف قانون مجمع انطاكية الذي أوردوه على البطريرك.

وحاول بعض الاثمة الغدر بالبطريرك فأقام الشعب خفراء ليلاً ونهاراً لحراسته. وتذرّع الاساقفة المناصبون له بهذا ليلحّوا على الملك بنفيه تفادياً من الشغب بين الشعب. فأرسل الملك أحد عماله في ٢٠ حزيران سنة ٤٠٤م يبلغ البطريرك أمره القاطع بأن يخرج من الكنيسة، فرأى فم الذهب أنّ لا مناص من تحمّل الجور، فقال للاساقفة مناصريه تعالوا نصلّي في الكنيسة، ولم يبح بسرّه إلّا لقليلين منهم. وفي آخر الصلوة قال امكثوا هنا ريثما أستريح قليلاً. وخرج من الكنيسة من الباب الشرقي، والشعب ينتظره عند الباب الغربي، وانسلّ خفية مع مفوّض الملك، وركب سفينة عبر بها إلى نيقية. ولما علم الشعب براحه هاجوا وماجوا حتى في الكنيسة، وألقى واحدا النار في العرش الاسقفي وامتدّ اللهيب حتى دمّر الكنيسة وما حولها من البيوت. وهبّت ريح من الشمال فقذفت النار إلى القصر الذي كان يجتمع فيه رجال الندوة في جنوب الكنيسة، فالتهمته واتصلت إلى قصر الملك المتاخم المنتدى. واتّهم رجال الحكومة أصحاب البطريرك بهذه الجريمة، فعذبوا كثيرين ولم يظهر الفاعل. وعجلوا في إبعاد البطريرك فأُخذ من نيقية في ٤ تموز سنة ٤٠٤م إلى قيصرية الكبادوك. واستكدّوه جرياً ليلاً ونهاراً، فأنهكه التعب ولم يسترح هناك قليلاً إلّا ناصبه برانيوس أسقف تلك المدينة حسداً منه لتقاطر الكبراء والوجهاء لزيارته. وبلغ كوكوز المحل المعيّن لنفيه في ارمينيا بعد سبعين يوماً من سفره، وأصابته حمى شديدة كادت تهلكه. وكتب إليه البابا اينوشنسيوس يعزيه ويشجعه على تحمّل مصابه بالصبر الجميل. وتتالت التعزيات عليه من كل فجّ برسائل الاساقفة والوجهاء والفضلاء، منها رسالة من القديس مارون الناسك أبي طائفتنا. وقد أجابه عليها في رسالة هي ٣٦ بين رسائله. وسوف نذكر ترجمتها بحروفها عند ذكر القديس مارون، وعنوانها إلى مارون الكاهن الراهب. وتواترت ضربات الله على خصمائه. ففي ٣ ايلول من تلك السنة نزل حب الغمام على القسطنطينية وجوارها كل حبة كالجوزة. وماتت الملكة اودكسية نفساء. ومات شيرين أسقف خلكدونية وكان من كبار مضادي فم الذهب وغيره.

واشتهر فم الذهب في منفاه بمبراته وفضائله وكدّه في استرداد غير المؤمنين إلى حظيرة الكنيسة، وعنايته في خير المؤمنين. فاهتمّ أعداؤه بإبعاده إلى بلد شاسع خوفاً

منه وإن منفياً. فالتمس سفريانوس أسقف جبلة وبرفير بطريرك انطاكية وغيرهما من الملك أن يبعده إلى بنيونت على شاطئ البحر الاسود. فأخذ بعنف في هذا السفر الشاق الذي يلزمه ثلاثة أشهر فلم يصل إلى كومان في بنطوس إلّا ووهنت قواه ولم يبقَ إلّا رمق فأخذ يصلّي، وعند قوله آمين في آخر صلاته بسط رجليه وفاضت روحه المقدّسة. ودُفنت جثته حذاء جثة القديس باسيليك أسقف تلك المدينة الشهيد. وكان ذلك في سنة ٤٠٧م ثم نُقلت جثته في أيام توادوسيوس ابن الملك اركاديوس إلى القسطنطينية ووُضعت مع ذخائر الرسل. وانتصر له الحبر الروماني بعد وفاته كما انتصر له في حياته. فلم يسمح لبطاركة القسطنطينية واسكندرية وانطاكية أن يقبلوا في شركته إلّا بعد أن ذكروا بالتكريم فم الذهب، وأعادوا الاساقفة الذين كانوا قد نفوهم بسبب دعواه. كل ما مرّ ملخص عن بلاديوس في ترجمة فم الذهب، وسقراط وسوزومانوس في تاريخهما البيعي في فصول شتى.

وأما ما ألّفه هذا العلامة الذي يسمونه الخطباء فكثير يشذّ عن العدّ. فله مقالات كثيرة في العقائد الدينية، وكتب في تفسير أكثر الاسفار المقدّسة، وكتاب في الكهنوت، وكتاب في سيرة النساك، وخُطب ومواعظ في مواد متعددة، ورسائل إلى كثيرين، ونافور للقداس بالسريانية فاتحته إيها الرب الاله القدير على كل شيء. ذكر السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٦٢) إنّ منه نسخة في المكتبة الواتيكانية. وذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي بين النوافير الكاثوليكية في كتابه المنائر العشر. وترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية ٢٤٢). وقد طبع في كتاب القداس لطائفتنا المارونية سنة ١٥٩٤م نافور آخر معزو إليه. ولكن حقق السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦) أنّ هذا النافور ليوحنا أسقف حاران ونصيبين. وله نافور آخر سرياني مترجم ترجمة حرفية عن اليونانية يستعمله السريان الملكيون، ونسخة منه في المكتبة الواتيكانية بين الكتب السريانية في عد ٣٧ و ٤٠ .

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي فم الذهب في قصيدته. فقال: «فم الذهب له تفسير بشارة متى وتفسير بشارة يوحنا كل منهما في مجلدين، وتفسير رسائل بولس الرسول، وكتاب في الكهنوت، وكتاب في المعمودية، ومقالة في الردّ على اليهود، ومقالة في رهبان مصر، وكتاب في التعزيات، ورسالة في التوبة، ورسالة إلى يوستنيانس»، وقال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦ و ٢٧) في

شرح ذلك. أما تفسير بشارتَي متى ويوحنا فله فيهما أربعة مجلدات: أي في بشارة متى تسعون مقالة، وفي بشارة يوحنا ٨٨ مقالة. وكثيراً ما استشهد بها علماء السريان. وأما في تفسير رسائل مار بولس الرسول فله ٢٤٥ مقالة. وكتابه في الكهنوت مقسوم إلى ستة أسفار. وأما في المعمودية فلا أعرف إلّا مقالة في اعتماد المخلِّص. ولعلّ الصوباوي عزا إليه كتابين في المعمودية وهما لباسيليوس الكبير. وله في الرد على اليهود ستة كتب. وأما مقالته في رهبان مصر فرجّح السمعاني أن تكون المقالات في أصل الرهبان الاولين المنسوبة إلى يوحنا أسقف أورشليم. وكتاب التعزيات هو كتاب وجّهه إلى امرأة شريفة اسمها اولمبياد تحملت كثيراً من الضرّ بسبب دعواه. وافتتحه بقوله: لا يضرّ الانسان إلّا نفسه. ورسالته في التوبة كتبها إلى توادوروس الذي كان قد ترك التبتل وتزوج. وأما الرسالة إلى يوستنيانس فقال السمعاني فيها أنّ لا رسالة له إلى يوستنيانس، بل له رسالتان إلى البابا اينوشنسيوس. فذكر يوستنيانس خطأ من عبد يشوع أو من الناسخ. وقد طُبعت كتب فم الذهب مرات، وقد طبعها الاب مين في باريس بين كتب مكتبة الآباء اليونانية. وروى السمعاني أنّ في المكتبة الواتيكانية كثيراً من تآليفه مترجمة إلى القبطية والعربية والسريانية.

عد ٥٨١

أساقفة آخرين في سورية

من أساقفة سورية في هذا القرن تريفيليوس أسقف نيكوسيا في قبرص، وقد قال فيه القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٩٢): «تريفيليوس أسقف نيكوسية في قبرص كان من أفصح أهل عصره واشتهر في عهد قسطنس. وقد طالعت كتاب تفسيره لنشيد الانشاد ويقال أنه صنّف كتباً أخرى كثيرة لم أعثر عليها». وقد ذكره سوزومانوس (ك ١ من تاريخه فصل ١١) وقال فيه إنه كان خطيباً مصقعاً، وأنه أقام مدات متطاولة في بيروت طلباً لاقتباس علم الشرائع الرومانية. وأنه كُلف ذات يوم أن يخطب في حضرة سبيريدون أسقف تريميتو (لمسون في قبرص أيضاً) ولزمه أن يورد قول المخلِّص: «قم فاحمل سريرك واذهب». فقال قم واحمل مضجعك واذهب. فلامه سبيريدون قائلاً أأنت أشرف أو أفصح

ممن قال سريرك لتأنف أن تستعمل لفظه. فنزل تريفيليوس من المنبر وعلى مرأى الشعب، وقال سوزومانوس في سبيريدون هذا أنه كان أسقفاً في تريميتو بقبرص، وكان متناهياً في الفضل والفضيلة وإنّ الله صنع على يده معجزات كثيرة. وسمي في ميناون صاحب العجائب.

وخلفه في هذه الاسقفية اوسطاتيوس ثم تيوببو من أساقفة المجمع القسطنطيني الاول. وكان في حماتوسيا (بقبرص أيضاً) القديس فيلون وقد رقاه ابيفان إلى أسقفية هذه المدينة. وكان في تمباسو ليكون أسقفاً شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في الباف كيرلس وقع على المجمع النيقوي الاول. وكان في ارسينوا ارستوكليد شهد المجمع القسطنطيني الاول. وفي لابيتوموسي شهد المجمع الذي عقده ابيفان عن بياجيوس في سورية المقدّسة. هؤلاء من عرفناهم من أساقفة قبرص في القرن الرابع.

وكان من أساقفة فلسطين استيريوس أسقف اللدّ وقد ذكره القديس ايرونيموس في كتابه المذكور (فصل ٩٤) وقال إنه كان اريوسياً. وفي عهد الملك قسطنس (من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٦١م). وقد ألّف كتاباً في تفسير رسالة بولس الرسول إلى الرومانيين، وفي الاناجيل والزبور وكثيراً غير ذلك. وكان مشايعوه يرغبون في مطالعة تآليفه. ومنهم أيضاً اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين ذكره ايرونيموس أيضاً في الكتاب المذكور (فصل ٩٨) قائلاً إنه كتب سبعة عشر كتاباً في سفر يشوع بن سيراخ، ومقالات أخرى كثيرة. وقال فيه سقراط (ك ٢ فصل ٤) إنه خلف استاذه اوسابيوس القيصري في أسقفية قيصرية. وألّف كتباً كثيرة أخصها كتابه في ترجمة اوسابيوس سالفه، وقال (في فصل ٢٩) إنه كان في مجمع سلوقية (بايسورية) رئيساً من رؤساء الحزب الاريوسي مع جيورجيوس أسقف اسكندرية، واورانيوس أسقف صور يتابعهم ثلاثون أسقفاً، وألّف في هذا المجمع قانون ايمان ملتبساً لا ينبذ فيه صريحاً ضلال اريوس ولا يصّح بمساواة الابن للآب جوهراً. وانقطع أخيراً مع مشايعيه عن الحضور في هذا المجمع فعُزل عن كرسيه ومعه اوارنيوس أسقف صور وغيرهما من الاساقفة المخالفين، وقد توفي سنة ٣٦٥ أو سنة ٣٦٦م.

وخلف اوزايوس اكاشيوس في أسقفية قيصرية وكان اريوسياً أيضاً. وذكره ايرونيموس (في فصل ١٣٠ من كتابه المذكور) استطراداً. وفي الكتاب الموسوم

بسورية المقدّسة أنه زاد في عدد كتب مكتبة قيصرية وفي اتقانها. وإ
تاودوسيوس عزله عن كرسيه لشرّه وتشبثه ببدعة اريوس. وقام بعده
الاسقفية جلاسيوس. قال فيه القديس ايرونيموس في المحل المذكور يقال إ
خطبة أنيقة نفيسة ولم يشهرها، وكان كاثوليكياً صالحاً وغيوراً على الايمان
سنة ٣٩٤م.

ونعرف من أساقفة صور في هذا القرن بولينس وهو الذي نُقل من
صور إلى بطريركية انطاكية كما مرّ في الكلام على بطاركة انطاكية. وق
اوسابيوس القيصري في مقدمة الكتاب العاشر من تاريخه، وقدّم هذا الكت
وأنبأنا أنه جدد بناء كنيسة صور بعد خمود نار الاضطهاد في أيام د
وجعلها كنيسة بديعة لم يكن لها مثيل حينئذٍ في كنائس سورية. وروى (في
٤ من الكتاب المذكور) صورة خطبته عند تدشين هذه الكنيسة، فإذا هي
غراء مسهبة فريدة في بابها. وقد تفاخر اريوس في رسالته إلى اوسابيوس
نيكوميدية (التي رواها برمتها تاودوريطوس (في ك ١ من تاريخه فصل
بولينس من المشايعين لضلاله، وتفاخره غير صحيح لأنّ بولينوس لم يقم نكَ
صحة ايمانه. وإن كتب آريوس إليه رسالة مسهبة أثبتها تاودوريطوس في
المذكور. وقد وصفه اوسابيوس (في كتابه ١ رداً على مرشلس فصل ٤)
الطوبى والعجيب الذي دبر كنيسة صور تدبيراً بديعاً. وخلفه في أسقفية صو
ويسمى زينون الاول على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي مجلد
أساقفة صور)، وقد شهد المجمع النيقوي المسكوني سنة ٣٢٥م. وروى ابيفا
بدعة ٦٩) إنّ اسكندر أسقف الاسكندرية رغبةً في مقاومة بدعة اريوس
رسائل إلى سابيوس القيصري وإلى زانس الشيخ أسقف صور. ويظهر من ذ
كان شيخاً عندما شهد المجمع النيقوي. ومن أساقفة صور أيضاً بولس كان
على صور لما عُقد المجمع فيها للحكم في دعوى القديس اثناسيوس سنة ،
وادّعى الاريوسيون على اثناسيوس أنه قطع يد رجل اسمه ارسانيوس، و
بولس عن ارسانيوس وأحضره إلى المجمع ففضح كذب المفترين. روى ذلك ا
اثناسيوس (في محاماته ٢). وقام بعد بولس ويتاليس وانحاز إلى حزب الار
الذين تجنّوا على القديس اثناسيوس، ووقّع بالاتفاق معهم على الرسالة التي
في مجمع سرديكا (صوفيا البلغار) سنة ٣٤٧م وكان بعد ويتاليس اورانيوس

مرّ أنه كان مع جيورجيوس البطريرك الاسكندري واكاشيوس أسقف قيصرية من رؤساء الاريوسيين. ووقّعوا على قانون الايمان الذي أنشأه اكاشيوس في مجمع سلوقية (بايسورية) فعزله آباء هذا المجمع مع اكاشيوس وغيره. وروى ذلك ابيفان (في بدعة ٧٣) والقديس اثناسيوس (في كتابه في مجمعَي اريمين وسلوقية) وسقراط (ك ٢ فصل ٤٠). وقال لاكويان (في المشرق المسيحي مجد ٢ في أساقفة صور) لا نعلم أترك أسقفية صور بعد عزله أم كابر واستمر فيها.

ومن أساقفة صور أيضاً زانس أو زينون الثاني وديودورس. أما زينون فقد أنبأنا سوزومانوس (ك ٦ فصل ١٢ من تاريخه) أنه اجتمع مع اوسابيوس أسقف قيصرية الكبادوك، وبلاجيوس أسقف اللاذقية، وبولس أسقف حمص في انطاكية في عهد الملك يوفيان، وحكموا بوجوب التمسّك بعقيدة مساواة الابن للآب بالجوهر. وتلوا رسائل البابا ليباريوس وأساقفة المغرب، وكتبوا إلى سائر الكنائس أن يقرأوا تلك الرسائل. وقد وقّع زينون على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. ولما كان زينون قد رقاه إلى أسقفية صور أحد بطاركة انطاكية الموصومين ببدعة اريوس رقى بولينس البطريرك الانطاكي الكاثوليكي ديودورس إلى أسقفية صور. وقد مدحه تيموتاوس البطريرك الاسكندري في رسالة كتبها إليه سنة ٣٨١م. ومما قال له فيها: «إنّ الله لم يمنّ عليه بأن يؤمن بالمسيح فقط، بل أن يتألّم بسببه أيضاً».

ومن أساقفة صيدا عرفنا توادوروس بتوقيعه في أعمال المجمع النيقوي، ثم امفيون ذكره نيقيطا كونيانس (في كتابه المسمى الكنز فصل ٧). قال لكويان (في المشرق المسيحي) لا نعلم أقبل تودورس كان امفيون أم بعده؟ ونرى في أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م توقيع بولس أسقف صيدا.

ومن أساقفة عكا ترى توقيع انياس أسقف عكا على أعمال المجمع النيقوي الاول سنة ٣٢٥م، وعلى أعمال مجمع انطاكية الذي عُقد سنة ٣٤١م، وتوقيع نكتايوس أسقف عكا على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. وقد مرّ بك أنّ انطيوكس أسقف عكا كان من خصوم فم الذهب متابعاً لاكاشيوس أسقف حلب، وسفريانس أسقف جبلة على مناصبة هذا القديس. وقد طلبوا إلى الملك اركاديوس أن ينفيه قبل عيد الفصح. روى ذلك بلاديوس في ترجمة فم الذهب وسقراط (ك ٦ فصل ١١). وعن لكويان أنّ هذا الاسقف توفي سنة ٤٠٨م.

ومن أساقفة بيروت اوسابيوس قطب الاريوسيين الشهير، فإنه كان اولاً أسقفاً على بيروت ثم تركها وانتقل إلى أسقفية نيكوميدية (ازميد) وهناك شايع اريوس، بل كان رئيساً في مشايعيه، ثم دخيلاً على الكرسي القسطنطيني. وقد ذكره توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ١٩) والقديس اثناسيوس في محاماته الثانية. وتواتر ذكره في تاريخ سقراط وسوزومانوس، وخلفه غريغوريوس، وكان على شاكلته في تشيعه لاريوس، بل قد حسبه اريوس في جملة المدافعين عن بدعته كما يظهر من رسالته التي أثبتها توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٥). وقد حسب معه من مشايعيه بولينس أسقف صور (طالع ما مرّ)، واثناسيوس أسقف عين زربة، واتيوس أسقف اللدّ. وقد شهد غريغوريوس المجمع النيقوي. وقام بعد غريغوريوس مكدونيوس وكان اريوسياً، ووقّع مع الاساقفة الاريوسيين على الرسالة التي كتبوها في فيليبوبولي بعد خروجهم من مجمع سرديكا (صوفيا قصبة البلغار) سنة ٣٤٧م. ومن أساقفة بيروت أيضاً في هذا القرن تيموتاوس وقد حضر المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. قال لكويان (في المشرق المسيحي مجلد ٢ في أساقفة بيروت) لعلّ تيموتاوس هذا هو تيموتاوس تلميذ ابولينار الاراتيكي. وقد بقي بعض فقرات من كتبه.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن باسيليوس، نرى توقيعه على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م.

ومن أساقفة اطرابلس عرفنا هلينكس إذ رأينا توقيعه على رسوم المجمع النيقوي في جملة أساقفة فينيقية. ويظهر من رسالة القديس اثناسيوس إلى النساك، أنّ الاريوسيين وشوا به فنفي. وقام بعده توادوسيوس في أسقفية اطرابلس، وقد ذكره القديس اثناسيوس في رسالته المار ذكرها. وكان من بعده في أسقفية أطرابلس ايريناوس وكان متابعاً لجيورجيوس بطريرك الاسكندرية، واكاشيوس أسقف قيصرية وغيرهما من الاريوسيين. ووقّع معهم على قانون غير صحيح للايمان في مجمع سلوقية. وذكره ايفان في بدعة ٧٣.

ومن أساقفة عرقا لوشيانس نرى توقيعه في آخر اسماء الاساقفة الذين وقّعوا على رسالة رفعوها من مجمع انطاكية إلى يوفيان الملك في شأن إصلاح شؤون الايمان الكاثوليكي في المشرق. ثم توقيع اسكندر أسقف عرقا في جملة تواقيع

أساقفة فينيقية على رسوم المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. وأنبأنا سقراط (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٦) إنّ افرنسيوس كان اولاً أسقفاً على عرقا فنُقل إلى أسقفية صور.

ومن أساقفة ارواد تيموتاوس أنبأنا عنه القديس اثناسيوس (في رسالته إلى النساك) إنه كان أسقفاً على هذه الجزيرة وعلى طرطوس في أيام قسطنس الملك. وقال القديس في محاماته التي رفعها إلى الملك قسطنس أنّ الاريوسيين خلعوا هذا الاسقف من أسقفيته مع غيره من الاساقفة في مجمعهم في انطاكية لأنهم كانوا كاثوليكيين. ونرى في المجمع القسطنطيني الاول توقيع موشيموس أسقف ارواد.

ومن أساقفة جبلة في هذا القرن يوليوس ويُرى توقيعه على رسوم المجمع النيقوي الاول سنة ٣٢٥م، ثم ساويروس وكان اريوسياً، ويُرى توقيعه على صكّ اتفاق دوّنته فرقة من الاريوسيين. ثم اوسابيوس وكان في جملة أساقفة سورية الذين شهدوا المجمع القسطنطيني الاول، ويُرى توقيعه عليه اوسابيوس أسقف جبلة. وخلفه سفريانس الذي مرّ ذكره في ترجمة يوحنا فم الذهب، فإنه كان قد شخص إلى القسطنطينية متطلباً الربح بخطبه، فتلقاه فم الذهب بالترحاب، لكن انضمّ بعيد ذلك إلى خصمائه، ولما عاد فم الذهب من منفاه الاول أصلحت اودكسية الملكة بينه وبين فم الذهب، فتصالحا وعاد سفريانوس إلى سورية، واتفق مع بعض الاساقفة فرقّوا برفيريوس إلى الكرسي الانطاكي خلافاً للقوانين. وقيل أنه أخذ رشوة على ذلك فحنق الشعب عليه وهرب من انطاكية إلى مدينته جبلة. روى ذلك بلاديوس في ترجمة فم الذهب وسقراط (ك ١ فصل ١٠) وسوزومانوس (ك ٨ فصل ١٠ وما يليه).

ومن أساقفة اللاذقية جيورجيوس وكان كاهناً اراتيكياً في الاسكندرية. وأورد القديس اثناسيوس رسالتين كتبهما إلى اسكندر بطريرك الاسكندرية موعبتين من كفر اريوس، فحطّه اسكندر عن درجة كهنوته، وأتى سورية فرقّاه الاساقفة الاريوسيون إلى كرسي اللاذقية. وقال فيه القديس اثناسيوس (في محاماته الثانية) إنه كان شراً من الباقين، وقد عزله آباء مجمع سرديكا (صوفية) عن أسقفيته سنة ٣٤٧م وقضى سنة ٣٦٣م وهو الذي كتب ترجمة اوسابيوس الحمصي كما مرّ. وقام من بعده بلاجيوس وكان صحيح المعتقد، وإن رقّاه إلى الاسقفية اكاشيوس أسقف قيصرية لأنه أقرّ بمساواة الابن جوهراً للآب. وقد وقّع على رسالة المجمع

الانطاكي إلى الملك يوفيان كما روى سقراط (ك ٢ فصل ٢٥). وقد شهد المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م وأثبته الآباء في أسقفينه (سقراط ك ٥ فصل ٨). وجاء ذكره في السنكسار الروماني في ٢٥ آذار. وقام بعده ابولينار على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي) عن روفينوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٢٠) فكان كاهناً في كنيسة اللاذقية، ثم رقي إلى أسقفية هذه المدينة، فاتبع هرطقة اريوس. وخلفه البيديوس. قال فيه توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٢٧) إنه كان معاصراً ملاتيوس بطريرك انطاكية وكان يدبر كنيسة اللاذقية في أيام الملك اركاديوس. وروى بلاديوس في ترجمة فم الذهب أنه كان عالماً بقوانين الكنيسة ومحباً للملك اركاديوس.

ومن أساقفة سلوقية سورية (السويدية) زنوبيوس او زينون، كان من جملة الآباء الذين وقّعوا على المجمع النيقوي. وقام من بعده اوسابيوس فشهد المجمع الذي عُقد في سلوقية (بايسورية) في عهد الملك قسطنس. ذكره ابيفان (في بدعة ٧٢)، ثم بيزوس وحضر المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م، ثم المجمع الذي عقده بعد ذلك افلابيوس في انطاكية. ثم قام بعده مكسيمس، وكان تلميذاً ليوحنا فم الذهب ومعاصراً لافلابيانس البطريرك الانطاكي. ذكره توادوريطوس (في ك ٥ من تاريخه فصل ٢٧). وخلفه دوسيتانس الثاني. ذكره سقراط (في ك ٧ فصل ٣٦) فلم يقبله أهل المدينة فنُقل إلى ترسيس ولعله كان في القرن الخامس.

ومن أساقفة حلب في هذا القرن اوسطاتيوس الذي نُقل إلى بطريركية انطاكية كما مرّ، وخلفه في حلب قورش فطرده الملك قسطنس من كرسيه لمدافعته عن الايمان القريم، كما ذكر القديس اثناسيوس في محاماته التي رفعها إلى هذا الملك حيث يقول: «كيف لا تنوح انكورة على مرشلس وحلب على قورش». ونقل بعده ملاتيوس أسقف سبسطية إلى حلب على ما ذكر سقراط (ك ٢ فصل ٤٤). وقد مرّ عند ذكر ملاتيوس في جملة بطاركة انطاكية في هذا القرن أنّ بعضهم خطأ سقراط بذكر نقل ملاتيوس من سبسطية إلى حلب، وأثبتوا أنه نُقل من سبسطية إلى الكرسي الانطاكي، وهو الاظهر. ومن أساقفة حلب في هذا القرن اناطوليوس وكان من جملة الاساقفة الذين اجتمعوا في انطاكية ورفعوا عريضة إلى الملك يوفيان يثبتون فيها قانون المجمع النيقوي. وقد أثبت سقراط (ك ٣ فصل ٢٥) هذه الرسالة برمّتها واسماء من وقّعوا عليها، ومنهم اناطوليوس أسقف حلب. وقام بعده

توادونس، وكان في أيام والنس الملك الاريوسي على ما يظهر من رسالة باسيليوس الكبير العاشرة، حيث يثني كثيراً على توادوطس. هذا وقام بعده اكاشيوس ورقّاه إلى الاسقفية اوسابيوس أسقف سميساط. وذكر عنه سقراط (ك ٦ فصل ١٨) إنه كان من المحامين لفم الذهب، وأثنى عليه سوزومانوس (ك ٧ فصل ٢٨) بأنه لم يترك عيشته الرهبانية النسكية بعد أن صار أسقفاً، وإنّ بابه كان مفتوحاً دائماً لكل محتاج. وقال القديس باسيليوس (في رسالته ١٤٤) إنه تعلّم منه أموراً كثيرة. وجاء عنه في رسالة أساقفة المشرق إلى توادوسيوس الملك أنه عاش مئة وعشر سنين مناضلاً فيها عن تعليم الانجيل. وشهد مجامع كثيرة واستمر في الاسقفية خمسين سنة.

ومن أساقفة أباميا (قلعة المضيق) في هذا القرن يوحنا وقّع على رسوم المجمع القسطنطيني الاول، والقديس مرشلس وكان في عهد الملك توادوسيوس وقتله الوثنيون لأنه عنيَ بتدمير هيكل المشتري كما مرّ في الكلام عن هذا الملك. وخلفه القديس يوليانس (كتاب سورية المقدّسة).

ومن أساقفة حمص في هذا القرن اناطوليوس، كان من آباء المجمع النيقوي ويسمى في النسخ اللاتينية لهذا المجمع انطونيوس، وهو خطأ لأنه شهد أيضاً المجمع الانطاكي سنة ٣٤٠م وترى توقيعه فيه، اناطوليوس أسقف حمص لا انطونيوس. وكان أيضاً اوسابيوس أسقف حمص وقد قدمنا ترجمته لأنه من جملة المؤلفين الشهيرين. وقام بعده بولس الاول متشيعاً لجيورجيوس البطريك الاسكندري واكاشيوس القيصري وغيرهما من الاريوسيين. ووقّع معهم على قانون ايمان وضعوه، وخلفه غاسيوس وكان كاثوليكياً وصديقاً مخلصاً للقديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي، وقد ذكراه في بعض كتبهما. وقام بعده شيرياكس وكان من المناصرين لفم الذهب. فنفاه الملك اركاديوس إلى بلاد الفرس. ذكره بلاديوس في ترجمة فم الذهب.

ولم نعلم من أساقفة بعلبك في هذا القرن إلّا أسقفاً ذكر عنه اوسابيوس أنه كان في بعلبك في أيام قسطنطين الكبير ولم ينبئنا ما اسمه (عن لكويان في المشرق المسيحي). وكذلك لم نعرف من أساقفة تدمر في هذا القرن إلّا مارينس الذي يُرى توقيعه على المجمع النيقوي، مارينس أسقف تدمر. وكذلك جناديوس أسقف يبرود.

وعرفنا من أساقفة دمشق في هذا القرن مانيوس. شهد المجمع النيقوي ووقّع عليه، والمجمع الانطاكي الذي التأم سنة ٣٤٠م. ثم فيلبس حضر المجمع القسطنطيني الاول ووقّع عليه. ومن أساقفة بانياس في القرن الرابع فيلوكالس شهد المجمع النيقوي ووقّع عليه. ثم مرتيريوس كان في أيام يوليانس الجاحد وتكلّم عليه كثيراً ساخراً منه فأماته الملك محروقاً. ثم بارانس شهد المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م ووقّع عليه (عن لكويان في المشرق المسيحي في كلامه عن كنائس هذه المدن).

ومن أساقفة حوران وما يليها ميكوما أسقف بصرى، وبطرس أسقف خرساء، وشيريون أسقف فيلادلفيا وهي عمان، وقّعوا على رسوم المجمع النيقوي، واورانيوس أسقف اذرعات وقّع على المجمع القسطنطيني الاول.

ولا ينبغي أن نغفل في هذا المقام عن القديس اوسابيوس أسقف سميساط الذي كان مضطرماً بالغيرة المقدّسة على المدافعة عن الايمان ومناضلة الاريوسيين. وقد زار بأمر الحبر الروماني كنائس سورية وفينيقية وفلسطين متنكراً بزّي جندي. وأقام كهنة وأساقفة في أماكن شتى من هذه البلاد حيث وجد حاجة إلى ذلك. فلم يتحمّل الاريوسيون مناصبته لهم وسعوا به لدى الملك والنس فأمر بنفيه إلى تراسة. ولما بلغ إليه منفذ أمر الملك مساءً، حرّصه أن يكتم سرّ وفادته لئلا يطرحه الشعب في النهر لحنقهم. وبعد أن أقام صلاة المساء مع كهنته واستولى الظلام، انسلّ خفيةً ومعه خادم يحمل له قليلاً من الزاد وكتاب فرضه. وركب سفينة من الفرات إلى زغما (مدينة على الفرات) ولما عرف مسودوه في اليوم التالي سفره أكثروا من الاسف والحسرات على براح راعيهم، وركب جمّ غفير منهم السفن وأدركوه في زغما، فتوسلوا إليه بدموع سخيّة ألّا يغادرهم فريسة للذئاب، فتلا عليهم أقوال الرسول الآمرة بالطاعة للملوك. ولما رأوا أنه لا يمكنهم ردّه عن عزمه قدّموا له ذهباً وفضة وملابس وخداماً فاقتصر على قبول شيء يسير من أخصائه، وحرّضهم على التشبث بعرى الايمان القويم، ومضى في طريق منفاه. فعيّن الاريوسيون مكانه اونوميوس وكان معروفاً برقّة الاخلاق والدعة فلم يشأ أحد من سكان سميساط أن يراه بل كان يوماً يستحم وأتى بعضهم إلى المحل فلم يشأوا أن يستحموا في الماء الذي كان فيه قبل أن بدلوه بغيره. فترك مدينتهم. فأرسل الاريوسيون مكانه لوشيوس وكان معروفاً بغلاظة الاطباع فلم يدنُ منه أحد بل بينما كان يوماً في الشارع راكباً أتاناً

واولاد يلعبون بالكرة، مرّت كرة أحدهم بين رجلَي الاتان فصرخ الاولاد، وأضرموا ناراً طهّروا الكرة بها قبل أن يلعبوا بها. فنفى لوشيوس كثيرين من أجلاّء كهنتهم. (روى ذلك توادوريطوس ك ٤ من تاريخه فصل ١٣ و ١٤ و ١٥ والقديس باسيليوس في رسالته ١٦٨).

وكان في هذا القرن في يبنة مدينة فلسطين الاسقف بطرس، شهد المجمع النيقوي، واليان شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في اللدّ (عدا استيريوس السابق ذكره) اتيوس شهد المجمع النيقوي، ودنيسيوس شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في عمواص لنجينس، وقّع على المجمع النيقوي، وروفس على المجمع القسطنطيني الاول. وفي نابلس جرمانس كان من آباء المجمع النيقوي وتوقيعه بعد البطريرك الأورشليمي. وروفس من آباء المجمع القسطنطيني الاول. وكان في السامرة مارينس من آباء المجمع النيقوي، وبرستيانس وقّع على المجمع القسطنطيني الاول. وكان في حبرون وهي الخليل مكرينس وقّع على المجمع النيقوي. وفي اريحا جنارس من آباء المجمع النيقوي. ومكروس من آباء المجمع القسطنطيني الاول. وفي أشدود الاسقف سلوان نرى توقيعه على المجمع النيقوي. وفي عسقلان كان سابينس الذي روى توادوريطوس أنّ يوليانس الجاحد اضطهده وكان من آباء المجمع النيقوي. وفي غزة بعد القديس سلوانس الذي استشهد في عهد ديوكلتيان قام اسكلابيوس وشهد المجمع النيقوي وكان ميالاً إلى الاريوسيين، لكنه ارعوى عن ذلك واتهمه الاريوسيون في مجمعهم في صور بأنه ارتيكي. وقد أعلن مجمع انطاكية ومجمع سرديكا سنة ٣٤٧م أنه كاثوليكي. وحنق عليه الاريوسيون فعزلوه عن كرسيه. فلجأ إلى الحبر الروماني يوليوس الاول، فردّه إليه. وبعد وفاته خلف ارميا وكان في أيام الملك توادوسيوس. وكان في باسان بتروفيلس وكان اريوسياً وشهد المجمع النيقوي مشايعاً الاريوسيين وكان في مجمع صور كذلك، وقالوا إنه كان استاذ اوسابيوس أسقف حمص المذكور فأرضعه سمّ البدعة وعُزل عن أسقفيته في مجمع سلوقية (بايسورية) وخلفه سقراط سنة ٣٥٩م ثم سافرنينس، وقد شهد المجمع القسطنطيني الاول. كل ما مرّ ملخّص عن الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة لباجيوس في كلامه عن هذه الكنائس.

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء الاساقفة في سورية من مشاهير الاساقفة والعلماء في غيرها

إننا رغبةً في توفير الفوائد وإرضاءً لمطالعي كتابنا لا نقتصر على ذكر الاساقفة والعلماء غير السوريين، على أننا نوجز الكلام في هؤلاء لخروجه عن دائرة غرضنا. ونستهلّ بذكر مشاهير السريان في هذا القرن لأنهم الاقرب إلينا، ونعتمد في ترجماتهم خاصةً على أقوال الاستاذ والعلامة السيد يوسف سمعان السمعاني في المكتبة الشرقية، ونعمَ المعتمد.

عد ٥٨٢
مشاهير علماء السريان في هذا القرن

فالاول من هؤلاء في هذا القرن القديس يعقوب النصيبيني، وُلد في نصيبين ودأب منذ حداثته في السيرة القشفة النسكية، واشتهر في أيام الملك مكسيمينس بمناضلته عن الايمان القويم، وبصنع الله على يده آيات ومعجزات. ورقي إلى أسقفية مدينته قبل المجمع النيقوي. وأتى إلى هذا المجمع مع القديس افرام تلميذه، وكان فيه بطلاً صنديداً في المدافعة عن الايمان الكاثوليكي. وقد حاصر في أيامه سابور ملك الفرس مدينته نصيبين سنة ٣٣٨م وحوّل مياه النهر الجاري هناك إلى أسوارها فقوّضها. وبينما كان يأمل أن يدخل المدينة في اليوم التالي آمناً رأى في الغد الاسوار بصلوات الاسقف القديس قائمة على ما كانت عليه. فيئس من فتحها، وتيقّن أنّ الله يدافع عنها، فانصرف عن المدينة. روى هذه الآية بإسهاب توادوريطوس (في ك ٢ من تاريخه فصل ٢٨)، وفيلوسترجيوس (ك ٣ عد ٢٣)

وذكر له توادوريطوس آيات أخرى عديدة في كتابه المعنوَن فيلوثاوس (أي محب الله). ولقي يعقوب ربه في تلك السنة نفسها أو سنة ٣٣٨ على ما روى ديونيسيوس لطريرك اليعاقبة في الكرونيكون، ومؤلف تاريخ الرها، ويعيّد لذكره في الكنيسة الرومانية في ١٥ تموز. وفي كنيسة الروم في ٣١ من تشرين الاول. وفي كنيسة الموارنة في ١٣ ك ٢. (ملخّص عن السمعاني في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧). وقال السمعاني (في المحل المذكور صفحة ١٩) لم نرَ القديس ايرونيموس ذكر القديس يعقوب النصيبيني في عداد المؤلفين البيعيين، ولم يقل توادوريطوس في كتابه فيلوثاوس أو في تاريخه أنه كتب شيئاً.وقد عظّمه علماء السريان ولم يشيروا إلى شيء من التأليف له، ولم يستشهدوا بشيء من أقواله، ومع هذا عزا إليه جناديوس (في كتابه في عداد المؤلفين) تأليف مقسّم إلى ستة وعشرين كتاباً في الايمان وفي الردّ على المبتدعين، وفي المحبة العامة إلى غيرها. وقال هذا المؤلف إن كان ايرونيموس لم يذكر يعقوب بين المؤلفين فذلك لأنه كان يجهل اللغة السريانية. وقد مدح كتب القديس افرام اليونانية، ولم يذكر تآليفه السريانية. على أنّ السمعاني ردّ قول جناديوس هذا وخرجه على أنه لم يميّز بين يعقوب السروجي ويعقوب النصيبيني. وقال عزا إليه الحاقلي (في شرحه قصيدة الصوباوي) نافوراً للقداس والصحيح أنّ هذا النافور للسروجي أيضاً. أقول أنّ في مكتبة بطريركيتنا كتاب خطب للقديس يعقوب النصيبيني ترجمه عن الارمنية إلى اللاتينية نيقولاوس انطونلي وطُبع في روما سنة ١٧٥٦م إذ كان السمعاني فيها. ولم أرَ السمعاني أتى بذكره في مكتبته. فادع لمن أسعدهم الحظ أن ينقبوا في مكاتب اوروبا أن يقضوا أهو ليعقوب حقيقة أم لغيره. وقد أنبأني أحد أساقفة الارمن أنّ هذا الكتاب من أفصح ما كُتب بالارمنية.

القديس افرام السرياني وُلد في مدينة نصيبين في أيام الملك قسطنطين، والاظهر أنّ والديه كانا وثنيين. ومنذ ترعرع ترك أباه أو طرده أبوه من بيته لأنه خالفه في عبادة آلهته. فلجأ إلى الكنيسة إلى القديس يعقوب المار ذكره. واعتنق الدين المسيحي فعمّده الاسقف وأصحبه إلى نيقية ليشهدا المجمع النيقوي. ولما توفي القديس يعقوب سنة ٣٣٨م كما مرّ، هاجر افرام إلى الرها واتخذ السيرة الرهبانية بين الرهبان المتنسكين في الجبال القريبة من هذه المدينة. ثم مضى إلى مصر يتفقد حالة النساك في الاسقيط فأقام بينهم ثماني سنين منافساً لهم في

أعمال الفضيلة ومعلماً ومرشداً إلى سواء السبيل في الايمان والتقى، ومناضلاً من تلطخوا ببدعة آريوس. ثم عاد إلى الرها وانضوى إلى اكليرسها، وأمّ القديس باسيليوس الكبير في قيصرية الكبادوك فاستقبله بالتجلة والتكريم ورقاه إلى المرتبة الشماسية، وعاد إلى الرها معلماً الشعب بخطبه وتفسيره الاسفار المقدّسة وتأليفه الترانيم الروحية على أوزان بعض الاغاني العالمية، وتعليمها للشبان والشابات ليرنموا بها في الكنائس ويستجلبوا المؤمنين إليها. وكان يناضل هراطقة زمانه كالاريوسيين، ويقاوم بخطبه وأبحاثه زنباع بن ديصان المشهور. وجاء في ترجمته التي أثبتها السمعاني (في مجلد١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٥ وما يليها) نقلاً عن بعض الكتب السريانية المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية إنّ الله شرّفه بصنع آيات شتى على يده منها أنّ رجلاً اسمه افرام أيضاً كان قندلفتاً في الكنيسة شغف ببنت أحد رؤساء المدينة وزاناها فحملت، ولقّنها أن تقول لأهلها إذا سألوها أنّ افرام الراهب خدعها فعلقت منه، ثم سألها أبوها فقالت ما تلقّنت. ولما ولدت أتى أبوها بالولد واستدعى افرام أمام الاسقف والكهنة وقال له خذ ابنك فربّه. فبكا افرام بكاءً مراً وأخذ الطفل متضرعاً إلى الله بمدامع سخيّة أن يفرج ضيقه، ويزيل العثار الذي سيكون من هذه التهمة له. وفي ذات يوم بينما كان الاسقف والكهنة والشعب في الكنيسة دخل افرام إليها والطفل على ذراعيه واستأذن الاسقف أن يصعد على المنبر، فصعد وقال للطفل علانية أقسم عليك أيها الرضيع بسم يسوع المسيح خالق السماء والارض أن تقول الحق ابن مَن أنت؟ فصاح الولد على مسمع الشعب افرام قندلفت الكنيسة أبي. وأعاد ذلك ثلاث مرات، ومات الطفل لساعته فمجد الاسقف والحاضرون الله.

ومما جاء في هذه الترجمة أنه مرّ يوماً على النهر المسمى ديصان فوجد نسوة يغسلنَ ثيابهنّ، وأخذت احداهنّ تحدّق به بلا خجل فقال لها اطرقي في الارض. فأجابته عليك أنت الرجل أن تنظر في الارض لأنك منها أُخذت في البدء ويجمل بي أن أنظر إليك لأني منك أُخذت، فعجب بحكمتها. وروى سوزومانوس أيضاً هذه القصة قائلاً إنّ هذه المرأة أتت تراوده عن نفسه أو مرشوة من غيرها وأشرفت عليه من نافذة فجرى بينهما ما مرّ من الحديث. وإنّ افرام كتب بعد ذلك كتاباً مخصوصاً بهذا المعنى ذكره السريان بين كتبه. وقد عُرض عليه أن يرقى إلى الاسقفية فأظهر على نفسه أنه جنّ فراراً منها. وقد أدركت

المنية هذا القديس العلامة في ١٥ حزيران أو في ٩ منه سنة ٣٧٢ أو سنة ٣٧٣م.

قد أثبت السمعاني (صفحة ٥٥ من المجلد المذكور) إنه كان يعلم من اللغات العبرانية واليونانية والمصرية عدا لغته السريانية التي هو استاذها. فيتّضح من تفسيره الاسفار العبرانية أنه كان خبيراً بهذه اللغة. ومن استشهاده بالترجمة السبعينية، وبأقوال الآباء الذين كتبوا باليونانية أنه كان خبيراً باليونانية. ومن استشهاده بترجمة القديس انطونيوس الكبير التي كتبها القديس اثناسيوس بالمصرية أنه كان يعلم هذه اللغة أيضاً وكتب شيئاً فيها.

وقد لقّبه العلماء السريان بملفان البيعة، وكنارة روح القدس ونبي السريان. وقال فيه القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ١١٥): «افرام شماس كنيسة الرها ألّف كتباً كثيرة في اللغة السريانية، وقد اتصل من الشهرة والتوقير إلى أنّ بعض الكنائس تتلو ما كتبه على الشعب في الكنائس بعد تلاوة منتخبات الاسفار المقدّسة. وقد طالعت في اليونانية كتابه في الروح القدس مترجماً عن السيريانية، ووجدت فيه قمّة الذكاء السامي في الترجمة أيضاً. وقضى نحبه في أيام والنس الملك» وقال فيه أحد الآباء القديسين: «إني أعجب بهذا الرجل الذي عاش على ضفّة الفرات وكان ضليعاً بتعاليم الكنيسة الرومانية حتى نحسبه عاش على ضفّة نهر تيبر في روما». وقد أثنى عليه ثناءً جزيلاً سوزومانوس في تاريخه (ك ٣ فصل ١٦) ومما قال فيه: «إنه أرفع من كل ثناء. وقد زيّن الكنيسة الكاثوليكية أفخر زينة وفاق الكتّاب اليونانيين بحكمته ورونق كلامه وأصالة رأيه وسداد برهانه. فإذا ترجمت كتبهم إلى السريانية أو غيرها من اللغات أضاعت رونقها وانحطت عن مقامها. وأما كتب افرام فقد تُرجم بعضها من السريانية إلى اليونانية .وما برح بعضها يُترجم إلى الآن، ويقضي قارئها باليونانية بالعجب من فصاحتها وانسجامها ودقّة معانيها كمن يقرأها في أصلها السرياني الذي كُتبت فيه. وباسيليوس أسقف قيصرية الكبادوك قد دُهش بهذا الرجل، وتحيّر بما أوصله إلى هذه الفصاحة السامية. انتهى كلام سوزومانوس ملخّصاً.

وأما ما كتبه هذا النادرة فيشذّ عن العد. فقد عزا إليه السريان اثني عشر ألف قصيدة، والقبط أربعة عشر ألف قصيدة. فقد جاء في كتاب تراجم القديسين عندهم في ١٧ ابيب: «ووضع مقالات وميامر كثيرة جداً، وقد وُجد في بعض

النسخ أنّ الذي قاله بروح القدس أربعة عشر ألف قول». وقد فسّر أسفار العهدين القديم والحديث تفسيراً موجزاً سديداً. على أنّ السمعاني قال إنّ تفسير العهد الجديد الذي ذكره ابن صليبا وابن العبري لم يبلغ إلى يدنا. وذكر القديس ايرونيموس كتابه في الروح القدس كما رأيت، وعد العلامة السمعاني خمس عشرة قصيدة في تجسّد المخلّص، وخمس عشرة قصيدة في الفردوس، واثنين وخمسين قصيدة في الكنيسة، واحدى وخمسين قصيدة في التبتل، وسبعاً وثمانين قصيدة في الايمان، وستاً وخمسين قصيدة في الردّ على البدع، وخمساً وتسعين مرثية وانشودة في الموتى والصلوة عليهم، وخمس عشرة قصيدة في الحثّ على التوبة، واحدى وثلاثين خطبة في موضوعات شتى. وذكر أنّ له مقالات وصلوات وافرة العدد في العربية مترجمة عن السريانية بلغ عدها إلى ست وخمسين مقالة. وإنّ له في اليونانية أربعة عشر كتاباً مخطوطة في المكتبة الواتيكانية لم تُطبع بعد. وذُكر من كل هذه القصائد أو المقالات فاتحتها أو بعض فقرات منها. وقد طُبع من مؤلفاته في روما ست مجلدات، ثلاثة منها في اليونانية ترجمها إلى اللاتينية العلامة الأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني إلى أواسط المجلد الثالث. وترجم الباقي منه العلامة الآخر المطران اسطفان عواد ابن أخت السيد يوسف سمعان السمعاني. وقد وجد له السيد لامي أستاذ كلية لوفان (في البلجيك) في المتحف البريطاني وغيره قصائد ومقالات أخرى ضمّنها في ثلاث مجلدات أخرى، ومنها رواية في يوسف وبيع اخوته له من أحسن ما ينظم في هذا العصر من الروايات. وقد ذكرت في مقدماتي التي علقتها على طبعة كتاب صلواتنا الاسبوعية بعض تآليفه، وما دخل منها في كتب فرضنا وفرض الملكيين الكاثوليكيين تبارك الله الخالق.

وكان من علماء السريان في هذا القرن اسحق الشيخ تلميذ القديس افرام غير القديس اسحق السرياني الشهير. فإنّ هذا كان تلميذ زنوبيوس تلميذ افرام ويظهر أنّ اسحق الشيخ هذا كان قد اشتهر في سنة ٣٨٠م وأنه ألّف كتاباً في ثلاثة أقانيم الثالوث الاقدس وفي تجسّد الرب على ما رجحّ السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٦٥). وكان منهم أيضاً بالاي السرياني، ويظهر أنه كان في أيام اسحق المتقدّم ذكره، وقد ذكره ابن العبري في الادبيات (قسم ١ فصل ٢٥) والسمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٦٦)، وله قصائد وأناشيد ذكر السمعاني خمساً منها في المحل المذكور. ومنهم أيضاً زنوبيوس وهو تلميذ القديس

افرام، وذكره هذا القديس في وصيّته، ووصفه يوحنا برشوشان بمعلم القديس اسحق. وقال فيه عبد يشوع الصوباوي من قصيدته « زنوبيوس كتب رداً على مرقيون وعلى بمفيليوس ورسالة أنفذها إلى اسيدورس ولوشيلس وابراهيم ويعقوب».

عد ٥٨٣
مشاهير العلم في مصر في القرن الرابع

ومن المصريين القديس اثناسيوس الاسكندري، وُلد سنة ٢٩٦م واشتهر في المجمع النيقوي سنة ٣٢٥م بمناصبته الاريوسيين، وصير أسقفاً وبطريركاًعلى اسكندرية في ٢٧ كانون الاول سنة ٣٢٦م. على أنّ مناصبته الاريوسيين جعلته هدفاً لأسهم بغضائهم له، فحطّوه عن كرسيه أربع مرات وعاد إليه ظافراً. فقد شكوه اولاً إلى الملك قسطنطين بأنه علّة قلق في الكنائس، وأنه أثقل مسوديه بضرائب، وأنه مشترك مع أعداء الملك في مؤامرة عليه فافتضح كذبهم بهذه الشكاوى. فعادوا يلحّون على الملك بعقد مجمع لتوفيق الاساقفة، ويضمرون عزل اثناسيوس في ذلك المجمع. فأمر الملك بعقده فعُقد في صور سنة ٣٣٥م وأتى إليه أساقفة كثيرون وأكثرهم من الاريوسيين، وأوردوا عليه شكاوى عديدة منها أنهم أحضروا بغياً في وسط المجمع تدّعي أنها متبتلة لله وأنّ اثناسيوس افتضّ بكارتها مكرهاً لها. فنهض شماس اثناسيوس وقال لها أنا حللت عندك وافتضضتك؟ ومتى كان ذلك؟ فأجابته مشيرة إليه نعم أنت ضاجعتني في ليلة كذا ومكان كذا. فضحك أصحاب اثناسيوس وخجل شاكوه وافتضح كذب التهمة، فقرفوه بتهمة أخرى وهي أنهم أخرجوا يد رجل مقطوعة وقالوا ها هي يد ارسانيوس الاسقف الذي قتله اثناسيوس فهي تقضي عليه. وكانوا قد اتفقوا مع ارسانيوس أن يتغيّب في تلك المدة، فندم على مطاوعته لهم وأتى إلى اثناسيوس ليلاً (وفي رواية إلى بولس أسقف صور) يخبره عما كان، فأخفى القديس في محل عنده ولما أوردوا عليه هذه الشكوى أرسل خادمه فأشخصه ملففاً إلى المجمع. وسأل اثناسيوس الاساقفة هل تعرفون ارسانيوس؟ قال كثير منهم نعم نعرفه. ولما وصل سألهم أهذا ارسانيوس؟ قالوا نعم.وكان ملتحفاً بردائه فكشف القديس عن يمناه، فقال بعض خصمائه يسراه المقطوعة، فانتزع الرداء عنه فظهرت يداه سالمتين. فالتحف خصومه بالخجل وصاح بعضهم أنه ساحر،

وبعضهم فرّ من المجمع، وبعضهم وثبوا عليه ليقتلوه، فأنقذه مفوض الملك من بين ايديهم وأرسله ليلاً إلى الاسكندرية. وكان خصومه قد أرسلوا بعض المشايعين لهم للفحص عن شكاوى أخرى في الاسكندرية فلفّق هؤلاء ما شاءوا من البيّنات عليه وعادوا إلى زملائهم في صور، فحكموا بأكثرية الاصوات على اثناسيوس بالعزل عن كرسيه، ورفعوا عريضة بذلك إلى الملك قسطنطين يسألونه أن يبعده عن الاسكندرية تحوّطاً من القلق. وبعثوا برسائل إلى باقي الاساقفة يحذرونهم من الاشتراك معه ومن قبوله. أما القديس اثناسيوس فمضى إلى القسطنطينية يشكو أمره للملك فلم يسمع له اولاً، منخدعاً بما كتبه إليه أساقفة مجمع صور فاقتصر سؤاله على أن يستدعيهم الملك إليه ويسمع بنفسه شكواهم عليه بحضرته. فأمر الملك أن يحضروا جميعاً، فلم يحضر إلّا خمسة منهم: اوسابيوس القيصري، واوسابيوس النيكوميدي. ولفقوا تهمة أخرى عليه بأنه حاول أن يمنع شحن المؤن من مصر إلى العاصمة. وشغفوا ذلك باستئنافهم باقي التهم مستشهداً بعضهم بعضاً فحكم الملك قسطنطين على اثناسيوس بالنفي إلى تراف في بروسيا، إما منخدعاً بمزاعم هؤلاء الاساقفة، وإما لحرصه على حياة اثناسيوس لئلا يقتلوه، مضمراً أن يردّه إلى كرسيه بعد زوال القلق. فمضى القديس اثناسيوس إلى تراف راضياً صابراً.

وقد توفي الملك قسطنطين في ٢٠ أيار سنة ٣٣٧م وكان قد أمر بعود اثناسيوس إلى كرسيه، فعاد إليه سنة ٣٣٨م بعد أن قضى في منفاه سنتين واربعة أشهر، فلاقاه شعبه باحتفاء عظيم ومسرّة لا تقدّر. فعظم حنق الاريوسيين عليه وشكوه بتهمة أخرى، أنه باع لمنفعة نفسه المؤن التي تبرّع بها الملك قسطنطين على الارامل والاكليريكيين في مصر، ورفعوا شكواهم هذه إلى الملوك أبناء قسطنطين. فعقد اثناسيوس مجمعاً في مصر شهده نحو مئة أسقف من مصر وما يليها، ورفع هذا المجمع عريضة إلى يوليوس الحبر الروماني، وشفعوها ببيّنات ناطقة ببراءة اثناسيوس ومكائد خصائمه. وأرسل اوسابيوس أسقف نيكوميدية وفداً إلى روما؛ ولما رأى هؤلاء أنهم لم يتمكنوا من استمالة الحبر الروماني إليهم سألوه أن يأمر بعقد مجمع يحضر فيه اثناسيوس وشاكوه، فأجاب سؤالهم وكتب إلى اثناسيوس يكلفه إلى ذلك. ورأى الاريوسيون أنه لا يتيسّر لهم نيل ما يبتغون إذا كان الحبر الروماني قاضياً في المجمع. فآثروا أن يكونوا هم قضاة في ما يدعون على اثناسيوس بالحطّ عن كرسيه بحجّة أنه إذا عاد إليه دون مجمع بعد أن كان عُزل عنه في مجمع

واختاروا اوسابيوس الحمصي ليكون في أسقفية اسكندرية كما مرّ. فأبى لعلمه بتشيّع الاسكندريين لاثناسيوس، فاختاروا غريغوريوس الكبادوكي ورقوه في انطاكية، وسعوا لدى الملك فسمي في الاسكندرية والياً كبادوكياً أيضاً. فأدخل غريغوريوس على كنيسة الاسكندرية بالعنف والقسوة والاضطهاد حتى جرح كثيرون وسجن كثيرون وقتل البعض أيضاً. واضطر اثناسيوس لتخفيف مصاب شعبه أن يفرّ ويترك الكنائس للاريوسيين ويختبئ في مكان مجاور للاسكندرية، وكتب حينئذٍ رسالة مسهبة لجميع الاساقفة ينبئهم فيها بما كان من الاضطهاد على شعبه، ويستفز غيرتهم إلى تدارك الشرّ والابتعاد عن غريغوريوس الدعّي المضطهد، وسافر إلى روما ليشهد المجمع الذي كان الاريوسيون أنفسهم سألوا الحبر الروماني عقده. وقد أنبأنا سقراط (في ك ٢ من تاريخه فصل ٥) وسوزومانوس (في ك ٣ فصل ٨) والمؤرخان يونانيان أنّ يوليوس الحبر الروماني نظر في دعاوي اثناسيوس ومرشلس أسقف انكورة، واسكليباس أسقف غزة وغيرهم من أساقفة تراسة وسورية وفينيقية، وأمر بحسب السلطان المختصّ بكرسيه الروماني أن يعود كلٌ منهم إلى كرسيه، فعادوا مستندين إلى الاوامر السامية التي أصحبهم بها. وكتب البابا إلى الاساقفة الاريوسيين أن يحضروا إلى المجمع الذي سألوه هم عقده، فأجابوا مقرّين بسلطته العامة على الكنيسة، ومتقاعسين عن الحضور بحجّة الحرب مع الفرس. ثم عُقد سنة ٣٤٧م مجمع سرديكا (وهي صوفيا مدينة البلغار) فبرّأ ساحة اثناسيوس من كل تهمة، وحكم بإعادته إلى كرسيه، واستدعاه قسطنس الملك مكرراً الدعوة فامتثل لديه في انطاكية فأكرمه وأمر بعوده إلى كرسيه، فكان عوده مدعاة لمسرّة الشعب والاساقفة المصريين.

على أنّ انتصار اثناسيوس في مجمع سرديكا وعزل بعض الاساقفة الاريوسيين فيه زاداهم تهيجاً على اثناسيوس، فبذلوا قصارى جدّهم في تغيّر قسطنس عليه بوشايات منها أنه كان ينم فيه لأخيه قسطنت، وأنه كان محازباً لماينس عدو هذا الملك. وكتب له رسالة ومنها أنه دشّن كنيسة في الاسكندرية دون رخصة الملك، مع أنّ الملك كان قد تبرّع بنفقة بنائها حتى أوغروا صدره عليه. وأرسل كاتب سرّه وبعض عماله آمراً قائد جيشه أن يقبض على اثناسيوس الذي طلب الاطلاع على أمر الملك فلم يجبه على سؤاله، بل بينما كان في الكنيسة وهي غاصّة بالشعب احتاط الجند الكنيسة وأخذوا يرمون الشعب بالنبال، فقُتل وجُرح كثيرون وتسارع الباقون للفرار، والقديس جالس على كرسيه إلى أن حمله ذووه رغماً عليه وأخفوه

في محل. ولما تيسّر له الفرار خرج إلى البرية يزور النساك والمتوحدين، وكان ذلك سنة ٣٥٦م وأذاع حينئذٍ كتب دفاعه عن نفسه، ورفعه إلى قسطنس الملك وتوغّل في البرية متفرغاً لانفاذ رسائله لشعبه وبعض الاساقفة مفنداً فيها ضلال الاريوسيين. ثم توفي الاسقف الذي نصبه الاريوسيون فعاد القديس اثناسيوس إلى كرسيه، وعقد مجمعاً شهده كثيرون من الاساقفة الذين كانوا منفيين. ونبذ ضلال الاريوسيين وغيرهم من أصحاب البدع، ووضع طريقة لقبول الهراطقة المرتدين إلى الايمان الكاثوليكي. وأثبت البابا ليباريوس ما سنّه مجمع الاسكندرية، وارتدّ كثيرون من الهراطقة والوثنيين أيضاً إلى الايمان القويم. فشقّ ذلك على الملك يوليانس الجاحد فكتب إلى أهل الاسكندرية رسالته السادسة والعشرين أمر اثناسيوس بها أن يخرج من الاسكندرية يوم علمه بهذه الرسالة وإلّا فيجزى شرّ الجزاء. فرفع الاسكندريون جميعاً إليه رسالة يسألونه فيها أن يبقى اثناسيوس في مدينتهم، فأجابهم برسالته الحادية والخمسين ساخراً منهم ومهدداً لهم، وآمراً بأن يخرج اثناسيوس من مصر كلّها بل أمر بعداً بقتله. فازدحمت الاقدام في داره يبكونه، فقال لهم إن هذه أيضاً إلّا سحابة سريعة الانقشاع. وركب سفينة سار بها بالنيل نحو الصعيد يتعقبه المأمور بقتله. ونبّه اثناسيوس إلى ذلك فترك صحبه وانثنى نحو الاسكندرية، وسأل المأمور رفقته أين تركتموه؟ فقالوا هو قريب منك. فجدّ في سيره إلى الامام والقديس إلى الوراء، ثم خرج إلى البرية. ولما مات يوليانس ظهر اثناسيوس بغتةً في الاسكندرية وتسارع شعبه إلى الاحتفاء بقدومه. وكتب إليه الملك يوفيان رسالة يبجّله ويثني عليه فيها أطيب الثناء. ثم كتب إليه ثانيةً يسأله أين يبين له ايمان الكنيسة الكاثوليكية الصحيح فأجابه برسالة مسهبة مدارها على أنّ قانون المجمع النيقوي هو أس الايمان القويم. وعاش القديس اثناسيوس بعد ذلك مستريحاً منكبّاً على التآليف النافعة للايمان الكاثوليكي إلى أن لقيَ هذا الجهبذ الهمّام والبطل المغوار ربه في الثاني من أيار سنة ٣٧٣م بعد أن استمرّ في الاسقفية ٤٦ سنة (ملخّص عن توادوريطوس وسقراط وسوزومانوس وغيرهم).

وأما ما ألّفه من الكتب والرسائل، فأشهره تفسيرات الاسفار المقدّسة، وكتابه في تجسّد يسوع المسيح، وكتابه في لاهوت الروح القدس وانبثاقه، وكتابه في الاستحالة ووجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدّس، وكتاب دفاعه عن نفسه رفعه إلى الملك قسطنس، ورسائل ومقالات تشذّ عن العدّ، وكتابه في ترجمة

القديس انطونيوس الموصوف بالكبير والمكنّى بأبي الرهبان. وروى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٠) إنّ في المكتبة الواتيكانية نسخة سريانية من كتابه في التجسد خطت سنة ٥٦٤م، وإنّ له نافوراً سريانياً فاتحته، «أيها الرب القوي» ذكره الدويهي في عد ١١، وإنّ له في المكتبة المذكورة كتاباً بالعربية ضد اليهود، وإنّ هذا الكتاب العربي النفيس هو نفس الكتاب اليوناني المعنوَن أسئلة اليهود والهراطقة وأجوبة المسيحيين عليها. ويرجّح القول الاول. وأثبت نطاليس اسكندر أنّ له كتاباً في البتولية. وقال إنه تعزى إليه كتب ومقالات أخرى كثيرة ليست له حقيقة (ومن شاء الاسهاب في ذلك فليطالع الفصل ٦ من تاريخ نطاليس اسكندر في القرن الرابع). وإليك ما ذكره القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٨٧) من كتب القديس اثناسيوس «رووا أنّ له كتابَين ضد الامم وكتاباً ضد فانس وارشاسيوس، وكتاباً في البتولية، وكتباً كثيرة في اضطهادات الاريوسيين، وفي عنوانات الزبور، وكتاباً في ترجمة القديس انطونيوس الراهب، ورسائل ومقالات يطول الكلام في مجال تعدادها».

وكان في مصر أيضاً انطونيوس الكبير معلّم السيرة الرهبانية، وُلد سنة ٢٥١م في قرية بمصر العليا اسمها كوما (أو قوما) من أسرة غنية، وباع ما كان يملكه واعتزل في البرية متنسكاً متهجداً وعمره عشرون سنة. وقام اولاً في البلاد المعروفة اليوم بالفيّوم، ثم توغل في البرية وانضوى إلى تدبيره تلامذة كثيرون، كان مدبراً لهم في السيرة النسكية الملكية. وأقام أدياراً كثيرة يضمّ إليها تلامذته، واضعاً لهم دستوراً واحداً يستسير جميعهم بموجبه. وترك عزلته آتياً إلى الاسكندرية مرتين، الاولى سنة ٣١١م ليشجّع المسيحيين في اضطهاد الملك مكسيمينس، والثانية سنة ٣٥٥م ليدافع عن الايمان الصحيح مفنداً ضلال الاريوسيين. وكان يؤثره جميع الناس حتى الوثنيون، ويجلّه الملوك. ورقد بالرب سنة ٣٥٦م وعمره مئة وخمس سنين. على ما روى القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٨٨). وكتب القديس اثناسيوس كتاباً برمته في ترجمة هذا القديس مورداً تجارب ابليس له وانتصاراته عليها، ويصوّره المصوّرون وبجانبه خنزير فكأنه رمز إلى الشيطان. والباقي من تآليفه سبع رسائل وقانون للسيرة الرهبانية وخطب كثيرة مثبتة في مكتبة الآباء وقد كتبها باللغة المصرية، ثم تُرجمت إلى اللغة اليونانية وغيرها. وتعيّد لذكره الكنيسة اللاتينية وكنيستنا المارونية في ١٧ ك ٢ .

وكان في مصر أيضاً سرابيون ذكره القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٩٩) قائلاً: «إنه كان ناسكاً في الصعيد فصير أسقفاً ولُقّب لتوقّد ذكائه بالجدلي. وكان القديس انطونيوس يحبه كثيراً، وألّف كتاباً بديعاً فند به ضلال المانويين، وكتاباً آخر في عنوانات الزبور، وله رسائل عديدة مفيدة وتشرّف بالاستشهاد في أيام الملك قسطنس». ويظهر أنّ القديس اثناسيوس رقاه إلى الاسقفية سنة ٣٤٠م، ويعيّد لذكره في كتاب تراجم القديسين الروماني في ٢١ آذار. وقد أثنى عليه القديس اثناسيوس في كتابه في الروح القدس.

ومن هؤلاء ديديمس قال فيه القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ١٠٩) «ديديمس الاسكندري فقد باصرتيه منذ حداثته وتعلّم الفلسفة بل الهندسة أيضاً التي تحتاج إلى النظر أكثر مما سواها، وتكامل بالعلوم والفنون حتى كان أعجوبة لكل ناظر إليه. وقد ألّف كتباً عديدة بديعة فكتب تفسيراً لكل الزبور، ولانجيلَي متى ويوحنا. وكتاباً في عقائد الدين وكتابين فند فيهما ضلال الاريوسيين وكتاباً في روح القدس ترجمته أنا إلى اللاتينية (هذا المؤلف في ترجمة ايرونيموس مقسوم أربعة كتب)، وعشرة كتب في تفسير نبوّة اشعيا، وثمانية في نبوّة هوشع، وبعث إليّ بثلاثة كتب في تفسير آيات من الاسفار المقدّسة، وكتب خمسة كتب في نبوّة ذكريا قد اقترحتها عليه، وفسّر سفر ايوب في غير ذلك... وهو حيّ إلى الآن وقد جاوز الثالثة والثمانين من عمره» وقد كتب ايرونيموس سنة ٣٩٢م وتوفي ديديمس سنة ٣٩٦م.

عد ٥٨٤

مشاهير الآباء والعلماء في آسيا في هذا القرن

القديس باسيليوس

وممن كانوا في هذا القرن في آسيا الصغرى القديس باسيليوس الكبير أسقف الكبادوك، وُلد سنة ٣٢٩م في قيصرية الكبادوك وهو أخو القديس غريغوريوس النيصصي، ودرس أولاً الفلسفة في القسطنطينية وأثينا، وكان صديقاً للقديس غريغوريوس النزينزي الآتي ذكره، وللامير يوليان إذ كان كاثوليكياً، وهو الذي تسنّم

بعداً اريكة الملك وجحد الايمان فلقّب بالجاحد. ثم انتقل باسيليوس إلى انطاكية فتعلّم الفصاحة والخطابة عند ليبان الخطيب الانطاكي المار ذكره. وعلم بعد ذلك الفصاحة في قيصرية، وباشر مدة مهنة محامي الدعاوي، على أنه هجر العالم سنة ٣٥٨م، ولزم العزلة في برية بنطس، وأقام هناك ديراً بُنيت على مثاله أكثر أديار الرهبان في المشرق. ثم رقي إلى الاسقفية على مدينته قيصرية سنة ٣٧٠م، وعكف بغيرة متّقدة على الذب عن عقائد الدين الصحيح مناصباً كثيرين من المبتدعين، وبذل قصارى عنايته في ايجاد السلم والوفاق في الكنيسة. ولم يهب الملك والنس ولم ترعه تهديداته له ليتبع ضلال الاريوسيين. وهمّ الملك بنفيه واضطرّ أن يحجم عنه لموت ابنه واعتقاد الجمهور أنّ الله عاقبه بذلك لمصادرته الاسقف. ولقي القديس باسيليوس ربه في سنة ٣٧٩م، وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ١٤ حزيران. وقد ذكره وأثنى عليه أطيب الثناء سقراط (ك ٤ فصل ٢٦) وسوزومانوس (ك ٦ فصل ١٦ وما يليه).

وقد عد القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ١١٦) مؤلفاته قائلاً: «صنّف كتباً يفند فيها مزاعم اونوميوس وكتاباً في الروح القدس وتسع مقالات في تفسير ستة أيام الخليقة، وخطباً ومقالات وافرة العدد». وذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين (فصل ١٣). «فقال باسيليوس الكبير ألّف كتاباً في تفسير ستة أيام الخليقة وأسئلة وأجوبة كثيرة وخطباً ورسائل مسهبة». ومما قاله السمعاني في شرح هذه القصيدة (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠) أنّ للقديس باسيليوس نافوراً (رتبة قداس) بالعربية، ومنه نسخة في المكتبة الواتيكانية في عد ١٦٩ من الكتب العربية، ومنه نسخة في القبطية في عد ١٢ وعد ٢١ من الكتب القبطية. وله نافور مترجم عن اليونانية إلى العربية مثبت في الكتاب ٤٢ و ١٥٧ من الكتب العربية في هذه المكتبة. وتجد فيها نافوراً له بالسريانية فاتحته: «أيها الرب الازلي الذي خلقت الانسان منذ البدء» ترجمه رينودوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في النوافير الشرقية. وطبع ثانية الترجمة التي كان وضعها منصور شلق الماروني سنة ١٦٠٤م لنافور باسيليوس عن العربية. وأما النافور الآخر المترجم من اليونانية إلى السريانية والذي كان الملكيون في سورية يستعملونه قبلاً. فقد ذكرته في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦١٥، وقد ذكر الدويهي نافورات باسيليوس في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكية عد ١٥ من كتابه المناير العشر. وله

في العربية كتاب محاورة بينه وبين غريغوريوس النزينزي وهو في عدد ١٧٠ من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية مترجماً عن كتابه في اليونانية الموسوم بالاسئلة والاجوبة بين باسيليوس وغريغوريوس اللاهوتي. وله أيضاً إثنا عشر قانوناً، ثم مئة وستة قوانين مأخوذة عن رسائله الثلاث في القوانين المنفذة إلى امفيلكتس. منها ٢٢ قانوناً في الكتاب العربي عد ٦٩، ومن أهم ما كتبه كتابه في التهذيب الرهباني وعنوانه «أسئلة الرهبان لباسيليوس الكبير أسقف قيصرية الكبادوك في التهذيب الرهباني» وهو مقسوم إلى ٣٤٠ سؤالاً شرح في أجوبته عليها ما يلزم الراهب في سيرته الروحية. وعنها أخذ كثير من الرهبانيات قوانينها في المشرق والمغرب كما أخذ كثير منهم أيضاً القوانين التي وضعها القديس انطونيوس الكبير. انتهى ملخصاً عن السمعاني في المحل المذكور.

غريغوريوس أسقف نيصص

هو أخو القديس باسيليوس وأصغر منه سناً، وُلد في سبسطية (الكبادوك) سنة ٣٣٠م وعلم الفصاحة، وكان متزوّجاً ثم ترك امرأته برضاها وتجنّد لله. ورُقي إلى درجة الكهنوت، ثم صير أسقفاً على نيصص أو نيصا (في الكبادوك) وطرده الاريوسيون من كرسيه، ولم يعد إليه إلّا بعد وفاة والنس الملك.وشهد المجمع الذي عُقد في انطاكية سنة ٣٧٩م، ثم المجمع المسكوني الثاني وهو القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. وانتقل إلى دار البقا في سنة ٣٩٦م وألّف كتباً كثيرة دالة على سمو مداركه وفصاحة كلامه، على أنها مشعرة بأنه منطقي أكثر من أن يكون خطيباً. والمشهور منها مقالات في تكوين الانسان، وفي المقدار، وفي البتولية، وفي الكمال المسيحي، وخطب في سفر يشوع بن سيراخ، ونشيد الانشاد، والصلاة الربيّة، ومقالة شهيرة في الربا، وخطب وتقاريظ منها تقريظ لأخيه القديس باسيليوس، وتآبين ومقالة في تراجم القديسين، ومقالات في شرح أيام الخليقة أحط من مقالات أخيه بهذا المعنى. وقد طُبعت كتبه هذه مرات، ومنها طبعة الأب مين في مكتبة الآباء سنة ١٨٥٨. وقال فيه القديس ايرونيموس (في المشاهير فصل ١٢٨) إنه «أخو باسيليوس القيصري وقد أطلعني منذ بضع سنوات وأطلع غريغوريوس النزينزي

على كتبه رداً على اونوميوس. ويقال إنه كتب كتباً أخرى وهو مشتغل في تأليف غيرها». وقال فيه عبد يشوع الصوباوي في قصيدته (فصل ٢١٤) غريغوريوس النيصصي له كثير من المباحث (لعل المراد كتبه رداً عل اونومبوس وهو ثلاثة عشر كتاباً) وتفسير للصلوة الربية والتطوبيات الانجيلية وكتاب كبير في الخطب. ومقالة في القيامة، وأخته، (كتبها عند موت أخته القديسة ماكرينة وعنوانها في النفس والقيامة) وكتاب في تكوين الانسان، وكتاب في الطبيعيات (وصحيح المراد كتابه في شرح ستة أيام الخليقة المار ذكره) وكتاب ضد الوثنيين وآخر في تفسير نشيد الانشاد، وقسمه إلى مجلدين، وكتاب في النفس (غير كتابه في النفس والقيامة). وروى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٢) إنّ له في السريانية (أي مترجم إليها) كتاباً أتى به من برية مصر إلى المكتبة الواتيكانية. وقد خط سنة ٩٣٢ للميلاد ثم حوى رسالة إلى توافيلس الاسكندري رداً على ابولينار وخمس خطب في تفسير الصلاة الربية، وثماني خطب في التطوبيات. وكتابه في تكوين الانسان موجّه إلى أخيه بطرس، وتفسيره نشيد الانشاد، وإنّ له نافوراً للقداس في السريانية غير نافورات أخيه. وإنّ له في العربية في المكتبة الواتيكانية خمسة قوانين من قوانين الكنيسة في المجلد الثاني منها، وتقريظاً للقديس افرام وفقراً أخرى في بعض الكتب القديمة.

القديس غريغوريوس النزينزي

وُلد في نزينزو في الكبادوك سنة ٣٣٨م ودرس العلوم في قيصرية فلسطين والاسكندرية. ثم مضى إلى مدارس أثينا وكان فيها مع صديقه القديس باسيليوس. ورقي إلى درجة الكهنوت ثم إلى الاسقفية على مدينة سازيما في الكبادوك. ثم صير أسقفاً معاوناً لأبيه الذي كان أسقفاً على نزينزو ويلقّب بالثاولوغس أي اللاهوتي. وقد مضى إلى القسطنطينية سنة ٣٧٥م وردّ كثيراً من الاريوسيين إلى الايمان القوي،م ورُقي بعناية الملك توادوسيوس الكبير إلى البطريركية القسطنطينية وأثبت انتخابه المجمع المسكوني الذي عُقد فيها سنة ٣٨١م. على أنّ الملك تغيّر عليه وعنّفه، فتنزّل عن البطريركية، وآثر العزلة في الكبادوك موطنه، وعكف على تأليف

الكتب العديدة الدالة على طول باعه وعلوّ مداركه وبلاغة كلامه. وقد لقي ربه سنة ٣٨٩م وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٩ إيار.

وأما كتبه المشهورة فهي كتاب الخطب مؤلفاً من خمسسين خطبة. وكتاب قصائد شعرية مؤلفاً من مئة وثماني وسبعين قصيدة منها قصيدة يصف بها تقلّب الدهر عليه ويعزى إليه مأساة (تراجديا) في آلام المسيح. وقد طُبعت مؤلفاته مرات. وطبعها الأب مين في مكتبة الآباء اليونان في أربعة مجلدات وله كتب أخرى سيأتي ذكرها. وقال فيه القديس ايرونيموس (في المشاهير فصل ١١٧) «غريغوريوس أسقف سازيما ثم نزينزو رجل تناهى بالفصاحة، وهو استاذي فقد تعلمت منه تفسير الاسفار المقدّسة. وقد بلغ ما ينظمه إلى ثلاثين ألف بيت من الشعر. ومن ذلك رثاؤه لأخيه قيصاريوس ومدايحه للمكابيين، وكبريانس، واثنايوس، ومكسيمس الفيلسوف. وله كتاب في التبتل والزواج، وكتاب في الرد على اونوميوس، وكتاب في الروح القدس، وكتابان يندد فيهما بالملك يوليان. وأتبع طريقة بوليمون (اللاذقي) في الخطابة، وأقام في حياته أسقفاً بدلاً منه وعكف على السيرة الرهبانية. وقد توفاه الله من نحو ثلاث سنين (وفي نسخة سنتين) في أيام توادوسيوس الملك» كتب ايرونيموس هذا سنة ٣٩٢م فتكون وفاة غريغوريوس سنة ٣٨٩م.

وقال فيه الصوباوي (فصل ١٥): «غريغوريوس الكبير أسقف نزينزو له خمس مجلدات اشعاراً، ومباحث لقيصاريوس، (أي حلّ بعض مباحث مهمة عزاها بعضهم إليه وكثيرون إلى قيصاريوس أخيه)، وكتاب مأساة (تراجديا في آلام المسيح)، وكتاب وضعه رداً على مؤلمي الاله (أي ابولينار). وقال السمعاني في شرح هذه الابيات (المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٣) إنّ له في السريانية مئة وثلاثين، قصيدة اشتمل عليها كتاب خطه على رق موسى النصيبيني سنة ٩٣٢م لدير الاسقيط وهو الآن في مكتبة الواتيكان. ونافور فاتحته: «أيها الإله الكلي الطوبى» وهو في مكتبة الواتيكان. وذكره الدويهي في الفصل الثاني عد ١٦ في كتاب المناير العشر. وله كتاب أسئلة وأجوبة وهو في هذه المكتبة أيضاً. وقال ابن العبري إنّ تآليف النزينزي عند السريان في مجلدين يشتملان على سبع وأربعين خطبة واحدى وثلاثين رسالة. وجعل يعقوب الرهاوي خطب النزينزي عند السريان خمساً وتسعين خطبة. ومما قاله السمعاني في المحل المذكور «إني قد رأيت في دير القديسة مريم للسريان في الاسقيط، ثلاثة كتب قديمة أولها كتب سنة ٨٤٥م في أيام

ديونسيوس بطريرك اليعاقبة، والثاني خُط سنة ٧٩٠م، والثالث لا تاريخ فيه. ففي الكتابين الاولين القسم الاول من مؤلفات النزينزي يشتمل على ثلاثين خطبة ترجمها من اليونانية إلى السريانية بولس أسقف قبرص سنة ٦٢٤م، والكتاب الثالث ينطوي على القسم الثاني من تأليفه وهو مقسوم إلى اثنتي عشرة خطبة وثلاثين رسالة من الرسالة السادسة والستين إلى السادسة والتسعين. والظاهر من ذلك أنّ السريان ترجموا من رسائل النزينزي أكثر ما ذكر ابن العبري.

عد ٥٨٥

مشاهير الآباء والعلماء من اللاتينيين في هذا القرن

القديس ايلاريون

ومن مشاهير آباء الكنيسة اللاتينية نذكر اولاً القديس ايلاريون، وُلد في بواتيا في افرانسا سنة ٣٠٠م من والدَين شريفَين وثنيين. وتنصّر بعد أن تعمّق في البحث عن الدين المسيحي. وقد انتدبه مواطنوه أسقفاً فرُقي إلى الاسقفية سنة ٣٥٠م، وكان من أفصح المدافعين عن الايمان. وقد شهد مجمع مديولان سنة ٣٥٥م، وامتاز بعلمه ورسوخه في معرفة عقائد الدين. فهاج عليه الاريوسيون الذين كان يناصبهم، ونفوه إلى فريجية بآسيا الصغرى. وشهد مجمع سلوقية بايسورية سنة ٣٥٩م يخاصم الاريوسيين أيضاً. ثم عاد إلى كرسيه، وادركته الوفاة سنة ٣٦٧م وقد كتب في اللاتينية اثني عشر كتاباً في الثالوث الاقدس يفند فيها مزاعم الاريوسيين، ومقالة مسهبة في المجامع، وتفسيراً لبشارة متى ولرسائل بولس الرسول وللزبور. وله ثلاث مقالات كتبها إلى الملك قسطنس وكتاب اشعار دينية. وقد طُبعت تآليفه مرات. وذكره القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ١٠٠) وذكر له كتباً أخرى، ولقّبه برون (اسم النهر) الفصاحة اللاتينية.

القديس امبروسيوس أسقف مديولان

هو أحد أقطاب الكنيسة اللاتينية وُلد في تراف (بروسيا) سنة ٣٤٠م، وكان أبوه أحد الولاة الرومانيين في افرنسا. وكان هو نفسه والياً في ليكوريا واميليا في غربي ايطاليا، وقد وُلد وثنياً لكنه آمن بالمسيح، وكان من مصاف المرتشدين لقبول المعمودية. وأنبأنا سقراط (ك ٤ فصل ٣٠) إنه بعد وفاة اكسنتيوس أسقف مديولان (ميلان) حصل نزاع شديد بين أهل المدينة من اريوسيين وكاثوليكيين على اختيار خلف له. واشتدّ الشغب بينهم في الكنيسة فأسرع امبروسيوس إليها، فخمد نار الفتنة بمهابته وارشاده وسلب عقولهم بفصاحته، واستمال قلوبهم بغيرته حتى اجمعوا على انتخابه أسقفاً عليهم. وقضى الاساقفة الذين كانوا هنالك إنّ عناية الله أنشأت هذا الاجماع على انتدابه فعمّدوه فقبل هذا السرّ مسروراً، ولكنه أبى أن يكون كاهناً وأسقفاً وحاول بأساليب عديدة الفرار من هذا المقام، واختبأ أخيراً. واضطرّ الاساقفة أن يرفعوا الامر إلى الملك والنتنيان فأجابهم أنه يرى ما رأوا، إنّ يد الله في انتدابه. وأكثروا من الالحاح عليه حتى أذعن متيقناً بأدلة عديدة أنّ هذه هي إرادة الله. فرقي إلى درجة الكهنوت ثم الاسقفية سنة ٣٧٤م فشرّف الاسقفية بغيرته على الايمان القويم ومناصبته كل من يخالفه أو يتقاعد عن اتمام فروضه، وعقد مجمعاً في اكويلايا حرّم فيه الاريوسيين وعزمت الملكة يوستينا (التي كانت تدافع عن الاريوسيين) أن تكرهه على تسليم كنيسة في مديولان إليهم، وهدّدته بالقتل إن لم يذعن لما ترغب، فقاومها بشجاعة واستمال إليه من أرسلتهم للقبض عليه. وقد رأيت (في الكلام على توادوسيوس الملك) كيف أجبره على عمل التوبة المشتهرة كفارة عن قتل أهل سالونيك بأمره. وقد ردّ القديس اغوسطينس إلى الايمان وعمّده. فقد قال فيه اغوسطينس (ك ١ ضد يوليانس فصل ٣) «من أعده أباً لي لأنه ولدني ليسوع المسيح بالانجيل ونلت من يده صبغة المولد الثاني، أعني الطوباوي امبروسيوس من سبرت بنفسي جهاده وثباته واتعابه بخطبه وأعماله واقتحامه المخاطر من أجل الايمان الكاثوليكي. وكل هذا يشهد له به معي العالم الروماني بكامله». وقد أدركت الوفاة امبروسيوس سنة ٣٩٧م والكنيسة اللاتينية تعيّد له في ٧ كانون الاول.

وقد ألّف كثيراً من الكتب أشهرها كتابان في الايمان، اقترحهما عليه الملك غراسيان عند مضيه إلى المشرق ليحجّ بتعليمه الهراطقة والمخالفين. وثلاثة كتب في البتولات جمع فيها خطبه في شأنهنّ اقترحتها عليه أخته مرسلين البتول. .وكتاب في الارامل حمله على تأليفه زيجة ارملة كان يحرّضها على التأسي لوفاة رجلها فتزوّجت ولها بنات مزوجات. ثم صنّف مقالة في التبتل رداً على من كان يخطئه بإغرائه البنات بحفظ عفافهنّ ويمنع من نذرت العفّة عن الزواج. وزاد بعد ذلك على كتابيه في الايمان ثلاثة كتب أخرى تكملة لرده كل مدعيات الاريوسيين. وله كتاب في الأسرار يظن أنه ألّفه عند تعميده القديس اغوسطينس وصديقه اليبيوس وابنه ٣٨٧. وقد وجد له الكردينال ماي شرحاً لقانون الايمان ألّفه لارشاد المتنصّرين حديثاً. ورسالة إلى القديس ايرونيموس في الايمان كتبها إليه وهو في بيت لحم، إذ يذكره فيها بما كان عنده في بيت لحم من آيات سرّ التجسّد، وتعزى إليه كتب أخرى عديدة أثبت نطاليس اسكندر (فصل ٦ جزء ٢٧ في تاريخ القرن الرابع) أنّ بعضها ليست له حقيقة وبعضها يمترى في صحة نسبتها إليه.

القديس ايرونيموس

هو أشهر آباء الكنيسة اللاتينية وُلد في دلماسيا أو في انغريه (المجر) من والدين غنيين سنة ٣٣١م، وتتلمذ في روما لدوناتس، وسافر مرات إلى افرنسا وآسيا والاماكن المقدّسة، ورقاه بولينس بطريرك انطاكية إلى درجة الكهنوت. وعند عوده من المشرق إلى روما سنة ٣٨٢م اتخذه البابا داماسس معاوناً له في أعماله، وعهد إليه أن يترجم الاسفار المقدّسة وأن يفسرها للشعب. وبعد أن لحق البابا داماسس بأسلافه، آثر العزلة في دير بيت لحم فطرده الهراطقة منه، ولقي ربه بعيد ذلك سنة ٤٣٠م وعمره تسع وثمانون أو تسعون سنة.

وأما تآليفه فليس أولى في تعدادها من انتحال كلامه في خاتمة كتابه في مشاهير المؤلفين قال: «أنا ايرونيموس (صفرونيوس اوسابيوس ايرونيموس) بن اوسابيوس وُلدت في قرية ستريدون المتاخمة دلماسيا وانغريه والتي دمرها الغطط، وكتبت إلى السنة الحاضرة وهي الرابعة عشرة للملك توادوسيوس الملك (توافق سنة ٣٩٢م) ما يأتي

ترجمة بولس الراهب، وكتاباً مشتملاً على رسائل لكثيرين، ورسالة تحريض لهيلودر (هي من جملة رسائله المذكورة وأفردها بالذكر لأنها بمنزلة مقالة في مديح السيرة الرهبانية)، ومحاورة بين اتباع لوشيفورس الاراتيكي والكاثوليكيين وكرونيكون أي تاريخاً سنوياً (يريد به ترجمة كرونيكون اوسابيوس من اليونانية إلى اللاتينية وبسطه إلى سنة ٣٧٨م) وترجمت من اليونانية إلى اللاتينية ثماني وعشرين مقالة لاوريجانس في تفسير نبوّتي ارميا وحزقيال. ورسالتين في الساروفيم واوشعنا (انفذهما إلى البابا داماسس) ورسالة في الابنَين المقتصد والمبذر (الشاطر المذكورين في الانجيل) ورسالة (إلى داماسس البابا) في ثلاثة مباحث في الشريعة القديمة، ومقالتَين في نشيد الانشاد (قدمهما لداماسس) مترجمتين إلى اللاتينية عن كتب اوريجانس، ومقالة في أنّ العذراء استمرت عذراء رداً على البيديوس، ورسالة إلى اسطاكيوس في لزوم حفظ العفّة. وكتاب رسائل إلى مرشلا (حاوياً ست عشرة رسالة ورسالة تعزية إلى باولا بفقد ابنتها)، وثلاثة كتب في تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، وثلاثة كتب في تفسير رسالته إلى أهل افسس، وكتاباً في تفسير رسالته إلى طيطس، وكتاباً في تفسير رسالته إلى فيلومن، وتفسيرات في سفر الجامعة، وكتاباً في المباحث العبرانية في سفر التكوين، وكتاباً في الاماكن العبرانية، وكتاباً في الاسماء العبرانية، وكتاباً في الروح القدس ترجمته إلى اللاتينية عن ديديمس، وتسعاً وثلاثين خطبة في بشارة لوقا، وسبع مقالات في الزبور من المزمور العاشر إلى المزمور السادس عشر، وترجمة ملخّص الراهب الاسير، وترجمة ايلاريون الطوباوي، وترجمة العهد الجديد عن اليونانية والعهد القديم عن العبرانية (وهذه هي الترجمة المعروفة باللاتينية بالعامية volgata التي أثبتها المجمع التريدنتيني) وأما رسائلي إلى باولا واسطاكيس فلا أعلم عددها إذ تستجد لي كل يوم رسائل إليها. وقد دونت أيضاً كتابين في تفسير نبوّة ميخا، وكتاباً في تفسير نبوّة صفنيا، وكتاباً في تفسير نبوّة نحوم، وكتابين في تفسير نبوّة حبقوق، وكتاباً في تفسير نبوّة حجاي. وأنا مشتغل في كتابة تفسير نبوّات غير هؤلاء من الانبياء ولم أفرغ منها بعد، وكتبت كتابين رداً على يوفنيانس، وكتاب محاماة إلى باماكيوس». وذكر في محل آخر كتابه في المؤلفين البيعيين معنوَناً de viris illustribus وهو الذي استشهدنا هنا به في محال عديدة وقد اعتدنا أن نعبّر عنه بكتابه في المشاهير.

وكان في هذا القرن غير ما ذكرنا من الاساقفة والعلماء اكتفينا بأن نذكر منهم هؤلاء المشاهير.

الفصل الرابع

المجامع التي عُقدت في سورية في القرن الرابع

عد ٥٨٦

المجامع التي عُقدت في انطاكية

المجمع الاول: زعم بعضهم أنّ الرسل عقدوا مجمعاً في انطاكية سنة ٥٧م، وعزوا إليه تسعة قوانين قائلين أنهم أخذوها عن كتاب قديم قيل فيه أنّ القديس بمفيل الشهيد عثر عليه في مكتبة اوريجانس، على أنّ العلماء المحققين أنكروا صيرورة هذا المجمع. وأقاموا على انكارهم حججاً راهنة منها أنه لم يرد ذكر لهذا المجمع في كتاب أعمال الرسل، ولا في كتب الآباء الاولين، ولا في الآثار القديمة. ومنها أنّ في القوانين التسعة التي عزوها إلى هذا المجمع ما هو كاذب ومخالف للحقائق المجمع عليها. وعليه فأول مجمع عُقد في انطاكية إنما كان سنة ٢٥٣م بأمر البابا كرنيليوس لنبذ ضلال نوفاسيان في مجمع وقد ذكرناه في عد ٥٥٨ .

المجمعان الثاني والثالث: عُقدا سنة ٢٦٤ أو سنة ٢٦٥م في انطاكية لداعي كبت بولس السميساطي، وقد مرّ ذكرهما في عد ٥٥٨ أيضاً.

الرابع: واما في القرن الرابع فعُقد في انطاكية مجمع نحو سنة ٣٣٢م دعا إليه بعض الاساقفة الاريوسيين ليعزلوا القديس اوسطاتيوس بطريرك هذه المدينة عن كرسيه، وأدخلوا فيه بغياً تتهم القديس بأنه باضعها، واستغنوا بيمينها عن بيّنة فعزلوه عن كرسيه وسعوا به لدى الملك فنفاه (طالع عد ٥٧٥).

الخامس: قد عُقد مجمع آخر في انطاكية سنة ٣٣٩م تداعى إليه الاساقفة الاريوسيون لتأييد مذهبهم، وأقاموا فيه بستس الكاهن (الذي كان القديس اسكندر بطريرك الاسكندرية طرده من الكنيسة لأنه اريوسي) بطريركاً على الاسكندرية بدلاً

من القديس اثناسيوس فقاومهم الاساقفة الكاثوليكيون ونبذوا بستس وحرموه، فلم يتمكن من أن يلي البطريركية (روى ذلك القديس اثناسيوس في المدافعة عن نفسه وفي رسالته العامة إلى الاساقفة).

السادس: تألب في انطاكية مجمع آخر سنة ٣٤١م دعا إليه الملك قسطنس ابن الملك قسطنطين الكبير لتدشين الكنيسة التي كان أبوه قد أخذ ببنائها. وشهده تسعون أو سبعة وتسعون أسقفاً أكثرهم كاثوليكون، وقد اظهر فيه الاساقفة الاريوسيون أنهم بمعزل عن اريوس وضلاله. وأنشأوا دستوراً للايمان يتحمل معنى المعتقد الكاثوليكي، وإن لم يطرحوا فيه بمساواة الابن للآب جوهراً معتمدين خدعة الاساقفة الكاثوليكيين ليوافقوهم على عزل القديس اثناسيوس من الكرسي الاسكندري. وبعد تهذيب ذلك الدستور وايجازه، وقّع عليه آباء المجمع بالاتفاق ووضعوا خمسة وعشرين قانوناً مثبتة في كتب القوانين. وعزا بعضهم هذه القوانين إلى مجمع انطاكية الذي التأم سنة ٣٣٢م والاظهر أنها وُضعت في هذا المجمع كما أثبت العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية). وبعد أن انصرف الاساقفة الكاثوليكون أو أكثرهم وبقي في انطاكية الاساقفة الاريوسيون مع الملك قسطنس الذي كان يجنح إليهم، أخذوا يتداولون في مسألة القديس اثناسيوس، ولما كانوا شاكين وقضاة معاً أوردوا عليه التهم التي كانوا تجنّوا بها عليه قبلاً، وحرّفوا قانونَين من القوانين التي كانوا وضعوها، حتى جعلوا معناها أنه إذا عُزل أسقف في مجمع ولو ظلماً فلا يسوغ له العود لكرسيه إلّا بأمر مجمع آخر، وخصّوا ذلك بالقديس اثناسيوس، وقضوا عليه بالحطّ عن كرسيه ونفيه وصمّموا أن يقيموا بدلاً منه اوسابيوس الحمصي، ولما تمنّع من ذلك اختاروا غريغوريوس الكبادوكي كما مرّ (في الكلام على القديس اثناسيوس). وبعضهم يجعل اجتماع هؤلاء الاساقفة الاريوسيين مجمعاً مستقلاً عن الاول كان في سنة ٣٤١ أو سنة ٣٤٢م.

السابع: عُقد في انطاكية مجمع آخر على رواية منسى، تألب فيه الاساقفة الاريوسيون نادمين على انشائهم دستور الايمان الذي وضعوه قبلاً، تملقاً للاساقفة الكاثوليكيين. فأنشأوا دستوراً حديثاً لم يدخلوه إلّا ما وافق غرضهم من كلمات الاسفار المقدّسة، ونفوا عن الابن كلمة مساوٍ للآب جوهراً، وحكموا على مرسل أسقف انكورة بالعزل عن كرسيه متهمين له باتباع بدعة سابيليوس لتعليمه أنّ الاقانيم الثلاثة في الله متساوون ذاتاً وجوهراً كما روى سزومانوس (ك ٣ فصل ١١).

الثامن: قد عُقد سنة ٣٤٨ أو سنة ٣٤٥م على رواية منسي مجمع آخر في انطاكية، فإنّ قسطنت الملك أراد تنفيذ الحكم الذي أبرمه مجمع سرديكا (صوفيا) فأرسل إلى أخيه قسطنس ملك المشرق فنسان أسقف كابو واوفراتاس أسقف كولونيا، وكان قسطنس في انطاكية وكان اسطفانوس بطريرك انطاكية قد عزله مجمع سرديكا عن كرسيه، فرشا اوناجر أحد رؤساء الجند وأدخل بغياً إلى مخدع الاسقف اوفراتاس ليلاً واتهمه بالفحشاء، ولدى فحص الملك عن الحقيقة ظهر من اقرار اوناجر والمرأة أنّ البطريرك هو المتسبب بهذه الفظيعة (كما مرّ في عد ٥٧٥) فاجتمع الاساقفة في انطاكية فحرموا اسطفانوس وعزلوه. فهذا الاجتماع سماه منسي مجمعاً انطاكياً.

التاسع: اجتمع في سنة ٣٥٤م ثلاثون أسقفاً من الاريوسيين في انطاكية وحكموا على القديس اثناسيوس مرة أخرى بالعزل.

العاشر: عقد اودكسيوس الدخيل على بطريركية انطاكية مجمعاً فيها سنة ٣٥٨م، وعلى رواية منسي سنة ٣٥٦م شهده الاساقفة الاريوسيون المشايعون له، وأعلنوا قبولهم لدستور الايمان الذي أنشأوه في سيرميوس (مدينة في المجر دُمرت في القرن السادس ولم يجدد بناؤها)، وكان مس هؤلاء الاساقفة اكاشيوس أسقف قيصرية واورانيوس أسقف صور.

الحادي عشر: استدعى الملك قسطنس سنة ٣٦١م بعد عوده من حرب الفرس إلى انطاكية الاساقفة لعقد مجمع فيها تأييداً لمذهب الاريوسيين، فلما تألب الاساقفة وكان كرسي انطاكية فارغاً من بطريرك، سألوه أن يرخّص لهم بأن يهتموا باقامة بطريرك لهذا الكرسي قبل الدخول في مباحث الدين. وكان الانقسام الديني في هذه المدينة أمسى داءً مزمناً. وكان الفريق الكاثوليكي ينتخب بطريركاً، والفريق الاريوسي يقيم غيره. فأجمع الفريقان هذه المرة على انتخاب ملاتيوس، فالاريوسيون كانوا يظنونه مشايعاً لهم، والكاثوليكون كانوا يوقنون أنه صحيح الايمان غيور على حفظه (طالع ما قلناه في هذا البطريرك في عد ٥٧٣)، وجاهر بمعتقده في أول خطبة ألقاها بحضرة الملك. فامتعض الاريوسيون منه وشكوه أمامه بأنه مغوي بغواية سابيليوس منكر لسرّ الثالوث الاقدس. وكان قسطنس سريع التقلّب عجولاً، فلم يمضِ ثلاثون يوماً إلّا وطرده من انطاكية، وأقام الاريوسيون مكانه اوزويوس تلميذ

اريوس وقرينه في حرمه، فتسعّرت نار الخصام وانقضى هذا المجمع ولا وفاق بين الاساقفة. على أنّ الاساقفة الاريوسيين عادوا إلى الاجتماع ثانيةً في هذه المدينة في أواخر سنة ٣٦١م نفسها، وفي مقدمتهم اوزويوس البطريرك الحديث. فغيّروا دستور الايمان وحذفوا منه أيضاً كلمة مشابه للآب موصوفاً بها الابن. وكانوا قد اصطلحوا عليها في دستور سابق، وجاهروا في هذا المجمع بتشبثهم بتعليم اريوس حتى زعموا أنّ الابن خلقه الله من العدم، ولذا سماهم الكاثوليكيون عدميين.

الثاني عشر: اجتمع في انطاكية سنة ٣٦٢م تسعة أساقفة من تباع مكدونيوس الذي أنكر أنّ الروح القدس إله. وكان اوزويوس البطريرك الانطاكي من المشايعين لهم، فنبذوا الرسائل التي أنفذها أساقفة المغرب إلى أساقفة المشرق.

الثالث عشر: اجتمع في انطاكية سنة ٣٦٣م سبعة وعشرون أسقفاً كان منهم ملاتيوس البطريرك الانطاكي بعد عوده من منفاه، والقديس اوسابيوس السميساطي، والقديس بيلاجيوس أسقف اللاذقية (بسورية)، واناطول أسقف حلب، وطيطس أسقف بصرى في حوران، وايرانيوس أسقف غزة. وكان الاساقفة المكدونيون قد رفعوا عريضة إلى الملك يوفيان ليستميلوه إليهم، فأجابهم أنه يمقت الخصام أشدّ المقت، ويَوّد مَنْ يبذلون وسعهم في طريق الاتحاد والوفاق، وأنه يؤثر الاعتقاد بمساواة الابن للآب جوهراً على كل معتقد غيره. وكان اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين ينقلب في ايمانه كما تنقلب ارادة الملوك. فما اطلع على جواب الملك يوفيان شافه ملاتيوس وتابعه على القرار بمساواة الابن للآب. وقد بقي لنا من هذا المجمع نسخة من العريضة التي رفعها الاساقفة إلى الملك يوفيان أثبتها بحروفها كثيرون ممن كتبوا تاريخ المجامع أقروا فيها بأنّ دستور الايمان يلزم أن يكون ما سنّه المجمع النيقوي، وأولوا كلمة مساوٍ للآب جوهراً بمعنى لا يبعد عن أن يكون كاثوليكياً. ويُظنّ أنّ اكاشيوس القيصري وغيره ممن تصدق عليهم ظنة الخلاف لم يوقعوا على هذه العريضة إلّا إرضاءً للملك ورغبةً في الازدلاف إليه.

الرابع عشر: وفي سنة ٣٧٩م في شهر تشرين الاول اجتمع في انطاكية الاساقفة الكاثوليكيون الذي كانوا قد عادوا بأمر الملك غراسيان من المنفى إلى كراسيهم كما روى القديس غريغوريوس في رسالته إلى اولمبيوس الراهب، وكان هذا القديس في مجمعهم الذي شهده مئة وستة وأربعون أسقفاً. وكان جلّ

غرضهم ايقاع السلم في الكنيسة ولم شعث أساقفتها في المشرق. وعلى ما كان عليه هذا المجمع من الرونق والانتظام لم يبقَ لنا من آثاره إلّا العلم بأنّ الاساقفة الذين اجتمعوا فيه صادقوا على الرسالة المجمعية التي أنفذها إليهم البابا داماسس والاساقفة الغربيون من مجمعهم المنعقد في روما سنة ٣٧٨م حاوية الاعتقاد بسرّ الثالوث الاقدس والاقرار بلاهوت الابن والروح القدس، ونبذ ضلال ابولينار الذي غوى بأنّ المخلّص أتى بجسده من السماء.

الخامس عشر: وفي سنة ٣٨٣م وفي رواية سنة ٣٩٠م عقد افلابيانس بطريرك انطاكية مجمعاً شهده بعض الاساقفة وثلاثون كاهناً وشماساً حرّم فيه بدعة المصلّين. وقد قسم القديس ايبفان المصلّين إلى قدماء وحديثين. فالقدماء كانوا وثنيين بعتقدون وجود آلهة كثيرين ويعبدون واحداً منهم يسمونه القدير على كل شيء. وأما الحديثون فكانوا مسيحيين نشأوا في القرن الرابع، وكانوا يتألبون فرقاً فرقاً من رجال ونساء يطوفون الازقة والحقول مترنمين بصلوات، ويعتقدون أنّ كل انسان يرافقه شيطان منذ مولده ويحمله كل وقت على الشرّ ولا تنجيه المعمودية منه بل يُطرد منه بالصلوة. ولذلك يلزم الانسان أن يعكف كلّ حينٍ على الصلاة إلى غير ذلك من الترهات، ويضاف إلى هذه المجامع مجمع عقده بعض أساقفة بطريركية انطاكية فيها سنة ٣٨٨ أو سنة ٣٨٩م بداعي قتل الوثنيين القديس مرسل أسقف اباميا عند صدور أمر الملك توادوسيوس بنقض هياكل الاصنام وتدمير مرسل هيكل اباميا وغيره من هياكل الاوثان، وقد كان بنوه أرادوا أن يثأروا بدمه منهم فآباء هذا المجمع نهوا في مجمعهم المؤمنين عن الانتقام من الوثنيين. انتهى ملخصاً عن معجم المجامع لبلتيا في طبعة الأب مين.

عد ٥٨٧

المجامع التي كانت في أورشليم

إنّ أول مجمع عُقد في هذه المدينة إنما هو المجمع الذي عقده الرسل سنة ٥١م ورأسه القديس بطرس زعيمهم. وقد استوفينا الكلام فيه عند كلامنا في الرسل وقد حسب بعضهم اجتماع الرسل سنة ٣٣ لانتخاب خلف ليهوذا الاسخريوطي مجمعاً اولاً أورشليمياً. واجتماعهم لانتخابهم الشمامسة السبعة مجمعاً ثانياً، واجتماعهم

الذي نوّهنا به مجمعاً ثالثاً، والمجمع الرابع هو المعروف بالمجمع الفلسطيني الذي عُقد سنة ١٩٦ أو سنة ١٩٧م في قيصرية فلسطين على الاظهر. ولكن نسبه بعض كاتبي تواريخ المجامع إلى أورشليم، وحكم الاساقفة الذين اجتمعوا فيه لزوم متابعة الحبر الروماني على تعييد عيد القيامة في يوم الاحد الواقع بعد الرابعة عشرة من بدر نيسان.

والمجمع الخامس: عُقد في ١٣ من أيلول سنة ٣٣٥م، فإنّ الملك قسطنطين استدعى الاساقفة من كل صقع لتكريس كنيسة القبر المقدّس التي أنشأها في أورشليم. فأتى إلى هذا المجمع الاساقفة الاريوسيون الذين كانوا قد عزلوا القديس اثناسيوس في مجمع صور. ولما رأوا كثيرين من الاساقفة على شاكلتهم، انتهزوا هذه الفرصة واجتمعوا بعد تكريس الكنيسة، وقضوا بقبول آريوس في شركة الكنيسة وكان اريوس أُعيد من منفاه ولكنه ما برح موثوقاً بالحرم الذي أوثقه به بطريرك الاسكندرية، وأنزله به مجمع نيقية. وأنفذ هؤلاء الاساقفة رسالة مجمعية إلى كنيسة الاسكندرية وسائر الكنائس يثبتون حكمهم وينبئون أهل الاسكندرية بعزل القديس اثناسيوس عن كرسيه. وقضوا أيضاً في هذا المجمع بالعزل على مرسل أسقف انكورة لأنه قاومهم في عزل اثناسيوس، ولم يشأ قبول اريوس في شركة المؤمنين. ثم استدعى الملك قسطنطين هؤلاء الاساقفة إلى القسطنطينية ليبرئوا ساحتهم مما أجروه على القديس اثناسيوس، فلم يُلبِّ الدعوة إلّا خمسة منهم كما مرّ.

والمجمع السادس: عُقد في أورشليم سنة ٣٤٩ أو سنة ٣٥٠م على رواية نطاليس اسكندر أو سنة ٣٤٦م على رواية منسي. والباعث على عقده أنّ الملك قسطنس كان قد رخّص للقديس اثناسيوس بالعود إلى كرسيه ومرّ بأورشليم وسأل مكسيمس بطريركها أن يعقد مجمعاً اقليمياً، فاجتمع ثمة ستة عشر أسقفاً من فلسطين وسورية قضوا ببراءة القديس اثناسيوس وقبلوه في شركتهم، وكتبوا إلى شعب الاسكندرية وأساقفة سورية ومصر يبثون إليهم حكمهم للقديس اثناسيوس، وقد حفظ جواب المصريين على هذه الرسالة وهو مفعم بالعبارات الدالة على ابتهاجهم وسرورهم، والشكر لله على هذه المنّة، وقد وقّع عليه ستة عشر أسقفاً.

والمجمع السابع: عُقد سنة ٣٥٠م وكان الغرض منه على ما روى لاباي عزل الاريوسيين القديس مكسيمس وإقامتهم القديس كيرلس مكانه، لظنهم أنّ القديس

كيرلس مشايع لهم. على أنّ المعلوم عند عامتهم أنّ القديس مكسيمس توفي سنة ٣٥٠م وخلفه القديس كيرلس. وقال بعضهم أنّ مكسيمس عزله الاريوسيون وخلفه القديس كيرلس بانتخاب جرى بحسب دستور الكنيسة. وأقام الاريوسيون أساقفة منهم (طالع ما ذكرناه في عد ٥٧٦) فيظهر أنّ هذا المجمع كان لتلافي هذه الشؤون.

والمجمع الثامن: عُقد في أورشليم سنة ٣٩٩م دعا إليه يوحنا الثاني بطريرك هذه المدينة الذي كان يدافع عن اوريجانس. وكانت مناقشات بينه وبين القديسين ايفان وايرونيموس في شأن اوريجانس. وترى في كتب القديس ايرونيموس رسالة يوحنا هذا إليه، ويظهر منها أنّ هذا المجمع أثبت رسالة توافيلس البطريرك الاسكندري التي كتبها في المجمع الذي عقده في السنة المذكورة في اسكندرية في شأن اوريجانس.

عد ٥٨٨

باقي المجامع التي عُقدت في سورية

عُقد في قيصرية فلسطين مجمع سنة ٣٣٤م أمر بالتئامه قسطنطين الملك، للبحث عن صحة الشكاوى الموردة على القديس اثناسيوس، فأبى هذا القديس أن يحضر إليه لتشيع اوسابيوس القيصري لخصائمه، ولأنّ أكثر الاساقفة الذين أتوا إليه كانوا من الاريوسيين، فلم يتمّ عقده بل أمر الملك أن يجتمع الاساقفة في صور فاجتمعوا فيها سنة ٣٣٥م في شهر آب. وكانوا من سورية وآسيا ومكدونية ومن مصر وليبيا حتى كان عديدهم ستين أسقفاً عدا أساقفة مصر. وتمنّع القديس اثناسيوس أن يأتي إليه اولاً لأنه رأى السواد الاعظم من المجتمعين اريوسيين أو ممن يمالئوهم، وخاف أن يغيّروا شيئاً مما قضى به المجمع النيقوي. وكان في مقدمة هؤلاء اوسابيوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف نكومدية، وفلاشيل البطريرك الانطاكي. فأرسل الملك يهدد القديس اثناسيوس إن لم يأتِ إلى المجمع، فأتى ومعه تسعة وأربعون أسقفاً من مصر وليبيا حتى صار عددالاساقفة مئة وتسعة أساقفة، وكان أكثرهم اريوسيين، وكان في مقدمة الاساقفة الكاثوليكيين عدا القديس اثناسيوس مكسيمس البطريرك الأورشليمي، ومرسل أسقف انكورا، واكليباس أسقف غزة. فأورد الاساقفة الاريوسيون على القديس اثناسيوس كثيراً من التهم أهمها ما

ذكرناه في ترجمته فافتضح كذبها. وأرسلوا ستة أساقفة ممن قبحت سيرتهم وساءت سريرتهم ليفحصوا في الاسكندرية ومصر عن غيرها من الوشايات. ورأى مفوّض الملك أنّ حياة القديس اثناسيوس يحف بها الخطر من قبل مكائد خصمائه، فأرسله ليلاً إلى الاسكندرية في سفينة سار بها القديس توّاً إلى القسطنطينية ليرفع أمره إلى الملك. وعاد من مصر الاساقفة الفاحصون وعلى ما حوى ما لفّقوه عليه من الوهانة والزيف.

قضى الاساقفة الاريوسيون عليه بالحطّ عن مقامه وبحظره عن البقاء في الاسكندرية تفادياً من الشغب والقلق في الشعب، وكتبوا إلى الملك أن يأمر بنفيه، وأنفذوا رسائل إلى جميع الاساقفة أن لا يقبله أحدهم في شركته. وأبى الاساقفة الكاثوليكيون التوقيع على الحكم وهذه الرسائل، لكنهم كانوا أقلّ عدداً. ثم أمر الملك أن يحضر إليه جميع الاساقفة الذين قضوا على القديس اثناسيوس فلم يُلبِ دعوته إلَّا خمسة منهم، ومع ذلك نفاه الملك تحوطاً (طالع ترجمته).

الفصل الخامس

أشهر الكنائس التي أُنشئت في سورية في هذا القرن

عد ٥٨٩

كنيسة القيامة في أورشليم

أنبأنا اوسابيوس (ك ٣ فصل ٢٥ وما يليه)، وسقراط في الكتاب الاول من تاريخه (فصل ١٧)، وسوزومانوس في الكتاب الثاني من تاريخه (فصل ١)، وتوادوريطوس في الكتاب الاول من تاريخه (فصل ١٧). وكان اوسابيوس معاصراً لقسطنطين ومن ندمائه، وسقراط وتوادوريطوس وُلدا في أواخر القرن الرابع، وسوزومانوس في بدء القرن الخامس، فكان هؤلاء الثلاثة في عهد قريب مما رووه وثقاة يتيسّر لهم أخذ الخبر عن المعاصرين. وقد اتفقت رواياتهم معنى وقلّما اختلفت

لفظاً، وهاك ملخّص ما أنبأونا به: «إنّ هيلانة والدة الملك قسطنطين شخصت إلى أورشليم رغبةً في التعبد، وقد ناهزت الثمانين من عمرها، وكانت أورشليم خربة بحسب نبوّات الأنبياء، وكان الوثنيون قد أقاموا في الجلجلة هيكلاً للمشترى، وتمثالاً للزهرة ليمتنع المسيحيون من اداء فروض تعبّدهم هناك خشية أن يُظنّ أنهم يكرمون الزهرة بسجودهم. فلما بلغت الملكة المدينة المقدّسة انتقت محل الجلجلة بنقضها أرجاس الوثنيين، وأخذت تنقب آملة أن تعثر على الخشبة التي عُلّق المخلّص عليها، فحالت دون مرامها مصاعب، ولكن ما شاءه الله كان مفعولاً فقد أداها جدّها وصلوات القديس مكاريوس بطريرك أورشليم حينئذٍ إلى الاهتداء إلى مغارة وجدت بها ثلاثة صلبان، صليب المخلّص، وصليبَي اللصّين اللذين صُلبا على يمينه ويساره. وبقي اللبس في أيها هو صليب المخلّص؟ فأخذ مكاريوس يضرع إلى الله ليزيل اللبس ويبيّن بآية أيها هو صليب المسيح. وكانت هناك امرأة شريفة مريضة مرضاً عضالاً يئس الأطباء من برئها منه، وكانت حينئذٍ محتضرة، فوضع مكاريوس الصليب الاول والثاني على رأسها فلم يظهر دليل على ابلالها من دائها، وما وضع الصليب الثالث انتعشت وفتحت عينيها وعاودتها العافية في محضر البطريرك والملكة وجمهور من الناس، فمجّد جميعهم الله مدهوشين شاكرين. ووجدت الملكة هناك الدفّ الذي علّقه بيلاطس على أعلى صليب المخلّص مكتوباً عليه باللاتينية واليونانية والعبرانية يسوع الناصري ملك اليهود. والمسامير التي سُمرت فيها يداه ورجلاه. ووضعت جزءاً من الصليب في صوانٍ من فضة تركته في أورشليم ليكرمه الزائرون، وأرسلت الجزء الآخر إلى ابنها قسطنطين فوضعه في تمثاله الذي أقامه على عمود من رخام في الشارع المسمى شارع قسطنطين. قال سقراط الذي كان عائشاً في القسطنطينية أنّ أكثر سكان هذه المدينة يؤكدون صحة هذا الخبر. وصاغ قسطنطين من أحد المسامير حكمة لجواده كان يستعملها ابان الحرب.

وقد كتب حينئذٍ الملك قسطنطين إلى القديس مكاريوس بطريرك أورشليم رسالة أثبتها بحروفها توادوريطوس في تاريخه (ك ١ فصل ١٦) نلخّصها هنا. قال: «أشكر الله على الآيات التي صنعها باهدائه إلى صليبه الذي كان مخفياً تحت التراب منذ سنين متطاولة، وقد انتقم لعبيده باهلاك العدو لجميعهم وخوّلهم الحرية في مباشرة فروض دينهم. فتلك نعمة لو اجتمع حكماء المعمور بأسره في محل واحد وأجهدوا قرائحهم زماناً طويلاً لما وفوا جزءاً من حق اداء الشكر عليها. فإنها

تفوق مدارك البشر فوق الامور السماوية للأمور البشرية. ولذلك طالما فكرت في أنه كما أنّ الله يؤيد الايمان الصحيح بآيات متواترة، فكذلك يلزمنا أن نجد في رعاية سنّته المقدّسة والعمل بفروضه باتفاق وبهجة. وأراني ملتزماً أن أبذل قصارى عنايتي في اجلال المحل المقدّس الذي جرى منه ينبوع خلاصنا. وقد كان بسماح الله علّته أقذار الوثنية، وعليه فيجدر بحكمتكم أن تبذل كل ما في الوسع لإعداد كل ما يكون لازماً لإنشاء كنيسة ملكية تفوق بجمالها واتقانها وزخرفتها على كل ما بُني من المعابد في المعمور اليوم، وتكون أبدع كنيسة تُبنى في المدن. ومأمولنا من قداستكم أن تبيّن لنا بعد محادثة من كانوا أهلاً لهذه الأمور كيف يلزم أن تكون الجدران والاعمدة، وما هو الرخام اللازم، ومن أين يُستأتى أجوده، وعلى أية هيئة تُبنى الكنيسة، وكم يلزم من الذهب لزخرفتها. فإنّ هذا المعبد يقتضي أن لا يكون في العالم أبدع منه. فاسرع في تعريفنا كل ما ذكر وأدامك الله سالماً أيها الأخ الأعزّ».

وقد عهد قسطنطين بالنظارة على العمل إلى دريشليانس الوالي وبادارة الفعلة إلى كاهن من القسطنطينية اسمه اوستاط. وبُدئ في البناء سنة ٣٢٦م وأُنجز في سنة ٣٣٥م وقد خلف لنا اوسابيوس (في ك ٣ في ترجمة قسطنطين فصل ٣٤ وما يليه) بيان هيئة هذه الكنيسة وملخّصه أنه كان أمامها رواق قائم على أعمدة وتليه عرصة فسيحة، والكنيسة ذات خمس حنايا، ومدخلها من جهة المشرق لاقتضاء المحل، ذلك وفي وسطها قبّة مستديرة مخيّمة على قبر المخلّص وتحت الحنية الجنوبية الجلجلة حيث رُكّز الصليب، وتحت العرصة معبد تحت الأرض في محل المغارة حيث وُجدت خشبة الصليب. وكل ذلك متقن بغريب الصناعة مزدان بأثمن المعادن وبأفخر الرخام وأندره. والقبر في وسط الكنيسة محلّى بأثمن الحلى. وأنبأنا القديس كيرلس بطريرك أورشليم (تعليم ١٤) الذي كان في ذلك القرن أنّ القبر كان منقوراً في صخر وعلى مدخله رواق اقتضى تزيين المحل نقضه كما اقتضى بناء المعبد على الجلجلة تمهيد الصخر المبني المعبد عليه. وقد كرست هذه الكنيسة سنة ٣٣٥م واستدعى قسطنطين لتكريسها الاساقفة من كل صوب، فشهد هذه الحفلات جمّ غفير منهم وألوف من الكهنة وربوات من الناس. ويجدر بنا أن نستقري تاريخ هذه الكنيسة إلى اليوم. إنّ هذه الدرّة اليتيمة في عقد جيد النصرانية سحقتها ومحقتها يد حدثان الزمان سنة ٦١٥م فإنّ كسرى الثاني ملك الفرس حمل على أورشليم بجحفل جرار تلك السنة فافتتحها، وانتهبها، وأحرقها، ودمّر

كنيستها، وأخذ ما كان فيها من خشبة الصليب. على أنّ كسرى اغتاله ابنه بعد عوده من أورشليم واستظهر هرقل ملك قسطنطينية على ابن كسرى، وأرغمه أن يردّ عليه تلك الذخيرة بل الكنز الروحي الثمين، فأعاده باحتفاء عظيم إلى أورشليم في الرابع عشر من ايلول سنة ٦٢٩م، وأقامه في الكنيسة التي كان مودست مؤسس الدير المعروف بدير توادوسيوس قد جدد بناءها. وصير مودست بعداً بطريركاً على أورشليم. على أنّ هذا الراهب لم يكن له غنى قسطنطين ولا وسائله لاغناء الكنيسة وتحليتها فلم يستطع أن يردها إلى رونقها وعظمتها السالفة بل اقتصر على ان يبني هناك أربع كنائس صغيرة احداها في جانب الاخرى يجمعها سور وبينها عرصة مبلّطة بالرخام. وأولاها كنيسة القيامة وفيها القبر المقدّس. والثانية كنيسة الجلجلة مبنية على محل الصليب. والثالثة كنيسة خشبة الصليب أي حيث وُجدت هذه الخشبة الكريمة. وكان يسميها الحجاج غالباً مرتيريون أي الشهادة على آلام المخلّص وموته. والرابعة كنيسة العذراء لم يعيّن محلها بتوكيد. ولكن قال دي فكواي أنها كانت مبنية على الصخرة التي دُهن عليها جسد المخلّص بالطيب. ولم تكن جحافل كسرى محقت أسس كنيسة فلسطين بل بقي منها ما استعان به مودست على تجديد بنائها.

وفي سنة ٦٣٧م دخل عمر بن الخطاب المدينة المقدّسة فكان اسمح وأكرم خلقاً من ملك الفرس، فترك النصارى وما يدينون، ولم يتعرّض بسؤ لهم أو لكنائسهم أو مالهم، بل بنى على أطلال هيكل سليمان الجامع المنسوب إليه المعروف بالجامع الأقصى. وفي نحو سنة ٨٠٠م أرسل كيرلس الكبير ملك افرنسة كثيراً من الصدقات إلى أورشليم، وأجزل النفقات على اصلاح الكنائس، وأنشأ نزلاً لمن يحجّ إلى الاماكن المقدّسة من اللاتين، فأرسل إليه الرشيد مفاتيح القبر المقدّس عربوناً لمحالفته له. على أنّ الكنائس الاربع التي بناها مودست قد دُمرت سنة ١٠١٠م بأمر الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء العباسيين في مصر. ولكن في نحو سنة ١٠٤٧ استؤنف بناؤها بأمر الملك قسطنطين التاسع الملقّب بمونوماك. ولما استحوذ النصارى الغربيون في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩م على أورشليم، لم يتيسّر لهم في بادئ بدء فتحهم لمضايقتهم بالحروب أن يهتموا بالكنائس. ولما استتبّ لهم الأمر في القرن الثاني عشر جددوا بناء الكنائس وجمعوا ثلاثة من الكنائس (خلا كنيسة العذراء) إلى كنيسة واحدة. وقلّما غيّروا شيئاً في كنيسة وجدان خشبة الصليب، فإنّ موقعها تحت الأرض أنجاها من الدمار الذي عرا غيرها في القرون السالفة. حتى

يظهر أنّ أعمدتها البيزنطية بقيت في عصر مودست، فكانت كنيسة القرن الثاني عشر مؤلفة من كنيسة مستديرة مخيّمة على القبر المقدّس، ومن ثلاثة معابد صغيرة في جوانبها (على ما روى غوليلمس الصوري في تاريخه ك ٨ فصل ٣).

ولما استحوذ الملك صلاح الدين الأيوبي على أورشليم سنة ١١٨٧م أشار عليه بعض حاشيته على ما روى عماد الدين أن يدمّر هذه الكنيسة ويجعلها قاعاً صفصفاً كي لا تبقى وسيلة للنصارى ليحجّوا إليها. وخالفهم غيرهم من رجال مشورته مذكرين له بما عمله عمر بن الخطاب، وقائلين أنّ النصارى لا ينفكون عن زيارة الجلجلة وقبر المسيح ولو لحقت الأرض بالسماء. فعفا الملك عن كنيسة القبر المقدّس، وكان يخدم في هذه الكنيسة اولاً لاتينيون ثم كهنة سوريون إلى أن وهبها البابا غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٠م للرهبان الفرنسيسيين. ثم أثبت البابا اكليمنضس السادس سنة ١٣٤٢م حق التولّي على هذه الكنيسة للرهبان الفرنسيسيين. وفي أواخر القرن الخامس عشر نال فيلبس دوك بركونيا الرخصة من ملك مصر باصلاح شيء في هذه الكنيسة. وفي سنة ١٥٥٥م جدد الأب بونيفاس الراكوزي حافظ دير جبل صهيون القبر المقدّس بتقادم بعض الملوك الكاثوليكيين. وفي أوائل القرن السابع عشر صنعت بعض اصلاحات في الكنيسة نفسها. وفي سنة ١٧١٩م أصلح اللاتينيون القبّة الكبرى وبعض المعابد برخصة سنّية استحصلها لهم المركي بوناس سفير افرنسة في قسطنطينية. وفي سنة ١٨٠٨م في ليلة الثاني عشر من تشرين الاول استعرت بغتة نار في معبد الأرمن، وانتشرت متلظية في ما جاورها فالتهمت القبّة وأسقطتها، وتحطمت الاعمدة القائمة عليها، وأضرّت بغيرها من المعابد. فجُددت القبّة بعد ذلك تجديداً لم يكن محكماً لأنها سنة ١٨٦٢م تداعت للسقوط. وفي سنة ١٨٦٣م أخذ في تجديد بنائها على نفقة الدولة العلية وافرنسة وروما. وكان الفراغ من تجديدها سنة ١٨٦٨م. انتهى ملخّصاً من الكتاب الموسوم بالأرض المقدّسة للعالِم فيكتور كاران.

عد ٥٩٠
كنيسة صعود المخلِّص في جبل الزيتون

قد روى المؤرخون سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس الذين ذكرنا أقوالهم في

العدد السالف، أنّ القديسة هيلانة ـ بكة لم تهتم ببناء كنيسة القبر المقدّس بل أنشأت بأمر ابنها الملك قسطنطين كنيسة أخرى في محل صعود المخلّص إلى السماء. وكنيسة ثالثة في بيت لحم على مغارة المولد. وقال اوسابيوس القيصري (في كتابه في تقريظ قسطنطين فصل ٩): «إنّ الملك اختار ثلاثة أماكن شُرفت بثلاثة أسرار، وجمّلها بانشائه فيها ثلاث كنائس فسيحة بديعة. فالاولى أنشأها تكرمة لأول ظهور المخلّص في العالم على مغارة المولد في بيت لحم. والثانية تجلّة لآخر ظهوره في العالم عند صعوده إلى السماء على قمّة جبل الزيتون. والثالثة ذكراً لجهاده وانتصاره في تخليص العالم بين الكنيستين على الجلجلة والقبر» وقد ذكر الزائر الذي من بوردو (بافرنسة) كنيسة الصعود في رحلته إلى الاماكن المقدّسة سنة ٣٣٣م فقال: «وتصعد من هناك إلى جبل الزيتون حيث علّم المخلّص تلاميذه قبل آلامه فهناك أقيم بأمر الملك قسطنطين كنيسة بديعة في جمالها». ولم يصف لنا غير اوسابيوس وزائره من بوردو هذه الكنيسة وهما اقتصرا من وصفها على قولهما أنها فسيحة وبديعة. على أنّ القديس ايرونيموس (في كتابه في اسماء الاماكن العبرانية في كلمة جبل الزيتون) أنبأنا بأنّ هذه الكنيسة كانت مستديرة وأنّ أثر قدمَي المخلّص لدى صعوده إلى السماء استمر ظاهراً إلى أيامه. وهاك قوله: «جبل الزيتون في شرقي أورشليم وبينهما وادي قدرون، وهناك يدل على آخر أثر طُبع على الارض لقدمَي المخلّص وعلى تقاطر المؤمنين كل يوم إلى هناك قد استمر، ذلك الأثر المبارك على حاله القديمة. وقد بُنيت هناك كنيسة جميلة مستديرة، لكن آثار المخلّص في قمّة الاكمة بقيت مكشوفة».

إنّ كنيسة قسطنطين هذه قد دمّرها كسرى ملك الفرس سنة ٦١٤م وجدد بناءها الراهب مودست الذي جدد كنيسة القيامة كما مرّ. وقد وصف لنا هذه الكنيسة بعد تجديدها جوّالة اسمه اركولف طاف في فلسطين سنة ٦٧٠م ووضع كتاباً في رحلته اعتمد عليه الكونت دي فكواي في كتابه في كنائس الارض المقدّسة، فرسم هيئة هذه الكنيسة مفصلة. على أنها نُقضت بأمر الحاكم بأمر الله في مبادى القرن الحادي عشر. ثم جددها النصارى الغربيون في القرن الثاني عشر وجعلوها ذات ثماني زوايا، كما يظهر من أسس أعضادها الباقية إلى الآن. وكان فيها رواق من داخل قائم على أعمدة تعلوها قبّة مدوّرة. ثم خُربت هذه الكنيسة في القرن الثالث عشر. وقد أفضل علينا المسلمون بابقائهم الصخر الذي عليه أثر

قدمَي المخلّص، بل باحاطته بجدار وجعله معبداً. ولم يبقَ الآن إلّا أثر قدم واحدة وهي اليسرى وأما اليمنى فإما أنها حُطمت أو نُقلت إلى محل آخر.

عد ٥٩١

كنيسة مغارة المولد في بيت لحم

إنّ هذه الكنيسة أيضاً قد بُنيت بأمر الملك قسطنطين كما مرّ في سنة ٣٢٧م إلى سنة ٣٣٣م، وهي ذات خمسة حنايا أيضاً يفصل احداها عن الأخرى صف من الاعمدة، وعلى جدارها صوَر من الفسيفساء بقي بعضها إلى الآن. وفي أسفلها المغارة التي وُلد المخلّص فيها. وفي جوانبها مغاور أخرى تعزى إلى قديسين وقديسات نسكوا فيها. ومنها مغارة القديس ايرونيموس. إنّ بين العلماء خلافاً على ما إذا كان البناء القديم نُقض واستحدث في مكانه بناء آخر، فقال كثيرون من أهل العلم بفن البناء أنّ الحنايا الموجودة الآن من بقايا الكنيسة القديمة، وأنّ الخورس كان غير كافٍ فنُقض في أيام الملك يوستنيانس الذي ملك من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥م وأُقيم مكانه الخورس الحالي. وقال آخرون إنّ الكنيسة القديمة لم يبقَ لها أثر. والكنيسة القائمة الآن أحدثها الملك يوستنيانس إلّا السقف الذي جُدد مرات، وإلّا بعض الجدران الخارجية التي رُمِّمت مرات أيضاً، وإلّا الفسيفساء الباقي بعضها فإنها لا تتجاوز عصر الافرنج. على أنّ الكونت دي فكواي خالف (في كتابه كنائس الارض المقدّسة صفحة ٥٤) القول الاول مبيّناً أنّ تناسب أجزاء الكنيسة وموافقة بعضها لبعض دليل ينفي القول بأنها بُنيت في وقتَين مختلفين، وإنّ وجود المغارة التي من أجلها بُنيت الكنيسة في وسط هذه الكنيسة دون خلل يثبت أنّ الخورس الاول لا يختلف عن الخورس القائم الآن. وخطّأ دي فكواي أصحاب القول الثاني لوجدانه بناء كنيسة بيت لحم لا ينطبق على هيئة الابنية التي أنشأها يوستنيانس في أماكن أخرى. واختتم كلامه مستنتجاً أنّ هذا البناء من أيام قسطنطين إلّا بعض المرمات فيه والزيادات عليه. وقال العالِم كاران (في كتابه الموسوم بالأرض المقدّسة صفحة ١٦٦) بعد ايراده الاقوال المذكورة. وأما أنا فأجنح إلى متابعة الأب ميشون على قوله أنّ الكنيسة الاولى لم يكن فيها إلّا حنية أو قبّة واحدة من جهة الشرق، وأما الحنيتان اللتان في فسحة الكنيسة فزيدتا عليها في أيام يوستنيانس. انتهى ملخصاً عن الكتاب الموسوم بالارض المقدّسة لكاران.

عد ٥٩٢

كنيسة صور القديمة

قد أنبأنا اوسابيوس القيصري أنّ القديس بولينس أسقف صور الذي رقي بعداً إلى كرسي بطريركية انطاكية أنشأ في صور كنيسة فسيحة بديعة تفوق في عظمتها جميع الكنائس التي في فينيقية. وكان اوسابيوس في جملة الاساقفة الذين شهدوا تكريسها، وألقى حينئذٍ خطبة بليغة غرّاء أثبتها في الكتاب العاشر من تاريخه (فصل ٤) وصف فيها ما كانت عليه هذه الكنيسة من العظمة والاتقان والزخارف، وأطنب في وصف أعمدتها الرخامية وفساحة عرصاتها وكثرة أروقتها ومتانة جدرانها وجمال داخلها ونفاسة مذابحها وثمين أثاثها. وكان يستلفت أبصار الحضور للاندهاش بكل ما فيها، وقد شبهها بهيكل سليمان بل خصّها بقول النبي: «إنّ مجد هذا البيت يكون أعظم من مجد البيت الاول». وعرض بذكر أخشاب الأرز التي كانت فيها. وقال كاران (في كتابه في الارض المقدّسة في كلامه على صور) إنّ موقع هذه الكنيسة كان قريباً من الزاوية الجنوبية الشرقية من السور القائم الآن، ورؤية هذه الكنيسة القديمة تحمل كل ناظر على العجب. ويظهر أنّ بولينس بنى هذه الكنيسة على أنقاض كنيسة كانت قبلها فدُمرت بأمر الملك ديكلتيان سنة ٣٠٣م. ولما انبسط الامن والسلم في أيام قسطنطين الكبير أسرع بولينس إلى إنشاء هذه الكنيسة البديعة. وفي القرن الحادي عشر كان أهل صور يدلون على مدفن اوريجانس فيها. ويقال أنّ الملك فريدريك برباروسا (ذا اللحية الحمراء) دُفن فيها سنة ١١٩٠م. وقد نقب الدكتور ساب الالماني سنة ١٨٧٤م بأمر حكومته في أطلال هذه الكنيسة طامعاً أن يكشف عن شيء من رفات هذا الملك، واشترى أرض الأخربة التي هناك من المتاولة، وأخذ يحتفر فيها فكشف عن مدافن عديدة ولكنه وجدها كلها مكسرة من ذي قبل، ولم يعثر على خط أو علامة أخرى دالة على مدفن الملك فريدريك أو على مدفن اوريجانس، بل وجد قطعاً كبيرة من الحجر منحوتة دالة على أسس الكنيسة القديمة، وفي جانبها قطع أصغر منها موذنة بتجديد البناء في أيام النصارى الغربيين، وأعمدة ضخمة من صخرة واحدة من الحجر المحبب وبعض قطع من المحبب الأحمر والسنجابي. ويظهر أنّ هذه الأعمدة كانت في هياكل صور القديمة الوثنية فنُقلت إلى هذه الكنيسة، ويُقدّر أنّ هذه

كنيسة بولينس كانت على هيئة صليب، وأنّ طولها كان خمسة وسبعين متراً وعرضها خمسة وثلاثين متراً.

عد ٥٩٣

كنائس أخرى في سورية في هذا القرن

من الكنائس المشهورة التي أُنشئت في سورية في هذا القرن الكنيسة التي شرع الملك قسطنطين في بنائها في انطاكية سنة ٣٣١م، وقد ذكرها القديس ايرونيموس في الكرونيكون في السنة الثانية والعشرين لقسطنطين الملك قائلاً: «بُدئ في بناء المعبد في انطاكية الذي يسمونه الذهبي» لكثرة ما كان فيه من الذهب. وقال اوسابيوس (ك ٣ من ترجمة قسطنطين فصل ٥٥) وأقام قسطنطين في انطاكية عاصمة المشرق كنيسة تلائم عظمة هذه المدينة باتساعها وزخرفها، وأحاط الكنيسة وما بجوانبها بسور، ورفع جدران الكنيسة إلى علو شاهق جعلها في هيئة مثمنة، وأنشأ حولها غرفاً ومخادع وجمّل هذه الكنيسة الملكية بكثير من الذهب والنحاس وغيرهما من المعادن النفيسة. على أنّ هذه الكنيسة لم يُفرغ من بنائها إلّا بعد وفاته، واستدعى ابنه قسطنس الاساقفة لتكريسها سنة ٣٤١م، فاجتمع حينئذٍ في انطاكية تسعون أو سبعة وتسعون أسقفاً، وعُقد حينئذٍ مجمع انطاكية (طالع ما ذكرناه في مجامع انطاكية).

وقد روى اوسابيوس القيصري في مؤلفه في ترجمة قسطنطين (ك ٣ فصل ٥٨) إنّ الوثنيين كانوا يجتمعون في بعلبك ويتمرغون في وحول الفواحش، ويطلق الرجال لنسائهم وبناتهم عنان شهواتهم تكرمة لمعبودهم الزهرة، ففرض الملك قسطنطين رعاية للأدب سنّة نهى بها عن الاجتماع هناك وأبطل تلك العادة السيئة، وبنى كنيسة وأقام فيها أسقفاً وكهنة. وروى ذلك سقراط أيضاً (ك ١ من تاريخه فصل ١٨) وزاد على ذلك أنّ تلك العادة السيئة كانت أفضت بالوثنيين هناك إلى أن يعتدوا نفوسهم شركاء في النساء كما هم شركاء في الماء والكلأ، حتى لم يعد الاولاد غالباً يعرفون أبناء من هم. فاقامة هذه الكنيسة والاساقفة والكهنة وعناية الملك بتنصرهم بدّلت حال تلك المدينة. ومثل ذلك ذكر اوسابيوس (ك ٣ فصل ٥٥ في ترجمة قسطنطين) إنّ قسطنطين انتهى إليه أنه يوجد معبد آخر للزهرة لا في مدينة أو شارع بل في وادي في أعالي لبنان يسمى أفقا يجتمع الناس فيه

.كمدرسة يتعلمون فيه الفساد والفحشاء، ويعكفون على ذلك في المعبد نفسه بمنزلة محل معصوم من الشريعة، ولا رئيس ولا ناظر فيه ينهي عن الشرّ، فأمر بدكّه وتحطيم التماثيل التي كانت فيه ونهى عن الاجتماع هنالك لأية علّة كانت. وروى رنان (في كتبه بعثة سورية صفحة ٣٠٨) إنّ قسطنطين نقل سكان أفقا إلى بعلبك وأنه يُحتمل أن يكون هذا المعبد جدده يوليانس الجاحد بعد نقض قسطنطين له، وعاد الوثنيون يجتمعون فيه على عادتهم إلى أن نُقض ثانيةً في أيام اركاديوس الملك. فإننا نراه قال (في أمر أصدره سنة ٣٩٩م) إذا وُجدت هياكل في البراري فلتنقض دون جنود وضوضاء، فإذا نُقضت لم يبقَ محل للعبادة الباطلة. فالقول عن هياكل في البراري يصدق في لبنان ولا سيما في أفقا والمشنقة. قال رنان بعد ذلك إنّ سوزومانوس روى (في ك ١ من تاريخه) أنّ الناس كانوا يجتمعون في أفقا إلى أيامه (في القرن الخامس) وكان الكهنة يتمحلون صيرورة معجزات، وهذا يدل أنّ المعبد جُدد بناؤه في أيام يوليانس، ثم نُقض ثانيةً وبُنيت مكانه كنيسة، إما في زمان تواودسيوس عند أمره بنقض هياكل الاصنام، وإما في زمان يوستينيانس الملك. فإنّ اوسابيوس لم يقل أنّ قسطنطين بنى كنيسة في أفقا كما قال أنه بنى كنيسة في بعلبك.

وهذا مثال للزهرة مأخوذ عن تمثال كشف عنه في سورية، وهو الآن في متحف افرنسة ومطابق لما وُصف به مكروب تمثال الزهرة في لبنان.



وأنبأنا اوسابيوس أيضاً (في ك ٣ فصل ٥١ من ترجمة قسطنطين) إنّ هذا الملك بنى كنيسة في جانب بلوطة ممرا (في جهة الخليل) ذكراً لظهور الله لابراهيم ولوعوده له في هذا المحل، وكتب رسالة إلى مكاريوس بطريرك أورشليم وسائر أساقفة فلسطين أثبتها اوسابيوس في الكتاب المذكور (فصل ٥٢ وما يليه) يلومهم الملك فيها على اغضائهم على أن يبني الوثنيون مذبحاً ويقيمون أصناماً ويجتمعون لاقتراف المعاصي في هذا المحل الذي تقدّس بتجلّي الله فيه لابراهيم مرات كثيرة. ويأمر والي فلسطين أن يدكّ المذبح دكّاً ويحرق الاصنام ويقيم هناك كنيسة، ويسأل الاساقفة أن ينبئوه إذا حصل تقاعس عما أمر به أو خلاف له، ليذيق المخالف شديد العقاب. وروى ذلك سقراط أيضاً (ك ١ من تاريخه فصل ١٨) وذكره سوزومانوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٤) بأكثر إسهاب قائلاً ما ملخصه: «إنه كان يقام هناك سوق تقاطر الناس إليه من فلسطين وفينيقية والعربية للبيع والشراء، وكل من المجتمعين يجلّ هذا المحل ويُبدي فيه عواطف عبادته على اختلاف مذاهبهم. فاليهود لاعتقادهم أنّ الله تجلّى في المحل لابراهيم أبيهم، والوثنيون لقولهم أنّ الملائكة أو الآلهة ظهروا في هذا المحل، والنصارى لتيقّنهم أنّ من ظهر لابراهيم في هذا المحل كان رمزاً إلى كلمة الله الذي تجسّد في حشاء العذراء، وكان كل فريق يقدّم ذبائح هناك تجلّة للمحل أو خشية الانتقام منه. ويبدي كثيرون أنواعاً عديدة من الاعتقادات الفاسدة، وكانت النساء يتبهرجنَ ويخطرنَ بين القوم بأفخر الزينة والحلى. وقد حدث أنّ حماة قسطنطين (أو أمه) حجت إلى هذا المحل ورأت ما يكون فيه العثار، فأنفذت رسالة إلى قسطنطين الملك تنبئه بما رأت، فأمر بما ذكره اوسابيوس وببناء كنيسة في هذا المحل.

ولما أمر الملك توادوسيوس بدكّ معابد الاصنام في سورية كما مرّ قد تحولت معابد كثيرة إلى كنائس. ويُظن أنه في هذه الحقبة حوّل معبد بزيزا (بيت عزيزا) في كورة طرابلس إلى كنيسة بقي شيء من آثارها إلى اليوم. ومعبد المشترى الذي كان عند عين الحلوة في جهة عمشيت إلى كنيسة على اسم القديس جيورجيوس، وعلى مقربة منه كنيسة القديسة صوفيا وبنتها. وكشف العالِم رنان هناك عن خط كُتب على مدفن من بنى المذبح للمشترى في هذا المحل. وكذا يُظن أنّ كنيسة بلاط (ببلاد جبيل) محوّلة عن هيكل للمشترى العظيم، ومثلها كنيستا حبوبة وادة (جبيل) حيث كان معبد لأدونيس. رواه رنان في بعثة فينيقية، وكاران ني الأرض المقدّسة (صفحة ٩٨).

وذكر دي فكواي (في الخطوط السامية في سورية الوسطى) عدّة كنائس محوّلة عن معابد للاوثان أو قلاع في هذا القرن، منها كنيسة نفخة في حوران (ذكرها في صفحة ٥٧) وكنيسة قنوات حوّلت عن معبد في القرن الرابع وأُصلحت في القرن الخامس (صفحة ٥٩) وكنيسة خربة حاس في النصف الثاني من القرن الرابع (صفحة ١٠٠) وكنيسة حاس في القرن الرابع (صفحة ١٠٢).

الفصل السادس

القديسون الذين كانوا في القرن الرابع في سورية من شهداء ومعترفين

قد ذكرنا كثيرين من القديسين في كلامنا على بطاركة انطاكية وأورشليم وعلى أساقفة سورية وعلمائها فنذكر الآن من نعرفهم من غير هؤلاء.

عد ٥٩٤

القديس جيورجيوس

اختلف في منشأ القديس جيورجيوس، فذهب بعضهم إلى أنه وُلد في مدينة اللدّ في فلسطين، وذهب غيرهم إلى أنه وُلد في الكبادوك. وبعد وفاة والده مضت به أمه إلى فلسطين حيث كانت لهم أملاك. واتفق أكثرهم على أنه وُلد سنة ٢٨٠ للميلاد وعلى أنّ استشهاده كان في أيام الملك ديوكلتيان سنة ٣٠٣م، وعلى أنّ أباه كان من رؤساء الجند في أيام ديوكلتيان، وأنه ترقى بعد أبيه إلى المناصب في الجندية حتى صار رئيساً على ألف من جنود حرس الملك. وأجمعوا على أنّ مجاهرته في الدين المسيحي ومدافعته عن المسيحيين بعثا ديوكلتيان على أن ينزل به

أعذبة أليمة عديدة. ولكن بالغ بعضهم في وصفها حتى جعلوا شيئاً منها في جملة الاقاصيص، وغمضوا حقيقة ترجمته حتى تعسّر القطع بالصحيح منها، ونبذ ما كان فيه مغالاة أو غير صحيح. ولا مراء في معاناته صنوفاً من الاعذبة الاليمة، وفي تقوية الله له على تحملها، إلى أن قُطع رأسه ونال اكليل الشهادة. ويصوّره المصورون بهيئة فارس وبيده رمح يطعن به تنيناً لينجي ابنة يصورونها في صورته من افتراس التنين لها. ولذلك نوع من الرمز والمجاز لا حقيقة تاريخية، فالتنين فيها كناية عن عبادة الاوثان، والبنت كناية عمن دافع منهم من المسيحيين وقت الاضطهاد ووقاهم من فساد الوثنية وافتراس تنينها لهم. أو أنّ ذلك رمز إلى أنه انتصر بجهاده على الشيطان الذي سماه الكتاب تنيناً، وقالوا إنّ قتل القديس جيورجيوس للتنين كان في مدينتنا بيروت، وأظن نسبة حصول هذه الآية في بيروت نشأت عن أنّ سكان هذه المدينة كانوا من أقدم الايام شديدي التعبّد للقديس جيورجيوس.

وقد ذكر ودينكتون (في كتابه في الخطوط اليونانية واللاتينية في سورية) أنّ عبادة القديس جيورجيوس منتشرة كثيراً في سورية عند النصارى والمسلمين أيضاً الذين يسمونه الخضر. وإنه عُثر على خط يوناني نُقش على باب كنيسة على اسمه في صهوة الخضر (بحوران) وهو الخط ١٩٨١ بين خطوطه وفحواه: «إنّ باني هذا المعبد يتضرّع إلى القديس جيورجيوس أن يتقبّل تقدمته ويسعفه بصلواته ويشفع براحة نفس أخيه كوميس». وإنّ المسلمين والنصارى يحجّون إلى هذا المعبد من أقدم الدهر. وإنّ هذا القديس استشهد في أيام ديوكلتيان الملك في اللدّ على الراجح. وإنّ الزيادة في التعبد له شوشت ترجمته، وأنه وجد خطوطاً كثيرة دالة على عبادته منها الخطوط: ٢٠٣٨ و ٢٠٩٢ و ٢١٤٦ و ٢١٥٨، وإنّ ذخائره نُقلت إلى كنيسة مبنية على اسمه في اللجا كما يظهر من الخط ٢٤٩٨ الذي كُتب فيه: «إنه في سنة ٤١٠ لتاريخ بصرى (توافق سنة ٥١٥ للميلاد) ظهر القديس جيورجيوس بيوحنا بن ديومادا أحد وجهاء زروا ظهوراً حقيقياً لا بالحلم وأمره بوضع ذخيرته في الكنيسة. وقد اتصلت عبادة القديس جيورجيوس من المشرق إلى المغرب ولا سيما إلى روسيا وانكلترة، وجعل الروسيون القديس جيورجيوس وتنينه شعاراً لهم، واتخذه الانكليز والجنويون شفيعاً لهم.

عد ٥٩٥

القديسان سرجيوس وبكخس

روى ودينكتون في شرح الخط ١٩١٥ من خطوطه أنّ سرجيوس كان من رصافة بين تدمر والفرات، وبكخس من بربليس في سورية الكوماجانية، وأنهما نالا اكليل الشهادة في أيام كالر مكسيميان، وأنه يعيّد لهما في جميع كتب تراجم القديسين في ٧ من تشرين الاول، وإنّ العبادة لهما منتشرة في المشرق منذ القرن الرابع فصاعداً. فسنة ٣٥٤م أُقيم لهما معبد في عيتا في البثنية كما يظهر من الخط ٢١٢٤، وأُنشيء معبد آخر في اللجا سنة ٥١٧م كما يظهر من الخط ٢٤٧٧، وآخر في حوران كما يظهر من الخط ٢٤١٢. وقد بنى لهما يوستينيانس كنيسة في القسطنطينية ذكرها بروكوب (في ك ٤ في الابنية) وكنيسة أخرى في عكا على اسم سرجيوس (ك ٥).

والمؤكد من تاريخهما أنهما كانا من فرسان الجيش الروماني في أيام الملك مكسيميان، وعرف هذا الملك أنهما مسيحيان، وسألهما عن ذلك فجاهرا بمعتقدهما فتملقهما ثم هددهما ليجحدا ويقربا الذبائح للاوثان، فلم يذعنا فعزلهما من منصبيهما وألبسهما ثياب النساء وطوفهما في شوارع المدينة فلم ينثنيا عن عزمهما، فأرسلهما الملك إلى انطيوكس والي المشرق حينئذٍ آمراً اياه أن يعذبهما ليكفرا أو يسلهما. وحاول انطيوكس جهده ليجعلهما يقدمان ذبيحة للوثن فلم يذعنا وسخرا منه، فأسلم بكخوس إلى أربعة جلادين وأمرهم أن يجلدوه جلداً مبرحاً، فأماتوه بنثر لحمانه. وأما سرجيوس فأمر أن يلبسوه حذاء وقد رزّوا فيه مسامير حادّة واستكدوه جرياً أمام مركبة الوالي، فتهشمت رجلاه لكنّ الله أبرأه من جراحه، ويئس الوالي من حيدانه عن معتقده فأمر بقطع عنقه فتكلل بدمه. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيّدان لذكر سرجيوس وباخوس في ٧ من ت[1]. وفي كتاب تراجم القديسين عندنا أنّ شهادتهما كانت سنة ٣٠٦م وفي روما من أقدم الايام كنيستان على اسم هذين القديسين.

عد ٥٩٦

القديس ايلاريون

قد دوّن القديس ايرونيموس ترجمة هذا الكتاب (في المجلد الثاني من تآليفه في طبعة الأب مين) فقال ما ملخصه وُلد ايلاريون في قرية اسمها طباتا أو طبات على نحو من خمسة أميال من غزة غرباً، وكان والداه وثنيين، وقد أرسلاه إلى اسكندرية لاقتباس العلوم فنبغ وذاع خبر ذكائه وحسن سجاياه على حداثة سنّه، وأحبه الناس وأجلّوه فتنصّر، وكان يؤثر الترداد إلى الكنائس على ترويح نفسه بالمساهد والملاعب والمتنزهات، وسمع بأخبار انطونيوس الكبير فأمه إلى البرية فدُهش بسيرته وبدّل زيّه وأقام عنده شهرين أو ثلاثة متأملاً بنسكه ومعجباً بفضائله. ثم عاد مع بعض الرهبان إلى موطنه فوجد والديه درجا بالوفاة فدفع إلى اخوته ما خصّهم من الارث، ووزع نصيبه على الفقراء غير مبقٍ لنفسه على شيء. واعتزل في برية يكثر فيها اللصوص غير مبالٍ إلّا بمرضاة ربه. وعكف على العيشة القشفة والصوم، فكان يطوي النهار كله ولا يقتات إلّا بقليل بعد مغرب الشمس. وكانت التجارب تطرقه فينتصر عليها قامعاً أمياله متسلحاً على ابليس بالخشوع لله. وأقام اولاً أربع سنين في كوخ يقيه الحرّ والمطر، ثم ابتنى له صومعة علوّها خمس أقدام وطولها أكثر قليلاً لتكون أقرب إلى هيئة قبر من هيئة بيت. وقال القديس ايرونيموس أنها كانت باقية إلى أيامه، وكان فراشه من تبن ومأكله في بعض سني نسكه من العدس نقيعاً، وفي بعضها من الخبز اليابس مع الملح والماء، وفي بعضها من الاعشاب. وكان يحفظ الاسفار المقدّسة عن ظهر قلبه ويتلو صلواته كأنه ماثل أمام الله. وذكر القديس ايرونيموس كثيراً من الآيات التي أجراها الله على يده، منها أنّ لصوصاً أتوه ليلاً فأضلّهم الله طريقهم حتى لم يهتدوا إليه الليل كله، ولما طلع النهار وجدوه فقالوا أما تخاف اللصوص؟ فقال: لِمَ يخافهم العريان. قالوا أما تخشى أن يقتلوك؟ قال: لا أخشى لأني مستعد أن أموت. فعجبوا من شجاعته وأقرّوا له بأنّ الله أعماهم عنه ووعدوه باصلاح سيرتهم. ومن آياته أنّ امرأة شريفة عاقراً جسرت أن تدنو إليه ففرّ منها فقالت لِمَ تهرب من سائلة؟ أنظر إلى بائسة وُلد من جنسها المخلّص الذي قال إنّ الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب بل الأعلاّء. فسألها عن علّة اتيانها إليه وبكائها فلم تكتمه أمرها، فرفع عينيه إلى السماء وباركها، فرُزقت بعد ذلك ابناً.

ومنها أيضاً أنّ امرأة البيديوس الذي نصب بعداً رئيساً على الحرس الملكي مضت لزيارة انطونيوس مع زوجها وثلاثة بنين لها، ولما بلغت غزة مرض ابناؤها ويئس الأطباء من شفائهم فأمّت ايلاريون قائلة له أستحلفك بيسوع الجزيل الرأفة، ونشدتك بصليبه ودمه أن تردّ عليّ أبنائي. فقال لم أعتد دخول المدن ولا القرى. فألحّت إليه مذرفة الدموع السخيّة ولم تنصرف إلى أن وعدها أن يأتي إلى بيتها بعد مغرب الشمس، فأتى ودعا باسم يسوع فطفحت أجسام الغلمان بالعرق وانتعشوا وطلبوا القوت وعاودتهم العافية وشكر الجميع الله. إلى كثير غير ذلك من الآيات التي ذكرها ايرونيموس في ترجمته. وكانت بينه وبين القديس انطونيوس مكاتبات، وكان إذا لجأ بعض السوريين إلى انطونيوس قال لهم لِمَ تتجشمون المشقات بالاتيان إليّ وابني ايلاريون عندكم.

وذاعت أخبار آياته فتقاطر الناس إليه من كل فجّ، وآمن كثيرون منهم بالمسيح، وسأله كثيرون أن يتخذوا الطريقة الرهبانية تحت تدبيره. قال ايرونيموس ولم تكن أديار في فلسطين ولم يعرف أحد إلى حينئذٍ راهباً في سورية، فكان ايلاريون مؤسس هذه الطريقة في هذا الاقليم. وكان لله انطونيوس الشيخ في مصر وايلاريون الشاب في فلسطين. وانشأ ايلاريون أدياراً كثيرة وكان يتعهدها ويشجع النساك فيها ويحضّهم على الكمال. ولما كان يجتاز في القرى كان الناس حتى الوثنيون يتراكضون لطلب بركته ويجثون صارخين بلغتهم السريانية «بارخ» أي بارك (هذه بيّنة أخرى على أنّ لغة الشعب في فلسطين كانت سريانية). ولما كثر ازدحام الناس إليه فرّ من وجههم واعتزل تنكباً لمجد العالم. فمضى إلى صقلية فلم تخفَ مدينة مبنية على جبل. وتقاطر الناس إليه وصنع الله على يده معجزات، ثم فرّ إلى روما. ولما عرف هناك بما هو عليه برح المدينة متنكراً وأتى إلى قبرص معتزلاً مخالطة الناس. ومع ذلك صنع الله على يده هناك آيات أخرى. وقد أدركته المنية في هذه الجزيرة ودُفن فيها. وأتى تلميذه هاستكيوس وطلب أن يقيم في البستان الذي دُفن فيه، فسرق جثته المباركة بعد عشرة أشهر من دفنها، ونقلها إلى ديره القديم في فلسطين. ولم يكن الفساد عراها ولا طرأ عليها ولا على ملابسه تغيّر. وقد أجرى الله معجزات بشفاعته بعد موته في المحلين أي في قبرص حيث دُفن وفلسطين. انتهى كلام القديس ايرونيموس ملخصاً وموجزاً. وعن غيره من المؤرخين أنّ ايلاريون وُلد سنة ٢٩٢م وكانت وفاته نحو سنة ٣٧٢م

عد ٥٩٧

القديس ملخس

قد دوّن القديس ايرونيموس أيضاً ترجمة هذا القديس واعتدّ العلماء كلامه فيها من منتخبات أقواله فصاحة وبلاغة. وقد ترجمها لافنتان إلى الافرنسية نظماً. فكانت من أبدع شعره. قال ايرونيموس أتيت سورية إذ كنت شاباً وأقمت في قرية اسمها مارونية بعيدة عن انطاكية نحو ثلاثين ميلاً شرقاً. قلت. هذا لأبيّن كيف اتصلت إلي معرفة ما سأكتبه. فكان هناك شيخ اسمه ملخس وتأويل اسمه ملك، وكانت امرأته قد شاخت ودنت من الاجل، وكانا بارين كزكريا واليصابات، ولكن لم يكن لهما يوحنا، فسألتهما أبروح الله كان زواجهما أو بروح العالم؟ فقال لي ملخس: قد وُلدت في نصيبين وكنت وحيداً لوالدي وكان أبي يهددني وأمي تتملقني لأتزوج بغية لحفظ نسلها وآخذ ارثهما، وكنت أجيبهما أني أوثر أن أكون راهباً. ولما ألحّا عليّ بالتزوج هربت من البيت ولم أستطع الفرار نحو المشرق لتوقّد الحروب بين الفرس والرومانيين، فسرت إلى كلشيس (وهي قنسرين) بين ايماس (لعلها حمص) وحلب، فوجدت رهباناً أقمت عندهم طالباً قوتي بعمل يدَي، وبعد سنين هاجني الشوق إلى العود إلى وطني لأعزي أمي على فقد والدي، وبعت ما كنت قنيته وهو نزر يسير فوهبت شيئاً منه للدير وشيئاً للفقراء، ولا أخجل من أن أقول إني استبقيت لنفسي شيئاً لأنفقه في سفري، فصاح بي رئيسي هذه تجربة ابليس وهذا عود الكلب إلى قيه. وكان هو ورهبانه يؤنبونني مذكرين لي بأمثلة من الاسفار المقدّسة، فلم أذعن لرأيهم لزعمي أنّ غرضهم نفعهم بمالي لا فائدة نفسي. فسافرت من حلب نحو الرها وكانت الطريق محفوفة بالمخاطر، فلا يجسر أحد أن يسافر منفرداً. وكان صحبنا نحواً من سبعين نفساً، وإذا بكتيبة على ظهور الخيل والجمال وثبت علينا فابتزّت أزودتنا وكل ما معنا حتى ملابسنا، واستاقنا هؤلاء إلى أماكن كثيرة ثم اقتسمونا فكنت أنا مع امرأة في نصيب مولى واحد، وبعد أن انتهينا إلى منزل مولانا في أقصى البرية أقامنا في خدمته وخدمة عياله. وتعلمت هناك أن أعيش عرياناً ليس عليّ إلّا مئزر يستر مايستحى بكشفه. وأقامني مولاي على رعاية غنمه فذكرتني حالتي بيعقوب وموسى، وكان قوتي اللبن والجبن، وسلواي الصلوة والترنم بالمزمورات التي تعلمتها في الدير. ويلذّ لي أسري فأشكر الله على لطفه بي لأني وجدت في البرية ما فقدته في موطني.

ولكن يا لدهاء ابليس ويا لشدّة مكره، فقد حسدني على حالتي التعيسة، فإنّ مولاي رأى نمو قطعانه برعايتي وتيقّن أمانتي إذ كنت عاملاً بوصيّة الرسول أن نخدم الموالي كخدمة الله، فأراد مكافأتي بتزويجي بالاسيرة التي كانت رفيقتي في أسري، فجاهرته بأني مسيحي لا يحلّ لي أن أتزوج بامرأة زوجها حي (لأنه كان معنا فوقع في أسر مولى آخر) فاستشاط مولاي وانتضى سيفه، ولولا أنني تنحيت لسفك دمي. وترك لي المرأة وكلانا يأنف الدنو من الآخر، فأحسست حينئذٍ بأسري، وندبت نفسي، وبكيت من جرا ما آلت إلي حالي وقلت لنفسي لا مناص لك من الهلاك أو الظفر، فأخذت مدية أطعن بها جسدي مفضلاً هلاك الجسد على هلاك النفس. وقلت للمرأة دونك شهيداً لا زوجاً. فانطرحت على قدمي قائلة أستحلفك بيسوع المسيح وبالضيق الذي نحن فيه في هذه الساعة أن لا تريق دمك من أجلي، وإن لم تنثنِ فاقتلني أولاً وأقسم لك بأني أحفظ العفاف الذي عودني عليه الاسر ولو عاد إليّ رجلي، وإني أوثر الموت على تزوجك بي، فاتخذني إذاً عروس العفاف ولتكن بيننا محبة النفس لا محبة الجسد، فيظنك مولانا زوجي ويعرفك المسيح أخي. فدُهشت بهذه المرأة وأحببتها أكثر من زوج لي وعشت معها وما نظرت جسمها، ولا مست جسدي، وبقينا على ذلك أياماً طوالاً.

وقد سئمت نفسي الاسر وجدّ بي الوجد إلى العيشة في الأديار، ورأيت النمل وحركتها في معاونة بعضها بعضاً، وذكرتني قول الحكيم أنظر إلى النملة وتعلّم طرقها. فصرت في المساء إلى الخباء كئيباً فسألتني المرأة ما علّة حزني؟ فكاشفتها بأمر تعويلي على الفرار فطاوعتني عليه، فذبحت كبشين جعلت جلودهما قربتين وأعددت لحمهما زاداً للطريق. ولما جن الليل سرت معها. ويصف ما حاق بهما من المخاطر وما تجشماه من المشاق وما تولاهما من الخوف إذ جدّ مولاهما في طلبهما. واختبآ في مغارة خرج منها أسد فافترسه وغلامه ونجا هو والمرأة إلى أن عاد إلى ديره فوجد رئيسه قد درج بالوفاة. وردّ نفسه على رهبانه، وعاشت المرأة بين العابدات المتبتلات. واختتم ايرونيموس بقوله هذا ما نصّ عليّ ملخس الشيخ وأنا حدث وأقصّه الآن وأنا شيخ ليكون مثالاً للعفاف، وتذكرونه لمن يخلفكم ليعلموا أنّ من اتّقى الرب يسوع لا تبعده عن العفاف السيوف ولا الصحارى ولا الأعداء، ويستطيب الموت ولا يسهل مغالبته. وكنيستنا المارونية تعيّد لذكر ملخس في ٢١ من تشرين الأول

عد ٥٩٨

توادورس الكاهن وتوادورس الشاب ويوليانس الانطاكيين

أما توادورس الكاهن فقد أخبرنا عنه سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٨) وتوادورس أيضاً (ك ٣ فصل ٨ و ٩) إنه كان كاهناً في كنيسة انطاكية على عهد الملك يوليانس الجاحد. وقد عهد إليه أسقفه بحفظ آنية الكنيسة الثمينة، وأمر الملك يوليانس بأن تؤخذ تلك الآنية إلى خزينته وأن تُقفل الكنائس. فهرب الكهنة وبقي توادورس لالتزامه بالمحافظة على آنية الكنيسة ممانعاً من نقل الملك لها. فقبض عليه أعوانه وأذاقوه مرّ العذاب، فما انفكّ مجاهراً بتشبثه بعرى ايمانه، فأمر يوليانس أحد أنسباء الملك بقطع رأسه وأخذ آنية الكنيسة وجلس على بعضها متلفظاً بشتائم للمسيح ودينه، فأصيب بمرض في مقعده وسافلته حتى نتن وتهرأ وكثر الدود فيه ولم ينجع به دوا فهلك.

وأما توادورس الشاب فقد أخبرنا عنه سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٢٠) وسقراط (ك ٣ فصل ١٩) وتوادوريطس (ك ٣ فصل ١٠) فقالوا ما ملخصه إنّ يوليانس الجاحد مضى إلى دفنه عند انطاكية يستميح مشورة ابلون صنمها، فسمع صوتاً يقول له أنه أبكم بعد أن وُضعت عظام بابيلا الشهيد (هو بطريرك انطاكية الذي ذكرناه في تاريخ القرن الثالث) على مقربة منه. ولنا في كتب ليبانيوس الفيلسوف الوثني المعاصر ليوليان بيّنة على صدق هذا الخبر. فقد قال ليبانيوس (في خطبة ٦) إنّ يوليان أنجى ابلون من جوار أحد الموتى الذي كان يزعجه، فإنّ الملك قد أمر بنقل تابوت جثة الشهيد، وعرف المسيحيون في انطاكية ذلك فخرجوا رجالاً ونساءً واولاداً يحتفلون بنقل رفات الشهيد، ويترنم المسبحون بمزمورات والشعب يجيب من ورائهم بقول المرتل تخزي من يعبد المنحوتات. فاستشاط يوليانس من هذا الصنيع المهين له وأمر بتعذيب المسيحيين الذين أقدموا عليه. فقبض الوالي على كثيرين منهم وطرحهم في السجن، وكان في جملتهم شاب اسمه توادورس عذّبه أعذبة متنوعة، وهشّم جسده وأثخنه جراحاً حتى تيقّن أنه لا يعيش بعداً. ولم يفه توادورس بكلمة تضرّع إلى الوالي ولا بشكوى من الآلام بل كان متجلداً صابراً مسروراً، فأطلقه الوالي وبه رمق فشفاه الله من جراحه وعاش بعد ذلك طويلاً. وأخبرنا روفينس (ك ١ فصل ٣٦) أنه رآه وسأله كيف

تحمّل ما أصابه من التبريح، فأجابه أنه لم يكن يشعر إلّا بقليل من الوجع، وكان يرى شاباً يمسح عرقه ودمه السائل ويشجعه حتى كان تعذيبه مدعاة لسروره أكثر من ضنكه. وقد عاد الوالي إلى يوليانس متعجباً من تجلّد توادورس، وأخبره بما كان وحقق له أنه لو لم ينكفّ عن تعذيب هؤلاء لجعل نفسه والملك سخرة لهم ومنقصة وعاراً في أعينهم.

وأما يوليانس فكان في أيام والنس الملك وقال فيه توادوريطوس (ك ٤ فصل ٢٤) إنه كان راهباً ناسكاً في البرية، ثمّ عرف قداسته فضوّع تلك الانحاء. ولما تمادى الاريوسيون بشرّهم في انطاكية استدعاه رؤساء الكاثوليكيين أن يأتي إلى المدينة وينذر الشعب ويفنّد ضلال المارقين ويثبت المؤمنين في ايمانهم فأتى. وأجرى الله على يده آيات شتى في المدينة وفي طريقه وعند اتيانه إليها وعوده منها، ذكرها توادوريطوس مفصلاً في كتابه الموسوم بفيلوتاوس (أي محب الله فصل ٢). وقال في المحل المذكور من تاريخه إنّ هذه الآيات شهد لها أعداء الحق أنفسهم. وقد ضارع بذلك القديس انطونيوس إذ ترك عزلته في البرية، وأتى اسكندرية يعظ الناس أن يتشبثوا بعروة دين الحق الوثقى. وذكر السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ١٥٤) بين مقالات القديس افرام العربية المقالة ٤١ في يوليانس الراهب إلى أن قال: «نبّه العلامة بارونيوس في كلامه في ٩ حزيران وفوتيوس (كتاب ٢٦٨) أنّ يوليانس هذا غير يوليانس سابا الشيخ الذي ذكره توادوريطوس (في المحال التي ذكرناها)، وورد ذكره في السنكسار الروماني في ١٤ كانون الثاني، وغير يوليانس الآخر الذي جاء ذكره في ١٨ تشرين الأول. على أنّ سوزومانوس ذكر يوليانس (في ك ٣ من تاريخه فصل ١٤)، وذكره أيضاً نيكوفورس (ك ٩ فصل ١٥) فظهر من شهادتهما أنه إنما هو من ذكر القديس افرام أعماله في مقالته المذكورة. وقد استشهد فيلوكسانس (في كتابه في أحد أقانيم الثالوث الذي تجسّد وتألّم صفحة ١٣٣) بمقالة القديس افرام المذكورة. وصرّح بأنّ اسمه يوليانس سابا لأنّ كلمة سابا في السريانية تأويلها الشيخ. ونراهم وصفوا بها كثيرين من النساك الأفاضل» انتهى كلام السمعاني ويرجّح منه أنّ يوليانس الذي روينا بعض ترجمته عن توادوريطوس هو يوليانس الذي ذكره القديس افرام.

عد ٥٩٩

شهداء آخرون في أيام يوليانس

من هؤلاء الشهداء كيرلس البعلبكي أخبرنا عنه توادوريطوس (ك ٣ فصل ٣) قائلاً من يستطيع أن يقصّ ما جرى من الجور على كيرلس البعلبكي ولا تهطل دموعه؟ فهذا كان شماساً في كنيسة هذه المدينة وحطّم كثيراً من أصنامها غيرةً للرب في أيام الملك قسطنطين. فأكمن له الوثنيون الضغينة والحقد ولما ملك يوليانس وثبوا عليه وقتلوه. ولم يكتفوا بقتله بل انتزعوا أمعاءه وقطعوا جسده ارباً على أنّ من لا يخفى عليه شيء انتقم من كل من اشترك في قتله نقماً متنوعة. فبعضهم فقئت أعينهم، وبعضهم بُليت ألسنتهم إلى غير ذلك من المضار. وأخبرنا سوزومانوس (ك ٥ فصل ١٠) أنه كان في بعلبك عذراوان محصنتان قبض عليهما الوثنيون وأقاموهما عاريتين في محل معرّض لنظر المارة، ثم قطعوا رأسيهما، وشطروا كلاً منهما إلى نصفين وطرحوا لحومهما قوتاً للخنازير.

ومنهم القديسان يوفنتينس ومكسيمينس وقد أنبأنا توادوريطوس (في الكتاب المذكور فصل ١١) بشهادتهما، فقال إنّ يوليانس الملك بلغ من شرّه أن ينجس عيون الماء التي في انطاكية ودفنه بدم الذبائح التي تقدّم للأوثان،وبما خبث منها وأن ينضح من دم هذه الذبائح على الخبز واللحم والثمار والأعشاب ليأنف المسيحيون من أكلها. وكان هذان القديسان من أكابر جنود الملك ودُعيا يوماً إلى وليمة فجاهرا بمذمة الملك على هذا الصنيع واستهجناه، فوشى بهما أحد من كانوا في المأدبة فاستدعاهما الملك إليه وسألهما، فلم يخجلا من أن يجيباه نحن ربينا أيها الملك في التقوى وعملنا بالشرائع المطهرة التي سنّها قسطنطين وأبناؤه، ونشمئز الآن ونشكو من أن نرى كل مأكل ومشرب منجساً بدم الذبائح الخبيثة الذي يراق عليه. فهذا ما نشكوه في أيام ملكك. فلما سمع الملك كلامهما نزع برقع الحلم الذي كان يتظاهر به واستشاط، وأمر الجند بضربهما وتعذيبهما شديد العذاب، حتى لقيا ربهما ونالا اكليل الظفر. وأخذ يعلن بأنه لم يقتلهما لتقواهما أو لأنهما مسيحيان بل لتجاسرهما وتطاولهما عليه، كيلا يكرمهما المسيحيون بمنزلة شهداء. أما المسيحيون الانطاكيون فاعتدوهما من الابطال الذين دافعوا عن الايمان، وأقاموا لهما مدفناً عظيماً. وما برحوا إلى اليوم يعيّدون لذكرهما كل سنة.

ومن هؤلاء الشهداء اوسابيوس ونستاب وزينون من غزة. فقد أنبأنا بخبر هؤلاء سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٩) فقال إنّ هؤلاء كانوا اخوة مسكنهم غزة، وكان الوثنيون من أهل هذه المدينة يبغضونهم، فوثبوا عليهم في بيتهم وطرحوهم في السجن وجلدوهم، ثم اجتمعوا في محفلهم، وأخذ بعضهم يهيّج بعضاً على الانتقام منهم لأنهم جدّوا بوقت ملائم لهم في نقض معابدهم ونسخ عبادة معبوداتهم. ثم تسارعوا إلى السجن فأخرجوهم منه، وربطوهم بحبال وأخذوا يجرونهم في الشوارع، وبعضهم يرجمهم بالحجارة وبعضهم يقرعهم بالسياط أو بالعصي، وبعضهم يصبّ عليهم ماءً غالياً، فحُطمت عظامهم، وشُجّت رؤوسهم شجّات دامغة حتى سال دماغهم. ثم أخرجوهم من المدينة إلى الموضع الذي تلقى فيه جيف الحيوانات وأضرموا ناراً أحرقوا جثثهم فيها، وما لم تبده النار من عظامهم ألقوها بين عظام الجمال والحمير كي لا يهتدى إليها. على أنّ الله ألهم امرأة تقيّة أن تجمع هذه العظام ليلاً وتدفعها إلى نسيب للشهداء اسمه زينون. وأقام بعد ذلك أسقف غزة في أيام الملك توادوسيوس كنيسة في خارج هذه المدينة ونصب مذبحاً وضع تحته عظام هؤلاء الشهداء.

إنّ عدد الشهداء في هذا القرن في سورية ولا سيما في اضطهاد ديوكلتيان في بدء القرن الخامس واضطهاد قسطنس ويوليان الجاحد ووالنس، ولكننا نقتصر ممن نعرفهم على ذكر هؤلاء تحاشياً عن ملل القارئ. ومن أحب الوقوف على أخبار شهداء وقديسين آخرين فعليه بمطالعة تراجم القديسين المعروفة بالسنكسار. وكتب البولانديين، وكتاب مروج الاخيار الذي طبعه الآباء اليسوعيون من بضع سنين في بيروت.

الفصل السابع

ما كان من البدع والمبتدعين في سورية في القرن الرابع

عد ٦٠٠

آريوس وبدعته

لم يكن آريوس سورياً بل مصرياً، لكن بدعته أقلقت سورية وسائر المشرق بل المغرب أيضاً. فقد وُلد اريوس في ليبيا وبعد أن تعلّم بعض الرياضيات والعلوم الدنيوية مضى إلى اسكندرية طامعاً بنيل المراتب البيعية . وكان ليّن العريكة لطيف المعاشرة لكنه محب للفخفخة والمجد، عشاق للمعالي. وتزلّف إلى القديس بطرس أسقف اسكندرية فرقاه إلى الدرجة الشماسية ثم علم بأنه من المشايعين لميليسيوس أسقف نيكوبولي الذي كان القديس بطرس قد عزله عن كرسيه لجرائم فظيعة وكثيرة، فطرده من الاسكندرية. وروى بارونيوس (في تاريخ سنة ٣١٠م) إنّ اريوس أخذ يحتال على القديس بطرس ليرده إلى شركته، فظهر له المسيح وعليه ثوب ممزق وقال أنّ اريوس قد مزّق ثوبي هذا فحذار من أن تقبله. وقد شك نطاليس اسكندر (مقالة ٩ في القرن الرابع) في صحة الرؤيا. لكن حجته عليها ليست بقاطعة فقد أثبتها كثيرون، وذكرت في كتاب الفرض في عيد القديس بطرس المذكور وفي ترجمته القديمة. على أنّ اكيلاس الذي خلف القديس بطرس في كرسي اسكندرية صالح اريوس ورقاه إلى درجة الكهنوت (ابيفان في بدعة ٦٩). ولما درج اكيلاس سوّلت لاريوس نفسه أن يخلفه في البطريركية، ففضّل عليه القديس اسكندر ذا الحكمة الباهرة والمحامد العاطرة. فشرع اريوس يعيّبه في سيرته الحميدة بل في تعليمه أيضاً قائلاً إنه يعلم أنّ الكلمة ابن الله مساوٍ لأبيه

جوهراً. وقضى بأنّ هذا التعليم يشف من بدعة سابيليوس الذي غوى بانكاره الثالوث الاقدس. وزعم اريوس أيضاً أنّ الكلمة أخذ في تجسده الجسد دون النفس، وأنه كان يمكنه اقتراف المآثم كباقي الناس، لكنه تسامى بالفضائل فعصمه الله منها (القديس اثناسيوس ورسالة المجمع النيقوي المجمعية). وأخذ اريوس يبثّ تعليمه اولاً خفية ثم ازداد قحة وطفق يبشّر به علانية، فنصحه القديس اسكندر فلم ينتصح، وتهدده فلم يرعوِ، فجمع مجمعاً في اسكندرية نحو سنة ٣٢٠م شهده نحو مئة أسقف ودعي اريوس إليه، ولم يخجل من أن يكابر متشبثاً بضلاله، فطعنه آباء المجمع بالحرم له ولكل من شايعه، فلم يبالِ وتمادى في نشر ضلاله. واتخذ اوسابيوس أسقف نيكوميدية محامياً عنه. وكان اوسابيوس هذا أسقفاً على بيروت ثم دخل دعياً على أسقفية نيكوميدية، وكتب إلى القديس اسكندر يسأله أن يردّ اريوس إلى شركة المؤمنين فلم يجب سؤاله، بل أبعد اريوس عن اسكندرية مع غيره من محازبيه (سقراط ك ١ فصل ٦ وغيره كثيرون).

فمضى اريوس إلى فلسطين فاغوى كثيرين فيها حتى بعض الاساقفة، منهم غريغوريوس أسقف بيروت، وتوادوطس أسقف اللاذقية. وجنح إلى تعليمه اوسابيوس أسقف قيصرية الشهير. فأنفذ القديس اسكندر بطريرك اسكندرية رسائل إلى كثيرين من الاساقفة فأجفلوا عن اريوس الذي لجأ إلى صديقه اوسابيوس النيكوميدي. وهناك نظم كتابه المعنوَن تاليا، ينطوي على أشعار مشحونة من الخزعبلات والترهات ليضلّ السذّج. وقد ظفر الملك قسطنطين في تلك الاثناء بخصمه ليشينيوس فسُرّ باستتباب السلم في مملكته، وغمّ عند سماعه في نيكوميدية بأخبار الخلاف بين الاساقفة في المشرق. ولقّنه اوسابيوس بأنّ المباحث المختلف فيها ليست ذات بال، ويكفي صدور أمره للفريقين بالصمت عن هذا المجال. فانخدع الملك وكتب إلى اسكندر بطريرك اسكندرية أنه لا يجمل به أن يُقلق الكنيسة بمثل هذه المباحث. وأرسل إليه اوسيوس أسقف قرطبا (أو إنّ البابا سلبسترس أرسله على قول آخر أعمّ) فعقد اوسيوس واسكندر مجمعاً آخر في اسكندرية جددوا به حرم اريوس (فلورى ك ١٠ فصل ٤٣ واورسي ك ١٢ فصل ٢١ وغيرهما).

ورفع اريوس بعد ذلك عريضة إلى الملك يدافع فيها عن نفسه فتأكد الملك ضلاله، وأجابه برسالة مسهبة مفنداً ضلاله مؤنباً له، وأمر باذاعة رسالته فحنق اشياعه لذلك وخدشوا صورة وجهه في تمثاله، وحرّضه أعوانه على الانتقام منهم

فمسّ وجهه قائلاً لا أشعر بخدش في وجهي. وهمّ بعقد مجمع عام في نيقية فاجتمع فيه من الاساقفة الغربيين والشرقيين ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً. وأرسل إليه سلبسترس الحبر الروماني اوسيوس أسقف قرطبا ليرأس المجمع نيابةً عنه، وفيتون وفنشنس الكاهنين بمنزلة قاصدين من لدنه. وافتتح المجمع في ١٩ حزيران سنة ٣٢٥م ودعي اريوس إليه فلبّى الدعوة ولم يخجل من المدافعة عن ضلاله الوخيم. وشايعه اولاً اثنان وعشرون أسقفاً ثم انقاد بعضهم مذعنين للتعليم الكاثوليكي.ولم يبقَ منهم أخيراً إلّا أسقفان مكابران. وأجمع سائر الآباء على نبذ ضلال اريوس، وحرمه. واوسابيوس القيصري نفسه أنشأ قانون الايمان كما مرّ في الكلام عليه. وامتاز القديس اثناسيوس الذي كان حينئذٍ مرسلاً من بطريركية القديس كيرلس بالمناضلة عن الايمان. ولذلك أبغضه الاريوسيين واضطهدوه عمره كله. واصطلح الآباء حينئذٍ على أن يضيفوا إلى قانون الايمان لكلمة اوموسيون «أي مساوٍ للآب بالجوهر» منعاً لكل تأويل. وشهد الملك قسطنطين المجلس الأخير من هذا المجمع ورفع إليه بعض الاساقفة عرائض يشكو بها أحدهم الآخر. فأمر أن تُلقى تلك العرائض بالنار. وقال ذلك القول الشهير الذي رواه كثير منهم روفينوس (ك ١ من تاريخه فصل ١) وتوادوريطوس (ك ١ فصل ١١)، وهو: «إنّ الله أقامكم أساقفة لتحكموا علينا في أمور الدين، ولذا حق الحكم لكم علينا لا لنا عليكم، وقد أعطيتم لنا آلهة من لدن الله، ولا يحلّ للانسان أن يحكم على آلهته». ثم وقّع الاساقفة على المجمع ما خلا اثنين تيونا أسقف مرمريكا وسكوندس أسقف عكا، على أنّ بعض من وقّعوا عادوا إلى غيهم ولا سيما اوسابيوس النيكوميدي، وتويني أسقف نيقية. ووضع المجمع دستوراً لتعييد الفصح والقيامة في الأحد الواقع بعد الرابع عشر من مستهل نيسان كما مرّ. وانصرف الاساقفة بعد أن أولم لهم الملك قسطنطين وأكرم جميعهم.

وأما اريوس فقد تمكّن اوسابيوس أسقف نيكوميدية من أن يجعل الملك يرضى عنه ويرده إلى اسكندرية، فعاد إليها ولكن أثار مشايعوه شغباً وقلقاً فاستدعاه الملك إلى القسطنطينية، وسأله هل يعترف بدستور الايمان الذي سنّه آباء المجمع في نيقية، فقال أعترف به. قال الملك أكتب اعترافك خطاً واقسم على صحته ففعل مخادعاً ومتأولاً كلامه بحسب مذهبه. فأمر الملك بقبوله في شركة المؤمنين وشقّ ذلك على الكاثوليكيين ولا سيما القديس كيرلس بطريرك القسطنطينية الذي مضى إلى

الكنيسة متضرعاً لله قائلاً اللهمّ إما خذني من هذا العالم وإما خذ اريوس منه لئلا يدمر كنيستك. وطاف باريوس ذووه في الشوارع متفاخراً بظفره، وبلغ ساحة المدينة فشعر بمغص أليم فانحاز إلى مرحاض خرجت فيه مع روثه امعاؤه ونفسه الخبيثة (روى ذلك سقراط ك ١ فصل ٣٧ وابيفان بدعة ٦٩ وتوادوريطوس وغيرهم كثيرون) وكان ذلك سنة ٣٣٦م وما برح محازبوه يقلقون الكنيسة زماناً طويلاً كما رأيت.

عد ٦٠١

مكدونيوس عدو الروح القدس

إنّ مكدونيوس كان كاهناً اريوسياً وأرسله سنة ٣٣٥م الاساقفة المجتمعون في صور لعزل القديس اثناسيوس قاصداً من قبلهم إلى الملك قسطنطين، ولما توفي القديس كيرلس البطريرك القسطنطيني كان الاريوسيون يرغبون في أن يخلفه وفاز الكاثوليكيون بانتخاب بولس بطريركاً، لكن الملك قسطنس عزله عن كرسيه وأدخل عليه اوسابيوس أسقف نيكوميدية. ثم عاد بولس إلى كرسيه فانتخب الاريوسيون مكدونيوس سنة ٣٤٣م، وأمر الملك أحد أعوانه أن يمكنه من تعاطي رئاسته فأدخله المدينة محفوفاً بالجنود، فكان شغب بين الكاثوليكيين والاريوسيين وقتال سقط فيه نحو من ثلاثة آلاف قتيل. وأخذ مكدونيوس يضطهد الكاثوليكيين ومن ينتمون إلى بولس البطريرك الشرعي معذباً اياهم وقاتلاً بعضهم أيضاً ومخرباً كنائسهم. حتى روى بعض الثقاة من المؤرخين أنه أرسل أناساً فخنقوا القديس بولس سالفه في منفاه، ثم تغيّر عليه الملك قسطنس لأنه نقل جثة أبيه قسطنطين من مدفن إلى آخر. فأمر بطرده من كرسيه فطُرد منه سنة ٣٦٠م. على أنه لما كان أسقفاً لم يكن يعلم من الضلال إلّا تعليم اريوس. وأما بعد عزله فأراد أن يكون مبدعاً بدعة حديثة، وكان اريوس قد أنكر أن يكون المسيح إلهاً فأنكر مكدونيوس أن يكون الروح القدس إلهاً، وبثّ ضلاله في كثيرين وعاملته نقمة الله في منفاه. ولكن لم تنته بدعته بموته، بل غادر أتباعاً كثيرين منهم مرتينيو تلميذه أسقف نيكوميدية، وامتدّت بدعته في أديار كثيرة للرهبان (سقراط ك ٢ فصل ٦ وغيره وسوزومانوس ك ٣ فصل ٣ وغيرهما كثيرون).

وانتشرت بدعة مكدونيوس في تراسة وبيتنيا، وكان الكاثوليكيون يسمون مشايعيه أعداء الروح، ونبذت هذه البدعة وحرمت في مجامع عديدة منها مجمع في اسكندرية سنة ٣٦٢م عقده القديس اثناسيوس، ومجمع في ايليريا سنة ٣٧٦م، ومجمع عقده القديس داماسس البابا في رومية سنة ٣٧٣م، وأخيراً في المجمع القسطنطيني الذي عُقد سنة ٣٨١م شهده مئة وخمسون أسقفاً من الشرقيين. ولم يُحسب هذا المجمع من المجامع المسكونية إلّا بعد أن عقد البابا داماسس مجمعاً آخر في روما سنة ٣٨٢م دعا إليه الاساقفة الغربيين فصادقوا وأثبتوا ما سنّه المجمع القسطنطيني وأيّده بالسلطان الرسولي.

عد ٦٠٢

ابولينار وغيره من المبدعين

قد أنبأنا سقراط (ك ٣ من تاريخه فصل ٤٦) وسوزومانوس (ك ٥ فصل ١٨) أنه كان في اللاذقية بسورية رجلان يسميان ابولينار أحدهما ابن الآخر، وكان الأب كاهناً والابن قارئاً، وكلاهما عالماً بآداب اللغة اليونانية. وكان الأب يعلّم نحو هذه اللغة والابن الفصاحة فيها. وأصل الأب من اسكندرية أتى بيروت فعلم فيها ثم هاجر إلى اللاذقية وتزوج فوُلد له ابنه ابولينار. وكانا معاصرين ايفان السفسطي الوثني وملازمين له صداقة. وخشي توادوطس أسقف اللاذقية أن تبعثهما شدّة ملازمتهما له على الانحراف عن المذهب الكاثوليكي، فنهاهما عن الترداد إليه فلم يذعنا له. ثم توفي توادوطس وخلفه جيورجيوس في أسقفية هذه المدينة فاهتمّ أيضاً بابعادهما عن السفسطي المذكور. فلم يتثنيا ففصلهما عن شركة المؤمنين. وشقّ ذلك على ابولينار الصغير فأبدع البدعة المنسوبة إليه، وقال بعضهم أنّ علّة الخلاف بينهما وبين أسقفهما كانت أنهما رأياه تارة يقول أنّ ابن الله يشبه الآب، وتارة يقول مقال اريوس، فانشقا عنه وعلّما تعليماً حديثاً أنّ ابن الله أخذ جسد البشر لكنه لم يأخذ نفساً بشرية لأنّ اللاهوت ناب عنها. ثم أظهرا التوبة والارعواء عن ضلالهما الاول. لكنهما ما انفكا عن الضلال لأنهما قالا إنّ المسيح أخذ النفس لكن دون قوتها العاقلة لأنّ اللاهوت ناب عنها.

ودونك ما جاء عن ابولينار وابنه في التاريخ السرياني الماروني الذي نشره في هذه السنة ١٨٩٩م الأب نو استاذ كلية باريس الكاثوليكية مأخوذاً عن كتاب مخطوط في مكتبة لندرة عد ١٧٢١٦ معزوٍ إلى قيس الماروني. قال المؤلف: «وظهر في هذا الزمان (في القرن الرابع) ابولينار وهو اسكندري أصلاً كان يدرس العلوم الدنيوية، ثم جاء من اسكندرية وصار معلماً في بيروت، ثم انتقل إلى اللاذقية بسورية فتزوج هناك ورُزق ابناً سماه باسمه ابولينار، وصار قسيساً وابنه قارئاً في أيام توادوطس أسقف هذه المدينة، وكانا يعلّمان العلوم اليونانية. يعلّم الأب النحو، وابنه الفصاحة. وكانا يكثران من التردد إلى ابيفان السفسطي الوثني فمنعهما توادوطس عن معاشرته لئلا توقعهما في الوثنية. فأظهرا الامتثال لأمر الاسقف. ومات توادوطس وخلفه جيورجيوس وظلا يلازمان ابيفان حتى عند تقدمة الذبائح للاوثان. فعني جيورجيوس بكفهما عن ذلك وأبيا إلّا ملازمة السفسطي فأقصاهما عن شركة المؤمنين. فاستاء ابولينار الشاب وأبدع اعتماداً على سفسطته بدعة حبيثة، ومضى إلى بعض أساقفة محرومين ورقوه إلى أسقفية دون أن يعيّنوا له مدينة. وأخذ هو وأبوه يبثان بدعتهما فكانا يعتقدان بطبيعة اللاهوت كما نعتقد، لكنهما يسميان الآب الاعظم والابن الافضل والروح الاوفر. وإنّ الكلمة تجسّد واتخذ نفساً لكنها لم تكن ناطقة بل حيوانية لأنّ اللاهوت ناب مناب النفس الناطقة». فهذا ما جاء في هذا الكتاب وهو مطابق لما رويناه عن سقراط وسوزومانوس وذكرناه لتأكيد الخبر وتعريف القراء بهذا الأثر.

ولما أمر يوبيانس الجاحد المسيحيين أن يتفقهوا بعلوم اليونان نظم ابولينار بعض الاسفار المقدّسة شعراً في اللغة اليونانية. وروى القديس غريغوريوس النيصصي (في خطبته في القديس افرام) أنّ ابولينار لما شاخ ودع كتاب ضلاله عند احدى تلميذاته في انطاكية، فاستعار القديس افرام الكتاب من المرأة وألصق أوراقه إلى بعضها بغري وردّه عليها. والتقى بابولينار فأخذ يجادله، ولما عجز عن الجواب طلب كتابه ليحجبه به وأراد أن يفتحه فوجده قطعة واحدة لا تنفصل صفحة عن أخرى، فطرحه في الارض وولّى هارباً. وقد حُرّمت بدعته في المجمع الذي عقده القديس اثناسيوس في اسكندرية سنة ٣٦٢م، ثم في المجمع الذي عقده البابا داماسس في روما سنة ٣٧٣م، ثم في المجمع القسطنطيني الاولي سنة ٣٨١م.

وكان في انطاكية في هذا القرن ايريوس انشقّ عن اوسطاتيوس البطريرك وتبع

الاريوسيين وزاد على ضلالهم أنه كان يزعم أنّ لا فرق بين الكهنة والاساقفة، وأنّ الصلوات عن الموتى لا تفيدهم، وأنّ الصوم والاعياد حتى الفصح أيضاً لا منفعة منها. وكان في هذا القرن أيضاً المصلّون وقد المعنا بذكر بدعتهم في ما مرّ. وكان هراطقة يسمون أعداء مريم وهم فرع من الابوليناريين زعموا مع البيديوس أنّ العذراء لم تلبث بتولاً، بل ولدت أولاداً آخرين من يوسف، وفنّد القديس ابيفان ضلالهم برسالة مسهبة أنفذها إلى المؤمنين. (انتهى عن كثير من ثقاة المؤمنين).

هذه صورة ماكرين الملك مأخوذة عن تمثال له في الكابيتول بروما.



الباب الخامس

تاريخ سورية في القرن الخامس

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

ذكر الملوك القسطنطينيين الذين تولوا سورية في القرن الخامس

نصف هؤلاء الملوك بالقسطنطينيين لأنه بعد أن أقام الملك قسطنطين في بيزنطية وسّع أبنيتها وعظّمها وسماها قسطنطينية نسبةً إليه. وقسم مملكة الرومانيين بين أبنائه، وجعل القسطنطينية عاصمة مملكة المشرق. واستمر ملوكها يلون سورية إلى أن تقلّصت سلطتهم منها بفتح الخلفاء المسلمين لها من سنة ٦٣٤م إلى سنة ٦٣٨م ويسمون ملوك الروم البيزنطيين أو القسطنطينيين أو الرومانيين أيضاً. ويسمي الافرنج ملكهم الملك السافل لكثرة ما كان فيه من المكر والخلاعة وأفعال السفلة كما سترى.

عد ٦٠٣

اركاديوس الملك

قد مرّ أنّ الملك توادوسيوس لقي ربه سنة ٣٩٥م وخلفه ابناه انوريوس في مملكة المغرب واركاديوس في مملكة المشرق. وكان اركاديوس بكر أبيه وتسنّم منصّة الملك مستقلاً وعمره نحو من ثماني عشرة سنة. وكان جباناً فاتر العزيمة ترك أزمة الملك لروفينس رئيس حرسه الذي كان أبوه قد جعله مدبراً له. وكان كثير الانقياد لاودكسية زوجه من ذلك مطاوعته لها في اضطهاد القديس يوحنا فم الذهب ونفيه. وقد أيّد الآريوسيين، ولم يحسن مقاومة الخوارج من الغطط (هم الذين يسميهم المؤرخون العرب قوط) وغيرهم في انتشارهم في المملكة وسطوهم عليها، ومات سنة ٤٠٨م. روى سقراط (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٣) أنّ اركاديوس كان ملكاً حليماً رضياً وقد حسبه الناس في آخر عمره عزيزاً لدى الله لأنه كان في جانب قصره شجرة جوز يقال أنّ اكاشيوس الشهيد عُلّق فيها ونال اكليل الشهادة. فبنى الملك كنيسة على اسمه حذاء تلك الشجرة، ودخل إليها ليراها فأدركته المنية هناك. فتسارع أهل المدينة ليشهدوا الحفلة وتراكموا على أسطحة القصر فسقطت ولم يهلك أحد منهم، فصاح الجمهور أنّ صلاة الملك وَقتْ من سقطوا التهلكة. وقد ملك اركاديوس مع أبيه ثلاث عشرة سنة، وملك وحده أربع عشرة سنة، وجملة عمره احدى وثلاثون سنة.

عد ٦٠٤

الملك توادوسيوس الصغير

خلف اركاديوس ابنه توادوسيوس الثاني ويوصف بالصغير تمييزاً له عن جده توادوسيوس الموصوف بالكبير. ولم يكن حينئذٍ له من العمر إلّا ثماني سنين. وكان انتيمس رئيس حرسه وأحكم أهل عصره يدبر الملك. وكان لتاوادوسيوس أربع أخوات فلاشلا وبلوشاريا واركاديا ومارينا وآثر بلوشاريا على أخواتها فسماها اغوسطا أي سلطانة، إذ لم يكن لها من العمر إلّا ١٥ سنة، وقد نذرت أن تتبتل لله وبعثت أخواتها على أن يقتدين بها، وأتحفت كنيسة القسطنطينية بمائدة للمذبح

من ذهب ورصعتها بالدرر الثمينة، ودربت أخاها وأخواتها في طريق الفضيلة والتقى، حتى كان قصرهم يُظن ديراً. وكان توادوسيوس جلوداً على العمل يكثر من الصوم ولا سيما يومي الاربعاء والجمعة، ويحفظ الاسفار المقدّسة عن ظهر قلبه، ولم يضرّ بأحد، بل لم يره أحد مغضباً. وسأله أحد أعوانه يوماً لِمَ لم يقتل أحداً ممن جنوا عليه فقال ليتني أستطيع أن أبعث الموتى. وكان يجلّ الكهنة، وأبطل صراع الرجال والضواري، وعوّد الشعب مشاهد أنيسة.وقد تزوج وعمره عشرون سنة باتنيدا ابنة لاونس الفيلسوف اختارتها له أخته بلوشاريا، وكانت جميلة عالمة عمّدها اتيكس بطريرك القسطنطينية، وسماها اودكسية وحارب الفرس سنة ٤٢٤م، فانتصر عليهم بعون الله وأخذ منهم سبعة آلاف أسير، فباع اكاشيوس أسقف آمد آنية كنائسه وعالهم وافتداهم وزودهم بثمنها، فدهش بذلك ملك الفرس إذ رأى الرومانيين يقهرون عدوهم بالحرب والاحسان إليه(طالع ما رواه سقراط مسهباً الكلام في توادوسيوس وفضائله في ك ٧ فصل ١٨ إلي فصل ٢٣ وسوزومانوس ك ٩ فصل ١). وسنّ توادوسيوس شرائع نهى بها عن استخدام الوثنيين في الجندية والمناصب الملكية (شريعة ٢١ من شرائعه) وأمر بنفيهم وأخذ أملاكهم إذا تجاهروا بتقدمة الضحايا لأصنامهم (شريعة ٢٢). ومنع اليهود من بناء مجامع حديثة (شريعة ٢٧) وفرض مثل هذه الشرائع على أشياع المبتدعين (شريعة ٥٩ و ٦٠ و ٦١) وعنى بالتئام المجمع الافسسي لمقاومة نسطور المبتدع، وحظّر تلاوة كتبه، وأمر بنفيه، وأجهد نفسه في تقدّم العلم، وقرّب إليه العلماء وأكرم المعلمين، ونهى عن حضور الملاعب والملاهي أيام الآحاد وأعياد ميلاد المخلّص واعتماده وآلامه وفصحه وقيامته وحلول روحه وأعياد الرسل قائلاً للتعبد وقت، وللهو وقت (شريعة ٥). وأمر بعصمة الكنائس ونهى عن أن يدخلها أحد بسلاح (شريعة ٢٤ في من يلجأون إلى الكنائس) وجمع مشاهير الفقهاء فوضعوا مجموعة الشرائع المنسوبة إليه سنة ٤٣٥م وأذاعها سنة ٤٣٨م، وهي أول مجموعة للقوانين، وقد هذبها ونقحها يوستينيانس كما سيجئ. وكان كثير الاجلال لذخائر القديسين فقد أمر بنقل رفات القديس يوحنا فم الذهب إلى القسطنطينية، وقبّل عينيه وجبهته وجثا خاشعاً لله أن يغفر بشفاعته لوالديه اللذين أساءا إليه (توادوريطوس ك ٥ من تاريخه فصل ٣٦). ونقل أيضاً رفات الاربعين شهيداً (الذين نالوا اكليل الشهادة في سبسطية في أيام ليشينس) إلى كنيسة القديس نرسس الشهيد في ضواحي القسطنطينية باحتفاء

واجلال بعناية بلوشاريا وبروكلس بطريرك القسطنطينية. روى ذلك سوزومانوس
٩ من تاريخه فصل ٢) مفصلاً خبر وجود هذه الذخائر ونقلها، وقال أنه
شاهداً عيانياً وشهد حفلة نقلها.

وروى نيكوفورس (ك ١٤ فصل ٤٤) إنه في أيام الملك نُقلت رفات القد
اغناطيوس بطريرك انطاكية من روما إلى القسطنطينية، ثم سمح الملك بنقلها
انطاكية بحفلة كبرى. وروى كثيرون منهم فوتيوس في المكتبة (ك ٣
وسنكسار الروم في ٤ من آب و ٢٢ من تشرين الاول أنه وجد في
توادوسيوس الشهداء السبعة الذين كان الوثنيون في أيام داكيوس قد سدوا ع
في مغارة، ووثقوا أبوابها واستمروا فيها راقدين نحواً من قرنين، وأنهم هبوا
رقادهم في أيام توادوسيوس، على أنّ بارونيوس إمام المؤرخين (في حواشيه
السنكسار الروماني في ٢٢ تموز) وغيره أنكروا صحة رقادهم وهبوبهم منه بعد
الزمان المستطيل، وأبدوا انكارهم بحجج قاطعة منها أنّ من كتبوا ترجمة هذا ا
لم يذكروا هذا الحدث العجيب، ولو كان صحيحاً لما غفلوا عنه. وكذلك لم
ذكره في المجمعين الافسسي والخلكيدوني. وقد تصدى السمعاني (في الم
الشرقية مجلد ١ صفحة ٣٣٥ إلى ٣٣٨) لردّ حجج بارونيوس في انكاره قيا
من الموت. والحق أقول إني لم أرَ ذاك الرد كافياً لتخطئة بارونيوس، فالاظهر
يقال إنّ رفاتهم وُجدت في أيام هذا الملك كما وُجدت رفات الاربعين شهيداً
تكن جثثهم بالية، فشاع على ألسنة الناس أنهم استمروا أحياء كأنهم راقدون ر
وكان توادوسيوس يغالي في احترام الدين والكهنة. فقد روى توادوريطوس (ك
من تاريخه فصل ٣٦) إنه أتاه راهب يسأله حاجة وألحّ في سؤاله مرات فلم
الملك إليه، فحرمه الراهب وقلق الملك ولم يشأ أن يذوق طعاماً قبل أن يـ
وأرسل إلى البطريرك يسأله أن يأمر الراهب بحلّه من وثاق الحرم، فأجابه أن
يطلق لكل اكليريكي أن يطعن بالحرم، وما عليه أن يعبأ بذلك، فلم ينفك
تشبّثه حتى عاد الراهب فحلّه، وكان سهل التصديق لما يُقال له. وروى المؤر
عنه أموراً من هذا القبيل تكاد لا تُصدق، وقد أضرّت سهولة تصديقه ببعض
الكنيسة. وكان زلزال في القسطنطينية في أيامه، فخرج يصحبه البطريرك والـ
والشعب يبتهل لله في خارج المدينة، ورفعت الملائكة طفلاً في الجو وسـ
يترنمون قائلين قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت. فأمر برو

البطريرك الشعب أن يترنم كذلك فزال الزلزال. وروى ذلك نيكوفورس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٤٦) وشدرانس في مختصر تاريخه.وقد أدركت الوفاة توادوسيوس في ٢٨ تموز سنة ٤٥٠م وملك مع أبيه اركاديوس سبع سنين وثلاثة أشهر، وبعد وفاة أبيه اثنتين وأربعين سنة وبعض أشهر.

عد ٦٠٥

بلوشاريا ومرقيان الملك

وخلفت توادوسيوس بلوشاريا اخته بعد وفاته، ومرّ أنه كان قد سماها ملكة منذ بواكير ملكه. وعند استوائها على منصّة الملك أمرت بمحاكمة كريساف الخصي وزير أخيها على جناياته، فحُكم عليه بالموت، ونفذ الحكم بابساله بردان الذي كان هذا الخصي قد قتل أباه. على أنّ هذه الملكة رأت أنه لا بدّ لتدبير الملك وكبح المعتدين عليه من رجل يقوم بمهامه ويرأس جيشه. وكانت قد نذرت أن تتبتّل لله وكان في الجيش قائد يسمى مقيان حائزاً على رتبة سناتور (أحد رجال الندوة) معروفاً بالفضل والتقى، فاختارته أن يكون قريناً لها على شريطة أن لا يمسها رعايةً لنذرها، وكان عمره وقتئذٍ ثماني وخمسين سنة، فاستدعته الملكة إليها وكاشفته بما فكرت وصرّحت له بشرطها أن يصون عذريتها فوعد بذلك وأقسم عليه. فدعت البطريرك ورجال الندوة ورؤساء بلاطها وأمراء الجيش وأخبرتهم بعزمها، فصوّبوا جميعاً رأيها. وكان مرقيان من تراسة مستمسكاً بالدين الكاثوليكي متقلباً في مناصب الجندية. ومما روي عنه أنه يوم عزم أن يدخل الجندية عثر في طريقه على جثة قتيل حملته الشفقة على أن يدفنها، فقبض رجال الشحنة عليه وأحضروه إلى المحكمة. ولما كانت قرينة وجدانه يدفن الجثة قوية حُكم عليه بالموت، ولكن قبل تنفيذ الحكم وُجد الجاني وأقرّ بجنايته، فخلى سبيله، وتراقى في مدارج الجندية بشجاعته وعفافه وتقواه حتى بلغه استيهاله رتبة رجال الندوة ومنصب قائد كبير في الجيش. وبعد أن رقي إلى أريكة الملك كان مثالاً للحكم والعدل والغيرة على الدين. وكانت وبلوشاريا على أتمّ الوفاق مع البابا لاون الكبير، فكانت بذلك مصلحة الكنيسة والملك معاً. وعُقد باتفاقهم المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م، ونُبذ فيه تعليم اوطيخا الذي زعم أنّ المسيح طبيعة واحدة كما سيجئ. وعاون مرقيان بلوشاريا

كثيراً على اتفاق الاساقفة في عقائد الايمان الكاثوليكي. ولقيت بلوشاريا ربها في شهر تموز سنة ٤٥٣م، ومضت تنال الثواب على ما صنعت في حياتها من المبرات. فإنها بنت كنائس شتى، وأقامت كثيراً من الاديار والمستشفيات والمآوي للفقراء والعجّز والشيوخ ومقابر للموتى منهم. وتكرّم الكنيسة ذكرها في ال ١٠ من ايلول.

أما مرقيان فاستمر يدبر الملك بعدها كما كان يدبره معها حتى يحسب عصره العصر الذهبي في المشرق. فقد أشبه قسطنطين بغيرته على الدين، ولكن لم يعبه شيء مما عاب قسطنطين. وحاكى توادوسيوس بحلمه وكرمه، وتنزّه عن نقائصه وثورات غضبه. وكان يكافئ أصدقاءه بالذهب الرنان ويجزي أعداءه بالصقيل البتار. وقد روّع اثيلا ملك الهونيين الغازي الساطي على مملكة المغرب فلم يجسر أن يناويه. وروى بعض المؤرخين أنه كان يعد حملة على جنساريك ملك البندالة الذي كان قد استحوذ على قرطاجنة وبعض أعمال افريقية وايطاليا، ولكن فاجأت المنية مرقيان في ٢٦ كانون الثاني ٤٥٧ وعمره ٦٥ سنة بعد أن ملك ست سنين وستة أشهر فأسف عليه القديس لاون الكبير الحبر الروماني صديقه، وأوجب أن يكرم تكريم قديس. وكنيسة الروم تعيّد لذكره ولذكر بلوشاريا في ١٧ شباط، وكنيستنا المارونية تعيّد لهما في ال ١٠ من ايلول.

عد ٦٠٦

الملك لاون الكبير وحفيده لاون الثاني

قد أجمع رؤساء الجيش والأمة بعد وفاة مرقيان على انتخاب لاون ملكاً. وكان لاون من تراسة وقد تراقى في مناصب الجندية إلى أن صار من القادة العظام. وكان من رؤساء الجيش وقتئذٍ رجل اسمه اسبار غططي أصلاً اريوسي مذهباً، لم يطمع حينئذٍ أن يرقى إلى منصّة الملك، وإن هائماً بها، بل عني بترقية لاون إليها على شريطة أن يسمى أحد أولاده الثلاثة قيصراً معه. وقد تسنّم لاون أريكة الملك في ٧ من شباط سنة ٤٥٧ ووضع اناطوليوس البطريرك القسطنطيني التاج على رأسه، فكان أول ملك كلله أسقف. وقد أجمع المؤرخون على أنه كان كاثوليكياً مخلصاً. وظنّ اسبار أنّ الملك سيكون طوع يديه فأخطأ ظنه، لأنه سأله يوماً انجاز وعده ومسك طرف برفيره قائلاً لا يليق بمن عليه هذا البرفير أن يخلف وعده، فأجابه

الملك ولا أن يجعل نفسه رقاً، ولا سيما في ما يؤول لمصلحة المملكة. ولم ينفك اسبار ملحّاً على الملك بانجاز وعده، ولم يكن للملك ابن وكان لعقيلته وارينا أخ اسمه باسيليك يطمع في الملك وهو غير أهل له، وكان للملك ابنة اسمها ارتيرنا زوّجها بزينون الايسوري، وكان بصره يطمع إلى الملك أيضاً، فكان مريدو الملك في دولة لاون ثلاثة ولكل منهم مريدون ومشايعون. وعمد كل منهم إلى الخيانة والغدر. وأعدّ الملك اسطولاً كبيراً ليحمل على جنساريك ملك البندالة الذي كان قد استحوذ على المغرب، وأزمع أن يلحق به المشرق، وأمّر على الاسطول باسيليك أخا الملكة، وأمره أن يضرب جنساريك في افريقية، فخشي اسبار وبنوه أن يعتز الملك بامتلاكه افريقيا فينفيهم من مملكته. وكانوا يتوددون إلى جنساريك لأنه كان اريوسياً مثلهم، فزينوا لباسيليك بأنهم يعاونونه على ارتقائه إلى منصّة الملك إذا لم تنجح حملته على افريقيا، فتقاعد عن اصلاء نار الحرب، وطلب جنساريك إليه أن يهادنه خمسة أيام ليقرر معه شرائط الصلح، فأجابه إلى سؤاله. وبث جنساريك بين اسطول لاون حراقات ألقت النار في سفنه، فأحرقت كثيراً منها وابادت كثيرين من شجعانها، وقفل باسيليك إلى القسطنطينية، وخشي سخط الملك فلجأ إلى كنيسة القديسة صوفيا، ولكن شفعت به أخته فرضي الملك عنه. وقد نصب الملك صهره زينون قائداً لجيش المشرق سنة ٤٦٩م وأرسله إلى تراسة لكبت بعض المعتدين، وحسده اسبار وهيّج الجنود عليه فتآمروا على قتله، ففرّ إلى سرديكا وهي صوفيا قصبة البلغار. ودرى الملك أنّ اسبار ينشيء هذه المكايد فأراد أن يسترضيه بإقامة أحد أبنائه قيصر، وآثر بطريسيوس أحدهم على أخويه، وعهد إليه بهذا المنصب وخطب له ابنته الثانية لاونية، فهاج أهل قسطنطينية، وصرّحت الملكة للملك باستيائها، وأهان الشعب بطريسوس، وأقبل البطريرك والكهنة والرهبان وجمّ غفير من الاهلين إلى القصر يصيحون إلى الملك أن ينصب قيصراً كاثوليكياً صحيح العقيدة لا اريوسياً كما كان ابن اسبار، وأن لا يعرّض الكاثوليكيين لسوء المعاملة والاضطهاد كما كان في أيام قسطنس ووالنس، فأبان الملك لهم أنّ بطريسيوس ارعوى عن ضلاله، وأنه سيبيّن للجمهور صحة عقيدته فاطمأنوا إلى كلامه. وكان اسبار وبنوه قد فرّوا إلى خلكيدونية عندما رأوا هذا الهياج، فمضى البطريرك يؤمنهم ليعودوا فأبوا إلّا أن يأتي الملك بنفسه فيرجعهم آمنين، فأتى وصحبوه إلى قصره وأكرم مثواهم. وظنّ الراحة استتبت لكن اسبار العاتي حسب عفو الملك عنه اهانة

حديثة له، فلم يبرح عاتياً فسئمت نفس الملك صلفه، فاستدعاه وبنيه إليه واغتاله وابنه اردابور أحد الخصيان، وطرح بطريسيوس مثخناً بجراحه، ثم لم يظهر إلّا في أيام الملك انسطاس. وفرّ هرمنار ابن اسبار الثالث إلى ايسوريا واستراح الملك من شرّ اسبار وبنيه سنة ٤٧١م.

ورُزق الملك لاون ابناً لكنه مات حدثاً، فهمّ أن يقيم زينون الايسوري صهره خلفاً له، فهاج شعب القسطنطينية لمقتهم كل ايسوري، وقتلوا كثيرين من الايسوريين. وكان زينون ذميم المنظر وخلقه متناهياً في شناعة الخلق، فأضرب الملك عن اقامة زينون وأقام سنة ٤٧٣م ابنه المسمى لاون حفيد الملك (ابن بنته) ولم يكن له من العمر إلّا أربع سنين. فرضي الشعب عن هذا الامير رعايةً لجده الملك لا لأبيه زينون. إلّا أنّ الملك لاون لم يعش بعد ذلك إلّا قليلاً لأنّ المنية أدركته في شهر كانون الثاني سنة ٤٧٤م، وكان هذا الملك ورعاً مدافعاً عن الايمان الكاثوليكي ورسوم المجمع الخلكيدوني ضد الاوطاخيين. وسنّ شرائع محكمة نافعة للدين والتقوى منها شريعته الآمرة بالامتناع عن الاعمال الخدمية أيام الآحاد والاعياد، وشريعته الناهية عن الارتقاء إلى المراتب البيعية بالرشوة والمال. وبعد دفنه أخذت لاون الصغير أمه وجدته إلى احدى ساحات المدينة وأجلستاه بحضرة الشعب على العرش، وتقدّم أبوه زينون إليه على سبيل التهنئة له، فوضع له التاج على رأسه وأعلن أنه شريكه في الملك كما لقنته جدته وأمه. إلّا أنّ لاون الصغير لم يعش بعد تمليكه إلّا نحو تسعة أشهر. وظنّ كثيرون أنّ أباه دسّ له سماً فقضي في شهر تشرين الثاني سنة ٤٧٤م (افاغريوس ك ٢ من تاريخه فصل ١٧ ونيكوفورس ك ١٥ فصل ٢٨).

عد ٦٠٧

الملوك زينون وباسيليك ولاوس

لم يرقَ زينون إلى منصّة الملك إلّا وقد تمرّغ بأوحال فحشائه وملاذه حتى كان يحسب عاراً عليه أن يستتر عنه اتيانه المعاصي ويستحل كل محرّم. وكان في عقيدته اوطاخياً ويؤيد أصحاب هذه البدعة. وكان جباناً وغداً جاهلاً يدبر كل شيء بحسب ميوله لا بالعدل والسداد. وقد أثقل مسوديه بالخراج والضرائب منها أنّ خراج مصر كان خمسين ليبرة من ذهب فجعله خمسمائة ليبرة. وكان يستشير

القديس دانيال العمودي لكنه يستشير السحرة أيضاً ويعمل بمشوراتهم الخبيثة. وكان له من امرأته الاولى ابن على شاكلته في فحشائه جزم أن يجعله خليفة له فعاجلته المنية. وكان له أخوان فاقه أحدهما في قسوته ورعونته وفاقه الآخر في تفاحشه، وكلاهما جعلا أعمال المملكة في أسوإ حال وصالا على المال والعرض والدم.

وكانت وارينا حماته التي أحلّته على منصّة الملك تظن أنها تنال كل ما تسأل، ولما سألته يوماً حاجةً ما أنكرها عليها، فكايدته وأنشأت محالفة خفية عليه وعزمت أن تثل عرشه، وتُجلس عليه أخاها باسيليك واثقة بأنه لا مناص من سقوطه إذا قاطعته. ولما تمّ عقد الائتمار على خلعه أرسلت تنبهه إليه فراعه الخبر وانهزم إلى خلكيدونية ثم إلى ايسورية. فاستراح الشعب من هذه الجائحة وحملوا على الاريوسيين الذين كانوا كثيرين في القسطنطينية، فقتلوا منهم جمّاً غفيراً ونودي في هذه المعمعة بباسيليك ملكاً. ووضعت وارينا أخته التاج على رأسه وسمي هو امرأته زينونيدة ملكة، وابنه مرقس قيصراً ثم امبراطوراً.

على أنّ باسيليك جعل الناس بسوء أعماله يأسفون على خلع زينون، فإنه كان أقبح منه سيرة وسريرة أثار عليه ببخله وطمعه أعوان القصر والجنود والشعب، فكان يحلل بالمال أفظع ما حرمته الشرائع، ويطلب من الاساقفة ما يبهظهم من مبالغ المال، ويثقل العملة الصعاليك بضرائب يعجزون عن ادائها. ودرى باسيليك أنّ أخته وارينا أرملة زينون متيّمة بحب شاب اسمه بطريسيوس من مقدمي قصرها، وخاف أن تتزوج به وتجلسه على التخت بدلاً منه فقتله. وآلت وارينا أن تثأر بدمه وتهلك أخاها وتعيد زينون إلى الملك، وكانت زينونيدة امرأة باسيليك اوطاخية وغير أمينة لله ولا لزوجها، فأشربته ضلال اوطيخا، فاستدعى تيموتاوس النمس الذي اختلس بطريركية اسكندرية من منفاه، فأتى القسطنطينية كظافر، واستقدم بطرس القصار الدخيل على بطريركية انطاكية من مخباه في دير منذ ثماني سنوات فأتى متشامخاً. وكلاهما بعثا الملك على ابراز منشور يأمر به الاساقفة والكهنة والرهبان أن يحرموا البابا لاون والمجمع الخلكيدوني، فأذعن بعض الاساقفة لأمره، على أنّ اكاشيوس القسطنطيني نبذه وجمع الكهنة والرهبان في كنيسة قسطنطينية، وغشى المذبح وعرشه الاسقفي بستائر الحداد، وأقاموا الحجّة على منشور الملك وكتبوا إلى الحبر الروماني القديس سمبليشيوس ينبئونه بما كان.

فكتب سنة ٤٧٦م أربع رسائل إلى الملك والبطريرك وكهنة القسطنطينية ورؤساء أديارها يذكر الملك بما كان عليه مرقيان ولاون سالفيه، ويشدد البطريرك والاكليريكيين في المناضلة عن الايمان القويم والمناصبة للنمس والقصار. واستمر الملك مصرّاً وخاف أن يدبر عليه زينون فيخلعه من الملك ويعود إليه. فأرسل ايلس أحد عماله إلى ايسوريا يقتل زينون. فكتبت وارينا وأخصّ رجال الندوة إليه أن لا يعمل بأمر الملك بل أن يعاون زينون، فآثر العمل بمرضاتهم على مرضاة الملك. وانضمّ بجنده إلى زينون ولحق بهم كثيرون من مريديه، فهبّ زينون إلى القسطنطينية بجيش كثيف. وعلم باسيليك بذلك فأتى إلى الكنيسة يعتذر عن أعماله جهاراً، وينقض أمره السالف ويحرم نسطور واوطيخا وكل المبتدعين، ويأمر برعاية الايمان الكاثوليكي واستمراره دون تغيّر على ما كان عليه من أيام الرسل، وألّب من بقي من الجنود في القسطنطينية وتراسة وما جاورهما، وأمّر على الجيش ارماتيوس خليل امرأته بعد أن أقسم ايماناً معظماً أنه يرعى الامانة. فالتقى الجيشان حذاء نيقية، وكادت الدوائر تدور على زينون، وأوشك أن ينهزم لو لم يمكنه ايلس مبيّتاً له أنه يتيسر له كسب ارماتيوس. ومضى ايلس إلى معسكر ارماتيوس متنكراً، ووعده بأن يجعله رئيس الحرس الملكي ما دام حياً، وبأن يسمي ابنه قيصراً له حق الخلافة بعد وفاة الملك. فأنست هذه الوعود ارماتيوس ايمانه وحبه لزينونيدة امرأة باسيليك، ولكي يستر خيانته مضى في غير الطريق التي سار بها زينون إلى القسطنطينية، فوصل زينون إليها وأبوابها مشرّعة فدخلها آمناً فالتقاه رجال الندوة والشعب ولا سيما وارينا الملكة، فنسارع باسيليك ولجأ إلى كنيسة القديسة ايرينا مع حرمه وأولاده، ونزع التاج عن رأسه ووضعه على المذبح، فلم يجسر زينون أن ينتهك حرمة هذا الملجأ بل أرسل إليه ارماتيوس يؤكد له أنه لا يقطع رأسه ولا يريق دم امرأته ولا أولاده إذا خرج من الكنيسة. وجمع زينون رجال الندوة ومن وجد من الاساقفة في القسطنطينية يستشيرهم في ما يفعل، وحكم على باسيليك بالنفي مع امرأته وأولاده إلى الكبادوك، على أنّ زينون أمر أن يلقوه مع عائلته في جبّ لا ماء فيه، ووثق بابه وأقام عليه الجنود كيلا يأتيهم أحد بقوت. وبعد أيام وُجدوا موتى لشدّة الجوع وقرص البرد معانقاً أحدهم الآخر. وحسب زينون أنه برّ بيمينه بأنه لم يقطع رأسه ولم يرق دم ذويه. وعن بعضهم أنّ زينون نفاه إلى الكبادوك بحسب الحكم عليه وأماته هناك جوعاً، وكان ذلك سنة ٤٧٧م (افاغريوس ك ٣ فصل ٧).

ولم يخلف زينون وعده لارماتيوس بل سماه رئيس الحرس الملكي، وسمي ابنه قيصراً. على أنه بعد مدة قتل ارماتيوس وهمّ أن يلحق به ابنه، ولكن شفعت به الملكة فاكتفى بأن يجرّده من منصبه، ويكرهه على أن يصير اكليريكياً، وصار بعد ذلك أسقفاً على مدينة شيزيك (بآسيا الصغرى) وقام بأعباء مقامه كأنّ الله دعاه إلى ذلك. وانكفّ زينون عن معاصيه مدةً، وكافأ رجال الندوة وشعب القسطنطينية على ما صنعوه إليه، فغالوا في مدحه وأقاموا له التماثيل، ومضى يزور مع الملكة القديس دنيال العمودي ويعزو عوده إلى صلواته.وكتب إلى البابا شمبليشيوس يشكر له ارتياحه إلى عوده إلى الملك، ويعد بأن يستأصل ضلال اوطخيا ويناصب تابعيه، ويعني بأن يرعى الجميع رسوم المجمع الخلكيدوني، وأن يرد على الاسكندريين أسقفهم الشرعي. فأجابه البابا في ٨ تشرين الاول سنة ٤٧٧م مبدياً سروره بعوده إلى منصّة الملك، ومؤكداً له أنّ أعداء ملكه هم أعداء الله، وأنّ عليه أن يقابل احسان الله إليه بمدافعته عن كنيسته، وعن رسوم المجمع الخلكيدوني، وبابعاد تيموتاوس النمس عن كنيسة الاسكندرية. وقد نقض زينون كل ما أمر به باسيليك مما يعود على الايمان والكنيسة بالضرر، وعمل برغائب البابا بأن عُني في عقد مجمع في الشرق حط فيه بطرس القصار يوحنا أسقف اباميا وبولس أسقف أفسس عن أسقفيتهما. وكان الملك يريد أن يطرد النمس من الاسكندرية، وقيل له أنه هرم وأنه سيموت عما قليل. وقد مات بعيد ذلك ويقال أنه تناول سماً كيلا يطرد من كرسيه، وانتخب مشايعوه بطرس الالثغ وكان رئيس الشمامسة في كنيسته، ورقاه إلى الاسقفية أسقف واحد ليلاً، فطرده الملك وردّ على الاسكندرية أسقفها الشرعي المسمى تيموتاوس سولوفاسيال، وأمر الاساقفة بطاعته (افاغريوس ك ٣ فصل ٨ وما يليه).

وكان للغطط ملكان اسم أحدهما تيودوريك امال، واسم الآخر تيودوريك لوش. ولدى تنازع باسيليك وزينون الملك كان امال من جهة محازبي زينون ولوش من محازبي باسيليك، فكافأ زينون امال بأن سماه بطريقاً وقائداً لحرس القصر، وأرسله يخضع لوش إلى سلطانه. ونوى أن يهلكه فاستلمح امال نيّة الملك وواثق لوش وحملا معاً على زينون في القسطنطينية، وأعلن زينون الحرب عليهما فأغناه هذا الاعلان عن جيش جرار، لكنه انغمس بترفه وملاذه وأهمل جنوده فحنقوا عليه وهمّوا بأن يقيموا ملكاً عليهم، ففرّق شملهم وعقد صلحاً مع الغطط، فكانت وغادته داعياً للثورة عليه.

وفي سنة ٤٨٤م عملت وارينا أرملة الملك لاون على اهلاك ايلس المذكور آنفاً، فنجاه زينون من مكيدتها، وحجر عليها في قصر يسمى بابيريوس في ايسوريا. ثم كادت له اريدنا ارملة زينون، فجمع ايلس جيش المشرق ونادى بلاونس ملكاً وكان لاونس سورياً وُلد في قنسرين وضليعاً في العلوم وصناعة الحرب، وقائداً في جيش تراسة. ومضى ايلس ولاونس يزوران وارينا في محبسها فأقنعاها بالوعود وأخذاها إلى ترسيس، وجعلاها تضع التاج على رأس لاونس بحضرة الجيش، وتكتب رسالة عامة إلى جميع حكام المشرق ومصر وليبيا تقول فيها تعلمون أنّ الملك لنا، وإننا بعد وفاة قريننا رفعنا إلى منصته زينون وكنا نؤمل أن يسعد شعبنا ويرقيه في مدارج التقدّم، فأحطّه وأثقله بطمعه وبخله، ولذلك رأينا لازماً أن نولي عليكم ملكاً ميسحياً حقاً يدبر الملك بحسب قواعد الدين والعدل ويصلح شؤون المملكة المتداعية للخراب ويكبح أعداءها، فتوّجنا لاونس المعروف بالفضل والتقى، فأقرّوا له بالملك واخلصوا في الطاعة له، ومن خالفه عُدّ عاصياً. فتقبّل الاكثرون هذه الرسالة بالمسرّة والاذعان ودان أكثر مدن سورية للاونس. ولما رأى ايلس أنه لم تعد حاجة في وارينا ردها إلى محبسها في ايسوريا حيث أدركتها المنية بعيد ذلك. وأما لاونس فأرسل إليه زينون تيودريك (لعله أحد ملكي الغطط المشار إليهما آنفاً) فقتله بعد أن ملك ثلاث سنين وأتبع به ايلس. وبعد أن تشاغل زينون بشؤون الكنيسة على غير هدى كما سيجيئ في القسم الديني، أدركته المنية في شهر نيسان سنة ٤٩١م. وقال بعض المؤرخين اليونان الحدثاء أنه دُفن حياً. وقال قدماؤهم أنه أصابه فالج قضى به. وكان يريد أن يترك الملك لأخيه لنجين وهو غير أهل له فسعت امرأته اريدنا مع رجال الندوة فملّكوا انسطاس.

عد ٦٠٨
انسطاس الملك

إنّ انسطاس وُلد في درانش دورازو (مدينة على شاطئ الادرياتيك شرقاً) سنة ٤٣١م، وتقلّب في المناصب إلى أن صير رئيس الحرس المكلّف بملازمة الصمت في القصر. وكان متقلباً في آرائه ما زانته فضيلة إلّا عابته رذيلة. وبعد وفاة زينون حاول أخوه لنجين أن يأخذ الملك فقاومه رجال الندوة، واريدنا ارملة زينون

والشعب، وآثروا عليه انسطاس سنة ٤٩١م. وتزوجت اريدنا به بعد وفاة زوجها بأربعين يوماً، وكان جانحاً إلى ضلال اوطيخا فلم يشأ اوفيميوس بطريرك قسطنطينية أن يتوجه إلى أن جحد ضلاله، وأعلن أنه مذعن لرسوم المجمع الخلكيدوني، ودوّن اقراره بصك امضاه بيده، ووقّع عليه وحفظ في خزانة كنيسة قسطنطينية. وكان انسطاس ورعاً يبكر إلى الكنيسة فلا يخرج منها إلّا بعد انصراف الشعب، ويكثر من الاصوام والصدقات، ولذلك أكثر الشعب من الاحتفاء بتمليكه والهتاف عند ظهوره لأول مرة بالمطارف الملكية املك كما عشت. على أنّ أمه كانت تدافع عن المانويين وخاله كلارك يؤيد جانب الاريوسيين فآثر ذلك بآدابه. ولما علم البابا فلكس بارتقائه إلى منصة الملك كتب إليه مهنئاً حاثاً له على الذب عن المذهب الكاثوليكي. ولم يصرّح له بقبوله في شركة الكنيسة قبل أن يرى ما يكون من أعماله. ثم أدركت الوفاة هذا الحبر في ٨ شباط ٤٩٢ وخلفه البابا جلاسيوس، فكتب إلى انسطاس الملك يبشره بارتقائه إلى السدّة الرسولية. على أنّ هذا الملك لم يرعَ تعهده بالمحافظة على الايمان الكاثوليكي وأخلف وعده الذي دوّنه لأنه عزل ونفى البطريرك اوفيميوس الذي توّجه، وأمل أن يكون مكدونيوس البطريرك الجديد أكثر ممالأة له. وقد مالأه البطريرك اولاً على توقيعه المنشور المعروف بالهانوتيكن (أي منشور الاتحاد الذي كان زينون قد أصدره) إلّا أنه أنكر عليه أن يردّ له الصكّ الذي تعهّد به بالمحافظة على رسوم المجمع الخلكيدوني، بل عقد البطريرك مجمعاً فأيّد ما أمر به هذا المجمع خطأً، فأظهر الملك رضاه عن ذلك لانشغاله بما هو أهم منه وهو خروج قباد ملك الفرس على ارمينيا وما بين النهرين واستحواذه على مدينة امد. وبعد نهاية هذه الحرب التي دامت ثلاث سنين إلى سنة ٥٠٥م عاد انسطاس إلى محاربة الكنيسة، فقد صوّر في معبد قصره صوراً قبيحة تشير إلى خزعبلات اخترعها المانويون، فقلق الشعب لاعتياده أن لا يرى في المعابد إلّا الصوَر الباعثة على التقوى، وهاجوا على الملك وانتهز الهراطقة هذه الفرصة ليسطوا على الكاثوليكيين، فدفعهم هؤلاء بحدّة وعظم الخطب، وكان من عادة الملوك أن يحضروا في الكنائس كعامة الشعب، وخشي انسطاس الغدر به فلم يحضر إلى الكنيسة إلّا مخفوراً برئيس حرسه وكتيبة من جنده، فاستطرقت هذه العادة، وزاد القلق باستدعائه اخسينا المانوي الذي كان بطرس القصار قد رقاه إلى أسقفية ايرابوليس (وهي منبج في شمالي سورية)، وأثار أهل سورية على افلابيانس

بطريرك انطاكية فأسخط قدومه الاكليرس والشعب في القسطنطينية، حتى اضطر الملك أن يبعده سراً عن المدينة. وكان مكدونيوس بطريركها يناصب الملك في هذه الشؤون، فرشا رجلاً أثيماً ليغتاله فأخطأت رميته البطريرك، وعرف البطريرك الغادر فلم يطلب جزاءه بجنايته بل احتضنه بحمايته، وأوصل الرزق إليه وإلى عياله، فلم تثنِ هذه الشفقة الملك عن عزمه على اهلاك البطريرك وابطال المجمع الخلكيدوني، وأثار عليه جحفلاً من الهراطقة فحاولوا الوثوب على داره، فتألّب حشد كبير من الكاثوليكيين وأخذوا يطوفون أزقة المدينة هاتفين ها هوذا زمان الاستشهاد أيها المسيحيون فلا تتركنّ أبانا، ويقذفون الشتائم للملك ويسمونه مانوياً غير أهل للملك، حتى ارتاع ووثق أبواب قصره وأعدّ سفناً ليهرب. وبعد أن كان في الامس آلى أن لا يرى البطريرك أرسل يرجو منه أن يأتي إليه، فأتى متبسلاً مؤنباً الملك على أنه عدو لكنيسة الله، فراوغه الملك واعداً بأنه سيعضد الكنيسة. وبعد مدة أرسل إليه خطاً يصرّح به أنه مذعن لما رسم في المجمعين النيقوي والقسطنطيني، وصمت عن ذكر المجمعين الافسسي والخلكيدوني، ففرط من البطريرك أن يثبت خطه، لكنه انتبه للحال إلى غلطه ومضى إلى دير، فكتب رسالة عامة صرّح فيها باعتقاده كل ما رُسم في المجمع الخلكيدوني، وبتنزيله منزلة الهراطقة كل من لم يعتقد كذلك.

وكان انسطانس هائماً في أن يسترد خطه الذي أبان فيه اعتقاده بالايمان الكاثوليكي، فأرسل شلر مدير بلاطه يطلبه فتمنّع البطريرك من تسليمه، وأخذ الصكّ وضمّه في صوان، وختمه ووضعه تحت المذبح. فلم يجسر شلر أن يختطفه من هناك، لكن ابتزه أحد خدمة الكنيسة ليلاً ودفعه إلى الملك، فشقّه شققاً وطرحه في النار، وطفق يكيد للبطريرك. فرشا ماكرين وثلبا البطريرك بأنه ارتكب الفحشاء أمامهما، فدفع تهمتهما بأنه خصي، فشفع الشعب ورجال الندوة والملكة في البطريرك، فأعارهم أذناً صماء ونفى البطريرك مكدونيوس، وأقام في اليوم التالي تيموتاوس خازن الكنيسة في كرسي قسطنطينية على ما كان عليه من التهتك وقلّة المبالاة بالدين أو بالشرف. وكان تارةً يقرّ بما رسمه المجمع الخلكيدوني، وطوراً ينكره. وطرح كثيرين من الاكليريكيين في السجون، وفرّ من جوره كثيرون بعضهم إلى فينيقية وبعضهم إلى روما. وحمل بعض الاساقفة المتملقين له على أن يحكموا على مكدونيوس البطريرك دون أن يسمعوا له أو يروه. فعظم الشغب في الكنيسة والمملكة وزاده انسطانس بأنه كتب كتاباً أكثر فيه من الطعن في القديس سيماخس

البابا. فأجابه البابا بكتاب مسهب زيف فيه تهماته وكشف عن غواياته وأنّبه على عداوته لله وكنيسته. وكان افلابيوس بطريرك انطاكية وايليا بطريرك أورشليم يناصبان الملك في عزل مكدونيوس بطريرك قسطنطينية. فسخط الملك عليهما وأمر بعقد مجمع في صيدا سنة ٥١١م طامعاً أن يجبرهما على مخالفة المجمع الخليكدوني فلم ينولاه مأربه. واشتدّ سخطه عليهما وعزم أن يعزلهما فأرسل إلى انطاكية اخسنيا المانوي أسقف ايربوليس، فجمع رهبان سورية الاولى (في شمالي سورية) وأتى بهم إلى انطاكية متملقين متقحين عازمين أن يكرهوا افلابيوس على أن يحرم المجمع الخلكيدوني. فشقّ على البطريرك صنيعهم وثار الشعب على أولئك الرهبان فقتلوا بعضهم وألقوا جثثهم في العاصي. وسمع رهبان سورية الثانية (في وسط سورية) فأتوا للمدافعة عن البطريرك فتذرّع الملك بذلك ونفى افلابيانس إلى العربية وأقام مكانه ساويروس. وأرسل بعض عماله إلى انطاكية ليمكنوه في كرسيه ويخمدوا جذوة غضب الشعب، فنفوا كثيرين عن عليّة الاكليروس وأجلسوا ساويروس على كرسي انطاكية سنة ٥١٢م، وأصدر منشوراً حرم به المجمع الخلكيدوني فلم يقبله أهل فلسطين بل طردوا مذيعيه. وأما الاساقفة فانخدع بعضهم وأذعن بعضهم مكرهين، ومزّق بعضهم المنشور ولم يقبلوه. ومن هؤلاء يوليان أسقف بصرى، وابيفان أسقف صور. وبعضهم تركوا كنائسهم واعتزلوا في أديار فلسطين. ومن هؤلاء بطرس أسقف دمشق. وبعضهم حكموا على ساويروس بأنه منحط عن مقامه وأرسلوا إليه حكمهم. ومن هؤلاء قزما أسقف حماه وسوريان أسقف ارتوسيا (كان موقعها عند مصبّ نهر البارد. رنان في بعثة فينيقية) فأمر الملك والي فينيقية أن يطردهما من كراسيهما، فأجابه أنه لا يمكن طردهما دون اراقة دم كثير لتشيّع شعبهما لهما فرغب عن ذلك.

وعلم ساويروس أنّ ايليا بطريرك أورشليم لم يقبل منشوره فأرسله إليه سنة ٥١٣م مع بعض الاكليروس وعمال الملك ليكرهوه على قبوله، فأتى القديس سابا من البرية مصحوباً برؤساء الاديار واجتمع حشد من الرهبان والعامة، فطردوا من المدينة حاملي المنشور واجتمعوا حول الجلجلة يصيحون فليكن محروماً ساويروس ومن اشترك معه. وأراد ساويروس أن يستميل إليه المنذر أحد ملوك الحيرة من بني غسان، وكان قد سطا على ملك الرومانيين في العربية وفلسطين، ولما رأى معجزات القديس سابا تنصّر واعتمد فأرسل إليه ساويروس أسقفين من أشياعه ليستغويه

بضلاله، فقال المنذر لهما أتتني رسائل تنبئ بأنّ ميخائيل زعيم الملائكة قد مات. فقال الاسقفان هذا محال مضحك فالملاك لا يموت. فقال المنذر إن صحّ قولكما فكيف مات المسيح وهو إله إذا لم تكن له طبيعة بشرية. فخجلا وانصرفا من عنده كئيبين. رواه توادورس القارئ (ك ٢ من تاريخه).

ولما علم انسطاس الملك أنّ ايليا بطريرك أورشليم لم يذعن لساويروس بطريرك انطاكية أرسل اوليمبيوس والي فلسطين إلى أورشليم، فاحتال في طرد ايليا من كرسيه وابعاده منفياً إلى ايلة على البحر الاحمر. وأقام مكانه يوحنا بن مرشيان في ٣ ايلول سنة ٥١٧م لأنه وعد بأن يوافق ساويروس. ولما علم القديس سابا وسائر رؤساء أديار فلسطين بعثوا يوحنا على اخلاف وعده الاثمي. ودرى الملك بذلك فاستشاط غيظاً وأرسل إلى أورشليم انسطاس بن بمفيل بدلاً من اوليمبيوس الوالي. فقبض على يوحنا البطريك وألقاه في السجن. فقال له يوحنا أخرجني من هنا لئلا يقال إني عملت بمرضاة الملك مكرهاً ونهار الاحد أصنع ما تأمر. فرضي الوالي عنه وأخرجه من السجن. فاستدعى البطريرك رهبان فلسطين إلى أورشليم فحضروا إليها وربا عددهم على عشرة آلاف على ما يقال، واجتمعوا نهار الاحد في كنيسة القديس اسطفانس فأخذ الشعب يصيح احرموا الهراطقة، أيّدوا المجمع الخلكيدوني. فهتف الآباء المجتمعون ورؤساء الاديار فليكن محروماً نسطور واوطاخي وساويروس الانطاكي وكل من لا يذعن للمجمع الخلكيدوني ومن لا يقبل المجامع الاربعة كالاناجيل الاربعة فليكن محروماً. فذُهش الوالي وارتاع من حشد الرهبان ففرّ إلى قيصرية، واتصل الخبر بانسطانس فتمزق غيظاً وعزم أن ينفي البطريرك يوحنا ورفع إليه القديس سابا ورؤساء أديار فلسطين عريضة يؤنبونه بها على اقلاق الكنائس، ولا سيما كنيسة أورشليم، ويسألونه أن ينكف عن هذا التعرّض لمسائل الدين. وكان حينئذٍ ويتاليان أحد قادة الجيش ورئيس عصابة الكاثوليكيين يثير الحرب عليه لاضطهاده الكاثوليكيين فرغب الملك عن نفي البطريرك يوحنا الاورشليمي.

أما ويتاليان المذكور فكان من أحفاد اسبار وزير الملك لاون الكبير وقائداً في جيش الملك، فأقامته عصابة من الكاثوليكيين من بلاد التتر وتراسة وغيرها رئيساً لها. فحمل سنة ٥١٥م على انسطاس بجيش جرار وخيّم حول العاصمة، فارتاع انسطاس وطلب عقد الصلح، فطلب ويتاليان من جملة شروطه أن يرد مكدونيوس بطريرك قسطنطينية إلى كرسيه، وافلابيانس بطريرك انطاكية إليها، وأن يعقد مجمعاً

يرأسه الحبر الروماني لمنع الاضطهاد عن الكاثوليكيين، فرضي الملك هذه الشروط ووقّع عليها وأقسم على اتمامها. وكتب إلى البابا هرمزدا يسأله عقد هذا المجمع وأن يحضره بنفسه في أول تموز سنة ٥١٥م، فأجابه البابا مبدياً سروره، وأرسل إليه وفداً من الاساقفة أصحبهم بارشاد مهم يمكن الاطلاع عليه برمته في تاريخ روهربخر (ك ٤٣). على أنّ انسطاس لم يكن غرضه إلّا المخادعة والتسويف، فأرجع الوفد إلى البابا متذرعاً بحججٍ واهية يعتذر بها عن عقد المجمع حينئذٍ. وفي سنة ٥١٧م أرسل البابا إلى القسطنطينية وفداً آخر، على أنّ انسطاس جامل الوفد الاول وأكرم مثواه خوفاً من ويتاليان. وأما الوفد الثاني فحاول أن يرشيه بالمال ليمالئه على رغائبه، ولما لم ينل منهم مأرباً أصرفهم مهانين، وأنزلهم في سفينة مخفورين، وحظّر عليهم أن يحلّوا في مدينة في طريقهم. واجتمع بعض الاساقفة في هرقلية فخادعهم الملك ولم يدعهم يبتون شيئاً، وفي أثر ذلك كتب رؤساء أديار سورية الثانية رسالتهم الشهيرة إلى البابا هرمزدا التي سنأتي على ذكرها برمتها في الكلام على رهبان القديس مارون.

وفي سنة ٥١٧م أخرب الغطط مكدونية واتصلوا إلى تساليا والايير وأخذوا كثيرين من الاسرى، ولم يتمكن انسطاس من افتدائهم. وفي سنة ٥١٨م حمل ويتاليان ثانيةً على الغطط، وحصلت زلازل شديدة في تراسة أخربت كثيراً من المدن. وفي ليلة الاول من شهر تموز حصلت رعود وبروق حول قصر انسطاس فارتاع وأخذ يفرّ من غرفة إلى أخرى، ثم وُجد ميتاً في مخدع صغير، ويُظن أنه أُصيب بصاعقة وكان عمره ٨٨ سنة، ودام على منصّة الملك ٢٧ سنة (ملخص عن تاريخ روهربخر ك ٤٣ وعن افاغريوس وتوافان وشدرانس في مختصر تاريخه وبارونيوس وغيرهم). اسأل القرّاء معذرة لشرودي عن كتب التاريخ الدنيوي إلى الكلام في التاريخ الديني، فانسطاس وزينون آثرا العناية بأمور الدين وتدبير الكنيسة كما يحبان على العناية بشؤون المملكة وكبت أعدائها، فلم يكن لانسطاس ما يذكر في جانب مصلحة المملكة إلّا ردّ عماله في فلسطين وسورية العرب عن سطوهم على هذه البلاد، واسترجاع قادة جيشه بعض مدن ما بين النهرين وارمينية من يد الفرس. وقد صالحهم صلحاً مذلاً له بل شراه بثمن فاحش. وفي الجملة قد عمل على قهقرة المملكة واقلاق شعبها والقاء عصا الشقاق بينهم فأضرّ بها وبالكنيسة وبنفسه.

الفصل الثاني

بعض الاحداث في سورية في هذا القرن

عد ٦٠٩

الحرب التي كانت بين الاسود أحد ملوك الحيرة وبني غسان ملوك الشام

قلّ ما عثرنا في ما لدينا من الكتب على أخبار أحداث دنيوية مهمة في سورية في هذا القرن. فقد أغفلت المسائل الدينية ولاتها وشعبها الاهتمام بغيرها. وقلّ من كان فيها من المشاهير العلماء غير الدينيين. وأهمّ ما ذكره المؤرخون العرب من الحروب في سورية في هذا القرن إنما هو الحرب التي كانت بين الاسود بن المنذر ابن النعمان من الملوك اللخميين في الحيرة بقرب الكوفة، وبين الامراء آل غسان ولاة الشام. وقد روى أخبار هذه الحرب كثيرون من المؤرخين العرب ومنهم أبو الفدا في الكتاب الاول من تاريخه(في كلامه على الملوك اللخميين في الحيرة)، فقال إنّ الاسود انتصر على غسان عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم وأراد أن يعفو عنهم. وكان له ابن عم يقال له ابو أُذينة قد قتل آل غسان له أخاً في بعض الوقائع، فقال أبو أذينة في ذلك قصيدته المشهورة يغري الاسود بقتلهم فمنها:

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا　　ولا يسوّغه المقدار ما وهبا
وأحزم الناس من أنّ فرصة عرضت　　لم يجعلِ السببَ الموصولَ منقضبا
وانصف الناس في كل المواطن مَن　　سقى المعادين بالكاس الذي شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم　　بحد سيفٍ به من قبلهم ضُربا
والعفو إلّا عن الاعفاء مكرمة　　من قال غير الذي قد قلته كذبا

قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد ... رأيت رأيا يجر الويل والحربا
لا تقطعنّ ذنب الافعى وترسلها ... إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً ... واوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
إن تعف عنهم يقول الناس كلهم ... لم يعفُ حلماً ولكن عفوه رهبا
همُ اهلّة غسان ومجدهم ... عالٍ فإن جادلوا ملكاً فلا عجبا
وعرضوا بفداء واصفين لنا ... خيلاً وإبلاً تروق العجم والعربا
ايحلبون دماً منا ونحلبهم ... رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا
علامَ تقبل منهم فديةً وهمُ ... لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

قال أبو الفدا قد نقلت ذلك من مجموع بخط القاضي شمس الدين بن خاكان ورأيت في تاريخ ابن الاثير خلاف ذلك إنّ الاسود قتله غسان وانتصرت عليه غسان. ثم قال ابن الاثير وقيل غير ذلك، انتهى كلام ابي الفداء. ومما قاله المؤرخون العرب أيضاً أنّ النعمان بن امرئ القيس الثاني من هؤلاء اللخميين الذي ملك في هذا القرن، غزا الشام مراراً كثيرة، وأكثر المصائب في أهلها، وسبى وغنم كثيراً من الاموال وهو الذي نهض بثأر رجل من بني غسان يقال له الضيزن. وأخذ ديته مئة ألف دينار ممن كان في زمانه من ملوك الروم. وهذا الملك هو الذي بنى الخورنق والسدير القصرين الشهيرين في الحيرة. ويروى أنه كان يقول:

وإذا سكرت فإنني ... ربُّ الخورنقِ والسدير
وإذا صحوت فإنني ... ربّ الشويهة والبعير

وإنه اعتزل الملك وتزهّد فملك مكانه المنذر ابنه، ثم خلف المنذر ابنه الاسود الذي قدمنا ذكر حربه مع آل غسان لأهميته. ويقال إنّ الاسود ملك سنة ٤٧٣م ولم يكن القطع بصحة تاريخ السنين في ملك هؤلاء الملوك.

عد ٦١٠

غزوة ماوية لفينيقية وفلسطين وحرب ابنها المنذر مع آل غسان

ماوية هي المعروفة في كتب المؤرخين العرب بماء السماء لحسنها، وهي على قولهم بنت عوف بن جشم من ملوك الحيرة. وقد ذكر سوزومانس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٨) هذه الغزوة فقال ما ملخّصه مات في تلك الاثناء (أي في أيام والنس الذي ملك من سنة ٣٦٤م إلى سنة ٣٧٩) ملك السراكسة (يريد بهم العرب وهنا ملوك الحيرة) فانحلّت مواثيق المعاهدة بينه وبين الرومانيين، وكانت امرأته ماوية تدبر الملك فحملت على مدن فينيقية وفلسطين، وضربت فيها ونكّلت بأهلها واتصلت إلى تخوم مصر. وكانت هذه الحرب شديدة هائلة وإن مع امرأة، حتى استدعى قائد جيش فينيقية رئيس الرجالة والفرسان المقيمين في المشرق لنجدته، فسخر منه الرئيس وحظّر عليه أن يدخل في المحاربة معها، ولما تلظّت نار الوغى بين الجيشين اضطرّ الرئيس أن يدخل المعمعة مع ماوية التي كانت تقود جنودها، وأُرغم على الفرار وتولاه الخجل من قائد الجيش الذي كان سخر منه. أما القائد فلما رأى الرئيس محفوفاً بالخطر، قضى أنّ من الحق أن يبقى خارجاً عن ساحة القتال كما أمره الرئيس، فأسرع لنجدته ولقى العدا فصدّهم عن لحاقه، وبسط سجافاً يصون الرئيس من ايصال نبال الاعداء إليه. ويذكر هذا كثيرون من سكان تلك الانحاء، ويترنم العرب بأغاني موذنة به. ولما طالت مدة الحرب وأعضلت الرومانيين أرسلوا وفداً إلى ماوية يلتمسون هدنة فأنكرتها عليهم، إلّا أن يعنوا باقامة ناسك في البرية القريبة منهم أسقفاً على أمّتها، وكان ذاك الناسك اسمه موسى، وقد نما عرف فضله وتضوّعت تلك الاقطار بذكر الآيات التي كان الله يصنعها على يده. فأخبر رؤساء الجيش الملك بذلك وحملوا موسى إلى لوشيوس بطريرك الاسكندرية وكان اريوسياً، ولما مثل موسى أمامه وأمام اعوانه والشعب المتسارع إلى هناك قال للأسقف لست أهلاً للارتقاء إلى مقام الاسقفية، وإذا أراد الله ذلك وأنا غير أهل له فبالله خالق السماء والأرض لا أطيقنَ أن تضع عليّ يدين ملطختين بالقتل ودم القديسين، فقال له الاسقف ليس من العدل أن تثلبني ايماني قبل علمك به، وإن كنت قد سمعت من بعض عذالي فاسمع الآن مني وكن قاضياً عدلاً في ما قيل لك، فأجابه موسى أنّ ايمانك بيّن لي، ولي عليه بيّنات

دامغة في الاساقفة والكهنة والشمامسة الذين حكمت عليهم في النفي أو الشغل في حفر المعادن، وأقسم أنه لا يقبل الكهنوت إذا كان لا بدّ للوشيوس من أن يضع عليه يده. ولما سمع ذلك رؤساء الجيش الروماني أخذوه إلى بعض الاساقفة المنفيين فرقّوه درجة الاسقفية ومضى إلى الحيرة يدبر شعبها وأمراءها المتنصرين.

وكان لماوية ابن يسمى المنذر ملك بعدها وكانت بينه وبين الحارث أحد ملوك غسان ولاة الشام حروب، واحداها من أيام العرب المشهورة يقال لها يوم عين أباغ. قال أبو الفدا في ذلك (ك ١ صفحة ٨٤) كان هذا اليوم بين غسان ولخم، وكان قائد غسان الحارث الذي طلب ادراع امرئ القيس من السموأل، وقيل غيره وكان قائد لخم المنذر بن ماء السما بغير خلاف، وقتل المنذر في هذا اليوم وانهزمت لخم، وتبعتهم غسان إلى الحيرة، وأكثروا فيهم القتل. وعين اباغ بموضع يقال له ذات الخبار. انتهى قول أبو الفدا. وإن صحّ قوله أنه كان قائد لخم المنذر بن ماء السما بلا خلاف، فتكون هذه الحرب في أوائل القرن الخامس لأنّ أمه ماء السما كانت في أواخر القرن الرابع كما روينا عن سوزومانوس. وأما الحارث قائد بني غسان فإن صحّ قوله هنا فيه كان الحارث بن الايهم أخا النعمان، لكنه قال في ذكره ملوك غسان أن جبلة بن النعمان هو الذي قاتل المنذر بن ماء السما. وأما وصفه الحارث بالذي طلب ادراع امرئ القيس فيشير به إلى قصة السموأل الذي يُضرب فيه المثل في الوفاء والأمانة، وذلك أنّ امرأ القيس بن حجر ملك كندة لما قتل بنو أسد أباه استنجد ببكر وتغلّب من قبائل العرب فأنجدوه. وهربت بنو أسد منهم، ثم تخاذلوا عنه وتطلبه المنذر بن ماء السما المذكور، فتفرقت جموع امرئ القيس وخاف هو أيضاً من المنذر، وصار يدخل على قبائل العرب حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه، وأقام امرؤ القيس عنده أياماً وأشير عليه أن يقصد قيصر ملك الروم (يظن سنداً إلى ما مرّ أنّ قيصر هذا هو توادوسيوس الثاني أو اركاديوس أبوه) وأودع أدراعه عند السموأل وكانت مئة درع، ومات امرؤ القيس لدن عوده من عند قيصر، فسار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل وطالبه بأدرع امرئ القيس فتمنع من تسليمها إليه. وكان الحارث قد أسر ابن السموأل فقال له الحارث إما أن تسلم إليّ الأدرع وإما قتلت ابنك. فأبى أن يسلمها وقتل ابنه قدامه. فقال السموأل في ذلك أبياتاً منها:

وفيت بأذرع الكندي إني إذا ما ذم أقوامٌ وفيت
وأوصى عادياً يوماً بأن لا تهدّم يا سموأل ما بنيت

وقد لهج الشعراء بوفاء السموأل. وذكر الأعشى هذه الحادثة فقال:

كن لسموأل إذا طاف الهمام به في جحفلٍ كسواد الليل جرارِ
فشكّ غير طويلٍ ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري

وأما المنذر الذي كان قد سطا على فينيقية وفلسطين في أيام الملك انسطاس، وأرسل إليه ساويرس الانطاكي أسقفين وهو في فلسطين ليستغويه بضلاله، فهو غير المنذر بن ماء السما المذكور ولكنه من خلفائه.

وكانت بين بني غسان ولاة الشام وبين بني لخم ملوك الحيرة حروب أخرى في هذا القرن، منها الحرب المعروفة بيوم مرج حليمة من أيام العرب، وكانت الجيوش فيه قد بلغت من الفريقين عدداً كثيراً، واشتدّ القتال في ذلك اليوم واختلف في النصر لمن كان من الفريقين (ذكره أبو الفدا ك ١ من تاريخه صفحة ٨٤).

هذا ما عثرنا عليه من الأخبار عن أحداث سورية المهمة في هذا القرن. ولم يكن سطو هذه القبائل على سورية إلّا على سبيل غزوة وأخذ غنيمة أو تشفّي بثأر. ولم يكونوا يملكون البلاد التي سطوا عليها، بل ينكلون بأهلها ويأخذون الغنائم ثم يقفلون إلى بلادهم.

الفصل الثالث

مشاهير العلماء الدنيويون في سورية ومن عاصرهم في غيرها

عد ٦١١

سوزومانوس المؤرخ

نعتد سوزومانوس من العلماء الدنيويين لأنه لم يكن من أهل الكهنوت، بل كان فقيهاً يحامي الدعاوى، وإن كان القسم الأكبر من التاريخ الذي دوّنه دينياً.

وقد وُلد سوزومانوس ويسمى هرمياس في قرية اسمها بيتائل في جانب غزة، غير بيت ايل المعروفة الآن ببيت اين في ناحية نابلس. وقال هو في قريته هذه (ك ٥ فصل ١٥): «إنها من قرى غزة توافر فيها عدد السكان، وكثرت الهياكل. وإنه كان فيها هيكل (بنتأون) جُمعت فيه تماثيل الآلهة. وبُني على أكمة مصنوعة على هيئة قوس. وأرى أنّ هذا الاسم بهذا الموضع أخذه اليونان عن لغة السريان. (لأنّ بيت ايل معناها بيت الآلهة). وقال في أهله، أنّ جده آمن بالمسيح بواسطة القديس ايلاريون، وذلك أنّ رجلاً من قريته وربما كان من أنسبائه أيضاً اسمه آلافيون اعتراه الشيطان فلم يستطع اليهود بتعزيمهم ولا الأطباء بأدويتهم أن يبرئوه. فأتى ايلاريون فشفاه بمجرد دعوته باسم الله. فآمن آلافيون وأهله كلهم وآمن جد سوزومانوس واعتكف على درس الاسفار المقدّسة وتفسيرها، حتى أصبح ماهراً في تفسيرها إذ كان لوذعياً ذكياً، وكان ضليعاً في الرياضيات أيضاً وعزيزاً لدى المسيحيين في غزة وعسقلان وما جاورهما. وكانوا يلجأون إليه في حلّ مشكلات الاسفار المقدّسة فيحلّها لهم ويزيل غموضها. واشتهرت ذرية آلافيون بقداسة السيرة، وتساموا بالفضيلة والتقى ومحبة الفقراء، وبنوا أدياراً وكنائس، وكان منهم رجال قديسون

عاشرهم وهو شاب، وذكر منهم (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٢) سلمان وفسكون وملكيون وكرسبيون، وكانوا اخوة تتلمذوا للقديس ايلاريون في السيرة الرهبانية. وقال (في ك ٨ راس ١٤) إنّ أحدهم كرسبيون كان رئيس الشمامسة عند القديس ايبفان أسقف سلمينا في قبرص. ويظهر من كلامه أنه كان بينه وبين آل آلافيون نسابة وأنه تربى بين الرهبان الذين كانوا في هذه الاسرة النقيّة.

وقد انكبّ سوزومانوس على درس علم الشريعة في مدرسة بيروت الشهيرة، ثم أتى إلى قسطنطينية يتعاطى مهنة محاماة الدعاوى كما يظهر من كلامه (ك ٢ فصل ٥ من تاريخه)، على أنه يظهر أنّ شغله لم يكن كثيراً لأنه ألّف تاريخه أثناء اقامته في القسطنطينية، وقد ضمّن هذا التاريخ في تسعة كتب. وألّف أيضاً كتابين آخرين اشتملا على تاريخ كل ما كان من صعود المخلّص إلى حطّ ليشينس عن الملك. لكن هذين الكتابين لم يبلغا إلينا، ونفسه في كتب تاريخه ليس سامياً ولا سافلاً بل متوسطاً بينهما. وهذا أحرى بمن كتب أموراً دينية وكان معاصراً لسقراط المؤرخ، وكانا معاً في القسطنطينية وبين كلاميهما مضارعة، فلا بدّ من أن انتحل أحدهما كلام الآخر، ويعسر الحكم في أيهما استرق كلام رصيفه، إذ كتب كلاهما في السنين الأولى من ملك توادوسيوس الصغير. على أنه يظهر أنّ سوزومانوس انتحل بعض كلام سقراط لأنه كتب بعيده وإن في عصر واحد، بدليل أنه زاد شيئاً على ما روى سقراط وأصلح بعض أخطائه. وإنّ أكثر المؤرخين قدموا ذكر سقراط على ذكر سوزومانوس والله أعلم. انتهى ملخّصاً عن ترجمة سوزومانوس المعلقة على كتب تاريخه في طبعة الأب مين سنة ١٨٦٤م.

وقد بدا سوزومانوس في تاريخه بخبر تنصّر قسطنطين، وختمه بموت انوريوس ملك المغرب أي سنة ٣١٤ إلى سنة ٤٣٩م، ولم أعثر على من ذكر سنة مولده وسنة وفاته. والمعلوم أنه وُلد في أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس، وتوفي في أواسط هذا القرن. وقد عابه القديس غريغوريوس الكبير (في رسالته ٣١) ولا سيما بتقريظه توادورس المصيصي بأنه كان إلى يوم وفاته من أعاظم علماء الكنيسة، مع أنه لم يكن كذلك. على أنّ كتب سوزومانوس الباقية إلى الآن لا أثر فيها لتعظيم توادورس المصيصي، وقد انتقد كلام سوزومانوس في محال عديدة.

عد ٦١٢

ايناي الغزي ومارينس والدمشقي وغيرهم

كان ايناي هذا فيلسوفاً تابعاً مذهب افلاطون وُلد في غزة في القرن الخامس، وأدركته الوفاة سنة ٥٢١م، وكان مسيحياً وتلميذاً لهيروقلس الفيلسوف الذي علّم الفلسفة في الاسكندرية في هذا القرن. وما نعلمه من تأليف ايناي إنما هو سبع وعشرون رسالة أشهرها مانوق بين الرسائل اليونانية التي عني بطبعها سنة ١٤٦٩م. وله محاورة في خلود النفس وقيامة الأجساد، ألّفها لما رأى الشهداء الذين اذاقهم البندالة مرّ الأعذبة في افريقية. وقد طُبعت في زوريك سنة ١٥٥٩م وترجمها إلى اللاتينية امبروسيوس لى كمالدول Le Comal Dole منذ سنة ١٥١٦م. ثم أذاع بواسوناد Boissonade نسخة أخرى منها مع ترجمة امبروسيوس اللاتينية لها في باريس سنة ١٨٣٦م، ونشر لافاك خلاصتها وشرحاً لها في الافرنسية في باريس سنة ١٨٥٩م.

أما مارينس فهو فيلسوف أفلاطوني وُلد في سورية في هذا القرن الخامس، وأخذ العلوم في أثينا عن بروقلس، ثم خلفه في منصّة التعليم سنة ٤٨٥م ولم تُبقِ لنا الايام من تأليفه إلّا ترجمة بروقلس أستاذه نشرها فبريشيوس مع ترجمتها إلى اللاتينية مذيّلة بحواشي سنة ١٧٠٠م في همبورغ. وقد طبعها أيضاً بواسوناد في لبسيك سنة ١٨١٤م ثم جدد طبعها في مجموعة ديدو.

وأما الدمشقي ويسميه الافرنج داماشيوس فوُلد في دمشق نحو سنة ٤٨٠م وكان فيلسوفاً على مذهب الفلاسفة الذين لم يقيّدوا أنفسهم بمذهب لسلفائهم، بل كانوا يختارون ما حسن لهم. ويمكن تسميتهم بالاحرار. وكان الدمشقي تلميذاً لمارينس المار ذكره، وكان يعلّم في أثينا لما أمر يوستنيانس باقفال مدارس الوثنيين سنة ٥٢٩م، ففرّ إلى كسرى ملك الفرس مع بمليشيوس الفيلسوف الاسكندري شارح كتب أرسطو، وخمسة فلاسفة آخرين فلم ينالوا في بلاد فارس الحرية التي كانوا يتطلبونها. ولكن لما عقد كسرى الصلح مع الملك يوستنيانس سنة ٥٣٣م نال لهم الرخصة منه بأن يعودوا إلى وطنهم. ومما كتبه هذا الدمشقي تاريخاً لعمدة الفلاسفة الاحرار أوصل إلينا فوتيوس بعض فقر منه ثم مقالة في المبادئ والأصول نشر العالِم كوب القسم الأول منها في فرنكفورت سنة ١٨٢٦م

في اليونانية. وللعالِم روال الافرنسي مقالة في الدمشقي نشرها سنة ١٨٦١م

وكان في هذا القرن أيضاً هرون ابن أشير من فلسطين، وكان من الربيين الذ استنبطوا وضع النقط والحركات في اللغة العبرانية. وروى أغاثيا محامي الدعاوى ف تاريخه (ك ٢ عد ٣٠) إنه كان في آخر هذا القرن وفي القرن السادس هرمي وديوجان الفينيقيان وايسودورس الغزي وشبههم بأزهار في عصره، ولم نعثر لم على ترجمة.

عد ٦١٣

مَنْ عاصر هؤلاء العلماء في غير سورية من مشاهير العلم

الأول ممن نذكرهم من هؤلاء المشاهير سقراط، وُلد في القسطنطينية فقد شهد ف تاريخه (ك ٥ فصل ٢٤) إنه وُلد في هذه المدينة وأخذ فيها أولاً أصول اللغة، وهو يا مترعرع عن هيلاديوس وأمونيوس النحويين اللذين هاجرا من اسكندرية إلى قسطنطين لما دُمرت هياكل الأصنام في مصر بأمر توادوسيوس الملك. وعليه فيكون مولد سقرا في أواخر القرن الرابع، ثم انكبّ على درس الفصاحة على ترو ايلو الذي كان مشهو له بالفصاحة في قسطنطينية، وانصبّ بعدئذٍ على درس الشرائع ليحسن محام الدعاوى. وبعد أن مارس مهنة المحامي مدة اعتزل عنها وأخذ يكتب تاريخه الشه متحرياً الصدق، وبتدقيق وسهولة العبارة وسلاستها. وضمّن تاريخه في سبعة كتب وبدأ به من تاريخ تنصّر الملك قسطنطين الكبير إلى سنة ٤٣٩م.

وزعم بارونيوس في تاريخه وفيلبس لاباي في كتابه في المؤلفين الكنسيين أ سقراط كان من اتباع بدعة نوفاسيانس سنداً إلى أنه ذكر رؤساء النوفاسيانيين ف قسطنطينية، وقرظ بعضهم وجنح إلى بعض ما علموه في القناعة والامساك على أ توادورس القارئ الذي كان قريباً من أيامه في القسطنطينية وغيره من المؤرخي الصادقين برّأوا ساحته من الضلال، واستشهدوا ببعض أقواله التي هي في مقاو النوفاسيانيين، ويحصيهم فيها بين الهراطقة كالأريوسيين والبلاجيين.

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي (في فصل ٢٨ من قصيدته) سقراط وتاريخه وزاد على ذلك أنه كتب تاريخ قسطنطين ويوفنيان، وقال السمعاني (في المكتب

الشرقية مجلد ٣ صفحة ٤١) لم أرَ أحداً غير الصوباوي نسب هذا الكتاب إلى سقراط، واعلم أنّ عند السريان كتاباً في تاريخ قسطنطين ويوفنيان مجهول المؤلف، فأظن الصوباوي عزاه تقديراً إلى سقراط. وقد ذكر كثيرون من القدماء سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس أسقف قورش الآتي ذكره، وسموهم مكملي تاريخ اوسابيوس القيصري أبي التاريخ، فإنما هؤلاء مع القديس ابيفان أسقف قبرص عمدة المؤرخين من أيام قسطنطين أي من أوائل القرن الرابع إلى أواسط القرن الخامس.

الثاني سريانس وهو فيلسوف من أصحاب المذهب الأفلاطوني الحديث، وُلد في الاسكندرية سنة ٣٨٠م وأدركته الوفاة سنة ٤٥٠م ودرس العلوم في أثينا على بلوترك الفيلسوف الأفلاطوني. ثم خلف أستاذه في رئاسة مدرسة أثينا، وكان من تلاميذه بركلس وقد عيّنه للرئاسة بعده. والباقي من مؤلفات سريانس شروحه المعلّقة على كتب أرسطو في ما وراء الطبيعة. وقد طبع بوكاليني منها ثلاثة كتب مع ترجمتها إلى اللاتينية في البندقية ١٥٥٨م، وله كتاب في فصاحة هرموجان. وكانت له شروح على كتب أفلاطون وأومر لكنها لم تصل إلينا.

الثالث بروكلس أو بروفلس وهو فيلسوف أفلاطوني وُلد في قسطنطينية سنة ٤١٢م وتوفي سنة ٤٨٥م واقتبس العلوم في اسكندرية ثم في أثينا، ثم أكمل علومه بأسفاره. وخلف سريانس الفيلسوف في رئاسة مدرسة أثينا، وكان ضليعاً في الفلسفة والرياضيات، وعني بأن ينهض الوثنية بعد سقوطها مفسراً بعض عقائدها بمعنى رمزي أو سري. وكان يكرم آلهة قبائل عديدة على اختلافها،وأحسن مزية له أنه جعل لمذهب الفلاسفة الاسكندريين نظاماً نهائياً. وخلف تآليف كثيرة هلك بعضها بغيَر الزمان، وأخصّ الباقي منها مقالات في العناية الربانية، وفي الحرية، وفي الشرّ، وكتاب في العقائد اللاهوتية، وكلام في اللاهوت على مذهب أفلاطون، وشروح لأقواله، وأغاني ومقالات في الحركة وفي الكرة الأرضية وفي الأوضاع الفلكية، وشرح على كتاب اقليدس. وقد طُبعت بعض تآليفه وترجماتها مرات في مواضع كثيرة وآخرها في باريس سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٥م.

الرابع امونيوس بن هرميا كان فيلسوفاً من الفلاسفة الأحرار في أواسط القرن الخامس، ومن تلامذة بروكلس. له شروح كثيرة الفائدة على كتب شروح أرسطو

طُبعت في البندقية سنة ١٥٠٣م، ثم سنة ١٨٤٦م. وله كتاب في المقدر طبعه أورلي في زوريك سنة ١٨٤٤ ملحقاً به مقالات أخرى له، وهو غير امونيوس الفيلسوف الاسكندري الذي كان في القرن الثالث.

هذه صورة كرديان الملك الروماني عن تمثال له في الكابيتول بروما.



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ٦١٤

بطاركة انطاكية في القرن [1] الخامس

إنّ آخر من ذكرناهم من بطاركة انطاكية في تاريخ القرن الرابع هو افلابيانس وقد لقي ربه سنة ٤٠٤م، فخلفه برفيريوس وكان مخالفاً للقديس يوحنا فم الذهب، ووقّع على الحكم عليه على ما روى بلاديوس في ترجمة فم الذهب. ولذلك انفصل كثيرون في سورية عن كنيسته وعامل بقسوة بعض مسوديه واكليروسه. وقال سوزومانوس (ك ٨ فصل ٢٤) خلف برفيريوس افلابيوس في كرسي انطاكية، ولما كان قد وقّع على الحكم بنفي فم الذهب انقطع كثيرون من سكان سورية عن الاشتراك معه. وكانوا يقيمون الصلوات والقداسات معتزلين عنه فقاسوا محناً ومشاق كثيرة، فإنّ آل البلاط الملكي سنّوا شريعة حباً بارسانيوس البطريرك القسطنطيني، وبرفيريوس هذا، وتوافيلس البطريرك الاسكندري بأن من لا يشترك مع هؤلاء يُطرد من الكنيسة. على أنّ توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٣٥) قال في برفيريوس أنه كان حكيماً فطناً وخلّف آثاراً شتى دالة على رأفته وحلمه.

وروى العلامة باجيوس أنّ برفيريوس خرمته المنية سنة ٤١٣م، فيكون قد أقام على منصّة البطريركية تسع سنين.

وخلف اسكندر برفيريوس سنة ٤١٣م وقال فيه توادوريطوس (في المحل المذكور آنفاً) إنه كان مثابراً على الرياضات الروحية محباً للفقراء طلق اللسان فصيحه. وقد جمّله الله بكثير غير ذلك من مواهبه، وقد أزال بارشاده واغرائه ذاك الخلاف الذي كان بين الكاثوليكيين في انطاكية من أيام اوسطاتيوس، ولم يتسنَ لبولينس وافاغريوس إزالته. وأقام لذلك عيداً حافلاً، وأثبت باجيوس أنّ اسكندر استمر على البطريركية إلى سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م، وتوجد رسائل منفذة من البابا اينوشنسيوس الأول إليه. ولكن روى نيكوفورس أنه مضى إلى ربه سنة ٤١٨م (عن لاكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) وعن ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية أنّ اسكندر استمرّ في البطريركية عشر سنين.

وخلف توادوتس اسكندر سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م، وقال توادوريطوس في رسالته الأولى إلى ديوسقورس الاسكندري أنّ هذا البطريرك كان شهيراً بسيرته المثلى وتضلعه بالعلوم الألهية، وأنه بقي على الكرسي البطريركي إلى سنة ٤٢٧م أو سنة ٤٢٨م. وصرّح بأنه استمر بطريركاً ست سنين ونيفاً. وروى افاغريوس (ك ١ من تاريخه) إنه كان حياً لما انتخب نسطور بطريركاً لقسطنطينية سنة ٤٢٨م. فهذه الأقوال يظهر أنها أصحّ من قول نيكوفورس أنه استمر في البطريركية أربع سنين فقط. وأنبأنا الفونس التوري (في الحواشي التي علقها على الكتاب الثالث من المراسيم الرسولية) إنّ توادوتس هذا كتب مقالة يفنّد بها زعم الابوليناريين (ملخص عن لاكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). وقال ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية أنه في أيام هذا البطريرك نشر الفتية السبعة الذين كانوا قد أووا إلى مغارة أو كهف في جهة أفسس هرباً من اضطهاد داكيوس الملك، فأمر الملك بسدّ باب المغارة عليهم ودفنهم أحياء، ثم بعثوا في أيام توادوسيوس الصغير بعد مئة وثماني وثمانين سنة، ودخل أحدهم المدينة ليشتري لهم طعاماً إلىآخر هذه القصة المعروفة. أو قال السيدان أبولس ولامي (في حواشيهما على تاريخ ابن العبري) إنّ ما رواه ابن العبري يوافق لما رواه يعقوب السروجي، وغريغوريوس التوروني.، وللآثار السريانية التي شهرت حديثاً. وإنّ ايليا النصيبيني روى إنّ بعث هؤلاء الفتية كان سنة ٧٤٨ يونانية (توافق سنة ٤٣٧ م) مورداً شهادة من تاريخ يوحنا اليعقوبي قال فيها: «في هذه السنة بعث الفتية الذين في مدينة أفسس بعد أن رقدوا في المغارة مئة وثماني وثمانين سنة». هذا ما روى هؤلاء العلماء ونجنح إلى أن نرى الاولى

الاعتماد على أقوال بارونيوس (في جواشيه على السنكسار الروماني في ٢٢ تموز) ونطاليس اسكندر (فصل ٧ في تاريخ القرن الخامس) وروهربخر وغيرهم الذين أنكروا صحة هذا الرقاد المستطيل وبعثهم منه. وإنّ الأظهر أنّ رفاتهم وُجدت في تلك الأيام (طالع ما ذكرناه في عد ٦٠٣ في هذا الشأن).

وخلف يوحنا الأول توادوتس بعد وفاته سنة ٤٢٨م على الأظهر، وكان قد تربى في دير القديس اومبرابيوس القريب من انطاكية. وكان في جملة زملائه هناك توادوريطوس الذي صار بعداً أسقفاً على قورش، ونسطور المبتدع الذي صار بطريركاً على القسطنطينية، وعُقد في أيامه المجمع الأفسسي لنبذ ضلال نسطور، وكان يوحنا مشايعاً له مع غيره من الاساقفة الشرقيين. ولما حصحص الحق ونبذ نسطور ارعوى يوحنا وآثر الصواب وصالح كيرلس البطريرك الاسكندري مرسلاً إليه بولس أسقف حمص مصحوباً بدستور ايمانه، فأثبته كيرلس وسائر أساقفة الكنيسة. وتابع يوحنا على ذلك غيره من الاساقفة الشرقيين تباعاً، ولم يبقَ إلّا الاساقفة المصرون المكابرون (عن لكويان في المحل المذكور). وفصل ابن العبري خبر محازبة يوحنا هذا لنسطور وارعوائه إلى الصواب بقوله إنّ يوحنا تبطأ في قدومه إلى أفسس. وكان نسطور يحتج بأنه لا يحضر المجمع قبل بلوغه إليه. ولما طال الانتظار حكم المجمع بحطّ نسطور، وبلغ يوحنا بعد ذلك ومعه ستة وعشرون أسقفاً موافقون جميعاً لرأيه. إلّا رابولا أسقف الرها واكاشيوس أسقف حلب، فلام يوحنا كيرلس على اسراعه بحطّ نسطور وعدم انتظاره قدومه للبحث معه عن أمره. وأعلن يوحنا أنه مشايع لنسطور، فحطّه كيرلس والمجمع. فاجتمع هو والاساقفة المحازبون له وحكموا على كيرلس البطريرك الاسكندري وممنون أسقف أفسس بالحطّ عن مقامهما. فاستدعى الملك يوحنا والاساقفة محازبيه وأمر باجتماعهم مع باقي الاساقفة للبحث الدقيق. فاجتمع الفريقان في القسطنطينية، فظهر محازبو كيرلس على يوحنا وأصحابه بايراد شهادات ساطعة من الاسفار المقدّسة، فأذعن يوحنا ومن أتبعه للصواب بأمر الملك، وعاد كل من الاساقفة إلى أبرشيته. وكان أخصّ هؤلاء يوحنا الانطاكي، وتوادوريطوس أسقف قورش، واندراوس أسقف سميساط، واسكندر أسقف منبج، وايريناوس أسقف صور وغيرهم. انتهى كلام ابن العبري ملخصاً. وقضى يوحنا نحبه سنة ٤٤١م بعد أن دبر كنيسة انطاكية ثلاث عشرة سنة.

وخلف دومنس يوحنا الأول خاله سنة ٤٤١م، وكان دومنس من رهبان

القديس اوتيميوس في فلسطين. ولما سمع أخبار جنوح خاله إلى ضلال نسطور سأل القديس اوتيميوس أن يرخص له الانطلاق إلى انطاكية ليقنع خاله بالاقلاع عن هذا الضلال، فمضى إليه وأقام عنده إلى يوم وفاته وخلفه بعدها على ما روى كاتب ترجمة القديس اوتيميوس. وقد شهد سنة ٤٤٩م مجمع أفسس الموصوف باللصّي وكان مشايعاً لأوطاخي المبتدع الذي زعم أنّ في المسيح طبيعة واحدة، ووقّع على مراسيم هذا المجمع مخالفاً القديس افلابيانوس البطريرك القسطنطيني والأساقفة الكاثوليكيين على أنّ ديوسقورس البطريرك الاسكندري انقلب عليه، وقضى عليه بالعزل عن بطريركية انطاكية بعد أن دبرها ثماني سنين على ما روى نيكوفورس. فعاد دومنس إلى فلسطين وقضى ما بقي من حياته معتزلاً مخالطة الناس. هذا ما رواه لكويان في المشرق المسيحي (في بطاركة انطاكية). ولكن قد وُجدت في عهد قريب في المتحف البريطاني نسخة سريانية من أعمال مجمع أفسس اللصّي، وقد تُرجمت إلى الانكليزية والالمانية. وقد ترجمها إلى الافرنسية أحد أصدقائنا الأب مرتينس كاهن كنيسة القديسة جنفياف في باريس. وطبع ترجمته في هذه المدينة سنة ١٨٧٥م، فالذي في هذه الترجمة أنّ دمنس لم يشهد هذا المجمع بل شكاه إليه كاهن اسمه سيرياك، وقدّم كتاباً ضمّنه فقرات من رسائل دمنس أو خطبه يتبيّن منها أنّ المخلّص ذو طبعَين إلَهي وبشري. فتأوّل مبغضوه كلامه بأنه يقول بأقنومين فيه. وتوافرت الرسائل بينه وبين ديوسقورس بطريرك اسكندرية الذي كان مترئساً على المجمع اللصّي. وأخيراً حكم عليه هذا المجمع بالعزل عن كرسيه، وترى كل ذلك مثبتاً في ترجمة أعمال هذا المجمع من صفحة ١٣٢ إلى صفحة ١٧٥. قال الملك يوستنيانس في مرسومه في الفصول الثلاثة (التي هي لتوادويطوس أسقف قورش وتودورس أسقف المصيصة وايهيبا أسقف الرها وسنأتي على ذكرها). إنّ دمنس أسقف انطاكية طعنه المجمع الخلكيدوني بالحرم بعد وفاته لأنه جسر أن يكتب أنّ حروم القديس كيرلس الاثني عشر يلزم الصمت عنها، لكن أعمال هذا المجمع لا أثر فيها لهذا الحرم بل قال افاغريوس (ك ٢ فصل ٣٠) الذي نقب عما كتبه هذا المجمع ونشر خلاصته أنه لا يعلم ما كان لدمنس بعد مجمع أفسس اللصّي (ملخص عن لوكيان في المحل المذكور في المشرق المسيحي)، بل يؤخذ عن المجمع الخلكيدوني (في مجلس ١١) أنّ مكسيمس خليفة دمنس طلب إلى قضاة المجمع أن تقرض نفقة من بطريركيته

لدمنس سالفه، فأجابه المجمع إلى ذلك وترك تعيين مقدار النفقة لاختياره في مجمع اقليمي يستشيره في ذلك.

وخلف مكسيمس دمنس سنة ٤٤٩م، ورقاه إلى البطريركية اناطوليوس بطريرك قسطنطينية. فإنّ ديوسفورس بطريرك اسكندرية زيّن للملك توادوسيوس وأغراه بأنّ البطريرك الانطاكي يلزم أن يرقيه البطريرك القسطنطيني لمظنة الضلال في الاكليرس الانطاكي. وكان ذلك مخالفاً لقوانين الكنيسة، ولرضى الاكليرس والشعب في البطريركية الانطاكية، على أنّ المجمع الخلكيدوني والبابا لاون صحّحا ترقية مكسيمس إلى كرسيه. ولهذا البابا رسائل كثيرة ناطقة بأنّ ترقية البطريرك القسطنطيني للبطريرك الانطاكي شذوذ عن قوانين الكنيسة. وكان في المجمع الخلكيدوني خلاف بين مكسيمس هذا ويوفينال البطريرك الأُورشليمي، إذ حاول يوفينال أن يفصل فينيقية الثانية والعربية عن بطريركية انطاكية ويلحقها ببطريركية أورشليم. فدافع مكسيمس عن حقد ولم يصوّب الآباء المجتمعون دعوى يوفينال (مجلس ٧)، وحكموا بأن تبقى فينيقية وبعض أعمال العربية لبطريركية انطاكية، وأن يكتفي يوفينال بأعمال فلسطين الثلاثة، أي اليهودية والسامرة والجليل. وعن نيكوفورس أنّ مكسيمس تنزّل عن البطريركية بعد أن دبرها أربع سنين. ولا دليل على صحة قوله في آثار المؤرخين بل يظهر من رسالة البابا لاون ال ١١٨ أنّ الملك مرقيان ذكر أنّ باسيليوس خلف مكسيمس سنة ٤٥٦م فيكون قد دبر انطاكية سبع سنين.

وخلف باسيليوس مكسيمس سنة ٤٥٦م إذ نرى البابا لاون قال في رسالته المذكورة أنه اطلع في رسائل الملك مرقيان على أنّ باسيليوس خلف مكسيمس تلك السنة. وفي سنة ٤٥٧م أنشبت المنية أنيابها بالملك مرقيان وخلفه الملك لاون. وعرض حينئذٍ مقتل بروتوريوس البطريرك الاسكندري، فأنفذ الملك رسائل إلى أساقفة آسيا وإلى القديسين سمعان العمودي وبردات، فرفع القديسان جوابهما إلى الملك على يد باسيليوس البطريرك كما أنبأنا افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٠) مثبتاً رسالة القديس سمعان إلى باسيليوس البطريرك، ولقي هذا البطريرك ربه سنة ٤٥٨م فلم يبقَ في البطريركية إلّا سنتين وبعض أشهر.

وخلفه اكاشيوس على ما روى نيكوفورس ولم يقم على الكرسي البطريركي

إلّا سنة وأربعة أشهر. وروى أفاغريوس (ك ٢ فصل ١٢) أنه في أيامه عرض زلزال أخرب انطاكية، وكان حدوثه في السنة الثانية للملك لاون في الرابع عشر من ايلول نحو نصف الليل. وقد أسقط ابن العبري اسمَي باسيليوس واكاشيوس من عداد بطاركة انطاكية لأنهما كانا كاثوليكيين. وذكر بعد مكسيمس مرتيريوس الآتي ذكره.

وخلف مرتيريوس اكاشيوس ٤٦٠م وجاء في موجز تاريخ نيكوفورس وفي جداول تاوافان أنه أقام على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة أي إلى سنة ٤٧٣م. قال لكويان (في المحل المذكور) لا صحّة لهذا الزعم لأنّ مرتيريوس تخلّى عن البطريركية للقلق الذي أثاره بطرس القصار في انطاكية في أيام جناديوس بطريرك قسطنطينية. ومما لا مرية فيه أنّ جناديوس أدركته الوفاة سنة ٤٧١م. وقد روى توفان نفسه (في تاريخ ٤٦٨) ما ملخصه: «إنّ بطرس القصار استمال إليه بعض المشايعين لابولينار وأثار قلقاً وشغباً على مرتيريوس مخالفاً له في عقائد الايمان، ورشق بالحرم من لا يقول إنّ الإله صُلب وزاد على التقديسات الثلاثة يا من صُلبت لأجلنا. وانقسم الشعب إلى حزبَين، فمضى مرتيريوس إلى الملك لاون فأعزه وأكرم مثواه بعناية جناديوس بطريرك قسطنطينية، وعاد إلى انطاكية، ولما رأى الشعب ما برح مصراً متقسماً خطب في الكنيسة قائلاً إني متخل عن هذا الاكليرس غير المطيع، وعن هذا الشعب المعنّت، وهذه الكنيسة التي عابها الرجس، ومستبقٍ لنفسي المقام الكهنوتي. ولزم العزلة فاغتصب بطرس القصار كرسيه وانتهت أخبار هذه الشؤون إلى جناديوس بطريرك قسطنطينية، فرفعها إلى الملك فأمر بنفي بطرس القصار». انتهى ما قاله توافان. وعليه. فلم يقم مرتيريوس على الكرسي البطريركي إلى سنة ٤٧٣م بل غادره قبلها. وأما بطرس القصار فلما علم أمر نفيه انهزم واختفى في أحد الأديار، وكان بطرس هذا راهباً في أحد الأديار في ضواحي قسطنطينية وكانت مهنته غسل الثياب فلقّب بالقصار.

فاختار المؤمنون باجماع الكلمة يوليانس، وعُقد مجمع اقليمي سنة ٤٧١م حطّ فيه بطرس القصار عن مقام الاسقفية، إلّا أنّ يوليانس قضى نحبه سنة ٤٧٦م فهبّ القصار من مخبئه فاغتصب الكرسي الانطاكي ثانيةً، وكان حينئذٍ أنّ الملك باسيلسكس أثلّ عرش زينون الملك وتولّى الملك مكانه كما مرّ. وكان تيموتاوس البطريرك الاسكندري الملقّب بالنمس عزيزاً لدى باسيلسكس الملك، ومن القائلين

بالطبيعة الواحدة في المسيح كالقصار فاستمال الملك إلى القصار فثبت مدة في الكرسي الانطاكي إلى أن تغلّب زينون على باسيلسكس، وعاد إلى الملك كما مر بك. فنفى بطرس القصار إلى بنطس على ما روى توافان، وكان القصار قد رقى إلى الاسقفية كاهناً اسمه يوحنا وأرسله ليكون أسقفاً في أباميا فلم يقبله أهلها، فأقام عنده في انطاكية، ولما نفى القصار اغتصب كرسيه وسمي يوحنا الثاني، لكنه لم يلبث عليه إلّا ثلاثة أشهر على ما روى نيكوفورس، فاختير بعده اسطفانوس، وكان كاثوليكياً. وجاء في كتاب يوناني في المجامع أنّ المجمع الذي عزل القصار أقام مكانه اسطفانوس هذا، لكنه توفي بعد ترقيته إلى البطريركية فاختير مكانه اسطفانوس آخر على أنّ نيكوفورس روى في تاريخه أنّ اسطفانوس الأول استمر في البطريركية ثلاث سنين وتابعه في ذلك توافان في جداوله فتكون وفاته سنة ٤٨١م.

وبعد وفاته خلفه اسطفانوس الثالث وقد ورد ذكره في كتاب المجامع المذكور وفي تاريخ نيكوفورس. وقال فيه توافان في تاريخ سنة ٤٨٠م: «أدركت الوفاة في هذه السنة اسطفانوس بطريرك انطاكية فاختير بايعاز زينون الملك اسطفانوس آخر وكان كاثوليكياً، فحنق عليه أعداء الايمان متشيعين لبطرس القصار وأماتوه بنخس قصب بروه كالسهام وطرحوا جثته في العاصي». وروى كذلك يوحنا ملالاس ولم يلبث اسطفانوس هذا في البطريركية إلّا سنة واحدة على ما ورى توافان ونيكوفورس.

وبعد مقتل اسطفانوس أمر زينون الملك اكاشيوس بطريرك القسطنطينية أن يقيم بطريركاً على انطاكية فاختار كاهناً اسمه كالنديون ورقاه إلى البطريركية. وقبل أن يعلم الانطاكيون بترقيته أعادوا يوحنا الثاني المار ذكره إلى الكرسي الانطاكي. روى ذلك توافان بعد ذكره مقتل اسطفانس على أنّ يوحنا ارعوى بعدئذٍ إلى جادة الحق فنقله كالنديون البطريرك الانطاكي الكاثوليكي إلى كرسي صور الذي كان الكرسي الأول بعد الكرسي البطريركي في انطاكية. وقد ارتقى كالنديون كرسي انطاكية سنة ٤٨٢م فرحب به الانطاكيون. وعُني بتضميد جراح رعيته، ولكي يوقّف الخلاف الذي كان بينهم على الترنيم بالتقديسات الذي زاد القصار عليه: «يا من صُلبتَ لأجلنا» أدخل عليه عبارة أيها المسيح الذي صُلبت لأجلنا لتدلّ على توجيه الكلام إلى المسيح الاله المتجسّد لا إلى الثالوث الأقدس. على أنه لم يقم في البطريركية إلّا أربع سنين على ما روى نيكوفورس في موجز تاريخه، وتوافان في

جداوله، لأنّ زينون الملك نفاه وأعاد بطرس القصار إلى كرسي انطاكية للمرة الثالثة. وكان كاشيوس بطريرك قسطنطينية علّة هذه المحن والشرور كلها.

ولما رأى البابا فاليسكس الثالث تعاظم الشرّ في المشرق عقد مجمعاً في روما طعن فيه القصار بالحرم سنة ٤٨٥م، وحطّه عن بطريركية انطاكية فطفق القصار يضطهد من يعتقدون ما رُسم في المجمع الخلكيدوني، فأخمد الله أنفاسه سنة ٤٨٨م على ما روى توفان في جداوله، ونيكوفورس في موجز تاريخه. وفي تلك السنة نفسها عاجلت المنية اكاشيوس بطريرك قسطنطينية، وكان القصار علّة لتأصل مذهب الطبيعة الواحدة ورسوخه في انطاكية حتى أعيى استئصاله البطاركة والملوك الكاثولكيين مدة طويلة.

وبعد وفاة بطرس القصار أُقيم على الكرسي الانطاكي بلاديوس سنة ٤٩٠م، وقال توافان في جداوله ونيكوفورس في تاريخه أنه استمر في البطريركية عشر سنين. قال لكويان (في المشرق المسيحي) الأظهر أنه أقام ثماني سنين فقط لأنّ توافان نفسه قال في تاريخه أنّ خليفته افلابيانس رقي البطريكية سنة ٤٩٨م، وكان بلاديوس اراتيكاً لأنه كان مشايعاً لبطرس المعروف بالالثغ وخلفائه الهراطقة في كرسي اسكندرية.

وبعد وفاة بلاديوس خلفه افلابيانس الثاني سنة ٤٩٨م باختيار الملك انسطاس له، وكان راهباً في أحد أديار سورية الثانية، وكان مخالفاً لمراسيم المجمع الخلكيدوني. ومنذ ارتقائه إلى البطريركية حازب يوحنا بطريرك اسكندرية المخالف لهذا المجمع، لكنه أفاق من ضلاله وأقلع عن محازبة يوحنا المذكور. واتفق مع مكدونيوس بطريرك قسطنطينية وايليا بطريرك أورشليم، وكانا على جادة الايمان الصحيح. وعُقد في سنة ٥٠٩م مجمع في انطاكية صرّح فيه باعتقاده المجامع الثلاثة العامة الأولى، أي النيقوي والقسطنطيني والأفسسي وُحمت عن المجمع الخلكيدوني مطاوعة لأمر زينون الملك. وحرم توادورس الترسيسي، وتوادورس المصيصي، وتوادوريطوس القورشي وايهيبا الرهاوي (جميعهم أساقفة) وغيرهم ممن كان فيلوكسانس أسقف منبج الاراتيكي يعتدهم نسطوريين لاعتقادهم بالطبعَين في المخلّص. فكان افلابيانس هذا متقلباً يناصر طوراً الاوطاخيين وطوراً الكاثوليكيين. ويظهر أنه ارعوى أخيراً ولزم الايمان الكاثوليكي، ولذلك نفاه الملك انسطاس إلى

بلاد العرب سنة ٥١٨م، ومات سنة ٥٢١م (لخصنا ترجمة هؤلاء البطاركة عن لكويان في المشرق المسيحي مجلد ٢ في بطاركة انطاكية وزدنا عليه بعض فرائد عثرنا عليها).

عد ٦١٥
بطاركة أورشليم في القرن الخامس

كان الفراغ من كلامنا في بطاركة أورشليم في القرن الرابع بذكرنا ترجمة يوحنا الثاني الذي لقي ربه سنة ٤١٧م وخلفه في تلك السنة براليوس. وقد ذكره توادوريطوس في خاتمة الكتاب الخامس من تاريخه في عداد بطاركة أورشليم. وجاء في كتاب تراجم القديسين أنه كان خورياً أسقفياً في أيام يوحنا الثاني سالفه حتى ظنّه تلمون يوحنا نفسه لتسمية يوحنا اسماء متعددة. وقد خدع بيلاجيوس الاراتيكي براليوس البطريرك فكتب إلى البابا زوزيمس يشهد له بأنّ بيلاجيوس صحيح المعتقد كما يظهر من رسالة البابا المؤرخة في ١٧ ايلول سنة ٤١٧م التي أثبتها بارونيوس في تاريخه. على أنّ براليوس أفاق من غلطه بعد ذلك وأصلح خطأه كما يتبيّن من تاريخ ماريوس المعروف بمركاتور (أي التاجر فصل ٣). واختلف في سنة وفاته في ما إذا كانت سنة ٤١٨ أو سنة ٤٢٢ أو سنة ٤٢٥م.

وخلفه يوفينال واختلف في سنة خلافته للاختلاف في سنة وفاة سالفه، وربما كان بطريركاً منذ سنة ٤١٨م. وقد شهد سنة ٤٣١م المجمع الأفسسي، وتاريخ القديس كيرلس وسائر الاساقفة على حرم هرطقة نسطور وحطّه عن مقامه. ويظهر من رسالة البابا لاون ال٩٢ المنفذة في مكسيمس البطريرك الانطاكي أنّ يوفينال أفرغ قصارى جده في هذا المجمع ليمدّ سلطة بطريركيته إلى بعض مدن فينيقية والعربية، فلم يجاره أساقفة المجمع على سؤاله، لكنهم لم يروا أن يصدوه عنه بعنف خشية أن يزيغ عن الايمان، فلم ييأس من الفوز لأننا نراه استأنف طلبته في المجمع الخلكيدوني. وكان من جملة الاساقفة الثمانية الذين أرسلهم المجمع الافسسي إلى الملك توادوسيوس الثاني لكبت محاولات أصحاب نسطور. وفي سنة ٤٤٩م شهد مجمع أفسس الموصوف باللصّي وشايع ديوسقورس بطريرك انطاكية، ثم تصحب

الاوطاخي المبتدع، ووقّع على الحكم بعزل افلابيوس البطريرك القسطنطيني وغيره من الاساقفة الارثوذكسيين مجاراة لدمنس بطريرك انطاكية، لكنه استغفر عن سوء تصرفه. هذا سنة ٤٥١م في المجمع الخلكيدوني، وصرّح باعترافه بالايمان القويم فقبل في المجمع بعد أن كان قد مُنع منه كغيره من الاساقفة الذين حازبوا ديوسقورس في المجمع اللصّي، ومنهم اوسطاتيوس أسقف بيروت. فهؤلاء الاساقفة ارعووا من رأيهم الأول ووقّعوا على مراسيم المجمع الخلكيدوني وعلى رسالة البابا لاون. وأصلح آباء المجمع بين يوفينال وبين مكسيمس البطريرك الانطاكي، على أنّ بطريرك أورشليم يلي أعمال فلسطين الثلاثة وهي اليهودية والسامرة والجليل، وبطريرك انطاكية يلي العربية وفينيقية الأولى والثانية. وأجاز سفراء الحبر الروماني هذا الوفاق، وكان كثيرون من رهبان فلسطين قد أتوا إلى المجمع الخلكيدوني يرأسهم توادوسيوس أحد رؤساء الأديار، فأثاروا قلقاً في المجمع لمشايعتهم لاوطاخي، ثم سبقوا يوفينال إلى فلسطين فهيّجوا الرهبان والشعب على المجمع الخلكيدوني وأقاموا توادوسيوس بطريركاً على أورشليم. وعاد يوفينال إليها فلم يمكنه أن يردعهم، فقفل خفية إلى الملك مرقيان، ودخل توادوسيوس ومحازبوه أورشليم فارتكبوا فظائع وحرقوا بيوتاً. وكانت اودكسية أرملة توادوسيوس الصغير تناصر هذا الدخيل على البطريركية، فاضطهد اتباع المجمع الخلكيدوني في أورشليم بل في فلسطين كلها مدة عشرين شهراً إلى أن أمر الملك مرقيان دوروتاوس والي فلسطين أن يبعث بتوادوسيوس إليه، ففرّ إلى جبل سينا وعاد يوفينال إلى كرسيه، وهمّ باصلاح شؤون رعيّته، وعقد مجمعاً في سنة ٤٥٤م لتأييد الايمان القويم إلى أن توفاه الله اليه سنة ٤٥٨م بعد أن دبر هذه البطريركية ٣٥ أو ٤٠ سنة.

وخلف انسطاس يوفينال، وكان انسطاس تلميذاً للقديس بساربون الراهب، ثم خازناً في كنيسة القيامة ثم خورياً أسقفياً. وأجمع شعب أورشليم على اختياره سنة ٤٥٨م. وروى افاغريوس (في ك ٣ من تاريخه فصل ٥) إنّ ذكريا ملالا قد اتهمه بأنه وقّع على رسالة من الملك باسيلسكس تخالف المجمع الخلكيدوني، على أنّ افاغريوس فنّد هذه التهمة ودحضها أيضاً بارونيوس في تاريخ سنة ٤٧٦م، وتلمون (في مجلد ١٦ من تاريخه صفة ٣٠٢) حيث روى أنّ الهراطقة أدخلوا عليه الانبا جيورجيوس وسموه بطريركاً، ففعل شرّاً مما فعله توادوسيوس في أيام يوفينال سالفه. وتلك بيّنة قاطعة لبراءة انسطاس البطريرك. فلو وقّع على رسالة مخالفة للايمان

منفذة من الملك باسيلسكس لم يقاومه الهراطقة بل كانوا راضين عنه، وقد نشبت المنية أظفارها فيه سنة ٤٧٨م بعد أن دبر بطريركية أورشليم ١٩ أو ٢٠ سنة.

وخلف مرتيريوس انسطاس سنة ٤٧٨م وقد أنبأنا كيرلس أسقف شيتوبولي (هي باسان) في ترجمة القديس اوتيمس، ومكملو تاريخ البولانديين في ترجمة هذا القديس أنّ مرتيريوس أتى من الصعيد يصحبه ناسك آخر اسمه ايليا، واعتزلا مع القديس اوتيميوس للنسك في فلسطين. ولما لقي اوتيميوس ربه نسك مرتيريوس وايليا في أريحا. وبعد وفاة انسطاس اختير مرتيريوس خلفاً له. قال افاغريوس (ك ٣ فصل ١٦) إنّ هذا البطريرك بعث رسالة إلى بطرس الالثغ بطريرك اسكندرية. ويؤخذ من ذلك أنه قبل رسالة منه أيضاً وهو من الاوطاخيين الحمسين. فإن صحّ خبر هذه المراسلة تبيّن منها أنّ بطرس الالثغ أخفى ضلاله وأظهر صحّة عقيدته فكاتبه مرتيريوس. ولما افتضح ضلاله ومكره قاطعه ونابذه لأنّ افاغريوس قال بعد ذلك أنّ مرتيريوس وغيره من الاساقفة نابذوا بطرس الالثغ لأنه حرم المجمع الخلكيدوني علانية. وقال كيرلس أسقف باسان (في ترجمة القديس سابا) إنّ مرتيريوس مضى إلى ربه بعد أن أقام في البطريركية ثماني سنين فتكون وفاته في سنة ٤٨٦م.

وخلف سالوستيوس مرتيريوس سنة ٤٨٦م روى كيرلس المذكور. قال بعضهم إنّ هذا البطريرك وقّع على أمر الملك زينون المعروف بهانتيكون (أي مرسوم الاتحاد) وكان يواد اثناسيوس خليفة بطرس الالثغ في اسكندرية، بل قال سعيد ابن البطريق إنه كان يعقوبياً. على أنّ الصحيح أنّ مرسوم زينون المذكور لم يحوِ ضلالاً بيّناً فقد يكون هذا البطريرك وقّع عليه كلفاً باتحاد الكنائس كما كان مصرحاً فيه أنّ الملك أذاعه لهذا الغرض، وقد امتدح كيرلس أسقف باسان هذا البطريرك كثيراً ولا سيما بصحة عقيدته. وقد توفاه الله سنة ٤٩٣م على ما في كتاب البولانديين. والأظهر أنه توفي سنة ٤٩٤م.

وخلف ايليا الأول سالوتيوس سنة ٤٩٤م، وكان عربياً أصلاً ورفيقاً لمرتيريوس في نسكهما في الصعيد، ثم اتيانهما إلى القديس اوتيميوس في فلسطين كما مرّ. وقال فيه كيرلس أسقف باسان المذكور (في ترجمة القديس سابا) أنه لم يكن يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى بعد أن رقي إلى البطريركية، وبنى ديراً في جانب

مقامه البطريركي أسكن فيه النساك. وكانت الكنيسة الشرقية في أيامه على أسوأ حال بسبب هرطقة اوطاخي. فقد كان بطاركة اسكندرية وبلاديوس بطريرك انطاكية مشايعين له، ولم يبقَ صحيح العقيدة إلّا ايليا هذا، واوفيميوس بطريرك قسطنطينية. وعزل الملك انسطاس اوفيميوس عن كرسيه سنة ٤٩٥ ونصب مكانه مكدونيوس. وظهر لايليا من رسائله أنه على سراط مستقيم في الايمان فآخاه وتودّد إليه. ومات بلاديوس بطريرك انطاكية وخلفه افلابيانس فالتحم مع ايليا ومكدونيوس، وشق على الملك انسطاس اتفاقهم فنابذهم واضطهدهم. فنفى أولاً مكدونيوس سنة ٥١١م وأقام مكانه تيموتاوس. ورغب إلى افلابيانس وايليا أن يصوّبا صنيعه ويؤيداه فأنكرا المصادقة على عزله مكدونيوس. فحنق الملك عليهما، وكان من ذلك قلق كبير في بطريركتي انطاكية وأورشليم. وأرسل ايليا القديس سابا رئيس النساك سنة ٥١٢م إلى الملك ليسترضيه فلم يكن ليكفّ سخطه، بل أمر بنفي ايليا إلى ايلة على شاطئ البحر الأحمر سنة ٥١٣م، وأقام مكانه يوحنا بن مرقيان لوعده بأن يوافق ساويروس الذي كان الملك قد أقامه بطريركاً على انطاكية بعد أن نفى افلابيانس منها إلى بلاد العرب. وحصل في فلسطين بعد نفي ايليا مجاعة وغشيها الجراد. وقد مضى ايليا للقاء ربه وهو في منفاه سنة ٥١٨م. وتوفي في تلك السنة افلابيانس بطريرك انطاكية، وهلك انسطاس الملك قبل وفاة ايليا بعشرة أيام. وقد أوحى الله بذلك إليه وقصّه على القديس سابا الذي كان قد مضى لزيارته في منفاه. روى ذلك جميعه كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا وغيره (إنّ كلما ذكرناه في بطاركة أورشليم ملخّص عن لكويان في المشرق المسيحي مع شيء من الزيادة عليه).

الفصل الثاني

مَنْ نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الخامس

عد ٦١٦

توادوريطوس أسقف قورش

وُلد توادوريطوس نحو سنة ٣٨٧م في انطاكية من والدين حسيبين، وقد كتب هو نفسه شيئاً من ترجمته مكرهاً عليه بحسد خصومه وتهمات شائنيه وأعداء الكنيسة. فإليك ما قال في رسالته ٨١ إلى نونس القنصل: «إنّ والدَيَّ نذراني لله قبل أن يُحبل بي، وبرّا نذرهما بعد أن وُلدت، فعشت في الدير قبل أن أصير أسقفاً ولم أقبل الاسقفية إلّا مكرهاً، وعشت في هذا المقام خمساً وعشرين سنة ولم تُقم عليّ دعوى من أحد ولا شكوت أحداً، ولم يشهد أحد من الاكليريكيين المنضوين إلى ولايتي محكمة في هذه السنين كلها، ولم أتقبّل هدية ولا ثوباً من أحد، ولم يأخذ أحد من خدامي رغيفاً أو بيضة واحدة من أحد، ولم أشأ أن يكون لي من المقتنى إلّا الثوب المؤتزر أنا به. أنشأت مآوي عمومية من دخل الكنيسة، وبنيت جسرين، وأقمت حمامات عامة، وجلبت الماء في المدينة فكفيتها ماءً، ورددت إلى الصواب ثماني قرى وضواحيها، وكان أهلها مغوين بضلال مرقيون وأنرت بنور الحق قرية كان أهلها معميين بغواية اونوميوس، وقرية أخرى كان أهلها متسكعين بديجور ضلال اريوس، ولم يبقَ عندنا بنعمة الله أثر لبدعة، ولم يتهيأ لي صنع هذه الأمور دون خطر، بل ريق من دمي مرات، ورُجمت مرات، وطُردت مرات إلى أبواب منزلي. ها قد صرت جاهلاً بافتخاري لكن الضرورة إنما هي التي دعتني إلى ذلك لا حبي الافتخار».

وقد روى كثيرون من المؤرخين أنه بعد وفاة والديه باع كل ما خصَّ به من ارثهما، ووزعه على الفقراء واعتنق السيرة النسكية في أحد الأديار حيث كان يصرف أكثر يومه بالصلوات ويعكف في باقيه على العلوم الدينية. وقد تتلمذ توادوريطوس في حداثته لتوادورس المصيصي وليوحنا فم الذهب. ورقاه البطريرك برفيريوس المار ذكره إلى درجة المرتل ثم صيّره اسكندر خليفة برفيريوس شماساً، إلى أن رقّاه توادوطس خليفة اسكندر إلى الاسقفية على مدينة قورش في سورية الشمالية سنة ٤٢٠م على رواية كرنريوس وعلى رواية بارونيوس خلفاً لايسدورس أسقف قورش الذي توفي وقتئذٍ. وقد شهد توادوريطوس المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م، وقاوم مع يوحنا بطريرك انطاكية وغيرهما من الاساقفة الشرقيين القديس كيرلس الاسكندري وغيره من الاساقفة المجتمعين في أفسس في دعوى نسطور. وعاد أيضاً إلى الوفاق معهما. ولما عُقد مجمع أفسس اللصّي سنة ٤٤١م حطّ فيه ديوسقورس بطريرك اسكندرية توادوريطوس عن مقامه الاسقفي. على أنّ المجمع الخلكيدوني الذي عُقد سنة ٤٥١م رده إلى أسقفيته بعد أن صرّح بحرمه نسطور وتعليمه. وقد تمادى توادوريطوس بما كتبه خلافاً للقديس كيرلس والمجمع الأفسسي في حين الجدال على تعليم نسطور. وقد توفي سنة ٤٥٨م. وقد حرم المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م ما كتبه في تخطئة القديس كيرلس المدافعة عن نسطور. ولم يحرمه هو على أن أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة يشنأون توادوريطوس وينبذون ذكره، واليعاقبة يمقتونه إلى اليوم. حتى أنّ المتقدم منهم إلى الدرجة المقدّسة يلزمه أن يصرّح في دستور الايمان الذي يتلوه عند ترقيته أنه يحرم توادوريطوس القورشي. وبعكس ذلك النساطرة فإنهم يجلّونه لأنه جنح إليهم وقتاً. ما رواه السمعاني (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠) وقد قال فيه الكردينال اورسي (مجلد ٢ من تاريخه فصل ٤٩): «إنه لولا مقاومته وقتاً ما للقديس كيرلس الذي كان بطلاً صنديداً للايمان ضد نسطور لما كان اسمه الآن أقلّ توقيراً من اسم باسيليوس وفم الذهب وغريغوريوس إذ لم يكن أقلّ علماً وفضيلة منهم».

وإليك خلاصة ما جاء في أعمال مجمع أفسس اللصّي عن نسختها التي وُجدت في المتحف البريطاني بشأن عزل توادوريطوس. إنّ بيلاجيوس كاهن انطاكية قال إنّ لديه كتاباً في توادوريطوس ودمنس يسأل المجمع أن يأمر بتلاوته، فقال يوفينال بطريرك أورشليم إنه ينبغي قبول هذا الكتاب وتلاوته، فتلا رئيس

المسجلين أولاً رسالة بيلاجيوس المذكور التي رفعها إلى المجمع، ثم أردفها بتلاوة كتابه الذي ضمّنه البرهان على أنّ توادوريطوس خالف المجمع الأفسسي وقدّم كتاباً أنشأه في التنديد على هذا المجمع، ورسالة كتبها توادوريطوس إلى بعض الرهبان طعناً بالقديس كيرلس وتنديداً بحرومه. ثم قرأ فقرات من أحد كتب توادوريطوس يتبيّن منها مدافعته عن آراء توادورس المصيصي وغيره من المختلي العقيدة، ويظهر منه جنوحه إلى تعليم نسطور، فقال ديوسقورس بطريرك اسكندرية يظهر من ذلك أنّ توادوريطوس كان وما برح مدافعاً عن ضلال نسطور فيلزم نفيه من شركة المؤمنين وخلعه من المقام الكهنوتي. وتلاه غيره من الاساقفة ومنهم اوسطاتيوس أسقف بيروت موجبين الحكم بالعزل على توادوريطوس، إلى أن قال ديدبان المجمع أنّ الحكم على توادوريطوس عادل فاطردوا الهراطقة، جميعنا نقول كذلك فكلنا راضون بعزل توادوريطوس.

أما ما ألّفه هذا الجهبذ فهو أولاً تاريخ بيعي ضمّنه في خمسة كتب ابتدأ فيه من سنة ٣٢٦م وانتهى سنة ٤٣٩م، وهو جلي ولا يخلو من الفصاحة أيضاً، وقلّ ما كان فيه محل للانتقاد إلّا في تاريخ بعض السنين. ثانياً تاريخ سماه دينياً أو تقوياً جمع فيه تراجم خمسين ناسكاً منهم القديس مارون. ثالثاً كتاب تفسير لرسائل القديس بولس كلها، وله أيضاً كتاب في تفسير نبوّات الأنبياء الصغار الاثني عشر وفي نبوّات أشعيا (ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٤٠ ومجلد ١ صفحة ٦٠٥). رابعاً كتابه في انتقاد حروم القديس كيرلس الاسكندري الاثني عشر لنسطور وليت هذا الكتاب لم يكن. خامساً كتاب يخطئ به اوريجانس أنكره عليه كافاليس، وأثبته عبد يشوع الصوباوي والسمعاني في شرحه لها. سادساً كتابه في التجسّد ذكر ماريوس مركاتور فقراً منه في اللاتينية. سابعاً كتاب في تفسير نبوّة دانيال ذكره عبد يشوع في قصيدته المذكورة. ثامناً كتاب سماه عبد يشوع «محاماة لأبائنا» النساطرة. وقال السمعاني الصحيح أنّ المراد بهذا التأليف خمسة كتب كتبها توادوريطوس في تجسّد الكلمة يندد بها بالقديس كيرلس وآباء المجمع الأفسسي محاماة لنسطور بطريرك القسطنطينية ويوحنا بطريرك انطاكية وغيرهما من الاساقفة الشرقيين، وذكر ماريوس مركاتور فقراً منها. تاسعاً كتاب له سماه عبد يشوع رداً على الفلاسفة وهو كتابه المعروف بمعالجة أميال اليونانيين منطوياً على اثني عشر سفراً، كتبه مقاوماً له الملك يوليانس الجاحد.

عاشراً وأخيراً رسائله وهي مئة وست وأربعون رسالة، وأذاع كرنريوس خمس عشرة رسالة أخرى. وقال نيكوفورس (ك ١٤ فصل ٥٤) إنه كان لديه منها ما ينيف على خمسين رسالة. وله أيضاً مقالات شتى جزيلة الفائدة (ملخص عن السمعاني في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠ و ٤١).

عد ٦١٧
توادورس أسقف المصيصة

لم يكن توادورس هذا أسقفاً في سورية بل كان سورياً وُلد في انطاكية في منتصف القرن الرابع، وكان من اقران فم الذهب في اقتباس العلوم. وكان نسطور وتوادوريطوس من تلاميذه. وقد قاوم أولاً أتباع ابولينار شديد المقاومة فجوزي بأن رقي إلى أسقفية المصيصة في كيليكيا. وقد قرّظه تلميذه توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٣٩) واصفاً اياه بمعلم الكنيسة كلها، من ناصب جميع البدع ظافراً بها، لكنه تهوّر في أضاليل كثيرة ولا سيما ضلالي بيلاجيوس ونسطور. ويسميه النساطرة أباهم، ويخصّه السريان باسم المفسر لأنه اشتهر بتفسيره كثيراً من الاسفار المقدّسة. وقال ريناودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٦٢٢) في تفسيراته: «إنها وإن كانت لرجل فسُد ايمانه بغوايات نسطور، لم يأنف الكاثوليكيون من الاعتماد عليها، ولذلك تجد فقراً كثيرة منها في تفاسير الآباء اليونانيين» وجاء في كرونيكون (تاريخ السنين) الرخا: «إنه في سنة ٧١٤ (يونانية توافق ٤٠٣ للميلاد) أخذ توادورس المصيصي يفسر الاسفار المقدّسة» وكانت هذه السنة هي التاسعة من حبريته، وعليه فيكون رقي إلى الاسقفية سنة ٣٩٤م كما حقق السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٤٠٠) لا سنة ٣٩١م كما وهم بعضهم، ولا سنة ٣٩٧م كما زعم ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه، لأنّ توادوريطوس قال في (ك ٥ فصل ٣٩ من تاريخه): «إنه دبر كنيسة المصيصة ستاً وثلاثين سنة». وقد أدركته الوفاة سنة ٤٢٩م لأنه كان حياً سنة ٤٢٨م إذ سمي نسطور بطريركاً على قسطنطينية. فقد جاء في تاريخ افاغريوس (ك ١ فصل ٢): «إنّ نسطور مرّ بالمصيصة عند سفره إلى العاصمة واجتمع بتوادورس أسقفها وإذ سمع تعليمه زاغ عن محجّة التقوى».

وقد كتب توادورس مؤلفاته باليونانية وترجمت في تلك الأيام إلى السريانية، وعني بترجمتها ايهيبا أسقف الرها لأننا نرى كهنة الرها وهم صمويل وقورش ومادا واولوجيوس يشكون أسقفهم بهذه الترجمة في المجمعين اللذين عُقدا في بيروت وصور، كما يظهر من المجلسين التاسع والعاشر من المجمع الخلكيدوني. واهتمّ ايهيبا باذاعة هذه الترجمة فاعتمدها النساطرة في مجامعهم وتآليفهم بمنزلة دستور لمعتقدهم. كما حقق ابن العبري في تاريخه السرياني في ترجمة معاني جاثليق سلوقية. وعدّد عبد يشوع الصوباوي في قصيدته مصنفاته (السمعاني في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠) فقال إنها منطوية في واحد وأربعين مجلداً حاوية خمسين كتاباً كما يظهر من تعدادها. فوضع أولاً في تفسير سفر التكوين ثلاثة مجلدات. وروى فوتيوس في مكتبته (ك ٣٨) إنّ الأول من هذه المجلدات منقسم إلى سبعة كتب. ثانياً فسّر زبور داود في خمسة مجلدات، ونسب بعض علماء اليعاقبة إليه المزمور المثبت في فروض طائفتنا وهو ܕܩܘܪܐ ܕܒܕܡܟ ܠܒܪܝܡܐ وقد أثبت السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦٠) أنّ هذا المزمور ليس له بل للقديس افرام السرياني مورداً بذلك أدلّة قاطعة، منها ثبوت هذا المزمور في كل نسخه القديمة معزواً صراحةً إلى القديس افرام. ومنها أنّ سريانيته فصيحة بحتة، وتوادورس كتب باليونانية. ثالثاً كتب تفسير نبوّات الاثني عشر نبياً في مجلدين. رابعاً سفري صمويل أي السفرَين الأولَين من أسفار الملوك في مجلد واحد. خامساً فسّر سفر أيوب في مجلدَين ارسلهما إلى البطريرك كيرلس الاسكندري العدو الألدّ لنسطور. ولذلك ذكر عبد يشوع اسمه مصغراً. سادساً فسّر سفر الجامعة بكتاب واحد. سابعاً فسّر نبوّات أشعيا وحزقيال وارميا ودانيال في أربعة مجلدات لكل نبوّة مجلد. ثامناً أسفار العهد القديم كلها في اثنتي وعشرين مجلداً وأسفار العهد الجديد بتسعة كتب. تاسعاً له كتاب في الاسرار، وكتاب في الايمان أي شرح دستور الايمان، وكتاب في الكهنوت، وكتابان في الروح القدس، وكتاب في التجسّد، وكتابان في الردّ على اونوميوس ، وكتابان في الردّ على من زعم أنّ الخطيئة ملازمة للطبيعة، وقد أثبت ماريوس مركاتور أنّ توادورس وضع هذَين الكتابَين رداً على عقيدة الخطيئة الأصلية، وعلى القديس اغوسطينس أو على القديس ايرونيموس اللذين دافعا عنها. ولذلك نزل توادورس منزلة أب للبيلاجيين. ونعلم أنّ النساطرة لا يحسنون إلى الآن الاعتقاد بهذه العقيدة. عاشراً له كتابان في الردّ على المجوس أي

على مذهب الفرس، وكتاب إلى الرهبان، وكتاب في غموض الكلام وآخر في كمال السيرة،وخمسة كتب في الردّ على المجازيين أي على اوريجانس وأتباعه الذين يفسرون الكتاب بالمعنى المجازي لا بالمعنى الحقيقي، وكتاب محاماة للقديس باسيليوس لاونوميوس، وكتاب في الآخذ والمأخوذ رداً على ابولينار الذي زعم أنّ المسيح أتى بجسده من السماء، وكتاب الفرائد أو الدرر جمعت فيه رسائله، وأخيراً كتابه في الاشتراع وهو خاتمة كتبه. انتهى ملخصاً عن قصيدة عبد يشوع الذي هو نسطوري فأطال كلامه في هذا الامام للنسطورية.

قال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠) وعندنا في المكتبة الواتيكانية من هذه الكتب التي أثبت الصوباوي وجودها عند السريان النساطرة ليتورجية (أي رتبة القداس) لتوادورس المصيصي معلّقة في الكتاب القديم السرياني عد ١٨ من الكتب السريانية في المكتبة المذكورة، وقد ذكرتها في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٨١ و ٥٨٣، ثم كتاب مباحث في الاسفار المقدّسة ذكرته في المجلد الثاني صفحة ٤٨٧، وكتاب في مباحث وأجوبة في الاسفار المقدّسة أشرت إليه في المحل المار ذكره، وقصيدة أشرت إليها في المجلد ٢ صفحة ٤٨٨. وقد ترجم الليتورحية المذكورة إلى اللاتينية رينودوسيوس (مجلد ٢ من اللّيتورجية الشرقية صفحة ٦١٦) وفاتحتها: «أيها الرب الإله القوي» وقال أبو البركات (في كتابه في الفروض فصل ٧) ماحرفيته: «توادورس المفسقان (أي المفسّر) من ملافنة السريان، له شرح لبعض الرسائل البولسية والقصص السليحية، وللمذكور عند طائفته مزية كثيرة في عمله».

عد ٦١٨

اسكندر وقورش واخسنيا أساقفة منبج

أما اسكندر فكان صديقاً لنسطور وعدواً الدّ للقديس كيرلس الاسكندري، حتى أنه بعد أن صالحه يوحنا الانطاكي ومناصروه من الشرقيين لم يشأ اسكندر أن يشترك مع يوحنا بطريركه، وقد اشتهر سنة ٤٣١م، وذكره الصوباوي في قصيدته (فصل ١٣٠)، وقال انه كتب كتاباً يضاد فيه يوليانس الجاحد. وذكر له كافايوس (في تاريخه مجلد ١ صفحة ٢٣٣) كتباً أخرى.

أما قورش فأصله يوناني رقي إلى أسقفية منبج في سورية الشمالية واستمر في هذه الاسقفية إلى نحو سنة ٤٨٥م. ولما توفي أقام بطرس القصار البطريرك الانطاكي خلفاً له اخسنيا المسمى أيضاً فيلوكسينس. وكان قورش نسطورياً كما يظهر من أنّ خليفته اخسنيا الذي كان اوطاخياً حرمه مرات مع توادورس المصيصي ونسطور وتوادوريطوس وايهيبا وغيرهم. وله في التأليف مقالة في تقسّم الأديان والبدع وله خطب عديدة. روى ذلك الصوباوي في قصيدته (فصل ٢٤)، والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ صفحة ٣٨). وروى هناك أنه كان في هذا العصر عالِم آخر اسمه قورش كان طبيباً وفيلسوفاً فصار راهباً سنة ٤٦٠م. وذكره جناديوس في جملة المؤلفين البيعيين (فصل ٨١)، وقد كتب مقالات فصيحة سديدة في تخطئة نسطور على أنّ حدّته في الجدال مع النساطرة أوقعته في ضلال اوطيخا، فنبذ ما رسمه المجمع الخلكيدوني.

أما اخسنيا خليفة قورش في كرسي منبج فقد كتب السمعاني ترجمته مطوّلة في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية (صفحة ١٠) فنوجز ما أسهب. قال إنه فارسي الأصل ابق من عند مولاه من فارس وأتى إلى سورية وتزلّف إلى بطرس القصار فرقاه حتى درجة الاسقفية في منبج. والظاهر من رسالة أنفذها إلى رهبان دير سنون بعد منفاه إلى تراسة سنة ٥١٨م إنه رقي إلى الاسقفية سنة ٤٨٥م لأنه قال في هذه الرسالة أنه دبر كنيسة منبج أربعاً وثلاثين سنة. فإن أسقطنا هذه السنين من سنة ٥١٨م كان الحاصل أنه رقي الاسقفية سنة ٤٨٥م أو سنة ٤٨٤م، وبعد أن صير أسقفاً لم يألُ جهداً في مقاومة المجمع الخلكيدوني ومناصبة من يذعنون لمراسيمه. وحمل افلابيانس بطريرك انطاكية على قبول أمر زينون المعروف بهانتيكون (أي منشور الاتحاد) على ماروى افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣١).

وقد مضى مرتين إلى القسطنطينية ليغري الملك انسطاس بمقاومة الكاثوليكين ومطاوعة الاوطاخيين كما يتبيّن من رسالته إلى الرهبان المذكورين. وقد عني بعقد مجمع في صيدا، فأمر الملك انسطاس بعقده ورأس عليه سوتوريكس أسقف قيصرية في الكبادوك، واخسنيا أسقف منبج لمناصبتهما المجمع الخلكيدوني، وتصحبهما لاوطيخا وديوسقورس، على ما روى القديس كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا. فعُقد المجمع في صيدا سنة ٢٠ لانسطاس وهي سنة ٥١٠ أو سنة ٥١١م على ما روى توافان وديونيسيوس بطرك اليعاقبة، وانتهى في بدء سنة ٥١

على ما حقّق باجيوس. على أنّ الهراطقة لم يقضوا من هذا المجمع وطراً لمقاومة ايليا بطريرك أورشليم لهم معتضداً بافلابيانس بطريرك انطاكية. ونرى انسطاس الملك يشكو من هذا الأمر إلى القديس سابا الذي كان البطريرك أوفده إليه كما يظهر من ترجمة القديس سابا التي نشرها كوتلريوس (مجلد ٣ صفحة ٣٠٠). ولذلك كتب اخسنيا وسوتوريكس رفيقه إلى الملك أنه إذا لم يُبعد افلابيانس وايليا عن كراسيهما، فيسمي جميع المؤمنين مدافعين عن المجمع الخلكيدوني. وعلى هذا النحو تسبب اخسنيا بعول هذين البطريركين كما مرّ. ولما عزل الملك افلابيانس عن بطريركية انطاكية وأدخل عليها ساويروس سنة ٥١٢م على ما روى افاغريوس (ك ٣ فصل ٣٣) رأس اخسنيا المجمع الذي رقى ساويرس إلى البطريركية كما يظهر من كلام كاتب ترجمته في الكتاب القديم السرياني في عد ١٣ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية. وقد اضطر اخسنيا الكاثوليكيين في أيام ساويرس البطريرك كما يظهر من رسالة رهبان سورية الثانية إلى البابا هرمزدا وإلى يوحنا ومنّا بطريركي قسطنطينية، وإلى المجمع الخامس المسكوني وان لم يصرّحوا باسم اخسنيا، فلا ريب في أنه باتفاقه مع ساويرس كان علّة تلك المحن والشؤون في بيعة الله.

وروى دونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون أنّ ساويرس واخسنيا عقدا مجمعاً في صور بأمر الملك انسطاس سنة ٨٢٦ يونانية (سنة ٥١٥ للميلاد)، وشهده كثيرون من أساقفة المشرق وفلسطين وفينيقية لبنان والعربية حرموا فيه المجمع الخلكيدوني. ولكن قال السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩) أنه لا أثر لهذا المجمع في كتب المؤرخين اليونان واللاتين. وقد ذكر أنه كان فيه نواب من قبل ايليا بطريرك أورشليم الذي نُفي من كرسيه سنة ٥١٣م، وعليه فيظهر أنّ ديونيسيوس لم يميّز بين هذا المجمع ومجمع آخر عُقد في صور سنة ٥١٨م بعد هرب ساويرس تأييداً للايمان الكاثوليكي كما روى بارنيوس وباجيوس.

إنّ العناية الربانية لم تدع أعداء الكنيسة الكاثوليكية يتمادون بشرّهم إلى زمان طويل، فخرمت المنية الملك انسطاس سنة ٥١٨م، وتسنّم منصّة الملك يوستينس الكبير. وأنبأنا افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٤) وتوافان إنّ هذا الملك نفى ساويرس البطريرك الانطاكي واخسنيا هذا أسقف منبج المسمى فيلوكسينس وبطرس

أسقف اباميا وغيرهم من المصابين بأدواء الضلال. ويظهر من الكتاب القديم السرياني المأتي به من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (عد ٢٧ من هذه الكتب) والمنطوي على رسالة اخسنيا إلى رهبان دير سنون أنه نُفي إلى فيلوبولي في تراسة، إذ كتب هذه الرسالة منها ثم نُقل منها إلى كنكرا في بغلاغونية، وهناك هلك مقتولاً بالدخان. فقد جاء في ترجمته المثبتة في الكتاب السرياني القديم عد ١٣ في المكتبة الواتيكانية: «إنه بعد أن أفعم البيعة بالتعاليم الإلٰهية وتفسير الكتب، وفنّد معتقد النساطرة بكتبه نفوه إلى مدينة كنكرا حيث خنقوه بالدخان». ويظهر أنّ ذلك كان سنة ٥٢٢ أو سنة ٥٢٠م، ويعيّد اليعاقبة لذكره في ١٠ من كانون الأول. وفي ١٨ من شباط ويعدّونه شهيداً. وقد كتب ما كتبه باللغة السريانية، وعده يعقوب الرهاوي من أفصح ما كتبوا بهذه اللغة. وفضلاً عن ضلاله في تعليمه أنّ في المسيح طبعاً واحداً قد أنكر انبثاق الروح القدس من الابن كما يظهر من مقالة له في التجسّد مثبتة في الكتاب القديم عد ٢٥ بين الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية . وقد أنكر جواز تكريم الصوَر ولا سيما إذا كانت لمن لا جسم له كصورة الله والروح القدس والملائكة.

وأما تآليفه فقد ذكرها السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٣) فقال هي أولاً تفسيره الأسفار المقدّسة. وما ذكره منها ديونيسيوس بن صليبا وابن العبري ويوحنا أسقف دارا إنما هو تفسير الأناجيل. ثانياً ترجمة الأناجيل المقدّسة من اليونانية إلى السريانية على ما شهد توما الحرقلي في حاشيته على نسخة من هذه الأناجيل خُطت سنة ٦١٦م، وهي محفوظة في مكتبة دير القديس اغوسطينس في روما.

وأما تاريخ ترجمة اخسنيا لها فيؤخذ عن كتاب سرياني قديم في مكتبة باريس الملكية قد خُطّ على ورق سنة ١١٩٢م، وذُيّل بحاشية كُتب فيها على ما روى ديونيسيوس (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٨٩): «هذا كتاب الأناجيل الأربعة المقدّسة الذي ترجم من اللغة اليونانية إلى السريانية بتعب جزيل وتدقيق، أولاً في مدينة منبج سنة ٨١٩ لاسكندر المكدوني (توافق سنة ٥٠٨ مسيحية) في أيام القديس فيلوكسينس المعترف أسقف المدينة المذكورة». وقد مدح

هذه الترجمة كاتب دستور الايمان عند اليعاقبة في الكتاب القديم العربي المحفوظ في مكتبة مدرسة الموارنة في روما (صفحة ٤١٤). فقال «فيلوكسينس المنبجي مفسر الإنجيل إلى اللغة السريانية الذي يستعمله من يقرأ الإنجيل بالسرياني من الملكية واليعاقبة والنساطرة والموارنة، وأما نحن السريان فعندنا نسخة المحرقل لتوما الحرقلي». قال السمعاني قد كذب الكاتب اليعقوبي لأنّ الطوائف الأربع التي ذكرها لا تستعمل ترجمة فيلوكسينس بل الترجمة التي يدعونها ܦܫܝܛܬܐ أي البسيطة. وقد انتشرت في الكنيسة السريانية منذ أيام الرسل، واليعاقبة وحدهم يستعملون الترجمة التي وضعها أولاً فيلوكسينس، ثم أصلحها وهذّبها الحرقلي. وقد جعل ابن العبري ترجمة فيلوكسينس وترجمة الحرقلي واحدة، وهو خطأ بيّن لأنّ فيلوكسينس مات نحو سنة ٥٢٠م، والحرقلي هذّب ترجمته سنة ٦١٦م. ولعلّ كلام ابن العبري شوّهته زلّة من قلم كاتبه.

ثالثاً لاخسنيا نافور مثبت في الكتابين الثالث والرابع من الكتب المأتي بها من الاسقيط، وفاتحته: «أيها الرب الإله غير المدرك». وذكره البطريرك اسطفانس الاهدني في مؤلفي النافورات الهراطقة فصل ٧، ويُعزى إليه نافور آخر فاتحته: «إيها الإله الذي هو حياة ونور لكل شيء» والصحيح أنّ هذا النافور لسمعان الفارسي. رابعاً لاخسنيا صلوة مترجمة من السريانية إلى العربية ومثبة في كتاب ٥٢ من الكتب العربية التي في المكتبة الواتيكانية. خامساً له رتبة لمنح سرّ المعمودية يستعملها اليعاقبة في كتب طقسهم. سادساً له ثلاث مقالات في الثالوث والتجسّد. سابعاً له عشر مقالات في أنّ أحد أقانيم الثالوث الأقدس وُلد وألّم. ثامناً له مقالة في الايمان ورسائل شتى منها رسالة إلى الملك زينون. تاسعاً له محاورة مع عالِم نسطوري ومقالة في النساطرة والاوطاخيين وأخرى في العفّة. ومن شاء تفصيلاً أكثر في ترجمته ومصنّفاته فليراجع المكتبة الشرقية للعلامة السمعاني (مجلد ٢من صفحة ٤٦) الذي لخصنا كل ما مرّ عن أقواله.

عد ٦١٩

ايريناوس أسقف صور

إنّ ايريناوس هذا كان كنتاً من كبراء دولة الملك توادوسيوس الصغير. وقد أرسله سنة ٤٣١م إلى المجمع الأفسسي نائباً عنه فيه، فشايع نسطور وانتصر له في

المجمع وبعده. فعزله الملك من منصبه ونفاه إلى مدينة حجر في العربية، واستمر في منفاه اثنتي عشرة سنة كما يظهر من أعمال مجمع أفسس اللصّي التي وُجدت من عهد قريب في المتحف البريطاني كما مرّ. حيث يقال في ايريناوس: «إنّ دمنس (البطريرك الانطاكي) وضع يده عليه، وإن كان متزوجاً بامرأتين وعاش خارجاً عن شركة الكنيسة المقدّسة اثنتي عشرة سنة أي مذ طُرد نسطور من كرسيه إلى أن صير (ايريناوس) أسقفاً». وأما كيف عاد من منفاه وبأية وسيلة فيظهر من رسالة كان بعضهم يعزوها إلى توادوريطوس، وقد تحقق الآن أنها لدمنس البطريرك الانطاكي. إنّ دمنس لم يرقِّهِ إلى الأسقفية إلّا برأي جميع أساقفة فينيقية ويقرظه كثيراً. وإليك كلامه (في رسالة ١١٠): «قد أنفذت برأي أساقفة فينيقية أعزاء الله إلى أن أرقي إلى الأسقفية ايريناوس عزيز الله، وإذ تبيّنت لي غيرته وعزة نفسه ومحبته للفقراء وسائر فضائله وصحّة عقيدته، ونعلم أنه لم يأتِ البتّة أن يدعو العذراء والدة الله وأنه لم يرَ رأياً مخالفاً التعاليم الانجيلية». ومن ذلك يظهر جلياً أنه أقلع عن غلطه وجحد ضلاله قبل أن يرقى إلى الأسقفية. وأما سنة ترقيته إلى الأسقفية فلا يمكن القطع بها، لأنّ قول المجمع اللصّي المورد آنفاً أنه قام اثنتي عشرة سنة في المنفى لا يُعلم أبدؤها سنة ٤٣١م التي عُزل بها نسطور، أم سنة ٤٣٥م التي صدر فيها أمر الملك ضد النساطرة، فإن صحّ الأول كانت ترقيته ٤٤٣م أو الثاني فسنة ٤٤٧ أو سنة ٤٤٦م وقد رجّح الأب مرتيس الثاني.

وهاك ماكان في أمره في مجمع أفسس اللصّي نورده ملخصاً على علاّته: «قال يوحنا خوري اسكندرية ورئيس المسجلين يترتب علينا أن نخبر مجمعكم الطوباوي المسكوني أنّ ايريناوس أخصّ المعاضدين لضلال نسطور والمساعد لهذا المبتدع على نشر غوايته قد قُضي عليه بالنفي، وأُرسل إلى المحل الذي عيّنه له ملوكنا الصالحون محبو المسيح. ولا أعلم كيف أمكن أن يرقى إلى كرسي صور ولم يكن أهلاً لذلك لأنه كان متابعاً لنسطور على تعاليمه السقيمة فضلاً عن أنه كان متزوجاً بامرأتين، ولم تكن سيرته حميدة في شبابه، ولهذا كان للصوريين ذئباً خاطفاً. بدلاً من أن يكون راعياً وهو مترد بثياب حمل ولم يكن وضع اليد إليه مطابقاً للقوانين. فعُزل وحُطّ عدلاً وأُقيم مكانه فوتيوس الذي ترونه الآن في مصاف قداستكم في هذا المجمع. فالعدالة تقضي علينا بل الضرورة تلزمنا أن يبرز هذا المجمع حكماً قانونياً ومجمعياً خشية أن يتصل هذا الداء بغيره فيُفسِد الكثيرين».

فقال ديوسقورس بطريرك اسكندرية قد اطلع هذا المجمع المقدّس على سؤال يوحنا رئيس المسجلين ورأى اجابة سؤاله لائقة وعادلة ومطابقة للقوانين. وإنّ هذا المجمع المقدّس يلزمه أن يؤيد حطّ ايريناوس المجدّف وذي الزوجين، ولهذا فأنا أول من يحطه عن شرف الكهنوت ويحظّر عليه الاشتراك مع عامة الناس أيضاً.

وقال تلاسيوس أسقف قيصرية يكفي لحطّ ايريناوس عن المقام الكهنوتي أنه ثبت عليه تشبثه بضلال نسطور فضلاً عن أنه ثبت عليه الزواج بامرأتين خلافاً للقوانين، ولهذا اعدّه معصياً عن الكهنوت وعن شركة المؤمنين.

وقال اسطفانس أسقف أفسس أنا كنت مخالفاً منذ البدء لترقية ايريناوس إلى الأسقفية لأنه رقى إلى الكهنوت خلافاً للقوانين والنظام الكنسي، ولهذا أرى لزوم إجابة سؤال رئيس المسجلين بإقصائه عن الأسقفية وشركة المؤمنين.

وقال اوسابيوس أسقف انكورة فليكن ايريناوس المتزوج بامرأتين والمشكو بمشايعة نسطور منحطاً عن مقامه الأسقفي. وقال غير هؤلاء من الأساقفة مثل ذلك إلى أن قال اوسطاتيوس أسقف بيروت إنه بمكر الشيطان أصبح الانسان مضطراً إلى تجسّد ابن الله فأراد ابليس أن يضرنا فكان نافعاً لنا بتدارك رحمة الله لنا، وعلى هذا النحو الناس الأشرار فإنهم يهيئون لكنيسة الله الوسائل لنبذ التهم الواردة عليها، فإذا استؤصلت جراثيمهم أتت الأشجار الباقية في جنّة الله بثمار وافرة، فايريناوس الذي دافع قبلاً عن ضلال نسطور الوخيم حطّته طوباويتكم عدلاً عن مقامه، فليكن محروماً من الاشتراك في الأسرار المقدّسة لأنه كان سبباً لشرور كثيرة بعد نسطور.

وقال أخيراً أحد الأساقفة: «باسم المجمع إننا جميعنا نقول كذلك وباجماع كلمتنا ننبذ الهراطقة. قد أصاب ملوكنا بما صنعوا إنّ كل ما عمله ايريناوس يلزم نبذه لأنه رقي الاسقفية بوسائل رديئة، وكل أعماله ممقوتة وحكم المجمع عليه عادل كحكم الملوك».

ومن بعد هذا الحكم على ايريناوس عُزل بأمر الملك توادوسيوس الصغير عن كرسيه. ولا مرية في أنّ ايريناوس شايع نسطور في المجمع الأفسسي وفي أنه كان متزوجاً قبل أسقفيته بامرأتين. ولكن أكان بعد أسقفيته متشبثاً بضلال نسطور. فما روينا آنفاً من رسالة بطريركه دمنس ينفي هذه التهمة عنه ويبرئ ساحته، ولكن يظهر مما قال رئيس المسجلين أنه كان قد عُزل قبل المجمع اللصّي، وأُقيم فوتيوس

مكانه. واليعاقبة يعتدونه من الهراطقة النسطوريين في دستور الايمان الذي يتلوه المتقدم إلى الأسقفية عند ارتقائه إليها.

إنّ ايريناوس بعد أن عزله الملك عن كرسي صور، انكبّ على كتاب تاريخ لأيامه ضمّنه خمسة كتب. وقال فيه عبد يشوع الصوباوي (في قصيدته المذكورة فصل ٢٥): «ايريناوس الصوري وضع خمسة كتب في التاريخ البيعي على اضطهاد نسطور وكل ما جرى في ذلك الزمان». والمعلوم أنّ تاريخه هذا هو مجموع أوامر من الملوك وأحكام المجامع ورسائل من أساقفة ذلك العصر. وله رسالة إلى الأساقفة الشرقيين كتبها سنة ٤٣١م. وله أيضاً مأساة كتبها في منفاه ببلاد العرب ولا نعلم مضمونها إلّا من تخطئة له فيها معنوَنة الرد على مأساة ايريناوس. ذكره منسى في مجموع المجامع وتلمون (في مذكرة ١٤ صفحة ٦٠٥).

عد ٦٢٠

باقي أساقفة صور في هذا القرن غير ايريناوس

كان قبل ايريناوس قورش أسقفاً على صور، وشهد المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م، وكان فيه مشايعاً لنسطور، واختاره أصحابه ليكون في جملة الأساقفة الذين أوفدوهم إلى الملك توادوسيوس لإقامة الحجّة على هذا المجمع. لكنه مرض فاستناب عنه مكاريوس أسقف اللاذقية. وقد وقّع على كل ما كُتب مدافعة عن نسطور فخلعه المجمع الأفسسي من مقامه الأسقفي كباقي رفقائه كما هو بيّن في أعمال هذا المجمع. ولا نعلم ما كان منه بعد ذلك.

وخلفه برونيسيان، ونعلم أنه كان من الساعين للصلح بين القديس كيرلس البطريرك الاسكندري وبين الأساقفة الشرقيين للاتفاق على نبذ ضلال نسطور وعملاً برغبته. كتب القديس كيرلس أنه يلزم الأساقفة الشرقيين جميعاً أن يحرموا نسطور وينزلوا تجديفه على المسيح منزلة تجديف سيمون الساحر كما يظهر من رسالة القديس كيرلس إلى ارسطولانس.

وخلف ايريناوس المذكور برونيسيان، وبعد عزل ايريناوس من كرسيه كما مرّ خلفه فوتيوس، وقد عهد إليه الملك توادوسيوس وافلابيانس بطريرك قسطنطينية أن

يفحص مع اوسطاتيوس أسقف بيروت عما كتبه أو قاله ايهيبا أسقف الرها. وكان ذلك سنة ٤٤٨م على ما روى بارونيوس أو سنة ٤٤٩م على ما روى باجيوس الذي قصّ علينا هذا الخبر كما يأتي ملخصاً: «إنّ بعض الاكليريكيين من الرها شكوا أسقفهم ايهيبا إلى دمنس بطريرك انطاكية، وكان صديقاً لايهيبا فلم يحفل بالشكوى، فرفعوا شكواهم إلى الملك توداوسيوس وإلى افلابيانس بطريرك قسطنطينية فأمر توادوسيوس داماشيوس أحد القضاة في ٢٦ تشرين الأول سنة ٤٤٨م أن يمضي سريعاً إلى فينيقية ويهتمّ بالفحص عن دعوى ايهيبا بحضرة القضاة المفوّض إليهم بسماعها. وأرسل افلابيانس مع داماشيوس اولوجيوس الشماس، وكان القضاة المفوضون فوتيوس متريبوليت صور، واوسطاتيوس أسقف بيروت، واورانيلوس أحد الأساقفة الخاضعين لرئيس أساقفة الرها، فدعا فوتيوس رفقاءه القضاة وايهيبا وشاكيه إلى صور. فأذاع الشاكون فيها أنّ ايهيبا قال لا أحسد المسيح على أنه صار إلهاً لأنه يمكنني أن أصير مثله إذا كان له ولي طبع واحد. ولما علم فوتيوس أنّ هذا التجديف يكون معثرة للصوريين أمر أن يخرجوا من صور، فانتقل القضاة إلى بيروت وأرسل ايهيبا أحد شمامسته من بيروت إلى الرها ليأتيه برسائل من اكليروسها يشهدون فيها أنه لم يفه بهذا الكلام تبرئة لساحته. فأرسل إليه الاكليرس رسالة يبرئونه فيها من هذه التهمة، ويسألون فوتيوس واسطاتيوس القاضيين أن يسرعا بارجاع ايهيبا إلى رعيته ولا سيما لدنو عيد الفصح. ولما لم تظهر صحّة الشكوى بذل القضاة قصارى جهدهم في اصلاح ذات البين بين ايهيبا وشاكيه. ورأوا أنّ هذا الصلح لا يبعد أن يكون، فعادوا إلى صور وهناك جرى الصلح ووقّع على صكّه بحضرة كثيرين في صور في ٢٥ شباط سنة ٤٤٩م. وترى صكّ هذا الصلح مع التوقيع عليه في أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ٩) على أنّ الشاكين على ايهيبا استأنفوا شكواهم في مجمع أفسس اللصّي فحطّه هذا المجمع عن مقامه.

وقد شهد فوتيوس هذا المجمع اللصّي كمامرّ. ثم أتى إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م وأثبت أعماله وذكر في المجلس التاسع منه ما تصرّف به في دعوى ايهيبا. وكان اوسطاتوس أسقف بيروت قد اعتدى عليه باتخاذه السلطة المتريبوليتية في بعض المدن الخاضعة لأسقفية صور سنداً إلى جعل الملك توادورسيوس بيروت مدينة متريبوليتية. فدافع فوتيوس عن حقه ففاز بدعواه إذ حكم هذا المجمع أن تبقى كنائس المدن المتريبوليتية على حقوقها، ولو أحدث الملوك مدناً أو لقبوها ألقاباً

مشرفة. وقد وقّع فوتيوس على جميع مراسيم المجمع الخلكيدوني كما يظهر من أعماله.

وخلف دوروتاوس فوتيوس والذي علمناه من أمره أنّ الملك لاون كتب إلى كل من متريبوليتية الكنائس الشرقية أن يعقد كل منهم مجمعاً اقليمياً في كنيسته ويصرّح برأيه في شأن المجمع الخلكيدوني فنرى دوروتاوس عقد مجمعاً وأوفد إلى الملك رسالة ووقّع عليها باسمه دوروتاوس متريبوليت صور (لكويان في المشرق المسيحي في أساقفة صور).

ومن أساقفة صور بعد ذلك يوحنا كودوناتس مشايعاً لبطرس القصار في انطاكية، فصيّره أسقفاً على اباميا فلم يقبله أهلها. وبعد أن قتل أعداء المجمع الخلكيدوني اسطفانس الثالث بطريرك انطاكية أقاموا يوحنا هذا مكانه. إلّا أنّ اكاشيوس البطريرك القسطنطيني أقام كالنديون بطريركاً على انطاكية بأمر زينون الملك. ولما أتى انطاكية ورحّب به أهلها جعل يوحنا أسقفاً على صور كما مرّ (في الكلام على بطاركة انطاكية) هذا ما رواه توافان في تاريخ السنة السابعة لزينون. ولكن جاء في موجز تاريخ الاوطاخيين أنّ بطرس القصار رقى يوحنا هذا إلى أسقفية اباميا، ولما عاد القصار إلى انطاكية ولم يقبله أهلها، أخذ يوحنا كرسيه الانطاكي فحرم اكاشيوس البطريرك القسطنطيني كليهما، أي القصار ويوحنا فجعل البطريرك الاسكندري ويوحنا أسقفاً على صور (ملخص عن المشرق المسيحي).

عد ٦٢١
من نعرفهم من أساقفة صيدا وبيروت وجبيل في القرن الخامس

نعرف من أساقفة صيدا في هذا القرن دميانس، ونرى توادوريطوس وجّه إليه رسالة هي في عدد أربعين من رسائله، وإنه كان من الأساقفة الذين وقّعوا على الحكم في دعوى اثناسيوس أسقف بيريا[٢] في المجمع الذي عقده دمنس بطريرك

---

(١) حاشية ويسميها الافرنج PERRHA واظنها البادية التي في ناحية ادلب وريحا إلى الجنوب من ريحا على مسافة نصف مرحلة وهي مشهورة باطلال الهياكل والأديار والدور التي كانت فيها.

انطاكية سنة ٤٤٥م، فإنّ اثناسيوس كان أسقف بيريا الخاضعة لولاية متريبوليت منبج، وقد شكي بجرائم ثقيلة، فعقد دمنس مجمعاً في انطاكية في السنة المذكورة ودُعي اثناسيوس ثلاثاً ليبرئ نفسه فلم يلبِ الدعوة، فحكم المجمع بعزله وأُقيم مكانه سابينيان، فأرجع ديوسقورس في المجمع اللصّي اثناسيوس إلى كرسيه وحطّ سابينيان عنه. وقد لجأ سابينيان إلى المجمع الخلكيدوني فنظر في دعواه في مجلس ١٤ وحكم ببقائه في أسقفيته، إلَّا أن يبرئ اثناسيوس نفسه من كل جريمة في مدة ثمانية أشهر، فيعود إلى كرسيه يكون سابينيان معاوناً له. وقد شهد دميانس المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ ووقّع على مراسيمه. ونعرف أيضاً ما كان أسقف هذه المدينة، مستدلين عليه بتوقيعه على رسالة رفعها مجمع عُقد في فينيقية إلى الملك لاون سنة ٤٥٨ أو ٤٥٩م في شأن مقتل بروتوريوس أسقف الاسكندرية ونبذ تعاليم الاوطاخيين.

ومن أساقفة عكا نعرف الاديوس ويتبيّن من أعمال المجمع الافسسي إنه كان موافقاً فيه ليوحنا بطريرك انطاكية وغيره من الأساقفة الشرقيين في الدفاع عن نسطور، فاستحق معهم أن يحطّه هذا المجمع عن أسقفيته. ونعرف منهم أيضاً أن بولس شهد المجمع الذي عقده دمنس بطريرك انطاكية في دعوى اثناسيوس أسقف البادة، وقد حضر أيضاً في المجمع الخلكيدوني ووقّع على مراسيمه.

ومن أساقفة بيروت في هذا القرن اوسطاتيوس المار ذكره، وقد كلّفه افلابيانس البطريرك القسطنطيني أن يفحص مع فوتيوس أسقف صور عن شكوى كهنة الرها أسقفهم ايهيبا فأتما ذلك في مجالس عقداها في صور وبيروت وأصلحا بين ايهيبا وكهنته كما مرّ. وشهد اوسطاتيوس بعد ذلك مجمع أفسس اللصّي، وكان فيه محازباً لديسقورس بطريرك اسكندرية، وقد نال من الملك توادوسيوس مرسوماً سمى فيه بيروت مدينة متريبوليتية، ونازع فوتيوس أسقف صور سيادته على بعض مدن فينيقية إلى أن حكم المجمع الخلكيدوني أن يبقى مطران صور على سيادته كما كان قبل هذا النزاع، وقد حضر اوسطاتيوس إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م ومحا وصمة العار التي تلطّخ بها في المجمع اللصّي إذ جحد ضلال اوطاخي وديوسقورس، ووقّع على مراسيم المجمع الخلكيدوني، وقد بنى في بيروت كنيسة بديعة يقال أنّ آثارها باقية إلى اليوم في أحد المعابد. وكتب إليه الملك لاون رسالة في مقتل القديس بروتاريوس أسقف اسكندرية، ونرى توقيعه في الجواب المرفوع إلى

هذا الملك من أساقفة فينيقية مثبتاً بعد توقيع دوروتاوس أسقف صور. وقد قاوم تيموتاوس المعروف بالنمس الدخيل على بطريركية اسكندرية. وفي مكتبة مدرسة الآباء اليسوعيين في باريس فقرات من كتاب له يفنّد بها هراطقة كثيرين.

وقد جاء في سنكساري الأحباش في ٢٤ من نيسان ذكر اريستس أسقف بيروت، إلّا أنه يقال أنّ المراد باريستس اوسطاتيوس المار ذكره، الذي كان محازباً لديوسقورس بطريرك اسكندرية في المدافعة عن غوايات اوطاخي المتسكع الأحباش فيها. وجاء في ميناوون الروم في ١٩ من شباط أنّ القديس رابولا أسقف سميساط أتى فينيقية في أيام زينون الملك، وكان يصحبه ناسك اشتهرت فضائله فبنى في وسط الجبل (لعلّ المراد جبل لبنان) ديراً كبيراً بعناية الملك زينون ومساعدة يوحنا مطران بيروت.

ونعرف من أساقفة جبيل في هذا القرن بناتس، ويُرى توقيعه في جملة اسماء الأساقفة الذين شهدوا مجمع انطاكية سنة ٤٤٥م في أيام دمنس، وحكموا على اثناسيوس أسقف البادة كمايظهر من أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ١٤). ومن أساقفة جبيل اكويلينس حط عن أسقفيته وحُرم في مجمع أفسس اللصّي بما أنه نسطوري، وإليك ماكان في حطّه ملخصاً عما جاء في أعمال المجمع اللصّي المذكور: «قال فوتيوس أسقف صور إنّ ايريناوس الذي قضي عليه بالحطّ إنما هو الذي رقى اكويلينس إلى أسقفية جبيل وإن كان شراً من نسطور وأكثر حماقة من ايريناوس. وقد استحقر المذبح والكنيسة والكهنوت وفضّل عليها صداقة شريكه في الهرطقة، وقد دعوته مراراً ليأتي إليّ أو إلى البطريرك دمنس فاختبأ، وكتب إليّ دمنس يسألني أن أقيم أسقفاً بدلاً منه ولم أتأخر عن العمل بأمره إلّا لأننا دُعينا إلى هذا المجمع المقدّس المسكوني. فقال ديوسقورس بطريرك اسكندرية أنّ اكويلينس الذي كان أسقفاً على جبيل قد أثبت على نفسه أنه ليس أهلاً لشرف الكهنوت بإصراره على مخالفة النظام المفروض، وايثاره اتّباع ايريناوس رفيقه في الضلال، كما أبان رئيسه فوتيوس التقي. فليكن له إذاً نصيب ايريناوس، فإنه لم يشأ البركة فتباعدت عنه. فليكن معزولاً من أسقفيته وليكن معلوماً أنه إذا ظهر أنّ أحداً من أساقفة فينيقية الخاضعين لفوتيوس المتريبوليت مصاب بالضلال ومتشبث بتعاليم نسطور فيلزم المتريبوليت ومجمعه أن يحطوه عن مقامه. فالمتريبوليت هو المطالب بتنفيذ ما يأمر به هذا المجمع. وسأل المتريبوليت أن يذيع ذلك، ويرفع عرض كل ما

يكون إلى العرش الاسمى (أي الملك). فقال فوتيوس سأبذل جهدي في أن لا يبقى أسقف أو كاهن في فينيقية جانحاً إلى بدعة نسطور، واتوخى إنّ مجمعي الاقليمي يجاريني على رغائبي هذه العائدة لمجد المسيح وشرف هذا المجمع.

وقال يوفينال بطريرك أورشليم قال الرسول إذا أراد غير المؤمن أن يذهب فليذهب، وحيث أنّ اكويلينس دُعي مرتين أو ثلاثاً ولم يشأ أن يمتثل كما أفاد فوتيوس البار فيكون هو حطّ نفسه عن الكهنوت. فقد قال الرسول أيضاً أهرب من الاراتيكي بعد أن نبّهته مرتين أو ثلاثاً، وقال اسطفانس أسقف أفسس أنّ اكويلينس الذي كان أسقفاً على جبيل قد حطّ نفسه بتركه الكنيسة المسلّمة إليه، وتفضيله عليها صداقة ايريناوس الأثيم الذي رقاه إلى كرسيها، وعليه فأرى أن يُحكم عليه كما حُكم على ايريناوس. وبعد أن قال كذلك تلاسيوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف انكورة، ويوحنا أسقف سبسلية في ارمينيا، واوسطاتيوس أسقف بيروت، قال مقدام المجمع إننا جميعاً نقول كذلك ونحطّ اكويلينس ونعزله عن أسقفيته.

ومن أساقفة جبيل أيضاً روفينس شهد المجمع الخلكيدوني ونرى توقيعه على أعماله: روفينس أسقف جبيل.

عد ٦٢٢

من نعرفهم من أساقفة البترون وطرابلس وعرقا وارتوسيا وارواد في القرن الخامس

نعرف من أساقفة البترون في هذا القرن برفيريوس وقد شهد المجمع الخلكيدوني ووقّع على مراسيمه إلّا المجلس السادس عشر، فقد وقّع عليه فوتيوس أسقف صور بالنيابة عنه.

ونعرف من أساقفة اطرابلس كومدس أتى مع يوحنا بطريرك انطاكية إلى المجمع الأفسي سنة ٤٣١م، واعتزل في هذا المجمع مع غيره من الأساقفة الشرقيين، ووقّع معهم على الاحتجاج على هذا المجمع فجوزيَ بأن ينفيه المجمع مع أصحابه من شركة الكاثوليكيين. ونعرف أيضاً توادورس أسقف اطرابلس حضر إلى المجمع

الخلكيدوني، ووقّع على مراسيمه سنة ٤٥١م، ثم وقّع على رسالة مجمع اقليمه سنة ٤٥٨م إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس بطريرك اسكندرية. ومن أساقفة هذه المدينة في هذا القرن اسطفانس جاء ذكره في ترجمة القديس اوتيميوس التي نشرها كوتيلريوس (مجلد ٢ من الآثار البيعية) وإنه كان كاثوليكياً صحيح العقيدة. وجاء في هذه الترجمة أنّ اسطفانس هذا خلف لاونتيوس وكان من أنسبائه.

ومن أساقفة عرقا في هذا القرن نعرف مرشيلنس، وإنه حضر في المجمع الأفسسي قبل أن يصل إليه يوحنا البطريرك الانطاكي وغيره من الأساقفة الشرقيين. وكان في جملة من سألوا القديس كيرلس الاسكندري أن لا يفتتح المجمع قبل أن يبلغ يوحنا البطريرك ومن يصحبه إلى أفسس، وقد وقّع على أعمال المجمع ورسائله كما هو بيّن من الكتاب الموسوم بالرد على مأساة ايريناوس (فصل ١٣ و ٢٨). ومن أساقفة عرقا أيضاً ابيفان شهد المجمع الانطاكي في أيام دمنس، وكان في جملة قضاته في دعوى اثناسيوس أسقف البارة كما مرّ. ومنهم أيضاً اركلينس إذ نرى في أعمال المجمع الخلكيدوني اللاتينية توقيع فوتيوس أسقف صور نيابةً عن بطرس أسقف جبيل واركليتس أسقف عرقا. على أننا نرى توقيعه بنفسه على رسالة مجمع أساقفة فينيقية سنة ٤٥٨م إلى الملك لاون في شأن مقتل بروتوريوس بطريرك اسكندرية.

ومن أساقفة ارتوسيا (وهي بلدة كانت عند مصب نهر البارد على ما روى رنان في بعثة فينيقية) نعلم فوسفورس، شهد المجمع الانطاكي الذي حكم فيه اثناسيوس أسقف البارة، ثم كان في المجمع الخلكيدوني ووقّع على مراسيمه إلّا المجلس السادس عشر، فقد وقّع عليه فوتيوس مطران صور نائباً عنه. ومنهم في هذا القرن نونس الذي نرى توقيعه على رسالة أساقفة فينيقية إلى لاون الملك في شأن مقتل القديس بروتوريوس الاسكندري. ومنهم أيضاً نيلس، رقاه إلى الاسقفية لاونتيوس أسقف اطرابلس، وكان متتلمذاً في دير القديس اوتيميوس في فلسطين كما يظهر من ترجمة هذا القديس.

ومن أساقفة جزيرة أرواد وانترواد وهي طرطوس موسى، ورد اسمه في أعمال المجمع الأفسسي في جملة الأساقفة الذين وقّعوا على الحكم الذي قضى به مجمع

الشرقيين على القديس كيرلس بطريرك اسكندرية، وممنون أسقف أفسس، ثم على رسالتهم المجمعية إلى الكنيسة الانطاكية. وبعد أن أصطلح الأساقفة الشرقيون والقديس كيرلس ارعوى موسى عن المدافعة في دعوى نسطور، وأنفذ إليه القديس كيرلس الرسالة المثبة في فصل ٢١١ من الردّ على مأساة ايريناوس الصوري. ونعرف من هؤلاء الأساقفة أيضاً بولس، ونرى توقيعه على أعمال المجمع الانطاكي في أيام دمنس مسمياً نفسه أسقف انترواد، (طرطوس). ونرى في المجمع الخلكيدوني توقيع بولس أسقف ارواد واسكندر أسقف انترواد فظهر أنه كان حينئذٍ لكل من المدينتين أسقف. ونعرف منهم أيضاً اتيكس وترى توقيعه في رسالة أساقفة فينيقية إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس.

عد ٦٢٣

من نعرفهم من أساقفة جبلة واللاذقية والسويدية وحلب في القرن الخامس

نعرف من أساقفة جبلة ماراس وقد أنبأنا خبره قزما الكاهن الذي كتب ترجمة القديس سمعان العمودي. وقال السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٤٠) إنّ نسخة من هذه الترجمة محفوظة في المكتبة الواتيكانية بين الكتب المخطوطة. فقال قزما فيها أنه كان لسمعان اخوة كثيرون وأحدهم المسمى شمشي أراد الاقتداء بأخيه فرقاه إلى الدرجات الصغار ماراس أسقف جبلة، وعكف على السيرة الرهبانية. وعليه فماراس خلف سفريانس الذي مرّ ذكره بين أساقفة جبلة في القرن الرابع. ونعرف أيضاً بطرس أسقف جبلة ونرى توقيعه بين تواقيع أساقفة سورية على المجمع الخلكيدوني. ونعرف أيضاً فالابيانس ونرى توقيعه على الرسالة المجمعية التي أنفذها أساقفة سورية إلى الملك لاون في شأن المجمع الخلكيدوني ومقتل بروتوريوس.

ومن أساقفة اللاذقية عرفنا مكاريوس ويظهر من أعمال المجمع الأفسسي أنه كان موافقاً ليوحناالبطريرك الانطاكي وغيره من أساقفة المشرق في مقاومة القديس كيرلس الاسكندري والمجمع الذي حرمه مع رفقائه. وقد شهد سنة ٤٣٢م المجمع الذي عُقد في انطاكية لتوطيد السلم بين الكنائس. وكان من جملة الأساقفة الذين

أرسلهم المجمع الانطاكي سنة ٤٤٠م على الأظهر إلى القسطنطينية في دعوى توادورس أسقف المصيصة وقد شهد المجمع الخلكيدوني ووقّع على أعماله ولا سيما المجلس السادس. ويظهر أنه رقي إلى الأسقفية سنة ٤٢٩م لأنّ اسمه ذُكر في آخر اسماء الأساقفة الذين وقّعوا على الرسالة المنفذة إلى نسطور من المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م. وقد عرفنا من هؤلاء الأساقفة مكسيمس إيضاً، ونرى توقيعه بين اسماء الأساقفة على رسالة أساقفة سورية المذكورة مراراً إلى الملك لاون. ومنهم أيضاً بيسيان، وكان اراتيكياً مخالفاً للمجمع الخلكيدوني وموافقاً لاخسنيا أسقف منبج. ذكره افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣١).

ومن أساقفة السويدية عرفنا دوسيتاوس الثاني ذكره سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ٣٦) قائلاً إنّ اسكندر بطريرك انطاكية نقله من كرسي السويدية إلى كرسي ترسيس في كيليكيا. ومنهم جيرنتس شهد المجمع الأفسسي اللصّي ووقّع على أعماله على أنه أقلع عن ضلاله في المجمع الخلكيدوني ووقّع على مراسيمه ولا سيما المجلس السادس ثم على رسالة أساقفة سورية إلى الملك لاون.

ومن أساقفة حلب عرفنا أنّ تواكليستس خلف سنة ٤٣٨م اكاشيوس الذي مرّ بنا ذكره في تاريخ القرن الرابع، وكتب إليه توادوريطوس رسالتيه الـ٣٥ والـ١٣٥. وشهد المجمع الخلكيدوني ووقّع على كل مراسيمه. وقد عرفنا منهم انطونينوس أيضاً. وروى ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه أنه كان من جملة الأساقفة الذين نبذوا مراسيم المجمع الخكيدوني فنفاهم الملك يوستينس سنة ٥١٨م (طالع المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٣٢٧)

عد ٦٢٤

من نعرفهم من أساقفة دمشق وحمص وما يليهما في القرن الخامس

نعرف من أساقفة دمشق في هذا القرن يوحنا الأول شهد المجمع الأفسسي مع يوحنا بطريرك انطاكية، وكان على شاكلته لأنه وقّع على كل ما كتبه مخالفو القديس كيرلس وأساقفة المجمع المستقيمي الرأي. وكان في جملة الوفد الذي أرسله المخالفون إلى قسطنطينية للاحتجاج أمام الملك على أعمال المجمع.

وعرفنا أيضاً توادورس خلف يوحنا المذكور، وذكر يوحنا البطريرك الانطاكي ترقيته إلى الأسقفية في رسالته إلى بروكلس البطريرك القسطنطيني. وقد شهد المجمع الانطاكي سنة ٤٣٥م في أيام دمنس بطريرك انطاكية حيث حُكم على اثناسيوس أسقف البارة وعُزل عن كرسيه. ثم حضر توادورس إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م ووقّع على مراسيمه ولا سيما المجلس السادس. وخلفه يوحنا الثاني، وقد كتب الملك لاون عند سماعه بمقتل بروتوريوس بطريرك اسكندرية يسأله كما سأل غيره من الأساقفة ما يرون في هذه الجناية الشنعاء وفي شأن المجمع الخلكيدوني. وقد وقّع على رسالة الجواب إلى الملك ويظهر منها صحة عقيدته.

ومن أساقفة حمص في هذا القرن بولس الثاني، وكان متابعاً يوحنا الانطاكي وغيره من الأساقفة الشرقيين في مقاومة القديس كيرلس الأورشليمي. ثم أرسله يوحنا الانطاكي ومجمعه إلى الاسكندرية سنة ٤٣٢م، وأراد أن يكون وسيط الصلح والسلم في الكنائس. وخطب في كنيسة اسكندرية فأكثر الشعب من التصفيق له عند كلامه في الايمان واتحاد الكنائس. وقام بعده على كنيسة حمص بماوس وشهد سنة ٤٣٥م المجمع الانطاكي في أيام دمنس. وجاء ذكره في أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ٤)، وكتب إليه توداوريطوس رسالته الـ٣٦، وخلفه اورانيوس. ولم يشهد المجمع الخلكيدوني بل أرسل برفيريوس الشماس نائباً عنه. وكتب إليه توادوريطوس رسالته ال ١٢٢ وال ١٢٣ عند عزله عن كرسيه في قورش بحكم مجمع أفسس اللصّي، وأمر الملك توادوسيوس ووقع اورانيوس بعد ذلك على رسالة الأساقفة الشرقيين إلى لاون الملك.

ومن أساقفة بعلبك في هذا القرن يوسف، شهد مجمع انطاكية في أيام دمنس للحكم في دعوى اثناسيوس أسقف البارة وقام بعده بطرس، ويُرى توقيعه في الرسالة التي رفعها مجمع أساقفة فينيقية الثانية إلى لاون الملك.

ومن أسافقة الابلية (وهي المعروفة الآن بسوق وادي بردا) جردان وقد شهد مجمع انطاكية الذي حكم على اثناسيوس أسقف البارة. وأعمال هذا المجمع مثبتة في المجلس الرابع عشر من المجمع الخلكيدوني، وترى في أعمال هذا المجمع توقيع بترينس خوريه الأسقفي نائباً عنه. وقام بعده يوحنا، ترى توقيعه في رسالة أساقفة فينيقية الثانية إلى لاون الملك في شأن مقتل برتوريوس بطريرك اسكندرية.

ومن أساقفة يبرود عرفنا اوسابيوس إذ نرى توادورس متريبوليت دمشق وقّع على أعمال المجلس السادس من المجمع الخلكيدوني نائباً عن الأساقفة الغائبين الخاضعين لولايته، وفي جملتهم اوسابيوس أسقف يبرود.

ومن أساقفة تدمر عرفنا يوحنا الأول إذ وقّع توادورس أسقف دمشق بالنيابة عنه على أعمال المجلس السادس في المجمع الخلكيدوني. ثم وقّع بنفسه على رسالة مجمعه الاقليمي إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس. ونعلم من أساقفة بانياس اولمبيوس أنه شهد المجمع الخلكيدوني ووقّع على مراسيمه.

وكان في هذا القرن اندراوس أسقف سميساط وقد أمره يوحنا بطريرك انطاكية أن يدافع عن نسطور مخالفاً القديس كيرلس الاسكندري، فوضع كتاباً في ذلك نحو سنة ٤٢٩م وذكر كيرلس هذا الكتاب ونشر لوبوس له ثماني رسائل بين رسائل المجمع الأفسسي. وذكره الصوباوي في قصيدته في المؤلفين (فصل ١٣٥) وقال أنه كتب بعض تفسيرات للأسفار المقدّسة وكتاباً في المعارضة. ولعلّ المراد كتابه الذي عارض نسخ حروم القديس كيرلس (طالع مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٢).

ونضرب عن ذكر أساقفة فلسطين وعبر الأردن فراراً من ملل القارئ ولقلّة ما يترتب على ذلك من الفائدة مكتفين بمن ذكرنا من بطاركة انطاكية وأورشليم ومشاهير الأساقفة.

الفصل الثالث

غير هؤلاء البطاركة والأساقفة من المشاهير في سورية في القرن الخامس

نضمّن هذا الفصل الكلام في من اشتهروا في سورية بالقداسة أو العلم أو تأليف الكتب كاثوليكيين كانوا أم غير كاثوليكيين

عد ٦٢٥

القديس سمعان العمودي

قد كتب توادوريطوس ترجمة القديس سمعان العمودي (في فصل ٢٦ من كتابه في النساك) وكتبها أيضاً انطونيوس أحد تلامذته بإيجاز. على أنّ قزما الكاهن من فنير إحدى قرى سورية المجوفة دوّنها بأكثر تدقيق وتحقيق، إذ كان عشيراً للقديس سمعان. وأثبت السمعاني هذه الترجمة في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (صفحة ٢٣٩) آخذاً عن الكتاب الأول من الكتب التي أتى بها هو من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وقد خطّ هذا الكتاب سنة ٤٧٤م أي بعد وفاة القديس سمعان بخمس عشرة سنة فقط. فإنّ هذا القديس لقي ربه سنة ٤٥٩م والكتاب خُطّ سنة ٤٧٤م كما هو بيّن من الحاشية المعلّقة على خاتمته. وعليه فيظهر أنّ يد قزما خطّته أو نسخ عما خطّته يده بعد حين قريب من اذاعة هذا الكتاب الذي حوى أيضاً رسالة أنفذها قزما المذكور وأهل قريته فنير إلى القديس سمعان يبجّلونه فيها، ويعدون ويقسمون على أنهم يستسيرون بحسب ارشاداته بخوف الله والتقوى ومجانبة كل حيف وضرّ. وإليك ملخص ما كتبه قزما: «وُلد الطوباوي سمعان في قرية سيسان من بلاد قورش، وكان له اخوة كثيرون وأحدهم يسمى شمشي اقتدى

بأخيه ورقاه ماراس أسقف جبلة إلى درجة المرتل، وعكف على السيرة الرهبانية.وقد أدركت الوفاة والديه قبل أن يدخل الرهبانية. ثم ماتت عمّة له وجعلته وارثاً لثروتها، فترك هو العقارات لأخوته، وباع الأثاث والملابس وتصدّق بأثمانها على الفقراء والأديار. وكان من حداثته يرعى غنماً قبل أن يترهّب وقد تعشّق الكمال الرهباني لدن تردداه إلى الكنائس وسماعه المشورات الانجيلية وتفسيرها وحصول رؤية سماوية له. فأتى إلى دير في قرية اسمها تولادا فدفع إلى الرئيس ما كان استصحبه ودخل إلى الدير الذي كان فيه أحد انسبائه، وكان في الدير المذكور مئة وعشرون راهباً. وعكف على التقشفات منها أنه كان يصوم السنة كاملة، ويحتزم بحزم من أوراق النخيل، وأنه احتفر لنفسه حفرة في زاوية من البستان قضى فيها مدة الصّيف في سنتين، ومنها أنه قضى أيام الصوم في قبر فطرده رئيس تولادا من ديره لافراطه في التقشفات المضرّة بصحته، فخرج تائهاً إلى أن هداه الله إلى دير ماريس بن يرعتون في قرية تسمى تل نشين (أي تل النساء)، فأفرد الرئيس لسمعان قلاية يقضي فيها الصوم الأربعيني، وأغلق باس البرديوط بابها عليه، وترك له ستة أرغفة وكوز ماء، وبعد انقضاء الأربعين يوماً فتح باس الباب فوجد الخبزات الست كاملة وكوز الماء لم ينقص شيئاً، ولقي سمعان جاثياً يصلّي فناوله القربان الأقدس.

وبنى له باس وماريوس محبسة في جانب قرية تل النساء، فأقام في قلاية حرجة عشر سنين قبل أن يصعد على عموده. ولما انقضت ثلاثة أسابيع من الصوم رأى من نافذة قلايته التي كان يتناول القربان المقدّس منها رجلاً مجللاً بنور ساطع جاثياً على صخر يصلّي تارةً باسطاً ذراعيه وطوراً ضاماً إياها إلى صدره، ثم وقف على الصخرة ثم عاد يصلّي، واستمر ثلاثة أيام يترنم بالتسبيح لله، تارةً جاثياً وتارةً منتصباً، فعلم سمعان أنّ ذاك الرجل ليس إلّا ملاك يعلّمه أن يقيم على صخر متعبداً لله. ولما أكمل صومه وفتح باب قلايته سأل أن يسوّى ذاك الصخر ليقيم عليه، واستمر متهجداً عليه ثلاثة أشهر. ثم سأل فأقيمت له أعمدة قصيرة ثم رفيعة إلى أن كان العمود الأخير أربعين ذراعاً. وأنبأنا قزما أنّ مجمل حياته في السيرة النسكية كان ستاً وخمسين سنة، كان منها في الدير تسع سنين متقشفاً متهجداً. وفي محبسة تل النساء وعلى الأعمدة سبعاً وأربعين سنة منها في المحبسة عشر سنين، وعلى الأعمدة القصيرة سبع سنين، وعلى العمود الأخير ثلاثين سنة. ومن أعلاه لقي ربه في الثاني من ايلول يوم الاربعاء في الساعة التاسعة سنة ٤٥٩م، وقد

ناهز السبعين من عمره لأنه وُلد نحو سنة ٣٩٠م. وقد ذكر قزما من الآيات التي صنعها الله على يده أربعاً وثلاثين آية. واقتصر السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٤٦) على أربع منها. ونقتصر نحن على ذكر آيتين منها: الأولى أن بعض أهالي لبنان أتوا إلى القديس سمعان يسألونه أن يقيهم بعض الضواري قائلين قلما خلت قرية من قراهم لا تفترس هذه الضواري منها كل يوم شخصين أو ثلاثة، وكان أهل تلك القرى وثنيين (ربما صدق ذلك على القرى الآتي ذكرها في أعالي لبنان) فأجابهم القديس أنّ العلاج الفعال لنجاتهم أن يغادروا الوثنية، وينالوا سر المعمودية، ويدينوا بالدين المسيحي، ويقيموا في جهات كل قرية من قراهم أربعة صلبان، فوعدوه بأن يتموا ما أمر به، ولما انجزوا وعدهم انقطعت عنهم رؤية هذه الضواري. قال السمعاني عند ايراده هذا الخبر أنّ الموارنة سكان تلك الجهة قد أخذوا خبر هذه الآية الباهرة عن قدمائهم، بل يدلون على الحجارة التي اقاموها وعليها صورة الصلبان. وقال عن نفسه قد رأيت أحدهذه الحجارة المرسومة عليها صوَر الصلبان في حصرون. والثاني في أرض بشري (لعله عند الينبوع المسمى ينبوع ماري سمعان) والثالث فوق اهدن والرابع في قيطو (أيطو).

والآية الثانية رواها قزما نقلاً عن انطيوكس سابينس والي دمشق. قال انطيوكس إنّ النعمان أمير العرب أتى يوماً إلى برية دمشق ودعاني إلى وليمة، ودار الحديث بين المدعوين على القديس سمعان. فقال لي النعمان أحب أن أعلم إلهاً تظنون سمعان هذا أم بشراً ؟ فأجبته: كلاّ بل هو خادم الله. فقال إليك ما دعاني إلى هذا السؤال. لما ذاع سيط سمعان في العربية أخذ الناس يتقاطرون إليه، وخشيت أن ينتصر العرب، فأصدرت أمراً نهيت فيه عن المضي إلى سمعان متهدداً من يخالف بقطع الرأس، وبينما كنت راقداً في الليلة التالية، ظهر لي رجل بهيئة بديعة ومن ورائه خمسة رجال ظننتهم جنوداً، فارتعدت من هذا المنظر وسقطت على رجليه، فقال لي مغضباً أتجسر أن تنهي شعب الله أن يأتي إليّ؟ وأوعز إلى جنوده فأوثقني أربعة منهم بيديّ ورجليّ وطفق الخامس يجلدني، ولم يكن من يشفع بي أو ينجيني من هذه الهلكة. ولما لم يبقَ لي إلاّ رمق أمر أن يحلّوني من وثاقي وهددني قائلاً حذار أن تمنع الناس من الذهاب إلى سمعان. وقد حكمتني التجربة. ففي الغد جمعت وجهاء الشعب وأذعت أمراً أن لا يعترض أحدٌ من يريدون الذهاب إلى سمعان أو من يريدون أن يتنصّروا. ولولا خضوعي لملك الفرس

لمضيت أنا أليه وتنصّرت. ومن بعد أمري هذا قد توافر عدد الكنائس في ولايتي يتردد إليها كثير من الاساقفة والكهنة دون معارض. قال السمعاني في الحاشية أنّ ترداد جم غفير من العرب إلى القديس سمعان، وتنصّر كثيرين منهم على يده ذكره تواودوريطوس أيضاً في ترجمة القديس سمعان. وأما النعمان أمير العرب فليس هو النعمان ابن المنذر الذي تنصّر في أيام موريق الملك كما روى افاغريوس (ك ٦ فصل ٢٢)، بل يظهر أنه النعمان الذي قتله قواد ملك الفرس سنة ٥٠٣م كما يظهر من تاريخ يشوع العمودي (المثبت في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦٦ وما يليها).

وبعد وفاة القديس سمعان خُاف تلاميذه أن ينزلوا جثته من على العمود فيختطفها الجمّ الغفير المحدق بها، فأبقوها إلى أن يعيّن الاسقف محل دفنه. ولما انتشر خبر موته تسارع إلى عموده الاساقفة والكهنة والرهبان وشعب يشذّ عن العدد من جميع القرى والمدن القريبة إليه، وأتى قائد الجيش الشرفي وكثير من الأشراف والحكام، فحمل الاساقفة والكهنة جثته إلى قرية شيح البعيدة عن العمود أربعة أميال، فوضعوها هناك في مركبة وساروا أمامها بالشموع والبخور مترنمين بالمزمورات والتسابيح والطرق غاصّة بالملاقين والمشيّعين إلى أن بلغوا بها إلى كنيسة انطاكية التي أنشأها الملك قسطنطين فدفنوها. وكان البطريرك والكهنة يجتمعون كل يوم على ضريحه مرتلين الزبور وموقدين الشموع، ولم يكن مثل ذلك لأحد ممن تقدموا سمعان في القديسين. ولم يُدفن في الكنيسة الملكية أحد قبله. وأجرى الله آيات كثيرة عند مرور جثته إلى انطاكية.

وما نعرفه مما كتب القديس سمعان أربع رسائل كتبها بالسريانية، الأولى إلى الملك تواودوسيوس الصغير يؤنبه بها على أنّ الشبياد الوالي يحاول أن يرد على اليهود المجامع التي أُخذت منهم. ذكر هذه الرسالة افاغريوس (ك ١ فصل ١٣) ونيكوفورس (ك ١٤ فصل ٥١) وأثبتها قزما في ترجمته. وإليك فقرة منها: «قد ترفع الآن قلبك ونسيت الرب إلهك الذي منّ عليك بتاج الوقار ومنصّة الملك، فصرت صديقاً وشريكاً لليهود ومحامياً لهم، فسينفذ بك دون مهلة قضاء عدل الله ويدرك كل من مالأك على ذلك. فترفع يدك إلى السماء وتقول عند ضيقتك لا غرو إن حلّ بي هذا المصاب لأني كذبت على الرب إلهي». وقد كتب القديس

سمعان رسالتين إلى المجمع الخلكيدوني أثبت افاغريوس (ك ٢ فصل ١٠) نسخة منها. وذكرهما نيكوفورس (ك ١٥ فصل ١٩)، وروى في هذا الكتاب (فصل ١٣) رسالة أنفذها إلى الملكة اودكسيا، وذكر فقراً منها وتعزى إليه (في مكتبة الآباء مجلد ٧) خطبة في خروج النفس من الجسد.

قد زار العالِم دي فكواي الجبل المعروف اليوم بجبل سمعان، وتعهد آثار الدير والقلعة المنسوبة إلى هذا القديس. وأتحفنا (في كتابه في ابنية سورية الوسطى صفحة ١٤١) بفوائد نلخّص منها ما يأتي إنّ هذا القديس أتى سنة ٤١٢م إلى دير تل النساء المعروف الآن بدير سمعان، وتوافر عدد المساكن في حياته وبعد وفاته حول العمود الذي نسك عليه، وإنه وجد هناك أطلالاً عديدة مثبتة رأيه. وأنه بعد عهد قريب بُنيت كنيسة على العمود، وأخذ الناس يحجون إليها تبركاً، وأقام رهبان كثيرون في ظل تلك الكنيسة، وأطلال مساكنهم باقية إلى الآن، وإنّ التاريخ لم يعيّن الوقت الذي أُنشئت الكنيسة فيه، على أنّ افاغريوس زار هذا المعبد سنة ٥٦٠م ووصف هيئة بنائه، وأطلال الكنيسة الباقية إلى الآن والتي صوّر دي فكواي مثالها توافق ما وصفها به افاغريوس، فلزم أن يكون بناء هذه الكنيسة على أثر وفاة هذا القديس سنة ٤٥٩م. ومما وجده هناك دي فكواي ورسم مثاله العمود الذي نسك عليه هذا القديس مزيداً عليه شيئاً في أوقات مختلفة.

عد ٦٢٦
القديس اسحق الكبير

كان اسحق هذا كاهناً في انطاكية في أيام الملكين توادوسيوس الصغير ومرقيان، أي في منتصف القرن الخامس. وقد تتلمذ لزينوبيوس تلميذ القديس افرام كما يظهر من الحاشية التي علقها يوحنا ابن شوشان بطريرك اليعاقبة على ذيل الكتاب الرابع من الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية، وأثبته القسّ ابراهيم الماروني، وذكره السمعاني، وهو بين مما كتبه القديس اسحق في ردّ مزاعم النساطرة والاوطاخيين، وخاصة من قصيدته في خراب انطاكية الذي كان سنة ٤٥٩م. وكل ما مرّ يثبت أنّ اسحق لم يكن تلميذاً للقديس افرام الذي لقي ربه سنة ٣٧٣ أو سنة ٣٧٨م، بل لزينوبيوس تلميذ افرام خلافاً لابي

البركات ابن كبار (في فصل٧ في المؤلفين البيعيين) ولأبي الفرج ابن العبري في تاريخ الدول، وابن الراهب في التاريخ الشرقي الذي ترجمه ابراهيم الحاقلي الماروني إلى اللاتينية، ولجيورجيوس بن عميد. ولم يفرّق مرهج بن نيرون الباني الماروني (في كتابه افوبليا أي سلاح الايمان صفحة ٤٧) بين القديس اسحق هذا الذي كان بعيد المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م، واسحق أسقف الرها الذي كان في القرن السادس (روى كل ذلك السمعاني في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٧). وقال ابن العميد أنّ منشأ القديس اسحق الرها، وقال ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون أنه كان من آمد، ولا خلاف في أنه كان كاهناً في انطاكية. وقال مؤلف تاريخ الرها أنه كان رئيس دير لم يعيّن محله، ولكن يظهر أنه كان في جهات انطاكية إذ سماه أكثر المؤرخين كاهناً انطاكياً. وترى في الكتاب الحادي عشر في الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية رسالة من القديس يعقوب السروجي إلى صمويل رئيس دير القديس اسحق في جبلة. وصحح السمعاني في المحل المذكور أنّ المراد بجبلة هذه مدينة فينيقية في جنوبي اللاذقية لا جبلة التي هي قرية في ما بين النهرين، وجبال جبلة تتصل بانطاكية. وقد مضى القديس اسحق إلى لقاء ربه سنة ٤٦٠م لأنّ خراب انطاكية بالزلزال كان سنة ٥٠٧م للتاريخ الانطاكي. وهذا التاريخ يبتدي بحسب قول المحققين قبل التاريخ المسيحي بثماني وأربعين سنة. فيكون حصول هذا الزلزال سنة ٤٥٩م. وقد عاش اسحق بعده إذ نرى له قصيدة في هذا المصاب. وقد سماه علماء السريان العلامة والكبير تمييزاً له عمن تسموا باسمه، ولأنه فضلهم بكثرة تآليفه. وقد كتب جميعها باللغة السرياينية الفصيحة البحتة. ولا مراء في أنه كان كاثوليكياً صحيح العقيدة. وقد أثبت القديس يوحنا مارون (في كتاب رده على النساطرة والاوطاخيين) بأربع شهادات من كتبه أنّ في المسيح أقنوماً واحداً وطبيعتين مأخوذة عن خطبة في الايمان الصحيح وفي قانون الايمان، وفي مركبة حزقيال وفي التجسد. ولا يحفل بكون اليعاقبة يجلّونه أيضاً كابن العبري وابن الراهب وابن العميد لأنهم يكرمون القديس سمعان العمودي مع مقاومته ضلالهم برسائله إلى المجمع الخلكيدوني. ومن عادة الهراطقة الشرقيين ولا سيما النساطرة واليعاقبة أن يحبوا ويكرموا من اشتهروا بالفضل والعلم، وأن يكونوا من المشايعين لهم. ويعيّد لذكر القديس اسحق جميع السريان، فيعيّد له في طائفتنا في ٢٠ تشرين الثاني.

وعيده عند اليعاقبة في ١٤ تشرين الأول، وعند النساطرة في يوم الجمعة من السبة الخامسة بعد الدنح، وهو عيد عام لجميع ملافنة السريان.قال جناديوس مكمل كتاب القديس ايرونيموس في المشاهير (فصل ٦٦) في مؤلفات القديس اسحق: «إنّ اسحق كاهن كنيسة انطاكية كتب باللغة السريانية كتباً كثيرة في مدة زمان طويل وأخصها ما فنّد به مزاعم النساطرة والاوطاخيين. وقد رثا خراب انطاكية بقصيدة طويلة بوزن القصيدة التي رثا بها افرام الشماس خراب نيقومدية». وقد انتحل مرشلينس في تاريخ سنة ٤٥٩م كلام جناديوس برمّته. قال السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢١٤) أما كتب اسحق الجدلية فقلّ ما بقي لنا منها لاغفال النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة نسخها لتفنيدها ضلالهم. وأما كتبه الروحية والأدبية فكثر تداول الايدي لها. ثم ذكر ما وجده منها في الكتب القديمة في المكتبة الواتيكانية، فكان عددها مئة وأربع قصائد أو خطب، منها ستون خطبة أو قصيدة أخذها عن الكتاب الرابع من الكتب السريانية التي أتى بها من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية، وقد ذكر فواتحها في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (من صفحة ٢١٤ إلى صفحة ٢٢٩). وهذه الكتب خطت سنة ١٥٢١ يونانية (توافق ١٢١٠ مسيحية)، والباقي عن الكتاب الخامس من هذه الكتب. وإليك مثالاً لكلامه مأخوذاً عن خطبته التاسعة في الايمان: «رأيت قصعة على مائدته فإذا هي ملأى من الدم بدلاً من الخمر، وفي وسطها جثة موضع الخبز، أبصرت الدم فارتعت وغشيني الاضطراب، وأوعز إليّ الايمان أن كلْ واصمت واشرب ولا تفحص» إلى أن قال: «أراني (الايمان) جسداً قتيلاً وادخل جزءاً منه في شفتي وناجاني متلطفاً أن أبصِر ما تأكل، ودفع إليّ قلم الروح وأمرني أن أكتب، فأخذته وكتبت معترفاً أنّ هذا هو جسد الله. وكذلك تناولت الكأس فشربت من مأدبته وفاح بي رائحة الجسد الذي تناولت منه وما قيل في الجسد أنه جسد الله قلته في الكأس أنها دم مخلصنا».

عد ٦٢٧

القديس اوتيميوس وبعض تلامذته النساك

وُلد القديس اوتيميوس لوالدين حسيبين في ملاطية بأرمينيا نحو سنة ٣٧٥م، ونبغ في الفضيلة والعلم حتى عُدّ أهلاً للارتقاء إلى درجة الكهنوت ولتدبير أديار

الرهبان والنساك التي كانت في ملاطية، على أنه آثر العزلة والانفراد على الانهماك بهذه المهام، فانساب خفية ميمماً أورشليم. وبعد أن روى غليله بزيارة الأماكن المقدّسة، مضى يتعهد النساك في برية اليهودية، فزادته سيرتهم شوقاً إلى الانفراد، ووجد صومعة فاحتبس فيها يطوي الاسبوع كله لا يذوق طعاماً إلَّا يوم الأحد. ويقضي ليله متهجداً لا يعلم طعم الوسن. وتعرّف إلى راهب يسمى تيوكتيست فكانا يخرجان إلى البرية بعد عيد الدنح فيتفرغان للصلوة والتأملات الروحية مقتاتين بالنبات، ولا يعودان إلى مأواهما إلَّا في أحد الشعانين. وبعد أن استمرا على ذلك خمس سنين اعتزلا في مغارة بعيدة أربع فراسخ عن أورشليم إلى جهة أريحا. وقد انكشف أمرهما وضاع عرف فضلهما فأمهما راهبان من برية فاران اسم أحدهما مارين واسم الآخر لوقا، فتتلمذا لهما، وتوافر عداد المنضوين إليهم. وكان منهم توادوسيوس الذي صار رئيساً على النساك، وأنشأ أدياراً كثيرة في فلسطين منها دير في بيت لحم.

أما اتيميوس فتخلّى لرفيقه تيوكتيست عن العناية بقبول الطلبة وإرشادهم وتدبير الدير آثراً الاختلاء والصمت، مجتزياً بإرشاد من أتى إليه من اخوته كاشفاً ضميره سائلاً أن يعالجه بما يرى. ولم يكن يسمح للحدثاء في الرهبانية بالافراط من الصوم والتقشف أكثر مما استطرقه القدماء لتكون فضيلتهم مستترة كما علّم الإنجيل. وأخذ الناس يتقاطرون من كل فجّ لزيارة هذا الناسك والاستشفاء من أمراضهم، بل كثر ترداد العرب والوثنيين إليه لمثل ذلك فصنع الله على يده معجزات شتى. لكنه كان هائماً بالانفراد، ففرّ إلى البرية المسماة الآن برية الأربعين للتقليد بأنّ المخلّص اعتزل صائماً فيها أربعين يوماً. ومضى يزور في عين جدي المغارة التي اختبأ فيها داود من وجه شاوول. وصنع الله هناك على يده آية ابراء ممسوس، فأمسكه أهل تلك القرى وبنوا له ديراً، ففرّ من هناك مع تلميذه دومطيان نحو ديره، ووجد على مقربة منه محلاً صالحاً للخلوة فاختلى به. وعرف به تيوكتيست فألحّ عليه أن يعود إلى الدير فأبى إلَّا أن يزور اخوته كل أحد عند اجتماعهم. وكان من رهبانه دمنس ابن أخت يوحنا بطريرك انطاكية. ولما علم أنّ خاله مشايع لنسطور استأذن اوتيميوس أن يمضي إليه فيرده عن غيّه فمانعه عن سفره قائلاً له لا خير لك في هذا السفر، فلم يتّعظ ومضى فمات خاله وخلفه، لكنه حطّ عن بطريركيته بعد بضع سنين. فعاد إلى اوتيميوس نادباً سوء منقلبه وقضى عمره في الدير. وكان اوتيميوس متّقداً بنار

الغيرة على الايمان الصحيح يناضل ويناصب هراطقة أيامه، حتى أنّ بعض الاساقفة لم يوقعوا على أعمال المجمع الخلكيدوني إلّا بعد استشارته. على أنّ راهباً اسمه ديونيسيوس أغواه ابليس فلم ينقد لرسم هذا المجمع، واستمال الملكة اودكسية إليه، وغصب بطريركية أورشليم فأمست كنائس فلسطين في أسوا حال. ولم يبقَ إلّا القديس اوتيميوس ورهبانه يدافعون عن الايمان، ويأبون الاشتراك مع هذا البطريرك الدخيل. ولدى احتضاره سأل رهبانه من يحبون أن يرأسهم بعد وفاته قالوا دومطيان. قال لا يعيش بعدي إلّا سبعة أيام وكذلك كان. فاختاروا مكانه ايليا، وكان منشأه من أريحا. ومضى اوتيميوس ينال إكليل جهاده سنة ٤٧٣م في ٢٠ كانون الثاني وعمره سبع وتسعون سنة. وكان من تلامذته مرتيريوس وايليا وقد ارتقيا إلى بطريركية أورشليم كما مرّ. وهما اللذان أويا جثته التراب في مغارة نسكه. ثم نُقلت في السنة التالية في ٧ أيار إلى كنيسة جميلة بناها بطريرك أورشليم على اسمه. وأخذ المؤمنون يعيّدون له كانطونيوس وايلاريون، ودومطيان تلميذه لحقه إلى جنّة الأبرار بعد سبعة أيام كما أنبأه. وكان من تلاميذه القديس سابا الآتي ذكره. وكنيستنا المارونية تعيّد لذكره في ٢٠ من كانون الثاني. وقد كتب ترجمة اوتيميوس كيرلس أسقف باسان أحد تلاميذه وعنه أُخذ كل ما طالعنا أخباره في كتبهم من المؤرخين.

عد ٦٢٨

القديس سابا

قد كتب كيرلس أسقف باسان المار ذكره ترجمة القديس سابا هذا وكان معاصراً له، فقال إنه وُلد في قرية مصاقبة لقيصرية الكبادوك سنة ٤٣٩م، ودخل منذ حداثته ديراً قريباً من بلده، ثم استأذن رئيسه بأن يحجّ الأماكن المقدّسة في فلسطين، فأتى أورشليم وصرف فصل الشتاء في دير القديس بساريون ثم مضى إلى القديس اوتيميوس فتتلمذ له منضوياً إلى رهبانه. ولما لقي اوتيميوس ربه اعتزل سابا في مغارةٍ ناسكاً إلى أن انضمّ إليه كثير من التلامذة، فابتنى لهم الدير المعروف باسمه إلى اليوم في الجنوب الشرقي من أورشليم عند الطريق المؤدية منها إلى البحر الميت قريباً من الوادي المسمى وادي التار، ويسمى وادي الراهب. وقام سابا يدبر هؤلاء الرهبان بل جميع النساك في مغاور تلك الناحية وكانوا كثيرين.

وعلى هيامه بالصمت والخلوة اضطرّ أن يغادر عزلته مرات ويمضي إلى المدن للمدافعة عن الايمان الصحيح وتقوية الكاثوليكيين. فخرج إلى أورشليم سنة ٥١٣م مناصباً جنود الملك انسطاس الذي كان يؤيد الهراطقة القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، وأن يحرم جهرة من يثون هذه البدعة خلافاً لما رسمه المجمع الخلكيدوني. وفي سنة ٥٣٠م ثار السامريون في نابلس في أيام الملك يوستنيانس على المسيحيين فقتلوا كثيرين منهم وأحرقوا كنائسهم، فأرسل الملك إليهم جحفلاً يردع سطوهم ويجزيهم على ما جنت أيديهم، فأثخن الجنود فيهم، ومضى ارسانيوس أحد مناصريهم إلى القسطنطينية يستعطف الملك يستنيانس إلى الشفقة عليهم. ومما قاله أنّ النصارى كانوا علّة لهذه الشؤون. فسأل المسيحيون القديس سابا أن يذهب إلى الملك ليدافع عنهم، فهبّ للحال إلى القسطنطينية على هرمه وعمره وقتئذٍ نيف وتسعون سنة، فتهيّبه الملك وأجلّه وأولاه كل ما سأل لمصلحة النصارى، إلّا أنه برح دار الشقا إلى عالم البقاء بعيد عوده من هذا السفر فاكتست كنائس فلسطين مطارف الحداد وعمّت الكآبة رهبان ديره. وأجرى الله على يده آيات عديدة، وكنيستنا المارونية تعيّد لذكره في ٥ من كانون الأول. على أنّ الذي في بعض نسخ كتاب تراجم القديسين أنه توفي في سنة ٤٢٤م وهو خطأ أظنه زلّة من قلم الناسخ. والصواب أن يقال أنه توفي سنة ٥٣٠ أو سنة ٥٣١م. أما ديره فقد انتهبه جنود كسرى ملك الفرس عند حملته على الأرض المقدّسة ٦١٤م وقتل بعض رهبانه، ثم حلّ به مثل هذا المصاب سنة ٧٩٦م، ثم سنة ٨١٢م بعد وفاة هرون الرشيد الذي كان يحمي حمى النصارى تجلة لصداقته مع كرلس الكبير ملك افرنسة. وعند اتيان النصارى من المغرب إلى الأرض المقدّسة وجدوا فيه أربعين راهباً من رهبانية القديس باسيليوس، ثم دُمّر بعد ذلك مرات، ولكن جُدد بناؤه بعد ولاية سلاطيننا العثمانيين العظام. وأوى إليه كثير من الرهبان، وأصلح نقتاريوس بطريرك الروم أسواره سنة ١٦٦٤م إلى سنة ١٦٦٨م، لكنها لم تصدّ العرب سنة ١٨٣٤ عن مهاجمته والسطو على رهبانه. وفي سنة ١٨٤٠م رُمِّمَ بناء هذا الدير وزيد فيه بعناية دولة روسيا. انتهى ملخصاً عن كاران في المجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩٩ و ١٠٠.

عد ٦٢٩
برصوما الارشيمندريت

كان برصوما من سميساط في ناحية الفرات في سورية، وقد ذكره ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه سنة ٤٣٥م، ووجد السمعاني (مجلد ٢ صفحة ١ من مكتبته الشرقية) ترجمته في الكتاب السادس عشر من الكتب السريانية التي أتى بها من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وأورد فقرات من ترجمته في كتاب تراجم القديسين عند القبط. والمستحصل من ذلك أنه فرّ من عند والديه ونسك في مغارة عند نهر الفرات، وانضوى إليه كثيرون وأخذوا عنه السيرة الرهبانية. وقد عظّم المؤرخون الاوطاخيون قدره وعزوا إليه آيات ومعجزات كثيرة، ومما قالوا فيه أنه أقام في محل صنعه لنفسه أربعة وخمسين عاماً لم يجلس فيها، وإذا نام نام منتصباً، وأنه كان يصوم أسبوعاً أسبوعاً، ولذلك دعوه برصوما وتأويله في لغتهم السريانية ابن الصوم لأنه ربي صائماً. وقالوا أنه زار القديس سمعان العمودي وتبارك أحدهما بالآخر، على أنّ رياء برصوما بصنعه مثل هذه العبادات والتقشفات كان شديد الضرّ بالكنيسة السريانية، وممهداً لبثه ضلال اوطاخي. فإنّ أهل المشرق بعد حرم نسطور في المجمع الأفسسي انقسموا إلى فرقتين فدافع بعضهم عما سنّه المجمع الأفسسي وفي مقدمتهم رابولا أسقف الرها، وكيرلس بطريرك اسكندرية، وانتصر بعضهم الآخر لنسطور وفي رأسهم يوحنا بطريريك انطاكية لبغضه للقديس كيرلس المذكور. على أنّ هذا الفريق انقسم بعد ذلك إلى قسمين، فبعضهم أصرّ على المناصرة لنسطور، وبعضهم صالح القديس كيرلس، ومنهم البطريرك يوحنا المذكور. وكان الرهبان على شاكلة أساقفتهم في هذا الانقسام، وكان برصوما وقتئذٍ راهباً خامل الذكر على شاطئ الفرات، على أنه اشتهر في سورية بمقاومته للنسطوريين، لكنه خدشهم والكاثوليكيين معاً بتطرفه في القول بأنّ في المسيح أقنوماً واحداً خلافاً لتعليم نسطور، إلى القول إنّ فيه طبعاً واحداً طبق تعليم اوطاخي. فأغوى برصوما السريان كما أغوى اوطاخي اليونان، وكان الأوطاخيون يعتدون نسطورياً كل من لم يكن اوطاخياً. ويظهر من كلام المجمع الخلكيدوني (في مجلس ١) أنّ برصوما صرّح في مجمع أفسس اللصّي بمتابعته اوطاخي على ضلاله، إذ قال في توقيعه على أعمال هذا المجمع: «إني متابع بمنزلة ابن للآباء ومصادق على شهادة الارشيمندريت

اوطاخي الكلي القداسة والتقوى للايمان الكاثوليكي وموافق له، وأهنئه بردّه إلى درجته الكهنوتية وخدمته المقدّسة» وقد صرّح بذلك ابن العبري (في كتابه الموسوم ܟܬܒܐ ܕܙܠܝܩܐ «أي بكتاب الأشعة») ولا بدع فهو اوطاخي إيضاً.

وقد شهد برصوما مجمع أفسس اللصّي فقد خدع الملك تواودوسيوس بتظاهره بالعبادة والورع، فرخّص له بأن يحضر في هذا المجمع. وقد ورد في المجمع الخلكيدوني ذكر ثلاث رسائل أنفذها هذا الملك إلى مجمع أفسس اللصّي، احداها لبرصوما المذكور، والثانية لديسقورس بطريرك اسكندرية، والثالثة ليوفينال بطريرك أورشليم. وفي رسالته إلى برصوما يأمره أن يكون نائباً عن رؤساء الأديار. والذي يظهر من أعمال المجمع اللصّي التي تُليت في المجمع الخلكيدوني أنّ برصوما لم يتابع اوطاخي على غوايته فقط، بل قد تسبب بقتل القديس افلابيانس بطريرك قسطنطينية، وقد حرم في المجمع الخلكيدوني. ومشايعوه يعظمون اعتبار الملك مرقيان له. ويروون عنه أقاصيص لا تصدّق. وقد أدركته الوفاة سنة ٧٦٩ يونانية (توافق سنة ٤٥٨ مسيحية) على ما يظهر من ترجمته في الكتاب ١٦ من الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. ويعيّد له الأرمن في اليوم الأول من شباط يوم وفاته. واليعاقبة في اليوم الثالث منه يوم دفنه.

وقد عني ديوسقورس بن ضو أسقف اليعاقبة المقيمين في أورشليم بإدخال عبادة برصوما عند الموارنة في لبنان، فإنّ موسى المسمى ابن عطيّه، ونوح البقوفاوي وقسوساً يعاقبة أرسلهم موسى المذكور إلى المقدّم عبدالمنعم والي ناحية بشري الذي كان قد تعلّم عند قسيس من اليعاقبة، فأغووا بعض أهل بشري بضلالهم، فبنى المقدّم في القرية المذكورة معبداً على اسم برصوما لهؤلاء القسوس، كما روى البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٧م. وقد ذكر عبد المنعم نفسه هذا المعبد في ما علّقه على كتاب الإنجيل في السريانية والعربية الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة في روما صفحة ٩ فقال: «لما كان في سنة ١٧٧١م (توافق سنة ١٤٥٩) من سني اسكندر اليوناني ابن فيلبس وقف هذا الإنجيل الطاهر المقدمان عبدالمنعم ابن زين، وبدر بن قمر عن أنفسهما وأنفس والديهما وأولادهما، وعن نفس المقدّم رزق الله وولده يعقوب وقفاه للقديس برصوما الفاضل الطاهر الكائن في قرية بشري. كتبه عبد المنعم ابن زين». وقد كانت وفاة عبدالمنعم هذا سنة ١٤٦٩م على ما قال الدويهي في تاريخه لتلك السنة، وسماه عبد المنعم ابن

سيفا بن يعقوب. وقد كان معبد برصوما بُني في قرية بشري سنة ١٤٥٩م كما يظهر مما رويناه عن عبدالمنعم بخطه المار ذكره، فلم يكن إذاً صحيحاً قول الدويهي في تاريخه على سنة ١٤٨٧م أنّ هذا المعبد بناه عبدالمنعم أيوب الذي روى أنه توفي سنة ١٤٩٥م. ومثل ذلك انخدع ميخائيل الرزي بطريرك الموارنة، إذ ظنّ أنّ المعبد الذي بُني في بشري لم يكن على اسم برصوما الاراتيكي بل على اسم برصوما الشهيد، إذ ذيل كتاب الأناجيل المذكور بحاشية علّقها على الصفحة الثالثة قال فيها [illegible] لما كان تاريخ سنة ١٨٨٢م من سني اسكندر اليوناني (توافق سنة ١٥٧١م) نُهبت قرية بشري، وأُخذ إنجيل كنيسة ماري برصوما وبقي سنة إلى أن اشتراه القس سركيس ابن الخوري هارون من القرية المذكورة بمبلغ أربع مائة (غرش) ووقفه للقديس المذكور. وكل من أخذه يكون ماري برصوما خصمه». على أنّ الصحيح أنّ برصوما بُني له المعبد في بشري، إنما هو برصوما الراهب الاراتيكي لا برصوما الشهيد الرهاوي. وهذا بيّن مما ذكره الدويهي في تاريخه، وجبرائيل القلاعي في رسائله إلى أهل لبنان. ومما رواه من يدافعون عن اليعاقبة ومن يخالفونهم. ومن كتاب فرض الصلوة في عيد برصوما الذي تركه اليعاقبة في جبل لبنان.

وقال اليعاقبة أنّ مقدامهم هذا كتب رسائل عديدة إلى أبناء ملّته تتداولها أيديهم في ما بين النهرين إلى الآن. قال السمعاني وقد أخبرني صديقي العلامة المطران اسحق رئيس أساقفة نينوى السرياني الذي أتى روما لاضطهاد اليعاقبة له لاقلاعه عن بدعتهم واعتناقه المذهب الكاثوليكي، إنه قرأ بعض كتب روحية لبرصوما، لكنه في ريبة هل هي له حقيقية أم لا لأنّ قدماءهم عظّموا قداسته وبالغوا في ذكر معجزاته، لكنهم لم يصفوه بالعلم وتأليف الكتب (ملخص عن المكتبة الشرقية للعلامة السمعاني مجلد ٢ صفحة ١ وما يليها).

الفصل الرابع

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم في غير سورية

نضمّن هذا الفصل ذكر من اشتهروا في القرن الخامس بالعلم والقداسة في غير سورية تعميماً للفائدة، وجرياً على ما اعتدنا في تاريخ القرون السابقة، موجزين ما أمكن لخروج الكلام في هؤلاء عن دائرة غرضنا.

عد ٦٣٠

القديس اغوسطينس

إنّ القديس اغوسطينس أعظم الآباء القديسين اللاتينيين، وُلد في سنة ٣٥٤م في مدينة تاكست في بلاد النوبة. وكان أبوه وثنياً وأمه مسيحية تسمى مونيكا وهي من مصاف القديسات. وبعد أن صرف أيام شبابه لاهياً متهتكاً تلبّك بمذهب ماني المضلّ، وأقام على ذلك تسع سنوات. وعلّم الفصاحة في تاكست مدينته، ثم في قرطاجنة وروما، وأخيراً في مديولان (بايطاليا) حيث استدعته مواعظ القديس امبروسيوس إلى اعتناق الدين المسيحي سنة ٣٨٦م. فاعتمد هناك وعاد إلى تاكست مدينته، فوزّع مقتناه على الفقراء، وعكف على الزهد والصوم والصلاة فرقاه فالريوس أسقف هيبون سنة ٣٩٢م إلى درجة الكهنوت. ثم خلفه في أسقفية هذه المدينة سنة ٣٩٥م فعاش عيشة مشتركة مع اكليروس كنيسته الذي كان يعدّه لدرجة الكهنوت المقدّسة، فوضع بذلك طريقة المدارس الاكليريكية، وناصب هراطقة أيامه بخطبه ومؤلفاته الغرّاء، وأرشد شعبه بمواعظه الخالبة العقول. وكان بمنزلة أب للفقراء، وغني بالمحافظة على التهذيب البيعي عاقداً لذلك مجامع عديدة، إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٣٠م، بينما كان البندالة محاصرين هيبون مدينته الاسقفية.

أما مؤلفاته فأحسنها وأكملها، مؤلفه الموسوم بمدينة الله ينطوي على اثنين وعشرين سفراً، ومقالاته في النعمة والحرية التي أكسبته لقب ملفان النعمة. ومقالات في الله والنفس البشرية ، وكتاب دعواه ارعوى فيه عن أقوال وآراء كان قد كتبها في شبابه، وكتاب في اعترافاته يعدّد فيه سقطاته وغواياته، ويذكر اقلاعه عنها بآيات صنعها الله إليه بصلوات أمه، وله مقالات جدلية يردّ فيها مزاعم أصحاب البدع في أيامه أي المانويين والدوناتيين والبيلاجيين والبريشيليانيين والاريوسيين وتلاميذ اوريجانس. وكتب كتباً في الاسفار المقدّسة وتفسيراً للزبور، وثلاث مئة وثلاثة وستين خطبة روحية موعبة بالنوافذ الخارقة. وله من الرسائل ما يشذّ عن العدّ، وبعضها طويل حتى نسّقها بعضهم بين مقالاته ومدار أكثرها على المباحث الدينية التي كانت في ذلك العصر ولا سيما الاعتراف. وقد عُثر في مكاتب فيرنسا ومون كاسيان بايطاليا على بعض خطب له لم تكن معلومة قبلاً، فأذاعها الأب كاليان مطبوعة سنة ١٨٤٢م. وقد كشف الكردينال ماى عن خطب أخرى فنشرها في كتابه الموسوم بمكتبة الآباء الحديثة سنة ١٨٥٢م وسنة ١٨٥٣م. وقد امتاز القديس اغوسطينس بسعة معارفه وطول باعه في العلوم، مع أنه كان يجهل اللغة العبرانية، ولا يُحسن معرفة اليونانية. وقد حاز قصبات السبق بفصاحته وتورّعه. وانتقده بعضهم بدقة كلامه وغموض بعضه وتلهّب مخيلته وافراطه في المعارضة والمقابلات. ومذهبه في الفلسفة مذهب أفلاطون يرجّحه على كل ما سواه، ويعتمد عليه في مباحث عديدة. وأما في علم اللاهوت، فكان يعتمد على علم النفس البشرية وسقوطها عن حال البرارة، وعلى النعمة حتى تذرّع اتباع يانسانيوس في القرن السابع عشر ببعض أقواله للمدافعة عن تعليمهم. وأحسن طبعة قديمة لمؤلفاته هي طبعة الآباء الدومينيكيين سنة ١٦٧٩م في ١١ مجلداً. وأحسن الطبعات الحديثة طبعة الآب مين بين مكتبة الآباء اللاتينيين في مجلد ٣٢ إلى مجلد ٤٧. وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى الافرنسية. وترجم كتاب مناجاته إلى العربية الخوري أنطون آصاف، وعرّبه المثلث الرحمة المطران جرمانس الشمالي إذ كان كاهناً. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيّدان له في ٢٨ آب.

عد ٦٣١

القديسان كيرلس الاسكندري وايسيدورس الفرمي

أما القديس كيرلس فكان ابن أخت توافيلس بطريرك اسكندرية على ما روى سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ٧)، أو ابن أخيه على ما روى توادوريطوس. ورجّح فالسيوس (في حواشيه على كتاب سقراط) أنه ابن أخته، وزعم بعضهم أنه انضوى إلى رهبانية الكرمليين. على أنّ بارونيوس إمام المؤرخين أنكر هذا الانضواء. ومن أعظم حججه عليه أنّ من عاصروا كيرلس كالقديس ايرونيموس وبلاريوس وافاغريوس وكاسيانس وتوادوريطوس وغيرهم لم يفوهوا ببنت شفة عنه. وبعد وفاة توافيلس عم كيرلس أو خاله سنة ٤١٢ أو سنة ٤١٣م خلفه في الكرسي الاسكندري في ١٨ تشرين الأول، مفضلاً على تيموتاوس رئيس شمامسة هذا الكرسي، وطفق يناصب أصحاب البدع وأولاً النوفاسيانيين. فإنه أقفل كنائسهم في اسكندرية واستولى على آنيتها وأثاثها على ما روى سقراط في المحل المذكور. ثم أمر بطرد اليهود قاطبة من اسكندرية، فكان من ذلك قتال وشغب إذ قتل اليهود كثيرين من النصارى في كنيستهم، وحمل النصارى على اليهود في مجمعهم فطردوهم منه ومن المدينة أيضاً. فشقّ ذلك على اورست والي مصر وكتب إلى الملك فبيّن له كيرلس اعتداء اليهود على المسيحيين. ويظهر أنّ الملك مالأ النصارى على عملهم فلم يعد اليهود إلى اسكندرية بعد أن كانوا قد توطنوها منذ أيام اسكندر الكبير الذي بناها. وعظم الخصام بين كيرلس والوالي وأرسل البطريرك إليه يطلب الصلح معه مستحلفاً اياه بالإنجيل الذي أرسله إليه فأبى الوالي المصالحة. وطال النزاع بينهما أياماً.

ولما افتضح نسطور ببدعته وأمر البابا شالستينس الأول بعقد المجمع الأفسسي لنبذ ضلاله، رأس القديس كيرلس هذا المجمع سنة ٤٣١م نيابةً عن الحبر الروماني. وكتب حينئذٍ كتابه متضمناً اثني عشر حرماً لضلال نسطور، وخالفه في ذلك أولاً يوحنا بطريرك انطاكية وغيره من الاساقفة الشرقيين منتصرين لنسطور، لكن يوحنا وغيره من أولئك الاساقفة عادوا إلى الوفاق مع القديس كيرلس كما رأيت. وقد روى سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ١٤) أنّ رهبان الاسقيط علموا ما كان بين البطريرك كيرلس واورست الوالي من النزاع فأتى اسكندرية منهم خمس مئة

راهب وألتقوا بالوالي في طريقهم، فأهانوه وضربه أحدهم المسمى امونيوس بحجر فشجّ رأسه فحكم الوالي عليه بالقتل، ونفّذ حكمه، فاستحضر البطريرك جثته إلى الكنيسة فأبّنه وسماه شهيداً. على أنّ المحققين لم يثبتوا صحة رواية سقراط هذه واعتدوها من البيّنات على انتصاره للنوفاسيانيين الذين كان كيرلس يناصبهم، وقد مرّ ذكر ما أجراه عليهم وعلى أسقفهم. وكذلك اتهمه الدمشقي المؤلف الوثني بأنه تسبب بقتل ايباسية ابنة تيون الفيلسوف الشهيرة بفلسفتها وعلمها. على أنّ المحققين أثبتوا أنّ القديس كيرلس براء من هذه التهمة أيضاً ولا مصدر لها إلّا ما كان بين البطريرك والوالي من الشحناء. وقد لقي القديس كيرليس ربه سنة ٤٤٤م بعد أن دبر بطريركية اسكندرية اثنتين وثلاثين سنة. وقد وُصف في كتاب تراجم القديسين في كنيسة الروم بالرجل العلامة والمناضل الصنديد عن الايمان الكاثوليكي وفخر الكهنة أجمعين وجهبذ الآباء، وفي السنكسار الروماني بأشهر المناضلين عن الايمان الكاثوليكي، وأشرف من اتصفوا بالعلم والقداسة. وكنيستنا المارونية تعيّد له في ١٨ كانون الثاني، ولكن في السنكسار أنه رقد بالرب سنة ٤٣٢م ونظن ذلك زلّة من قلم الناسخ فالصحيح ما رويناه. أما الكتب التي ألّفها فأولها كتاب حرومه الاثني عشر ضمّنه الشرح لسرّ تجسّد كلمة الله، وأثبتته الكنيسة في المجمع الأفسسي، وردّت مطاعن توادوريطوس وغيره من الشرقيين عليه، والثاني تفسيره انجيل يوحنا ضمّنه في عشرة أسفار . قال نطاليس اسكندر (في كلامه فيه في تاريخ القرن الخامس) إنّ الاسفار الخامس والسادس والسابع والثامن كانت مفقودة، فنسج كليكتوفاوس اللاهوتي البريسي على منواله هذه الاسفار فعزاها بعضهم إلى كيرلس، ثم عُثر على السفرين الخامس والسادس برمتهما، وعلى فقر من السابع والثامن فطُبعت في باريس بعناية يوحنا أوبرنس. ويُعزى إليه كتاب في الثالوث الأقدس على أنّ المحققين أنكروا نسبة هذا الكتاب إليه لاشتماله على الكلام أنّ في المسيح مشيئتين وفعلين. وهذا المبحث لم يكن إلّا بعد قرنين من عصر كيرلس. فالأوجه أنّ هذا الكتاب للقديس يوحنا الدمشقي، والاثنا عشر فصلاً الأولى إنما هي من الكتاب الأول من كتب الدمشقي. والثالث كتابه الموسوم بالكنوز وهو له حقيقة لشهادة القدماء بصحة نسبته إليه. والرابع مؤلفه في آثار الدين المسيحي أثبت به حقائق الدين، وردّ به مزاعم يوليانس الجاحد وغيره من الوثنيين منقسماً إلى عشرة أسفار. وله أيضاً ستون رسالة أو مقالة نشرها مع تفسيره لبشارة يوحنا الأب سميث في

اللغة السريانية في أكسفرد سنة ١٨٢٢م، وأحسن طبعة لكتبه هي التي نشرها الأب مين سنة ١٨٥٩م بين كتب مكتبة الآباء الشرقيين.

أما القديس ايسدورس المعروف بالفرمي فوُلد في اسكندرية نحو سنة ٣٧٠م وآثر السيرة الرهبانية في دير فرما المعروفة عند القدماء بيالوز فنُسب إليها. وقد رقي إلى درجة الكهنوت المقدّسة، وكان الاساقفة يعزونه ويثنون عليه. وكان تلميذاً للقديس يوحنا فم الذهب، واشتهر في أيام الملكين اركاديوس وتوادوسيوس الصغير. وقد أطراه افاغريوس (في ك ١ من تاريخه فصل ١٥) فقال إنه كان طائر الشهرة بفصاحته وعلمه وتقشفاته حتى عاش في الأرض عيشة ملكية، وصنّف كتباً عديدة موعبة بالفوائد، وأنفذ بعضها إلى القديس كيرلس الاسكندري. وهذا مؤذن جلياً بأنه كان في أيامه. وقال فيه نيكوفورس كاليستس (ك ١٤ فصل ٥٣) ما ملخصه: «إنه كتب رسائل كثيرة في مواضيع متنوعة يفسر في أكثرها آيات الاسفار المقدّسة ويهذّب أخلاق الناس، وهي تشهد له بطول الباع وبسعة الاطلاع، وبما كان عليه من الحمية والغيرة على التقوى ومحاماة الكنيسة، وكثيراً ما وبّخ من لا يحسنون التصرّف بالمقام الاسقفي والسيرة الرهبانية، وكان شديد المدافعة عن أستاذه فم الذهب. وقد أكثر من العتاب للملك اركاديوس ولكيرلس الاسكندري ولعمه توافيلس البطريرك لعدم تقديرهم فم الذهب حق قدره» ورسالته ١٥٢ إلى سيماخس، ورسالتاه ٣١٠ و ٣٧٠ تبيّن كم كان شديد المحبة لفم الذهب، وكم كان له من الحمية في المدافعة عنه. وقد لقي ايسدورس ربه نحو سنة ٤٤٠م مخلّفاً مقالات شتى لاهوتية ذات نفع جزيل. وقد جُمعت رسائله فكانت خمسة مجلدات ونفسه في هذه الرسائل سام منسجم سهل المأخذ. وكنيستنا المارونية تعيّد لذكره في ٤ شباط. ولم نرَ في نسخة السنكسار التي لدينا تاريخ سنة وفاته.

عد ٦٣٢

القديس ماروتا أسقف ميافرقين

إنّ ماروتا اشتهر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس. ولم ينبئنا قدماء المؤرخين من اللاتينيين والروم بأي المدن كان أسقفاً. ولكن صرّح المؤرخون السريان أنه دبر كنيسة تكريت، على أنهم سموا هذه المدينة اسماء كثيرة أي تكريت

وميافرقين ومدينة الشهداء. وكان يزدجرد ملك الفرس يضطهد المسيحيين في مملكته فدعته شفقته عليهم أن مضى إلى قسطنطينية يسأل الملك أن يُعنى بنجاتهم، فأرسله الملك توادوسيوس الصغير إلى ملك الفرس يطلب إليه أن يكفّ سخطه عن المسيحيين ويوالي الرومانيين. وأنبأنا سقراط (ك ٧ من تاريخه فصل ٨) بما كان له في بعثته هذه فقال: «إنّ ملك الفرس كان يعلم ما كان تحلّى به ماروتا من التقوى والورع فأجلّه ورحّب به، وعظّم مثواه فحسده المجوس الذين كان لهم مكانة رفيعة عند الملك، ووجسوا بأنه يصير مسيحياً، ولا سيما لأنّ ماروتا أبرأه من صرع كان مستحوذاً عليه فعمدوا إلى الحيلة، وكان الفرس يعبدون النار وكان للملك عادة أن يتعبّد للنار المضرمة في أحد البيوت، فأخفوا رجلاً في مخبأ احتفروه تحت البيت ولقّنوه أن يصيح على مسمع الجميع بحضرة الملك اطردوا الملك من هنا لأنه أحبّ كاهناً مسيحياً. ولما سمع الملك هذا الصّياح فكّر في أن يسرّح ماروتا من عنده، فكشف له خدعة المجوس وأسرّ إليه أن يحفر تحت البيت، ففعل وتبيّن له مكر المجوس فعذّبهم، وأطلق لماروتا أن يُنشيء كنائس ومعابد حيث أراد. فوفر انتشار الدين المسيحي في بلاد فارس. وعاد ماروتا إلى قسطنطينية فأوفده الملك ثانيةً إلى فارس فكاد له المجوس بأن ألقوا جثة منتنة في طريق الملك وقالوا أنّ النصارى ألقوها، وتبيّن للملك بعد البحث أنّ تلك مكيدة أخرى اصطنعها المجوس، فعذّب كثيرين منهم أيضاً وزاد في اكرام ماروتا ووالى الرومانيين على يده، وأوشك أن يتنصّر لكن عاجله الموت». انتهى كلام سقراط ملخصاً.

وأنبأنا ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه لسنة ٧٢٥ (يونانية الموافقة لسنة ٤١٤ م) إنّ ماروتا عقد تلك السنة مجمعاً في قطيسفون في أيام يهب الله أسقف هذه المدينة، وأتبع فيه الفرس دستور المجمع النيقوي. وقال السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٧٦) إنّ المراد بهذا، المجمع الثاني الذي عقده ماروتا في فارس، لأنه عقد مجمعاً آخر في بعثته الأولى إلى هذه البلاد في أيام اسحق أسقف سلوقية وقطيسفون، ذكره رينودوسيوس (مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢). وعن فوتيوس (في ك ٥٢ من مكتبته) أنّ ماروتا شهد المجمع الانطاكي الذي عُقد في أيام افلابيانس وحرم مع باقي الآباء الذين شهدوا هذا المجمع ضلال المضلين الهراطقة. وعن ماري وعمرو النسطوريين أنّ ماروتا حضر المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨٢م. وكذلك روى ابن العبري في تاريخه السرياني قسم

٣ في ترجمة اسحق المذكور. وروى عمرو في ترجمة فيوما أنّ ماروتا كان طبيباً ماهراً. ويظهر من كلام السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٨) إنّ الموارنة والملكية كانوا يعيّدون لذكر ماروتا في ١٦ شباط. ولم نجد له ذكراً في السنكسار الذي نستعمله الآن. ولم نعلم في أية سنة وُلد ويظهر أنه توفي بعد سنة ٤٢١م لأنه ذكر قصة استشهاد يعقوب المقطّع، وقال إنه حاز اكليل الشهادة سنة ٧٢٢ يونانية التي توافق سنة ٤٢١ م.

وأما تآليف ماروتا فقد ذكرها السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٩) وأولها نافور للقداس وُجد مثبتاً في كتب كثيرة مخطوطة، وطُبع في هذا الكتاب قداسنا في روما سنة ١٥٩٤م. وقال فيه العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني (في مؤلفي النوافير «ماروتا رئيس كهنة تكريت الذي كان صديقاً ليوحنا فم الذهب... ألّف النافور الذي فاتحته ܐܠܗܐ ܛܒܐ ܕܒܟܝܢܐ ايها الإله الصالح طبعاً». وثانيها تفسير الإنجيل قال فيه السمعاني (في المجلد المذكور) إنه لم يعثر عليه برمته ولكن عُثر على فقر منه ذُكر بعضها. وثالثها تاريخ للشهداء الذين استشهدوا في بلاد فارس وترانيم مشتملة على تقاريظ لهم. وكثير من هذه الترانيم مثبت في كتب فروض السريان أي الموارنة واليعاقبة والنساطرة مختلطة بترانيم افرام واسحق السريانيين وغيرها. ولم نعثر حتى الآن على كتاب ترانيم ماروتا لنعلم أي هذه الترانيم له. وأما تاريخه للشهداء فجزآن: الأول منهما حوى تاريخ الشهداء الذين نالوا الإكليل في الاضطهاد الأول على عهد الملك سابور. والثاني تاريخ من استشهدوا في أيام يزدجرد وفاراران في الاضطهاد الثاني. والجزء الأول يشتمل عليه الكتابان الأول والثاني من الكتب المخطوطة التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وأما الجزء الثاني فقال فيه السمعاني إنه لم يعثر منه إلّا على قصة شهادة مرسابور وقصة يعقوب المقطّع في الكتاب الثاني من الكتابين المذكورين. وإنّ شهادتهما كانت في السنة الثانية لفاراران وهي سنة ٧٣٣ أو سنة ٧٣٢ يونانية (الموافقة سنة ٤٢١ أو سنة ٤٢٢ م). والرابع من الكتب التي وضعها ماروتا يشتمل على القوانين التي سنّها في المجمع الذي عقده في سلوقية وقطيسفون مع اسحق أسقفها، وهي مثبتة في كتاب مخطوط في مكتبة فرنسا ذكره رينودسيوس (في مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢)، وقال إنّ هذه القوانين جميعها موضوعها التهذيب البيعي إلّا القانون الثاني فإنه حاوٍ شرح دستور الايمان مع رسالة

من ماروتا يقال فيها أنها كُتبت لدن اجتماع أربعين أسقفاً في بلاد فارس بحضرة اسحق رئيس أساقفة تلك المدن وأخيه ماروتا. والخامس تاريخ المجمع النيقوي ترجمه ماروتا من اليونانية إلى السريانية مع قوانين هذا المجمع. وأسف السمعاني لضياع هذا الكتاب النفيس. وهذه القوانين هي ٧٣ قانوناً ويليها عشرون قانوناً تُرجمت بعد ذلك. وهذه القوانين سماها العلماء اللاتينيون العربية لأنها تُرجمت إلى اللاتينية عن نسخة عربية، وشرحها ابراهيم الحاقلي الماروني بعد أن عارضها بست نسخ منها. وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي في قصيدته هذه الكتب لماروتا (فصل ٥٧) انتهى ملخصاً عن السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٤ وما يليها).

عد ٦٣٣
رابولا وايهيبا أسقفَي الرها

أما رابولا فارتقى إلى كرسي الرها سنة ٤١٢م، إذ جاء في تاريخ هذه المدينة: «في سنة ٧٢٣ يونانية (توافق سنة ٤١٢ م) صير رابولا أسقفاً على الرها، وبنى بأمر الملك كنيسة القديس اسطفانس وكانت مجمعاً لليهود». واستمر على هذا الكرسي إلى سنة ٤٣٥م إذ جاء في التاريخ المذكور: «في سنة ٧٤٦ (يونانية توافق سنة ٤٣٥ م) برح رابولا هذا العالم في ٨ آب وخلفه ايهيبا». وقال توادوسيوس القارئ (في ك ٢ من تاريخه): «إنّ رابولا كان أعمى وقد شكا اندراوس أسقف سميساط بأنه ردّ حروم كيرلس الاسكندري الاثني عشر». وكان رابولا أولاً من أتباع يوحنا بطريرك انطاكية، ونبذ الحروم التي أعدّها كيرلس ليعتمد عليها المجمع الأفسسي، إلّا أنه ارعوى عن رأيه ودافع عن القديس كيرلس شديد الدفاع، وعقد مجمعاً في الرها وأبى فيه الاشتراك مع يوحنا الانطاكي ومن تابعه من أساقفة المشرق. ونبذ كل ما كتبه توادوريطس واندراوس السميساطي رداً على القديس كيرلس وأحرق كتبهما. وبعد أن اصطلح يوحنا الانطاكي مع كيرلس استمر رابولا يخالف توادوريطس واندراوس السميساطي مدافعاً عن كيرلس، وقد قاوم بدعة نسطور شديد المقاومة كما يظهر من احدى رسائل كيرلس إليه، وكان يعنّف برسائله ديودورس أسقف ترسيس وتوادورس أسقف المصيصة حتى شكاه اندراوس أسقف سميساط لمتريبوليه اسكندر رئيس أساقفة منبج بأنه يضطهد توادورس المصيصي،

وقد جعل نفسه عدواً للأساقفة الشرقيين كما يظهر من رسالة اندراوس هذه مثبتة في فصل ٤٣ من كتاب المجامع.

ونعلم مما كتبه رسالة إلى القديس كيرلس وهي مثبتة في المجلد الخامس من كتاب لاباي في المجامع (صفحة ٤٦٩)، وقد تلى في المجمع الخامس (مجلس ٥) جواب كيرلس لرابولا. وقد ذكر ابن العبري مرات في كتابه الموسوم بكتاب اليهود القوانين التي فرضها رابولا في مجمع الرها، وهي مثبتة في كتاب سرياني مخطوط في المكتبة الماديشية الخاصة. ذكره رينودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢). انتهى ملخصاً عن السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٩٧ وما يليها).

وأما ايهيبا (تأويل اسمه الموهوب أو هبة الله) فخلف رابولا في كرسي الرها سنة ٤٣٥م كما مرّ. وجاء في تاريخ هذه المدينة: «إنه بنى كنيسة حديثة هي المسماة اليوم كنيسة الرسل». ولما كان كاهناً كان يقاوم أسقفه رابولا في نبذه كتب توادورس أسقف المصيصة كما يظهر من رسالة اندراوس أسقف سميساط إلى اسكندر رئيس أساقفة ايرابولي (منبج) المار ذكرها، ولهذا لما صار أسقفاً ناصبه أصدقاء رابولا، وشكاه صموئل وقورش ومادا واولوجيوس كهنة الرها إلى الملك توادوسيوس الصغير، وبركلس بطريرك قسطنطينية بأنه القى الفتنة بين أساقفة المشرق وأساقفة مصر، وأنه ترجم كتب توادورس المصيصي إلى اللغة السريانية وأذاعها في كل المشرق، إلى غير ذلك من الشكاوى. وقد مرّ أنّ هذه الشكاوى بُحث عنها في مجمع صور وبيروت، وأصلح بينه وبين خصومه (طالع ما ذكرناه في عد ٦٢٠)، ثم شكوه ثانيةً في مجمع أفسس اللصّي فحطّه هذا المجمع عن أسقفيته كما يظهر من أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ١٠)، وأقام مكانه نونس فاستمر في الاسقفية سنتين كما يتبيّن من تاريخ الرها أي إلى أن أعاد المجمع الخلكيدوني ايهيبا إلى أسقفيته سنة ٤٥١م، واستمر فيها إلى بدء سنة ٤٥٨م حين أدركته الوفاة. فقد جاء في تاريخ الرها: «في سنة ٧٦٩ يونانية (توافق سنة ٤٥٨ م) في ٢٠ من تشرين الأول توفي ايهيبا أسقف الرها وخلفه نونس» المذكور.

واليعاقبة لنبذهم الخلكيدوني يعتبرون ايهيبا نسطورياً، ويحرمونه في دستور الايمان الذي يتلوه المتقدّم إلى الدرجة المقدّسة بحضرة الاسقف كما يظهر من

الكتاب المخطوط في المكتبة الواتيكانية، وهو الرابع بين الكتب المعزوة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني. ومما اشتهر من تآليفه رسالته إلى ماري الفارسي في ابّان الخلاف بين الاساقفة الشرقيين والمصريين، وكان ايهيبا متابعاً يوحنا بطريرك انطاكية فيؤنّب في رسالته كيرلس الاسكندري وسالفه رابولا، ويندد بالمجمع الأفسسي، ويثني على نسطور، ويجهد نفسه باثبات تعليمه. ورسالته هذه مثبتة في المجلد الخامس من مجموعة المجامع للبتاي (صفحة ٦٦١) وقد نبذها وحرمها آباء المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٣٦م بعد موت ايهيبا مع ما كتبه في هذ الشأن توادوريطوس أسقف قورش وتوادورس أسقف المصيصة. وهذه المقالات تسمى الفصول الثلاثة وقد طال الجدال والخلاف فيها بين العلماء الشرقيين في القرن الخامس إلى أن حرمت في القرن السادس في المجمع الخامس المذكور، وهو القسطنطيني الثاني كما سوف ترى. على أنّ العلامة الكردينال بارونيوس (في تاريخه لسنة ٥٣٦م) أثبت جلياً أنّ المجمع الخامس حرم رسالة ايهيبا لا شخصه لأنه جحد البدعة النسطورية في المجامع الأربعة التي عُقدت في انطاكية وصور وبيروت وخلكيدونية، وأقام بيّنات على أنّ تلك الرسالة ليست له بل زوّرها باسمه خصماؤه. انتهى ملخصاً عن السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩٩ وما يليها).

عد ٦٣٤
بعض المشاهير الغربيين

ساويرس سولبيسيوس وُلد سنة ٣٦٣م في اكويتانيا من أسرة شريفة غنية، وقد هاجر العالم نحو سنة ٣٩٢م بعد وفاة امرأته واعتزل للسيرة الروحية. ثم أقام في دير بمرسيليا سنة ٤٠٩م إلى أن توفاه الله سنة ٤٢٥م. وله تاريخ منقسم في كتابين بدأ فيه من خلق العالم إلى سنة ٤١٠م. وله أيضاً ترجمة القديس مرتينس صديقه وهو مؤلف روحي منبئ بحالة السيرة الروحية في تلك الأيام. وتعزى إليه عشر رسائل ثلاث منها لا مريّة في أنه مؤلفها، وسبع يختلف في صحة نسبتها إليه. وترى تأليفه بين كتب الآباء في طبعة الأب مين في باريس.

اوروز وُلد في اسبانيا في أواخر القرن الرابع، وكان تلميذاً للقديس اوغسطينس وقد سافر إلى فلسطين سنة ٤١٥م وصرف عنايته بمناصبة بدعة البيلاجيين، وحضّ

القديس اغوسطينس على تزييف هذه البدعة. ووضع كتاباً يدافع به عن حرية الانسان على أنّ ما خلد ذكره إنما هو كتاب تاريخه للدين المسيحي مقسوماً إلى ثمانية أسفار، قاوم به الوثنيين وضمّنه تاريخاً من خلق العالم إلى سنة ٤١٧ للميلاد، وفنّد به مزاعم من كانوا يعزون تقهقر المملكة الرومانية إلى دخول الدين المسيحي فيها. وقد طُبع كتابه في لايد سنة ١٧٣٨م وله ترجمتان انكليزية وافرنسية.

يوحنا كاسيان وُلد في افرنسة على الأظهر ودخل منذ صبائه ديراً في بيت لحم، ثم زار النساك في برية تيبايس، ثم مضى إلى قسطنطينية فاستخدمه القديس يوحنا فم الذهب في كنيسته إلى أن انتقل إلى مرسيليا وأنشأ فيها الدير المعروف بدير القديس فيكتور، وأدركته الوفاة سنة ٤٥٠م. ويظنه كثيرون منشيء بدعة البيلاجيين المتوسطين كما يسمونهم. وكان من أكبر خصوم القديس اغوسطينس وله مؤلف في الرسوم الرهبانية اشتمل على اثني عشر كتاباً، ثم أربعة وعشرون خطاباً مع آباء البرية أي رهبان مصر. أخذ عنها ارنولد كتاب تراجم آباء البرية ووضع مقالة في تجسد المخلص منقسمة إلى سبعة أسفار، وكتب مخالفاً نسطور سنة ٤٣٠م. وذكر له جناديوس في جدول المؤلفين كتباً أخرى مفقودة. وقد أذاع الأب مين تأليفه في مجلد ٤٩ من مكتبة الآباء.

القديس بطرس كريسولوغس وُلد في ايطاليا لوالدين حسيبين ورقاه البابا سيستس الثالث إلى مقام الاسقفية على مدينة رافانا نحو سنة ٤٣٠، فدبر رعيته أحسن تدبير، ولقي ربه سنة ٤٤٩ أو سنة ٤٥٠م. وكان خطيباً مصقعاً، وقد أكسبته فصاحته لقب غريسولوغس وتأويله العسجدي النطق. وله ١٧٦ خطبة قد طُبعت في اغوسطا سنة ١٧٥٩م.

القديس بروسبر وُلد في اكويتانيا سنة ٤٠٣م وأدركته المنية سنة ٤٦٣م وكان من اكليرس مرسيليا مشهوراً بعلمه وفصاحته. وكانت له مراسلات عديدة مع القديس اغوسطينس، وألّف قصائد لاتينية مسهبة يندد بها بالبيلاجيين المتوسطي،ن ويردّ مزاعمهم ويسميهم ناكري الاحسان لغمطهم فضل نعمة الله. وله أيضاً تاريخ يعتمد عليه وقد ترجم قصائده اللاتينية إلى الافرنسية شعراً لامستر دي ساسي سنة ١٦٤٦م. وتعيّد الكنيسة اللاتينية لذكره في ٢٥ حزيران.

وكان في هذا القرن أعظم من هؤلاء جميعاً البابا لاون الأول الملقّب بالكبير.

وُلد في روما وتسنّم منصّة الحبرية العظمى سنة ٤٤٠م، واستمر يدبر كنيسة الله إلى سنة ٤٦١م. قد رذل ما أجراه مجمع أفسس اللصّي سنة ٤٤٩م، وأمر بعقد المجمع الخلكيدوني المسكوني سنة ٤٥١م، وحرم به اوطيخيا ومشايعيه والبيلاجيين. وصدّ اتيلا ملك الهونيين عن مهاجمته روما سنة ٤٥٢م، لكنه لم يتسنّ له أن يوقف عنها جنساريك سنة ٤٥٥م. وله مواعظ كثيرة كان يلقيها في الكنيسة وهي آية في الفصاحة والبلاغة والفقاهة وله رسائل تشذّ عن العدّ للمناضلة عن العقائد الكاثوليكية واصلاح التهذيب البيعي وشؤون الكنائس، وردع مخالفي القوانين المقدّسة. وقد نشر الأب كوسنال تآليفه كلها سنة ١٦٧٥م في باريس، وأذاعها الأب كاشياري في روما سنة ١٧٥١م. ويعيّد لذكر هذا البابا العلامة في روما في ١١ نيسان، وفي باريس في ١٠ تشرين الثاني. وكنيستنا المارونية تعيّد له في ١٨ من شهر شباط. انتهى وكل ما في هذا العدد خلاصة أخذناها عن كثيرين من المؤرخين الموثوق بصدقهم.

الفصل الخامس

البدع والمبدعين بسورية في القرن الخامس

عد ٦٣٥

بيلاجيوس وبدعته

كان بيلاجيوس بريطانياً كما يتبيّن من محاماة اوزور ومن رسالة القديس اغوسطينس الـ ١٠٦، وكان يستسير السيرة الرهبانية في بيته متقشفاً متورعاً. ولذلك قال فيه القديس اغوسطينس أنه كان أشبه براهب ولم يرقَ إلى الدرجات المقدّسة كما يتبيّن من رسالة البابا زوزيمس إلى اورليوس حيث يصفه بالرجل العامي. وقد أتى روما وعرف فيها بالفضل، إلّا أنّ صداقته لكاهن سرياني يدعى روفينس أوقعته في ضلال يخالف الاعتقاد بنعمة الله. وكان هذا الضلال منبثاً في المشرق، وقد

تورط فيه توادورس أسقف المصيصة ناسباً اياه إلى اوريجانس وكان روفينس قد أتى إلى روما سنة ٤٠٠م ولم يجسر أن يذيع هذا الضلال بنفسه، فاستخدم بيلاجيوس لبثّه سنة ٤٠٤ او سنة ٤٠٥م، فاشمأز السامعون من غواياته وأنكروها عليه فأخذ يروغ ويحتال ليفلت من تحريم ضلاله، وآخى راهباً اسمه شالستيوس كان أكثر جرآة منه، فطفق يبث ضلالهما علانية، واضطرا أن يفرا من روما وأتيا قرطاجنة فافتُضح شرهما، وشرع القديسان ايرونيموس واغوسطينس يزيفان هذا الضلال ويفنّدان مزاعم من يقول به، فبرح بيلاجيوس افريقيا وأتى إلى فلسطين وخادع يوحنا بطريرك أورشليم، فعقد مجمعاً في هذه المدينة سنة ٤١٥م. وبدلاً من أن يحرم تعليم بيلاجيوس أمره وخصماءه أن يلزموا الصمت عن العقائد المختلف فيها إلى أن يحكم عليها الحبر الروماني (اورسي ك ٢٥ وفلوري ك ٢٣) وقد شهد اوروز المار ذكره هذا المجمع إذ كان القديس اغوسطينس قد أرسله إلى القديس ايرونيموس في فلسطين، وبيّن في المجمع أنّ ضلال بيلاجيوس حرم في أفريقية سنة ٤١٢م فرفع الأمر إلى البابا اينوشنسيوس الأول. وذكر كل ذلك اوروز في محاماته مع بيان ما كان في ذلك المجمع الذي ذكره القديس اغوسطينس أيضاً (في كتابه في أعمال بيلاجيوس فصل ١٤). ثم عُقد مجمع آخر في تلك السنة في ديوسبولي المعروفة الآن باللدّ، وشهده اروس ولازورس من أساقفة افرنسة (وفي رواية لم يشهداه لمرض أحدهما) مع أربعة عشر أسقفاً من فلسطين، فخدع بيلاجيوس هؤلاء الاساقفة إذ تظاهر بأنه يقبل العقائد الكاثوليكية المخالفة لضلاله، فرخصوا له أن يشترك مع الكاثوليكيين، فاستغنم هذه الفرصة ليزيد في بث غواياته، ولذلك دعا القديس ايرونيموس (في رسالته ٧٩) مجمع ديوسبولي مجمعاً تعساً، إلّا أنّ القديس اينوشنسيوس البابا لم يصدق تمويهات بيلاجيوس وأبى أن يرخّص له بالاشتراك مع المؤمنين. وزاد بيلاجيوس قحةً فكتب راداً مقالات القديس ايرونيموس في أربعة كتب عنونّها بالاختيار المعتوق (في القديس اغوسطينس في كتابه في أعمال بيلاجيوس فصل ٣٣)، وعقد في افريقيا مجمعان آخران حرما تعليم بيلاجيوس ومشايعيه سنة ٤١٦. وفي سنة ٤١٧م أيّد البابا اينوشنسيوس أحكام هذين المجمعين وحرم بيلاجيوس ومحازبيه. وقال القديس اغوسطينس (في خطبته ١٣١) أنه بعد حكم الحبر الروماني بهذه الدعوى لم يعد من سبيل للجدال فيها. ولما علم بيلاجيوس وشالستينس حكم البابا عليهما استغاثا بحكمته السامية من حكم أساقفة

افريقيا عليهما وأكثرا من التمويه، وكان البابا اينوشنسيوس مضى لملاقاة ربه حينئذٍ، وخلفه القديس زوزيمس البابا. فبعد امعان النظر في دعواهما حرم تعليمهما ثانيةً (اورسي ك ٢٦ فصل ١٦) فعاد بيلاجيوس إلى فلسطين التي كان يحبها آملاً أن يقبل فيها، ولكن قد كان الخفاء برح عن ضلاله فطُرد من هناك ولا يُعلم بما كان له بعد، ويُظن أنه عاد إلى بريطانيا موطنه يبذر زوان تعليمه، فأرسل أساقفة افرنسة القديس جرمانوس أسقف اكس لمقاومته.

أما ضلال بيلاجيوس ومتابعيه فكان أنهم زعموا اولاً أنّ آدم وحواء خلقهما الله مائتين، ولم يضرّر اثمهما بذريتهما بل بنفسيهما لا غير، وهو جحود لعقيدة الخطية الأصلية. ثانياً أنّ نعمة الله ليست ضرورية للانسان ليعمل بوصايا الله وينتصر على التجارب ويبلغ الكمال الروحي، بل يكفيه اختياره المعتوق أي حريته الطبيعية، وهو جحود لعقيدة نعمة الله. ومن هذين الاصلين فرع بيلاجيوس ومشايعوه أضاليل أخرى منها أنّ الانقياد للشهوة ليس اثماً ولا شراً، وإنّ الفضائل هي مواهب طبيعية لا مدخل لنعمة الله فيها، إلى غير ذلك من الترهات. إنّ الجدال الذي كان بين البيلاجيين وبين القديس اغوسطينس الذي ردّ مزاعمهم في كتب كثيرة أنشأ بين الكاثوليكيين ضلالاً آخر، ذلك أنّ البعض المعروفين بالتقوى والعلم من الكاثوليكيين آثروا أن يوفّقوا بين تعليم اغوسطينس وبيلاجيوس بايجادهم حداً متوسطاً بينهما. فقالوا إنّ القديس اغوسطينس قد تخطّى بنسبته إلى النعمة، الحركة الأولى في عمل الخير. وبيلاجيوس تجاوزه بإنكاره لزوم النعمة مطلقاً، فزعموا أنّ مبدأ الخلاص والفضيلة إنما هو منا لا مدخل للنعمة فيه، وإنّ الثبات في عمل الخير والانتخاب للمجد نستطيع الحصول عليهما بالقوى الطبيعية واذا، وجعلنا أنفسنا أهلاً لذلك، وإنّ النعمة تساعدنا على ذلك مساعدة غير لازمة. وإنّ بعض الأطفال يموتون قبل المعمودية أو بعدها لعلم الله السابق بالخير أو الشر الذي يصنعونه لو بقوا أحياء، فسُمي هؤلاء نصف بيلاجيين أو البيلاجيين المتوسطين. وكان منهم يوحنا كاسيان الذي مرّ معنا ذكره في العدد السابق. لكن الكنيسة الكاثوليكية اعتدت تعليم هؤلاء أيضاً مخالفاً الايمان الصحيح فحرمته. إنّ التعليم الكاثوليكي بضرورة النعمة مؤسس على أنّ الوسائط يلزم أن تكون مطابقة للغاية الموجهة إليها، وغاية لانسان الخلاص الأبدي، وهو يقوم بالتنعّم بالله، وهو أمر فوق الطبيعة، فيلزم أن تكون الوسائل المبلغة إليه وهي الاعمال الصالحة صادرة عن مصدر فائق الطبيعة وهو نعمة الله.

وآي الاسفار المقدّسة المثبتة ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: «لا أحد يقدر أن يأتي إليّ ما لم يجتذبه الآب الذي أرسلني» (يوحنا فصل ٦ عد ٤٤) «أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان... لأنكم بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا فصل ١٥ عد ٥) إنّ الله هو الذي يعمل فيكم ان تريدوا وان تكملوا (فيلبسيوس ٢ فصل ١٢ عد ١٣) وهلمّ جراً.

وإن شئت الاطلاع على ما يزيدك بياناً فطالع كتاب البدع ودحضها للقديس الفونس ليكوري الذي ترجمته إلى العربية وطبعته في مطبعة الرهبان اللبنانيين في دير طاميش سنة ١٨٦٤م.

عد ٦٣٦
نسطور وبدعته

وُلد نسطور في مرعش ونشأ في دير القديس اوبربيوس في نواحي انطاكية، ورقي إلى درجة الكهنوت، وأقامه أسقفه على شرح عقائد الدين للطالبين، والمدافعة عنها ضدّ الهراطقة، فجدّ في مقاومة الاريوسيين والابوليناريين والاوريجانيين راغباً في التشبه بفم الذهب والاقتداء به، فذاع صيت علمه وفصاحته وورعه إذ كان الناس يرونه نحيف الجسم أصفر اللون مرتدياً اطماراً اخلاقاً. وقد توفي وقتئذٍ سيسينيوس بطريرك قسطنطينية، وكثر الخلاف في انتداب خلف له فآثر الملك توادوسيوس الصغير أن ينتخب للبطريركية كاهناً لم يرشّحه أحد لها، فاستدعي نسطور من انطاكية وعني بترقيته إلى كرسي قسطنطينية، فسرّ الشعب بانتخابه. وقال هو في خطبة تبوئه الكرسي البطريركي للملك: «سلمني أيّها الملك الأرض منقاة من الهراطقة فأسلمك السماء. استأصل معي أصحاب البدع فأستأصل معك الفرس» وكلامه يشف عن غيرة، لكنه مشعر بكبريائه. وكانت بواكير أعماله تعقّبه أصحاب البدع، على أنه ظهر بعداً أنه لم يصنع ذلك إلّا لينتهج السبيل إلى بدعته وحدها. فقد صحبه من انطاكية كاهن اسمه انسطاس. وقال في خطبة ألقاها كيف تدعون مريم أم الله وهي خليقة، ومن أين للخليقة أن تلد إلهاً. فتسارع الجمّ الغفير إلى البطريرك يسألونه ردع كاهنه عن هذا التجديف. فصعد نسطور إلى المنبر والشعب يؤمل إزالة العثار فقال: «كيف يكون لله أم، فإن صحّ ذلك كان معذرة

للوثنيين باتيانهم بأمهات آلهتهم إلى هياكلهم وذكرهنّ أقاصيصهم. كلا إنّ مريم لم تلد إلهاً، فلا يلد الجسد إلّا جسداً وما يلده الروح فهو روح، لا تستطيع الخليقة أن تلد الخالق بل ولدت انساناً هو آلة لله». فعظم الخطب على السامعين، وعمّ القلق المدينة وقضوا بأنّ راعيهم أمسى ذئباً، فهددوه بأنهم يقتلونه ويلقونه في البحر فلم يرعوِ، بل أنكر ذات يوم ميلادي كلمة الله الأزلي والزمني، فقال له اوسابيوس (الذي صار بعداً أسقفاً على دوريلا) في وجهه وبحضرة الجمهور، ليس الأمر كما تزعم بل إنّ كلمة الله المولود من الآب منذ الأزل هو هو نفسه وُلد من العذراء في الزمان. فحنق نسطور من هذا الكلام وأوسع قائله اهانات داعياً اياه تعساً وشريراً، وانتشرت أقاويل نسطور في المشرق واتصلت إلى أديار الرهبان في مصر، ووفرت المشاحنات، ودرى بها القديس كيرلس البطريرك الاسكندري فأنفذ رسالة إلى رهبان مصر يرشدهم بها إلى الايمان الصحيح. وبلغت رسالته إلى قسطنطينية فأثنى عليها كثيرون من رجال دولة توادوسيوس شاكرين للبطريرك. وامتعض نسطور وحمل رجلاً اسمه فوتيوس على أن يردّ تلك الرسالة منددا بكاتبها، فكتب القديس كيرلس إلى نسطور رسالته المشهورة، ومما قال له فيها: «إنّ هذا القلق لم تحدثه رسالتي بل ما قلته أنت وكتبته بنفسك أو بواسطة غيرك، وهو ما دعاني إلى معالجة هذا الداء القتال ببلسم رسالتي، فاصلح ما قلت وازل العثار، وادعُ مريم أم الله، وكن موقناً إني لا أخشى في هذا لومة لائم، بل إني متأهب لتحمل كل ما يرد عليّ، وإن سجناً أو موتاً حباً بايمان المسيح». ولم يكن جواب نسطور إلّا ايضاح استيائه من رسالة كيرلس وتهديده له، فخاب أمل كيرلس من اصلاح نسطور، ورأى ضلاله يزداد انتشاراً، فرفع عريضة إلى القديس شالستينس الحبر الروماني منبئاً له بكل ما كان، وأنفذ رسائل مطوّلة إلى الملك توادوسيوس والاميرات أخواته (ذكرت في المجمع الأفسسي). وجسر نسطور أيضاً أن يكتب إلى الحبر الروماني مغالياً بذكر متاعبه في مناصبة أصحاب البدع، وأردف ذلك بقوله إنّ البعض يدعون العذراء أم الله مع أنه لا يمكن أن تدعى إلّا أم المسيح، وإنّ هذا ما حمله أن يرسل إليه بعض ما كتبه (أثبت هذه الرسالة بارونيوس في تاريخ سنة ٤٣٠م). وبعد أن اطّلع البابا على رسالتي كيرلس ونسطور، عقد مجمعاً في روما سنة ٤٣٠م فحرم تجاديف نسطور، وأمر أن يُحطّ عن مقامه إذا لم يقلع عن ضلاله علانية بعد تبليغه هذا الحكم بعشرة أيام، وعهد إلى القديس كيرليس بتنفيذ هذا الحكم. فعقد القديس

كيرلس مجمعاً في اسكندرية دعا إليه أساقفة مصر، وبلغ نسطور حكم الحبر الروماني ورسالة من هذا المجمع تبيّن له أنه إذا انقضت العشرة الايام ولم يُقلع عن غواياته علانية يجانب أولئك الاساقفة الاشتراك معه، ويقبلون في شركتهم كل من حطّهم نسطور أو حرمهم. وأرسل القديس كيرلس حكم البابا وهذه الرسالة مع أربعة أساقفة من مصر، وأنفذ معهم رسالتين احداهما إلى اكليروس قسطنطينية وشعبها، والأخرى إلى رؤساء الأديار. فبلغ هؤلاء الاساقفة إلى قسطنطينية في ٧ كانون الأول سنة ٤٣٠م وبلّغوا نسطور الحكم والرسالة. ومضت الأيام العشرة واستمر نسطور مصرّاً، وكان الملك توادوسيوس عني قبل وصول الوفد الاسكندري بعقد مجمع عام للحكم بهذا الخلاف، فكتب القديس كيرلس إلى البابا يكاشفه في ذلك، وفيما إذا ارعوى نسطور عن ضلاله هل يُباح للمجمع قبوله بصفة أسقف أو ينفذ فيه الحكم عليه. فأجابه الحبر الروماني آمراً بعقد المجمع ومؤجلاً عزل نسطور رجاءً أن يُقلع عن ضلاله.

وأمر البابا شالستينس أن يترأس القديس كيرلس على هذا المجمع نائباً عنه، وأرسل إليه من لدنه اركاديوس وبروكتس الاسقفين وفيلبس الكاهن، وعيّن محل المجمع في أفسس، واجتمع الآباء هناك في ٧ حزيران سنة ٤٣١م وربا عدد الاساقفة على المئتين. وأمر القديس كيرلس بعقد المجلس الأول في حزيران في كنيسة العذراء التي كانت أكبر كنائس أفسس. واستدعى نسطور في ٢١ منه ليحضر المجمع، فرفع إليه عريضة يحتجّ بها على افتتاحه قبل وصول الاساقفة المنتظر حضورهم، فأبى القديس كيرلس والسواد الأعظم من الاساقفة إلّا الاجتماع في اليوم المعيّن. وقبل الشروع في المداولة استدعى الاساقفة نسطور ثانياً وثالثاً فلم يلقَ الاساقفة المرسلون إليه إلّا الاهانة والتهديد من الجند الذين أقامهم نسطور لحراسته. وافتتح الآباء المجمع فتُليت أولاً رسالة القديس كيرلس الثانية وجوابه عليها. ثم حكم البابا شالستينس على نسطور بالحطّ عن مقامه إن أصرّ على ضلاله بعد تبليغه الحكم بعشرة أيام. وبعد البحث الطويل أبرز آباء المجمع على نسطور الحكم الذي ترى نصّه عند الكلام في هذا المجمع. ووقّع مئة وثمانية وتسعون أسقفاً على هذا الحكم، واستمر المجلس منعقداً من الصباح إلى ما بعد مغيب الشمس على طول النهار في ذلك الفصل. وفي اليوم التالي بلغ نسطور الحكم وأُذيع، وعاد بعض الاساقفة الذين رفعوا الاحتجاج مع نسطور فوقّعوا عليه، على أنّ يوحنا بطريرك

انطاكية لم يبلغ إلى أفسس إلّا بعد ابراز الحكم، فشقّ عليه أنّ باقي الاساقفة لم ينتظروه، وأن يرى نسطور صديقه وابن وطنه محروماً. فعقد مجمعاً آخر في أفسس ومعه أربعون أسقفاً فعزلوا القديس كيرلس بطريرك انطاكية ومانون أسقف أفسس عن منصبهما، إلّا أنّ القديس كيرلس لم يعبأ بهذه الجسارة واستدعى يوحنا ورفقاءه إلى المحاكمة، وهددهم بانزال الحرم بهم، إلى أن جرى الصلح بعدئذٍ بين كيرلس ويوحنا البطريركين، وعاد أكثر الاساقفة الذين شاركوا يوحنا إلى الوفاق، ووقّعوا على حرم المجمع لنسطور. ولجأ نسطور إلى الملك وساعده بعض محازبيه من أعوانه فحال دون انفاذ حكم المجمع عقبات ومكائد على الاساقفة الحاكمين إلى أن برح الخفاء، وتيقّن الملك صحة حكم المجمع، فأمر بحشر نسطور في دير القديس اوبربيوس في ضواحي انطاكية حيث كان أولاً، على أنه ما انفكّ يبثّ ضلاله فنفاه الملك إلى افريقيا حيث أدركته المنون. واختلف في منيته، فمن قائل إنه استحوذ عليه اليأس فكسر رأسه، ومن قائل إنه خسف في الأرض، ومن قائل إنه أصابته آفة في لسانه فآكله الدود وهو عقاب يستوجبه اللسان الذي جدّف على المخلِّص وأمه العذراء.

وأما أضاليله فأخصها أولاً أنّ الانسان الذي تجسد في حشا العذراء هو غير كلمة الله الوحيد، وما التجسّد إلّا حلول كلمة الله في ذلك الانسان بمنزلة هيكل له، وعليه فالله لم يولد ولم يتألم ولم يمت، والمسيح ليس إلٰهاً بل هيكلاً لله. وكان فيه اقنومان إلٰهي وبشري لا أقنوم واحد. ثانيها وهو مأخوذ من الأول أنّ العذراء لا تدعى أم الله بل أم المسيح، إذ لم تكن أماً لله الذي يتجسد على زعمه بل أماً لذلك الانسان الذي حلّ الله فيه. انتهى ملخصاً عن كثيرين من مشاهير المؤرخين، منهم بارونيوس ونطاليس اسكندر واورسي وأعمال المجمع الأفسسي. ويؤخذ من كلام السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٣) إنّ هرطقة نسطور نشأت أولاً في سورية، ابتدعها بولس السميساطي بإنكاره أنّ المسيح إلٰه حقيقة. وتوسل بنشرها توادورس المصيصي وتوادوريطوس القورشي وايهيبا الرهاوي بمقاومتهم القديس كيرلس الاسكندري ومكنّ جراثيمها نسطور. وكان في الرها مدرسة للفرس تشبّث أساتذتها وتلاميذهم بهذا الضلال، فعاونوا كثيراً على نشرها في ما بين النهرين وبلاد فارس، فناصبهم رابولا أسقف الرها، لكنهم تقووا في أيام ايهيبا قبل اقلاعه عن ضلاله. ولم يستطع نونس خليفته أن يردعهم، واستمروا يعثون

إلى أن قام على كرسي الرها قورش، فأُقفل هذه المدرسة ونُفِيَ من كان فيها إلى فارس سنة ٤٨٠م، فأضلّوا نصارى هذه البلاد وبلاد الكلدان، وانبسط هذا الضلال إلى بعض أقاليم الهند واستمرت هذه الشيعة إلى الآن، وهم المعروفون بالنساطرة والنسطوريين. ومن عاد منهم إلى حظيرة الايمان الكاثوليكي الكلدان الكاثوليكيون.

إنّ بدعة نسطور تبطل سرّي التجسد والفداء وتدكّ إسّ محبة الله السامية للبشر، فإنه إذا كان المسيح ليس إلهاً بل بشراً حلّ الله به كحلوله في غيره من القديسين وإن بنوعٍ اسمى، فلا يكون الكلمة تجسّد ولا الله افتدانا بابنه الوحيد بل أرسل إلى العالم رسولاً كأحد الرسل أو الانبياء، ويكون استحقاقه ومحبته ووساطته بين الله والبشر متناهية عادية. وهذا يقلب تصوّر المسيحية برمّته، وآي الاسفار المقدّسة بيّنة جليّة مؤيدة التعليم الكاثوليكي. منها قول يوحنا (فصل ١ عد ١٤) «والكلمة صار جسداً» أي بشراً وإنه «واضع نفسه آخذاً صورة العبد» (فيلبسيوس فصل ١ عد ١٦)، بهذا تعرف محبة الله لأنه بذل نفسه دوننا (رسالة يوحنا فصل ٦٣) ولو عرفوا لما صلبوا ربّ المجد (قرنثية ١ فصل ٢ عد ٨) إنّ الله لم يشفق على ابنه الوحيد بل بذله عن جميعنا (روما فصل ٨ عد ٣٣) وهلمّ جرا. ومن شاء زيادة بيان فليطالع كتابي ترجمة تاريخ البدع ودحضها للقديس ألفونس ليكوري.

عد ٦٣٧

اوطيخا

كان اوطيخا (ويسميه بعضهم اوطاخي) راهباً كاهناً رئيس دير في ضواحي قسطنطينية اشتمل على عدد غفير من الرهبان، وكان يناصب نسطور بطريركه في ضلاله، وقد مضى بنفسه إلى المجمع الأفسسي فشهد على إلحاده، واعتده القديس كيرلس الاسكندري من الصناديد المناضلين عن الايمان الصحيح. وقد أنفذ رسالة إلى القديس لاون الحبر الروماني في شأن بدعة نسطور، فأجابه البابا مثنياً على غيرته ومشجعاً اياه على جهاده، إلّا أنّ حدّته في الجدال مع أصحاب نسطور أوقعته في ضلال آخر مخالف لتعليمه، فهم كانوا يزعمون أنّ المسيح انسان حلّ فيه اللاهوت فكان فيها أقنومان. وزعم هو أنّ الطبعَين الألهي والبشري في المسيح امتزجا فكان فيه طبيعة واحدة وأقنوم واحد، وعليه فلم يعد انساناً كاملاً، فكان عند التجسّد ذا

طبيعتين، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة. وقد عزا البابا لاون (في رسالته ١٣ إلى بلوشاريا الملكة) ضلاله إلى جهله لا إلى خبثه، وكان اوسابيوس أسقف دوريلا بفريجية صديقاً لاوطيخا فدرى بمعاشرته له أنه يتخطا الحدود في مقاومة نسطور معلماً ضلالاً آخر، فأفرغ مجهوده في نصحه وردّه إلى الصواب فلم يذعن له. فبعثته غيرته على أن يشكوه إلى القديس افلابيانس بطريرك قسطنطينية الذي عقد في تلك الأثناء مجمعاً في قسطنطينية لفصل خلاف بين بعض أساقفته، فرفع اوسابيوس أسقف دوريلا عريضة إلى المجمع يشكو بها اوطيخا بأنه يتفوّه بتجديف على المسيح، ويعلم ضلالاً يغوي الشعب به، وسأل أن يدعى إلى المجمع ليثبت عليه بدعته. وكلّف افلابيانس اوسابيوس أن يعيد النصح على اوطيخا علّه يرعوي فقال إنه يئس من اقلاعه عن غيّه، وعيّن المجمع كاهناً وشماساً ليدعوا اوطيخا ليأتي إلى المجمع ويبرئ نفسه فأبى أن يحضر، وكرروا الدعوة له فاعتذر بأنه لم يخرج قط من ديره وبأنه مريض، إلى أن أُكره أن يأتي في المجلس السابع، فأتى محتفاً بكتيبة من الجند وجماعة من الرهبان وكثيرين من الأعيان، ولم يدعه هؤلاء يدخل المجمع إن لم يعدهم الاساقفة برده إليهم. فأقام رئيس مجمع اوطيخا واوسابيوس شاكيه في الوسط، وتلوا رسالة القديس كيرلس إلى الاساقفة الشرقيين حيث صرّح بأنّ في المسيح طبعين، فقال اوسابيوس أنّ اوطيخا لا يعتقد هذا. فسأله افلابيانس اسمعتَ ما قال شاكيك فما تقول؟ قال أعتقد بطبعين. فسأله اوسابيوس أتعتقد بطبعين بعد التجسد، وإنّ المسيح مساوٍ لنا من حيث الجسد، فأجاب ما جئت لأجادل بل لأصرّح بما أفتكر وقد كتبته في هذه الورقة، فكان كلامه فيها ملتبساً غامضاً. فقال له افلابيانس أتعتقد الآن أنّ في المسيح طبعين؟ فأجاب قد قرأت في كتب القديسين كيرلس واثناسيوس أنّ المسيح كان قبل التجسد ذا طبعين، وأما بعده فهما لا يقولان بطبعين بل بطبع واحد. وكان في كلامه هذا بدعتان، بدعته وضلال اوريجانس بقوله إنّ النفوس خُلقت قبل الأجساد. فجدّ الآباء في اقناعه واقلاعه عن ضلاله فلم يُقلع عنه، فحكم عليه المجمع بالحطّ عن كهنوته ورئاسة ديره وبإقصائه عن شركة المؤمنين لئلا يضلّهم، ووقّع على الحكم عليه اثنان وثلاثون أسقفاً وثلاثة وعشرون رئيساً من رؤساء الأديار. وكان ذلك لسنة ٤٤٨م.

وكتب اوطيخا إلى القديس بطرس غريسولوغس أسقف رافنا (بايطاليا) متشكياً

من حكم افلابيانس عليه، وسأله أن يعاونه لدى الملك والنتينيان وأمه بلاشيدا اللذين كانا يقيمان غالباً في رافنا. فأجابه أنه لم يرَ رسالة من افلابيانس ولم يسمع حججه، وأشار عليه أن يذعن لما يقوله البابا لاون الحبر الأعظم. وكتب اوطيخا وافلابيانس إلى البابا لاون الأول استغاثة مما أجراه عليه مجمع قسطنطينية. والثاني أنبأ بالاسباب العادلة التي دعت إلى حطّ اوطيخا وحرمه. وكان اوطيخا سأل ديوسقورس بطريرك انطاكية أن يرغب إلى الملك تاودوسيوس أن يعقد مجمعاً لفضّ الخلاف. فانقاد الملك لمطلوبه وأمر بعقد مجمع في أفسس رأس ديوسقورس عليه. فأجرى فيه على الاساقفة الكاثوليكيين من الجور ما لم يسمع بمثله في مجمع حتى دُعيَ بصواب مجمع أفسس اللصّي وسنأتي على ذكره. وقد أيّد ديوسقورس حينئذٍ ضلال اوطيخا وردّه إلى شركة المؤمنين مع رهبانه الذين كان افلابيانس قد حرمهم. وحطّ افلابيانس واوسابيوس أسقف دوريلا عن مقامهما مكرهاً الاساقفة حتى بالضرب على امضاء حكمه عليهما. ولما قال افلابيانس إنه مستغيث بالبابا لاون رفسه ولطمه وكان علّة لموته لأنه طرحه في السجن ثم أرسله إلى المنفى فمات في طريقه. وأما اوسابيوس ففرّ من روما وكان ذلك سنة ٤٤٩م.

فلما طرقت هذه الأخبار المحزنة مسامع البابا لاون، أنفذ رسالة إلى الملك تاودوسيوس يسأله فيها ردع الاوطاخيين عن تعدياتهم واصلاح شؤون الكنيسة، فلم يحفل بذلك، بل أعاد اوطيخا إلى مقامه، إلّا أنّ هذا الملك توفي السنة التالية أي سنة ٤٥٠م نادماً على ممالئته الاوطاخيين ورقي مرقيان إلى منصّة الملك.

وكان الملك مرقيان والملكة بلوشاريا صالحين ورعين فكتبا إلى البابا لاون أن يعقد مجمعاً يترأس عليه بنفسه أو بقصاده ليخمد جذوة الاضطراب المتّقدة في الكنيسة. فسرّ البابا كل السرور بهذا السؤال، وأرسل خمسة قصاد من لدنه لينوبوا عنه في هذا المجمع الذي عُقد في خلكيدونية سنة ٤٥١م فحرم آباء المجمع ضلال اوطيخا وصرحوا في حكمهم: «بأنّ في سيدنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد طبيعتين ودون تقسّم ولا تغيّر ولا امتزاج. وإنّ اتحاده بالجسد لم يزل اختلاف الطبيعتين، بل استمرت خواص كل طبيعة سالمة في أقنوم واحد وشخص واحد». أما اوطيخا فكان الملك نفاه سنة ٤٥٠م إلى محل قريب من قسطنطينية وبعد اعلامه بما قرّره المجمع ما انفكّ يغوي زائريه ومعاشريه، فكتب البابا لاون إلى القديسة بلوشاريا والملك مرقيان أن يُبعدا اوطيخا إلى مكان قفر، فنفي إلى مكان بعيد حيث مات

ميتة سيئة يستحقها اصراره. انتهى ملخصاً عن أكابر المؤرخين كبارونيوس ونطاليس واورسي وأعمال المجمع القسطنطيني المذكور والمجمع الخلكيدوني.

على أنّ تحريم ضلال اوطيخا وموته لم يوقفا هذه البدعة عن الانتشار، فإنّ يعقوب البرادعي الآتي ذكره بثّها بين السريان حتى سمي القائلون بها منهم يعقوبيين أو يعاقبة نسبةً إليه. وبرصوم نشرها بين الأرمن حتى سمي من اتبع هذا الضلال منهم برصوميين أو براصمة. وديوسقورس أذاعها في مصر وتابعه على ذلك بعد وفاته تيموتاوس النمس، ثم بطرس الالثغ اللذان اغتصبا بطريركية اسكندرية فسمي الاوطاخيون في مصر ديوسقوريين، ويشتمل جميعهم اسم مونوفييزتيين (لفظ يوناني تأويله القائلون بطبع واحد في المسيح). أما في سورية فلم يخضع بعض الرهبان في فلسطين لما رسم في المجمع الخلكيدوني وحرشوا غيرهم مشيعين أنّ المجمع الخلكيدوني بحتمه أنّ في المسيح طبيعتين أيّد ضلال نسطور، وكان في مقدمة هؤلاء رجل اسمه توادوسيوس كان أسقفه قد طرده من ديره لفواحشه ولم يخلع زيّه الرهباني، فاغتنم هذه الفرصة وضلّل رهباناً كثيرين. ولما عاد يوفينال البطريرك الأورشليمي إلى كرسيه لم يتسنَ له ردعهم بل حاولوا أن يكرهوا البطريرك على حرم المجمع الخلكيدوني والبابا لاون. ولما لم يطاوعهم جمعوا جمهوراً من السفلة والأشرار فدخلوا أورشليم عنوة وأحرقوا بيوتاً وقتلوا كثيرين، وفتحوا السجون وأخرجوا السجناء، وانتدبوا توادوسيوس رئيسهم أسقفاً على أورشليم، فحاول قتل البطريرك يوفينال ففرّ البطريرك إلى القسطنطينية، فقتل من أرسلهم القديس سفريان أسقف باسان إذ فاتهم قتل البطريرك فاستمر توادوسيوس يضطهد كل من يقاومه، فعذّب البعض وأحرق بيوت غيرهم، وطرد بعض أساقفة من كراسيهم، وأقام توادوتس الشرير أسقفاً على يافا. وبلغت هذه الشؤون الملك مرقيان فعني بازالة الشغب والجور مهدداً من أصرّ على شرّه وغافراً لمن ارعوى عن غيّه. ورأى توادوسيوس شمله انفض عنه ففرّ خفية ومضى إلى جبل سينا يستأمن بين النساك، فلم يقبلوه فانساب في بلاد العرب. وعاد يوفينال البطريرك إلى كرسيه سنة ٤٥٣م (ملخص عن افاغريوس ك ٢ من تاريخه فصل ٥ والكردينال اورسي مجلد ١٤ ك ٣٣). وزاد هذا الضلال انتشاراً في سورية بطرس القصار الذي غصب بطريركية انطاكية سنين متطاولة كما رأيت.

على أنّ ضلال اوطيخا ومشايعيه ظاهر البطلان لأنه إذا كانت الطبيعة الالهية

ابتلعت الطبيعة البشرية فلا يبقى المسيح انساناً. وعليه فيلزم إما انكار آلام المسيح وموته والتكذيب بكل ما ورد في العهد الجديد عن ذلك، واما الزعم أنّ اللاهوت تألّم ومات وهذا مستحيل ويأبى العقل البشري التسليم به، وتعمّ الآلام والموت الآب والروح القدس لأنّ اللاهوت واحد. ثم إذا لم يكن في المسيح إلّا طبيعة واحدة فلا يخلو، إما أن تكون الطبيعة الالهية ابتلعت الطبيعة البشرية أو استحالت البشرية إليها وهذا منقوض بما مرّ. أما أن تكون الطبيعة الالهية استحالت إلى بشرية وهذا محال لأنّ اللاهوت أزلي ولا يتغيّر. وإما أن تكون الطبيعتان امتزجتا وقام عنهما طبيعة ثالثة ولم يبقَ المسيح إلٰهاً ولا بشراً بل شيئاً آخر ثالثاً. ثم أن هذا الضلال يخالف آيات عديدة صريحة من الاسفار المقدّسة منها كل ما ذكره الانجيليون من ميلاد المخلّص ونموّه وتعبه وصومه وجوعه وآلامه وموته وتسميته نفسه ابن الانسان إلى غير ذلك، معارضاً بأقوالهم إنه والآب واحد، وإنّ كل ما يعمله الآب يعمله الابن وإنّ كل ما هو للآب هو له، وإنه كان قبل أن يكون ابراهيم، وإنه إن كان ابن داود فكيف يدعوه ربه. فكل هذه الآيات وغيرها مما يشذّ عن العدّ لا يمكن أن تدرك دون أن يكون في المسيح طبيعتان، طبيعة هو بها والآب واحد، وطبيعة هو بها ابن الانسان ينمو ويتعب ويتألم ويموت. ولا يحتمل المقام أكثر من هذا البيان الموجز لأننا نكتب تاريخاً لا مبحثاً لاهوتياً. ومن شاء الاسهاب في رد هذا الضلال فليطالع كتاب ترجمتنا لتاريخ الهرطقات ودحضها للقديس الفونس ليكوري.

الفصل السادس

المجامع التي عُقدت في سورية أو شهدها سوريون في القرن الخامس

عد ٦٣٨
المجمع الأفسسي المسكوني

لم يكن هذا المجمع في سورية بل شهده كثيرون من أساقفتها. فقد التئم للبحث عن ضلال نسطور سنة ٤٣١م، وقد ضرب ميعاد افتتاحه اليوم السابع من حزيران الذي كان واقعاً فيه عيد العنصرة، وكان قائماً فيه مقام القديس شالستينس الحبر الأعظم الروماني القديس كيرلس البطريرك الاسكندري. وقد أرسل إليه أيضاً الحبر الروماني اركاديوس وبرويكتس الاسقفين، وفيلبس كاهن الكنيسة الرومانية. وكان الملك توادوسيوس الصغير قد دعا إليه القديس اغوسطينس، لكن لقي ربه قبل ابلاغه الدعوة، فأرسل خليفته نائباً عنه وعن أساقفته إلى المجمع. وأتى نسطور البطريرك القسطنطيني إلى المجمع مصحوباً بالكنت ايريناوس، والكنت كنديديان رئيس حرس الملك، وتحت أمرتهما كتيبة من الجند للمحافظة على السلم في المجمع. وقدم إليه القديس كيرلس يصحبه خمسون أسقفاً من مصر، ثم يوفينال بطريرك أورشليم ومعه أساقفة فلسطين. وجمع ممنون رئيس أساقفة أفسس نحواً من أربعين أسقفاً من آسيا الصغرى وغير هؤلاء من أساقفة بلاد اليونان وقبرص حتى ربا عدد الاساقفة على المئتين. وأبطأ يوحنا بطريرك انطاكية وأساقفته بالقدوم، وكان ينتظر قدوم بعض أساقفة ايطاليا فمضى بعد يوم الأجل المضروب لافتتاح المجمع ستة عشر يوماً، وأخذ بعض الاساقفة يتشكّى من هذا التّباطؤ لمرضه، وبعضهم لعازته إلى النفقة. وكان يوحنا

بطريرك انطاكية قد أرسل يقول للقديس كيرلس، ابتدئ في أعمال المجمع إذا استبطأتني فافتتح المجمع في اليوم الثاني والعشرين من حزيران في كنيسة العذراء في أفسس على مخالفة نسطور لافتتاحه بحجة انتظار باقي الاساقفة المجتمعين في المجلس الأول مئة وتسعين أسقفاً، وأرسلوا أربعة أساقفة يستدعون نسطور إلى المجمع فأبى أن يحضر، ثم كرروا الدعوة ثلاث مرات فلم يلقَ المرسلون إلّا الاهانة من حاشيته. فأخذ الآباء يتلون رسالة القديس كيرلس إلى نسطور وجواب نسطور له، ثم تلوا رسالة القديس شالستينس البابا إلى كيرلس، ثم رسالة أخرى كان القديس كيرلس قد كتبها إلى نسطور ليبلغه أمر البابا بأنه إذا بقي عشرة أيام مصرّاً بعد بلوغ حكم الحبر الروماني عُدّ منحطاً عن كرسيه. ثم قرأ المسجلون بعض فصول ورسائل للآباء المتقدمين تؤيد التعليم الكاثوليكي. وبعد المفاوضة والتحري النهار بطوله أصدروا الحكم التالي: «لما كان نسطور قد أبى تلبية دعوتنا وقبول الاساقفة المرسلين إليه من قبلنا فضلاً عن مخالفات أخرى اضطررنا أن نباشر البحث عن غواياته، فثبت عليه برسائله وبما كتبه وفاه به في خطبه في هذه المدينة ومن عهد قريب، وبشهادات شهود عدل أنه ارتأى وعلّم ضلالاً مبيناً فقضت علينا القوانين المقدّسة ورسالة أبينا الأقدس شالستينس حبر الكنيسة الرومانية أن نبرز عليه هذا الحرم، وأعيننا ذارفة الدموع السخيّة. فسيدنا يسوع المسيح الذي جدّف عليه قضى بواسطة هذا المجمع أنه منحطّ عن كل مقام أسقفي، ومقصى عن كل اجتماع بيعي». ووقّع على هذا المجمع الاساقفة الحاضرون وكان عددهم مئة وثمانية وتسعين أسقفاً. وأكثر الشعب من الاحتفاء والابتهاج بهذا الحكم والثناء على الاساقفة. وبلغ هذا الحكم إلى نسطور في اليوم التالي، وأُذيع في شوارع المدينة. وكتب آباء المجمع إلى اكليرس قسطنطينية ينبئونهم بهذا الحكم، ويحرصون حاشية البطريرك على الاحتفاظ بكل ما خصّ الكنيسة إلى قيام بطريرك آخر. وحالت دون تنفيذ الحكم على نسطور عراقيل من منفذي الملك إلى المجمع تشيّعاً لنسطور.

وفي اليوم السابع والعشرين من حزيران بلغ يوحنا بطريرك انطاكية إلى أفسس مع أربعة عشر أسقفاً، وعلموا بحكم جميع الاساقفة على نسطور، فعقدوا مجمعاً وأدخلوا معهم الكنت كنديديان منفذ الملك، وانضمّ إليهم أساقفة آخرون حتى صار عديدهم ثلاثة وأربعين أسقفاً، وقضوا على القديس كيرلس وممنون رئيس أساقفة أفسس بالحطّ عن كراسيهما. ووقّع الاساقفة المذكورون على الحكم وكتموا أمره

إلى وقت. وخرج يوحنا البطريرك إلى مكالمة الاساقفة الموفدين إليه من قبل المجمع، ولما بلّغوه ما كلفهم آباء المجمع أن يثبتوه له طوى كشحه عنهم ولم يجبهم بكلمة، وأهانهم أصحابه بل ضربوا بعضهم أيضاً فعادوا إلى القديس كيرلس يشكون مما أصابهم من الاهانة والضرب. فأخذ المجمع شهادتهم وحلفهم اليمين على صحة ما رووه من سوء المعاملة لهم. وفصل الآباء يوحنا من الاشتراك معهم، وبلغوه حكمهم وأذاعوا صورته معلّقة في الشوارع، وقد دروا بما قضى به يوحنا على كيرلس وممنون فلم ينكفّا في اليوم التالي عن تقدمة ذبيحة القداس،وعلم بذلك يوحنا البطريرك فسأل الكنت كنديديان أن يكفّهما عن ذلك ففعل قائلاً إنه يلزم انتظار أمر الملك. فلم يعبأ كيرلس وممنون بكلامه إذ لا سلطة ليوحنا عليهما. ومكر بتوادوسيوس الملك منفذوه وأوصلوا إليه رسائل يوحنا وأصحابه مشفوعة بمصادقتهم عليها، وأعاقوا رسائل كيرلس وأصحابه فلم يحصحص له الحق، وكتب إلى المجمع مبيّناً سخطه وعدم اعتباره لشيء مماكان إلى وقتئذٍ، وحظّر على كلٍ منهم الخروج من أفسس إلى أن يفحصوا جميعاً ويبتّوا الخلاف في الايمان، وأوفد إليهم معتمداً آخر يسمى بلاّد، فكتب كل فريق منهم إلى الملك ما يؤيد رأيه ويصوّب عمله. وكان محازبو نسطور في قسطنطينية يمسكون رسائل الكاثوليكيين عن أن تصل إلى الملك إلى أن كتب كيرلس رسالة إلى بعض الرهبان الفضلاء في قسطنطينية ضمّنوها الأخبار عن كل ما هو جارٍ ووضعوها في قصبة حملها فقير متسوّل، فمضى جمهور من الرهبان إلى الملك وفي مقدمتهم دلماس أحد رؤساء الأديار، فاطلع الملك على حقيقة ما جرى فشكر الله لبراح الخفاء وأظهر رضاه عما عمله المجمع، ورخّص لخمسة أساقفة أن يأتوا إليه من قبل المجمع كما كانوا قد سألوه.

وفي العاشر من شهر تموز بلغ قصاد البابا إلى أفسس وعقد بحضرتهم المجلس الثاني من المجمع في دار الاسقف، وتُليت رسائل البابا شالستينس التي كان قد أصحبهم بها بعد ترجمتها من اللاتينية إلى اليونانية، فضجّ الآباء بالثناء على البابا وصرّحوا باذعانهم لكل ما أجراه في مجمعه في روما، وما ضمّنه في رسائله. وطلب القصّاد إلى المجمع أن يطلعوهم على ما رسموه في المجلس الأول ليصادقوا عليه. وفي النهار التالي ١١ تموز عُقد المجلس الثالث في دار الاسقفية، واطلع القصّاد على أعمال المجلس الأول وعلى الحكم بحطّ نسطور، فجاهروا بأنّ كل ذلك كان مطابقاً للقوانين المقدسة، وطلبوا أن تعاد تلك الأعمال على الآباء، فتلاها

بطرس كاهن كنيسة الاسكندرية رئيس كتاب المجمع، فأثبتوا الحكم على نسطور وقالوا إنّ هذا إلّا حكم جميع الكنائس، فإنّ جميع أساقفة المشرق والمغرب شهدوا معاً هذا المجمع بأنفسهم أو بواسطة نوابهم، وأُضيف ما جرى في هذا المجلس إلى باقي أعمال المجمع، ووقّع عليها القديس كيرلس والقصاد والاساقفة. وكتب آباء المجمع إلى الملك ينبئونه بنهاية مجمعهم وحرمهم نسطور وعزله عن كرسيه وسألوه أن يرخّص لهم بالانصراف، ووقّع على هذه العريضة القديس كيرلس وجميع الاساقفة الذين حرموا نسطور ويربو عديدهم على مئتي أسقف. ولم يذكر الاساقفة في هذه العريضة شيئاً عما صنعه يوحنا بطريرك انطاكية من حطّه القديس كيرلس وممنون أسقف أفسس معتقدين أنّ الأولى ازدراء عمله لمخالفته القوانين، ولأنه لا سلطة له على حطّهما. وليس له أن ينفرد بمجمع عام في مثل هذا الحطّ دون أن يستدعي المحكوم عليهما ويسمع حججهما. على أنّ القديس كيرلس لما درى أنّ يوحنا رفع حكمه الباطل إلى الملك كتب هو وممنون رسالة إلى الملك يشكوان بها من عمل بطريرك انطاكية، واستدعيا الاساقفة إلى الاجتماع في مجلس رابع في ١٦ تموز. ولما تُليت رسالتهم استحسن الاساقفة أن يدعى يوحنا البطريرك إلى ذلك المجلس ليجيب عن نفسه، وأرسلوا إليه ثلاثة أساقفة فوجدوا داره يحدق الجنود به، فلم يمكنوهم من أن يروه أو يكلموه، فرأى المجمع أن يردّهم ثانيةً إليه عملاً بالقانون، فعادوا فوجدوا الجنود مستلين سيوفهم، وكان هناك بعض كهنة صاحوا بهم أن يبلغوا المجمع أنّ البطريرك لا يريد أن يتعاطى مع رجال محرومين. وطلب كيرلس إلى المجمع أن يحكم ببطلان حكم يوحنا عليه وعلى ممنون، فقالوا إنهم سيقررون ذلك لا محالة بعد أن يستدعوا يوحنا للمرة الثالثة. وأذاع يوحنا في الشوارع اتهامه لكيرلس وممنون ببدع وعزله لهما وحرمهما.

واجتمع الاساقفة في اليوم التالي ١٧ تموز في المجلس الخامس، وأبان القديس كيرلس أنّ تمنّع يوحنا وأصحابه من الحضور إلى المجمع بيّنة قاطعة على أنه ليس لهم حجّة في اتهامهم له، وأقام هو الحجّة على أنه لم ينجح إلى شيء من الضلال الذي عمله ابولينار أو امونيوس وحرم صراحة أمام المجمع هؤلاء المبدعين، وسابيليوس وفوتينس وبولس السميساطي والمانويين وبيلاجيوس ونسطور وكل المبدعين، وطلب أن يستدعى يوحنا وأصحابه كيلا تبقى لهم حجة عليه، وإذا أبوا أن يحضروا لا تبقى صعوبة في الحكم بكونهم مفترين، فأرسل المجمع إليهم ثلاثة أساقفة ومسجلاً،

فأبى يوحنا أن يكلمهم، فأرسل إليه رئيس شمامسته ورقة تمنع الوفد من قبولها، فاحتدم آباء المجمع غيظاً من تصرّف يوحنا هذا، وأرادوا أن يعزلوا يوحنا وأصحابه وأن يحرموهم كما فعلوا هم بكيرلس وممنون، لكنهم آثروا أن يؤجلوا ذلك إلى أن يحكم الحبر الروماني في هذه المسألة واقتصروا على أن يمنعوهم من التصرّف بسلطانهم الاسقفي ومن الاشتراك معهم في الروحيات إلى أن يعرفوا خطأهم ويأتوا إلى المجمع ويبرئوا ساحتهم. وذكر المجمع اسماءهم فكانوا خمسة وثلاثين أسقفاً (لأنّ بعضهم ارعوى) منهم توادوريطوس أسقف قورش. وحكم المجمع أيضاً ببطلان دعاويهم وأحكامهم على كيرلس وممنون وكتب الآباء إلى الملك ينبئونه بذلك كله.

ثم عقد المجمع المجلس السادس في ٢٢ تموز وأثبت فيه قانون المجمع النيقوي مع الزيادة عليه «إنّ الكنيسة الرسولية تحرم كل من يقول أنه كان زمان لم يكن فيه ابن الله أو أنه خُلق من العدم أو أُبدع من جوهر آخر» ونبذ المجمع قوانين أخرى عُرضت فيه. ثم عُقد المجمع السابع وهو الأخير في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تموز على الأصحّ فُحصت فيه دعوى بعض أساقفة قبرص الذين شكوا من أنّ بطريرك انطاكية سطا على حقوقهم بترقية بعض أساقفة في جزيرتهم. مع أنّ سلفاءه من بطاركة انطاكية لم يتدخلوا في رسامة الاساقفة في هذه الجزيرة، والعادة مستمرة، إنّ أساقفة هذه الجزيرة يجتمعون فيرقون الاسقف الحديث إلى الكرسي الفارغ من أسقفه. فحكم المجمع بعد البحث أن يبقى أساقفة قبرص على ما كانوا عليه من عادتهم. ولم يستحسن أن يدعو يوحنا بطريرك انطاكية ليورد ما له من الحجج خيفة أن لا يلبّي الدعوة كما فعل. ثم وضع المجمع ستة قوانين مدارها على من يتبع بدعة نسطور أو انشقاق يوحنا الانطاكي.

وكان الملك توادوسيوس قد أرسل الكنت يوحنا لإزالة الخلاف الذي كان بين الاساقفة فبلغ إلى أفسس في غرة شهر آب فزار كل فريق من الاساقفة منفرداً، ثم طلب أن يجتمعوا لديه، فاجتمعوا وطلب الاساقفة الكاثوليكيون أن يبعد الكنت نسطور عن الاجتماع معهم لأنه محروم. وطلب المنشقون ابعاد كيرلس فأبعد الكنت نسطور وكيرلس لكنه لم يتمكن من التوفيق بين الطرفين. فرفع عريضة إلى الملك بما كان وكتب كل من الفريقين إلى محازبيه في قسطنطينية ما يؤيد دعواه، فأمر الملك أن يخفر على نسطور وكيرلس وممنون وأن يرسل إليه مفوضون من قبل كل فريق. فأرسل الكاثوليكيون فيلبس الكاهن أحد قصاد البابا وسبعة أساقفة،

وأرسل المشاقون ثمانية أساقفة منهم يوحنا بطريرك انطاكية، ويوحنا أسقف دمشق وبولس أسقف حمص، ومكاريوس أسقف اللاذقية، وتوادوريطوس أسقف قورش، فأمر الملك أن يتلبثوا في خلكيدونية ثم حضر إليها ومثلوا أمامه مرات فلم تكن من وسيلة لتوقيفهم. وكان الختام أنه أمر نسطور أن يتوجّه حيث يشاء إلّا قسطنطينية، فمضى إلى الدير الذي تربّى فيه في ضواحي انطاكية، ورخّص لكيرلس أن يعود إلى كرسيه في اسكندرية، ولممنون أن يبقى في كرسيه بأفسس. واستدعى الاساقفة الكاثوليكيين أن يأتوا إلى قسطنطينية ويرقّوا إلى كرسيها بطريركاً مكان نسطور، وانصرف كل من آباء المجمع إلى محله. ملخّص من معجم المجامع للأب بالتيا طبعة الأب مين.

عد ٦٣٩

مجمع أفسس المنعوت باللّصّي

قد رأيت في الكلام على اوطيخا أنه بعد أن حرمه مجمع قسطنطينية لجأ إلى ديوسقورس بطريرك اسكندرية، فسأل الملك توادوسيوس أن يعقد مجمعاً فأمر بعقده سنة ٤٤٩م في أفسس، والتمس برصوما رئيس أحد الأديار المار ذكره أن يرخّص الملك له بأن يشهد هذا المجمع نائباً عن سائر رؤساء الأديار، فرخّص له، وكان هذا أيضاً مغوياً بغواية اوطيخا، وأرسل البابا لاون الكبير قصاداً إلى هذا المجمع، ورخّص الملك للأساقفة الذين حرموا اوطيخا في مجمع قسطنطينية أن يشهدوا المجمع، وحظّر أن يكونوا قضاة فيه لأنه سيكون الكلام على حكمهم. ورأس ديوسقورس على هذا المجمع فافتتح في اليوم الأول من آب سنة ٤٤٩م وكان الاساقفة الملتئمون فيه مئة وثلاثين أو خمسة وثلاثين أسقفاً، وطلب الاساقفة أن يبحثوا أولاً في عقائد الدين، فأنكر ذلك ديوسقورس وأراد أن يبحث في شكوى اوطيخا، وأدخله إلى المجمع، فقدّم كتاب شكواه على القديس افلابيانس يقول فيه إنه على علمه أنه لا يخرج من ديره طلبه أن يأتي إلى المجمع ظاناً أنه لا يأتي فيحكم عليه حكماً غيابياً. ولما أتى وصرّح بأنه يؤمن بكل ما رُسم في المجمعين النيقوي والأفسسي أراد افلابيانس أن يزيد على ذلك شيئاً، ولما تمنّع من الزيادة عملاً بالقانون، حرمه وعزله، فطلب افلابيانس أن يدخل اوسابيوس أسقف دوريلا الذي شكا اوطيخا، فأجابه

البيد منفذ الملك أنه لم يبقَ محل لدخول اوسابيوس بهذه الدعوى لأنه نال ما ابتغى بشكواه اوطيخا، وبقي على من حكم أن يجيب عن حكمه. وأراد قصاد الحبر الروماني أن تتلى رسائله في المجمع فإنه لم يكتبها إلّا بعد أن استوضح دعوى اوطيخا. فقال اوطيخا إن لم يعد له ثقة بقصاد الحبر الروماني لحلولهما عند خصمه افلابيانس. وقال ديوسقورس الأولى أن تتلى أعمال المجمع القسطنطيني الذي شجب اوطيخا ثم يصار إلى تلاوة رسائل حبر روما التي لم تُتلَ في المجمع قط .فتُليت أعمال المجمع، ولما بلغ القارئ إلى تلاوة شهادة من كتب القديس كيرلس يقول فيها أنّ في المسيح طبيعتين، نهض اوسطاتيوس أسقف بيروت فقال إنّ كيرلس قال في محل آخر أنّ في المسيح طبيعة واحدة لئلا يكون قول كيرلس بيّنة لاوسابيوس. ولما قرأ أنّ اوسابيوس أسقف دوريلا طلب من اوطيخا أن يعترف أنّ في المسيح طبيعتين صاح كثيرون من الاساقفة احرقوا اوسابيوس احرقوه حياً شقّوا شطرين من قال إنّ في المسيح طبيعتين؟ ولم يكتفِ ديوسقورس بهذا الهتاف بل طلب أن يحرم الاساقفة كل من يقول بطبيعتين، فصاحوا فليكن محروماً. وسألهم أن يبدي كلٌّ رأيه منفرداً، فقال يوفينال بطريرك أورشليم أنّ اوطيخا صرّح دائماً بأنه متمسك بقانون المجمعين النيقوي والافسسي، فمعتقده إذاً صحيح ويلزم أم يعود لتدبير ديره. وقال دمنس بطريرك انطاكية إنه صادق على رسالة مجمع قسطنطينية المتضمنة حرم نسطور، ولكنه الآن يرى رده إلى مقامه لأنه صرّح باعتقاده ما رسم في المجمعين النيقوي والأفسسي، وتابعهم على ذلك أساقفة المجمع إلّا قصاد الحبر الروماني. ورفع بعض رهبان اوطيخا عريضة إلى المجمع يشكون فيها افلابيانس أنه منعهم من مناولة الاسرار لمجرد محبتهم لاوطيخا، فحلّهم المجمع دون أن يسأل افلابيانس عن أمرهم وهو في المجمع.

ثم أمر ديوسقورس أن يُتلى ما رُسم في المجمع الأفسسي الأول في شأن الايمان، فتلي وكان هذا المجمع ينهى تحت عقوبة الحطّ والحرم من يؤلف أو يستعمل دستوراً للايمان غير دستور المجمع النيقوي، فقال ديوسقورس من حيث أنّ افلابيانس واوسابيوس أسقف دوريلا أحدثا شيئاً خلافاً لنهي مجمع أفسس الأول، وكان عملهما معثرة في جميع الكنائس فنحكم عليهما بالحطّ رالحرم. فقال افلابيانس إني مستغيث من حكمك عليّ، فنهض كثير من الاساقفة وانطرحوا على ركب ديوسقورس سائلينه أن لا يقتحم هذا الأمر الذي سيكون مستغرباً في العالم. ولما

رأى ديوسقورس تكاثر عدد الاساقفة الذين يأبون عزل افلابيانس صرخ أين الجنود؟ فدخل مرخصو الملك وكتيبة من الجند إلى الكنيسة وقد سلّ بعضهم سيوفهم، وشرع بعضهم عصيّهم، ولم يكن يُسمع إلّا الهتاف «حطّوا، اعزلوا، انفوا كل من يخالف ديوسقورس». ووقف هو على منبره ورفع يده قائلاً: «كل من لم يوقّع على الحكم فليعلم أنه يضادني حذار من الخلاف». فرويّة الجنود، وتهديد الرهبان المحدقين ببرصوما، والخوف من العزل والنفي أرعب الاساقفة، فوقّعوا على عزل افلابيانس واوسابيوس على ورقة بيضاء. ولم يبقَ إلّا قصّاد البابا فهؤلاء أقاموا الحجّة على هذا التعدي والجور. وأراد بعض الغلاة اجبارهم على التوقيع واهانتهم ففرّوا من المجمع. وبعد أن أجرى ديوسقورس هذا الحكم الجائر على افلابيانس قد تسبب بموته. فقد روى كثيرون من المؤرخين أنه تقدّم إليه ولطمه على وجهه ورفسه برجله فاقلبه وداس في بطنه ثم اقتاده الجند إلى المنفى حيث مات في طريقه بعد ثلاثة أيام. والمجمع الخلكيدوني يعزو موت افلابيانس إلى ديوسقورس. وأما اوسابيوس فتكمن من الفرار ومضى إلى روما. انتهى ملخصاً عن معجم المجامع المذكورة.

قد عُثر في المتحف البريطاني على نسخة سريانية لأعمال مجمع أفسس اللصّي في عد ١٤٥٣٠ قديمة العهد قد أذاعها السيد باري مع ترجمتها الانكليزية في لندرة سنة ١٨٦٧م. ثم نشرها العالِم هفمان في اللغة الألمانية. وعني الأب مرتين الافرنسي أحد كهنة كنيسة القديسة جنفياف في باريس بترجمتها ونشرها في اللغة الافرنسية سنة ١٨٧٥م. وأضاف إليها مقالات وشروحاً طامية بالفوائد التاريخية والعلمية وأهدى إلينا نسخة من كتابه هذا. على أنّ نسخة الأعمال المذكورة خلت من أعمال المجلس الأول الذي بُرِّئَ فيه اوطيخا وحكم فيه على القديس افلابيانس. وجلّ ما انطوت عليه أمر الملكين توادوسيوس الثاني ووالنتنيان الثالث بافتتاح المجمع وجعل ديوسقورس رئيساً فيه. ثم حكم المجمع في مسألة ايهيبا أسقف الرها، وعزل دانيال أسقف شار، وايريناوس أسقف صور، واكليتس أسقف جبيل، ومحاكمته صفرونيوس أسقف ثلة، وعزل توادوريطوس أسقف قورش وحكمه على دمنس بطريرك انطاكية. وحلّ بعض الاكليريكيين من التأديبات المطلقة عليهم، وشرح الحكم على دمنس المذكور. وأمر الملك توادوسيوس في اثبات هذا المجمع ورسالة ديوسقورس العامة إلى الاساقفة، وقد استشهدنا بشيء من هذه الأعمال في كلامنا على بعض الاساقفة السوريين في هذ القرن.

عد ٦٤٠
المجمع الخلكيدوني العام

لما رأى القديس لاون الحبر الروماني أنه لا بدّ من عقد مجمع مسكوني تلافياً للخلل في الايمان الذي أحدثه مجمع أفسس اللصّي، وللمعاثر التي وضعها، سأل الملك تواودوسيوس الصغير أن يُعنى بالتئام مجمع عام لإزالة هذه الشؤون، وأدركت المنية في هذه الأثناء الملك المذكور، وخلفته الملكة بلوشاريا، واختارت مرقيان للملك معها، فكتب الملك والملكة إلى البابا لاون يسألانه عقد مجمع وأن يرأسه بنفسه إن أمكن. فأجابهما البابا برسالة في ٧ حزيران سنة ٤٥١م أنه كان سأل الملك تواودوسيوس عقد هذ المجمع، وإنّ القلق السياسي الحاصل في المغرب لا يؤذن للأساقفة الغربيين بمزايلة كنائسهم إلى أن اتفقا على عقد هذا المجمع في المشرق. وكان البابا قد أوفد لوشنتيوس أسقف اسكولي وباسيليوس الكاهن إلى أناطوليوس بطريرك قسطنطينية ليعاوناه على إعادة الاتحاد والسلم، وأردف معهما بسكاسينس أسقف ليبيا، وبونيفاس كاهن الكنيسة الرومانية ليكون الأربعة قصاداً من قِبله في المجمع. ودفع إلى بونيفاس مذكرة ترشدهم إلى ما يتصرفون به في المجمع، وأوصاهم أن يتساهلوا مع من يرغب في إصلاح نفسه حقيقة، وأن ينبذوا ويعزلوا من أصرّ على ضلاله، وأن لا يتسامحوا في أن يكون ديوسقورس بين القضاة في المجمع بل يلزم أن يكون بين المشكوين، وأن يترأسوا هم على المجمع نيابةً عنه. واجتمع الاساقفة في خلكيدونية (قاضي كوي) في شهر أيلول سنة ٤٥١م وكان عددهم نحواً من ستمائة أسقف جميعهم من مملكة المشرق إلّا قصّاد البابا وأسقفين من أفريقية. وكان أول مجلس في ٨ تشرين الأول في كنيسة القديسة اوفيميا الشهيدة. وكان هناك تسعة عشر شخصاً من كبراء دولة الملك مرقيان. وما من قائل أنّ الملك شهد بنفسه هذا المجلس الأول ولكن لا شك في أنه شهد المفاوضات له، لأنه ورد أنّ تواودوريطوس أسقف قورش رفع إليه عريضة يبيّن له فيها ما قاساه من الجور والضغط عليه، فأمر أن يدخل المجمع ولا مراء أيضاً أنّ الملك شهد المجلس السادس.

ولما التأم الاساقفة في المجلس تقدّم بسكاسينس القاصد إلى الوسط فقال للقضاة إنّ البابا لاون أسقف روما رئيس الكنائس جمعاء أمره ولسائر القصاد أن لا يلبثوا في المجمع إذا لم يخرج منه ديوسقورس. فسأل القضاة هل من شكوى خاصة على

ديوسقورس، فأجاب القصاد أنه يلزمه أن يبرئ ساحته من طائلة حكمه في أفسس حيث جعل نفسه قاضياً، وجسر أن يعقد مجمعاً خلافاً لسلطان الكرسي المقدّس. هذا لم يسبقه إليه غيره، ولم يكن مسموحاً به. قال وليس لنا أن نخالف أمر البابا ونتجاوز قوانين الكنيسة. وبعد منازعات أمر القضاة ديوسقورس أن يقوم في الوسط مقام مشكو أو مدّعى عليه. ونهض اوسابيوس أسقف دوريلا وسأل أن تُتلى عريضته التي رفعها إلى الملك مبيّناً فيها جور ديوسقورس وضلاله، وكان الملك أرسلها إلى المجمع فأمر القضاة بتلاوتها، وأجلسوا اوسابيوس في الوسط مجلس المدعي. وكان من فحوى عريضته أنّ ديوسقورس نبذ الايمان الصحيح، وأيّد بدعة اوطيخا، وأنه حكم على اوسابيوس حكماً جائراً في مجمع أفسس، وطلب أن تُتلى أعمال هذا المجمع بياناً لصحة دعواه فوافقه ديوسقورس على هذا الطلب. ولكن لما أخذ المسجلون يتلون هذه الأعمال طلب ديوسقورس أن يبحث المجمع أولاً في الايمان، فلم يعبأ القضاة بسؤاله. فقرأوا رسالة الملك تاودوسيوس المؤذنة بفتح المجمع اللصّي حيث كان ينهى عن حضور تاودوريطوس فيه، وكان القضاة قد أدخلوه في مجمع خلكيدونية بناءً على أمر الملك مرقيان، فصاح الاساقفة المصريون المحازبون لديوسقورس أخرِجوا كيرلس وتاودوريطوس فحضورهما ينافي قوانين الكنيسة، وصاح مخالفوهم الأولى طرد ديوسقورس وهؤلاء القتلة، فانهم أعداء الايمان وخصوم افلابيانس. فقال القضاة أن يبقى تاودوريطوس في المجمع في مقام شاكٍ، فقام في الوسط بجانب اوسابيوس أسقف دوريلا واستؤنفت تلاوة أعمال المجمع اللصّي، فقال ديوسقورس أنه لم ينفرد بالحكم فيه بل شاركه يوفينال بطريرك أورشليم، وتلاسيوس أسقف قيصرية، فإنّ الملك كتب إليهما ما كتبه إليه فلم يلتفت الشرقيون لكلامه، بل شكوه بما أجراه عليهم من العنف والضغط. فقالوا هُدّدنا بالنفي وضغط علينا الجنود بعصيّهم وسيوفهم حتى وقّعنا على ورقة بيضاء، فأجابهم ديوسقورس ساخراً منهم كيف تسنّى لكم أن توقّعوا على ما لم تستوضحوه؟ وشكوه أيضاً بأنه أبعد أحد قصاد البابا عن المجمع ولم يشأ أن تُتلى رسائل الحبر الروماني، مع أنه وعد ست مرات بأنه سيأمر بتلاوتها. وسأل القضاة ديوسقورس عما يجيب فلم يكن منه إلّا المراوغة ونسبته بعض أعماله إلى البيد مفوّض الملك.

وبعد الفراغ من تلاوة أعمال مجمع أفسس قرأت أعمال مجمع قسطنطينية، فأجمع الاساقفة على معتقدهم أنّ في المسيح أقنوماً واحداً، ثم تُلي تقرير قدّمه

اوسطاتيوس أسقف بيروت، فكان من فحواه أنه يلزم الاعتقاد أنّ في المسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين، فصاح الاساقفة هذا ما يقوله اوطيخا وديوسقورس. فقال القضاة هل يتفق هذ مع قول القديس كيرلس في رسالته التي تُليت في المجمع. فقال أسقف بيروت أنّ كيرلس قال في كتاب آخر ما قاله هو أنّ افلابيانس قال قوله، فقال له القضاة لِمَ عزلته إذاً عن منصبه؟ وصرّح مستقيمو الراي باعتقادهم بأنّ في المسيح طبيعتين، فانتقل يوفينال بطريرك أورشليم من جهة قصاد البابا وحذوا حذوهم أساقفة اخائيا ومكدونية والابير وكثيرون غيرهم. ورأى ديوسقورس نفسه منفرداً فقال لي اسوة بالآباء الذين طُردوا يعني اثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس، وقد اعتقدوا ما اعتقدت أنّ في المسيح بعد التجسّد طبيعة واحدة. وكان المتحصّل من تلاوة أعمال المجمع اللصّي أنه ظهر علانية الاعتساف والجور الذين أجراهما ديوسقورس ليثبت ضلال اوطيخا ويعزل القديس افلابيانس. وبانت للقضاة براءة هذا القديس الشهيد، واوسابيوس أسقف دوريلا، وقالوا إنّ في عزمهم أن يحكموا على ديوسقورس بالعزل عن منصبه ويتبعوا به شركاءه في مجمع أفسس أي يوفينال بطريرك أورشليم وتلاسيوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف انكورة، واوسطاتيوس أسقف بيروت، وباسيليوس أسقف سلوقية. فصاح الشرقيون إنّ هذا الحكم عادل، إنّ يسوع المسيح يأمر بحطّ ديوسقورس وعزل القاتل، ولم يقولوا شيئاً في الآخرين. وأرجأوا البحث في الايمان إلى المجلس الآتي، وسألوا الاساقفة أن يدوّن كلٌ منهم ما يراه في شأن المعتقد.

وعُقد المجلس الثاني في ١٠ تشرين الأول وطلب فيه القضاة إلى الاساقفة أن يقرروا حقيقة الايمان فأجابوا أنّ في دستور الايمان الذي وُضع في مجمع نيقية غنى عن دستور حديث، وإن لزم زيادة شيء عليه رداً لبدعة اوطيخا ففي رسالة الحبر الروماني إلى افلابيانس بيان كافٍ لذلك، ووقّعوا جميعاً على هذه الرسالة وهتف الاساقفة هذا هو معتقد الآباء، هذا هو تعليم الرسل، فليكن محروماً من لم يعتقد كذلك. إنّ بطرس تكلّم بفم لاون وأرفض الاساقفة. ثم عُقد المجلس الثالث في ١٣ تشرين الأول واستُدعي ديوسقورس ثلاثاً لتكملة محاكمته فأبى تلبية الدعوة متمحلاً أعذاراً واهنة. وقد تقدّم حينئذٍ إلى المجمع بعض اكليرسه في اسكندرية يشكونه بجرائم فظيعة. ولما يئس الآباء من جلبه إلى المجمع حكموا عليه بالعزل عن مقامه الاسقفي، وبالحطّ عن كل خدمة كهنوتية لظهور ما أجراه من الجور والاعتساف في

مجمع أفسس ولقبوله اوطيخا في شركته. وقد حرمه أسقفه لإصراره على الضلال الذي أيّده في ذلك المجمع، ولمنعه من تلاوة رسائل الحبر الروماني. ووقّع القصاد والاساقفة على هذا الحكم وبلّغوه إلى ديوسقورس، وأذاعوه في قسطنطينية وخلكيدونية، ونفاه الملك إلى كنكر في بفليغونيا حيث عاجلته المنية سنة ٤٥٤م.

وقد التأم الاساقفة في المجلس الرابع في ١٧ تشرين الأول، وفيه سأل القضاة القصاد مايرون من أمر دستور الايمان فقال بسكاسينس أنّ المجمع يعتمد على الدستور الذي وُضع في مجمعَي نيقية وقسطنطينية، وعلى ما شرحه القديس كيرلس في المجمع الأفسسي، وما كتبه القديس لاون دحضاً لبدعتَي نسطور واوطيخا. فقال الاساقفة كذلك نرى جميعاً. وقدّم مئة وخمسون أسقفاً ورقة متابعتهم على ذلك، وصرّح الباقون بمثل ذلك مشافهةً، واغتنم بعض الاساقفة فرصة حصول هذا الاجتماع فسألوا القضاة في رد يوفينال ورفقائه المعزولين إلى مناصبهم، فتوقّف القضاة عن مجاراتهم في ذلك إلى أن يروا مايحسن لدى الملك. فقال أولئك الاساقفة أنّ الملك فوّض إلينا الحكم في كل شيء، فرخّص ليوفينال ورفقائه بالدخول إلى المجمع فدخلوا وجلسوا في مصاف الاساقفة، وفي هذا المجلس فصل الاساقفة الخلاف الذي كان بين فوتيوس أسقف صور واوسطاتيوس أسقف بيروت، ذلك أنّ فوتيوس كان يدّعي أنه وحده متريبوليت فينيقية الأولى، ويشكو من أنّ اوسطاتيوس أسقف بيروت نال من الملك توادوسيوس الصغير بواسطة ديوسقورس أمراً بأن تكون بيروت مدينة متريبوليتية، وبقوّته اتخذ الولاية على جبيل والبترون واطرابلس وارتوسيا وعرقا وطرطوس، وأخذ يرقي أساقفة فيها مع أنّ أمر الملك لا ذكر فيه لهذه التجزئة بل صنعها مجمع قسطنطينية سنة ٤٤٩م. وأراد اوسطاتيوس أن يؤجل بتّ هذا الخلاف فقال إنه يلزم التوقيع على دستور الايمان قبل كل ما سواه. وتُليت صورة دعوى فوتيوس فسأله اوسطاتيوس كيف تريد حسم الخلاف؟ أبحسب قانون الكنيسة أم بحسب الأوامر الملكية؟ فأجابه بحسب قانون الكنيسة. وقال القضاة إنّ الملك أمر أنّ مشاغل الاساقفة تُقْضَى بحسب دستور الكنيسة دون التفات إلى غيره. وعليه حكموا بناء على القانون الرابع من مجمع فنيقية، إنّ فوتيوس أسقف صور مسلّط أن يرقي في جميع مدن فينيقيه الأولى، وأنّ اوسطاتيوس لا يكسبه أمر الملك حقاً على غيره من أساقفتها. وإنّ الاساقفة الذين رقاهم فوتيوس وعزلهم اوسطاتيوس يردون إلى مناصبهم، ولم يقل المجمع شيئاً في شأن من رقاهم اوسطاتيوس.

وعُقد المجلس الخامس في ٢٢ تشرين الأول، ودار الكلام فيه على وضع دستور للايمان وكان خلاف على وضع بعض عبارات فيه. وأجمع الآباء على تفويض اثنين وعشرين أسقفاً لانشاء هذا الدستور، فاجتمعوا مع القضاة في معبد فوضعوا الدستور الآتي ذكره ملخصاً «فذكروا أولاً الدستور الذي وُضع في مجمعَي نيقية وقسطنطينية، ثم قالوا إنّ هذا الدستور كافٍ لمعرفة حقيقة الايمان على أنّ أعداء الحق أدخلوا عليه بعض عبارات بعضهم لانكارهم سر التجسد وتسمية مريم العذراء أم الله، وبعضهم لاثبات زعمهم أنه لم يكن في المخلّص للجسد واللاهوت إلّا طبيعة واحدة، وإنّ الطبيعة الإلهية في ابن الله خاضعة للآلام والموت، ولهذا أراد آباء هذا المجمع المسكوني اصلاحاً لهذا الخلل أن يعلنوا أولاً أنّ الدستور الذي وُضع في مجمع نيقية يستمر مرعياً سالماً، ومثله ما رسمه المجمع القسطنطيني في شأن الاعتقاد بلاهوت الروح القدس وأما في عقيدة سر التجسّد فهذا المجمع يعتمد على رسالتي القديس كيرلس إلى نسطور وإلى الشرقيين، فإنهما داحضتان ضلال نسطور ومفسرتان لمعنى الدستور الحقيقي. وكذلك يعتمد على رسالة الحبر الروماني القديس لاون إلى افلابيانس في تفنيد ضلال اوطيخا، وعليه فنحكم باجماع الآراء أنّ سيدنا يسوع الميسح هو واحد كامل في اللاهوت وكامل في الناسوت، إله حقاً وانسان حقاً ذو نفس ناطقة وجسد مساوٍ لأبيه جوهراً بحسب للاهوت، ومساوٍ لنا جوهراً بحسب الناسوت ما عدا الخطيّة. مولود من الآب قبل كل الدهور من حيث اللاهوت، ومولود في الزمان من العذراء أم الله من حيث الناسوت، وهو مسيح واحد وابنٌ وحيد لله ذو طبيعتين دون اختلاط ولا تغيّر ولا تقسّم ولا انفصال. ودون أن يزيل الاتحاد الفرق بين الطبيعتين، بل حفظت كل طبيعة خواصها الجوهرية مجتمعتين في أقنوم واحد» ونهى المجمع عن أن يعلم أحد أياً كان ما يخالف هذا الدستور، ومن خالف إن كان أسقفاً أو اكليريكياً فيُعزل عن منصبه، وإن راهباً أو عالماً فيكون محروماً. وتُلي هذا الدستور في المجمع فأثبته الاساقفة جميعاً.

وفي ٢٥ من تشرين الأول بينما الاساقفة مجتمعون في المجلس السادس أقبل الملك مرقيان يحفُ به القضاة وحاشيته، فخطب في الاساقفة باللاتينية لغة المملكة، ثم اليونانية مبيّناً أنه لم يكن له نيّة بدعوتهم إلى المجمع إلّا المحافظة على الايمان، وإنه لم يرد أن يشهد المجمع اقتداء بالملك قسطنطين إلّا تأييداً للايمان لا لمباشرة شيء من سلطته .ثم تُلي بحضرته دستور الايمان الذي أُنشيء في المجلس السابق

ووقّع عليه ثلاث مئة وخمسون أسقفاً في مقدمتهم قصاد البابا. وقال الملك كل من جاهر من اليوم فصاعداً بخلاف يمسّ عقائد الايمان يُنفى من قسطنطينية، وإن كان ذا منصب روحي أو عالمي يُعزل عن منصبه. فشكر له المجمع هذا الأمر واقترح عليهم بعض قوانين مدارها حفظ نظام الاكليريكيين البيعي والمدني ومجانبة المعاثر في تصرفهم، فوضعها الاساقفة وأثبتوها باتفاق الكلمة. وفي ٢٦ من الشهر المذكور عقد المجمع المجالس السابع والثامن والتاسع. ففي المجلس السابع أثبتوا الاتفاق الذي حصل بين مكسيمس بطريرك انطاكية ويوفينال بطريرك أورشليم. على أنّ فينيقية الأولى والعربية تستمران تحت ولاية بطريرك انطاكية. وأعمال فلسطين الثلاث أي اليهودية والسامرة والجليل تستمر تحت ولاية بطريرك أورشليم. وفي المجلس الثامن ردّ توادوريطوس إلىأسقفيته بعد أن حرم نسطور ونبذ ضلاله ووقّع على دستور هذا المجمع، وكان قد وقّع على رسالة البابا لاون إلى افلابيانس. وفي التاسع سأل ايهيبا أسقف الرها أن يلغي المجمع الحكم الغيابي الذي أصدره عليه مجمع أفسس اللصّي، وأن يُردّ إلى كرسيه، فتُلي الحكم الذي أصدره فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت في ٢٥ شباط سنة ٤٤٨م في صور. وظهر منه أنّ ايهيبا صرّح بايمانه الصحيح وغفر لمن شكوه. وفي المجلس العاشر الذي عُقد في ٢٧ تشرين الأول تُليت أعمال المجمع الذي عُقد في بيروت في ١ ايلول سنة ٤٤٨م، فظهر منها أنّ ايهيبا سقطت عنه الدعوى وحكم بعوده إلى كرسيه، وطلب القضاة أن يُتلى ما كُتب في مجمع أفسس عليه، فعارض قصاد البابا هذه التلاوة لأنّ الحبر الروماني ألغى وأبطل كل ما كُتب في هذا المجمع إلّا ترقية مكسيمس أسقفاً على انطاكية لأنّ البابا قبله في شركته، وارتأوا أنّ في ما قرأوه من البيّنات ما هو كافٍ لردّ ايهيبا إلى مقامه، فطلب القضاة أن يحرم ايهيبا نسطور واوطيخا، فحرمهما للحال، وأجمع الآباء على رده إلى كرسيه. وعُقد المجلس الحادي عشر في ٢٩ تشرين الأول والثاني عشر والثالث عشر في ٣٠ منه. ونظر الاساقفة في هذه المجالس باختلافات كانت بين باسيان واسطفانس أسقفَي أفسس، وبين اونوميوس أسقف نيكومديا وانسطاس أسقف نيقية، نضرب عن ذكرها خشية من ملل المطالع السوري. وأما المجلس الرابع عشر الذي عُقد في ٣١ من تشرين الأول، ففُحص فيه عن دعوى سابنيان أسقف البارة (في شمالي سورية) ذلك أنّ سابنيان كان أساقفة اقليمه رقوه إلى أسقفية البارة عوضاً عن اثناسيوس الذي عُزل عن الكرسي لجرائم

فظيعة، ثم ردّه مجمع أفسس اللصّي إليه. وطُرد سابنيان فدافع اثناسيوس عن نفسه بأنّ دعواه حكم بها القدبس كيرلس والقديس بروكلس بطريرك قسطنطينية. ولكن بعد موت كيرلس استدعاه دمنس بطريرك انطاكية ليحضر إلى مجمع في انطاكية لفحص دعواه فلم يحضر لأنّ دمنس كان عدواً له. وتُليت أعمال مجمع انطاكية في هذه الدعوى وسأل القضاة هل لم يكن أحد من الاساقفة الحاضرين في خلكيدونية وقتئذٍ شاهداً مجمع انطاكية؟ فقال توادورس أسقف دمشق وستة أساقفة آخرون أنهم شهدوا مجمع انطاكية وأنّ اثناسيوس دُعيَ ثلاثاً فلم يُلبِ الدعوة، فحكم القضاة بأنّ الحكم على اثناسيوس بالعزل كان عادلاً، وأن يبقى سابنيان على كرسيه. وألغوا حكم مجمع أفسس عليه بالعزل وأبطلوا حكمه لاثناسيوس بالعود إلى كرسي البارة. وعهدوا إلى مكسيمس بطريرك انطاكية أن يدقق في هذه الدعوى في مدة ثمانية أشهر، فإذا تحقق أنّ اثناسيوس ارتكب ولو جريمة واحدة مما شكي به لا يُحطّ فقط عن الاسقفية بل يُجزى بحسب الشريعة. وإذا مضت ثمانية أشهر ولم تلاحق الدعوى أو لم يثبت جرم عليه فيعود إلى كرسيه ويكون سابنيان معاوناً له بجعل لا يتجاوز تحمّل كنيسة البارة وأثبت المجمع هذا الحكم.

وعند نهاية هذا المجلس طلب بعضهم أن ينظر في دعوى تتعلّق بالكرسي القسطنطيني، فقال القصاد إنّ البابا لم يأمرهم بشيء من ذلك. وقال القضاة إنّ المجمع لا ينظر في شيء خلواً من القصاد. وخرج القصاد والقضاة من المجمع فوضع من بقي فيه من الاساقفة قانوناً مفاده أنّ أسقف قسطنطينية التي أصبحت روما حديثة يكون له التقدّم في الجلوس على جميع الاساقفة إلّا أسقف روما، وأن تنبسط ولايته على متربوليتية بنطس وآسيا الصغرى وتراسة. فلم تسلّم الكنيسة الرومانية بهذا القانون إلّا في بداية القرن الثالث عشر في المجمع اللاتراني الرابع في أيام البابا اينوشنسيوس الثالث. ووضع المجمع الخلكيدوني في مجالسه المذكورة سبعة وعشرين قانوناً وزيد عليها القانون الثامن والعشرون وهو الذي نوّهنا به هنا. انتهى ملخصاً عن معجم المجامع المذكورة.

عد ٦٤١

المجامع الخاصة التي عُقدت في سورية في هذا القرن

عُقد في أورشليم في هذا القرن مجمعان الأول سنة ٤١٥م ويظهر أنه لم يكن فيه من الاساقفة إلّا يوحنا أسقف أورشليم. وكان من جملة الكهنة الذين شهدوه اوروز المار ذكره مرسلاً من القديس اغوسطينس إلى القديس ايرونيموس للمذاكرة في بدعة بيلاجيوس الذي كان أتى فلسطين يبثّ ضلاله كما مرّ. فاستدعى بيلاجيوس ودخل المجمع فشكاه اوروز بأنه علّم أنّ الانسان يستطيع أن يكون دون خطيّة، وييسّر له حفظ وصايا الله إن أراد. فلم ينكر بيلاجيوس أنه علّم ويعلّم كذلك. فقال اوروز إن هذا إلّا الضلال الذي حرمه مجمع افريقية، ونبذه اغوسطينس مشمئزاً، ودحضه ايرونيموس في رسالة إلى قطسفون، فطلب يوحنا البطريرك أنّ اوروز ومن مالأه يدعون دعوى رسمية على بيلاجيوس ويفحمونه أمامه بضلاله. فقالوا يكفينا أن نبيّن أنّ هذا الضلال مخالف للايمان القويم ولتعليم آباء الكنيسة المتعلمين لا المعلمين. وكان يوحنا يجنح إلى تبرئة بيلاجيوس لولا معارضة اوروز، واتفقا أخيراً على أن يرفعا الدعوى إلى البابا اينوشنسيوس وينتظرا حكمه، وأمر البطريرك بيلاجيوس بالصمت عن بثّ تعليمه، وأمر خصومه أن لا يعتدوه مبدعاً قبل حكم الحبر الروماني وانتهى المجمع.

أما المجمع الثاني فعُقد سنة ٤٥٣م ورأسه يوفينال بطريرك أورشليم وشهده أساقفة فلسطين. وكان الداعي لعقده أنّ راهباً اسمه توادوسيوس حرّش بين رهبان فلسطين وحملهم على التشيّع لاوطيخا، وعلى انتخابه بطريركاً على أورشليم قبل عودة يوفينال من المجمع الخلكيدوني. نحطّ هذا المجمع توادوسيوس عن المقام الذي غصبه، وكتب رسالة إلى الكهنة ورؤساء الأديار ورهبان فلسطين يفنّد بها تهم توادوسيوس للمجمع الخلكيدوني، ويبيّنون عدالة هذا المجمع بحكمه على اوطيخا.

وعُقد في ديوسبولي وهي اللد مجمع في ٢٠ كانون الأول سنة ٤١٥م بدعوى بيلاجيوس أيضاً شهده أربعة عشر أسقفاً من فلسطين، وفي مقدمتهم الوجيوس أسقف قيصرية. واتفق أن كان هناك وقتئذٍ أسقفان من افرنسة وهما اروس أسقف ارل ولازار أسقف اكس، فرفعا إليه مذكرة في الاضاليل التي بثّها بيلاجيوس وتلميذه شلستيوس في كتبهما، على أنّ أحد الاسقفين الافرنسيين دهمه

مرض عضال، فلم يتمكنا أن يشهدا المجمع فمكر بيلاجيوس بباقي الاساقفة وراغ وموّه حتى ظنوه لا يخالف الايمان الصحيح بشيء، ولا سيما أنّ تلك المذكرة كانت باللغة اللاتينية وهم لا يفهمونها، وبيلاجيوس يحسن الكلام باليونانية، وأقرّ بفهمه ما كان يجحده بقلبه، فانخدع أولئك الاساقفة بأنه كاثوليكي مستقيم الايمان وقبلوه في شركتهم، ولكنهم حرّموا الاضاليل التي كان يتبرأ منها. ولهذا قال القديس اغوسطينس (في كتابه في أعمال بيلاجيوس): «إنّ أساقفة هذا المجمع برأوا رجلاً كان ينكر البدعة ولكنهم حرموا البدعة التي كان يبثها».

وعُقد في انطاكية في هذا القرن تسعة مجامع الأول سنة ٤١٨م والاظهر سنة ٤٢٤م عقده توادوتس أسقف انطاكية لتفنيد ضلال بيلاجيوس. ولا يعلم علماً أكيداً أفي سنة ٤١٨م كان عقده كما روى منسي أم في سنة ٤٢٤م كما في مجموعة المجامع للباي . وأيّد هذا القول الأخير باجيوس وغيره ممن قالوا أنّ توادوتس لم يرقَ إلى كرسي انطاكية إلّا في سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م بعد وفاة اسكندر سالفه التي كانت سنة ٤٢٠م كما في المشرق المسيحي للكويان (مجلد ٢ صفحة ٦٧٩)

والثاني عقده سنة ٤٣١ أو سنة ٤٣٢م يوحنا بطريرك هذه المدينة وتوادوريطوس وغيرهما من أساقفة بطريركية انطاكية، وحكموا فيه مرة أخرى بعزل القديس كيرلس الاسكندري، ومنعوا رابولا أسقف الرها من شركتهم وحظّروا على أساقفة اقليمه الاشتراك معه إلى أن يحكم بالدعوى عليه حكماً قانونياً. فإنّ رابولا كان محازباً يوحنا المذكور ثم خالفه، وتابع كيرلس الاسكندري على تعليمه، وكتب الاساقفة إلى الملك أنّ الاكليرس والشعب الانطاكي مستمسكون برسوم المجمع النيقوي، ويشمئزون من حروم كيرلس ويسألونه أن يؤيد تعليمهم الصحيح. والثالث عُقد سنة ٤٣٥ أو سنة ٤٣٦م ورأسه يوحنا الانطاكي. وكان الغرض منه الانتصار لتوادورس أسقف المصيصة إذ أرسل بروكلس بطريرك قسطنطينية إلى يوحنا بطريرك انطاكية كتاباً يندد فيه بتوادورس المذكور. وكتب الاساقفة المجتمعون ثلاث رسائل احداها إلى الملك توادوسيوس والثانية إلى القديس كيرلس الاسكندري والثالثة إلى بروكلس بطريرك قسطنطينية يدافعون بها عن توادورس المذكور. والمجمع الرابع عُقد سنة ٤٤٠م لداعي أنّ بعض الرهبان من ارمينيا رفعوا ملخصاً من كتب توادورس إلى بطريرك قسطنطينية، ونشأ عن ذلك قلق في الشعب، فكتب بطريرك

قسطنطينية إلى يوحنا الانطاكي فعقد هذا المجمع. قال منسي إلى هذا المجمع الأخير تعزى الرسائل الثلاث المنوّه بها، وقد أسند منسي قوله إلى كتاب ليباراتس شماس قرطاجنة الموسوم بموجز تاريخ النساطرة والاوطاخيين. والخامس التأم سنة ٤٤٥م فإنّ دمنس بطريرك انطاكية دعا كثيرين من أساقفته للنظر في الدعوى على اثناسيوس أسقف البارة في شمالي سورية بجرائم عديدة، ودُعي هو فلم يأتِ ليبرئ نفسه فحكم المجمع عليه بالعزل عن كرسيه، وأقيم مكانه سابينيان. على أنّ ديوسقورس أعاد اثناسيوس إلى منصبه في مجمع أفسس اللصّي سنة ٤٤٩م فرفع سابينيان دعواه إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م فقضى بها في المجلس ١٤ كما رأيت في العدد السابق.

والسادس عُقد في انطاكية سنة ٤٤٨م بعد الفصح، فإنّ بعض كهنة الرها شكوا أسقفهم ايهيبا المار ذكره مرات أنه يؤيد ضلال نسطور، وأوردوا عليه شكاوى أخرى عديدة، فجمع دمنس بطريرك انطاكية بعض أساقفته وأخذ في سماع الدعوى، على أنّ الكهنة الشاكين توهموا أنّ دمنس تحمله محبته لايهيبا أن لا يقضي لهم عليه. فمضى بعضهم إلى قسطنطينية ورفعوا الدعوى إلى الملك توادوسيوس وافلابيانس البطريرك بسماع الدعوى إلى فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت كما سترى في الكلام على مجمع صور وبيروت. والمجمع السابع الانطاكي عُقد سنة ٤٧٢م اجتمع فيه بعض الاساقفة الكاثوليكيون وعزلوا بطرس القصار الذي كان قد غصب الكرسي الانطاكي سنة ٤٧١م، وكان قد عقدمجمعاً وزاد فيه على التريصاجيون (أي قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت) «يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا» تمكيناً لضلال اوطيخا أنه ليس في المسيح إلّا طبيعة واحدة. وهذه الزيادة مشعرة واضحاً بأنّ الثالوث الأقدس صُلب نعوذ بالله من هذا الكفر. والمجمع الثامن عُقد سنة ٤٧٨م أمر بعقده زينون الملك فأثبت الاساقفة المجتمعون ما رسمه المجمع الخلكيدوني، وحرموا بطرس القصار ونفاه الملك، وأقاموا مكانه رجلاً فاضلاً اسمه اسطفانوس على أنه لم يعش إلّا قليلاً، ومضى إلى لقاء ربه. فانتخبوا للكرسي الانطاكي بطريركاً آخر سمي اسطفانوس أيضاً. والتاسع عُقد سنة ٤٨٢م فإنّ الأوطاخيين قتلوا البطريرك اسطفانوس المذكور تلك السنة، فكلّف الملك زينون اكاشيوس بطريرك قسطنطينية أن يختار خلفاً له، فاختار كالنديون ورقاه إلى الاسقفية. ولكن اجتمع الاساقفة في انطاكية فرقوا إلى

كرسيها يوحنا كندوناتس. وأتى كالنديون إلى انطاكية وأثبت صحّة ترقيته أمام مجمع من الاساقفة واتفق معهم أن يكتب إلى البابا سمبليشس فصحّح الحبر الروماني ترقيته. وأقام كالنديون كندوناتس مزاحمه متريبوليتاً على صور ترضيةً له.

وعُقد مجمع في صور وبيروت سنة ٤٤٨ فقد مرّ بك أنّ بعض كهنة الرها شكوا أسقفهم ايهيبا أنه مغوي بغواية نسطور. وبعد أن أُقيمت الدعوى عند دمنس بطريرك انطاكية، لجأ بعض الشاكين إلى الملك توادوسيوس وافلابيانس بطريرك قسطنطينية، فعهدا بسماع الدعوى إلى فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت،وكان معهما اورانيوس أحد أساقفة ايهيبا وكان الشاكون يروون عن ايهيبا من الضلال ما خشي فوتيوس أن يكون معثرة لشعبه في صور، فنقل المجمع إلى بيروت وبرّأ ايهيبا ساحته من الضلال، وسعى بالصلح بينه وبين خصومه، ورأوا أنّ الفريقين يجنحان إليه فعادوا إلى صور وهناك وقّعوا على الحكم ببراءته، وصلكّ الصلح بينه وبين خصومه. طالع ما مرّ بك في عدد ٦٢٠ وعد ٦٣٣ وعد ٦٤٠.

ملحق

في

تاريخ الموارنة

قد عزمنا أن نلحق بتاريخ هذا القرن الخامس وما يليه تاريخ طائفتنا المارونية، فنفرد في آخر تاريخ كل قرن ملحقاً نتكلم فيه في تاريخها الديني والدنيوي بقدر ما تمكننا الحال من التوصّل إلى معرفته، على بعدنا من كنوز المعارف التي أحرزتها المكاتب والمتاحف الاوروبية. حتى إذا أتاح الله لنا انجاز هذا التاريخ تيسّر أن يؤخذ عنه تاريخ وافٍ لهذه الطائفة يُعلم منه ما كانت عليه من حين نشأتها منفصلة عن غيرها من الطوائف إلى اليوم، وما تقلّب عليها من الأحوال، وما كان بطاركتها وأساقفتها وعلماؤها وحكامها إلى غير ذلك من أخبارها. وما الموارنة إلّا جماعة من السريان السوريين دانوا بالدين المسيحي مذ كان في مهده، واستمروا متشبثين بعرى الدين الكاثوليكي لدى ثوران عواصف البدع في سورية بارشاد القديس مارون ورهبانه الأفاضل. ولذلك نفتتح تاريخهم بذكر القديس مارون الذي يُعتبر أباً لهذه الطائفة وقد اتخذته شفيعاً.

عد ٦٤٢

القديس مارون الناسك

نروي خبر القديس مارون عن تواودوريطوس أسقف قورش الذي كان معاصراً ومجاوراً له ولا يبعد أن يكون عشيراً له. فإنّ تواودوريطوس قال في مقدمة كتابه في النساك حيث تكلّم في القديس مارون: «وكان يلذّ لي أن أطوف في براري قورش وأنعم عيناً بهذه الأزهار العجيبة التي يزري عرفها بأفخر الطيوب». ومن المؤكد أنّ تواودوريطوس رقي إلى كرسي أسقفية قورش سنة ٤٢٣م والقديس مارون كان كاهناً في أوائل القرن الخامس كما يظهر من رسالة فم الذهب إليه من منفاه وسنأتي على ترجمتها. وفم الذهب توفي سنة ٤٠٧م وإذا كان القديس مارون لقي ربه نحو سنة ٤٣٣م على قول بعضهم فيكون عاشر تواودوريطوس أسقفاً، وإن كانت وفاته سنة ٤١٠م على قول آخرين فيكون عاشره كاهناً. فشهادة تواودوريطوس للقديس مارون إذاً لا مرد لها ولا معترض عليها، لأنهما كانا في عصرٍ واحد وبلد واحد وتواودوريطوس ثقة. وإليك ترجمة ما قاله في كتابه في النساك فصل ١٦ .

«سبيلي أن أذكر بعد هذا (أي شيسيماس) مارون، فإنّ هذا أيضاً جمل عقد القديسين الإلهي، فإنه عزم على أن يصرف حياته في البرية لا يأوي منزلاً، فتسلّق إلى قمّة جبل (في قورش)، وكان هناك هيكل للوثنيين يعبدون فيه الأبالس فكرّسه لله، وكان يتردد إليه. ونصب لنفسه مظلّة حقيرة قلّ ما أوى إليها. وكان يجهد نفسه في الاعمال اليدوية التي اعتادها النساك، بل استنبط زيادة عليها حاشداً ثروة الحكمة واثقاً بأنّ المجاهد يزداد نعمةً ما ازداد عملاً. فمنّ عليه الله الجوّاد بموهبة شفاء الأمراض سابغة، حتى ذاعت شهرته في كل قطر، واستأتت إليه الزائرين من كل فج. فكان يحقق خبرهم الخبر، وكنت ترى الحمى تزول بظلّ بركته والأبالس ينهزمون من الممسوسين والمبتلين بأي نوع كان من المرض بعلاج واحد. فللأطباء في كل داءٍ دواء وأما القديسون فلهم دواء واحد في كل الأدواء، وهو الصلاة. ولم يكن يشفي الأمراض الجسدية فقط بل كان يبرئ أيضاً النفوس المعتلّة فيشفي هذا من داء البخل، وذاك من مرض الغضب، معلماً هذا القناعة وشارحاً لذاك وصايا العدل والبرّ حاثاً البعض على العفاف والطهارة ومحرضاً غيرهم على الدعة والتواضع. وقد انكبّ على الحراثة الروحية فغرست يداه اغراساً كثيرة مونعة فيها

ثمار الحكمة، وهذه الجنة المخضلة المزهرة الآن في قورش إنما هي لله من صنع يديه. ومن ثمار هذه الحراثة يعقوب الكبير (يريد يعقوب تلميذ مارون الآتي ذكره) الذي حقّ له أن يخصّ به القول النبوي. «الصديق كالنخل يزهر ومثل أرز لبنان ينمي» وغيره ممن سنأتي على ذكر كل منهم أن شاء الله. وبينما كان منصبّاً على هذه الحراثة في كرم الرب شافياً النفوس والاجساد، دهمه مرض خفيف فقضى به منتقلاً إلى ربه. فكان نزاع شديد بين مجاوريه على جثته، ولما كان أهل البلد الاقرب إليه أكثر عدداً وقد أتوا جميعهم هزموا الباقين واختطفوا هذا الكنز النفيس وبنوا له هيكلاً عظيماً وينتفعون إلى اليوم بمعونته، ويكرمون هذا البطل الظافر بحفلات عامة، وأما نحن فننعم ببركاته وإن كنا بعيدين عنه، ويغنينا ذكره عن قرب ضريحه إلينا» انتهى مترجماً عن كتاب توادوريطوس في النساك الموسوم بالتاريخ الديني عن طبعة الأب مين (مجلد ٨٢ من مكتبة الآباء الشرقيين).

وكان القديس مارون صديقاً صدقاً للقديس يوحنا فم الذهب، يجمعهما ولاء مستديم وحب قديس، تدل على ذلك رسالة كتبها إليه فم الذهب في منفاه وهي السادسة والثلاثون من رسائله التي نشرها الأب مين (في المجلد ٥٢ من مكتبة الآباء الشرقيين) وإليك ترجمتها بما أمكن من الدقّة.

«إلى مارون الكاهن الراهب

أما بعد، فإنّ علاقات المودّة والمعروف التي تضمنا إليك تجعل أبصارنا شاخصة إليك كأنك قائم هنا، فإنّ آواصر المحبة من طبعها أن لا يحجبها بعد المسافات ولا يوهنها طول الزمان. وكان في ودّنا أن تكون مكاتباتنا إليك متتالية، ولكن يحول دون ذلك مشقّة الاسفار وندور المسافرين. والآن نهدي إليك طيّب السلام ونسألك أن تتيقّن أننا نذكرك كلّ حين وأنّ لك في فؤادنا منزلة أينما حللنا. فاهتمّ أنت إذاً بأن تواتر إلينا أنباء عافيتك، فإنّ أخبار صحتك على بعدنا بالجسد تولينا عظيم السرور وتخوّلنا تعزية كبرى في غربتنا ووحدتنا، ويلذّ لنا كثيراً أن نعلم أنك متعافٍ وجلّ ما نسألك إياه أن تصلّي وتبتهل لله من أجلنا».

وهذه الرسالة لم تكن مؤرخة، ولكن لا بد من أنها كُتبت في احدى السنين من سنة ٤٠٤ إلى سنة ٤٠٧م التي كان فيها فم الذهب في المنفى. وقد أنبأنا

العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الأهدني (في كلامه في تاريخ الموارنة على القديس مارون) أنّ هذا القديس لم يقتصر على الإماتات والتقشُّف والعكوف على الصلوات وهو منتصب على قدميه،بل باشر أعمال الرسالة. فإنه كان يجول أحياناً متعهداً النساك والمجاهدين حاضاً لهم على تحمّل مشاق سيرتهم وعلى التقدّم في الكمال والحكمة الروحانية، ويطوف في القرى والمدن مستميلاً الكفرة والأثمة إلى سواء السبيل، حاثاً المؤمنين على مجانبة الرذائل والجدّ في السير في طريق الفضيلة، داعياً الموسرين إلى مباشرة أعمال الرحمة معزياً البائسين إلى غير ذلك من أعمال الرسالة.

أما سنة وفاة القديس مارون فلم يذكرها توادوريطوس ولم نعثر في كتب القدماء على ما يعيّنها. والذي رواه العلامة البطريرك بولس مسعد (في كتابه الدرّ المنظوم صفحة ١٣١) أنه لقي ربه سنة ٤١٠م. وجاء في المعجم التاريخي الجغرافي لبويليا (في طبعته الحادية والثلاثين التي صححها وهذّبها عمدة من العلماء) «القديس مارون ناسك ورع كان في سورية في القرن الخامس رقي إلى درجة الكهنوت سنة ٤٠٥م وأدركته الوفاة سنة ٤٣٣م، وقد نسك على جبل قريب من قورش، واستدعى إليه جمعاً كبيراً من التلامذة، فأنشأوا أدياراً عديدة. ويعيّد لذكره في ٩ و ١٤ شباط». وحبذا لو كان مؤلف هذا المعجم أو مصححوه أنبأونا عمن من القدماء أخذوا رواية تاريخهم لترقي القديس مارون إلى الكهنوت ولوفاته. أما المعبد الذي أُقيم على ضريحه ثم صار ديراً لرهبانه فلم يذكر توادوريطوس محله ولا اسم البلد الذي أهله اختطف جثة القديس مارون لأنّ ذلك كان معلوماً عند ذلك الجيل. والذي عليه المحققون، أنّ المعبد والدير كانا على شاطئ العاصي بين حماه وحمص كما حقق السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٧) مفسراً كلام توادوريطوس، ومستشهداً باجيوس (في تاريخ سنة ٤٠٠ عد ١٩) الذي قال: «إنّ هذا الدير نزله الجميع منزلة أول الأديار في سورية الثانية كما يتبيّن من أعمال المجمع الخامس المسكوني الذي شهده بولس الشماس ويوحنا الكاهن ووقّعا على رسائل رهبان ذاك الاقليم إلى يوستنيانس الملك، وإلى منّا بطريرك قسطنطينية بمنزلة نواب دير القديس مارون أول أديار سورية الثانية».

وقد أخذ المؤمنون يعيّدون للقديس مارون بعد وفاته كل سنة بحفلات عامة كما رأيت في كلام توادوريطوس. وتعيّد الكنيسة الرومانية له في ١٤ شباط ومثل

ذلك كنيسة الروم وتسميه مارونيوس بحسب صيغة نهاية الاسماء اليونانية. "وكان الموارنة قديماً يعيّدون له في الخامس من كانون الثاني وهو اليوم الذي كرّس فيه القديس يوحنا مارون كنيسة دير كفرحي باسمه في أواخر القرن السابع. قال العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي (في تاريخ الموارنة) تشهد للتعييد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني نسخ الشحيم المخطوطة احداها خطّها الشماس الياس بن داود من بلاد اطرابلس سنة ١٨٠٥ يونانية توافق سنة ١٤٩٤م، وأخرى خطّها جرجس البردوط ابن يوحنا بن بشارة التحومي سنة ١٥٣٣م في قبرص بقرية قرباسية. وكان الموارنة يعيّدون للقديس يوحنا مارون البطريرك في ٩ من شباط وصاروا يحتفلون لذكر القديس مارون ويوحنا مارون في يوم واحد كما يظهر من فهرست أعيادنا المطبوع في روما. وفي سنة ١٧٨٧م نقل البطريرك يوسف اسطفان عيد القديس يوحنا مارون إلى الثاني من آذار واستمر عيد القديس مارون في ٩ شباط إلى اليوم (ملخص عن الدرّ المنظوم وتاريخ الأهدني).

وأما الأديار التي بُنيت على اسم القديس مارون فكثيرة، منها الدير المذكور الذي بُني في محل مدفنه بين حماه وحمص بالرستن. ويقال أنه كان فيه ثمانمائة راهب، وكان يسمى دير البلّور. ومنها دير قريب من مخرج نهر العاصي ويسميه أبو الفدا مغارة الراهب، وقد نُقرت مخادعه كلها في صخرة صمّاء. ومنها دير على مقربة من دمشق قال الدويهي فيه: قد استدللنا برسومه وأطلاله الباقية إلى الآن على عظمته وحسن رونقه. وقد ذكره ابن الحريري المؤرخ في كلامه على الملك الحاكم بأمر الله في تاريخ سنة ٣٨٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٩٥ م حيث قال: «إنّ الملك كان ينزل بمكان يقال له الدكة بين نهر يزيد وتورا، وقيل هي فوق نهر يزيد قرب دير مارون». ومن أدياره الشهيرة دير بناه القديس يوحنا مارون في بلاد البترون في شرقي قرية كفرحي، فإنّ هذا البطريرك لما فرّ من وجه جيش يوستنيانس الأخرم سنة ٦٩٤م سار على ما قيل من انطاكية إلى دير الرستن، فأخذ هامة القديس مارون ولما استقرّ في كفرحي بنى هيكلاً وديراً على اسم القديس مارون ووضع هامه هنالك. وسمي ذلك الدير ريش مارو ܪܝܫ ܡܪܘܢ أي راس مارون أو ܪܝܫ ܡܪܢ (ريش مُارَن) أي راس سيدنا. وأمر أن يعيّد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما مرّ ذكراً لنقل هامته إلى هذا الدير.

قال العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة). روى لودوفيكس بن يعقوب في

كتاب له جمع فيه تراجم القديسين الموجودة ذخائرهم في مدينته فولينيو بايطاليا أنه في سنة ١١٣٠م قدم الشام أحد رهبان القديس مبارك وطاف في الأماكن المقدّسة، وبعد أن أتمّ زيارته جال في لبنان وظفر بهامة القديس مارون، ففرح بها فرحاً عظيماً وأخذها إلى وطنه، وطفق يخبر الشعب بفضائل هذا القديس وبالمعجزات التي أجراها الله على يده والأمّة المنتمية إليه، فبنى له أهل فولينيو كنيسة ووضعوا فيها هامة القديس مارون في ١٨ آب، فانتشر ذكره في تلك الأصقاع وكثر عداد من يحجون إلى كنيسته، وفرضوا عيداً سنوياً له. ومنح أحد الاحبار الرومانيين غفران مئتي يوم لمن زار كنيسته يوم عيده. ثم إنّ لوقا أسقف فولينيو نقل سنة ١١٩٤م راس القديس مارون من هذه الكنيسة إلى كنيسة الاسقفية وعمل له المؤمنون صواناً من فضة ويعيّدون له كل سنة في العاشر من آذار، ويطوفون به أمام الشعب بالتجلّة والاحتفاء.

هذا ما رواه العلامة الدويهي ونقله عنه العلامة البطريرك بولس مسعد، وقد تسنى لي مدة اقامتي في روما سنة ١٨٨٧م أن قابلت أسقف فولينيو وحدثته في هذا الشأن، فحقق لي أنّ التقليد عندهم ينطبق على ما رويته. وإنه ما برح في كنيستهم شيء من هامة القديس مارون يعطون منه المؤمنين ذخائر، فسألته أن يتحفني بشيء منها فأهدى إليّ خمساً منها، فكنت له شاكراً لهدية أثمن عندي من الذهب والجواهر.

وقد تعطّف الحبر الأعظم الروماني البابا اكليمنضس الثاني عشر ومنح في براءته المؤرخة في ١٥ نيسان سنة ١٧٣٤م، وفي براءة أخرى مؤرخة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٤٠م غفراناً كاملاً يغنمه من اعترف بخطاياه، وتناول القربان الأقدس، وزار احدى كنائس الرهبان أو الراهبات اللبنانيين أو رهبان القديس أشعيا في ٩ شباط الذي يعيّد به الموارنة للقديس مارون. ثم عمّم العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر في براءته المؤرخة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م هذا الغفران الكامل لكل من يزور أيّة كنيسة كانت من كنائس الطائفة المارونية المبنية وقتئذٍ، والتي سوف تُبنى يوم عيد القديس مارون في ٩ شباط. ومن شاء الاطلاع على هذه البراءة فليراجعها في كتاب الدرّ المنظوم للمثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٣٣.

عد ٦٤٣

تلامذة القديس مارون

قد أشار توادوريطوس في كلامه في القديس مارون إلى أنه الغارس والحارث الجنّة الله في قورش كما رأيت. وإنه قد أينع من هذه الجنّة ثمار شهيّة ذكر منها يعقوب معيناً، وقال إنه سيأتي على ذكر الباقين مفصلاً. وعليه فيظهر أنّ أكثر النساك الذين ذكرهم بعد مارون إنما هم بأجمعهم تلاميذه أو متابعوه في طريقته. وقد صرّح توادوريطوس في كلامه على كثيرين منهم بأنهم من تلاميذ القديس مارون، أخصّ هؤلاء أولاً يعقوب الناسك الذي وصفه توادوريطوس بالكبير. وقل إنه زاره وقد كان مضى على جهاده نحو من ثماني وثلاثين سنة، فرأى منه ما يُدهش العقول، وإنه يُروى عنه لا ما رواه له غيره بل ما رآه بنفسه من جهاده وتقشفه ولبسه المسح، واثقاله نفسه بالحديد، وتعرّضه لحرّ الشمس صيفاً، وللبرد القارس والعواصف والثلج والجليد شتاءً، واقتياته بقليل من العدس المبلول، وصرفه أكثر نهاره وليله بالصلوة والتأمل. وإنّ الله قد منّ عليه بموهبة صنع المعجزات. وقصّ توادوريطوس أخبار كثير منها، وفي جملتها اقامه ابن فلاح من الموت. وقال هذا المؤرخ عند ذكره هذه الآية: «إني رأيت بنفسي هذا الغلام وسمعت أباه يخبر بهذه الآية الرسولية، وذكرتها لكثيرين عالماً بما يكون من الفائدة من هذا الخبر. وجاء في سنكسار طائفتنا في ٢٠ شباط أنّ هذا القديس أقام ابنة فلاح من الموت. ولا شك في أنّ ذلك زلّة من قلم الناسخ لأنّ توادوريطوس المعزو خبر الآية إليه قال إنّ المنبعث ابن لا ابنة. ومن آيات القديس يعقوب التي رواها هذا المؤرخ العلامة الثقة مساعدته له في مضايقه بنوعٍ عجيب، وابراؤه كثيرين من المرضى أمراضاً عضالة، واخراج الأبالس من الممسوسين وطرده الشيطان إذ تراءى له بصورة وحش ليخرجه من الجبل الذي كان ناسكاً عليه، وإذ تراءى لأحد تلاميذه بهيئة معلمه وكان يأخذ من يده الماء الذي استقاه له، ويريقه على الأرض ليعذّب القديس بالظمأ. فتقاطر الناس إليه من كل صوب حتى أنّ الجبل الذي كان خامل الذكر قبل نسكه عليه أصبح يؤمه الناس من كل طبقة، ويأخذون من ترابه ويتهادون به تبركاً وطلباً للشفاء.

ومن تلامذة القديس مارون القديس تلاسيوس المسمى ليميناوس أيضاً، وقد

كتب توادوريطوس ترجمته في الفصل ٢٢ من كتابه المذكور قائلاً إنّ ما رواه عنه رآه بنفسه، إذ اجتمع به وأنس بحديثه العذب مرات. وإنه أتى إلى مارون العظيم إذ كان عنده يعقوب المار ذكره. ثم نسك في جبل قورش قريباً من القرية المدعوّة جرجلة أو ترجلة، وأقام له حظيرة من حجر وحبس نفسه فيها لا يخرج منها ولا يُدخل أحداً إليها. بل يخاطب الناس من كوّة في جدارها، ولم يفتح بابها لأحد إلّا لتوادوريطوس عند زيارته له. وقد شابه الرسل بآياته فكان يُبرئُ المرضى، ويشفي الممسوسين. وقد اعتراه المرض المعروف بالقولنج، فلم يعالجه إلّا بالصلوة. وداس في طريقه أرقم فلدغه عشر لدغات في يديه ورجليه فتحمّل من ذلك آلاماً مبرحة صابراً. وسمح الله بمصابه تبياناً لصبره الجميل، ولم يتداوَ إلّا بطليه محال اللدغات برهم الصليب والصلوة. ورأى كثيرين من العمي يستعطون الصدقة فابتنى لهم مخادع حوله، وكان يُنفق عليهم من صدقات المؤمنين ويعلّمهم التسبيح لله. واستمر على جهاده كيعقوب ثماني وثلاثين سنة. ويعيّد لذكره في ٢٢ شباط.

وذكر توادوريطوس بعد هذين يوحنا الناسك الذي انفرد في جبل شمالي قورش وأقام به خمساً وعشرين سنة غطاؤه الجو وفراشه الأرض وطعامه الخبز والملح ولباسه المسح مسمّرة به صفائح من حديد ثقيلة. ثم موسى الناسك الذي صرف سنين متطاولة في قمة جبل شامخ حذاء قرية تدعى راماص. ثم انطيوكس وانطونينوس اللذين زهدا في شيخوختهما وعكفا على الصلاة والسهر والصوم المديد. ثم زابينا الشيخ الذي كان القديس مارون يحبه حباً شديداً ويجلّه لتقدّمه عليه سناً، ويدعوه أباً ومعلماً له. وكان يرسل إليه من يقصدونه ليستمدوا البركة منه. حتى أرسل إليه تلميذه يعقوب المار ذكره ليلبسه اللباس الشعري. ولما كان زابينا توفي قبل مارون، أوصى مارون تلاميذه أن يدفنوه في قبر زابينا. ومن هؤلاء أيضاً بوليكرونيوس، وموسى آخر، ودميانس، ويعقوب آخر، ذكر جميعهم توادويطوس، وأخذ عنه العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة) موجز تراجمهم.

ومن مشاهير هؤلاء بردات ويسميه السريان ܒܪ ܚܕܕ، (بَارْ هَدُدْ) ذكره توادوريطوس في الفصل السابع والعشرين . ووصف جهاده ونسكه العجيب، وقد اشتهر هو ويعقوب الكبير المار ذكره بفضائلهما بل بعلمهما أيضاً. حتى أنبأنا افاغريوس (ك ٢من تاريخه فصل ٩): «إنّ الملك لاون كتب رسائل عامة إلى جميع أساقفة المسكونة وإلى مَن تساموا في السيرة الرهانية يسألهم عما يرون في شأن

المجمع الخلكيدوني وترقية بطرس الألثغ إلى كرسي اسكندرية». ومن هؤلاء سمعان العمودي... وبردات الراهب ويعقوب السريانيان. وروى كذلك توافان في تاريخ سنة ٤٥٢م قائلاً إنّ الملك لاون كتب أيضاً إلى القديس سمعان العمودي وبردات الراهب ويعقوب صانع العجائب، واستحلفهم ليجيبوا كأنهم يؤدون لله حساباً عما يرون في هذه المسائل المختلف فيها. وقد ذكرهما أيضاً افرام البطريرك الانطاكي، كما أثبت فوتيوس (في مكتبته ك ٢٢٨) حيث قال أنّ افرام هذا كتب رسالة ومما قاله فيها: «إنه يلزم الاقتداء بسمعان (العمودي) وبردات ويعقوب الذائع صيت فضائلهم في المسكونة كلها. وقد صرفوا حياتهم برمتها في السيرة الرهبانية». وقال (في ك ٢٢٩) في افرام أيضاً «إنّ هذا كان مبشراً باسلاً بالمجمع الخلكيدوني الذي أثبته ثلاث مئة وسبعون أسقفاً بتوقيعهم، وأيّد هذا الايمان سمعان ويعقوب وبردات العجيبة سيرتهم». ونرى رسالة بردات الجواب للملك معلّقة في ذيل المجمع الخلكيدوني عدد ٦١. طالع المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٢٥٥ وصفحة ١٩).

ولم يكن للقديس مارون تلاميذ فقط بل كانت له تلميذات أيضاً، منهنّ مارانا وكورة، فهاتان كانتا من حلب من أسرة شريفة فتركتا مجد العالم وزهوه وحبستا نفسيهما في غرفة حجرة، ولم تتركا منفذاً فيه إلّا كوّة صغيرة تتناولان الطعام منها. وعكفتا على الورع والتهجد والصلوة، واقتدتا بايليا النبي بصومهما أربعين يوماً.ولم تكونا تكلمان أحداً إلّا في الخمسين يوماً من أحد القيامة إلى أحد العنصرة،بل مارانا وحدها كانت تكلّم الزائرين والمسترشدين، وكورة لم يسمعها أحد تتكلم. وكان لباسهما خشناً وتثقلانه بالحديد حتى حدبت كورة لضعف جسمها. وقال توادوريطوس أنه زارهما وقد قصدتا زيارة الأماكن المقدّسة ومضيتا ماشيتين لم تذوقا زاداً في سفرهما. ولما أتمّتا زيارتهما تناولتا قوتاً ثم عادتا صائمتين إلى حلب. هذا ما وجدته في نصّ توادوريطوس (في طبعة الأب مين)، وأراه أصحّ مما روي في تاريخ الدويهي المطبوع حديثاً، وفي سنكسار طائفتنا في ٢٨ شباط من أنهما لم يأكلا شيئاً في سفرهما ذهاباً وإياباً. وقال العلامة الدويهي «إنّ منزلهما في حلب كان معروفاً إلى أيامه بدار كورة».

ومن هؤلاء التلميذات دمنينا قال توادوريطوس فيها (فصل ٣٠) إنها اقتدت بالقديس مارون في نسكها، وكانت ابنة والدين حسيبين غنيين. ولما توفيا ضربت كوخاً من هشيم الذرة في بستان أمها، وكانت تقضي يومها كله مصلّية باكية على

ذنوبها وتبلّ فراشها الشعري بدموعها. وكان طعامها العدس النقيع. وكانت تنفق من مال أمها على من ذكر من النساك والمعوزين. قال توادوريطوس إنّ كثيرات من النساء أحببنَ هذه الطريقة فآثر بعضهنّ السيرة المنفردة، وبعضهنّ العيشة المشتركة حتى ربا عدادهنّ إلى نحو مئتين وخمسين عابدة يأكلنَ طعاماً واحداً، ويرقدنَ على الحصر، ويغزلنَ الكتان، وأفواههنّ تترنم بالتسابيح لله. انتهى

الباب السادس

تاريخ سورية في القرن السادس

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

الملوك القسطنطينيون في هذا القرن وما كان في سورية في أيامهم

عد ٦٤٤

الملك يوستينس

مرّ في الباب السابق أنّ انسطاس الملك استمر على منصّة الملك إلى سنة ٥١٨، وقد خلفه بعد وفاته يوستينس الملك، وكان قد وُلد في تراسة سنة ٤٥٠م وأصله من قبيلة الصقالبة، وكان في حداثته راعياً للمواشي أو عاملاً في الأرض إلى

أن أتى قسطنطينية في أيام الملك لاون، وتجنّد وترقّى في مناصب الجندية حتى ضمّه الملك إلى حرسه، وجعله الملك انسطاس من رجال الندوة، ثم أمّره على الحرس الملكي. ولما خرمت المنية انسطاس نادى به الجند والشعب ملكاً في ٩ تموز سنة ٥١٨م. وروى بركوب المؤرخ المعاصر له أنه لم يكن يحسن القراءة ولا كتابة اسمه. وربما كان المراد أنه لم يكن يحسن كتابة اسمه باللاتينية، لكنه كان منصفاً حليماً كريماً راسخاً في الايمان الكاثوليكي. ومما روى عنه أنّ رجلاً اسمه اولاتيوس كان موسراً فذهب ماله وأوصى لدى احتضاره أن يكون الملك وارثاً له ليربي ثلاث بنات له، ويجهزهنّ ويفي دينه، فتقبّل الملك الوصيّة وأتمّ كل ما دوّنه الموصي بها.

ومما كان في أيامه أنه كان بين الحميريين في اليمن كثير من المسيحيين، لكن الملك كان يهودياً اسمه دميون، فسطا على قافلة لتجار رومانيين عند مرورها ببلاده إلى الحبشة، فوقف دولاب التجارة مع الحبشة واستاء يوستينس وملك الحبشة من هذا الصنيع، فحمل ملك الحبشة بامداد يوستينس على دميون فقتله، وانهب بلاده وأقام مكانه ملكاً مسيحياً. وكان ملك الحبشة وثنياً اسمه اليسبان وقد نذر أن يتنصّر إن عاد ظافراً، وأرسل بعد عودته رجلين من شرفاء بلاده إلى يوستينس يسأله أن يرسل أسقفاً وكهنة لينصّروه، وهذا مؤذن بأنّ الوثنية تغلبت على النصرانية عند الأحباش بعد وفاة فرومنسيوس الذي كان قد نصّرهم في أيام الملك قسطنطين والقديس اثناسيوس. فكتب الملك يوستينس إلى والي مصر أن يتفق مع البطريرك الاسكندري الذي حقق السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٣٨٢) إنه كان كاثوليكياً واسمه استريوس، فأرسل إلى الحبشة يوحنا بعد أن رقاه إلى الاسقفية على مدينة أكسوم عاصمة الحبشة حينئذٍ. فعمّد الملك وكثيرين من كبراء دولته وشعبه، وانتشر الدين المسيحي ثانيةً في الحبشة بعناية الملك يوستينس. على أنّ الملك المسيحي الذي أقامه ملك الحبشة في حمير لم يعش إلّا قليلاً، وانتهز اليهود فرصة الشتاء بين سنة ٤٢٣ وسنة ٤٢٤م فأقاموا ملكاً يهودياً اسمه دونان، وقتلوا جماً غفيراً من النصارى، وحوّلوا كنائسهم إلى مجامع، وقتل دونان مئتين وثمانين كاهناً، وألحق بهم كل من بقي في اليمن من الأحباش، ومضى إلى نجران بجيش لايقلّ عن مئة وعشرين ألف مقاتل. فدخل المدينة بحيلة وانتهب كل ما فيها وأحرق الكنيسة بمن لجأ إليها من الكهنة والشعب، وأخرج عظام القديس بولس أسقفها الذي كان قد توفي منذ سنتين، فأحرقها وأبسل كل من لم يجحد دينه من

أطفالهم ونسائهم. وكان أميرهم اسمه حارث وكان له من العمر خمس وتسعون سنة، فأماته مع امرأته رحمة، وبناته، وثلاث مئة وأربعين رجلاً من أعيان نجران. والكنيسة الرومانية تعيّد لذكر هؤلاء الشهداء في ٢٤ من تشرين الأول. وكنيستنا المارونية تعيّد في ذلك اليوم للشهيد حارث المذكور. ويقال أنّ استشهاده كان في أيام الملك يوستينيانس لأنّ السريان يسمون أحياناً يوستينس ويوستينيانس كما حقق العلامة السمعاني (في المجلد المذكور).

إنّ كل ما مرّ خلاصة رسالة كتبها سمعان أسقف مدينة تسمى بيت أرشم في بلاد فارس إلى سمعان رئيس دير جبلة في سنة ٨٣٥ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٤ للميلاد، ذكرها السمعاني (مجلد١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٦٤) بحروفها عن يوحنا أسقف آسيا عن ديوانسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون. ومآل هذه الرسالة إلى سمعان الاسقف كاتبها سافر من حيرة النعمان في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٣٥ يونانية (سنة ٥٢٤ م) مع ابراهيم القس ابن افردس المرسل من الملك يوستينس إلى المنذر ملك السراكسة (غير المنذر الذي كان قد تنصّر في أيام الملك انسطاس) ليسعى بتأمين النصارى في بلاد الحميريين، وأنهما بلغا إلى المنذر في المحل المدعو رمله بعد عشرين يوماً من سفرهما. فتلا المنذر عليهما رسالة وردت إليه من دونان ملك حمير اليهودي يقصّ عليه كل ما أجراه على النصارى في ملكه، ويحثه على اهلاك النصارى في ولايته. وقد ضمّن سمعان في رسالته رسالة دونان بحروفها. وعنها لخصنا ما رويناه آنفاً. وفي تلك الرسالة ما يستنزف الدموع اشفاقاً على هؤلاء الشهداء ولا سيما النساء والأطفال منهم، وما يدهش العقول من ثباتهم وشجاعتهم. والرسالة مسهبة لا يُسمح القيام باثباتها هنا.

ثم إنّ يوحنا أسقف آسيا ينجز أخبار هذه الأحداث، ويروى ديوانيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون كلامه الآتي ملخصاً: «لما عرف ملك الحبشة ما أجراه دونان واليهود على النصارى في اليمن احتدم غيظاً وجيّش جحفلاً زحف به دونان، فقبض عليه وقتله وبدّد عسكره، وأثخن باليهود، وأقام ملكاً مسيحياً على اليمن اسمه ابراهيم، فاجتمع إليه النصارى المبددون، وبنى ملك الحبشة لهم كنيسة». وكان الملك يوستينس قد كتب إلى استريوس بطريرك الاسكندرية ليحثّ ملك الحبشة على حجب دماء النصارى في اليمن، فكتب اليسبان ملك الأحباش إلى استريوس يبشره بهذا الظفر، فأخبر الملك يوستينس بما كان، وأرسل أسقفاً إلى

اليمن هو القديس كراجنتيوس، فكرّس الكنيسة وجمع شمل النصارى المبددين، وربح غيرهم من اليهود والوثنيين، وأقام كهنة وشمامسة. ومضى اليسبان إلى نجران وأقام كنيسة جمع إليها عظام أولئك الشهداء وعاد إلى أكسوم عاصمة ملكه. والقديس كراجنتيوس جادل علماء اليهود أمام الملك جدالاً استمر أربعة أيام، فأفحمهم وأبكمهم فتنصّر كثيرون منهم.

نقول استطراداً إنّ ما مرّ هنا وما رواه السمعاني في محال عديدة من المكتبة الشرقية وغيره من المحققين عن أساقفة العرب وكراسيهم في هذه القرون يبيّن بطلان زعم كثيرين من العلماء الاوروبيين أنه لم يكن نصارى في العربية قبل ظهور الاسلام. فقد كان من العرب قبل ظهور الاسلام أساقفة كثيرون وكنائس مزهرة وشهداء صناديد كمن ذكرناهم، وعلماء وشعراء مسيحيون، ولهم اشعار ذكروا فيها الصليب وعيد الفصح والقدّاس والقربان. ومن مشاهير شعرائهم امرؤ القيس والأخطل، وليس من يقيم نكيراً على كونهما ميسحيين.

ومن أعمال يوستينس الملك أنه طرد ساويرس من بطريركية انطاكية، وأخسينا من أسقفية منبج، وبعنايته أدخل في شملاية القداس ذكر المجامع الأربعة المسكونية أي النيقوي والقسطنطيني والأفسسي والخلكيدوني. وكان ذلك سنة ٨٣٠ يونانية أي سنة ٥١٩ م على ما في تاريخ كنيسة الرها. وقد عُقد صلحاً مع تيودريك ملك الغطط، وحارب الفرس وظهر عليهم، وأقام باليصار الآتي ذكره والياً في دارا، وكانت له أيادي تذكر فتشكر عندما خربت انطاكية بالحريق والزلزال كما سترى في العدد التالي. وقد لقي هذا الملك الصالح ربه في العاشر من شهر آب سنة ٨٣٨ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٧م كما في التاريخ الرهاوي وعمره سبع وسبعون سنة بعد أن ملك تسع سنين.

عد ٦٤٥

خراب انطاكية في أيام الملك يوستينس

قد خربت انطاكية بالزلزال مراتٍ أشهرها الزلزال الذي كان في أيام ترايان الملك سنة ١١٥م على ما روى بارونيوس. ثم الزلزال الذي كان في أيام الملك لاون بين سنة ٤٥٧ أو سنة ٤٥٨ أو سنة ٤٥٩م على اختلاف الأقوال، وأظهرها

أنه كان سنة ٤٥٩م على ما حقق السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢١١ وما يليها) سنداً إلى أقوال افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٢)، ويوحنا ملالا وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون حيث قال: «سنة ٧٧٠ (يونانية توافق سنة ٤٥٩ م) حدث زلزال شديد خربت به انطاكية المرة الرابعة في الساعة الثالثة من ليل الأحد». وقد رثاها حينئذٍ القديس اسحق الكبير بمرثيته الشهيرة. أما الزلزال الذي فيه كلامنا الآن فكان سنة ٥٢٦م وإليك ما قيل فيه بالتاريخ الرهاوي: «في سنة ٨٣٧ يونانية (الموافقة سنة ٥٢٦ م) في التاسع والعشرين من أيار في الساعة السابعة من يوم الجمعة كان زلزال شديد عنيف أقلب أكثر أبنية انطاكية، وطمر بنيها وخنق سكانها، ومات بهذا الزلزال افراسيوس بطريركها مطموراً تحت الأنقاض . ويقال أنه استمر اليوم كله يصيح من تحت الردم، ولم يكن له من مغيث». وقد وصف هذه النازلة افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٥ و ٦)، وبروكوب (ك ٢ فصل ١٤)، وتوافان ويوحنا ملالا بما ملخصه أنه قد وقع حريق في كنيسة القديس اسطفانس وارتفع اللهيب حتى انتشر في وقت وجيز في محال كثيرة، وأتلف كثيراً من البيوت، فأرسل الملك يوستينس ألفَي ليرة ذهباً اغاثةً للمصابين. وما انقضت هذه النازلة إلّا تلتها أخرى أشدّ منها، وهي زلزال مرعب قلّب أبنية المدينة مبتدئاً من جهتها الغربية وجعلها أكواماً من الأنقاض. ولما كانت النار مشتعلة في أكثر مواقد المدينة لاعداد طعام الغذاء أحاثها الزلزال فشبّت في البيوت، ومدّ الهواء لهيبها فالتهم بيوتاً أخرى. واجتمعت البليّتان الزلزال من أسفل والنار من أعلى وقلّ من تمكن من الفرار. وزاد في الطين بلّة اكمان بعض الأشقياء للفارين فكانوا يسلبونهم ما حملوا ويسلون من قاومهم، وكان أسعد حظاً من هؤلاء من سقطت عليهم بيوتهم فلم تهرسهم. وقد كُشف عن بعضهم أحياء وبعضهم استمر تحت الردم عشرين يوماً وأكثر، وبقي في بعضهم رمق ولكن مات أكثر هؤلاء عند استنشاقهم الهواء، ورووا أنّ بعض الحبالى ولدنَ تحت الردم وأرضعنَ، وأنّ بعضهم تمكن من الاقتيات بشيء من المون التي كانت في بيوتهم. واستمر هذا الزلزال على شدته ستة أيام وخربت به دفنه وسلوقية (السويدية) أيضاً.

إنّ هذه الرزيئة اصمتت قلب يوستينس الملك، فأوقف المشاهد المحاضر في قسطنطينية وترك تاجه وبرفيره ولبس مسحاً، وحثا الرماد على رأسه لأنه كان يحب انطاكية، وقد أقام فيها وهو جندي. وكان في سبت العنصرة يمضي كل يوم إلى

الطواف في الكنائس مع رجال الندوة والشعب وعليه ملابس الحداد، ويستمطر بدموعه غوث الله لشعبه. وأرسل أولاً الكنت كارينس ومعه خمسة آلاف ليرة ذهباً لتُنفق على من كانوا أشدّ احتياجاً، ثم أرسل البطريقين فوقا واستريوس وزوّدهما مبلغاً كبيراً من المال ليجددا بناء البيوت وأقنية الماء وجسور العاصي. وبالغ بعض المؤرخين فقال أنّ ما أنفقه يوستينس لتدارك هذه النازلة هو خمسون مليوناً من الليرات، وإن قُدّر أنّ كل ليرة قيمتها عشرون فرنكاً كانت النفقة ملياراً من الفرنكات. وكان والي انطاكية واقليمها حينئذٍ رجل اسمه افرام بالغ في تحقيق ويلات الأهلين وسدّ اعوازهم والرفق بهم. وكان تقياً ورعاً عالماً فاختاروه بطريركاً خلفاً لاوفراسيوس، فكان بطريركاً صالحاً نفع الكنيسة بعلمه وعمله كما كان حاكماً عادلاً حليماً. انتهى ملخصاً عن افاغريوس وبركوب وتوافان في المحال المذكورة آنفاً.

عد٦٤٦

يوستنيانس الملك

كان يوستنيانس ابن أخي يوستينس الملك، وقد وُلد سنة ٤٨٣م، واشتهر في دولة عمه ثم خلفه بعد وفاته سنة ٥٢٧م، فكان أولاً ملكاً عادلاً ورعاً حليماً يحب العلم والعلماء، وعند تسنّمه منصّة الملك تخلّى عن كل ما كان يملكه لبعض الكنائس. وكان يصرف أيام الصوم كما يصرفها أحد النساك. وأنشأ كثيراً من الكنائس والأديار والمعابد، وقد بنى وحصّن نحواً من عشرين مدينة، وعدد كل ذلك ووصفه بروكوب أحد رجال دولته في كتابه في الأبنية، من ذلك تجديده بناء الهيكل المعروف بآجيا صوفيا الذي كان قسطنطين الكبير قد بناه في قسطنطينية، ودير القديس مارون على العاصي الذي كان الملك انسطاس قد نقضه وقتل رهبانه، وكنيسة مغارة المولد في بيت لحم على بعض الأقوال. إلّا أنه عاب نفسه بدعواه أن يحكم في بعض المسائل اللاهوتية وهو ليس ابن بجدتها، من ذلك حكمه على اوريجانس بحرم شخصه، واتباعه بدعة من زعموا أنّ جسد المسيح كان غير قابل الالآم ولا الانفعالات الجسدية كالجوع والعطش، ونفيه بعض الاساقفة لأنهم لم يطاوعوه على أغلاطه، وعابه أيضاً انقياده في كل شيء لرغائب الملكة توادورا عقيلته على ما كانت عليه من الميل إلى الاوطاخيين والتهتك. وأهم أعمال

يوستنيانس العلمية التي أشغلته في أكثر أيام حياته إنما هو تأليف كتب الشريعة. ففي منشوره الذي أنفذه إلى رجال الندوة في ١٣ شباط سنة ٥٢٨م صرّح بعزمه على أن يجمع في مجلد واحد جميع الشرائع التي تضمنتها الكتب التي جمعها من تقدمه، أي غريغوريوس وهرموجنيان وتوادوسيوس الملك وأن يضم إليه ما سنّه الملوك بعد كتاب توادوسيوس، واختار تريبونيان البمفيلي الفقيه الشهير، وجعل تحت أمرته تسعة فقهاء معروفين بالفضل والاجتهاد وسعة الاطلاع، وسمح لهم أن يحذفوا من تلك الشرائع ما كان مكرراً أو مناقضاً لغيره أو أبطله الزمان أو أجرى الاعتماد على خلافه، وأن يسقطوا المقدمات وكل ما كان فضلة لا لزوم له، وأن يزيدوا ما رأوه لازماً للتدقيق أو زيادة البيان، وأن يجمعوا في باب واحد ما كان منشوراً ومشتتاً. فبذل هؤلاء الفقهاء قصارى جهدهم فلم تمضَ سنة إلّا وأبرزوا كتاباً ينطوي على اثني عشر سفراً مشتملاً على جميع الشرائع التي سنّها الملوك في أيام أدريان فصاعداً، فوقّع عليه الملك آمراً أن يعتمد عليه، وذلك من منشوره المؤرخ في ٧ نيسان سنة ٥٢٩م، على أنه أذاع بعد خمس سنين نسخة أخرى موجزة عن الأولى وهي التي تتداولها الأيدي الآن وهي المعروفة بكود يوستنيان. إلّا أنه بقي أن يوضع كتاب آخر يشتمل على آثار الفقه القديم وسنن القدماء من الرومانيين وفتاوى ائمتهم. فعهد الملك إلى تريبونيان أيضاً بهذا المهم وأباحه أن يختار من يعاونونه عليه، فاختار أحد القضاة الذين ساعدوه في المؤلّف الأول وأربعة من مدرّسي الشرائع اثنين من قسطنطينية واثنين من بيروت، وأحد عشر عالماً من محامي الدعاوي فأمرهم الملك أن يسلكوا مسلك الأولين في أن يبدّلوا أو يحذفوا أو يزيدوا، وأن يبتّوا الخلاف في المسائل المشتبهة أو الغامضة أو المعترض عليها. وإنّ كل ما يقطعون به يثبته كأنه بارز من فمه. وكان يُظن أنه يقتضي لتكملة هذا التأليف عشر سنين فأكمله هؤلاء الفقهاء في ثلاث سنين، فجاء كتاباً شاملاً جميع الفتاوى التي كان ألّفها الرومانيون، يطبقون فيها المسائل الخاصة على قواعد الشرائع العامة، أو على الاستقامة الطبيعية. وسمي هذا التأليف في اللاتينية ديجستا أي المنظّم لنظام مواده ووضع كل مادة في بابها، وسمي في اليونانية بندكتس أي الشامل أو الحاوي كل شيء. وأثبته الملك يوستنيانس في ١٦ كانون الأول سنة ٥٣٣م، على أنّ العجلة بتأليفه لم تخلهِ من الخلل والشوائب، وبينما كان هؤلاء الفقهاء منصبين على تأليف الديجستا أمر الملك تريبونيان وتوافيلس من أساتذة

مدرسة قسطنطينية ودوروتاوس من أساتذة مدرسة بيروت أن يقتطفوا من كتب الفقهاء والقدماء الضوابط الأولى لعلم الشريعة والقواعد الأصلية، وأن يجمعوها في أربعة أسفار تيسيراً لتعليم الشريعة، فأتموا ذلك قبل الفراغ من الديجستا، وسموه انستيتوتس أي الرسوم والمراسيم وهو أكمل هذه الكتب وأصحّها. وأثبته يوستنيانس بمنشوره في ٢١ تشرين الثاني سنة ٥٣٣م. وكتب يوستنيانس هذه مُفْتَتحة بهذه الفاتحة البديعة: «باسم ربنا يسوع المسيح كان محتّماً أن يستهل باسم من هو السلطان الحقيقي والمشترع الحق، أعني باسم من قال بي تملك الملوك، وبي يفترض المشترعون الشرائع العادلة. وقال أيضاً قد أعطيت كل سلطة في السماء وعلى الأرض» الخ. فكتب يوستنيانس هذه هي أس لكل شريعة وجدت بعدها، وعليها مبني كل نظام إلّا ما اقتضته حالة بعض الممالك أو ظروف الأيام. والكنيسة تعتمد إلى الآن على ما أدخلته منها في شرائعها البيعية. وتستشهد بمواد الديجستا أو البندكتس والانستيتس. وله شرائع أخرى سماها السنن الحديثة.

إنّ يوستنيانس صرف مدة ملكه في الحروب فحارب الفرس لتأمين مملكة المشرق أولاً من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣١م، فانتصر باليصار قائد جيشه عليهم في دارا، وتقهقر في غيرها. ثم حاصر الفرس الرها سنة ٥٢٩م فوقّع كسرى خليفة قباد ملكهم ويوستنيانس على عهدة سموها الصلح الدائم سنة ٥٣١م. إلّا أنّ الحرب تسعرت ثانيةً بين المملكتين من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٥٤٢م واستحوذ الفرس في هذه الحرب على قسم من سورية، وردّهم باليصار عنها. وسنفرد لذكر أخبار هذه المحاربة الفصل الآتي. وعاد الفرس ثالثاً إلى محاربة يوستنيانس من سنة ٥٦٠ إلى سنة ٥٦٢م لانتصاره للازيين (قبيلة في نواحي قوه قاف) إلى أن وقّع كسرى على عهدة الصلح مشترطاً دفع جزية له مدة خمسين سنة. وكان ليوستنيانس حروب عديدة في ايطاليا مع الغطط أسفرت عن استحواذه على هذه البلاد وجعلها اقليماً بيزنطياً، وتوليته نرسيس أحد قادة جيشه عليها سنة ٥٥٤م. ولكن انتزعها اللمبرديون من يد ملوك قسطنطينية سنة ٥٦٨م. وكانت له حروب أيضاً مع البنداة في افريقيا حيث انتصر باليصار قائد جيشه على جاليمر ملك البندالة، واسترد قرطاجنة منه سنة ٥٣٣م. وحروب أخرى مع البلغار واليونان. وثار الهونيون ووثبوا على قسطنطينية فردّهم عنها باليصار سنة ٥٥٩م.

وشكا باليصار حساده إلى يوستنيانس بأنه خان المملكة والملك، فانتزع أملاكه

وحطّه عن مقامه وأودعه السجن في ٥ كانون الأول سنة ٥٦٣م، واستمر فيه إلى تموز سنة ٥٦٤م، فتحقق من براءته وخلى سبيله وردّ عليه ماله وكرامته، ولكن ما جرى عليه من القسوة أنحله وأدركته المنية في شهر آذار سنة ٥٦٥م فضبط الملك أمواله. على أنّ يوستنيانس لم يعش بعده طويلاً لأنه توفي في شهر تشرين الثاني سنة ٥٦٥م بعد أن أصدر منشوراً يدافع به عن ضلاله المار ذكره. وأراد اكراه بعض الاساقفة على المصادقة عليه فأنكروها. فعزل بعضهم ونفى بعضهم، منهم افتيشيوس بطريرك قسطنطينية، وانسطاس بطريرك انطاكية. وهكذا ترك هذا العاهل الشهير هذه الدنيا منطخاً شرفه بتحرّشه في المسائل اللاهوتية والدينية، وهو ليس ابن بجدتها، وبتسامحه مع امرأته العاهرة إلى غير ذلك من المعائب التي ذكرها بروكوب في كتابه الموسوم بالتاريخ السري حيث يندد بهذا الملك والملكة زوجه وبعض حاشيته.

عد ٦٤٧

حملة كسرى ملك الفرس على سورية في أيام يوستنيانس

إنّ كسرى ملك الفرس كان واجساً من استفحال أمر يوستنيانس وظفره بالبندالة في افريقية، وتعقّبه الغطط في أوروبا فكاشفه فيتيجس ملك الغطط في ايطاليا أن يواثقه على مناوأة يوستنيانس. فلبّى كسرى دعوته وكان حينئذٍ أنّ الأرمن ثاروا على الرومانيين فانتصر كسرى للعصاة وأخذ يعدّ العُدد والرجال للحرب. ثم زحف إلى سورية سنة ٥٤٠م فحاصر أولاً صورة (المسماة رصافه وسرجيوبولي أي مدينة سرجيوس لأنه قال إنّ القديس سرجيوس منها) على عدوة الفرات. ولما كان أهلها قليلي العدد أرسلوا أسقفهم كنديدس ليكاشفه بأمر الصلح على أن يدفعوا للغازي كل ما ملكت أيديهم فدية، فوعد كسرى الاسقف باجابة سؤاله بعد أن يستطلع رأي رجال مشورته. وأصحبه عند عوده بكتيبة من أحسن جنوده مظهراً الاجلال له، ففرح الأهلون وفتحوا أبواب المدينة ولم يشأ الجنود أن يدخلوها. بل لما أراد الأهلون اغلاقها عارضوهم وألقوا صخرة في وسطها. وتبع كسرى آثارهم فدخل المدينة وانتهب البيوت وقتل كثيرين من سكانها وأخذ الباقين أسرى وأحرق المدينة. وكانت بين الاسرى امرأة جميلة فتزوجها وأراد أن يبدي كرمه على مواطنيها الاسرى وكانوا نحو اثني عشر ألفاً، فطلب إلى كنديدس الاسقف أن

يشتريهم منه بمئتي ليرة ذهباً فاعتذر بأنّ لا مال له. فقال الملك يكفينا أن تعد وتقسم على دفع هذا المبلغ بعد سنة ففعل، وخلى الملك سبيل الاسرى ولكن مات أكثرهم من الجراح وسوء المعاملة التي حلّت بهم. وانقضت السنة فعاد الاسقف صاغراً إلى الملك يسأله عفواً إذ أعجزته الحال عن اداء المبلغ فغلله الملك وجلده. وسأله الاسقف أن يرسل إلى المدينة فيأخذ كل ما كان في الكنيسة، فأرسل من أحضر إليه كل ما وُجد فيها، وأبقى الاسقف مكبلاً في السجن. ثم يمّ غير هذه المدن واجتاز في جانب منبج ولم يشأ أن يحاصرها لأنها كانت حصينة فتعيقه، واجتزأ من أهلها بألفي ليرة فضة فدية. وبلغ إلى حلب فغرّم أهلها بما شاء، وأرسل يطلب من أهل انطاكية ألف ليرة ذهباً ليعفو عنها. ولم يكن هذا المبلغ يُذكر بجانب وقاية مدينتهم من الخراب، وأحبّ الأهلون دفعه لكن أعوان الملك حسبوا هذا الافتداء عاراً في جانب المملكة والملك فجعلوهم يرغبون عن الاداء. وزحف كسرى بجيشه من حلب إلى انطاكية وخيّم على عدوة العاصي، واستأنف طلب الألف ليرة لينصرف عنهم، فأجابه الشعب باهانة رسله ورجمهم بالحجارة، فاستشاط كسرى وأمر فريقاً من جيشه بضرب المدينة من جهة النهر، وسار بفريق آخر إلى أعلى المدينة حيث كانت صخور يتيسر الوصول منها إلى أسوار المدينة. ولو كان على هذه الصخور ثلاث مئة رجل لصدّوا ألوفاً عن مهاجمة المدينة.ولكن لم يكن في انطاكية أحد من رجال الحرب المحنكين ليعلم أن يتّخذ وسيلة للدفاع، فتسلق كسرى مع جنوده على تلك الصخور ودنا من الاسوار ونضد بجانبها منصّات من خشب ليرمي عنها الجنود فتحطمت لتراكم الرجال عليها وكان لسقوطها دويّ هائل في المدينة، حتى ظُنّ أنّ الاسوار هُدمت ففرّ المدافعون وانتشر الخبر لساعته في المدينة وتولّى الرعب سكانها، وغصّت الشوارع بالفارين حتى كان بعضهم يطأ بعضاً فمات كثيرون. وتسلّق الفرس على الاسوار ولم يتوغلوا أولاً في المدينة خيفة الوقوع في مكمن، بل صبروا على الفارين وأخلوا لهم الطريق المؤدي إلى دفنه، فازدحموا في الخروج منه، ثم دخل جنود الفرس في المدينة،وكانت عصابة من الشبّان تألّبوا في احدى ساحاتها مستبسلين، فوثبوا على أولئك الجنود وثبة الاسود، وأبدوا آيات الحماسة والصولة فظهروا على أولئك الجنود. وكان كسرى يشرف على المعركة من أعلى برج فدُهش ببسالة هؤلاء الصناديد، وهمّ أن يأمر بكفّ القتال عنهم واسترضائهم، لولا أن يصرفه أحد رجال حاشيته عن هذا

الهوس إلى الأمر بارسال نجدة من نخبة جيشه لجنوده المتقهقرين، فقضى أولئك الأبطال وسلاحهم بيدهم، وانتشر الفرس في المدينة فقتلوا كل من لم يفرّ وانتهبوا كل ما وجدوا فكانت لهم غنيمة عظيمة. وحفظ لنفسه أسلاب الكنيسة الكبرى وكانت نفيسة من ذهب وفضة وجواهر كريمة، وأمر بحرق المدينة إلّا الكنيسة التي غنم منها بتلك النفائس.

وكان يوستنيانس قد أرسل مفوضين إلى كسرى يكاشفانه أمر الصلح فلم يشأ كسرى أن يقابلهما قبل أن يتشفى بخراب انطاكية. ولدن المقابلة طلب أن يؤديه الملك كل سنة مبلغاً لا على سبيل الجزية إذ لا يريد أن يذلّ ملكاً رومانياً بل على سبيل الجعل، كما يؤدي الهونيون والعرب للمحافظة على تخوم المملكة. ورضي المفوضان أن يدفع له يوستنيانس تلك السنة خمسة آلاف ليرة ذهباً، وفي كل سنة بعدها خمس مئة ليرة، فوعد كسرى بأن ينصرف عن المملكة متى وقّع يوستنيانس على هذا الشرط، وقدّم الضمانات اللازمة على دفع هذه الغرامة. وقد شاء كسرى أن يزور بعض مدن سورية قبل انصرافه فمضى إلى سلوقية (السويدية) ولم يمسّها بضرّ، وإلى دفنه وعجب بموقعها البهج وغاباتها وجناتها الغناء وينابيعها المتدفقة، وإلى أباميا (قلعة المضيق) وطلب من أهلها عشرة آلاف ليرة فضة، وابتزّ من كنيستها كل ما كان فيها من النفائس، وأخذ من قنسرين مئتي ليرة ذهباً، ودفع له أهل الرها مثل هذا المبلغ. وبينما كان هناك بلغه أنّ يوستنيانس وقّع على العهدة وسلّم الرهائن إلى مفوضيه، وأراد حينئذٍ أن يبيع الاسرى الذين أخذهم من انطاكية، فأبدى أهل الرها وقتئذٍ من النخوة والمروءة والمعروف ما يحق أن يخلد ذكره، والشكر لهم عليه، فقد تضافروا على جمع مبلغ يفتدون به هؤلاء الاسرى، وجاء كل منهم بما وصلت يده إليه حتى قدم بعض الفقراء نعجة أو خروفاً لم يكن لهم سواهما، وافتدوا هؤلاء الاسرى جميعاً. أما بوزاس والي الرها الذي كان أسيراً لبخله فأمسك مبلغ الفدية لنفسه محتجاً بأنه يستبدله في مهام أهمّ من افتداء أسرى انطاكيين، فأخذ كسرى الاسرى وانصرف إلى بلاده، وعاملهم فيها بأكثر مما كانوا يرجون من الرفق والاعزاز، وبنى على مسافة مرحلة من قطيسفون مدينة سماها انطاكية كسرى. وبينما كان كسرى ينشيء انطاكية الحديثة كان يوستنيانس يجدد بناء القديمة ويقتلع الصخور التي توسل بها كسرى لفتح المدينة وينظم شوارعها، ودام في

هذا الاصلاح اثنتي عشرة سنة، فعادت المدينة إلى رونقها وعظمتها. (ملخص عن المؤرخين المذكورين في العدد السابق).

عد ٦٤٨

ثورة السامريين وخراب مدن سورية بالزلزال في أيام يوستنيانس

قد أصدر يوستنيانس الملك منشوراً سنة ٥٣٠م أمر به الوثنيين واولي البدع أن يرعووا عن ضلالهم ويدينوا بالدين المسيحي الصحيح، فامتثل كثيرون أمره حقيقة وآخرون مرائين. على أنّ السامريين سكان القرى جاهروا بالعصاة وثاروا وسموا رجلاً اسمه يوليانس ملكاً، وكان عددهم نحواً من خمسة آلاف رجل، ووثبوا على مدينة باسان وأحرقوا كنائسها واستحوذوا على نابلس، وأبسلوا كثيرين من أهلها، وقتلوا أسقفها وكهنتها وأخربوا القرى المجاورة لها. فأرسل توادورس أمير الجيش في فلسطين حينئذٍ سعاة إلى قسطنطينية يخبر الملك بما كان. وجمع جنوده وزحف بهم إلى نابلس، فانهزم يوليانس من وجهه فتعقبه وظفر به، وشتت شمل جنوده، وقبض عليه وقطع رأسه وأرسله إلى الملك مع تاجه، وأهلك من السامريين نحواً من عشرين ألفاً، ومن بقي منهم فرّ إلى الجبال. فبلغت أخبار الثورة وتخميد جذوتها إلى قسطنطينية في وقت واحد. وسخط الملك على باسوس والي فلسطين لعدم تداركه هذه الشؤون، فعزله من منصبه وأمر بقتله وولّى على فلسطين ايريناوس، فتتبّع آثار السامريين في الجبال وأمات كثيرين منهم، وحكم على الباقين بأعذبة أليمة. وثار أهل باسان لأنفسهم فقتلوا سليفيان أحد شرفاء بلدتهم وكان عدواً ألدّ للمسيحيين. فمضى ابنه الكنت ارسان إلى قسطنطينية يشكو إلى الملك ما حلّ بأسرته من الجور، وأخذ معه امرأته وكانت تعتمد على صداقة الملكة توادورا، فزينا للملكة أنّ النصارى إنما هم المعتدون والمتسببون بما أصابهم من الضرّ. فحملت الملكة يوستنيانس على الانتقام من نصارى فلسطين، وأشعر النصارى بذلك، فأرسل بطرس بطريرك أورشليم القديس سابا الناسك الشهير إلى الملك فأجلّه الملك كثيراً وأدخله إلى قاعة الملكة توادورا، فسألته أن يضرع إلى الله ليرزقها ابناً فأجابها: «أسأل إله المجد أن يحفظ مملكتكم بالتقوى والمجد» فحزنت لأنه لم يجب سؤالها، ولما سأل القديس بعض مرافقيه لِمَ لم يجب سؤالها فقال أخشى أن يخرج من هذا البطن من

يرتضع لبن المدافعة عن ساويروس فيكون أشبه بانسطاس الملك. وأجاب يوستنيانوس القديس سابا إلى كل من سأل وأمر أن لا يبني السامريون فيما بعد مجامع، وأن يحظر عليهم نيل شيء من المناصب. وأراد أن يمنّ على أدياره باحسانه فقال لا حاجة لنا إلى شيء لأنّ الرب نصيبنا. وسأله أن يترك الخراج عن النصارى وأن يبني الكنائس التي أحرقها السامريون ويعوّض بكرمه النصارى مما نُهب من بيوتهم، ويتمّ بناء كنيسة العذراء التي شرع في بنائها البطريرك ايليا في أورشليم، ويبني مستشفى للغرباء في أورشليم، وقلعة قرب ديره لتصدّ وثبات السراكسة عنهم، فأجابه الملك إلى كل ما سأل (عن ترجمة القديس سابا).

وقد جاء في تاريخ يوحنا أسقف آسيا (عن العلامة السمعاني في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٨٩) إنه «في سنة ٨٦٤ يونانية (توافق سنة ٥٥٣ م) في شهر حزيران خرّب زلزال مدن فينيقيا: بيروت واطرابلس وصور وصيدا وصرفند وجبيل وانطرطس وغيرها». وجاء في هذا التاريخ بعد ذلك «في: سنة ٨٦٨ يونانية (توافق سنة ٥٥٦ م) زلزلت مدن فينيقية وسقط في البترون من الراس المعروف بوجه الحجر قسم كبير في البحر فتكوّن منه مرفأ ترسو به السفن، ولم يكن لهذه المدينة قبلاً مرفأ». قال السمعاني روى توافان ذلك بحروفه، لكنه قال إنّ هذا حدث في ٩ من شهر تموز في السنة ٢٤ ليوستنيانس (وهي سنة ٥٥٢م) ورواه باجيوس في تاريخ سنة ٥٥١م، وفي التاريخ المذكور أيضاً «سنة ٨٧٠ (يونانية توافق سنة ٥٥٩م) سقطت أبنية بيروت مدينة فينيقية بزلزال مع غيرها من مدن الجليل وفلسطين والعربية وفينيقية وتقهقر البحر إلى الوراء ألفي خطوة... وسنة ٨٧٦ (سنة ٥٦٥م) خربت مدن فينيقية وفلسطين والعربية بزلزال في شهر حزيران»[1] فيظهر من ذلك أنّ الزلازل تواترت تلك السنين في سورية وما جاورها. وإليك ما قاله

---

(١) انتهى ما رويناه عن يوحنا اسقف اسيا الذي كان معاصراً ليوستنيانس ومما يلزم الانتباه اليه. وقد صرح به العلامة السمعاني (في المحل المذكور صفحة ٨٥) ان يوحنا هذا يخالف غيره من علماء السريان في حساب سني السلوقيين المعروفة بالتاريخ اليوناني، فهم يحسّبون هذا التاريخ متقدماً على التاريخ المسيحي بثلاث مئة سنة وتسع سنين او احدى عشرة او اثنتي عشرة سنة وهو يخالفهم في ذلك اذ جعل موت يوستنيانس سنة ٨٨٥ الموافقة لسنة ٥٧٥ او سنة ٥٧٤ مع ان عامتهم تصرح بان وفاته كانت سنة ٥٦٥، ومثل ذلك في باقي ما ذكره في ايام يوستنيانس.

اغاثيا محامي الدعاوي (في تاريخه ك ٢ عد ١٥ عن كتابه في مكتبة الآباء اليونان): «في هذه الأثناء (في منتصف القرن السادس) في فصل الصّيف حدث زلزال في البيزنطية وغيرها من مملكة الرومانيين وأخرب مدناً كثيرة في الجزر واليابسة، وأهلك سكانها. وبيروت تلك المدينة الجميلة قد شوّه جمالها وسقطت فيها تلك الأبنية الباذخة البديعة الصناعة، وهلك فيها كثيرون من سكانها والغرباء المتقاطرين إليها، وجمّ غفير من الشبان الشرفاء والفقهاء الذين كانوا يؤمونها لتعلّم شرائع الرومانيين، إذ كان لها هذا الانعام المشرف. وانتقل معلمو الشريعة إلى صيدا لقربها منها ريثما يتجدد بناء بيروت، لكنها لم تعد إلى ما كانت عليه من قبل بل إلى ما يشبهه». وعن توافان أنّ هذا الخراب عمّ اللاذقية والسويدية، فقد دمّر الزلزال من كل مدينة نصفها ومات في كل منها تحت الردم سبعة آلاف وخمس مئة نفس، وبلغت هذه الأخبار قسطنطينية فأحزنت الجمهور ولجأوا إلى الصلوات العامة، وأرسل الملك مبالغ من المال لترميم هذه المدن وعفا أهلها من الخراج ثلاث سنين . وبدّل اسم انطاكية بتسميتها تيوبولي أي مدينة الله برأي القديس سمعان الملقّب بالعجبي. فسُرّ الأهلون بهذا الاسم وأخذوا يسمون مدينتهم به. إنّ كل ما مرّ في هذه الفصول الثلاثة ملخص أكثره عن كتب بروكوب في حرب الفرس والغطط والبندالة، وفي أبنية يوستنيانس وتاريخه السري. وكان بروكوب هذا كاتب باليصار قائد جيش يوستنيانس، ثم عضواً في الندوة، ثم والياً في القسطنطينية. فهو ثقة وشاهد عيان لما كتبه.

عد ٦٤٩

يوستينس الثاني

لم يكن للملك يوستنيانس ابن فأوصى أن يخلفه يوستينس ابن أخته فيجيلانس، وكان وقتئذٍ رئيس البلاط الملكي، وكان قد تزوج بصوفية ابنة أخت الملكة توادورا. وبعد وفاة يوستنيانس نودي به ملكاً سنة ٥٦٥م فلم يكن له منازع ولا معترض، وقد توّجه والملكة يوحنا بطريرك قسطنطينية، وخطب في الأعيان والشعب، على أنه لم يفرغ من خطابه إلّا أحدق به حشد من النساء يصرخنَ إليه أن يخلي سبيل السجناء، فضجّ الحشد بهتاف المسرّة والحبور يتخلله أنين وشكوى،

فإنّ يوستنيانس كان قد استنزف ثروة العامة ليقوم بنفقة أبنيته، واقترض مبالغ جسيمة من الخاصة ودفع إلى الدائنين سفايج وصكوكاً ممهورة باسمه، فأخذ حينئذٍ كثيرون يرفعون إلى الملك صكوكهم طالبين وفاء دينهم، فأمر الملك أن يسكتوا، وخطب فيهم معتذراً عما كان من سوء التصرف في شيخوخة سالفه وأمر بوفاء القيَم المبيّنة في تلك الصكوك، فردّ على كلٍ حقه، وأجار كل من أصابه جور. وهمّ بتوطيد السلم في الكنيسة فاستدعى الأساقفة المنفيين من منفاهم، وأصدر منشوراً إلى جميع المسيحيين يحضّهم به على الاتحاد بالكنيسة. ويصرّح بمعتقده الصحيح ومخالفته للمبدعين، فتقبّل الكاثوليكيون هذا المنشور بمعظم المسرّة، وقد ساعد كثيراً على الاتحاد، وأوفد فوتينس نسيب باليصار إلى مصر ليؤمن كنائسها.

على أنّ هذه البواكير الحسنة لم يعقبها إلّا كبائر فظيعة، فإنّ يوستينس عكف بعد ذلك على الملاذ متهتكاً، وأباح مذ السنة الأولى لملكه الطلاق، وكان يوستنيانس قد نهى عنه مفترضاً غرامة مالية على الزوج الذي يطلّق امرأته ويتزوج بغيرها. وأمسى يوستينس بخيلاً جائراً يزري الفقراء ويسلب الأغنياء أموالهم، يبيع كل شيء حتى المناصب البيعية متجراً بها تجارة نفاق، وكان له نسيب اسمه يوستينس أيضاً اتفق معه قبل ملكه على أنّ أيهما صار ملكاً أوى الآخر المنصب الثاني بعده. فأبدى له أولاً الصداقة ثم أنف منه بسعاية زوجته صوفيا به فولاه على مصر. ودسّت الملكة من قتله وأرسل إليها رأسه فتشفى يوستينس وامرأته منه إذ كانا يدوسانه. وكان نرسيس أحد قادة جيش يوستنيانس أخضع ايطاليا واستمر فيها مروّعاً كل ثائر وعدو، وكان له أعداء في القصر بعثوا الملكة على أن تجعل الملك يأمره بأن يرسل إلى قسطنطينية ما يجمعه من خراج ايطاليا، فأجابه نرسيس أنه مستعد لتنفيذ أمره على أنه يخطر على باله أنه إذا لم يبقَ في ايطاليا مال كافٍ لنفقة الجنود والمحافظة على الحصون فيفسح مجال إلى البرابرة الذين حولها ليطمعوا في استردادها. فلم يحفل الملك بمشورته الصالحة بل توهّم أنه يريد أن يستقل في ايطاليا. وكتبت إليه صوفيا «هلمّ إلى قسطنطيية عاجلاً فأنصبك عاملاً على نسائي العاملات فلا تصلح لغير ذلك». وأرسلت إليه مع رسولها عرناساً ومغزلاً. ولما فضّ الرسالة وقرأها حملق في الرسول وقال: «قل لمولاتك سأغزل لها كبة لا تقدر أن تحلّها». وأخذ فيه احتدام صدره كل مأخذ، وأمسى يتنازعه عاملان، سورة غضبه للانتقام، ومناخس ضميره إن خان مولاه والمملكة. ‍ولم يتمالك عن أن يكتب إلى

البوان ملك اللومبرديين أن يحمل على ايطاليا فيتيسّر له فتحها. واعتزل في نابولي يتخالجه الهمّ والغمّ والندم. وبينما هو على هذه الحال أتاه البابا يوحنا الثالث فأرجعه إلى روما، وكتب إلى البوان أن يرغب عن حملته إلى ايطاليا. وكان قد جيّش جيشه فلم يقتلع عن عزمه. ومات نرسيس بعد أيام متنغصاً، ولا جرم أنه أساء لكن من حملته على هذا المنكر كانت أكثر إساءة، وأخذ ملك اللومبرديين حينئذٍ أكثر ايطاليا.

ومن مظالم يوستينس أنه طرد القديس انسطاس بطريرك انطاكية من كرسيه بحجة أنه يبذر مال كنيسته. وقد وشى به أن لما سُئل لِمَ هذا الاسراف أجاب خيفة أن يختلسه يوستينس وباء النوع البشري (رواه افاغريوس ك ٥ فصل ١ إلى ٥).

وعقد يوستينس مع خان التتر عهدة تجارية في جملة موادها الاتجار بالحرير الذي كان إلى حينئذٍ قليلاً في المملكة الرومانية، فساءت هذه العهدة كسرى ملك الفرس وأرسل مفوضاً من قبله إلى يوستينس يطالبه بالثلاثين ألف دينار التي كان يوستنيانس قد تعهّد بدفعها كل سنة إلى ملك الفرس، فأجابه يوستينس أنّ في عزمه أن لا يدفع شيئاً وإذا أراد الفرس اشعال نار الحرب فهو مستعد أن ينجي بلاد فارس من ملك ظلوم متشامخ، فاحتدم صدر كسرى غيظاً، وأخذ يتأهب للحرب وأرسل يوستينس مرقيان القائد لكنه لم يصحبه بجيش ولا عدد، بل ألّب إليه في طريقه عسكراً من الأهلين واجتاز بهم الفرات على حين غفلة، وأخذ ينكل بالفرس ويخرّب ويحرق قراهم التي على التخوم. ولما أكمل كسرى معدات حربه زحف من قطيسفون بمئة ألف من الجنود، وأما يوستينس فبدلاً من أن ينجد قائد جيشه استدعاه إلى قسطنطينية وأمّر مكانه رجلاً فظاً متشامخاً قاسياً أسخط الجنود وقادتهم فازدروه وغادروه ولم يجد كسرى في طريقه معارضاً ففرّق جنوده في الاعمال التي على عدوة الفرات ينهبون ويحرقون حتى بلغوا انطاكية. ولو عرفوا ما حاق من الرعب بقلوب سكانها وما كانت عليها حصونها من الوهن لاستحوذوا عليها، ولكنهم توهموا أنّ أسوارها حصينة وأهليها أشداء فانصرفوا عنها إلى اباميا (قلعة المضيق) ففتحوها وأحرقوها وأسروا كثيرين من أهليها، وعاد كسرى يحاصر دارا في ما بين النهرين، وكانت قصبة الرومانيين حينئذٍ فافتتحها بعد ستة أشهر من حصارها بعد أن قتل أكثر سكانها في المدافعة، وترك فيها حامية وعاد إلى مملكته.

ولما اتصلت هذه الأخبار بالملك يوستينس اعتراه نوع من البله أعجزه عن تدبير الملك، فقبضت صوفيا الملكة على أزمّة سياسة المملكة، وشرت من كسرى بخمسة وأربعين ألف دينار ذهباً الهدنة سنة. وزيّنت للملك أن يختار له معاوناً أهلاً لتحمل أعباء المملكة ووقايتها من الانخذال، فاختار طيبار وكان مؤسراً عزيزاً على الملك ورئيساً لحرسه، ومجملاً بالفضائل والخلال الحسنة. وكانت الملكة أيضاً تحبه ووقع في قلبها أن تشترك معه في الملك بعد أن يتوفى الله الملك. وعرف طيبار ما كنّه ضميرها فأخفى عليها زواجه، وتبناه الملك وسماه قيصر، فأوجبت هذه التسمية مسرّة الجمهور، وأصلح بها يوستينس بعض ما أضر به، فصرف طيبار عنايته للمحافظة على ما بقي للمملكة في ايطاليا، ولم يطمع باستردادها لوجسه مما يدبره كسرى في المشرق، وجلّ ما تمكن منه أن يجعل كسرى يطيل مدة الهدنة إلى ثلاث سنين بالغ فيها بلمّ شعث المملكة والاستعداد للحرب إلى أن تسعرت نارها بين الفرس والرومانيين في ارمينيا. وكان جيش الرومانيين نحو مئة وخمسين ألفاً من الرجالة عدا الفرسان، وأمّر عليه طيبار رجلاً اسمه يوستنيانس، فظهر على كسرى، وشتت جيشه وغنم خزائنه وأخذ منه ثمانين فيلاً أرسلها مقلّة خزائن كسرى إلى قسطنطينية، وتوغّل يوستنيانس في بلاد فارس ظافراً، فأخرب وأحرق وأسر كثيرين حتى كان يبيع الأسير بدينار (يساوي ١٣ أو ١٤ فرنكاً)، واضطر كسرى أن يُذلّ له طالباً الصلح، واستمر طيبار يدبر شؤون المملكة بحكمة وسداد وحلم أربع سنين في حياة يوستينس. ولما شعر هذا الملك بدنو المنية جمع البطريرك واكليرس قسطنطينية ورجال الندوة وكبراء الدولة وأقام طيبار ملكاً خلفاً له. وتوفي بعد ثمانية أيام وملك ثلاث عشرة سنة فكانت وفاته سنة ٥٧٨م. والظاهر من كلام توافان أنّ اذلال الفرس في هذه الوقعة كان بعد أن تبوأ طيبار منصّة الملك.

إنّ بعض المؤرخين يعزون ما كان من الجور والاعتساف على الرعية في أيام يوستينس إلى ضعف جسمه وسوء تصرف عماله وأعوانه ويمتدحون حسن نيته وسلامة طويته. ومن هؤلاء المؤرخين شدرانس في موجز تاريخه فإنه في كلامه على هذا الملك قال ما ملخصه أنه كان نحيف البنية، كثير الأمراض، قلّ ما يتمكن من الخروج من بلاطه. وكان أعوانه يهضمون حقوق الرعية ويبتلع الأقوياء مال الضعفاء. وخرج يوماً إلى الكنيسة فأحاط به جمّ من المظلومين يصيحون ليرحمهم فجمع عماله وخطب فيهم قائلا: «كنت أظنكم جميعاً تخافون الله وتقنعون بالرزق

الذي يجري عليكم، ولا تجورون على أحد الفقراء، ويظهر لي أنكم تسخطون الله وتظلمون عباده وتضرّون بالمملكة، فنشدتكم الله أن تكفّوا عن الحيف والاضرار بالناس ولا سيما الفقراء». فلم ينجع هذا الكلام بالكبراء واستمروا باغين. وخرج الملك ثانيةً فضجّ البائسون سائلين انقاذهم من الظلم، فجمع الندوة وقال إن كنتم توقنون أنّ الله أولاني الملك فطيعوا أوامري وتنكبوا المضرّة بالفقراء، فإنما الاسماك وحدها يأكل كبيرها صغيرها، فإن لم تمتثلوا أوامري اختاروا لكم ملكاً آخر يتساهل لكم بظلم رعيته، فلا أريد أن أبقى ملكاً على بغاة. فأجابه أحد الوجهاء ولّني على المدينة وأجبني إلى ما أسأل، وإن بقي شاكٍ فمر بقطع رأسي. فولاه على العاصمة وفي الغد أتت أرملة تشكو من أنّ أحد الحكام اختلس أموالها، فأمر الوالي ذلك الحاكم أن يحضر للمحاكمة معها، فازدرى أمره وأرسل إليه أحد سعاته ولم يلبِ دعوته، وعلم أنّ ذلك الحاكم دعاه الملك إلى مأدبة فحضر إليها الوالي أيضاً وقال للملك مولاي ان كنت ثابتاً في ما وعدتني من انفاذ كلمتي في من يظلمون الفقراء فأنا مقيم على عهدي، وإن اخلفت وعدك ودعوت إلى مأدبتك أحد هؤلاء البغاة فلا أواخذ أنا بنقض عهدي. وقصّ عليه الأمر فسخط الملك على الحاكم فأخذه الوالي وأمر بضربه ثم أركبه حماراً عرياناً وطوّفه في شوارع المدينة واستردّ منه كل ما اختلسه من الأرملة، فلم يعد أحد يجسر أن يُلحق اهانة بأحد أو يمس غيره بضرّ.

عد ٦٥٠

طيبار الملك

لم يكن طيبار من أسرة حسيبة لكنه تراقى في المناصب بذكائه وخلاله الحسنة حتى صار رئيساً للحرس الملكي، ثم اختاره يوستينس الثاني معاوناً وسماه قيصراً كما رأيت سنة ٥٧٤م، فأحسن القيام بأعباء المملكة أربع سنين إلى أن توّجه يوستينس ملكاً سنة ٥٧٨م. وكان طيبار طويل القامة جميل المنظر حتى يعدّ أجمل رجال جيله. لطيفاً وديعاً حليماً لا بكلامه ومعاملته الناس فقط بل في خلقه وقلبه أيضاً، يحب شعبه كأب، ويعدّ سعادة رعيته كنزاً له. وقد أعفاهم من اداء الخراج السنة الأولى لملكه. وكان يجزل عطاياه للفقراء. وقد أجمع القدماء والحدثاء على الاعتراف له بهذه السجايا المشرّفة.

وأتى يوماً يشهد الملاعب فضجّ الحشد بالدعاء له والترحيب به، وسألوه أن يريهم الملكة. فحضرت تصحبها بنتاها قسطنطية وشريتون، وكانت صوفيا أرملة يوستينس هنالك ولم تكن تعلم أنه مزوّج بل كانت متهيّمة في أن يتزوجها، فدُهشت لذهول وله، وافرط طيبار في تكريمها وتعزيتها، وبنى لها قصراً في أجمل محل في المدينة، وزادها على ما كانت عليه من الأجلال والحرمة الملكية، فلم يكن ما ينسيها ولهها وحزنها. هذا ما رواه المؤرخون اليونانيون توافان وشدرانس وزوناراس (في كلامهم على هذا الملك)، لكن القديس غريغوريوس أسقف تور أنبأنا (في ك ٥ من تاريخه فصل ٣١) إنّ هذه الملكة لم تكتفِ بغيظها بل عمدت إلى الانتقام من طيبار. وتآمرت مع بعض الأعيان ورؤساء الجيش على أن تثلّ عرش الملك وتقيم يوستنيانس أحد قادة الجيش ملكاً. ودرى طيبار بالمكيدة وهو في ضواحي المدينة وعاد إلى الكنيسة تواً يشكر الله لافتضاح سرّ المؤامرة. وجمع البطريرك والندوة وأعلمهم بما كان. ولم يجزِ صوفيا الملكة إلّا بانتزاع شيء من خزائنها التي كانت وسيلة لمكرها، وإلّا بتغيير خدامها. وأما يوستنيانس فانطرح على قدمي الملك صاغراً مستغفراً فعفا عنه، وبعد أن ونّبه أبقاه على منصبه وكرامته.

لم يكن من الأحداث التي تستحق ذكراً في أيام طيبار إلّا محاربته للفرس واذلالهم. فإنّ كسرى ملك الفرس كان قد توفي سنة ٥٧٩م وخلفه ابنه هرمزدا وكان جائراً قاسياً سفاكاً للدم. وهمّ أن يسعر نار الحرب بينه وبين الرومانيين فأرسل إليه طيبار وفداً يكاشفه بأمر الصلح، فلم يشأ هرمزدا أن يقابلهم بل طردهم من بلاده، فأوفد إليه طيبار مفوضين آخرين ومعهم هدايا نفيسة وجماً غفيراً من الاسرى الفرس. فسُرّ أهلهم ومواطنوهم بتخلية سبيلهم. وزاد هرمزدا فظاظة واهماً أنّ ذلك دليل على ضعف خصمه، وأوقف المفوضين شهرين إلى أن صرفهم وأصحبهم بمن يضلهم الطريق، فلم يتحمل طيبار هذه الاهانات فأمّر على جيشه موريق وأرسله إلى ما بين النهرين، فشتت الفرس وطردهم من هذه البلاد، واستمر هرمزدا يبغي الحرب فكانت وقعة هائلة بين موريق وعساكر الفرس في بلادهم، فذهب هؤلاء شذر مذر، وألقى قائدهم نفسه بين صفوف الرومانيين، فكان الساعي على حتفه بظلفه. فتوغل الرومانيون في فارس ثم عاد موريق إلى قسطنطينية ظافراً. وأجرى طيبار حفلات الظفر ليمحو آثار انخذال الرومانيين في أيام أسلافه. وكان طيبار على شبابه معتلاً برئته، واتصل سقمه إلى درجة لا يرجى شفاؤه، وكان يعلم ما يحفُ بالمملكة من

الأخطار والمصاعب، وما تكون من غوائل وفاته فعمد بعد أن تروّى ملياً على أن يسمي موريق قيصراً، وخطب له ابنته قسطنطية في ٥ آب سنة ٥٨٢م. وشعر بعد ذلك بدنو المنون فاستدعى رؤساء بلاطه والندوة والقضاة والبطريرك وعليّة الاكليرس وأعيان الشعب، فتلا يوحنا كاتبه خطبة باسمه أقام بها موريق عاهلاً وخلفاً له في الملك. وأطال في الوصايا والنصائح له ليتقي الله ويعلم أنه تلقى الملك منه، وأنه مطالب له بكل ما يعمل، وأن يتشبث بأهداب العدل ويسوي الرعية في الحقوق. ولولا خشية ملل المطالعين لأثبتنا هذه الخطبة التي يجدر أن تُكتب بالتبر لا بالمداد . ولم يبقَ أحد ممن سمعوها إلّا وفاضت عيناه بالدموع لهفاً وأسفاً على فقد هذا الملك الصالح المغرم بخير رعاياه وسعادتهم في حياته وبعد مماته. وتناول التاج ويداه ترتجفان لنحوله فتوّج به رأس موريق، وأخذ البرفير فوشّحه به تجاه هذا الحشد الحافل، ثم حُمل بسريره إلى بلاطه حيث لقيَ في الغد ربه في ١٤ آب سنة ٥٨٢م، فأسف عليه كل من عرفه (افاغريوس وتوافان وشدرانس في كلامهم في هذا الملك).

عد ٦٥١
موريق الملك

موريق (أو موريس) وُلد في الكبادوك سنة ٥٣٩م وتراقى في المناصب الجندية إلى أن أمّره طيبار على جيشه لمحاربة الفرس، ثم سماه قيصراً وخطب له ابنته وجعله خليفة له في الملك قُبيل وفاته في ١٣ آب سنة ٥٨٢م. وقد تزوج بخطيبته بُعيد تتويجه بحفلات دعا إليها كبراء مملكته، كما يدعى الأنسباء والأصدقاء فأكثر الشعب فيها مظاهر البهجة والسرور. على أنه لم يوفّق في بواكير حروبه، فإنّ القائد الذي أرسله لمواصلة الحرب مع الفرس، ظهروا عليه وتصدوا للسطو على بلاد ما بين النهرين ، فعزله وأمّر مكانه فيليبيك وزوّجه أخته، فكسر الفرس جيشه أولاً ثم استظهر عليهم في وقعة حتى كاد يظن أنها القاضية الفاصلة، لكن الفرس لموا شعث جيشهم واستعانوا بالأهلين فتفوقوا على الرومانيين، واضطر فيليبيك أن ينهزم مذعوراً، فاستدعاه الملك إليه وأمّر غيره. ولم ينهِ هذه الحرب إلّا ثورة فارام أو بارام قائد جيش هرمزدا ملك الفرس عليه، وثلّ عرشه والقائه في السجن، وتمليك أعيان مملكته ابنه كسرى عوضه. على أنّ فارام أرغم كسري هذا أيضاً أن يفرّ ويلجأ إلى موريق

الملك سائلاً اياه ان ينجده على عدوّه، فتقبل الملك لجوءه مسروراً متفاخراً وأطلق جباً به من كان عنده من أسرى الفرس، ووعده بأن ينجده، وأقرضه مالاً يستعين به على خصمه فارام الذي كان قد سمي ملكاً. ولكنه قد أثار عليه قومه لفظاظة أخلاقه وشراسة طبعه، فتيسّر لكسرى بهذا وبنجدة موريق له بجنوده أيضاً أن يعود إلى ملكه، وأن يتعقّب الثائر ويظفر به ببسالة جنود موريق وقائدهم نرسيس، حتى لم يعد يعرف مقرّ لفارام. وعاد كسرى من ملاحقته فكتب إلى موريق رسالة يبيّن بها امتنانه له ومحافظته على صداقته طول حياته، ويسأله أن يبقي عنده ألف جندي من الرومانيين فأجابه موريق إلى كل من سأله، وقد ذكر شدرانس هذه الأحداث في تاريخ السنة الثامنة لموريق. وعليه فيكون وقوعها في سنة ٥٩٠م.

وكانت لموريق حروب متواترة مع الأفاريين وهم شعب من التتر سطا عليهم الصّينيون فأخرجوهم من بلادهم سنة ٥٥٢م، فحلوا على شواطئ الدانوب فحاربوا موريق واستحوذوا على بعض أملاكه وانتشروا في جرمانيا حتى ايطاليا. وكان موريق قد اعتاد الترف بعد ملكه فلم يخرج لحربهم ولا تيسّر له أن يختبر قواد جيشه ليولي من كان منهم أكثر أهلية ومهارة، فازداد هؤلاء الأعداء جرأة وأرغموه أن يؤدديهم كل سنة جعلاً وافراً، وكلما رأوه متضايقاً طالبوه بالزيادة عليه وهددوه بفتح عاصمته، وقد فتكوا بجنوده نحو سنة ٦٠٠م، وأخذوا منهم اثني عشر ألف أسير، فأكره موريق أن يطلب الصلح من ملكهم، فأباه أولاً ثم أخذ يتساهل حتى عرض بتخلية سبيل الاسرى على شريطة أن يفتدي كلًّا منهم بمبلغ زهيد لا يتجاوز الفرنكين في نقود أيامنا، فأبى موريق دفع هذه الفدية إما لبخله إما لحنقه من وغادة جنوده. فاحتدم ملك الافاريين وقتل الاسرى جميعاً، فبعث سوء تصرّف موريق هذا شعبه وجنوده على الثورة عليه، ولا سيما بعد أن علموا أنه دفع إلى الافاريين زيادة في جعلهم عشرين ألف دينار ذهباً، وأفضت هذه الثورة بعد سنتين إلى ثلّ عرشه. على أنّ موريق لم يصبر طويلاً على الذلّ، وتحيّن أول فرصة فأمّر بريسكس على جيشه، فانتصر على الافاريين في خمس وقائع وأهلك نخبة شبانهم، ولمنتهب أموالهم. ولسبب يعلمه الله استدعى موريق بريسكس وعزله وولّى مكانه على جيشه أخاه بطرس. وكان الجنود يزدرونه لجهله قيادة الجيش، فخلعوا نير طاعته وعصوا أوامره وهددوه فخاف وانهزم، وأقام الجنود فوقا قائداً لهم. وكان فوقا من أصغر رؤساء الجند، لكنه كان جسوراً شرساً، وكان قبل سنتين تطاول على الملك نفسه

مؤنباً اياه على سوء. واتصلت أخبار ثورة الجنود إلى العاصمة فكان لها صدى شديد. وجاهر مبغضو الملك بالعداوة وزحف فوقا بجنوده إلى القسطنطينية، فأرسل موريق بعض رؤساء قصره ينذرونهم بالطاعة فازداد فوقا جرأة، وأراد الملك أن يمنعهم من الدخول إلى المدينة وأقام بعض الجنود والأهلين على أسوارها، ولكن انتشرت الثورة في أحياء المدينة وتقدّم الثائرون من الخارج، فتنكر موريق وألقى نفسه في سفينة مع امرأته وأولاده وما تيسّر له أخذه من خزائنه، لكنه لم يصل إلى البرّ من جهة آسيا إلّا واعتراه مرض منعه من المسير، وأرسل ابنه توادوسيوس إلى كسرى ملك الفرس يستنجده في ضيقته كما نجده هو من قبل، ولكن بعد المزار. ولما علم الشعب فرار موريق خرجوا إلى لقاء فوقا بالبهجة والاحتفاء، وأقرّت الندوة والأعيان والبطريرك نفسه لفوقا بالملك ، وأرسل هو فقبض على موريق وأسرته وقتل ابنيه أمامه ليزيده عذاباً ثم قتله. وكان ذلك في ٢٧ تشرين الاخر سنة ٦٠٢م، وكان عمر موريق حينئذٍ ثلاثاً وستين سنة، وقد ملك عشرين سنة. وطُرحت جثته وجثث بنيه في البحر وأوتي برؤوسهم إلى فوقا. وكان موريق طلب ابنه توادوسيوس فعاد من طريقه فأبسل مع اخوته على رواية. وعلى رواية أخرى وهي أظهر من الأولى أنّ جنود فوقا التقوا به فقتلوه بمعزل عن اخوته. هذه خلاصة أخذت عن تواريخ توافان وشدرانس وزوناراس في كلامهم على موريق.

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون في سورية ومن عاصرهم في غيرها في القرن السادس

عد ٦٥٢

المشاهير الدنيويون في سورية في هذا القرن

قلّ من كان من المشاهير الدنيويين في سورية في هذا القرن أيضاً، فقد عرفنا منهم الري هرون ابن أشير، كان في أوائل هذا القرن أو آخر القرن السالف في فلسطين، وقد عاون على استنباط وضع النقط والحركات في اللغة العبرانية، وقد ذكرناه في تاريخ هذا القرن الخامس. وعرفنا أيضاً دوروتاوس أحد معلمي مدرسة الشريعة في بيروت كان في جملة العلماء الذين استدعاهم الملك يوستنيانس لتنقيح الشرائع وضمّها إلى مؤلف واحد، فعني مع تريبونيان رئيس هذه اللجنة في وضع كتاب الشريعة المنسوب إلى هذا الملك، والمعروف بالديجستا dicestae وهي كلمة لاتينية معناها الشرائع المنظمة أو نظام الشريعة. وقد أثبته هذا الملك في ١٦ كانون الأول سنة ٥٣٣م، وقد اختاره يوستنيانس لوضع كتاب في القواعد والضوابط الأولى لهذا العلم تيسيراً لتعلّمه. فأتمّ هذا المؤلف مع تريبونيان المذكور، وتوافيلس أحد معلمي مدرسة الشريعة في القسطنطينية، وهو الكتاب المسمى باللاتينية INSTITUTOS انستيتيتس أي الرسوم أو المراسيم. وأثبته هذا الملك بمنشوره المؤرخ في ٢١ تشرين الثاني سنة ٥٣٣م. وعلمنا أيضاً أنه كان مع دوروتاوس عالِم آخر من معلمي الشريعة في بيروت في تأليف كتاب الديجستا المذكور، ولكننا لم نعثر على اسمه في كتب المؤرخين التي لدينا، مع أنهم أجمعوا على أنّ من وضعوا

هذا الكتاب كانوا تريبونيان ومعلمَين من معلمي مدرسة قسطنطينية، ومعلمين من معلمي مدرسة بيروت مع أحد عشر عالماً من محامي الدعاوي.

على أنّ من فاق هؤلاء شهرة إنما هو فاغريوس المؤرخ الشهير الذي استشهدنا بكلامه متواتراً في هذا الكتاب، فقد وُلد سنة ٥٣٦م في حماه التي سماها القدماء ابيفانيا نسبةً إلى الملك انطيوكس ابيفان، وأقام مدة في انطاكية يتعاطى محاماة الدعاوي، ثم انطلق إلى قسطنطينية. وكان مكرماً معززاً لدن الملكين طيبار وخليفته موريق، ورقياه إلى مناصب رفيعة. ولم تكن هذه المناصب لتشغله عن خدمة العلم ونفع الناس به، فقد ألّف كتاباً تاريخياً دينياً دنيوياً مقسوماً إلى ستة كتب، ابتدأ فيه من حيث انتهى توادوريطوس وسقراط من تاريخهما أي من سنة ٤٣١م وانتهى به إلى سنة ٥٩٤م. وقد صرّح فوتيوس (في ك ٢٩ من مكتبته) بأنه فاق غيره من المؤرخين في ايراد الحقائق، وقد ترجم تاريخه من اليونانية إلى اللاتينية العالمان مسكولس كريستفورس، وادر دي فالوا وطبع مع تأليف اوسابيوس وسقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس سنة ١٥٤٤م في باريس. وترجمه إلى الافرنسية العالِم كوزان المعروف بالرئيس، وطبع الأب مين تاريخه في جملة مكتبة الآباء الذين كتبوا في اليونانية سنة ١٨٦٠م في باريس.

وقد روى أغاثيا (ك ٢ عد ٣٠ من تاريخه) الذي كان في أيام الملك يوستنيانس، وكتب تاريخه من سنة ٥٥٣ إلى سنة ٥٥٩م في خمسة كتب أنه كان في أيامه في سورية من العلماء هرميا وديوجان الفينيقيان، وديسيدورس الغزي، ووصفهم بأنهم كانوا أزهاراً في أيامه ولم نطّلع في كتب غيره على شيء من تراجم هؤلاء. وذكر أيضاً (في ك ٢ عد ٢٩ من تاريخه المذكور) اورانيوس الصوري فقال إنه أتى بيزنطية (أي قسطنطينية) يتعاطى صناعة الطب وكان يدّعي أنه فيلسوف أفلاطوني ويماحك في الجدال. وهذا أيضاً لم نطّلع في ما لدينا من الكتب على شيء من ترجمته فاجتزأنا بهذه الاشارة. لعلّ أحداً يأتي بعدنا فينقب في حطام القدماء عن هؤلاء العلماء فيبعثهم للحياة في عالم العلم.

عد ٦٥٣

بعض من عاصر هؤلاء خارجاً عن سورية

نعرف من مشاهير العلماء الدنيويين في هذا القرن خارجاً عن سورية أولاً بروكوب، وهو مؤرخ يوناني وُلد في قيصرية الكبادوك نحو سنة ٥٠٠م، وقد افتتح مدرسة يعلّم فيها الفصاحة بقسطنطينية، ثم صحب باليصار قائد جيش يوستنيانس في حروبه في آسيا وافريقيا وايطاليا إذ كان كاتباً له، إلى أن جعله يوستنيانس من رجال الندوة، ثم نصّبه والياً في قسطنطينية سنة ٥٦٢م إلى أن أدركته الوفاة نحو سنة ٥٦٥م، ويُظن أنه كان مسيحياً. ومن مصنفاته كتاب في الحروب مع الغطط والفرس والبندالة يقدّر يوستنيانس وحاشيته فيه حق قدرهم من الحرمة والاجلال. ولكن له كتاب عنونه انِكودُت (أي السري) أكثَر فيه من الغيبة والطعن بيوستنيانس وباليصار ولا سيما بالملكة توادورا، حتى رأى بعض المحققين أن يعزو هذا الكتاب إلى غير بروكوب. وله أيضاً كتاب حوى ست مقالات في الابنية التي أحدثها يوستنيانس الملك تنطوي على فوائد عديدة جغرافية وصناعية قد طبعت تآليفه هذه باليونانية مع ترجمتها بعناية الأب ملترا في المجموعة الموسومة بالمكتبة البيزنطية سنة ١٦٦٢م، ثم طبعها دندرف في مدينة بون سنة ١٨٣٣م. وقد ترجم العالِم مرتينس فوما كتابيه في التاريخ والأبنية إلى الافرنسية وطبعهما في باريس سنة ١٥٨٧م. وترجم العالِم ايزمير تاريخه السري وطبعه سنة ١٨٥٦م وعلّق عليه حواشي مفيدة.

ومن هؤلاء اغاثيا المار ذكره آنفاً وهو مؤرخ يوناني وُلد في ميرينا بآسيا الصغرى، وكتب تاريخ الملك يوستنيانس من سنة ٥٥٣ إلى سنة ٥٥٩م في خمسة كتب تكملة لتاريخ بروكوب، وطبع في جملة الكتب التي اشتملت عليها المجموعة البيزنطية سنة ١٦٦٢م، وقد ترجمه من اليونانية إلى الافرنسية العالِم كوزان المعروف بالرئيس . وله قصائد شعرية وقد طبع مؤلفاته كلها برونك سنة ١٧٧٩م، ويعقوب سنة ١٧١٣م في لبسيك، وطبع تاريخه الأب مين في جملة كتب العلماء الذين كتبوا في اليونانية نحو سنة ١٨٦٠م.

وكان من علماء السريان الدنيويين في هذ القرن سرجيوس أو سركيس الرشعيني (نسبةً إلى بلدة اسمها رشعين أو راس العين) ببلاد ما بين النهرين. واشتهر بأنه كان أوّل من ترجم الكتب الفلسفية والطبية من اللغة اليونانية إلى السريانية.

وقد ذكره أبو الفرج ابن العبري في تاريخه فقال: «وكان من السريان أطباء ماهرون منهم سركيس الرشعيني، وهو أول من ترجم الكتب الفلسفية والطبية من اليونانية إلى السريانية واثناسيوس الآمدي وفيلاغريوس» (عن السمعاني مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣١٥). وقال فيه ابن العبري أيضاً: «إنه في أيام افرام الآمدي (بطريرك انطاكية) مضى سركيس الرشعيني إلى انطاكية ليشكو اسكوليوس أسقف محله إلى افرام، وكان سركيس رجلاً فصيحاً ضليعاً في علوم السريان واليونان وطبيباً حاذقاً جداً، وكان قد خصى نفسه طائعاً على ما شهد فرولوغس، لكنه كان ذا سيرة سيئة متهتكاً ومَتْهماً بمحبة المال، فوعده افرام بأن يدفع له كل ما يسأل إذا أراد أن يمضي إلى روما برسالة إلى اغابيطس الحبر الروماني. فارتضى سركيس وسار إلى روما وأتى بأغابيطس إلى قسطنطينية (عن السمعاني في المحل المذكور صفحة ٣٢٣) وكان غرض اغابيطس من قدومه إلى قسطنطينية أن يصلح ما بين يوستنيانس وتيوداتس ملك الغطط. وقال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٨٧). «لا يمكنني أن أقطع بكون سركيس هذا هو سركيس المترجم نفسه الذي كان في أيام كسرى ملك الفرس ويوستنيانس الملك. واشتهر بترجمته إلى اليونانية سلسلة ملوك الفرس وأعمالهم بطلب اغاثيا (المار ذكره)، على أنّ العصر الذي كانا فيه واحد، والمكان واحد وكل منهما كان عالِماً وضليعاً بمعرفة اللغات». وعليه فيرجّح أنهما سركيس واحد لا سركيسان. وقد ذكر سركيس هذا عبد يشوع الصوباوي في قصيدته (فصل ٦٤) وقال إنّ له شروحاً في المنطق والبيان.

ذيل

مشاهير شعراء العرب النصارى في هذا القرن السادس

رأينا أن نُطرف قراء كتابنا بشيء ولو قليلاً من أخبار شعراء العرب في هذا القرن جرياً على ذكرنا بعض المشاهير من غير سورية، فشعراء العرب أولى بهذا الذكر من أوجه، وقد اعتمدنا في ما نلخصه من تراجمهم على مجموعة الأب

لويس شيخو اليسوعي في شعراء النصرانية التي جمعها بتعب جزيل من أشهر كتبهم، وصحّحها وطبعها في بيروت سنة ١٨٩٠م.

فمن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس وهو ابن حجر بن الحارث بن عمرو المقصور من قبيلة كندة، وأمه أخت كليب والمهلهل التغلبيين، وُلد لنحو سنة ٥٢٠م، وكان ذكياً متوقد الفهم. ولما ترعرع أخذ يقول الشعر، وقيل إنّ خاله المهلهل لقّنه هذا الفن حتى قدم على سائر شعراء عصره. وغضب عليه أبوه لقوله الشعر لأنه كان أمير قبيلته. وكان الملوك يأنفون من ذلك فطرده، فكان امرؤ القيس يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط منهم، وقال حينئذٍ معلقته المشهورة ومطلعها:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وما برح مع صعاليك العرب حتى بلغه مقتل أبيه حجر، فآلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يُدهن بدهن ولا يلهو بلهو حتى يدرك بثأر أبيه. وكانت له حروب شديدة مع بني أسد قاتلي أبيه، وقتل منهم كثيرين، ولم ينكف عن القتال حتى خذله العرب الذين كان استنجدهم فنجدوه، فمضى يحرش غيرهم على بني أسد، وخاصمه المنذر (ابن ماء السماء على مذهب المؤرخين العرب) أحد ملوك الحيرة. ولجأ لما ضاق ذرعه عن مناوأة كل من أثارهم عليه إلى قيصر الروم، وكان حينئذٍ يوستنيانس (على مذهب المؤرخين العرب)، ويقال أنه قلّده أمرة فلسطين، ولم ينجده لإعادة ملكه ، فضجر وعاد إلى بلده فمات في طريقه سنة ٥٦٥م. ولأمرئ القيس في كل هذه المواقع قصائد رنانة يمكن مطالعتها في ديوانه أو في الكتاب المار ذكره. وكان مسيحياً وقد مرّ لنا كلام فيه وفي الاسهم التي استودعها السموأل (في عد ٦١٠).

إننا نرى خلافاً بين المؤرخين العرب وغيرهم في زمان ماوية ماء السماء، فقد ذكرها سوزومانوس وتوادوريطوس في أواخر القرن الرابع وملك بعدها المنذر بن ماء السماء في أوائل القرن الخامس. والمؤرخون العرب يقولون إنّ المنذر هذا كان يناوئ امرأ القيس حتى اضطره إلى الفرار، وجعلوا المنذر هذا في أيام كسرى انوشروان الذي ملك من نحو سنة ٥٣٠ إلى سنة ٥٧٧م في القرن السادس، وأتبعهم في ذلك صاحب المجموعة الذي لخصنا هنا ما كتبه في ترجمة امرئ القيس، وهو يخالف ما ذكرناه في عد ٦١٠. فأتبعنا هنالك رأيهما إذ ذكرا قصةً ماء السماء

وابنها في القرن الخامس وتاريخهما لا يمتد إلّا إلى أواسط القرن الخامس. وروينا هنا ما جاء في المجموعة المذكورة نقلاً عن المؤرخين العرب، والذي نراه الآن أنّ رواية توادوريطوس وسوزومانوس أنّ ماء السماء وابنها المنذر كانا في آخر القرن الرابع وأول الخامس هي أحق بالاتباع لأنهما ثقة. وكانا معاصرين لهذه الملكة وابنها. وأما امرؤ القيس والمنذر الذي ناصبه فكانا في القرن السادس. ولم يكن المنذر هذا ابن ماء السماء بل من ذريتها وقد غرتنا تسمية المؤرخين له ابن ماء السماء حتى تكمنا عن امرئ القيس والسموأل في تاريخ القرن الخامس في عد ٦١٠م.

ومن مشاهيرهم حنظلة الطائي وهو ابن عفراء بن النعمان بن حبة إلى الغوث بن طي. ورووا أنه بسببه تنصّر المنذر بن ماء السماء، وذلك أنّ المنذر جعل له يومين، يوم نعيم ويوم بؤس، فأول من يطلع عليه يوم بؤسه يقتله ومن جاءه يوم نعيمه أغناه. وكان حنظلة قد آوى المنذر يوم خرج إلى الصّيد وضلّ طريقه وقراه بحليب ناقته ولحمها. وقال له المنذر عند انصرافه يا أخاطي أنا المنذر فاطلب ثوابك. وأصابت حنظلة مصيبة وساءت حاله فمضى إلى المنذر وكان يوم بؤسه فقال له أبشر بقتلك. فسأله أن يؤجله سنة ليرجع إلى أهله ثم يصير إليه في الأجل، وطلب كفيلاً فكفله رجل اسمه شريك بن عمر، وحلّ الأجل ولم يأتِ حنظلة، فأمر المنذر بقتل شريك فتهيأ للقتل، ووقف السيّاف بجانبه فلم يشعر إلّا براكب قد ظهر فإذا هو حنظلة، فقال له الملك ما الذي جاء بك وقد أفلتّ من القتل؟ قال: الوفاء. قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: إنّ لي ديناً يمنعني من الغدر. قال: وما دينك؟ قال: النصرانية. قال: فاعرضها عليّ، فأعرضها فتنصّر المنذر. قال الميداني وتنصّر معه أهل الحيرة أجمعون. قال الأب شيخو إنّ هذه القصة تعزى للنعمان بن المنذر لكنه استخار رواية كتاب الأغاني فعزاها إلى المنذر. قلت، وقد تكون القصة من الأقاصيص المدخلة فلا يمكن القطع بصحتها لأنّ ماوية المسماة ماء السماء وابنها المنذر كانا قبل حنظلة بنحو قرن كامل كما مرّ، وكانا مسيحيين. ويشتم من الرواية رائحة الاستنباط والحكايات: ومهما يكن من أمرها فحنظلة باع ما ملك وبنى ديراً قريباً من شاطئ الفرات، وترهّب فيه ويسمى دير حنظلة. وقال فيه عبدالله بن محمد الأمين:

ألا يا دير حنظلة المفدّى لقد أورثتني سقماً وكدا

وتوفي حنظلة في هذا الدير سنة ٥٩٠م وهو من شعراء الجاهلية. لم يبقَ إلَّا القليل من شعره، ومنه ما رواه أبو الفرج ابن الطبيب النصراني:

مهما يكن من ريب دهرٍ فإنني أرى قمر الليل المعذب كالفتى
يهلّ صغيراً ثم يعظم ضؤه وصورته حتى إذا ما تمَّ استوى
وقرّب يخبو ضؤه وشعاعه حتى يستسرَّ فما يرى

ومنهم حاتم الطائي وهو ابن عبدالله بن سعد إلى الغوث ابن طي. ولهم في كرمه وجوده روايات كثيرة غريبة تلحقها بالأقاصيص، وأحسبها مبالغات تعمّد بها الرواة حثّ الناس على الكرم. وسلكوا فيها مسلك شعراء العرب بالمبالغة والغلو على أنها لا تخلو من الحقيقة حتى ضربت الأمثال بجود حاتم طي. وكان حاتم شاعراً مجيداً يكرر في قصائده ذكر الجود والكرم. ويتفاخر بهما الناس ويحثّ الناس عليهما، ومن ذلك قوله:

وقد علم الأقوام لو أنّ حاتماً أراد شراء المال كان له وفر
وإني لا آلو بمال صنيعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العاني ويوكل طيباً وما أن تعريه القداح ولا الخمر
عنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
فقدماً عصيت العاذلات وسُلّطت على مصطفى مالي أناملي العشر

وقال من قصيدة أخرى:

ولا اشترى مالاً بغدر علمته ألا كل مال خالط الغدر انكد
إذا كان بعض المال رباً لأهله فإني بحمد الله مالي معبد
يفك به العاني ويوكل طيباً ويعطى إذا منّ البخيل المطرّد

ولذلك لهج الشعراء بمدحه فقال أحدهم:

وحاتم طي إن طوى الموت جسمه   فنشر اسمه في الجود عاش مخلدا

وعن المجموعة المذكورة إنّ وفاة حاتم طي كانت سنة ٦٠٥م.

ومنهم كليب وأخوه المهلهل وهما ابنا ربيعة بن الحدث بن زهير إلى تغلب. وكليب اسمه وائل والمهلهل اسمه عدي. وكانت بين بني ربيعة وملوك اليمن حروب مشهورة، وكان كليب رئيس قومه فأذلّ جموع اليمن وهزمهم، وساد بقومه واستطال وبغا، وتزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أخوها جساس له خالة اسمها البسوس نزلت عليه، وكانت لها ناقة تسمى سراب خرق كليب ضرعها وقتل فصيلها إذ رآها ترعى في مرعاه، فغار جساس لخالته وأنف من بغي كليب فقتله. فهبّ المهلهل أخوه يثأر بدمه من بني مرة فكانت بين الفريقين الحروب المعروفة بحرب البسوس. وكانت هذه الحرب في أواخر القرن الخامس، فإنّ كليباً قُتل على ما في المجموعة المذكورة سنة ٤٩٤م وأخوه عدي وهو المهلهل قُتل سنة ٥٣١م. ولكليب أشعار قليلة، ولمهلهل أشعار كثيرة ولا سيما في رثاء أخيه والادراك بثأره، وحروبه وقتله، بل له ديوان تتداوله أيدي العامة، لكنه قد كثر فيه اللحن والخطأ من جهل النساخ. قال صاحب المجموعة المذكورة لا شك أنّ المهلهل كان يدين بالنصرانية فإنّ قبيلته كانت قد تنصّرت منذ أوائل القرن الرابع، وفي شعره مايدل على ايمانه بالله وبالبعث، وفي أسرته كثيرون قد ثبت تنصيرهم.

وكان منهم السفاح التغلبي وقد توفي سنة ٥٥٥م، والأخنس بن شهاب وتوفي سنة ٥٥٦م، وجابر بن حنى التغلبي سنة ٥٦٤م، وعميرة التغلبي سنة ٥٦٨م، وعمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة، وتوفي سنة ٦٠٠م وقس بن ساعدة الشهير، وتوفي أيضاً سنة ٦٦٠م، وعبد المسيح بن عسلة سنة ٥٩٢م والحارث بن عباد سنة ٥٥٠م، وطرفة بن العبد. سنة ٥٦٤م، والمتلمس سنة ٥٨٠م إلى غير هؤلاء.

هذه صورة كاليان الملك الروماني عن تمثال له في الكابيتول بروما



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٦٥٤

بطاركة انطاكية في القرن السادس

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن الخامس بذكر افلابيانس الثاني الذي توفاه الله سنة ٥١١م وخلفه ساويرس، وكان مغوياً بغواية اوطيخا، وقد وُلد في بلاد فارس وثنياً، ودرس العلوم في بيروت، وتنصّر في اطرابلس بفينيقيا، وعمّده أسقف كاثوليكي، وآثر السيرة الرهبانية فانضوى إلى دير قريب من غزة ثم مضى إلى مصر، فشايع بطرس الالثغ البطريرك الاسكندري مناصباً تيموتاوس البطريرك الكاثوليكي. ولما أذعن الالثغ لمنشور زينون المعنوَن هنيوتيكون أي منشور الاتحاد اعتزل ساويروس عن شركته، لأنّ المنشور لم يصرّح بنبذ رسوم المجمع الخلكيدوني، وأتى في مقدمة جمهور من الرهبان إلى قسطنطينية مهيّجاً بين القوم المخالفة لرسوم المجمع، وأغضى انسطاس الملك على شرّه لمناصبته هذا المجمع حتى اتصل ساويروس إلى عزل مكدونيوس البطريرك القسطنطيني واقامة تيموتاوس خازن الملكة بطريركاً مكانه، وقد عاون تيموتاوس ساويروس لدى الملك انسطاس على طرد افلابيانس بطريرك انطاكية

من كرسيه وانتخاب ساويروس مكانه، فرُقي إلى هذا الكرسي ٥١٢م. وفي يوم ارتقائه إليه حرّم المجمع الخلكيدوني ورسالة القديس لاون البابا. وأوفد رسائله إلى كل من كانوا متشبثين بمراسيم المجمع الخلكيدوني. وأبى ايليا بطريرك أورشليم أن يشترك معه وظلّ ساويروس يدبر مهام البطريركية الانطاكية بالعنف والاعتساف خمس سنين وبعض أشهر إلى أن عاجلت المنية انسطاس الملك، وخلفه يوستينس الصالح سنة ٥١٧م، فأمر بعقد مجمع في قسطنطينية، وأجمع الاساقفة الملتئمون فيه على تأييد مراسيم المجمع الخلكيدوني، وحرموا ساويروس. وأمر الملك يوستينس بالقبض عليه وقطع لسانه، ففرّ من انطاكية (روى ذلك لكويان في المشرق المسيحي في كلامه على ساويروس عن افاغريوس ك ٤ من تاريخه فصل ٤). وخلاصة ما رواه افاغريوس في المحل المذكور وفي محل آخر (ك ٣ من تاريخه فصل ٣٧) أنّ ساويروس رقي إلى البطريركية في شهر تشرين الثاني سنة ٥٦١ للتاريخ الانطاكي الموافقة سنة ٥١٢ للتاريخ المسيحي العامي. وفرّ من انطاكية في شهر أيلول سنة ٥٦٧ للتاريخ الانطاكي الموافقة سنة ٥١٨م، فيكون استمر في البطريركية خمس سنين وعشرة أشهر. وكذلك روى توافان أنّ فرار ساويرس كان لسنة ٥١١م على مذهبه في تاريخ السنين، وهي سنة ٥١٨م على مذهب عامة المؤرخين.

قال لكويان (في المشرق المسيحي في كلامه على ساويرس) أنّ ساويرس بقي حياً إلى سنة ٥٣٦م التي فيها عُقد المجمع القسطنطيني. فقد ذكر افاغريوس (في ك ٤ فصل ١١) أنه كتب رسائل إلى الملك يوستنيانس وتوادورا الملكة وتوادوسيوس البطريرك الاسكندري قال فيها إنه يحب أن يأتي إلى قسطنطينية ويجعل بطريركها انتيمس يرعوي عن مخالفته المجمع الخلكيدوني، وانتيمس هذا كان بطريركاً سنة ٥٣٦م. وروى السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٣٢١) عن ابن العبري في تاريخه أنّ ساويرس «في السنة السابعة لأسقفيته ترك انطاكية وفرّ إلى الاسكندرية فأقيم مكانه بولس، واستمر سنة واحدة واوفراسيوس، وبقي سبع سنين وافرام الآمدي واستمر اثنتين وعشرين سنة. وأتى ساويرس من مصر إلى قسطنطينية معتمداً على حماية توادورا الملكة... وطُرد منها بأمر أغابيطس البابا فعاد إلى مصر بزيّ راهب إلى أن قضى نحبه في المحل المدعو سخا في الاسكندرية في ٢٨ شباط سنة ٨٥٠ يونانية» الموافقة لسنة ٥٣٩ م. انتهى كلام ابن العبري. وعقبه السمعاني بقوله في المحل المذكور أنه جاء في تاريخ بطاركة اسكندرية لرينودوسيوس (صفحة

١٣٨) إنّ ساويرس صرف بعد أن نال بطريركية انطاكية ثلاثين سنة مقاوماً التعليم الكاثوليكي أنّ في المسيح طبيعتين، وقد أدخله الملك انسطاس على بطريركية انطاكية سنة ٥١٢م على ما حقق الكردينال نوريسيوس وباجيوس العلامتان. وعليه فتكون وفاته سنة ٥٤٢ لا سنة ٥٣٩م كما قال ابن العبري. على أنّ السمعاني روى (في المجلد ٢ المذكور صفحة ٥٤) عن يوحنا بن افتونيوس رئيس دير قنسرين المعاصر لساويرس أنه توفي في ٨ شباط سنة ٨٤٩ الموافقة لسنة ٥٣٨ م. انتهى.

والذي نعرفه من كتب ساويرس هو ما ذكره العلامة السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد صفحة ٤٦) حيث قال ما ملخصه «إنّ بولس أسقف قلينيقية (ما بين النهرين) لما طرده الملك يوستينس من كرسيه لنبذه المجمع الخلكيدوني أتى إلى الرها وترجم كتب ساويرس من اليونانية إلى السريانية كما يظهر من الذيل المعلّق على الكتاب ٢٩ من الكتب المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية وهو «كان الفراغ من هذا الكتاب في شهر نيسان سنة ٨٣٠ يونانية (توافق سنة ٥١٩ م) في مدينة الرها ببلاد ما بين النهرين بعناية ماري بولس أسقف قلينيقية الذي ترجم من اليونانية إلى السريانية هذه الكتب اتي ألفها الطوباوي الورع مار ساويرس البطريرك، وهي الكتاب الكبير رداً على مزاعم يوليانس (الاليكرناسي) والرد على الزيادات وعلى المانويين وفيلالاتيس». وله أيضاً مئتان وخمس وتسعون قصيدة في الأوزان الثمانية قد ترجمها بولس الاسقف المذكور إلى السريانية، ونقحها كما يظهر من الكتاب المخطوط السرياني في عد ١٥ في المكتبة الواتيكانية حيث قال فيه: «إنّ مئتين وخمساً وتسعين قصيدة من القصائد المشتمل عليها هذا الكتاب هي للقديس مار ساويرس». وذكر له السمعاني أيضاً (في المجلد المذكور صفحة ٨٠) بعض كتب ورسائل نقلاً عن بطرس القصار البطريرك الانطاكي. وقال فيه ابن العبري (في بطاركة انطاكية) أنه ألّف كتاباً عنوّنه محب الحق (وربما كان الكتاب الموسوم بفيلالاتيس) شرح فيه مباحث الطبيعتين في المسيح، وفسّر منشور زينون الملك.

وخلف بولس ساويرس في بطريركية انطاكية، ولكنه لم يرقَ إلى المقام البطريركي على فور انهزام ساويرس سنة ٥١٨م، بل مضى بعد ذلك سنة فرقيَ في سنة ٥١٩م. وأمر البابا هرمزدا أن لا يرقى في قسطنطينية بل في انطاكية، فرقيَ فيها. ومذ تبوأ كرسيه أخذ يعظ مؤيداً رسوم المجمع الخلكيدوني، بل روى ابن العبري (في تاريخ بطاركة انطاكية) أنه جمع الاساقفة وأكرههم على بثّ الرسوم

المذكورة. فمن اعتراهم الفشل وطاعوه لبثوا في كراسيهم، ومن خالفوه عُزلوا. وسمى ابن العبري بولس هذا يهودياً واناء الغضب لأنه كان مخالفاً لبدعته. وكذا سماه يوحنا أسقف آسيا لأنه كان من أصحاب الطبيعة الواحدة. على أنّ هذا البطريرك لم يستمر على كرسيه إلّا نحواً من ثلاث سنين واعتزل، كما يظهر من ذكر توافان ترقيته سنة ٥١٢م وخلافة اوفراسيوس له سنة ٥١٥ (لا تسهَ عن أنّ توافان يخالف رأي عامة المؤرخين بسبع سنين، فعلى رأيهم أنّ ترقيته كانت سنة ٥١٩م واعتزاله سنة ٥٢١). وذكر يوحنا ملالا علّة هذا الاعتزال فقال قد أمر بولس أن تكتب اسماء الست مئة وثلاثين أسقفاً الذين شهدوا المجمع الخلكيدوني في التذكارات في الكنائس فلم يطاوعه جميع أساقفته، فآثر العزلة على البقاء في البطريركية مع هذا الخلاف. وعن ديوانيسيوس بطريرك اليعاقبة أنه استمر في البطريركية سنة واحدة ومات، ولكن تعقبه العلامة السمعاني (في مجلد ١ من مكتبته صفحة ٢٩٩) بأنّ قوله هذا منقوض بقوله في محل آخر أنّ بولس صار بطريركاً سنة ٨٣١ يونانية (سنة ٥٢٠ م) وأنّ يعقوب السروجي توفي سنة ٨٣٣ (سنة ٥٢٢) وأنّ بولس رقى خليفته موسى في سروج بعد وفاته. فإن كان قام في البطريركية سنة ٥٢٠م واستمر سنة واحدة فكيف يرقي موسى سنة ٥٢٢م بعد وفاته بسنة.

وخلف اوفراسيوس بولس سنة ٥٢١م وكان من أورشليم، وقال فيه توافان في تاريخ سنة ٥١٣م (على مذهبه) أنه محا أولاً من التذكارات في الكنائس اسماء آباء المجمع الخلكيدوني والحبر الروماني، لكنه ندم بعد ذلك وأذاع أعمال المجامع المسكونية الأربعة، وقسا على مخالفي المجمع الخلكيدوني، وسماه ابن العبري ابن الملاح، وقال أنه في أيامه أمر الملك يوستينس بأنه يلزم المؤمنين جميعاً أن يذعنوا لما رسمه المجمع الخلكيدوني، ومن لا يذعنون يحسم رزقهم ويحطون من مناصبهم، وإنّ الملك قتل حينئذٍ بعض أعوانه لأنهم لم يذعنوا لأمره. وقد توفي اوفراسيوس تحت أنقاض داره في انطاكية بالزلزال الذي أصاب هذه المدينة سنة ٥٢٦م. روى ذلك افاغريوس عن يوحنا ركتور (الخطيب أو الفصيح) الذي كان شاهد عيان لهذا الحدث. وقد ذكرناه آنفاً نقلاً عن الكرونيكون (تاريخ السنين) الرهاوي.

وخلف افرام الآمدي اوفراسيوس سنة ٥٢٧م وكان والياً في انطاكية لما دمرتها الزلازل. وما أبداه حينئذٍ من الشفقة على المصابين والعناية بهم والسخاء عليهم

حمل أهل انطاكية على انتخابه بطريركاً كما مرّ. وكان شديد التمسك بعرى الايمان الكاثوليكي، وكتب مقالات شتى دافع بها عن المجمع الخلكيدوني، وأتى سنة ٥٣٧م إلى فلسطين حيث عُقد مجمع حُرمت فيه تعاليم اوريجانس التي كان بعض رهبان فلسطين يدافعون عن صحتها (لكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). وقال ابن العبري (في بطاركة انطاكية) إنه كان حكيماً ورعاً لكنه كان مغوياً بضلال أصحاب الطبيعتين، وأنزل بخصمائه مضار كثيرة بحيَلِهِ واستمالة الملك إليه. فأخرب أدياراً كثيرة ونقض مذابح شتى، واضطهد المؤمنين ثماني عشرة سنة، ولا يخفى ما حمل ابن العبري على هذا الكلام إنما هو تشيّعه لأولي بدعته. وروى فوتيوس في مكتبته (ك ٢٢٨) إنّ افرام هذا كتب رسالة إلى من شذّوا عن الايمان في قلينيقية محضّاً اياهم أن يصطلحوا مع الكنيسة، ومبيّناً لهم أنها براء من كل وصمة بدعة (رواه السمعاني مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩). وجاء ذكر افرام هذا في كرونيكون الرها حيث قيل أنه بعد اوفرسيوس (يسميه الكرونيكون اوفرس) صار أسقفاً على انطاكية افرام الآمدي الذي كان والي المشرق». ويؤخذ عن تاريخ نيكوفور وجداول توافان أنه استمر في البطريركية ثماني عشرة سنة، وتوفاه الله سنة ٥٤٥م. وعن تاريخ ابن العبري أنه أقام سنة ٥٢٢م (على ما روى السمعاني مجلد ٢ صفحة ٣٢١). ومن بعد افرام هذا رغب ابن العبري عن ذكر البطاركة الكاثوليكيين إلى ذكر البطاركة اليعقوبيين، فذكر بعد افرام سرجيوس الذي أقامه اليعاقبة بعد موت ساويرس، واستقرى الكلام في خلفائه.

أما الكاثوليكيون فأقاموا بعد وفاة افرام دمنس الثاني ويسمى دومنينس أيضاً في آخر سنة ٥٤٥ أو بدء سنة ٥٤٦م. وكان كاثوليكياً رشّحه يوستنيانس الملك على ما جاء في ترجمة القديس سمعان العمودي الصغير. وشهد المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م ووقّع عليه مع سائر الاساقفة. وعن تاريخ نيكوفور وجداول توافان أنه استمر على منصّة البطريركية أربع عشرة سنة أي إلى سنة ٥٦٠م.

وخلف انسطاس دمنس وكان راهباً من أديار فلسطين، وأطرأ افاغريوس (ك ٤ فصل ٣٩) فضائله، ومنها شجاعته في مقاومة يوستنيانس الملك في متابعته بدعة من زعموا أنّ جسد المسيح لم يكن قبل قيامته أيضاً محلاً للفساد أو التأثيرات الجسدية كالجوع والعطش. ولما فشا هذ الضلال في قسطنطينية توقّع القوم أن يبدي انسطاس رأيه فيه لأنه كان علامة عصره، فنبذ هذه الغواية وفنّدها، فأمر الملك بنفيه

مع كهنته ولكن عاجلته المنية سنة ٥٦٥م فلم ينفذ حكمه. على أنّ يوستينس الثاني الذي خلفه لم يكن أرفق منه بالبطريرك، فإنه عزله بمكيدة كادها حسّاده إذ سعوا به لدى الملك بأنه بذّر خزية كنيسته، وأنه لما سُئل عن هذا التبذير أجاب إني عمدت إلى ذلك لئلا يبتزّ يوستينس آفة الدنيا مال كنيستي. والصحيح أنّ علّة عزله ماروواه توافان في تاريخ سنة ٥٦٢م (على مذهبه وهي سنة ٥٦٩) وهو أنّ يوحنا بطريرك قسطنطينية رقى إلى الاسقفية يوحنا بطريرك اسكندرية ولا سلطة له على ذلك، فأنّب انسطاس من رقى ومن ارتقى في رسالة مجمعية، فبعثا الملك على عزله. وهو ظاهر أيضاً من رسالة القديس غريغوريوس الحبر الروماني إلى بطاركة المشرق وإلى انسطاس، هذا وكان عزله في آخر سنة ٥٦٩م على ما روى نيكوفور في تاريخه، وتوافان في جداوله (عن لكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). وجاء في تاريخ يوحنا أسقف آسيا (الذي أوصله إلينا ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة) عداد مشاهير المونوفيزتيين ومشاهير الخلكيدونيين أي الكاثوليكيين سنة ٨٨٢ يونانية الموافقة لسنة ٥٧١ للميلاد. فكان في مقدمة الكاثوليكيين فيجيليوس الحبر الروماني، وانسطاس البطريرك الانطاكي (المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٩٠)، وإن كان فيجيليوس توفاه الله قبل ست عشرة سنة من التاريخ المذكور كما لاحظ العلامة السمعاني في المحل المذكور.

وبعد عزل انسطاس عن كرسيه أمر يوستينس الثاني أن يرقى إليه غريغوريوس. وقد أثنى افاغريوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٦) على غريغوريوس هذا. ومما قاله فيه أنه كان شهيراً بصناعة الشِعر، وقد امتاز عمن سواه بثلاث فضائل الصدقة، والصفح عن المساوئ والدموع، وكان شفوقاً على الخطأة، وقد شكاه رجل عالمي إلى الحاكم الدنيوي بجرائم كبيرة فعقد عليه مجمع في قسطنطينية شهده البطريركان الأورشليمي والاسكندري وكثيرون من الاساقفة. وبعد البحث الدقيق حكموا ببراءته، فأمر الملك بجلد الشاكي ونفيه. وبعد أربعة أشهر من عود غريغوريوس إلى انطاكية حدث فيها سنة ٥٧٩م زلزال آخر دمّر جانباً من بيوتها، وبعد خمس سنين أدركته المنية سنة ٥٨٤م. حققه باجيوس اعتماداً على كتاب مخطوط باليونانية عُثر عليه في مكتبة قيصرية، ولا يقرب من الصدق ما جاء في موجز تاريخ نيكوفور وجداول توافان أنّ غريغوريوس استمر في البطريركية أربعاً وعشرين سنة لتكون وفاته سنة ٥٩٣م (لكويان في المحل المذكور من المشرق المسيحي).

ولما توفي غريغوريوس عاد انسطاس إلى بطريركية انطاكية سنة ٥٨٤م وعند بعضهم سنة ٥٩٠م. وكتب إليه البابا غريغوريوس الكبير رسالة يحضّه فيها على أن يقاوم دعوى البطريرك القسطنطيني بأن يسمي نفسه بطريركاً مسكونياً، فتعاطى الأمر بحكمة متذكراً ما جرى عليه قبلاً، إذ ونّب يوحنا البطريرك القسطنطيني على ترقيته البطريرك الاسكندري، ثم توفاه الله سنة ٥٩٨ أو سنة ٥٩٩م. وبعضهم لم يميز بينه وبين انسطاس السينسوي كاتب المحاورات رداً على المونوفيزتيين، مع أنّ هذا كان راهباً لا بطريركاً. وعاش بعد ظهور الاسلام أي بعد انسطاس البطريرك بسنين (لكويان في الحل المذكور من المشرق المسيحي).

وقام بعد انسطاس الاول انسطاس الثاني سنة ٥٩٩ أو سنة ٦٠٠م ومنذ تبوأ الكرسي البطريركي أنفذ رسائل إلى البابا غريغوريوس (والجواب له مثبت في أعمال هذا البابا) وإلى البطاركة الشرقيين. وقد دبر كنيسته في أوقات صعبة أيام الحروب بين فوقا ملك الرومانيين وكسرى ملك الفرس، وناصب اليهود الذين هاجوا على النصارى في انطاكية، فقبضوا عليه وجروه في المدينة حتى لقي ربه. فأرسل فوقا فنكل بهم وقتل كثيرين منهم. وروى توافان هذا الخبر في تاريخ السنة السابعة لفوقا وهي سنة ٦٠٩م. وعن التاريخ الاسكندري إنّ ذلك كان في أيام هرقل خليفة فوقا سنة ٦١٠م. وكان انسطاس هذا ضليعاً في اللغتين اللاتينية واليونانية، وله ترجمة كتاب البابا غريغوريوس من اللاتينية إلى اليونانية. وقد فرغ كرسي انطاكية بعد وفاته من بطريرك مدة اثنتين وعشرين سنة، وعلى رواية أخرى ثماني وعشرين أو ثلاثين سنة لتواتر سطو الفرس على سورية (لكويان في المحل المذكور من المشرق المسيحي).

عد ٦٥٥

بطاركة أورشليم في القرن السادس

كان ختام كلامنا في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن الخامس، أنّ الملك انسطاس نفى ايليا البطريرك إلى ايله على شاطئ البحر الأحمر، وأقام مكانه سنة ٥١٣م يوحنا بن مرقيان الذي كان كاهناً في كنيسة القيامة.

ولما ماتت امرأته رقاه ايليا إلى أسقفية سبسطية (وهي السامرة) ورقي ابنه انطونيوس إلى أسقفية عسقلان، وجعل ابنه الآخر يوحنا هذا شماساً في كنيسة

القيامة. فبعد نفي ايليا صير يوحنا هذا أسقفاً على أورشليم، وشرط عليه الوالي أن يشترك مع ساويرس بطريرك انطاكية وينبذ المجمع الخلكيدوني. وعرف القديس سابا وغيره من النساك أنّ الوالي شرط على البطريرك هذا الشرط، فأجمعوا ورفعوا إلى البطريرك عريضة يعلنون بها أنهم لا يشتركون البتة مع ساويرس، وأنّ عزمهم أن يبذلوا نفوسهم في جانب تأييد المجمع الخلكيدوني، فلم يعمل البطريرك بما شرطه عليه الوالي، وبلغ الملك انسطاس ما كان، فاستشاط غيظاً، وعزل اولمبيوس الوالي، وولّى مكانه بمفيليوس على فلسطين، وأمره أن يكره يوحنا على متابعة ساويرس وعلى نبذ المجمع الخلكيدوني وإن أبى عزله. فباغت الوالي البطريرك وألقاه في السجن، ودخل عليه خفية رجل اسمه زكريا من قضاة قيصرية وأشار عليه أن يرسل رسولاً يقول للوالي أنّ كل ما يعمله مكرهاً لا يعتد به، فليخرجه من السجن ويمهله يومين ليتدبر ما يعمل، فأخرجه واستدعى البطريرك ليلاً جميع الرهبان، فأتاه جمّ غفير منهم حتى لم تسعهم كنيسته، فاجتمعوا في كنيسة القديس اسطفانس أول الشهداء، وازدحم الشعب هناك، وأتى الوالي وزكريا فصعد البطريرك على المنبر ومعه توادوسيوس وسابا رئيسا الأديار فهتف الرهبان والشعب طويلاً قائلين احرموا اولي البدع، أيّدوا المجمع الخلكيدوني. فصاح البطريرك والرئيسان نحرم نسطور ونحرم اوطيخا، نحرم ساويرس وكل من لا يقبلون المجمع الخلكيدوني. وعند نزولهم من على المنبر قال توادوسيوس الرئيس كل من لا يقبل المجامع الأربعة كالأناجيل الأربعة فليكن محروماً. فارتاع الوالي مما رآه وفرّ إلى قيصرية، وكان ذلك سنة ٥١٤م. وعرف انسطاس الملك ما كان في أورشليم فاحتدم صدره وعزم أن ينفي البطريرك والرئيسين، فاجتمع الرهبان في أورشليم وأنفذوا رسالة إلى الملك يسألونه أن يعدل عن عزمه وإلّا فهم يؤثرون الموت على الانفصال عن رؤسائهم. ورأى انسطاس شدة عزم الرهبان وسكان أورشليم فرغب عن عزمه ولزم الصمت.

وقد خرمت المنية انسطاس سنة ٥١٨م وخلفه الملك يوستينس الأول، وكان من بواكير أعماله أنه أمر أن يرجع من المنفى كل من أبعدهم انسطاس، وأن يكتب اسم المجمع الخلكيدوني كباقي المجامع في التذكارات التي تتلى في الكنائس. فاجتمع في أورشليم جمّ غفير من الرهبان والشعب وأقاموا عيداً لذلك في السادس من شهر آب، وأذاعوا أمر الملك بالابتهاج. وأوعز البطريرك إلى القديس سابا أن يطوف في البلاد ناشراً أمر الملك ففعل مسروراً. وقد استمر يوحنا على كرسي

أورشليم إلى سنة ٥٢٤م ورقد بالرب (روى ذلك لكويان في المشرق المسيحي في كلامه على بطاركة أورشليم عن كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا) ورواه أيضاً توافان في تواريخ سنة ٥٠٥م وما بعدها وغيرهما.

وخلف بطرس يوحنا المذكور كما روى كيرلس أسقف باسان. وكان بطرس من بيت جبرين، وكان في أيامه قلق كبير ونزاع شديد بين رهبان فلسطين، لأنّ بعضهم كان يصوّب تعاليم اوريجانس وبعضهم يعتدها ضلالاً مخالفاً للايمان، ولم يخلُ البطريرك من شائبة الجنوح إلى رأي الأولين وإلى محاماة انتيموس الدخيل على البطريركية القسطنطينية والمتشبث بغواية اوطيخا، فكتب إليه البابا اغابيطس سنة ٥٣٦م رسالة يلومه بها وينصحه بها أن يستمسك بتعليم الكنيسة وتقليدها القديم. ويظهر أنه انتصح لأنه عقد مجمعاً في أورشليم دعا إليه أساقفة فلسطين في ١٩ ايلول سنة ٥٣٦م ووقّع مع الاساقفة المجتمعين على رذل انتيمس البطريرك القسطنطيني وساويرس البطريرك الانطاكي وغيرهما من اولي البدع. وذكر لباي هذا المجمع، وقال أنه كان فيه ثمانية وأربعون أسقفاً. واستمر بطرس على كرسي أورشليم إلى سنة ٥٤٤م فكانت مدة رئاسته عشرين سنة (لكويان في بطاركة أورشليم في المشرق المسيحي). وروى توافان أنّ السنة الأولى لبطريركية بطرس هذا كانت سنة ٥٣٨م والسنة الأولى لخليفته مكاريوس كانت سنة ٥٤٨م وأظن ذلك من جملة ما يعاب به في تعيين سني تاريخه مع الاقرار له بصحة روايته.

وخلف بطرس بعد وفاته مكاريوس سنة ٥٤٤م لكنه لم يلبث أن عُزل عن الكرسي الأورشليمي لمقاومة الملك يوستنيانس له وللمنظمة بأنه متشبث بضلال اوريجانس. ورقى بعد عزله اسطوكيوس على ما روى افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٣٧) حيث قال أيضاً أنّ اسطوكيوس طرد كثيرين من رهبان أديار فلسطين لمدافعتهم عن غوايات اوريجانس. فتشتتوا في أماكن كثيرة وحازبهم غيرهم، وانتصر لهم توادورس أسقف قيصرية بالكبادوك. وكان يوستنيانس الملك يثق به ويسمع مشوراته فأسخطه على اسطوكيوس، فأرسل هذا البطريرك إلى الملك بعض رؤساء الرهبان وعليّة الاكليروس، وبينما هم يكلمون الملك في أمر اوريجانس وافاغريوس وديديمس سأله توادورس الكبادوكي النظر أيضاً في أمر توادوريطوس أسقف قورش وتوادورس المصيصي وايهيبا الرهاوي. وعن كيرلس أسقف باسان (في ترجمة القديس سابا) أنّ يوستنيانوس الملك أمر حينئذٍ بعقد المجمع الخامس في قسطنطينية،

وأرسل إليه اسطوكيوس ثلاثة أساقفة ينوبون عنه، فحرم آباء المجمع تعاليم اووريجانس الفاسدة، ومقالات توادورس المصيصي وافاغريوس (غير افاغريوس المؤرخ) وديديمس، وأرسل الملك أعمال هذا المجمع إلى أورشليم فأثبتها اسطوكيوس ووقّع عليها، وتابعه مع ذلك أساقفة فلسطين ما خلا اسكندر أسقف ابيلا (سوق وادي بردا) فعُزل لذلك عن كرسيه وأرسل إلى قسطنطينية حيث توفي بزلزال. وبذل اسطاكيوس قصارى جده ليرعوى الرهبان المارقون عن غيهم، ومن لبثوا مصرّين طردهم من أديارهم وأدخل غيرهم من الرهبان الأفاضل. وكان ذلك لسنة ٥٥٥م.

قال لكويان (في المشرق المسيحي) هذا ما رواه افاغريوس وكيرلس الباساني على أن يؤخذ من قوليهما من أنّ المجمع الخامس حرم غوايات اووريجانس وافاغريوس وديديمس فيه نظر، لأنّ أعمال هذا المجمع اللاتينية لا ذكر فيها لاوريجانس وديديمس بل لتحريم مقالات توادوريطوس القورشي، وتوادورس المصيصي، وايهيبا الرهاوي. والأوجه أنّ تحريم غوايات اوريجانس وديديمس كان في مجمع عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٨م قبل المجمع الخامس المسكوني الذي عُقد سنة ٥٥٣م. وربما أُرسلت أعمال المجمعين معاً إلى فلسطين ووقّع عليها اسطوكيوس وأساقفة فلسطين في وقتٍ واحد. فأجمل افاغريوس وكيرلس الباساني كلامهما ولم يفصلا، واستمر اسطوكيوس تسع عشرة سنة في بطريركية انطاكية على الأظهر، وعُزل عنها سنة ٥٦٣م، ولا يُعلم سبب عزله، ولا كيف أو متى كانت وفاته.

وعاد مكاريوس إلى بطريركية أورشليم بعد أن عزل اسطوكيوس على ما يظهر من رواية كيرلس الباساني في ترجمة القديس سابا. وقد برّأ مكاريوس ساحته من المظنّة بحرمه اوريجانس وافاغريوس وديديمس. وجاء في كتاب تراجم القديسين في ٢ من تشرين الثاني أنّ مكاريوس لقي ربه سنة ٥٧٠م وإنه كان قديساً. على أنّ الترجمة المذكورة لا يركن إليها كل الإركان، والأظهر مارواه افاغريوس (ك ٥ من تاريخه فصل ١٦) أنه لم يتوفّه الله قبل سنة ٥٧٤م.

وخلف يوحنا الرابع مكاريوس المذكور سنة ٥٧٤م وكان راهباً، على ما روى افاغريوس (في المحل المذكور)، وعن نيكوفورس أنه استمر في البطريركية اثنتين وعشرين سنة، والأوجه ما جاء في جداول توافان أنه بقي عشرين سنة فقط من سنة ٥٧٤ إلى ٥٩٤، وخلفه عاموص وكان راهباً ورئيس دير. ويظهر من رسالة

أنفذها البابا غريغوريوس إلى اسحق خليفته في كرسي أورشليم أنه توفي سنة ٦٠٠م أو سنة ٦٠١م، وهذا يطابق ما جاء في جداول توافان وتاريخ نيكوفورس (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي عن كلامه في بطاركة أورشليم).

عد ٦٥٦

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن السادس

نعرف من أساقفة حلب في هذا القرن انطونينس وقد ذكره ديونسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه، وعدّه في جملة الاساقفة الذين لم يذعنوا لمراسيم المجمع الخلكيدوني، فنفاهم الملك يوستينس سنة ٥١٨م. وقد ذكره السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٧) نقلاً عن تاريخ ابن العبري في بطاركة اليعاقبة، ثم ميكاس، وقد كان في جملة الاساقفة الذين شهدوا المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م في أيام منّا بطريركها. وكان قد وقّع على الرسالة التي رفعها أساقفة المشرق إلى البابا اغابيطس تشكياً إليه من ساويرس البطريرك الانطاكي وبطرس أسقف اباميا.

ونعلم من أساقفة سلوقية وهي السويدية نونس وكان أسقفاً على آمد، فاضطهده توما الذي خلفه في هذه الاسقفية، فاضطر أن يترك آمد، فنقله افلابيانس البطريرك الانطاكي إلى السويدية في أوائل هذا القرن. على أنه مالأ ساويرس متابعاً له على التسليم بضلال اوطيخا، فعُزل بأمر الملك يوستينس سنة ٥١٩م وعاد إلى آمد مدينته. ولما توفي توما الذي كان قد خلفه في كرسي آمد عاد نونس إلى كرسيه، لكنه لم يبقَ عليه إلّا مدّة وجيزة، وتوفاه الله (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي، وعن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٤٨ و ٤٩ و ٥١ نقلاً عن يوحنا أسقف آسيا).

ومنهم قسطنطين وكان اوطيخا كتب رسالة إلى الملك انسطاس يدّعي أن يفنّد بها المجمع الخلكيدوني. ثم ديونيسيوس وهو الذي رقى سمعان العمودي الصغير إلى درجة الكهنوت، وشهد المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م. ثمّ انطونيوس الذي يظهر من ترجمة القديس سمعان المذكور أنه كان تلميذاً له ثم راهباً وقساً ثم رئيساً

ثم أسقفاً على سلوقية. هذه (عن لكويان في أساقفة سلوقية بسورية في المشرق المسيحي).

ومن أساقفة اللاذقية عرفنا قسطنطين وكان اوطاخياً، وقد حرمه البابا فيجيليوس في رسالتيه الرابعة والخامسة إلى يوستنيانس الملك ومنّا البطريرك القسطنطيني، وعدّه ديونيسوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون وابن العبري في تاريخه في جملة زعماء بدعتهم، وقد عزله يوستينس الأول الملك عن كرسيه سنة ٥١٨م ويعيّد له اليعاقبة في ٢٦ جزيران. وقد نبذ مؤلفاته المجمع اللاتراني الذي عُقد في أيام البابا مرتينس الأول في أواسط القرن السابع. وقد روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٣٢٧) أنّ ابن العبري عدّه في تاريخ بطاركة اليعاقبة في جملة الاساقفة الذين أقاموا في قسطنطينية يتزلفون إلى الملك ويحضون الملكة على الرفق والحماية لأصحاب بدعتهم. وكان في هذا القرن في اللاذقية اسطفانس الثاني شهد المجمع المسكوني الخامس سنة ٥٥٣م، ويُرى توقيعه في أعماله اسطفانس أسقف اللاذقية (عن لكويان في المحل المذكور).

ومن أساقفة جبلة عرفنا يوحنا، شهد المجمع الذي عُقد في قسطنطينية في أيام منّا سنة ٥٣٦م، وكان قد وقّع على الرسالة التي رفعها الاساقفة الشرقيون إلى البابا اغابيطس شكاية من ساويرس بطريرك انطاكية وبطرس أسقف اباميا وغيرهما، ويُرى توقيعه بالسريانية. وعزا إليه لكويان كتاباً في ترجمة ساويرس المذكور ورجوعه. وكان أيضاً في جبلة في هذا القرن رومانس يُرى توقيعه في أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م.

ومن أساقفة أرواد عرفنا توادورس أسقف انترواد (وهي طرطس وكان لها ولأرواد غالباً أسقف واحد) قد أدركته الوفاة سنة ٥١٨م، وكان كاثوليكياً مقاوماً لساويرس بطريرك انطاكيا شديد المقاومة. وعرفنا أيضاً افرينكراتيوس أسقف أرواد شهد المجمع الخامس المسكوني ووقّع على أعماله.

ومن أساقفة ارتوسيا (وكان موقعها في جانب النهر البارد) عرفنا اسطفانس وكان اراتيكياً مشايعاً لساويرس الانطاكي ، وهو رقاه إلى أسقفية هذه المدينة، وتوادوسيوس أسقفها الشرعي حي، فشكا أساقفة فينيقية من هذا التجنّي إلى البطريرك القسطنطيني، وتُليت رسالتهم في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في

أيام منّا في قسطنطينية سنة ٥٣٦م. وقد علمنا أنه كان في عرقا في هذا القرن أسقف شديد الاستمساك بعرى الايمان الكاثوليكي، وأنّ ساويرس بطريرك انطاكية أفرغ جهده ليقتاده إلى بدعته، فلم يقضِ وطراً منه، لكنه استمال إليه بعض كهنته بعد أن ناصبوه مدة طويلة. كل هذا أنبأنا به ايبفان أسقف صور في رسالة كتبها من مجمعه إلى توافيلس أسقف هرقلية ومجمعه. وقد تُليت هذه الرسالة في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م في أيام منّا بطريركها. ولم يُذكر في الرسالة اسم هذا الاسقف.

وأما في طرابلس فقال لكويان أننا وجدنا في بعض الآثار القديمة أنه كان أسقف يسمى ارسانيوس أسقف اطرابلس. ولم نتحقق أفي أطرابلس فينيقية أم في غيرها كان أسقفاً. وقد عرفنا من أساقفة البترون في هذا القرن الياس، وكان مغوياً ببدعة اوطيخا مشايعاً لساويرس الانطاكي، ولهذا حُرم في مجمع صور الذي عقده ايبفان اسقفها كما يتبيّن من الرسالة التي أنفذها هذا المجمع إلى توافيلس أسقف هرقلية، وقد تُليت في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م. وقام بعده اسطفانس وكان كاثوليكياً، وشهد المجمع الخامس سنة ٥٥٣م ويُرى توقيعه على أعماله.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن عرفنا توادوسيوس، وقد شهد المجمع الخامس المسكوني ويُرى توقيعه على أعماله توادوسيوس أسقف جبيل. وعرفنا من أساقفة بيروت في هذا القرن مارينس، وكان مستمسكاً بعرى الايمان الكاثوليكي لكنه اضطر مكرهاً أو خائفاً أن يقبل رسائل أنفذها إليه ساويرس بطريرك انطاكية المضلّ. وكانت هذه الرسائل تشتمل على نبذ المجمع الخلكيدوني وحرم من يقول بطبيعتين في المسيح (روان لكويان عن افاغريوس ك ٣ فصل ٣٣) وعرفنا أيضاً تلاسيوس إذ رأينا توقيعه على كتاب أرسله أساقفة المشرق إلى البابا اغابيطس شكاية من ساويرس بطريرك انطاكية وبطرس أسقف اباميا وزعورا (هو ناسك أقلق الكنيسة في أيام يوستنيانس وحرم في مجمع قسطنطينية سنة ٥٣٦ في أيام منّا) وتلى هذا الكتاب في المجمع الذي عُقد في أيام منّا. وشهد تلاسيوس هذا المجمع ووقّع عليه في المجلس الخامس هكذا «تلاسيوس أسقف بيروت أثبت مارسم هنا وأحرم اولي البدع ساويرس وكتبه، وبطرس أسقف اباميا، وزعورا ومحازبيهم المصرّين على ضلالهم».

ومن أساقفة صيدا عرفنا اندراوس ونرى توقيعه على رسالة المجمع الذي عقده ايفان أسقف صور لمناصبة ساويرس الانطاكي ومشايعيه المار ذكرهم. وقد تُليت هذه الرسالة في مجمع منّا المذكور مراراً. وعرفنا من أساقفة صور في هذا القرن ايفان الذي كررنا ذكره، فإنه كان شديد الغيرة على الايمان الكاثوليكي فلم يذعن لساويرس الانطاكي ونبذ رسائله المجمعية. ولما أمّن يوستينس الملك الكنيسة جمع ايفان الاساقفة وكتبوا رسالة ضمّوها بيان كل ما صنعه ساويرس من الشرور، وأنفذوها إلى المجمع القسطنطيني في أيام منّا البطريرك، فتُليت في المجلس الخامس من هذا المجمع موقعاً عليها من أساقفة فينيقية. وعرفنا أيضاً اوسابيوس إذ نرى توقيعه على أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م. وكان من الاساقفة الذين استدعوا البابا إلى هذا المجمع فيجيليوس.

ومن أساقفة عكا في هذا القرن عرفنا يوحنا كان في جملة من وقّعوا على الرسالة المجمعية التي أنفذها ايفان أسقف صور إلى المجمع القسطنطيني سنة ٥٣٦م للشكوى من ساويرس ومحازبيه كما ذكرنا مراراً. وقام بعده جيورجيوس يُرى توقيعه على أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م.

ومن أساقفة دمشق في هذا القرن بطرس الأول، وكان في أيام انسطاس الملك شديد الغيرة على الايمان الكاثوليكي، ولما عظم جور ساويرس الانطاكي على الكاثوليكيين، فرّ إلى فلسطين كما يتبيّن من رسالة كتبها لرهبان فلسطين إلى الشيلسيون أسقف نيكوبولي (عمواص) أثبتها افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣٣) ولا نعلم ما كان له بعدئذٍ. وأقام ساويرس بعد فراره توما وكان شديد الاستمساك ببدع اوطيخا، فنفاه الملك يوستينس من دمشق سنة ٥١٨م لأنه أبى الاذعان لرسوم المجمع الخلكيدوني. وقد ذكره السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٧ نقلاً عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة).

ومن أساقفة الابلية (سوق وادي بردى) اسكندر، روى ديونيسوس بطريرك اليعاقبة أنّ الملك يوستينس نفاه من كرسيه سنة ٥١٨ لمشايعة ساويرس الانطاكي. ومن أساقفة يبرود توما، وهذا أيضاً أبعده يوستينس الملك في السنة المذكورة عن كرسيه لمتابعته ساويرس أيضاً. ومثله يوحنا الثاني أسقف تدمر. ذكر السمعاني كل

هؤلاء وابعاد يوستينس لهم عن كراسيهم في مقالته في المونوفيزتيين نقلاً عن ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون.

ومن أساقفة اباميا (قلعة المضيق) بطرس. وقد ذكرنا أنه كان مشايعاً لساويرس بل مغوياً له في اضطهاده الكاثوليكيين.

ومن أساقفة مرعش توما وكان اوطاخياً، وكان في جملة الاساقفة الذين نفاهم يوستينس الملك كما يظهر من تاريخ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة حيث قال: «اسماء الاساقفة الذين طُردوا من كراسيهم في أيام يوستينس الكبير سنة ٨٢٩ يونانية (توافق سنة ٥١٨ للميلاد) توما أسقف مرعش ومات في سميساط» وقال السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٢) أنه بقي حياً إلى سنة ٥٣٣م وأسند ذلك إلى ما رواه في صفحة ٨٩ من المجلد المذكور عن امينوشنسيوس أسقف مارونيا في كلامه على مباحثة كانت بين الكاثوليكيين والساويريين في قسطنطينية في أيام يوستنيانس الملك سنة ٥٣٣م، وكان فيها من الساويريين ستة أساقفة منهم سرجيوس أسقف قورش، وتوما أسقف، مرعش وفيلوكسينس أسقف دلوك (قال السمعاني مجلد ٢ في مقالته في المونوفيزتيين إنها مدينة في سورية تبعد عن سميساط واحد وأربعين ميلاً) وهذا الأخير قد رجع بهذه المباحثة إلى الايمان الكاثوليكي كما صرّح بذلك امينوشنسيوس المذكور. وقد شكا من ذلك ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة حيث قال: «وبعضهم أذعنوا لبدعة القائلين بطبيعتين كفيلوكسينس الصغير ابن أخت فيلوكسينس المنبجي، فإنه بغد أن توفي خاله بكنكرة أذعن للمجمع (الخلكيدوني) لعلّة أصمت عن ذكرها، وعاش بعدئذٍ في قبرص (طالع المجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٦).

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدينيين غير البطاركة والاساقفة

عد ٦٥٧

يوحنا الأبامي وتلميذه يعقوب

وُلد يوحنا هذا في اباميا على العاصي وأخذ السيرة الرهبانية في أحد الأديار التي كانت كثيرة هناك. ولم يذكره توادوريطوس في ترجمات النساك والرهبان في القرن الخامس، فتبيّن من ذلك أنه كان بعده في القرن السادس، ولا سيما لأنّ يوحنا هذا ذكر خسوستس الذي يصفه علماء السريان بأنه بابا روما. وهو صاحب النافور المطبوع في كتاب قداسنا سنة ١٤٩٥م، وخسوستس كان في القرن الخامس. وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي يوحنا الابامي في قصيدته في المؤلفين (فصل ٤٧) «فقال يوحنا الابامي ألّف ثلاثة كتب، كتاباً ضمّنه رسائل في التدبير الروحي، وكتاباً في أميال النفس، وكتاباً في الكمال» وقد حرم تيموثاوس بطريرك النساطرة تلاوة كتبه على ما أثبت السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥٠ و ٨١). وقال (في مجلد ٢ صفحة ٤٣١) أنه يظهرمن نفسه ونسق عباراته أنه كتب بالسريانية لا باليونانية. وذُكر له سبع خطب اشتمل عليها الكتاب التاسع عشر من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية، وعنوان عشرين فصلاً من فصول التعليم، وخمس رسائل الأولى في التثليث والتجسّد، والثانية في التوبة، والثالثة والرابعة في الايمان، والخامسة منفذة إلى رجل اسمه لاونتيوس في الاشتراك الروحي الذي سيكون لنا مع الله في بلاد الأحياء. وذكر خسوستس ووصفه بالحبر الروماني كما وصفه غيره من علماء السريان لمشابهته اسمه لاسم كثيرين من الاحبار الرومانيين. والذي رجّحه السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٠) أنه أحد أساقفة السريان الكاثوليكيين، وأنّ نفسه في النافور المعزو إليه مؤذن بأنّ المؤلف سريـاني. وأما يعقوب تلميذه فذكره

الصوباوي بعد معلمه يوحنا الابامي، وهذا مؤذن أنه كان في القرن السادس أيضاً. وقال إنّ له من التأليف تفسيرات لبشارة متى ولرسائل بولس الرسول ونبوّة ارميا النبي وتفسيره مسهب.

عد ٦٥٨

بروكوب الغزي ولانتيوس البيزنطي الأورشليمي ودوتاوس الرئيس

وُلد بروكوب في غزه بفلسطين في أواخر القرن الخامس وعكف على درس العلوم ولا سيما الدينية، واشتهر بها في أيام الملك يوستينس الأول. وقال فيه فبريشيوس أحد طابعي كتبه: «لم يكن بروكوب خطيباً مصقعاً بل كان علامة في العلوم اللاهوتية، وضليعاً في معرفة الاسفار المقدّسة حتى يعد عجيباً في هذه العلوم وفي فصاحته. وكان مجملاً بالخلال الحميدة والخصال الصالحة حتى لم يكن ينقصه إلّا الثوب ليكون كاهناً صالحاً، بل قد ردّ بصلاته كثيرين إلى السراط المستقيم». ولم نعثر على ما ينبئنا في أية سنة توفاه الله. وقد ذكره فوتيوس (في مكتبته كتاب ١٦٠ و ٢٠٦ و ٢٠٧) والمشهور من تآليفه تفسيره أسفار التكوين والخروج والاحبار والعدد وتثنية الاشتراع وسفر يشوع بن نون وسفر القضاة وأسفار الملوك الأربعة وسفرَي الايام وسفر أمثال سليمان ونشيد الانشاد ونبوّة اشعيا. وقال في فاتحة كلامه أنه كان قد شرع في تفسير هذه الاسفار بذكره أقوال من تقدمه من الآباء والمفسرين كلاً على حدة، إلّا أنه رأى ذلك طويل المجال مملاً فعدل عنه إلى أن يذكر ما اتفقوا عليه دون أن يعزو إلى أحدهم، ويبيّن اختلاف الأقوال في ما لم يجمعوا عليه. وله مئة وأربع رسائل طبعها مع باقي تآليفه الأب مين في مكتبة الآباء اليونانية. وذكر له فوتيوس (في كتاب ١٦٠) خطباً كثيرة في موضوعات متنوعة، وهو غير بروكوب القيصري الكبادوكي المؤرخ الشهير.

أما لاونتيوس فقد وُلد في بيزنطية (قسطنطينية) وكان فقيهاً يمارس مهنة محاماة الدعاوى. ثم ترك العالم وانقطع لخدمة الله فأتى أورشليم وانضمّ إلى رهبان القديس سابا في ديرهم القريب من أورشليم. وعكف على اقتباس العلوم الدينية فنبغ وألّف وصنّف كتباً كثيرة، والمشهور منها كتاب في البدع والمجمع الخلكيدوني وثلاثة

كتب ردّ فيها مزاعم الاوطاخيين والنساطرة، وكتاب في كشف خداع الابوليناريين، وكتاب تفنيد لحجج ساويرس وغيره. وكان في أيام يوستينس الصغير وطيبار الملكين.

عد ٦٥٩

يوحنا الانطاكي البطريرك القسطنطيني والقديس يوحنا الرحوم ويوحنا السلمي

إنّ يوحنا الانطاكي وُلد في انطاكية في بدء القرن السادس وعكف على درس العلوم والفنون، ومارس أولاً فن محاماة الدعاوى في انطاكية، ثم غادر مشاغل العالم وانصبّ على درس العلوم الدينية، ورقي إلى درجة الكهنوت، وأرسله بطريركه الانطاكي إلى قسطنطينية ووكّل إليه قضاء مهامه وحاجاته في العاصمة. وعني حينئذٍ بتأليف مجموعة للقوانين البيعية تراها مثبتة في التأليف الموسوم بمكتبة الناموس القانوني (مجلد ٢). وبدلاً من أن ينسّق قوانين كل مجمع تباعاً قد بوّب لهذه القوانين وضمّ إلى كل باب أو مادة كل ما فرض في شأنها. وسمي تلك الأبواب عنوانات، فجمع كل القوانين في خمسين عنواناً. وفي العنوان السادس عشر أثبت الحقوق المقرّرة في مجمع سرديكا (صوفيا بيلغاريا) للحبر الروماني بقبول الاستغاثة من جميع الاساقفة، واستئناف الأحكام المبرزة منهم، ولزوم انتظار حكمه النهائي. ثم أوجز يوحنا مؤلفه وسمي موجزه خلاصة القوانين Nomocanos ، وأضاف إلى كل عنوان ما ينطبق عليه من شرائع يوستنيانس المعروفة بالسنن الحديثة Novellos. ولما عزل يوستنيانس الملك القديس افتيشيوس البطريرك القسطنطيني لعدم مطاوعته على بدعته أقام يوحنا بطريركاً سنة ٥٦٤م فلم يطاوع الملك على ضلاله. ويعرف بالسكولاستيك أي الفقيه أو محامي الدعاوى، وبقي يدبر كنيسة قسطنطينية ثلاث عشرة سنة. وهو الذي توّج الملك يوستينس الصغير إلى أن خرمته المنية في ٣١ آب سنة ٥٧٧م، فعاد حينئذٍ افتيشيوس إلى كرسيه.

أما يوحنا الملقّب بالرحوم فقد وُلد في اماتوث أو حماثو أي حماه (مدينة بناها الفينيقيون أو الحثيون بقبرص، وسموها كذلك باسم مدينتهم حماه، وترى أطلالها

في الشرق الشمالي من لاميسون) وكان أبوه يسميه بعضهم أيبفان، ويقولون أنه كان حاكماً في هذه الجزيرة، وقد حمله والداه على أن يتزوج على كرهه للزواج ورزق اولاداً لكنّ الله أراحه منهم ومن امرأته لأنه اعدّه لما هو أعظم من ذلك، فعكف على السيرة الروحية والعلم. ولتناهيه في فضيلة الرحمة ومحبة الفقراء لقّب بالرحوم، ويظهر أنّ أسقفه رقاه إلى درجة الكهنوت نحو سنة ٥٦٠م، فتفاضل بأعمال الرحمة الروحية والجسدية وذاع صيت فضائله وصدقاته فتضوّعت بأرجهِ الأرجاء في مصر وسورية أيضاً. ولما توفي توادورس بطريرك اسكندرية أجمع الكاثوليكيون في مصر على انتخابه خلفاً له، وأرسلوا وفداً إلى الملك هرقل يسألونه أن يُعنى باقامة يوحنا بطريركاً عليهم، فاستدعاه الملك فأبى وحاول الفرار والتملّص من هذا العبء الثقيل، لكنه ألجئ أن يذعن فرقي إلى بطريركية اسكندرية نحو سنة ٦٠٦م وصرف همه أولاً إلى اقتلاع أشواك البدع والرذائل من كرم الرب، فكلّل الله أتعابه بالفوز والنجاح حتى يقال أنه دخل الاسكندرية وفيها سبع كنائس وغادرها ماضياً إلى ربه وفيها سبعون كنيسة ومعبداً. وكان حريصاً على أن لا يدخل أحداً من الكهنة إلى كنيسته إلّا بباب الاستحقاق والاهلية، وكما كان ضنيناً بالتسامح مع الأئمة كان سمحاً مع الفقراء الاتقياء. ومما رُوي أنه كان من عادة بعض الكسالى أن يخرجوا من الكنيسة بعد تلاوة الانجيل في القداس، ويقيموا خارجاً يتحدثون فترك ذات يوم المذبح وأتى إليهم قائلاً: لا تعجبوا يا بني من عملي فيلزم الراعي أن يكون حيث تكون خرافه. فخجلوا وعادوا إلى الكنيسة، فنسخت هذه العادة السيئة. وأخصّ ما امتاز به إنما هو فضيلة الرحمة. وكان يسمي الفقراء أسياده لأنهم هم الذين ينوّلونه الملكوت السماوي، وليس لسيّد غيرهم أن ينوّله مثل ذلك. وبنى مستشفيات للنساء والرجال والكهنة. وأغاث رعيّته بكل ما ملكت يده في عام قاحط، وفي سنة فشا فيها وباء في مصر حتى قيل عنه أنه لم يصرف في زمانه فقيراً خائباً. وكان الله يعوّضه مما يبذله بأضعاف من منّه وكرمه. ولم يكن اشتغاله بالفقراء يقعده عن شيء من فروضه الاسقفية من وعظ وتعليم ومناضلة اولي البدع وبناء كنائس وتهذيب كهنة، ولا كل هذا ينقص شيئاً من تورّعه وتقشفاته. وأمر أن يؤخذ في بناء مدفن له وهو حي، وأمر أحد خدامه أن يذكره في أوقات الطعام والراحة بان قبره لم يُكمل بعد لكنه لم يُدفن به لأنّ الملك هرقل استقدمه إلى قسطنطينية ليباركه، ويدعو له قبل ذهابه لحرب الفرس، فمرّ بقبرص وشعر بدنو

منيته فعرّج إلى موطنه وكتب وصيّته. ومما قاله فيها مخاطباً الله: «أشكرك اللهمّ لأنك جعلتني أهلاً لأن أقدّم لك ما مننت عليّ به ولم يبقَ لي الآن من مال الدنيا إلّا ثلث دينار، فأريد أن يُعطى لاخوتي الفقراء، ولما دعتني عنايتك إلى أسقفية اسكندرية وجدت فيها نحواً من ثمانية آلاف دينار، وكثيراً من تقادم أهل المبرت وحشدت مالاً أوفر منها كثيراً وإذا كان ذلك كله ملكاً لابنك يسوع المسيح فقد دفعته لوجهك الكريم. والآن أسلم إليك نفسي». قال هذا وفاضت روحه القدوسة سنة ٦١٩م على رواية بارونيوس. وسنة ٦١٦م على رواية غيره. والكنيسة اللاتينية تعيّد لذكره في ٢٣ من كانون الثاني، وكنيستنا المارونية في ١٢ تشرين الثاني، ويقال في ترجمته في سنكسارنا أنه رقد بالرب سنة ٦٢٠م.

أما القديس يوحنا السلّمي فوُلد في فلسطين نحو سنة ٥٢٥م واعتزل العالم ناسكاً في برية سينا تسعاً وخمسين سنة إلى أن رقد بالرب سنة ٦٠٥م، وقد ألّف كتباً روحية أخصّها الكتاب الذي عنوَنه بسلّم الفضائل وقسمه إلى ثلاثين درجة، وهو عجيب في معانيه حتى نُسب إليه فيسمى يوحنا السلّمي وقد ترجم إلى لغات كثيرة. وتعيّد له كنيستنا المارونية في ٣٠ آذار، لكنه يقال في ترجمته أنه لا يعرف من أي بلد هو وأنه رقد بالرب سنة ٦٠٠م.

عد ٦٦٠

القديس يعقوب السروجي

نعتمد في ترجمة القديس يعقوب هذا مادوّنه السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٨٣ وما يليها) نقلاً عن ترجمة سريانية له عثر عليها في الكتاب ١٥ من الكتب السريانية التي أتى بها إلى المكتبة الواتيكانية، وهي مطابقة لخطبة التأبين التي ألقاها جيورجيوس تلميذ هذا القديس عند وفاته، وهي مثبتة في الكتاب ٥ (صفحة ١٤٠) من الكتب المأتي بها من برية الاسقيط إلى المكتبة المذكورة. قال وُلد القديس يعقوب في قرية قرتم على ضفّة الفرات من والدين مسيحيين، وكانت أمه عاقراً قد رُزقته بعد نذر نذرته لله، وكان ميلاده سنة ٤٥٢م فدرس العلوم، ومذ سنة ٤٧٢م أخذ يؤلّف خطبه ويذيع مؤلفاته، ورقي في سنة ٥٠٣م إلى درجة

الكهنوت، وفي سنة ٥١٩م رقي إلى أسقفية بطنه بسروج. وبعد أن أنار المؤمنين بتعاليمه الخلاصية وانتشرت مؤلفاته وتفسيراته للأسفار المقدّسة في البسيطة رقد بالرب ودُفن باحتفاء عظيم في سروج مدينته الاسقفية سنة ٨٣٣ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٢م، وله من العمر سبعون سنة وستة أشهر قبل الاسقفية وسنتان وستة أشهر بعدها. ويلقبه علماء السريان بالملفان والعلامة ويطرأون كثيراً فضائله ويثنون على قداسته، بل يعيّد لذكره السريان الكاثوليكيون واليعاقبة. فقد روى السمعاني (في المحل المذكور) إنّ الموارنة يعيّدون له في ٥ نيسان واليعاقبة في ٢٩ تشرين الأول و ٢٩ حزيران و٢٩ تموز. ويذكرونه في صلواتهم الفرضية وفي رتبة القداس. ففي صلوة الصبح يوم السبت من فرضنا الاسبوعي يذكر الآباء القديسون والرعاة الصادقون الذين قوّضوا أركان البدع باسيليوس ، وغريغوريوس ، واثناسيوس... وفم الذهب والقديس افرام المختار، والقديس يعقوب، والقديس مارون ܘܡܪܝ ܐܦܪܝܡ ܓܒܝܐ ܘܡܪܝ ܝܥܩܘܒ ܘܡܪܝ ܡܪܘܢ وليس المراد بيعقوب النصيبيني وإلّا لذكره المؤلف قبل افرام، لأنّ افرام تلميذ يعقوب فضلاً عن أنّ السمعاني أنكر أن يكون النصيبيني كتب شيئاً يؤهله أن يُحصى بين ملافنة البيعة الذين قوّضوا أركان البدع كباسيليوس واثناسيوس وفم الذهب وافرام. وأما القديس مارون فالمراد به يوحنا مارون البطريرك لا القديس مارون الناسك الذي تحصيه الكنيسة في جملة علمائها المناضلين عن الايمان بل من جملة قديسيها النساك الافاضل، وكذلك يقال في مقدمة الباعوث اليعقوبي في صلوة المساء في كل يوم ܕܢܬܕܟܪ ܠܢܒܝܐ ܕܢܬܕܟܪ ܠܣܗܕܐ ܕܢܬܕܟܪ ܘܕܡܢ ܒܦܘܠܚܢܗ ܕܟܪܡܗ ܕܡܪܝܐ ܦܠܚ ܘܕܡܢ ܣܗܕܐ ܡܪܝ ܝܥܩܘܒ ܘܕܡܢ ܡܪܝ ܡܪܘܢ ܕܢܬܕܟܪ ܫܘܬܦܘܗܝ ܥܡ ܡܪܝ ܐܦܪܝܡ ܗܘ ܟܢܪܐ ܕܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ أي نذكر الانبياء الشهداء من جاهد بفلاحة كرم الرب نذكر مار يعقوب، نذكر مار مارون، نذكر رفقاءه مع مار افرام كنارة روح القدس. فالمراد يعقوب هنا أيضاً يعقوب السروجي، وبمارون يوحنا مارون وفي رتبة قداس اليعاقبة ܘܡܪܝ ܝܥܩܘܒ ܘܡܪܝ ܐܦܪܝܡ ܦܘܡܐ ܡܡܠܠܐ ܘܥܡܘܕܐ ܕܥܕܬܢ ܩܕܝܫܬܐ ومار يعقوب ومار افرام الافواه الناطقة وأعمدة بيعتنا المقدّسة.

زعم بعضهم أنّ القديس يعقوب السروجي لم يكن صحيح المعتقد، بل كان من القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، وتلك بدعة اوطيخا واليعاقبة، على أنّ العلامة السمعاني أثبت (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية من صفحة ٢٩٠ إلى ٢٩٩) بيّنات قاطعة دامغة صحة معتقده وبراءته من كل ضلالة، وفنّد زعم خصومه ونقض كل حجّة أوردها على زيغانه عن جادة الايمان القويم. ويجدر بنا أن نلخّص كلامه قال إنّ صحة معتقد السروجي ثابتة بأدلة كثيرة، أولا يؤخذ عما كتبه السروجي في خطبته في اقامة العازر، وقد استشهد القديس يوحنا مارون بهذه الخطبة في مقالته رداً على النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة في المسيح كما هو بيّن من الكتاب الرابع عشر (صفحة ٤٣) من كتب الحاقلي الموجودة في المكتبة الواتيكانية، حيث يقول السروجي بلسان مريم أخت العازر ما ترجمته «أومن يا رب أنّ فيك طبيعتين احداهما من العلى والأخرى من جنس البشر، ففيك طبيعة الأب الروحانية وطبيعة بنت داود الجسمانية، طبع من الآب وطبع من مريم بلا تقسّم، طبع من الروح، وطبع من الجسد بغير مشاحنة. أومن أيضاً أنّ الآب ليس بأقدم منك وأنا موقنة بأنك أقدم من والدتك» أيتحمل هذا الكلام تأويلاً يخرجه من معتقد الكنيسة الكاثوليكية. وقال السروجي أيضاً في قصيدته المفتتحة ܥܠܬ ܥܕܬܐ ܥܡ ܕܘܪܫܐ ܠܡܬܕܪܫܘ ܥܡܗ. أي دخلت الكنيسة العذراء إلى المحاكمة مع المنددين ما ترجمته «إني مثبت بأنّ في عمنويل خاصتين أعني أنه إله حقيقي وإنسان حقيقي فإنّ كلمته عمن (أي معنا) تدلنا على الطبيعة التي أخذت منا. وكلمة ايل (الله) تدلنا حقاً على اللاهوت دون تقسّم: فقولك عمنويل كقولك البشر إله لا لأنه أختلط أو امتزج كلا، بل هو كامل في خواص الطبيعتين». فمن كان كلامه هذا كيف يصدق عليه أن يقول بطبيعة واحدة. ومثل هذه الأقوال مستفاض في كلام السروجي في خطبه في التجسّد والفداء وصوم المخلّص.

ومن الحجج القاطعة لصحة معتقد السروجي شهادة القدماء له، فيشوع العمودي المعاصر للسروجي دعاه مبجلاً، وأثنى عليه كثيراً (طالع المكتبة الشرقية مجلد ١ في يشوع هذا صفحة ٢٧٥) واسحق الذي كان أسقفاً على نينوى ثم اعتزل العالم وانفرد للنسك في برية الاسقيط في أواخر القرن السادس يطريء يعقوب هذا بمنزلة مؤلف كاثوليكي كما هو ظاهر في كتابه بطلان العالم (قسم ٢ خطبة ١١ من الكتاب ٢٠ من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة

الواتيكانية)، وتيموتاوس القس القسطنطيني الذي كان في القرن السادس أيضاً صرّح (في كتابه في قبول الهراطقة رواه كوتيلاريوس في آثار الكنيسة اليونانية مجلد ٣ صفحة ٣٩٦) بأنّ السروجي كاثوليكي قائلاً: «الاوطاخيون وزعيمهم ديوسقورس وساويرس ويعقوب لا ذاك السروجي الذي هو أرثوذكسي (أي مستقيم الايمان) بل يعقوب آخر وغيرهم». والقديس يوحنا مارون في مقالته في ردّ مزاعم النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة استشهد بفقرة من كلام السروجي لاثبات عقيدة الطبيعتين في المسيح، والموارنة على عداوتهم المستمرة لليعاقبة اعتقدوا دائماً أنّ السروجي كاثوليكي بل قديس.

ومن هذه الحجج ما يؤخذ من العصر والاماكن والحال التي كان فيها السروجي، فهو قد كان في ما بين النهرين قبل أن يضلّ يعقوب البردعي أهل هذه البلاد. وكان كاهناً إذ كان في انطاكية افلابيانس الكاثوليكي بطريركها، وإذ كان الاساقفة في تلك الاعمال كاثوليكيين إلّا فيلوكسينس أسقف منبج وربما قليلين غيره. وقد رقي السروجي إلى الاسقفية إذ طرد الملك يوستينس ساويرس من انطاكية وفيلوكسينس من منبج وغيرهما من الهراطقة من سورية وما بين النهرين. وقد ذكر ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة اسماءهم (في تاريخ سنة ٨٢٩ يونانية الموافقة سنة ٥١٨ م) ولو كان السروجي من اولي البدعة كما كانوا لناله ما نالهم. ولا نجد أثراً لشيء من ذلك.

ومن هذه الحجج أيضاً صمت جميع الآباء والعلماء الذين كتبوا في ذلك العصر عن ذكر السروجي بين الهراطقة الذين ذكروهم وفنّدوا مزاعمهم. ومن هؤلاء العلماء ليباراتس الشماس ويوحنا أسقف قيصرية وانسطاس السينوي وغيرهم. ولو عيب السروجي بضلال لما غفلوا عن ذكره أو عن ردّ ضلاله، ولم يكن هو غفلاً ليختفي عليهم، بل كان مشتهراً بمؤلفاته ومصنفاته الكثيرة. وقد نُشرت أعمال المجامع ورسائل الاساقفة والرهبان. وكتب علماء ذاك العصر اسماء ساويرس واخسينا وبطرس الابامي وزعورا السرياني وموسى الفارسي وغير هؤلاء ممّن لم تكن لهم شهرة السروجي، فما الذي أغفلهم ذكره مع انبساط شهرته، ولم نرَ أحداً من الكاثوليكيين في القرون الخامس والسادس والسابع شان السروجي بضلال أو عابه بعيب إلى أن أتى في هذه الأعصر دينودسيوس (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٦٧) يشكوه أولاً بأنّ اليعاقبة يحصونه بين علمائهم في دستور

الايمان الذي يتلوه المتقدمون إلى الدرجات المتقدمة. ثانياً أنهم يستشهدون بفقرات منه في المقالة الموسومة بايمان الآباء. ثالثاً إنّ علماء النساطرة ينزلونه منزلة أكاشيوس أحد جثالقتهم، وإنه كان في مدرسة الرها التي كانت أولاً تدافع عن تعليم نسطور ثم أخذت تدافع عن تعليم ساويرس. وقد ردّ السمعاني (صفحة ٢٩٣ من المجلد المذكور) زعم دينودوسيوس هذا وبيّن بطلان أدلّته فنلخّص كلامه هذا أيضاً. فقال في الرد على الأول إذا كان اليعاقبة يذكرون السروجي في جملة العلماء في دستور الايمان فهم يذكرون أيضاً في هذا الدستور أثناسيوس وكيرلس وافرام وغريغوريوس النزينزي وباسيليوس وتوافيلس وابيفان وفم الذهب، أيعتدّ دينودوسيوس هؤلاء جميعاً يعقوبيين. وفي روما نسختان من كتاب رسامات اليعاقبة احداهما في المكتبة الواتيكانية، والثانية في مكتبة مجمع نشر الايمان فليطالعهما من شاء. وإذا حقّق ما قلنا انجلى له بطلان زعم المعترض. وقال في الرد الثاني إنّ نسخ المقالة في ايمان الآباء قلما تخلو منها مكتبة من المكاتب العامة، فليطالع دينودوسيوس هذه المقالة التي يحجنا بها، فيرى اليعاقبة قد استشهدوا فيها بأقوال كيرلس واثناسيوس والنزينزي وغيرهم من الآباء الكاثوليكيين، فلا يبقى لاعتراضه شيء من القوة. وقال في الرد على الثالث أنّ مارى بن سليمان وعمراً بن متى اللذين نزلا السروجي منزلة أحد جثالقتهم لا يحفل بقولهما لأنهما نسطوريان، وكتبا تاريخ النساطرة بعد القرن العاشر، ولم يسندا زعمهما إلى شاهد يعتمد على شهادته من الكاثوليكيين أو أصحاب الطبيعة الواحدة أو النساطرة الذين كتبوا في أيام يعقوب أو بعد عهده بزمان وجيز، فلا يُبنى على شهادتهما حكم على السروجي بالضلال خلافاً لكل ما أوردناه من الحجج الراهنة. ثم إنه لم تكن في الرها مدرسة واحدة بل كان فيها مدارس منها كاثوليكية ومنها غير كاثوليكية كما يعلم كل ضليع في التاريخ. فيعقوب كان في مدرسة كاثوليكية لا في مدرسة نسطورية أو مونوفيزيتية.

وقد أورد السمعاني اعتراضات أخرى على صحة معتقد السروجي أولها أنه وُجدت قصيدة في الكتاب الخامس من الكتب المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية علق عليها هذا العنوان «قصيدة القديس مار يعقوب في المجمع الخلكيدوني الشرير يجدر أن تتلى في تذكار القديس مار ساويرس عمود البيعة الذي ناصب أصحاب الطبيعتين». ومطلعها ܓܢܒܪܐ ܕܥܠܡܐ ܕܟܠܗ ܠܐܘܣܝܐ ܦܪܝܫܬܐ ܕܬܠܬܐ . ܩܢܘܡܝܢ ܠܟܝܢܐ ܚܕ ܡܢ ܡܫܝܚܐ ܕܡܫܬܡܫ ܒܥܠܡܐ أي يا جبار العالمين

الذي خلّصت العالم بشدة بأسك نجّ بيعتك من عبودية الكافرين باسمك. إلى أن يقول في المجمع الخلكيدوني ܗܘܐ ܐܝܬܘܗܝ ܗܢܐ ܟܢܘܫܝܐ ܕܟܠܩܝܕܘܢܐ ܕܟܢܫܘܗܝ ܫܐܕܐ ܘܗܘܘ ܒܥܠܝ ܡܠܟܐ ܫܐܕܐ. أي هذا هو المجمع الخلكيدوني الذي جمعه المتشيطنون، وكان الابالس أصحاب المشورة فيه وثانيهما أنه وُجدت للسروجي رسالة منفذة إلى رئيس دير القديس اسحق في جبلة، وهي مثبتة في الكتاب الحادي عشر من الكتب التي أتى بها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية. ومما قاله السروجي فيها متكلماً في نسطور: «إنه جسر أن يقول إنّ في المسيح بعد الاتحاد طبيعتين منفصلتين ولكل طبيعة أقنوم يقوم بها منفصلة عن الأخرى»: وإنه ورد مثل ذلك في قصيدته الثانية في العذراء والدة الله المثبتة في الكتاب الخامس من الكتب السريانية المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية.

وقد ردّ السمعاني هذين الاعتراضين مثبتاً أولاً أنّ القائلين بالطبيعة الواحدة قد أخذوا مذ عهد المجمع الخلكيدوني يحرفون ويصحفون الكتب. وأورد لك أمثلة واستشهد له افاغريوس (ك ٣ فصل ٣١ من تاريخه) الذي كان قريباً من عصر السروجي. وردّ الاعتراض الأول بأنّ نسبته هذه القصيدة إلى يعقوب السروجي غير صحيحة لأنه ذكر في العنوان اسم يعقوب مجرداً من الوصف بالسروجي، فلا تثبت نسبتها إليه ولأنّ نفس هذه القصيدة سافل منحطّ كثيراً عن فصاحة السروجي كما يظهر لمن يعارض هذه القصيدة بشيء من أقواله، ولأنّ قوله في مطلعها «نجّ بيعتك من عبودية الكافرين باسمك» دليل واضح على أنها أُلّف بعد السروجي، فإنّ اليعاقبة كانوا يسمون الملوك الكاثوليكيين المناصبين لهم هراطقة لا كفرة. ولا مراء في أنّ كاتب الكتاب المثبتة القصيدة فيه يعقوبي لأنه ذيّله بحاشية قال فيها إنه كتبه في دير السريان بالاسقيط، وصرّح بأنّ سكانه يعاقبة. وقد أثبت فيه أيضاً قصيدة السروجي في العازر، وأسقط منها عمداً الأبيات التي استشهدنا بها آنفاً. وقال ابن القلاعي في هذا الشأن «اتهموا الملفان مار يعقوب وهو من قول آخر مكتوب. من قول ساويرا المغضوب والبرادعي والنصيباني».

وردّ الاعتراض الثاني بقوله أنّ السروجي لم ينكر في تلك الرسالة وجود الطبيعتين في المسيح انكاراً مطلقاً بل أنكر أنّ فيه طبيعتين تقوم كل منهما بأقنوم خاص بها منفصلة عن الطبيعة الأخرى.

وهذا بيّن من كلامه ومن شرحه له في كلامه التالي في هذه الرسالة نفسها حيث قال: «إنّ من خواص الطبيعة الإلٰهية أن لا تُرى ولا يُحبل بها ولا تحلّ بامرأة ولا تولد كالناس... ولا ترضع ولا تأتي لتعتمد ولا تُصلب عى خشبة بل هي محتجبة ومنزّهة عن كل ما عمله المخلّص بنوع يفوق المدارك البشرية، ولو حُفظت خواص الطبيعة البشرية على ما هي عليه لم يكن لها أن يُحبل بها دون زواج ولا أن تستدعي المجوس بظهور النجم ليسجدوا لها،ولا أن تحيل الماء خمراً، ولا أن تمشي على الأمواج، ولا أن تقيم الميت بعد أن انتن. فيلزم أن يخصّ بالله ما هو لله وبالانسان ما هو للانسان ليظهر جلياً من هذا التعليم أنّ الله واحد منزّه عما كان في الجسد، وأنّ الانسان واحد مولود من ابنة البشر لا شركة له بطبعه في الآيات والمعجزات التي صنعها وحيد الله في العالم». أقول أنّ السروجي يفنّد بهذه الرسالة زعم نسطور أنّ في المسيح طبيعتين تقوم كل منهما بأقنوم منفصلة ومستقلّة عن الأخرى توسلاً لضلاله أنّ في المسيح أقنومين. وكلام السروجي لا ينفي الطبيعتين كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية بل يثبتهما مبيّناً خواص كل طبيعة منهما كما رأيت ليثبت لزوم وحدة الأقنوم في المخلّص. وإنّ هذا الأقنوم هو أقنوم ابن الله الوحيد، وهو مصدر تلك الأعمال الألٰهية والبشرية، والجامع بين تلك الاعمال المتناقضة. وعليه فما يحجنا به الخصوم هو حجة لنا عليهم لا لهم علينا، ومثل هذا كلامه في القصيدة الثانية في العذراء والدة الله.

وبقي من هذه الاعتراضات أنّ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة روى في تاريخه أنّ بولس بطريرك انطاكية استدعى إليه يعقوب السروجي ليسأله عن صحة ايمانه، فمضى إليه ولكن أوحى إليه في طريقه أنّ البطريرك يعتقد بالطبيعتين في المسيح فأبى يعقوب الاشتراك معه في الروحيات، وسأل الله أن يميته أو يعصمه عن الضلال، فعاد إلى مدينته ومات بعد وصوله إليها بيومين. على أنّ ديونيسيوس ينقض روايته هذه بغيرها من أقواله، فقد قال في تاريخ سنة ٨٣١م يونانية (الموافقة سنة ٥٢٠ م) «إنّ بولس صير بطريركاً على انطاكية سنة ٨٣١م ولبثت انطاكية بعد خروج ساويرس منها سنة واحدة خالية من بطريرك. وبعد ذلك انتُخِب بولس وأُرسل إليها» فساويرس طُرد من انطاكية في السنة الأولى ليوستينس الكبير أي في آخر سنة ٨٢٩م (أي في آخر سنة ٥١٨ م) كما صرّح بذلك ديونيسيوس نفسه، وفرغ كرسيها سنة واحدة أي سنة ٨٣٠م كلها وانتُخب بولس في بدء سنة ٨٣١م. وقد

صرّح ديونيسيوس أنّ بولس مات بعد سنة أي في آخر سنة ٨٣١ أو بدء سنة ٨٣٢م، وإنّ يعقوب السروجي توفاه الله سنة ٨٣٣م! بعد عوده من انطاكية إلى كرسيه بيومين. وعليه فكيف كان ممكناً أن يستدعي بولس السروجي إليه سنة ٨٣٣م وبولس كان قد توفي سنة ٨٣١ أو بدء سنة ٨٣٢م وكيف أمكن بولس أن يرقي إلى أسقفية سروج موسى بعد موت يعقوب، وهو قد مات قبل ذلك بسنتين. فيظهر أنّ ديونيسيوس انخدع بأخبار أحد اليعاقبة أنّ السروجي أبى الاشتراك مع بطريركه لتعليمه بالطبيعتين، فأدخل في تاريخه هذه القصة الملفّقة. وقد أذاع العلامة المونسنيور ابالوس استاذ كليّة لوفان (بالبلجيك) كتاباً عنوانه «ترجمة القديس يعقوب السروجي أسقف بطنان بسروج» وتآليفه وطبعه في لوفان سنة ١٨٦٧م أثبت فيه صحة معتقد السروجي مؤيداً رأي السمعاني. على أنّ الأب مرتينس كاهن كنيسة القديسة جنفياف في باريس نشر فصلاً في المجلة الموسومة بمجلة العلوم الكنسية في نشرتيها ٢٠١ و ٢٠٢ سنة ١٨٧٩م ادعى فيه أن يثبت أنّ السروجي كان يعقوبياً معتمداً على ما ذكرنا تفنيد العلامة السمعاني له، وعلى رسالتين قال إنه عثر عليهما في المتحف البريطاني في عد ١٤٧٣٣ منفذتين إلى اليعازار رئيس دير مار باسوس. فالأولى منهما لا تخالف التعليم الكاثوليكي بشيء كما أقرّ الأب مرتينس نفسه بل تثبته نصاً.

وأما الثانية فلا تصلح أن تكون حجة على يعقوب السروجي لأنها غير مذيّلة بتوقيعه كما أقرّ مرتينس نفسه، ولأنها مخالفة لرسالته الأولى ظاهراً، وكل من طالعهما قضى أنه لا يمكن أن يكون كاتب الرسالتين واحداً لأنّ الأولى كاثوليكية، والثانية يعقوبية، مع أنّ موضوعهما واحد وهما منفذتان إلى شخص واحد وفي وقتين متقاربين. ولم يطرأ على كاتبهما ما بعثه على تغيير معتقده، وقد استوفينا الكلام على ذلك في المقدمات التي علقناها على كتاب فرضنا الكبير (صفحة ١٥) الذي طبعناه في مطبعتنا العمومية في بيروت سنة ١٨٩٠م.

وقد طالعنا الكتاب الذي أذاعه هذه السنة ١٨٩٩م الأب نو الكاهن الباريسي العلامة متضمناً ايضاح الايمان للقديس يوحنا مارون فوجدناه يقول فيه (صفحة ٩) إنّ السمعاني كان يظن يعقوب السروجي كاثوليكياً لكنه عرف بعد ذلك (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية ولم يعيّن الصفحة) إنه ليس كذلك فقد طالعنا كل الصفحات

التي ذكر السمعاني في الفهرست أنه جاء فيها ذكر السروجي فلم نجد أثراً لتغيير السمعاني رأيه في أرثوذكسيته، بل وجدناه يفنّد في المجلد الثالث (صفحة ٣٨٧) قول عمر بن متى ودينودسيوس أنه كان كاثوليكياً ثم انحاذ إلى ضلال انسطاس شديد التفنيد ويصفه بالكلي القداسة. وأظن الأب نو ومن قالوا قوله خصّوا بالسروجي سهواً ما قاله السمعاني في يعقوب الرهاوي (في مجلد ٢ صفحة ٣٣٧) وهو أنّ ما يظهر من كلام ابن العبري في تردد الرهاوي بين اليعاقبة وسكناه في أديارهم إن صحّ فيكون مخالفاً لما أثبته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (صفحة ٤٧٠) مع أنه أرثوذكسي أي مستقيم الايمان.

وأما مؤلفات السروجي فقد ذكر منها كاتب ترجمته وتلميذه جيورجيوس تفسيره أسفار العهدين القديم والجديد ثم قصائده وهي سبع مئة وثلاث وستون قصيدة في موضوعات شتى. وله أيضاً تآليف أخرى غير شعرية ذكرها السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠٠ وما يليها) أولها نافور فاتحته ܐܠܗܐ ܐܒܐ ܗܘ ܕܐܝܬܝܟ ܫܝܢܐ أي أيها الأله الآب الذي أنت السلام. وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٦٠. وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي صفحة ٨٠ وقد ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٥٦)، وذكره أيوب لودلفوس في جملة النوافير الحبشية ولا بدع لأنه كان للأحباش منزل في أورشليم من أقدم الأيام كما حقق كثير من الجوّالة. وكان لهم ديران في لبنان أحدهما على اسم القديس يعقوب في اهدن، والثاني على اسم القديس جيورجيوس في وادي قنوبين على مقربة من حدشيت كما حقق ذلك البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨م وكل منهما يسمى إلى الآن دير الأحباش. وعزا هذا البطريرك السروجي نافور آخر بدؤه ܐܠܗܐ ܥܒܘܕ ܕܟܠ أيها الإله الصانع كل شيء. ولكن رجّح السمعاني أنّ هذا النافور الثاني ليس للسروجي بل لساويرس الانطاكي ولا سيما لأنّ الدويهي ذكر لساويرس نافوراً في جملة نافورات الهراطقة مطلعه كمطلع النافور الذي يعزو إلى السروجي في النوافير الكاثوليكية.

وثانيا رتبة المعمودية المقدّسة قال السمعاني (في المحل المذكور) إنها مثبتة في كتاب رتب كنيسة الموارنة معنوَنة «رتبة المعمودية المقدّسة ألفها مار يعقوب أسقف

ان في سروج العلامة» بدؤها «أيها الرب إلٰهنا الذي أتيت إلى الهيكل مع مريم
ك لتكمل سنّة الأربعين يوماً» وقال إنّ الموارنة يستعملون هذه الرتبة والرتبة المعزوة
القديس يعقوب الرسول، ورتبتين أخريين لباسيليوس الكبير وليعقوب الرهاوي،
الث رسالة مسهبة إلى صموئيل رئيس دير القديس اسحق في جبلة في الثالوث
دس وتجسّد الكلمة وهي مثبتة في الكتاب الحادي عشر من الكتب التي جمعها
معاني في المكتبة الواتيكانية صفحة ٩٣ ومنها فقر في الكتاب ١٥ من الكتب
ريانية في هذه المكتبة. والرابع رسالة أنفذها إلى اسطفانس بن طواريلي الرهاوي
ننها البرهان من الاسفار المقدّسة والأدلّة العقلية على أبدية الفردوس وجهنم، وهي
ة في الكتاب ١٥ السرياني في المكتبة الواتيكانية. والخامس رسالة إلى يعقوب
س دير الرها المسمى دير النفوس، وهي مثبتة في الكتاب ٦ من الكتب السريانية
، جمعها السمعاني في المكتبة الواتيكانية صفحة ٣٨٧. وفي الكتاب العاشر منها
حة ٥٥ حاوية تفسير بعض آيات من الاسفار المقدّسة. والسادس رسالة روحية
التواضع والحب الألٰهي مثبتة في الكتاب ٦ من الكتب السريانية في المكتبة
تيكانية صفحة ٣٨٤. والسابع رسالة روحية إلى رجل شريف مثبتة في الكتاب
كور يرثي بها الطبيعة بعد سقطتها، إذ تحب الفضيلة وتنقاد إلى الرذيلة. والثامن
ى مقالة في مولد المخلّص مثبتة في الكتاب العاشر من كتب السمعاني مع خمس
لات أخرى في الابيفانيا أي ظهور المخلّص للتبشير، وفي صومه وأحد الشعانين
مه وقيامته. وأما قصائده فذكر منها السمعاني مئتين واحدى وثلاثين قصيدة مبيّناً
لع كل قصيدة منها وموضوعها وما حوَت من التعاليم الخطيرة. ومن هذه
صائد في كتاب فرضنا الباعوت (أي الصلوة أو الطلبة) الذي في آخر صلوة
اعة الثالثة من يوم الاربعاء المفتتح ܒܥܐ ܐܢܐ ܡܢܟ ܠܐ ܐܬܪܚܩ
ܡܢ ܡܪܥܝܬܟ أي أسألك اللهمّ أن لا أقصى من رعيتك والباعوت الذي
ختام صلوة الستار يوم السبت المبتدي ܠܫܘܒܩܢܟ ܡܪܝ ܡܣܟܐ ܐܢܐ
ܕܢܕܪܟܢܝ أي إني لتائق ربي أن يتداركني غفرانك وجميع الباعوتات
، من النغم اليعقوبي في الوقفة الأولى من صلوة الليل في كل يوم.

واختتم السمعاني كلامه بقوله كل هذه القصائد أخذت عن الكتب الواتيكانية،
ى باسمه قصائد أخرى كثيرة في كتب الطقوس والصلوات السريانية لم نتعرض
كرها مفصلاً لأنها مقاطع غير كاملة، أو لأنها على النغم اليعقوبي وهي لغيره.

وقد ذكر له العلامة الدويهي (في ك ٣ من مدافعته عن الموارنة) مقالة في منفعة ذبيحة القداس للموتى الذين يقدمها الأحياء لراحة نفوسهم. وذكر له أيضاً مقالات أخرى في كتاب مدافعته، وفي كتابه المنائر العشر.

أطلنا الكلام في القديس يعقوب السروجي وإن لم يكن سورياً لأنه من آباء الكنيسة السريانية، ولأنّ البحث في صحة عقيدته من المباحث العصرية. وكان ليعقوب تلميذ اسمه جيورجيوس بقي من تآليفه تقريظ لمعلمه استند السمعاني إليه في ترجمة السروجي ولم يحقق من أين كان ولا أي مقام كان له.

عد ٦٦١

سمعان الفارسي أسقف بيت ارشم ويوحنا سابا واسحق النينوي

أما سمعان فكان من بلاد فارس وقد صير أسقفاً على المدينة التي يسميها السريان بيت أرشم أي مدينة أرسم وهو أحد ملوك الفرس أبو دارا الذي سمى هذه المدينة باسمه. وقد دبر سمعان كنيستها من سنة ٥١٠ إلى سنة ٥٢٥م على ما روى ديونسيوس بطريرك اليعاقبة (صفحة ٩٠ و ١٢٠ من النسخة الواتيكانية). وكان مناضلاً باسلاً عن الايمان الكاثوليكي وردّ إليه كثيرين من الفرس عن عبادة الأوثان، وقاوم انتشار بدعة نسطور في تلك الأصقاع على أنه اضطرّ أن يقبل منشور الملك زينون المعروف بهنونتيكون أي مرسوم الاتحاد، فعابه بعضهم بالجنوح إلى بدعة اوطيخا، لكن السمعاني برّأ ساحته من الزيغان عن الايمان القويم بأدلّة قاطعة، ولا سيما لأنّ المنشور المذكور لم يحوَ ضلالاً بيّناً. وجلّ ما فيه الصمت عن ذكر المجمع الخلكيدوني ورسالة القديس لاون البابا. وكان افلابيانس بطريرك انطاكية وايليا بطريرك أورشليم قد قبلاه أيضاً. والمشهور من تآليفه نافور ذكره له البطريرك اسطفانس الدويهي في جملة النوافير الكاثوليكية فاتحته ܗܘ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܕܟܠ ܘܢܘܗܪܗ أي الأله حياة كل شيء ونوره. ورسالة من برصوما أسقف نصيبين. وبدعة النساطرة ذكرها السمعاني برمتها (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٤٦)، ثم رسالة إلى سمعان رئيس دير جبلة في القديس حارث ورفقائه الشهداء الحميريين وهي مثبتة في الكتاب ٢٤ من الكتب السريانية في

المكتبة الواتيكانية (صفحة ٩١) ومعلّقة في كرونيكون ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة، وقد أثبتها السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٦٤) مقدماً عليها ثلاث فصول أخذها ديونيسيوس عن يوحنا أسقف آسيا في أحوال مملكة الحبشة وحمير قبل الاضطهاد الذي أجراه دونان اليهودي ملك الحميريين على النصارى. وقد لخصنا فحوى هذه الرسالة الحاوية فوائد كثيرة، وما جاء فيها عن القديس حارث ورفقائه الشهداء الحميريين، وعن حالة كنيسة حمير والحبشة في تلك الأيام في عد ٦٤٤ فطالعه.

أما يوحنا سابا فقد ذكر السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) ترجمته فقال إنه وُلد في نينوى نحو أواسط القرن السادس، لكنه رجّح في المجلد ٣ من المكتبة المذكورة (صفحة ١٠٣) إنه وُلد في قرية في غربي الفرات تسمى الدالية ولذا يسموه الدالي. وأخذ الطريقة الرهبانية وسماه السريان سابا أي الشيخ بلغتهم، ويعيّد لذكره السريان في ١٥ من شهر آذار على ما في الكتاب ٢٦ من الكتب السريانية الواتيكانية. وقد ذكره ابن العبري في أدبياته، وذكره عبد يشوع الصوباوي في جملة المؤلفين الذين ذكرهم، وقال إنه كتب كتابين ورسائل خشوعية في طريقة الرهبانية. وعن السمعاني (في المحل المذكور) أنّ مؤلفاته هذه مثبتة في كتابين قديمين في مكتبة كنيسة القديس بطرس في جبل الذهب بروما بالعربية، وهي في السريانية مثبتة في الكتابين ٢١ و ٢٢ من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية. ويظهر من المقدمة المعلّقة على الكتاب ٢٢ المذكور أنّ هذه المؤلفات جمعها أخو يوحنا المذكور إذ كان يكتب بعضها إليه ليعزّيه، وبعضها كان أخوه يقترحها عليه، ولم يكن يوحنا يعلم أو يريد أن يشهر أخوه ما يكتبه فراراً من المجد الباطل. وذكر السمعاني (مجلد ١ من مكتبته الشرقية صفحة ٤٣٥ وما يليها) له ثلاثين خطبة مأخوذة عن كتبه السريانية في المكتبة الواتيكانية، وعن كتبه العربية في مكتبة كنيسة القديس بطرس في جبل الذهب. ثم ذكر له (صفحة ٤٤١ وما يليها) ثماني وأربعين رسالة وما كان منها باللغة العربية هو مترجم إليها من السريانية. وقد حرم تيموتاوس بطريرك النساطرة تلاوة كتب يوحنا سابا مدعياً أنها تشف عن ضلال سابيليوس. ولكن قال السمعاني (مجلد ٣ صفحة ١٠٤) قد قلبت كتبه العربية والسريانية فلم أعثر على شيء يخالف التعليم الكاثوليكي في سرّ الثالوث الأقدس بل لقيته يصرّح متواتراً باعتقاده بالآب والابن والرّوح القدس كما

يعتقد الكاثوليكيون، فثبت عندي أنّ تيموتاوس اتهمه ببدعة سابيليوس لأنه لم يكن نسطورياً.

أما اسحق النينوي فقد أتحفنا السمعاني أيضاً (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٤٤ ومجلد ٣ صفحة ١٠٤) بترجمته فنلخصها عنه. قال إنه كان سريانياً وترهّب مع أخ له في دير القديس متى في ضواحي نينوى، فاختير أخوه لرياسة الدير واعتزل اسحق في صومعة بعيدة عن الدير ولزم الصمت والاختلاء. ولما اشتهرت فضائله رقي إلى أسقفية نينوى فأتى إليه رجلان يتحاكمان، فادّعى أحدهما على الآخر ديناً، وطلب أن يوفيه اياه، فأقرّ المدعى عليه بالدين وسأل المدعي أن يمهله، فأبى وقال أن لم تَفِنِ ديني الآن شكوتك إلى الحاكم. فقال له اسحق قد جاء في الانجيل من طلب رداءك فلا تمنعه منه. فلا أقل من أن تصبر عليه. فأجابه المدعي دع عنك كلام الانجيل ومره يقضني ديني. فقال له اسحق إن كنتم لا تسمعون ما يقول الانجيل فما أنا صانع بينكم. ونبذ الاسقفية فقضى حياته ناسكاً مجاهداً وبلغ قمّة الكمال، ووضع أربع كتب على غاية البلاغة في الطريقة الرهبانية وقال كاتب ترجمته في المقدّمة المعلّقة على كتبه باللغة العربية والحروف السريانية أنه كان في أول الألف السابع من سني العالم. قال السمعاني إنّ هذه السنة توافق سنة ٥٠٠ للميلاد، لأنّ اليونان والسريان يجعلون ميلاد المخلِّص في نحو سنة خمسة آلاف وخمس مئة لخلق الانسان، فبدء الألف السابع يكون في سنة ٥٠٠ للميلاد، لكنه صحح أنّ اسحق اشتهر في أواخر القرن السادس سنداً إلى حجج راهنة، ولا سيما لأنه وجد في كتبه رسالة إلى القديس سمعان العمودي الصغير الملقب بالعجيب، لأنه نسك على عمود في الجبل العجيب القريب من انطاكية، وسمعان هذا كان في أيام الملكين يوستنيانس ويوستينس الصغير، وانتقل إلى ربه في ٢٤ أيار سنة ٥٩٣م على عهد الملك موريق كما حقق افاغريوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٣).

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي اسحق هذا في قصيدته (فصل ٧٠) في جملة المؤلفين: «فقال اسحق النينوي وضع سبعة مجلدات في التدبير الروحي والاسرار الإلٰهية والاحكام والسياسة الروحية» وقد ترجمت كتبه من السريانية إلى العربية بل تُرجمت خطبه إلى اليونانية أيضاً. وفي المكتبة الواتيكانية منها كتاب واحد في السريانية وأربعة كتب في العربية. والكتاب الأول منها علق عليه كاتبه هذه الحاشية

«كتب هذا الكتاب الراهب ايوانيس من قرية المنصورية سنة ١٨٢٧ يونانية» الموافقة سنة ١٥١٦م، والكتب الستة الباقية علّق عليها كاتبها حاشية في السريانية قال فيها «قد كُتبت هذه السطور سنة ١٨١٢م (سنة ١٥٠١ م) في برية الاسقيط كتبها رجل شر من جميع الخطأة يسمى باسم من نجى بني إسرائيل من عبودية مصر» أي موسى.

وذكر السمعاني له الكتاب الأول بالعربية في الافراز (أي الفطنة) الطبيعي متضمناً ثماني وعشرين خطبة، والكتاب الثاني بالسريانية في التهذيب الرباني وفيه خمس وأربعون خطبة، والكتاب الثالث في محبة الله بالسريانية حاوياً أربعاً وأربعين خطبة، والكتاب الرابع في المعارف والعلوم في العربية والسريانية مشتملاً على احدى وعشرين خطبة. وقال السمعاني (مجلد ١ صفحة ٤٦١) إنه كان في مكتبة مدرسة الموارنة في روما كتاب سرياني مخطوط مقسّم إلى تسع مقالات عنوانه كتاب عام لجميع الأمم في علّة كل العلل قد نسخه في روما عن نسخة قديمة يوسف بن داود الماروني من قرية بسلوقيت في جبل لبنان سنة ١٦٢٨م وأثبت مرهج بن نمرون الباني في كتابه في افوبليا (سلاح) الايمان (قسم ثالث صفحة ٣٦٥ و ٣٦٨) إنه من مؤلفات اسحق النينوي، لكنه وصف اسحق هذا بأنه تلميذ القديس افرام وهذا غير صحيح لأنّ افرام كان في القرن الرابع واسحق هذا كان في القرن السادس كما مرّ. وقال أعلم أيضاً أنّ كثيرين عزوا كتاب علّة جميع العلل إلى اسحق، لكنهم لم يبيّنوا أهو اسحق النينوي أم غيره، ولا أستطيع القطع في مسألة غامضة كهذه إلى أن رجّح أخيراً أنّ هذا الكتاب ليس للنينوي.

عد ٦٦٢
يعقوب البردعي

كان يعقوب هذا راهباً في دير بالرها ورقي إلى أسقفيتها بعد وفاة أداي أسقفها سنة ٨٥٢ يونانية (سنة ٥٤١ م) كما يتبيّن من سلسلة أساقفة الرها المأخوذة عن تاريخ هذه المدينة. وقد أثبتها السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٤٢٤) وكان شديد الغيرة على الدفاع عن بدعة أصحاب الطبيعة الواحدة، وكانوا قد

انقسموا إلى فرق شتى، فلمّ شعثهم وضمّهم إلى أمّة واحدة فسموا يعاقبة باسمه. وكان حينئذٍ في مقدمة الكاثوليكيين افرام الآمدي بطريرك انطاكية، وفي رأس أصحاب الطبيعة الواحدة سرجيوس الذي انتخبوه بطريركاً على انطاكية بعد وفاة ساويرس. ولما مات سرجيوس ٥٥٠م اجتمعوا ورأس مجمعهم يعقوب البردعي وحملهم على انتخاب بولس بطريركاً لهم لأنّ السريان الذين انفصلوا عن البطريرك الانطاكي الشرعي، جعلوا كرسي الرها أول كراسي ما بين النهرين. وقد روى عنه ماري بن سليمان وعمرو بن متى من علماء النساطرة ما هو أولى أن يُعد من الاقاصيص، فقالا إنه رقى جيورجيوس وغريغوريوس رفيقيه إلى الاسقفية فرقّياه هما إلى البطريركية، وكان يكثر من ترقية الاكليريكيين أين ارتحل أو حلّ حتى قيل إنه رقّى ثمانين ألف كاهن وشماس في مدى حياته التي كانت ثلاث وسبعين سنة. ومما يحمل على العجب أنّ رينودوسيوس أخذ عنهما هذه الأخبار الكاذبة وأثبتها في كتابه في الليتورجيات الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٣٤٢)، وأغرب من ذلك ماورد في كتاب عربي كان في مدرسة الموارنة بروما عنوانه مدح اليعاقبة وايمان السريان وهو بحروفه أنّ يعقوب سار في الدنيا كلها، ودخل إلى بلاد الشرق وكرز فيها قسوس كثير وشمامسة، ومضى أيضاً إلى بلاد الشام وكرز لهم مطران على السواحل كلّها، وكان المطران يسمى في كرازته ديوسقورس... وأيضاً دخل إلى بلاد القبط وكرز لهم قسوس كُثُر وشمامسة وبطريرك لانطاكية، ودخل أيضاً بلادالنوبة وإلى بلاد الحبشة، وجملة ما كرز من الكهنة والشمامسة ماية ألف قسيس وشماس وعشرين أسقف ومطران وبطركين. وبعد ذلك تنيّح في برية الاسقيط بين القديسين». إلى غير ذلك من أحاديث خرافة فمن يصدّق أنّ رجلاً سريانياً لم يك قط بطريركاً ورقّى كل هذا العدد الكثير إلى درجات الكهنوت والاسقفية والبطريركية.

وقد أدركته الوفاة سنة ٥٧٨م بعد أن استمر على أسقفية الرها سبعاً وثلاثين سنة على ما روى ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه. ويعيّد له اليعاقبة في ٢٨ تشرين ٢ و ٢١ آذار و ٣١ تموز، ويذكرونه في رتبة القداس وفي دستور الايمان الذي يتلوه المتقدمون إلى الدرجات المقدّسة، ويحصونه في مصاف الآباء، وعلماء الكنيسة يتفاخرون بأنه أبو ملتهم وأنهم سموا يعاقبة نسبةً إليه كما ترى في الكتاب الثالث السرياني من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (صفحة ١٥٣). وفي الكتاب القديم السرياني الذي هو السادس والعشرون من الكتب

السريانية في المكتبة المذكورة حيث يقال «يعقوب البردعي الذي سمينا باسمه» وكذلك قال كثيرون من العلماء القدماء والحدثاء غير اليعاقبة، ولا يحفل بقول بعض اليعاقبة أنهم سموا بهذا الاسم نسبةً إلى يعقوب الرسول أخي الرب كما روى مرهج بن نمرون الباني في كتابه الموسوم بافوبليا (سلاح) الايمان (صفحة ٤٠) على أنّ جيورجيوس ابن العميد قال «إنهم سموا يعاقبة لأنّ ديوسقورس كان اسمه يعقوب في العلمانيين فكان يكتب إلى المؤمنين وهو في المنفى، ويوصيهم أن يثبتوا على أمانة المسكين المنفي يعقوب. وقيل إنما كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان وهو في المنفى يرسله إلى الشعب ليثبتهم على الامانة فنسبوا إليه، وقيل إنّ يعقوب كان تلميذاً لساويرس بطريرك انطاكية، وكانت أمانته موافقة لأمانة ديوسقورس . فكان الأب ساويرس يرسل يعقوب تلميذه إلى المؤمنين ويثبتهم على أمانة ديوسقورس فنسبوا إليه» وقد أورد ابن العميد قول سعيد بن بطريق البطريرك الاسكندري ورده حيث قال (صفحة ٣٩١ من كتابه) «قال سعيد بن بطريق وكان لساويرس تلميذ اسمه يعقوب البرادعى فكان يطوف البلاد ويردّ الناس إلى مقالة ديوسقورس وساويرس، وقال إنّ اليعاقبة منسوبون إلى يعقوب هذا وليس الأمر كما قال لأنّ اليعاقبة سمّوا يعاقبة من عهد ديوسقورس، وقد شرحنا ذلك متقدماً» وكل ذلك خطأ لأنك لا ترى أثراً في كتب المونوفيزتيين أو كتب الكاثوليكيين لتسمية أصحاب الطبيعة الواحدة يعاقبة قبل يعقوب البردعي.

وقد سماه العلماء اليونان زلزال كما روى نيكوفورس (ك ١٨ فصل ٥٢) وقال إنّ الكلمة بمعنى ضعيف أو ذليل أو حقير وسماه السريان ܒܪܕܥܝܐ أي البردعي لأنه كان يلبس بردعة وهي في الأصل العربي الحلس يُلقى تحت الرحل على دواب الحمل فتوسعوا بها إلى رداء يلبسه الرجل. وقال ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة «إنما سمي البرادعي لملبسه الساذج وعدم تأنقه فيه». وقال داود الاسقف الماروني في كتاب الفرائض وهو في جملة الكتب العربية التي في المكتبة الواتيكانية (فصل ١) «ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى البردعة، ولذلك يقال له يعقوب البرادعي». ولكن قال السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٦٧٠) إنّ مدينة بردعة بُنيت بعد يعقوب بمدة طويلة نحو سنة ٧٠٥م في أيام عبد الملك ابن مروان كما روى جلال الدين الاسيوطي في كتاب تاريخ الخلفاء وهو في جملة الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية عد ٤٦

صفحة ۸۰ حيث يقول «وفي سنة خمس وثمانين (للهجرة) بُنيت مدينة اردبيل ومدينة بردعة بناهما عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي».

ومن مؤلفات البردعي نافور ذكره الدويهي (في كتاب المنائر العشر فصل ۷ عد ۹) حيث قال «يعقوب البردعي أسقف الرها ومنه نُسبت الملّة اليعقوبية،له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܐܒܐ ܕܫܝܢܐ ܗܘ ܩܕܝܫ ܒܟܠ أيها الإله أبا السلام الكلي القداسة» وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (صفحة ۱٥۳) وقد ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ۲ في الليتورجيات الشرقية صفحة ۳۳۳) وقد عزا ابراهيم الحاقلي ومرهج ابن نمرون الباني المارونيان إلى يعقوب البردعي كتاب تعليم اليعاقبة الذي هو دستور معتقد ملّتهم وأسّه. وأورد كلاهما في مصنفاتهما فقراً من هذا الكتاب الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة بروما مكتوباً بالخط الكرشوني وعنوانه «هذه أمانة اليعاقبة الذين يسمون السريان» وفاتحته «قال القديس مار يعقوب البرادعي رأس أساقفة اليعاقبة السريان والقبط والحبش بعد ما وقعت الاختلافات بين النصارى». ويلحق لهذا الكتاب (صفحة ۳٦) تقريظ لليعاقبة عنوانه «ميمر على الامانة السريانية» وفاتحته «بديت أشرح أمانة اليعاقبة» وفي هذا الكتاب أيضاً (صفحة ۳۷۰) خطبة عربية في بشارة مريم العذراء عنوانها «ميمر من القديس مار يعقوب البرادعي صاحب الملّة اليعقوبية قاله على البشارة المجيدة... وأرسله إلى انطاكية كرسي الرسول العظيم» ومطلعها «باسم الآب البسيط والآن وهو الوسيط، وباسم الروح القدس الفارقليط الإلٰه الواحد» على أنّ العلامة السمعاني أنكر أنّ هذا الكتاب بما اشتمل عليه من مؤلفات البردعي وأيّد رأيه أنّ الخطبة في العذراء ليست له بحجج منها هذه الخطبة مدبجة بعربية فصيحة وعبارات بليغة منظومة على وزن شعري حتى لا يصحّ القول أنها مترجمة من السريانية إلى العربية. ويعقوب رجل سرياني عاش في وسط بلاد السريان إي في الرها، وإنما كتب بالسريانية لا العربية التي لم يتكلم بها أهل سورية وما بين النهرين إلّا بعده بمدة مديدة. وناهيك من أنها مفتتحة بالدعاء باسم الله وذكر صفاته. وهذا دأب العرب بعد ظهور الاسلام، ولا نرى له مثالاً في كتب علماء السريان القدماء. ثم إنه قال في مقدمة كلامه أنه يتضمن توحيد الطبيعة (في المسيح) ولا نرى في الخطبة أثراً أو كلمة مؤذنة بهذه البدعة

بل نراها تضمنت الاعتراف بعقيدتي الثالوث والتجسّد كما تعلم الكنيسة الكاثوليكية دون زيغان. وهذا بيّنه قاطعة على أنّ هذه الخطبة لعالم كاثوليكي وليست ليعقوب البردعي.

وكذلك أثبت السمعاني أنّ تقريظ اليعاقبة آي الميمر في ايمان السريان ليس للبردعي بدليل أنه كتب بالعربية الفصيحة وأنه جاء فيه في صفحة ١١٦ مباحث تتعلق بمارون والموارنة، وفي صفحة ٤٥ ثناء على يعقوب البردعي، وشيء من ترجمته. وفي صفحة ٥١ ذكر يوحنا بن شوشان بطريرك اليعاقبة الذي كان في أواخر القرن الحادي عشر، وعليه فمؤلف هذا التقريظ كان في القرن الثاني عشر وليس للبردعي. ومثل ذلك في كتاب تعليم اليعاقبة فإنه ليس للبردعي لأنه جاء صفحة ٢٥ ذكر يعقوب الرهاوي، وهو قد كان بعد البردعي بقرن كامل، وقيل فيه في صفحة ٣٣ أنّ غزة وعسقلان وغيرهما من مدن فلسطين تخصّ بطريركية انطاكية، وهذا إنما أحدثه اليعاقبة المتأخرون خلافاً لقوانين الكنيسة القديمة التي كانت بمقتضاها هذه المدن مختصة ببطريركية أورشليم. وذكر هذا التعليم توما البياتيني في مؤلفه في الاهتمام برجوع جميع الأمم (ك ٧ فصل ١٥) فقال: «إني مورد بايجاز الأضاليل التي تسنّى لي جمعها من كتاب تعليم اليعاقبة الذي عثرت على نسخة منه بروما في مكتبة كردينال كنيسة القديسة ساورينا مخطوطة بالعربية واللاتينية» وجملة الأضاليل التي أخذها عنه ستة وثلاثون ضلالاً تشتمل عليها أيضاً نسخته التي في مكتبة مدرسة الموارنة. قال السمعاني ذكرت هذا ليعلم رينودوسيوس أنّ هذا الكتاب لم يستنبطه الموارنة إذ يظهر من كلامه في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية (صفحة ٢٣) أنه يتهم مرهج بن نمرون الباني الماروني أنه اخترع هذا الكتاب. فإنه قال في يوحنا بن شوشان «أثبت نمرون أنّ هذا الكتاب لا وجود له إلّا في مكتبة الموارنة، ولا يركن البتّة إلى صدقه» انتهى ملخصاً عن مجلد ٢ من المكتبة الشرقية من صفحة ٦٢ إلى ٦٩.

عد ٦٦٣
يوحنا أسقف آسيا

قد استشهدنا متواتراً بأقوال يوحنا هذا وهو كان في هذا القرن، فيجدر بنا أن

نذكر هنا شيئاً من ترجمته. فقد قال عن نفسه أنه كان في مدينة آمد وروى قوله ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه (صفحة ١١٩) وهو: «قد حان لنا الآن أن نتكلّم في الرزيئة التي حلّت بمدينة آمد التي ربينا فيها مع غيرها من المدن المجاورة لها» وكانت تلك الرزيئة الطاعون. وكان مغوياً ببدعةأصحاب الطبيعة الواحدة في المسيح، وهذا ظاهر من تنديده بالمجمع الخلكيدوني. ومن أقواله ولا سيما قوله في تاريخ سنة ٨٧٤ يونانية الموافقة (لسنة ٥٦٣ م) إذ كلفه الملك يوستنيانس أن يستدعي رهبان أديار سورية ليأتوا إلى قسطنطينية لايجاد السلم في الكنائس فقال: «وقد أخذ (هذا الملك) يحضّ حقارتي أنا يوحنا أسقف آسيا أن استدعي الرهبان في أديار سورية، فأبيت أن أكون وسيطاً في هذا الأمر وخادماً له خيفة من لعنة هؤلاء الرجال الأفاضل ودعواتهم عليّ».

ولم ينبئنا ديونيسيوس لماذا سمي أسقف آسيا، ولا أية كنيسة رأس. والظاهر أنه لم يكن أسقف مدينة مخصوصة بل كان أسقف المونوفيزيتيين في آسيا الصغرى كلها، فقد اعتاد أصحاب البدع متى كان عددهم قليلاً أو يقيموا أسقفاً واحداً في اقليم أو مملكة بكاملها. فقد أنبأنا يوحنا هذا نفسه أنّ اوترويوس كان أسقفاً لليوليانيين في آسيا وسرجيوس أسقفاً في مملكة الحميريين. وقد كتب يوحنا تاريخاً ابتدأ فيه من أيام توادوسيوس الصغير إلى أيام يوستنيانس الملك. وقال فيه ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه (صفحة ١٢٢): «إنّ القديس يوحنا أسقف آسيا كتب تاريخاً من أيام يوستنيانس الملك، أعني إلى سنة ٨٨٥ يونانية» توافق سنة ٥٧٤ م. وقد اشتمل تاريخه على أمور كان غيره قد كتبها أو أشار إليها قبله. وقد اعتمد فيه على تاريخ الاسكندريين كما يظهر من نصّه على أنّ يوستنيانس توفاه الله سنة ٨٨٥ يونانية (سنة ٥٧٤م)، ولو اتبع رأي العلماء السريان في أنّ تاريخ اسكندر يتقدّم على التاريخ المسيحي العامي بثلاث مئة وتسع أو احدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة لقال إنّ وفاة يوستنيانس كان سنة ٨٧٥ يونانية (سنة ٥٦٤ أو سنة ٥٦٥م)، وكذلك تراه أرّخ كل أعمال يوستنيانس بعد عشر سنين من السنة التي عيّنها غيره من المؤرخين السريان. وقد أورد السمعاني أمثالاً من تواريخه في أيام يوستنيانس من سنة ٨٥٣ إلى سنة ٨٨٥ يونانية، سلك بتاريخه فيها ما مقتضى مذهبه المذكور، وقد استشهدنا ببعض أقواله في تاريخ هذه السنين، ولا سيما عند ذكرنا الزلازل التي أخربت

بيروت وغيرها من مدن فينيقية في هذا القرن، فيلزم الانتباه إلى الفرق الذي بينه وبين غيره من المؤرخين في تعيين السنين. انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٨٣ وما يليها).

الفصل الثالث

المجمع الخامس المسكوني وما كان في سورية من المجامع والبدع في هذا القرن

لما كان الغرض من عقد المجمع الخامس المسكوني وهو القسطنطيني الثاني النظر في ما سموه الفصول الثلاثة، وهو ما كتبه توادورس أسقف المصيصة معلم نسطور مما يؤيد ضلال تلميذه، وما كتبه توادوريطوس أسقف قورش رداً على حروم القديس كيرلس الاسكندري، ورسالة ايهيبا أسقف الرها إلى ماري الفارسي، تحتّم علينا أن نفتتح هذا الفصل بذكر هذه الفصول الثلاثة أو المقالات الثلاث، وما كان في الكنيسة بسببها لا في سورية فقط بل في المشرق والمغرب أيضاً من القلق الذي دعا إلى عقد هذا المجمع.

عد ٦٦٤

الفصول الثلاثة

كثر البحث في هذا القرن عن تعاليم اوريجانس فلم يخلُ بعد مماته من مندّد ومؤيّد كما كان له في حياته، وقد حرم مجمع عُقد في قسطنطينية ما وجد في كتبه من الضلال فحمل بعض المنتصرين له على أن يطلبوا تحريم مقالات توادوريطوس وايهيبا وتوادورس أسقف قيصرية بالكبادوك ودومطيانس أسقف انكورة وغيرهما يدافعون شديد المدافعة عن صحة تعليم اوريجانس، فهيّجوا رهبان دير القديس سابا في فلسطين وغيرهم من الرهبان والاكليريكيين على الانتصار لاوريجانس وخالفهم غيرهم، وعظم الخلاف والقلق ورفع هؤلاء عريضة إلى الملك

يوستنيانس يبيّتون فيها غوايات اوريجانس ويشكون من يدافعون عنه، وعاونهم على نيل ما رغبوا بلاجيوس الشماس سفير الحبر الروماني في قسطنطينية، ومنّا بطريركها. وكان يوستنيانس يلذ له التحرّش في الأمور الدينية فأصدر منشوراً نبذ فيه اوريجانس وأضاليله، وأثبت منشوره بلاجيوس سفير الحبر الروماني، ومنّا البطريرك، وكل من كان في العاصمة من الاساقفة. وكتب الملك إلى البابا فيجيليوس وإلى سائر البطاركة فصوّبوا عمله. وقد كان ذلك سنة ٥٤٤م على ما روى ليباراتس (فصل ٢٣) أو سنة ٥٤٨م على ما روى بارونيوس.

فاستاء توادورس أسقف قيصرية من هذا التحريم، وكان يصرف أكثر أوقاته في قسطنطينية تاركاً رعيته ومتزلفاً إلى الملك، فمضى إليه مع بعض مشايعيه وقال مولاي عبثاً تعنى نفسك بمشاق كتابة المناشير ولك وسيلة سهلة ترضي بها كل فريق، هي أن تنبذ من تعاليم اوريجانس الفصول الثلاثة. وكان توادورس ينوي في ذلك تخديش المجمع الخلكيدوني لأنّ هذا المجمع قبل ايهيبا مكتفيً منه بأن يحرم نسطور، وردّ توادوريطوس أسقف قورش إلى كرسيه، وأغضى على مدح توادورس المصيصي. ولم يصرّح بحرم مقالاتهم فانقاد الملك لمشورته طامعاً بحصول السلم والوفاق، وأصدر منشوراً نبذ فيه الفصول الثلاثة المذكورة، وأرسله إلى البطاركة ليوقّعوا عليه. فوقّع عليه منّا البطريرك القسطنطيني مشترطاً اثبات الحبر الروماني لهذا النبذ، وأثبته زويلس البطريرك الاسكندري، وافرام البطريرك الانطاكي، وبطرس البطريرك الأورشليمي خوفاً من الملك. وتردّد بعض الاساقفة في أن يصوّبوا رأي الملك إلى أن يثبته الحبر الروماني. وخالفه أساقفة المغرب وافريقيا وامتنع البابا فيجيليوس من تصويب منشور الملك لئلا يتذرّع به الهراطقة لمقاومة المجمع الخلكيدوني. فعزم الملك أن يأمر بعقد مجمع في العاصمة، واستدعى إليه البطاركة الشرقيين بل فيجيليوس الحبر الروماني أيضاً. فزايل البابا روما وأتى إلى صقلية وأقام فيها نحواً من سنة يكاشف الملك في عقد المجمع في هذه الجزيرة لتيسّر سفر الاساقفة إليها من المشرق والمغرب وافريقيا. ولما لم يذعن الملك لمشورته أتى إلى قسطنطينية سنة ٥٤٧م على الراجح فقبله الملك بالتجلّة والاحتفاء وأذاع هنالك منشوراً نبذ فيه تعليم الاشافليين (أي من لا رئيس لهم، وهم هراطقة كانوا يخطئون المجمع الخلكيدوني ولا يصوّبون تعليم اوطيخا وديوسقورس) مع علمه بأنّ الملكة توادورا مؤيدة لهم (كما يظهر من رسالة البابا غريغوريوس الكبير ال ٣٦ إلى أساقفة

استريا) وتمنع من مخالطة منّا البطريرك القسطنطيني في الروحيات لأنه أكره بعض الاساقفة على قبول منشور الملك، ثم قبله في شركته لالحاح الملكة توادورا بذلك.

وألحّ الملك على البابا أن يعقد مجمعاً مع نحو من سبعين أسقفاً كانوا حينئذٍ في قسطنطينية للبحث في الفصول الثلاثة، فأجاب البابا سؤاله لكنه رأى ما سيكون من الخلاف بين الاساقفة لدن اجتماعهم، فآثر أن يستطلع رأي كل منهم على انفراد مخطوطاً، فأبرز حكماً باسمه في ١١ نيسان سنة ٥٤٨ أثبت فيه تحريم الفصول الثلاثة مصرحاً بأنّ هذا التحريم لا يمسّ المجمع الخلكيدوني ولا يضاده بشيء. ونهى الجميع عن التحرّش بهذا المبحث قولاً أو خطاً آملاً أنّ هذا التسامح القانوني يؤول لحفظ السلم مع الاساقفة الشرقيين ولا سيما لأنّ المبحث لم يكن دينياً لاتفاق الجميع على المعتقد بنفسه، وحصر الاختلافات على أشخاص أصحاب الفصول الثلاثة، وعلى معاني كلامهم. على أنّ أساقفة افريقيا وايليريا ودلماسيا أبوا الاذعان لحكمه، بل انقطعوا عن شركته وغادره شماسان كان شديد الثقة بهما والاركان إليهما، يسمى أحدهما روستيك والثاني سبسطيان. وبعد أن كانا قد أغرياه سنة ٥٤٨م بابراز حكمه خالفاه به سنة ٥٤٩م، وأذاعا أنه لم يرعَ حرمة المجمع الخلكيدوني، وكتبا إلى كثيرين من الاساقفة يشكونه بذلك، حتى اضطر أن يثبت لكثيرين منهم أنه لم يمسس حرمة المجمع الخلكيدوني، وعزل شماسيه عن مقاميهما. وصورة حكمه عليهما معلّقة على أعمال المجمع الخامس (مجلس ٧) ورأى البابا والملك أنه لا يطفئ جذوة القلق إلّا عقد مجمع مسكوني، فعوّلا عليه لكنهما اختلفا في مكانه. فأحب البابا أن يُعقد في إيطاليا أو صقلية استرضاءً وتيسيراً لأساقفة المغرب، وتشبث الملك بعقده في قسطنطينية. واسترجع البابا حينئذٍ حكمه السابق بحرم الفصول الثلاثة وأوقفه ناهياً تحت طائلة الحرم عن الجدال في شأنها إلى أن يثبت المجمع المقبل هذا المبحث. وكتب الملك يستدعي الاساقفة إلى الاجتماع في عاصمة ملكه فلم يمتثل أمره الاساقفة الغربيون. ولم يشأ البابا أو يقضي أمراً دون رضاهم. وأذاع الملك منشوره بتحريم الفصول الثلاثة معلقاً اياه في كنائس قسطنطينية وغيرها. فساء هذا الصنيع البابا وجمع الاساقفة الشرقيين ومن وجد منهم من الغربيين وحضّهم أن يسألوا الملك لينكفّ عن منشوره، ويلزم ما جرى الاتفاق عليه من انتظار حكم المجمع. وإن لم ينثنِ هو عن عزمه، وأذعنوا هم لأمره فيفصلهم من شركته. فمضى توادورس أسقف قيصرية مع الاساقفة محازبيه

في الغد إلى احدى الكنائس المعلّق المنشور فيها، فأقام القداس غير مبالٍ بل محا اسم زويلس البطريرك الاسكندري من سجل التذكارات البيعية، وأدخل مكانه اسم ابولينار الدخيل على الكرسي الانطاكي فامتنع الحبر الروماني عن الاشتراك مع الاساقفة الشرقيين بل عن مقابلتهم أيضاً.

وقد احتدم الملك غيظاً من مناصبة البابا منشوره، وأمر بالخفر عليه في منزله، فلجأ إلى كنيسة القديس بطرس في قسطنطينية، وأرسل الملك بعض أعوانه مع الجنود للقبض عليه، فدخلوا الكنيسة مجردين سيوفهم، وحاولوا اخراج البابا منها مكرهاً، فاعترضهم الجمّ الغفير الذي ازدحم هناك، ولما لم ينكف الملك عن اضطهاد البابا فرّ إلى خلكيدونية وأقام في منزل كنيسة القديسة اوفيميا. وبلغت هذه الأخبار ايطاليا وأساقفة المغرب فأحدثت قلقاً كبيراً. أما الملك فأرسل إلى البابا في ٢٨ كانون الثاني سنة ٥٥٢م باليصار وغيره من حاشيته يسألونه أن يعود إلى قسطنطينية، فأجابهم البابا اني معتزل إلّا لتدارك العثار الحاصل في الكنيسة، فإن أراد الملك أن يعيد الوفاق والسلم إلى الكنيسة عدت للحال إلى العاصمة، وإن لم يجب سؤالي فاعتزالي أولى بي فلا أخرج من هذا المقام. وقصّ عليهم ما كان بعد أن علّق الملك منشوره في الكنائس، وختم كلامه مستحلفاً وفد الملك أن يبلغوه من قبله أنه يأثم اثماً ثقيلاً إذا اشترك مع من حرمهم، ولا سيما توادورس أسقف قيصرية. وفي الرابع من شباط أرسل إليه الملك بطرس أحد أعوانه يسأله متى يريد أن يحضر إلى قسطنطينية، ويضمن له الملك راحته فيها. فأجابه البابا أن يبلغ الملك أنه لم يشخص إلى القسطنطينية مذ سبع سنوات إلّا لايقاع السلم في الكنيسة ولا يريد سواه. وإنه يأمل أن لا يسمح الملك لأيٍ كان أن يشوّشه ولا سيما توادورس علّة كل هذه الشرور الذي حرمه وحطّه عن مقامه مذ ستة أشهر، ولم يتوقف عن اشهار حكمه إلّا رعايةً لخاطر الملك وطمعاً بارعواء توادورس عن سوء صنيعه. وأرسل إلى الملك مع مفوضه داسيوس أسقف ميلان وبعضاً من بطانته ليكاشفوه بايجاد السلم في الكنيسة، وإنه إذا بقي متلوماً في بتّ الأمر قضى به البابا بسلطانه المطلق. وفي اليوم التالي أذاع البابا منشوراً مبيّناً فيه ما قاساه حباً بخير الكنيسة ومفنداً التهم التي كان خصومه يغتابونه بها كما هو بيّن في رسالته الخامسة عشرة.

وكانت نتيجة ثبات البابا فيجيليوس أنّ الملك نقض منشوره وارتضى أن يطلق للمجمع المقبل أن يبحث في الفصول الثلاثة بطواعيته التامة، وإنّ الاساقفة الملتئمين

رفعوا إلى البابا عريضة صرّحوا فيها بأنهم يعتقدون كل ما رُسم في المجامع الأربعة المسكونية وفي رسائل الأحبار الرومانيين، ووعدوا بأنهم يسلكون دون زيغان بمقتضى كل ما رسم فيها بالاتفاق مع قصاد الكرسي الرسولي ونوابه الذين ترأسوا على تلك المجامع نيابةً عن أحبار روما (هذه هي عبارات أساقفة الروم أنفسهم كما رواها لباي مجلد ٣ صفحة ٣٣٧) واستماحوا أخيراً الغفران من البابا عما كان منهم في ما مضى.

واختتموا عريضتهم بقولهم ولما كنا مجمعين على كل ماذُكر جئنا نلتمس أن تعطف قداستكم على أن ترأسنا لنبحث في أمر الفصول الثلاثة أمام الإنجيل، ومتى انتهى المبحث توطّد السلم في الكنيسة. وقدّم للبابا هذه العريضة بطاركة قسطنطينية واسكندرية وانطاكية وغيرهم من الاساقفة في ٦ كانون الثاني سنة ٥٥٣م (لباي في المحل المذكور) وعاد البابا إلى العاصمة وأثنى على الاساقفة لما تضمنته رسالتهم إليه وأثبت العزم على عقد مجمع قانوني مع باقي الاساقفة المتحدين معه للبحث في الفصول الثلاثة. وسأل البابا الملك أن يعقد المجمع في ايطاليا أو صقلية وأن يستدعي إليه أساقفة افريقيا والاساقفة اللاتينيين إذ جلّ غرض البابا في هذا التصرف المحكم، إنما هو أن يجانب الانقسام بين الاساقفة الغربيين والشرقيين فلم يرضَ الملك. وجلّ ما جرى الاتفاق عليه أنّ البابا يعيّن للملك اسماء الاساقفة اللاتينيين الذين يحدثونه وإنّ عدد الاساقفة الذين يبحثون في المسألة يكون سوياً بين اليونان واللاتينيين على أنّ الملك لم يقف عند هذا الاتفاق بل أسرع للحال إلى اذاعة منشور يستدعي به البطاركة والاساقفة الذين كانوا في العاصمة وحدهم إلى عقد المجمع الذي التأم في قسطنطينية كما سترى في العدد التالي (كل ما مرّ في هذا الفصل عن رسائل البابا فيجيليوس وعن كتب بعض المعاصرين وعن مجموعة المجامع للباي).

عد ٦٦٥

المجمع المسكوني الخامس

قد افتتح هذا المجمع في ٤ أيار سنة ٥٥٣م وكان الاساقفة المجتمعون فيه مئة وواحد وخمسون أسقفاً، في جملتهم خمسة أساقفة في افريقيا اختارهم الملك. وفي

المجلس الأول تُلي منشور الملك المتضمّن الدعوة إلى المجمع ثم العريضة التي رفعها الاساقفة إلى البابا فيجيليوس كما مرّ، وجوابه عليها المؤذن بعقد المجمع. وأرسل الاساقفة وفداً إلى البابا بطاركة قسطنطينية واسكندرية وانطاكية الثلاثة وستة عشر أسقفاً يسألونه باسم المجمع إن يأتي فيبحث معهم مسألة الفصول الثلاثة كما كان قد وعد أفتشيوس بطريرك قسطنطينية (خليفة منّا الذي توفي في تلك المدة) برسالته إليه. فأجابهم البابا أنه لا يستطيع أن يصرّح للحال بعزمه لتشوش صحته، وإنه سيصرّح به في الغد. فأرفض الاساقفة في ذلك اليوم ولا جرم أنّ البابا فيجيليوس إنما هو الذي رغب في عقد المجمع تداركاً لمرضاة الاساقفة الغربيين الذين ساءهم تسامحه برذل الفصول الثلاثة إرضاءً للأساقفة الشرقيين،فلو تسامح بأن يرأس المجمع غير مبالٍ بغيبوبتهم لتسبب بشقاق بين الكنيسة الغربية والشرقية، والغرض من المجمع حصول اتفاق، ولهذا أجاب الاساقفة في الغد مصرّحاً بأنه لا يستطيع الاتيان إلى مجمعهم الذي يحسب شرقياً لوفرة عدد الاساقفة الشرقيين، لا عامّاً لقلّة عدد الاساقفة الغربيين فيه خلافاً للاتفاق مع الملك أن يكون عدد الاساقفة من الفريقين سوياً، لكنه سيبيّن رأيه مكتوباً ويرفعه إلى الملك. فلم يكن في المجلس الثاني إلّا سماع الاساقفة جواب البابا وارجاء البحث إلى مجلس آخر، ثم ألحّ الاساقفة مرة أخرى على البابا وأوفد الملك بعض بطانته يسأله أن يأتي إلى المجمع فوعد أنه سيبلغ الملك بعد مدة وجيزة ما يراه في هذا الشأن. وفي التاسع من أيار عقد الاساقفة المجلس الثالث ، واقتصروا فيه على أن يعلنوا استمساكهم بكل ما رُسم في المجامع الأربعة المسكونية، ورذلهم كل ما يضادها أو يخلّ بحرمتها. وإنهم مقتفون آثار الآباء القديسين وأرجأوا الكلام في الفصول الثلاثة إلى يومٍ آخر.

وفي اليوم الثاني عشر من أيار عقدوا المجلس الرابع وأخذوا الفحص عن أقوال توادورس أسقف المصيصة، وتلوا احدى وسبعين فقرة مأخوذة عن مؤلفاته ومشعرة بالضلال. وفي السابع عشر من أيار تلوا في المجلس الخامس ما كتبه الآباء في شأن توادورس هذا وما جاء في التواريخ عنه. وبحثوا في ما إذا كان الحكم على الأموات جائزاً. وأثبت بعضهم ذلك سنداً إلى أقوال بعض الآباء وإلى مثال تحريم كتب اوريجانس من عهد قريب. وانتقلوا إلى البحث عن أقوال توادوريطوس أسقف قورش فتلوا فقراً من كتبه تبيّن أنه قاوم القديس كيرلس ودافع عن توادورس المصيصي ونسطور، وتلوا في المجلس السادس الذي كان في ١٩ أيار رسالة ايهيبا

أسقف الرها إلى ماري الفارسي.

وكان في الفترة التي بين المجلس السادس والسابع أنّ الملك يوستنيانس أكثر من الالحاح على البابا فيجيليوس أن يشهد المجمع ويباحث الاساقفة في الفصول الثلاثة أو يصرّح بمدافعته عن ضلال كاتبيها، فأبرز البابا براءةً أنفذها إلى الملك ضمّنها شرح كل ما كان في هذا المبحث والحكم فيه وإليك ملخصها: «قد استهلّ الحبر الروماني كلامه بذكره دستورَي الايمان اللذين رفعهما إليه البطريركان القسطنطينيان منّا وأفتيشيوس خليفته، وقال قد سألنا جلالتكم أيها الملك المبجّل أن يعقد في ايطاليا أو صقلية المجمع الذي طلب عقده البطاركة والاساقفة في دستورَي ايمانهما، وأن يدعى إليه أساقفة افريقيا والاقاليم اللاتينية فلم ترضَ جلالتكم هذا، وطلبتم أن نقدّم لعظمتكم اسماء الاساقفة من هذه الأقاليم الذين نرغب في أن يذاكروكم وأنكم تستقدمونهم، فرضينا هذا الاتفاق كلفاً بايجاد السلم في الكنائس، ثم أمرتم بالاتفاق مع الاساقفة المقيمين الآن في هذه العاصمة أن يكون عدد الاساقفة من الشرقيين والغربيين متساوياً، وإننا نتباحث حينئذٍ في الفصول الثلاثة بمقتضى دستورَي الايمان المشار إليهما آنفاً. وبينما كنا مهتمين باعداد كل مايلزم لنهاية هذا المجمع بما يؤّل لخير الكنيسة والسلم فيها، أرسلت جلالتكم إلينا توادورس رئيس بلاطها يلحّ علينا أن نرفع الجواب إليكم في شأن الفصول الثلاثة، وضايقنا كبراء دولتكم لنقدّم الجواب للحال ودون مهلة،فلم ننكفّ عن اجابة مسؤلكم لكننا طلبنا مهلة عشرين يوماً لنبلّ من مرضنا الذي عرفه الجميع لنتمكن من ابراز حكمنا بعد التروي اللازم. وسألتمونا أن نبلغ اخوتنا الاساقفة مثل هذا الجواب فبلغناهم اياه بلسان ولدنا بلاجيوس الشماس، وأمرناهم أن لا يحدثوا شيئاً قبل ابراز حكمنا بعد ابلالنا من مرضنا لئلا يكون ذلك وسيلة لتجديد العثار، بينما نحن عاملون على ازالته». ويظهر أنّ البابا لم يشأ مطلقاً أن يذكّر الملك هنا بتهافته على اذاعة منشوره.

وبعد هذا البيان الشافي أخذ البابا في الكلام على المبحث نفسه فقال: «قد تدبرنا أقوال المجامع ومراسيم أسلافنا في الكرسي الرسولي، وما قاله الآباء الموثوق بهم في هذا المبحث، قد طالعنا أيضاً الكتاب الذي رفعه إلينا أخونا باتينيوس أسقف هرقلية من قبلكم، فإذا هو مفعم بالتجاديف والمزاعم المناقضة للايمان الكاثوليكي فحرمناه». ثم أورد البابا ستين فقرة مأخوذة عن مؤلفات توادورس المصيصي وهي

من الفقرات نفسها التي كان المجمع قد أخذ سبعين فقرة منها، وبيّن البابا خطأ الكاتب في كل فقرة منها وحرمها ونهى تحت طائلة الحرم عن أن يتذرع أحد بذلك لاهانة أحد آباء الكنيسة أو علمائها، إذ لم يكن الكرسي الرسولي أصدر حكمه عليها. إلى أن قال (ثم تفحصنا ما قاله الآباء في توادورس هذا فوجدنا القديس كيرلس كتب إلى يوحنا بطريرك انطاكية أنّ المجمع الأفسسي نبذ دستور الايمان المعزو إلى توادورس، ولم يأتِ بذكر شخصه تحوطاً. ومما قاله أيضاً أنه يلزم التحاشي عن اهانة الموتى، وألفينا بروكلس بطريرك قسطنطينية صنع كذلك حرم أغلاط توادورس ولم يأتِ بذكر اسمه، ولم نجد في المجمع الخلكيدوني ذكراً لتوادورس المصيصي إلّا في رسالة يوحنا الانطاكي إلى الملك توادوسيوس حيث قيل أنه لا يلزم حرم توادورس بعد موته. ثم بحثنا عما إذا كان أسلافنا في الكرسي الرسولي حكموا على الأموات بشيء لم يحكموا عليهم به في مدة حياتهم، فوجدنا أنّ الحبرَين لاون وجيلاجيوس شهدا بما يخالف ذلك». وذكر أمثلة أخرى إلى أن قال «فنحن إذاً لا نجسر أو نحرم توادورس بنفسه ولا نسمح لأحد أن يحرمه».

أما توادوريطوس أسقف قورش فنرى أنه لا يمكن الحكم عليه بل نتعجب ممن يدعون أن يحكموا على أسقف شهد المجمع الخلكيدوني مذ نيف ومئة سنة، ووقّع دون تردد على أعماله وعلى رسالة البابا لاون، وإن قال حينئذٍ ديوسقورس والاساقفة المصريون أنه اراتيكي، فآباء ذلك المجمع قد تفحصوا أمره بالدقة ولم يطالبوه إلّا أن يحرم نسطور وتعليمه، فأتمّ ذلك لساعته بحضرة آباء المجمع كلهم. فلا يمكن الحكم بعد ذلك بأنه نسطوري خلواً من أن يحكم على آباء المجمع الخلكيدوني بالكذب والرياء، ولا يُظن أنّ هؤلاء الآباء جهلوا تنديده بحروم القديس كيرلس بل لا مراء في أنهم اقتفوا آثاره إذا صفح حباً بالسلم عن كل ما كتبه الاساقفة الشرقيون رداً عليه، ولا سيما أنّ توادوريطوس أقرّ في رسائله التي تُليت في المجمع الخلكيدوني بأنّ كيرلس أصاب في ما كتب، وأثنى على من كان يظنه منخدعاً. وعليه فنحن ننهي كل أحد أياً كان عن أن يحكم على توادوريطوس، وعلى هذا النحو نرعى حرمة شخصه ونحرم كل ما عزي إليه من الأقوال المؤيدة ضلال نسطور أو أي مبتدع كان» ثم أطلق خمسة حروم للخمسة أغلاط المأخوذة عن مؤلفات توادوريطوس. ثم أخذ بعد ذلك في الكلام على ايهيبا أسقف الرها فقال: «وأما رسالة ايهيبا أسقف الرها فنرى المجمع الخلكيدوني بعد تلاوتها برّأ

كاتبها وحكم بأنه صحيح المعتقد، بل أعلن إنّ الرسالة بنفسها لا تحوي ما يخالف الايمان لأنها تشتمل على ما اتفق عليه القديس كيرلس ويوحنا البطريرك الانطاكي بالعقائد. وجلّ ما رأوه فيها أنها لا تخلو من عبارات حاطة من قدر القديس كيرلس فعالن ايهيبا المجمع نقضه كلامه السابق معترفاً بأنه كان يفهم كلام كيرلس بغير المعنى المراد منه، وصرّح باعتقاده واذعانه لحكم مجمع أفسس، وبأنه إذا كان نبذ حروم القديس كيرلس الاثني عشر فلسوء فهمه، لأنه كان يظنها ناقضة لعقيدة الطبيعتين في المسيح. ولما انجلى له معناها الصحيح أذعن لها. وكان اوطيخا وديوسقورس يثنيان على القديس كيرلس لظنهما أنّ كلامه مؤيّد لبدعتهما التي كان ايهيبا يخالفهما بها في مجمع أفسس اللصّي، ولذلك عزلاه في هذا المجمع عن كرسيه، وردّه إليه المجمع الخلكيدوني، ولهذا نأمر بأن يستمر حكم المجمع الخلكيدوني على قوته بكمالها بالنظر إلى رسالة ايهيبا وكل ما سواها». واختتم البابا كلامه ناهياً أياً كان وفي أي مقام كان عن أن يحكم بما يخالف ذلك. فهذه خلاصة براءة البابا فيجيليوس بشأن الفصول الثلاثة وهي مؤرخة في ١٤ أيار سنة ٥٥٣م (عن لباي في مجموعة المجامع مجلد ٥ صفحة ٣٣٧م وما يليها).

وفي الخامس والعشرين من أيار استدعى البابا بعض حاشية الملك وثلاثة من الاساقفة وأطلعهم على براءته، ورغب إليهم أن يبلغوها إلى الملك، فطالعوها واعتذروا عن رفعها إلى الملك قبل أن يرخّص لهم بذلك. وبعد عودهم لقنهم الملك أن يجيبوا البابا من قبله أننا دعوناك لتشهد مجمع الاساقفة فأبيت، والآن تقول أنك كتبت شيئاً في شأن الفصول الثلاثة، فإن كان لتحرمها فلا حاجة لنا إلى ذلك إذ لدينا منك ما هو كافٍ لتحريمها، وإن كان لتبدي ما يخالف ذلك فلا نقبل ما تنقض به كلامك الأول وتحكم به على نفسك ، وبهذا الطيش أبى يوستنيانس الملك قبول براءة البابا بعد أن ألحّ بطلبها مرات. وفي اليوم التالي ٢٦ أيار أرسل إلى المجمع مفوضاً من قبله وبيده بعض رسائل كان البابا قد كتبها إليه أو إلى بعض الاساقفة يعد فيها بتحريم الفصول الثلاثة أو يحرمها. وكان غرضه من اطلاعهم عليها ألّا يتوقفوا عن تحريم الفصول الثلاثة. ولو لم يشهد البابا المجمع وأصحّ الأقوال في تمنّع الملك من قبول براءة البابا إنما هو أن يبقى اخلاف وعده مرات مكتوماً، وأن لا يُذاع بين الجمهور حنثه. فتلا الاساقفة في مجلسهم هذا السابع تلك الرسائل وأثنوا على الملك وأرجأوا اصدار حكمهم على الفصول الثلاثة إلى المجلس

المقبل. وقد روى بعض المؤرخين أنّ مفوّض الملك بلّغ الاساقفة في هذا المجلس رسالة من الملك يأمرهم بها أن يرفعوا من التذكارات البيعية اسم البابا فيجيليوس. وقد وُجدت نسخة من هذه الرسالة معلّقة على بعض نسخ من أعمال المجمع لكنها مؤرخة في ١٤ تموز والمجمع كان قد انتهى مذ ٢ حزيران فتبيّن من ذلك أنّ هذه الرسالة لم تكن صحيحة.

وفي الثاني من حزيران سنة ٥٥٣م عُقد المجلس الثامن الأخير ولم تؤخذ أصوات الاساقفة منفردين بل تلا قارئ المجمع الحكم الذي كانت خلاصته ايراد ماأجراه الاساقفة من البحث في الفصول الثلاثة. ودحض موجز لما يقال في المدافعة عنها، ويلي ذلك قول الاساقفة أننا نقبل ونجلّ المجامع الأربعة المسكونية المنعقدة في نيقية وقسطنطينية وأفسس وخلكيدونية. ونعلم ما علمنه ونعتد من لا يقبلونها منفصلين عن الكنيسة الكاثوليكية، ونحرم توادورس المصيصي وما كتبه مما يخالف الايمان والاغلاط التي دوّنها توادوريطوس أسقف قورش مخالفاً حروم القديس كيرلس محاماة عن توادورس ونسطور ورسالة ايهيبا أسقف الرها. وعليه فنحرم الفصول الثلاثة ومن يدافع عنها من الآن فصاعداً. وصرّحوا بأنّ البابا فيجيليوس قد حرم هذه الفصول مرات قولاً وخطاً وألحقوا بهذا الحكم أربعة عشر حرماً مؤيدة للايمان الكاثوليكي ومناقضة لأضاليل النساطرة والأوطاخيين. وكان عدد الاساقفة الذين وقّعوا عى هذا الحكم مئة وخمسين أسقفاً (لاباي في مجموعة المجامع مجلد ٥ صفحة ٥٦٢ وغيره). وعن بعضهم مئة وستين أو مئة وخمسة وستين.

وقد روى انسطاس المكتبي (يوصف بهذا الوصف لأنه كان ناظراً على المكتبة الواتيكانية في القرن التاسع) في ترجمة البابا فيجيليوس والكونت مرسلين وفيكتور دي تونون أنّ الملك يوستنيانس نفى البابا فيجيليوس مع حاشيته بعد هذا المجمع، ثم أرجعهم من المنفى بطلب نرسيس والي روما وتابعهم على ذلك كثيرون من المؤرخين اللاتينيين، على أنّ المحققين من اولي النقد لم يثبتوا هذه الرواية بل الثابت هو أنّ البابا فيجيليوس أبرز في ٨ ك ١ سنة ٥٥٣ منشوراً أنفذه إلى افتيشيوس بطريرك قسطنطينية أثبت به أعمال المجمع الخامس وتحريمه للفصول الثلاثة. ونهى تحت طائلة الحرم عن المدافعة عنها فيما بعد. ثم أصدر في ٢٣ شباط سنة ٥٥٤م براءة أخرى مثبتاً فيها تحريم هذه الفصول ومبيّناً أنّ تحريمها في المجمع الخامس لم يمسس حرمة المجمع الخلكيدوني. ومما قاله فيها أنّ الرسالة المنسوبة إلى ايهيبا أسقف

الرها ليست له حقيقة بل زورها النسطوريون باسمه، وقد حرمت في المجمع الخلكيدوني، وتبرّأ ايهيبا منها، فاثبات البابا فيجيليوس حكم المجمع الخامس بهذا المنشور وهذه البراءة جعلاه يحسب من المجامع المسكونية مع أنه لم يكن كذلك في بدئه إذ لم يدعُ الحبر الروماني إليه ولا رأسه بنفسه ولا بنوا به. ولم يكن فيه أساقفة المغرب. وبعد اثبات الحبر الروماني له أخذ أساقفة المغرب يذعنون لحكمه على التعاقب فحكمه البابا فيجيليوس وَقَت الكنيسة حينئذٍ من شقاق بين الغربيين والشرقيين ولو مهما قال عذاله والمنددون به. وقد توفاه الله في صقلية عائداً إلى روما سنة ٥٥٥م.

وبين العلماء خلاف في ما إذا كان المجمع الخامس حرم غوايات اوريجانس أو حرمت قبله. فمن قائل أنه حرمها ويعزو إليه خمسة عشر قانوناً وُجدت معلّقة على أعمال هذا المجمع في اليونانية تحرّم أضاليل اوريجانس.ولم توجد أعمال هذا المجمع عند اللاتينيين في أصلها اليوناني بل وجدت ترجمة لاتينية قديمة لها. ربما كانت الترجمة التي قُدمت إلى البابا فيجيليوس ولا وجود لهذه القوانين فيها، ولا ذكر لأضاليل اوريجانس إلّا كلمة واحدة في الحرم الحادي عشر، ربما زادتها يد حديثة على أعمال هذا المجمع. ولذلك رأى أكثر المحققين أنّ المجمع الخامس لم يتعرّض لتحريم أضاليل اوريجانس إذ كانت حرُمت قبله، أما في مجمع عُقد في القسطنطينية سنة ٥٤٣م في أيام منّا بطريركها كما قال كثيرون، أو في سنة ٥٤٤م على رواية ليباراتس، أو سنة ٥٤٨م على رواية بارونيوس كما مرّ في عد ٦٦٤. انتهى ملخصاً عن نطاليس اسكندر وروهربخر ومعجم المجامع للأب بلتيا في طبعة مين.

عد ٦٦٦

المجامع التي عُقدت في سورية في القرن الساس

روى ابن العبري (في تاريخ بطاركة انطاكية) أنّ بولس بطريرك انطاكية عقد مجمعاً فيها نحو سنة ٥٢٠م أثبت فيه رسوم المجمع الخلكيدوني وأمر أساقفته بيثها. وشدد عليهم برعايته، ومن خالف وأصرّ منهم عزله عن كرسيه. ثم عقد في انطاكية أيضاًسنة ٥٤٢م مجمع آخر رأسه افرام الآمدي بطريرك انطاكية للنظر في

غوايات اوريجانس التي اشتد الخلاف فيها حينئذٍ، ولا سيما بين رهبان فلسطين كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وحرم افرام والاساقفة الذين اجتمعوا معه غوايات اوريجانس التي أخذت من كتبه وقد مرّ ذكرها في الكلام عليه.

وعُقد في أورشليم سنة ٥١٨م مجمع اجتمع فيه ثلاثة وثلاثون أسقفاً من أعمال فلسطين الثلاثة. فحرموا فيه اتباع ساويرس واوطيخا وأيّدوا رسوم المجمع الخلكيدوني، وكل ما كان قد تقرر في مجمع عُقد في قسطنطينية في ١٥ تموز تلك السنة من اثبات تذكارات المجامع الأربعة المسكونية في التذكارات البيعية. وحرم ساويرس البطريرك الانطاكي، ثم عُقد مجمع آخر في أورشليم سنة ٥٣٦م بداعي أنّ منّا البطريرك القسطنطيني أرسل إلى بطرس بطريرك أورشليم أعمال المجمع الذي عقده في قسطنطينية تلك السنة. فجمع بطرس أساقفته في أورشليم في ١٩ ايلول فأيدوا ما كان قد حكم به مجمع منّا من حرم انتيمس الدخيل على بطريركية قسطنطينية وساويرس البطريرك الانطاكي، وبطرس أسقف اباميا وزعورا الراهب السرياني. وعُقد في أورشليم أيضاً مجمع آخر سنة ٥٣م لاثبات ما حكم به المجمع الخامس المسكوني من تحريم الفصول الثلاثة كما مرّ. فإنّ البطريرك الأورشليمي لم يتيسّر له أن يشهد هذا المجمع بنفسه فأرسل إليه نوابه كما مرّ. فعند عودهم إليه دعا أساقفته وأثبت بالاتفاق معهم على ما حكم به في هذا المجمع من تحريم الفصول الثلاثة. وقد قيل في مجمع أورشليم أنهم أثبتوا أيضاً تحريم تعاليم اوريجانس المضلّة وقد رأيت أنّ الأظهر في المجمع الخامس لم يحرم غوايات اوريجان، وعليه فيظهر أنّ نواب البطريرك أتوا أيضاً بأعمال مجمع منّا سنة ٥٤٣م الذي حرمت فيه غوايات اوريجانس فأثبت مجع البطريرك تحريم هذه الأضاليل أيضاً.

وعُقد في صور مجمع سنة ٥١٨م عقده ابيفان رئيس أساقفتها دعا إليه أساقفة فينيقية. وقد ذكرنا في عد ٦٥٦ اسماء كل من عرفناهم من أساقفة فينيقية الذين وقّعوا على أعمال هذا المجمع وعلى الرسالة التي أنفذوها إلى بطريرك قسطنطينية، وقد تُليت رسالتهم هذه في المجلس الخامس من المجمع الذي عقده منّا بطريرك قسطنطينية سنة ٥٣٦م وقد ذكر لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٥) مفصلاً ما كان في صور حينئذٍ. ونقله عنه روهربخر (ك ٤٣ من تاريخه) قال أنّ المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥١٨م كتب إلى ابيفان أسقف صور ينبئه ما كان فيه من

حرم المبدعين، وتأييد المجمع الخلكيدوني فمضى ايفان يوم الأحد في ١٦ ايلول سنة ٥١٨م إلى الكنيسة وتُليت الرسائل المنفذة من العاصمة، فضجّ الشعب متهللاً بالدعاء للملك يوستينس ولرئيس أساقفتهم ايفان، وصاحوا إنما الله هو الذي دبر الله واحد الايمان، واحد اصنعوا ما صنع مجمع قسطنطينية احرموا ساويرس اخرموا أعوانه اطردوا الاساقفة الهراطقة. فرقي ايفان إلى المنبر وقال إننا لا تعلم إلّا التعليم الذي بشّر به الرسل وأخذه آباؤنا عنهم، وأثبتوه لنا في مجامع نيقية وقسطنطينية وأفسس وخلكيدونية، فنحرم اولي جميع البدع. وصرّح باسماء كل من خالفوا عقيدة التجسد، ونحرم ساويرس الشرير. فصاح الشعب ها هو الايمان الحق نحرم يوحنا (كان من أعوان ساويرس سلّم إلى اتباعه كنيسة العذراء في صور) الجاحد تلميذ ساويرس وجميع أصحاب البدع، فليحل عليهم حرم الآب والابن والروح القدس امين. فصاح الشعب امين امين امين. وتلاه يوحنا أسقف عكا حارماً ساويرس والباقين كما حرمهم ايفان. وطلب الشعب أن يقيموا الصلوة في كنيسة العذراء التي كان الهراطقة قد استحوذوا عليها، فأرجأ ايفان ذلك إلى يوم آخر وعيّن له الأحد المقبل، ثم دوّن الاساقفة رسالة الجواب إلى المجمع القسطنطيني التي ذكرناها آنفاً.

وروى بياجيوس مؤلف الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة أنّ الملك انسطاس أمر بعقد مجمع في صيدا سنة ٥١٢م جمع فيه ثمانين أسقفاً آملاً أن يحملهم بتحريضاته على حرم المجمع الخلكيدوني فناصبه في ذلك افلابيانس بطريرك أورشليم، ويوحنا أسقف بالتو (يظنها المؤلف مدينة ساحلية في شمالي سورية) فنفاهما انسطاس إلى العربية حيث توفي افلابيانس، وعاد يوحنا بعد وفاة انسطاس إلى كرسيه.

عد ٦٦٧

البدع بسورية في القرن السادس

إنّ أكثر اولي البدع بالشرق في هذا القرن كانوا اوطاخيين أو فروعاً منهم. وأشهر هذه الفروع الاشافليون، فهؤلاء كانوا مشايعين لاوطيخا بزعمهم أنّ في المسيح طبيعة واحدة، لكنهم اختصوا مع بطرس الملقّب الالثغ الذي كان غصب

الكرسي الاسكندري، فانفصلوا عنه ولم يشؤوا أن يوافقوا الكاثوليكيين فسموا اشافليي أي لا رأس لهم. وكان أشهرهم ساويرس بطريرك انطاكية، وبطرس أسقف اباميا، وزعورا الراهب السرياني، وتوادورس أسقف قيصرية الكبادوك. وانقسم هؤلاء إلى فروع عديدة شأن الغصون المنفصلة من أصلها يقلبها الهواء كلّ منقلب، ومنهم اليعاقبة الذين نسبوا إلى يعقوب البردعي الذي مرّ ذكره. وكانوا يزيدون على ضلال اوطيخا أضاليل أخرى. فكانوا يعيّدون للفصح يوم تعييد اليهود له، ولم يكونوا يسجدون للصليب إن لم يعمدوه أولاً كالناس، ويرسمون إشارة الصليب باصبع واحدة للدلالة على الطبيعة الواحدة، ولا يستعملون مزج الماء بالخمر في الكأس للتقديس، ويدوفون ملحاً وزيتاً في خبز التقديس إلى غير ذلك من عوائدهم المخالفة عادات الكاثوليكيين، ومنهم البراصمة وهم الأرمن الذين اتّبعوا برصوم الارشمندريت في ضلال اوطاخي، وزادوا عليه ضلالاً آخر هو أنهم أنكروا أنّ كلمة الله أخذ جسداً من مريم العذراء، وزعموا أنه استحال إلى جسد واجتاز في بطن العذراء اجتيازاً فقط (كوتي في الدين الحقيقي مجلد ٢ فصل ٧٦ جزء ٦).

ومن الاوطاخيين أيضاً فرقة يسمون الانيوتيين أي الجهليين، وكان رئيسهم تاميستيون الشمّاس الاسكندري الذي كان اوطاخياً، وزاد على ضلاله زعمه أنّ المسيح بما أنه ذو طبيعة واحدة كان يجهل أموراً منها جهله يوم الدينونة إذ قال: «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد ولا ملائكة السماء ولا الابن إلّا الآب». وكان يقول إنّ هذا الجهل يليق به كما لاق به الجوع والعطش والالآم (رواه فلوري مجلد ٥ ك ٣٣ ونطاليس اسكندر في تاريخ هذا القرن فصل ٣) وقد تعامى عن وجه يهتدى به إلى تفسير هذه الآية من الوجوه الكثيرة التي ذكرها الآباء والمفسرون، منها أنه لم يعرف يوم الدينونة بقوّة ناسوته، وإن عرفه به بقوّة لاهوته، ومنها أنه عرفه بنفسه ولم يعرفه ليعرّف الناس به ليكونوا دائماً متيقظين للموت كما صرّح بذلك في كلامه التالي. وكان من الاوطاخيين فرقة أخرى يسمون الثلاثيين وكان رئيسهم الغرامطيقي الاسكندري الملقّب فيلوبونس (أي الكثير التعب) وكان يحاج الكاثوليكيين بأنّ اعتقادهم بطبيعتين في المسيح يدعوهم إلى الاعتقاد بأقنومين فيه، ولما أفحموه بأنّ الطبيعة شيء والأقنوم شيء آخر تسكع بضلال آخر، فزعم أنّ في الثالوث الأقدس ثلاث طبائع لأنّ فيه ثلاثة أقانيم، فاعتقد بثلاثة آلهة ولذا سمى اتباع بدعته الثلاثيين (فلوري ونطاليس اسكندر في المواضع

المذكورة).

ونشأ عن بدعة اوطيخا بدعتان أخريان متناقضتان، دُعيت الأولى بدعة الفساديين لزعم اتباعها أنّ المسيح لم يتحمل الجوع والعطش والآلام باختياره لأنه أراد بل تحملها مكرهاً، لأنّ جسده فاسد كجسدنا، ودُعيت الثانية بدعة غير الفساديين أو التخيليين لزعم تباعها أنّ جسد المسيح كان غير قابل الفساد ومعصوماً من الآلام بنوع أنه لم يتحمل تعباً أو عطشاً أو جوعاً أو آلاماً إلّا تخيّلاً فقط. وكان رئيس الفساديين توادوسيوس الراهب ورئيس التخيليين يوليانس أسقف اليكارنسو بآسيا الصغرى. وعظم الخلاف في الاسكندرية بين اولي البدعتين إذ كتب علماء كل فريق مايؤيد بدعته به واتصل الخلاف إلى عامة الشعب وأدّى إلى قتال وقتل وحريق منازل (روى ذلك نطاليس اسكندر في تاريخ القرن السادس فصل ٣ جزء ٣ وكوتي مجلد ٢ فصل ٧٦ جزء ٦ وغيرهما). وقد تسكع يوستنيانس الملك ببدعة التخيليين في آخر حياته كما مرّ في آخر الكلام عليه.

ملحق
في
تاريخ الموانة

اقتصرنا في تاريخ الموارنة في القرن الخامس على ذكر القديس مارون وتلامذته الأبرار، ونبيّن في تاريخهم في هذا القرن السادس توافر عدد رهبان القديس مارون وانتشارهم في أديار كثيرة، ومناضلتهم عن الايمان الكاثوليكي المقدّس، ودفاعهم عن المجمع الخلكيدوني، وتسمية متابعيهم موارنة نسبةً إليهم، وما عانوه لذلك من

الاضطهاد والتعنيف حتى استشهاد كثيرين منهم حباً بالايمان الكاثوليكي.

عد ٦٦٨

انتشار رهبان القديس مارون في سورية وتسمية متابعيهم موارنة نسبةً إليهم

قد مرّ قبلاً ذكر توافر عدد تلاميذ القديس مارون والأديار التي بُنيت على اسمه. فأولئك النساك المتوحدون في حياة القديس مارون قد انضووا بعده إلى رهبانية واحدة يضمها قانون واحد، وأقاموا لهم أدياراً كثيرة يعيشون فيها العيشة المشتركة، ومحابس للمتوحدين، ومدارس لاقتباس العلوم، ومنازل يأوي إليها الغرباء والفقراء. واقتنوا حقولاً ومزارع لتقوم بأود الرهبان والمتنسكين والمتعلمين والزائرين، حتى يظهر أنه كان لهم دير في قسطنطينية عاصمة الملك نفسها. فإنّ الرسائل التي رفعها مريان رئيس دير القديس دلماتيوس وغيره من رؤساء دير قسطنطينية إلى الملك يوستنيانس، ومنّا البطريرك القسطنطيني سنة ٥٣٦م تشفعاً بالرهبان الذين قدموا من سورية للتشكي على ساويرس بطريرك انطاكية، يتبيّن منها أنه كان في ضواحي قسطنطينية دير على اسم القديس مارون، ونعلم أنّ رئيس هذا الدير شهد المجمع الخامس المسكوني، وقد دوّن توقيعه في الرسائل المذكورة(توادورس القس برحمة الله رئيس دير القديس مارون وقعت وتضرعت (رواه البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة). وقد ذكرنا قبلاً أنّ ديرهم الأكبر كان على ضفة العاصي بين حمص وحماه، وأنه كان فيه نحو من ثماني مئة راهب، وأنه كان له الرياسة على أديار سورية الشمالية كلها، وإنهم كان لهم دير عند منبع العاصي وآخر في جوار دمشق. ويظهر من رسالتهم الآتي ذكرها أنهم أخذوا دير القديس سمعان العمودي ووسعوا مبانيه حتى كان يسع مئات من الرهبان، كما يدل ما بقي من أطلاله التي ذكرها دي فوكواي في كتابه في آثار سورية (مجلد ١). ولا مراء في أنه كان لهم أديار أخرى نجهل مواقعها ولا نشكّ في وجودها إذ نرى في رسالتهم المذكورة توقيع خمسة وعشرين رئيساً.

إنّ رهبان دير القديس مارون لم يكونوا يقتصرون على النسك والتكامل بالفضيلة وتخليص نفوسهم فقط، بل كانوا يباشرون الرسالة والاهتمام بخلاص الآخرين أيضاً، فيطوفون المدن والقرى منادين بكلام الله ومحرضين الشعب على

اقتفاء الفضائل والتحاشي عن الرذائل، ولا سيما الكفر بالدين، ويناصبون أصحاب البدع والآراء الفاسدة ولا سيما النساطرة والساويريين والاوطاخيين بخطبهم ومكاتباتهم وجدالهم، فكان رؤساؤهم كقادة جيش يدافعون عن الدين القويم، ورهبانه جنوده الباسلون وكماته الظافرون،وأديارهم كقلاع حصينة يلجأ إليها كل من ضايقه المارقون، ويؤمها كل من عازه سلاح العلم الصحيح لمناوأة الجاحدين، يستعين بهم الاساقفة والرعاة على حفظ خرافهم في حظيرة الدين القويم، ويستنجدهم الكهنة واولو الغيرة لارشاد الضالين وتقوية الضعفاء. وقد كان في المشرق من أقدم الأيام ما نراه إلى اليوم أنّ عامة الشعب يتبعون آثار رؤسائهم الروحيين وينتمون إليهم، ويسترشدونهم ويكلون إليهم أمورهم الدينية والدنيوية، وكأنه رسخ في طبعهم الميل إلى الشيوكراسي أي الانقياد إلى السلطة الروحية. وعلى هذا النحو كان جميع المتشبثين بالدين الكاثوليكي في ذلك العصر ينقادون إلى رهبان القديس مارون، ويصغون لتعليمهم وينتمون إليهم، وهم يقيمون بناصرهم ويدافعون عنهم، وما جرى عليهم من الاضطهاد بحرق أديارهم وقتل جمّ غفير منهم كما سترى زاد الشعب علاقةً بحبهم واجلالاً لهم ذلك حظ كل مضطهد ظلماً، فأخذ خصومهم ازدراء بهم يسمونهم مارونيين أو موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان، وإلى القديس مارون أبيهم على نحو ما يسمي بعض السفهاء والمارقين في هذا العصر يسوعيين من ينقادون إلى ارشاد الآباء اليسوعيين الأفاضل. فهذا كان أصل هذه التسمية وبداءتها وهم لم يكونوا يأنفون منها، وتمكنت فيهم وجعلوها شعاراً لهم بعد أن انفصلوا عن اولي البدع، وأقيم لهم القديس يوحنا مارون من رهبان القديس مارون بطريركاً عليهم.

ولنا على قولنا هذا الأخير أدلّة جلية قاطعة أولها أنّ كثيرين من الأحبار الرومانيين سموا القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية، منهم بناديكتس الرابع عشر في براءته في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م التي بها «منح غفراناً كاملاً لكل من يزور كنيسة من كنائس الطائفة المارونية في اليوم التاسع من شهر شباط الذي يحتفل فيه الموارنة كل عام بعيد القديس مارون أبي طائفتهم الخصوصي من مساء مدخل العيد إلى مغرب الشمس يوم العيد». وقال هذا الحبر العلامة في رسالته إلى البطريرك سمعان عواد في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م: «لا شك في أنّ قاصدنا الأب ايسيدورس حقق لاخوتك كم لنا من الغيرة والمحبة لك أيها الأخ المحترم وللإخوان

المطارين الموقرين وسائر الأبناء الأعزاء بني ملّتك الجليلة والطائفة المارونية كلها التي تفتخر باقرارها بأنها أخذت عن القديس مارون بالخصوص الايمان الكاثوليكي، وإنّ ثباتها فيه ونموّه فيها من نتائج تشفعه بهم». وقد سمى القديس مارون أبا الطائفة المارونية في رسالته أيضاً إلى نيوقولاوس لركاري في ١٨ ايلول سنة ١٧٥٣م. ونرى مثل ذلك في براءات غيره من الأحبار الرومانيين. ثم إنّ المحققين من العلماء أثبتوا أنّ الموارنة سموا بهذا الاسم نسبةً إلى القديس مارون. نقتصر منهم على ذكر لكويان في كتابه الموسوم بالمشرق المسيحي في الفهرست الملحق بالمجلد الثالث حيث قال: «إنّ الموارنة سموا بهذا الاسم في القرنين الرابع والخامس نسبةً إلى مارون الكلي القداسة، ومن البعيد عن الصواب أن يكون هذا الاسم مشعراً ببدعة بل إنه دال على المعتقد الكاثوليكي خلافاً لبدعتَي نسطور واولي الطبيعة الواحدة في المسيح، إذ كان كل من يهمهم حفظ الايمان الكاثوليكي يتقاطرون إلى دير القديس مارون فيرشدهم رهبانه إلى الايمان الصحيح والثبات فيه. وعليه فكانوا يسمون موارنة كأنهم تابعون أخصاء لايمان رهبان القديس مارون». ونذكر إيضاً شهادة الأب بريسيوس الكبوشي في مختصر تاريخ بارونيوس في الحاشية على تاريخ سنة ٤٠٧م حيث قال: «وقد سُمي باسم هذا القديس مارون لا أبناؤه الرهبان فقط بل جمهور وافر العدد أيضاً قد اتبعوا في تلك الاصقاع دين الحق وتشبثوا بقوانين المجامع الستة التي انتصر لها تلاميذه الرهبان». وتحرير هذا المبحث أنّ اسم موارنة أُطلق على الرهبان الذين تتلمذوا للقديس مارون أو طرقوا طريقته، كما سُمّيَ انطونيون من تتلمذوا للقديس انطونيوس أو عملوا بدستوره، إلى غيرهم من الرهبانيات التي تنسب إلى واضعي طريقها. ثم أطلق خصوم رهبان القديس مارون هذا الاسم على من رأى رأي هؤلاء الرهبان في الايمان الصحيح من عامة الناس فسموهم موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان وإلى أبيهم القديس مارون. وهم لم يأنفوا من هذا الاسم بل تمكن ورسخ فيهم عندما انفصلوا عن اولي البدع واختار أساقفتهم بطريركاً على ملّتهم يوحنا مارون الذي اتخذ اسم مارون لأنه كان من رهبان القديس مارون. فمرجع هذه التسمية إذاً إلى القديس مارون لا إلى مارون اراتيكي كما وهم افتيشيوس المعروف بسعيد بن بطريق بطريرك الملكيين الاسكندري عن حسد وضغينة. وانتحل كلامه غوليلمس أسقف صور اللاتيني، وتابعهما على وهمهما جمهور من العلماء مغترين بشهادتهما، وخالفهم كثيرون من العلماء

لمحققين المدققين، بل كثيرون من الأحبار الرومانيين الأعظمين. ونكتفي الآن لرد هذا وهم بقول سعيد بن بطريق نفسه فهو قال: «كان في عصر موريق ملك الروم اهب اسمه مارون قال إنّ لسيّدنا يسوع المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وأفسد قالة الناس ... فسمي التابعون لدينه مارونيين نسبةً إلى مارون. ولما مات مارون ى أهل حماه ديراً سموه دير مارون... وقورش بطريرك الاسكندرية وسرجيوس بيرس أسقف قسطنطينية ومكدونيوس ومكاريوس أسقفا انطاكية وانوريوس بابا ومية وهرقل الملك كانوا مارونيين». فكل من له أقل المام بالتاريخ يهيّجه هذا كلام للضحك ويزدريه. فمما لا يمترى فيه أحد المؤرخين أنّ القديس مارون الذي ى أهل حماه الدير على اسمه كان في عهد تواودوسيوس الكبير واركاديوس ابنه لذي رقي سدّة الملك سنة ٣٩٥م وتوفي سنة ٤٠٨م، وإنّ موريق استوى على ريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م، فبين موريق ومارون نحو من قرنين. مما أجمع عليه المؤرخون أيضاً أنّ بدعة المشيئة الواحدة في المسيح نشأت في سطنطينية سنة ٦٢٨م فكيف ابتدعها مارون وقد مضى إلى ربه قبل ظهورها بنيف قرنين، وإن قال أنه عني يوحنا مارون فيكذبه قوله أنّ أهل حماه بنوا ديراً على سمه، ولا جرم أنّ الذي بُني الدير على اسمه هو القديس مارون لا القديس يوحنا مارون، فضلاً عن أنّ يوحنا مارون لم يكن وُلد عند ظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨م أو كان حدثاً ليس في مقدوره أن يبدع بدعة، فقد أجمعوا على أنه قي إلى أسقفية البترون نحو سنة ٦٧٥م، وإلى بطركية انطاكية سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فإن كان قد بلغ الثمانين من عمره فيكون مولده سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨م سنة ظهور هذه البدعة. ولا خلاف في أنّ قورش وسرجيوس وبيرس مكدونيوس ومكاريوس هم مبدعو هذه البدعة وأنصارها، ولم ينسبها إلى مارون لّا ابن البطريق. ومن لا يسخر من قوله أنّ انوريوس بابا روما وهرقل الملك كانا مارونيين وهو لم يسند قوله إلى أحد، ولا ترى خطة تشير إليه في كل ما كتب لدة ثلاثة قرون (أي مذ نشأة هذه البدعة إلى أيامه)، ولا في المجامع التي عُقدت تحريمها، ولا في كتب العلماء الذين ناصبوها أو دافعوا عنها،ولا في آثار المؤرخين لذين تقدموه، فزعمه إذاً مردود بنفسه ويقضي كل عالم أنه هذيان. وأما قول غوليلمس الصوري فيفنده قوله نفسه في مقدمة تاريخه: «وقد اعتمدنا خاصة على شهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريرك الاسكندري» فقوله مبني إذاً على

باطل، وكل مبني على باطل فهو باطل وكذا قل في كل من تابعهما على قولهما.

وسنعود إلى رد هذه التهمة في ما بعد بأكثر اسهاب. فنكتفي الآن ببرهان آخر هو أننا إذا سلمنا بقول ابن البطريق وغوليلمس ومن تابعهما وردت علينا معضلة أكثر اشكالاً من هذا التسليم، فالأحبار الرومانيون اثبتوا أنّ مارون قديس،وقد أفرد بناديكتس الرابع عشر رسالته إلى نيقولاوس ليركاري المار ذكرها لاثبات قداسته، ومنح البابا اكليمنضس الثاني عشر غفراناً كاملاً لمن يزور كنيسة من كنائس رهبان الموارنة يوم عيده في ٩ شباط. ثم عمم بناديكتس الرابع عشر هذا الغفران إلى زيارة جميع كنائس الموارنة. وقد ترك الأحبار الرومانيون كلهم الموارنة يسمون بهذا الاسم بل هم سموهم به كلما أتوا بذكرهم، فهل سموهم باسم مبتدع؟ ونراهم لم يتركوا السريان الكاثوليكيين يسمون يعاقبة ولا الكلدان ليسموا نساطرة ولا الأرمن ليسموا براصمة فإذاً تسليمنا بقول ابن بطريق يضطرنا إلى أحد أمرين: إما أنْ نقول أنّ الأحبار الرومانيين ضلّوا أو غلطوا، وإما أنّ ابن البطريق ضلّ أو غلط، وأي عالِم منصف يؤثر أن يصم بالضلال الأحبار الاعظمين على أن يصم به ابن البطريق الذي شحن تاريخه بالأقاصيص والخرافات، وتعقبه بها كثير من العلماء الاعلام، وسوف نبيّن بعضها وليت كتّاب هذا العصر عصر الانتقاد ولا سيما الاورباويين منهم يتدبرون هذين البرهانين اللذين اقتصرنا الآن عليهما كيلا يتهافتوا إلى رشق الموارنة بأسهم الاتهام مغترين بما كتبه سعيد بن بطريق أو غوليلمس أسقف صور أو غيرهما من المتابعين لهما، كبرجياه في معجمه اللاهوتي وكايتانس موروني في معجمه التاريخي، ويوليا في معجمه التاريخي الجغرافي وغيرهم، ولو أكثروا من المطالعة كما يلزم كتّاب التاريخ خاصة لوجدوا كثيرين من المحققين الاورباويين أنفسهم، منهم: يوحنا منسي، ويوحنا بلما، ورنكاليا، وباجيوس، أثبتوا مايخالف زعمهم ولوقوا أنفسهم من الخطأ والموارنة من الاتهام.

عد ٦٦٩

مناضلة الرهبان الموارنة عن الايمان الكاثوليكي وما عانوه من الاضطهاد

لذلك لا نرى أجدر بهذا المقام من ايراد الرسالة التي رفعها هؤلاء الرهبان إلى الحبر الروماني البابا هرمزدا الذي تبوّأ السدّة الرسولية من سنة ٥١٤ إلى سنة

٥٢٣م، وأنفذوها إليه مع يوحنا وسرجيوس من اخوتهم، وقد أثبتها لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٤) ونقلها عنه روهربخر في تاريخه (ك ٤٣) ورواها البطريرك اسطفانس الدويهي الأهدني في تاريخ الموارنة (صفحة ٤١) وهذه هي الرسالة مترجمة عن ترجمتها الافرنسية.

«إلى بطريرك المسكونة كلها الحبر هرمزدا الكلي القداسة والطوبى الجالس على كرسي بطرس زعيم الرسل تضرّع وخشوع يرفعهما إليه أحقر رؤساء الأديار في سورية الثانية وغيرهم من رهبانها. أما بعد، فلما كانت نعمة الله مخلّص جميعنا تدعونا أن نلجأ إلى طوباويتكم كما يلجأ إلى مرفأ لدن مهاب العواصف، فأتيناكم موقنين أننا ننجو مما يحف بنامن المخاطر، فإننا وإن قاسينا الاضطهاد فنتحمله مسرورين، ولما كان المسيح إلهنا قد أقامك رئيساً للرعاة ومعلماً للنفوس وطبيباً لها، أنت وملكك الصالح كان لازماً أن نرفع إليك شرح ما حلّ بنا من الاضطهاد ونعلمك بالذئاب التي تفترس رعية المسيح لتقصيهم عن الحظيرة بعصا سلطانك، وتبرئ النفوس بكلمة تعليمك، وتضمد جراحها ببلسم صلواتك، فهؤلاء المضطهدون المفوقون أسهمهم علينا إنما هم ساويرس وبطرس اللذان لا يعدان في عداد المسيحيين لأنهما يحرمان كل يوم علانية المجمع الخلكيدوني المقدّس، وأبانا لاون الحبر الأقدس غير مبالين بدينونة الله المرهبة، بل قد وطئا قوانين الآباء ورقيا إلى الاسقفية بسطوة الملك، وأذاقانا أعذبة مبرحة ليكرهانا على الاحتقار للمجمع المقدّس المنوّه به. فبعض الناس ماتوا بتعذيبهم لهم،وقد قتلوا جماً غفيراً منا لأننا بينما كنا ذاهبين إلى دير القديس سمعان (العمودي) قد أكمن لنا في طريقنا بعض الخبثاء الأشرار ووثبوا علينا وقتلوا منا ثلاث مئة وخمسين راهباً، وأثخنوا الجراح في كثيرين وأبسلوا في جانب المذبح من لجأوا إليه، وأحرقوا أديارنا وأرسلوا ليلاً جماعة من الأشرار ورشوهم بدراهم فنهبوا ما بقي ولم يبقَ إلّا شيء يسير. ويتيسر لطوباويتكم أن تقف على تفصيل هذه الأمور بمطالعة المذكرة التي يرفعها اليكم أخوانا المحترمان يوحنا وسرجيوس اللذان كنا قد أرسلناهما إلى قسطنطينية آملين انصافنا ومنع هذا الجور عنا فلم يتنازل الملك إلى سماع شكواهما بل أمر بطردهما فعلمنا ما كان يلزمنا أن نعلمه من ذي قبل أنه هو علّة كل هذه الشؤون والآمر بها.

فنبتهل إليك أيها الأب الأقدس أن تأخذك الشفقة على كلوم الجسد فإنك أبو الجميع، وأن تثأر للايمان والقوانين والآباء والمجمع، فقد أولاك الله سلطان الربط والحلّ فهلمّ أيها الأب الأقدس لخلاصنا، واقتدينّ بربنا الذي نزل من السماء إلى

الأرض ناشداً الخروف الضال وتأمل بيطرس زعيم الرسل الذي تشرف كرسيه وبولس الاناء المختار فقد طافا المسكونة لينيراها، والكلوم الكبيرة تحتاج إلى أدوية عظيمة. إنّ المستأجرين إذا رأوا الذئاب مقبلة تركوا الخراف لكنك أنت الراعي الحقيقي الذي سُلمت إليه الخراف،فإذا نجت الخراف من الوحوش الضارية مشت قدامك وعرفت راعيها وأتبعت صوته، كما قال ربنا إنّ خرافي تعرف صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني. فلا تهملنا إذاً أيها الأب الأقدس نحن الذين تسطو علينا الوحوش الضارية في كل يوم، وبارشاد ملكك القدوس نحرم باستغاثتنا هذه منزلينها منزلة دستور الايمان لك من ينبذهم كرسيك الرسولي، ونحرمهم أي نسطور واوطيخا وديوسقورس وبطرس الالثغ وبطرس القصار واكاشيوس وكل من يدافع عن أحد من هؤلاء الهراطقة». وقد ذكر البطريرك اسطفانس الدويهي في ذيل هذه الرسالة تواقيع من وقّعوا عليها بخط أيديهم كمايلي:

١ أنا اسكندر برحمة الله قسيس ورئيس دير القديس مارون أتضرّع

٢ شمعون برحمة الله قسيس ورئيس

٣ يوحنا برحمة الله قسيس ووكيل

٤ بروكوب برحمة الله قسيس ورئيس

٥ بطرس برحمة الله قسيس

٦ اوجان برحمة الله قسيس

٧ جيلاد برحمة الله قسيس

٨ بسوس برحمة الله قسيس

٩ رامولس برحمة الله قسيس

١٠ اورشال برحة الله قسيس

١١ ملخس برحمة الله قسيس

وبعد هؤلاء تواقيع كثيرين وجملتهم مئتان وعشرة، منهم مئة واثنان وخمسون قسيساً وثلاثة وثلاثون شماساً وخمسة وعشرون رئيساً وهؤلاء الرؤساء ستة قسوس وثمانية شمامسة والباقون دونهم درجة.

فلما وقع البابا على رسالتهم هذه أجابهم في ١٠ شباط سنة ٥١٨م برسالة

ذكر روهربخر ملخصها في تاريخه (ك ٤٣)، وذكره أيضاً البطريرك اسطفانس الدويهي (في تاريخ الموارنة صفحة ٤٤) عن لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٥)، وكلامه في هذه الرسالة المنفذة إليهم شامل جميع الكاثوليكيين في المشرق، فيشجعهم على الثبات في الايمان القويم قائلاً إنّ هلاك الأبدان في سبيل الايمان لا يُعدّ خسراناً بل ربحاً وافراً بالنظر إلى الثواب الأبدي، وإلى أنّ المسيح يزيدهم في هذه الحياة أيضاً أبداً بنعمته. ويذكرهم بمثل المكابيين قائلاً إن كانوا قاسوا ما قاسوه حباً بظل الحقيقة فكم يكون أولى بنا أن نتحمل الاضطهاد حباً بالحقيقة نفسها، وإنه يلزمهم أن يتجنبوا مخالطة ذوي الضلال ويرعوا أوامر المجمع الخلكيدوني ورسائل القديس لاون البابا، وأن ينبذوا لا مبدعي البدع فقط بل متابعيهم عليها أيضاً. وأشار إلى الملك انسطاس فقال إنّ سلطة الناس شيء وخدمة الأحبار شيء آخر، فلو اقتصر عوزيا على تدبير المملكة لما أصابه البرص الذي اعتراه لأنه أراد أن يجمع بين الملك والكهنوت خلافاً لارادة خادمي الهيكل فخسر الملك والكهنوت معاً. ولم نغفل نحن عن شيء مما هو لازم في هذه المحن، فأرسلنا وفدين واستخدمنا التضرعات الذليلة وايراد البراهين المعقولة والتصريح بالأوامر الخلاصية، ولا يوقفنا الاصرار عن السلوك في جادة العدل فمن لا يرعوون عن طريق الاثم سوف يهلكون دون أن يمسونا بضرر.

وبعد أن قضى الله على انسطاس الملك سنة ٥١٨م وخلفه الملك يوستينس، وأمر بأن يرجع الاساقفة المنفيون إلى كراسيهم، واستمر بطرس أسقف أباميا على غيّه واضطهاده الكاثوليكيين، أخذ رؤساؤهم في انطاكية ورهبان القديس مارون يرفعون الرسائل إليه وإلى يوحنا بطريرك قسطنطينية متشكين من بطرس المذكور واتباع ساويرس. فعقد البطريرك القسطنطيني مجمعاً في هذه المدينة شهده ثلاثة وأربعون أسقفاً، فحرموا ساويرس وبطرس المذكورين وأرسلوا رسالة مجمعية إلى بطريركيتي انطاكية وأورشليم، فعقد في أورشليم وصور المجمعين اللذين ذكرناهما في كلامنا على المجامع، وأرسل اكليرس انطاكية وصور إلى يوحنا البطريرك القسطنطيني ومجمعه رسالة مسهبة ذكرها البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة (صفحة ٤٥) وقد اشتملت على عبارات كثيرة من العبارات الواردة في رسالة رهبان القديس مارون السالف ذكرها إلى البابا هرمزدا. وفي جملة تواقيعها تواقيع كثيرين من رهبان القديس مارون، وذكر الدويهي منهم يوحنا راهب دير القديس مارون. يعقوب راهب دير الرجل الصالح. قسطنطين راهب وقاصد دير

استيرس ذي الذكر الصالح. نونيس شماس دير القديس بولس. سليمان راهب دير القديس اغابيطس. سرجيوس راهب دير القديس سمعان. حلفى راهب دير القديس يعقوب. سعيد راهب دير القديس يوحنا. سمعان راهب دير القديس بولس. بولس راهب دير القديس ليسيكس. عبد الأحد راهب دير القديس دوروتاوس. فلما علم الملك يوستينس بهذه الرسالة ألقى بطرس أسقف اباميا وأخسنيا أسقف منبج في السجن، وسمع ساويرس بذلك فولّى هارباً كما مرّ في كلامنا عليه.

وتوجد رسائل معلّقة في ذيل المجمع الخامس من رهبان القديس مارون وهي ناطقة بما كان لهم من الحمية والغيرة على الايمان الكاثوليكي والمجمع الخلكيدوني، وما كان لهم من الاجلال للبابا لاون القديس الذي أمر بعقد هذا المجمع. ويتبيّن منها أيضاً أنه لما قدم البابا اغابيطس إلى قسطنطينية أنفذوا إليه وفداً من أخوتهم ليرفعوا إليه فروض الطاعة والشكر لعزله انتيمس بطريرك قسطنطينية عن كرسيه لزيغانه عن الايمان الصحيح. ولما عقد منّا خليفة انتيمس المذكور مجمعاً سنة ٥٣٦م كتب إليه رهبان القديس مارون رسالة وأنفذوها مع يوحنا القسّ سفيرهم ويرى توقيعه هكذا: «يوحنا برحمة الله القسيس الراهب سفير دير القديس مارون المترئس على جميع الأديار والرهبان في سورية الثانية، والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار والرهبان الذين في سورية هذا كتبت» ورفعوا رسالة أخرى إلى الملك يوستنيانس وأوفدوا إليه بها بولس الشماس وتوقيعه: «بولس الشماس برحمة الله سفير دير القديس مارون المقدم على جميع الأديار الموقرة في سورية الثانية والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار التي في سورية المذكورة تضرعت وقدمت» (عن تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي صفحة ٤٩).

إنّ دير القديس مارون على العاصي الذي أشار رهبانه في رسالتهم المثبتة آنفاً إلى حرقه في أيام الملك انسطاس ودك أسواره، قد جدده الملك يوستنيانس الكبير كما أنبأنا بروكوب الكبادوكي (في مؤلفه في ابنية يوستنيانس ك ٥ فصل ٩). وكان بروكوب في دولة يوستنيانس وكاتباً لباليصار وقائد جيشه، ثم والياً في العاصمة كما رأيت آنفاً، فهو شاهد عيان. فعاد هذا الدير مزهراً برهبانه ومناضلتهم عن الايمان والمجمع الخلكيدوني إلى سنة ٦٩٤م التي فيها دخلت جنود يوستنيانس الثاني الملقب بالأخرم إلى سورية فدكوه دكاً وجعلوه قاعاً صفصفاً انتقاماً من رهبانه الذين لم ينقادوا إليه في الاعتقاد بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح (طالع الدر المنظوم للمثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٣١).

الباب السابع

تاريخ سورية في القرن السابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل

لملوك الرومانيون في هذا القرن وما كان بسورية في أيامهم

عد ٦٧٠

فوقا الملك وما كان في أيامه بسورية

قد مرّ أنّ فوقا كان قائداً لفريق من الجيش في أيام موريق فنادى به ملكاً سنة ٦٠م، وزحف إلى قسطنطينية فقتل موريق وأبناءه الأربعة وتبوّأ أريكة الملك، ولم ن فيه ما يؤهله له إلّا جسارته وقحته وميل أمثاله إليه. فإنه كان جاهلاً خلاء من ىجاعة وعزّة النفس سكيراً غضوباً متهتكاً، وكان منظره سوياً لخصاله، ولم تكن م ملكه إلّا سلسلة رزايا منعقدة على الجور والاعتساف، وعرف كسرى الثاني ملك رس بسوء حال المملكة الرومانية فانتهز الفرصة ليتخطّى عهدة الصلح التي كانت ، المملكتين، وشاع أنّ توادوسيوس بن موريق لم يقتل فأذاع كسرى أنه لديه حف إلى أملاك الرومانيين متذرعاً بأن يردّ الملك إلى وريثه الشرعي، وفوقا منغمس ذه لاهٍ بحفلات تمليكه. وفي فصل الربيع سنة ٦٠٣م غشت جيوش كسرى بلاد بين النهرين فشتتوا جنود الرومانيين شذر مذر واستحوذوا على تلك البلاد

وانتهبوها، فاستفاق فوقا وحشد على عجل جيشاً أمّر عليه رجلاً لم يشهد حرباً، فانتصر كسرى عليه وأهلك فريقاً من جيشه، ثم أبسل كل من وقعوا في يده فكانت هذه الحرب على الرومانيين أشأم الحروب بينهم وبين الفرس، ودامت أربعاً وعشرين سنة، فالثماني عشرة سنة الأولى منها لم تكن إلّا سلسلة رزايا متتابعة متواصلة، فإنّ كسرى رأى الرومانيين خلاء من القادة المحنكين فواظب على الفتح والقتل وحرق المدن والقرى، فلم تكن آسيا الصغرى من دجلة إلى البوسفور إلّا مشهداً للفتك والتدمير والحريق حتى أصبح الفرس يحسبون الرومانيين خرافاً وهم الجزارون.

وقد كان حينئذٍ من القادة الماهرين نرسيس،وكان قد عاون كسرى كثيراً على ارتقائه سدّة الملك، على أنه كان قد أبدى استياءه بموريق فاستقدمه فوقا إليه واعداً أن يقرّبه إليه، ولما صار في حوزته أحرقه حياً. وقد ائتمر عليه بعضهم سنة ٦٠٦م وكان لامرأة موريق وبناتها ضلع من المؤتمرين فافتضح الأمر وفرّت قسطنطينة أرملة موريق وبناتها إلى كنيسة أجيا صوفيا، وحاول فوقا اخراجهنّ رغماً من الكنيسة فعارضه البطريرك سيرياك، ولم يسمح باخراجهنّ إلّا بعد أن أقسم الملك على أن لا ينزل بهنّ سوءاً، وخرجنَ فحشرهنّ في دير وأمات كثيرين ممن وقعت له ظنة بالاشتراك معهنّ. وأكره فيلبس صهر موريق على أن يصير راهباً، وجرمانس أحد قادته أن يصير كاهناً. على أنه تولاه الخوف والرعدة بعد ذلك فكان يخال له السيف الذي قتل موريق به معلقاً فوق رأسه، ويخشى من أنّ أقرب المقربين إليه يطعنه يوماً بمدية في حشائه. وكان له رجل اسمه كريسبوس يعتمد عليه ويجلّه وقد أولاه رتبة بطريق وجعله رئيساً لحرسه وزوّجه سنة ٦٠٧م بابنته دومنسيا، واحتفل الأهلون بزفافه ووضعوا صورة العروسين في احدى الساحات بعد صورتي الملك والملكة، فاستاء فوقا من ذلك وأحضر من ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى، وأمر بقطع رؤوسهم، فاحتشد جمّ غفير يجاهرون بالشكوى من هذا الجور ويهددون الملك بالثورة عليه، فرغب عن تنفيذ أمره لكنه أورث صهره ضغينة لا تمحوها الأيام من صفائح قلبه.

ونشأت حينئذٍ أي سنة ٦٠٧م ثورة أخرى فإنّ قسطنطينة أرملة موريق كانت تظن ابنها توادوسيوس حياً، وكان جنود فوقا قد قتلوه في طريقه إلى كسرى فأخذت تحيك وهي في الدير محشرها أحبولة تقنص بها فوقا، ومالأها على ذلك كثيرون من كبراء الدولة لحنقهم من أعماله، ووفر لفيفهم وانبسطت في أقاليم

المملكة محالفتهم، ولكن كشفت امرأة مؤامرتهم فقبض فوقا على كثيرين من المؤتمرين وأذاقهم أعذبة مرة، فكان يقطع ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ويفقئ أعينهم ويطرحهم في أتون. وأما قسطنطينة وبناتها الثلاث فقطع رؤوسهنّ حيث قطع رأس موريق في خلكيدونية وأتبع بهنّ جرمانس المذكور. وضاقت السجون عن أن تسع من كان فوقا يزجهم فيها كل يوم،وكان الفرس في كل سنة يجتازون الفرات ويشنون الغارة على أملاك الرومانيين إلى فينيقية وفلسطين أيضاً بعد أن استحوذوا على كل ما بين النهرين حتى الرها. وكان الأهلون يفرون من وجه الفرس فيتراكمون في القلاع والحصون فلا يحاصرهم جنود الفرس بل يطلقون العنان لمطامعهم فينتهبون المنازل في المدن والقرى، ويحرقون الزروع والغلات ويقبضون على من وقع في يدهم فيأسرونه، وحيث لم تكن حرب كانت الرعية فريسة لجور الحكام والقضاة وسطو الأشرار واللصوص. وفي سنة ٦٠٩م زحف كسرى إلى آسيا الصغرى بعسكر جرار فبدّد من لقيه من جنود الرومانيين واجتاز ارمينيا الصغرى وانتهى إلى الكبادوك، وكان دومنتيول أخو فوقا يقود الجيش الروماني فيها فروّعه اسم الفرس ولم يجسر أن يقف أمامهم فانتهبوا هذه البلاد المثرية وتوغلوا في غلاطية وبفلاغونيا وبيتينيا إلى أن خيّموا على شاطئ البوسفور في خلكيدونية. وبعد أن شبعوا وترووا من الفتك والغنائم عادوا إلى بلادهم غانمين. وتواترت في أيام فوقا الرزايا والوباء والقحط والعواصف وموت البهائم أيضاً (ملخص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

عد ٦٧١

ثورة اليهود في سوريا ونهاية ملك فوقا

كان الشعب في أنحاء المملكة كلها يئنون من جور فوقا،ولم يجسر أحد أن يبدي حراكاً إلّا أنّ اليهود في انطاكية جاهروا بالعصيان على الحكومة، وبدلاً من أن يناصبوا رجالها، وثبوا على المسيحيين وقبضوا على انسطاس بطريرك انطاكية فقتلوه وجروا جثته في شوارع المدينة، ودخلوا منازل بعض الأعيان فأماتوهم وحرقوا بيوتهم، فأخذت الغيرة فوقا على ما كان عليه من التهتك والحيف، فأصدر أمراً أن يعمّد اليهود ولو مكرهين. وأرسل أحد عماله إلى أورشليم حيث كثر عدد اليهود، فجمع اليهود في أورشليم وأطلعهم على أمر الملك، ولما لم يذعنوا له طائعين

عمّذهم مكرهين فاندفعوا إلى شغب ومعارك في أورشليم وانطاكية واسكندرية فقتل فوقا منهم كثيرين وفرّ الباقون، ولكن لم تطفأ جذوة الثورة بل انتشر لظاها في أعمال المشرق، واتصل إلى العاصمة حتى أعان بعضهم فيها الملك نفسه، لكنهم لقيوا منه الأمرّين وأشربهم أمرّ الحيَن.

وضاق ذرع كريسبوس المذكور صهر الملك عن تحمُّل اعتساف حميه ولم ينس ما أنزله به من الاهانة يوم زفافه، فكاشف هرقل الذي كان بطلاً اشتهر بشجاعته في حروبه مع الفرس في أيام موريق. وكان يومئذٍ والياً في افريقية وكان يخجل من أن يكون عاملاً لملك جائر باغ كفوقا. وكان قد انكف عن أن يرسل الغلال من أفريقيا ومصر إلى قسطنطينية في السنين الجدباء، فعظمت المجاعة وأعدّت النفوس للثورة، لكنه أبى الملك لشيخوخته ورضيّه لابنه وأخذ يعدّ العدد والرجال لثلّ فوقا من عرشه، ولما تكاملت معداته سار ابنه المسمى هرقل أيضاً في أسطول بحراً ميمماً قسطنطينية، وزحف ابن أخيه نيقيطا براً بجيش من الفرسان، ولم يكن كريسبوس جسر أن يبوح بسره لكبراء القصر، وكانوا جميعاً قد عيل صبرهم على تحمّل اعتساف الملك فائتمروا على خلعه واقامة توادورس رئيس الحرس ملكاً، فكشفت مؤامرتهم وذاق المتآمرون مرّ العذاب. وأما هرقل فكان مجاهراً بالعداوة لا يخشى ثلاباً ولا مغتاباً، ولم يدرِ فوقا بحملته عليه إلّا إذ دنا أسطوله من العاصمة فأخذ يستعد للدفاع، وكان كريسبوس صهره والياً في قسطنطينية فكان يظهر مزيد الاهتمام بتنفيذ أوامر الملك ويعرقل خفية على نفوذها. وبعد وقعة على مدخل البوسفور رسا أسطول هرقل على مقربة من أسوار العاصمة يوم الأحد في ٤ تشرين الأول ٦١٠م فهاج كثيرون في المدينة وكانوا ينادون بهرقل ملكاً وانضمّ كريسبوس إليهم. وفي غد ذلك اليوم خرج بفرقة من الجنود أحد رجال الندوة، وكان فوقا قد سطا على امرأته وتسارعوا إلى القصر، فقبضوا على فوقا وكتفوه واجتازوا به المدينة وأشخصوه إلى هرقل في سفينته، فازدجره قائلاً: «أهكذا تدبر الملك أيها التعيس» فأجابه فوقا بقحته: «أتدبره أنت أحسن» فاستشاط هرقل ورفسه برجله وقطع يديه ورجليه ودبره ثم رأسه على مشهد جمّ غفير. وأمر بوضع ما قطعه من أعضائه على طبق، وأن يطاف بها في شوارع المدينة فيها، وجرّ ما بقي من جثته وحرقها كلها أخيراً. وألحق بفوقا دومنتيول أخاه وكثيرين من المقربين إليه نسباً أو صداقة (ملخص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

عد ٦٧٢

هرقل الملك وحملة الفرس في أيامه على سورية

قد نزل هرقل بعد حرقه جثة فوقا من سفيتنه يصحبه كريسبوس والشعب يضجّ بالتهليل والترحيب فسار توّاً إلى القصر الملكي، وألحّ على كريسبوس أن يقبل البرفير قائلاً إنه لم يأتِ إلّا ليثأر من فوقا بدم موريق وأبنائه وعياله. ولما أبى كريسبوس الملك توّج سرجيوس البطريرك القسطنطيني هرقل في ٥ تشرين الأول سنة ٦١٠م وأقام كريسبوس والياً على الكبادوك، لكنه لم يكن أميناً لمولاه كما لم يكن أميناً لحميه «لكل امرئ من دهره ما تعوّد» فالجئ أن يترك الولاية وأن يقضي ما بقي من عمره في المنفى. وقام القوم يترجون أن يصلح هرقل أحوال المملكة ويلمّ شعثها ويكبت أعداءها. فتقاعد معتكفاً على ترفه لاهياً بملاذه حتى كان يخال أنه موافق للفرس على خراب المملكة، لأنهم ظلّوا عشر سنين يجتاحون المملكة ويخربون مدنها وقراها، وليس من دفاع يذكر. ففي سنة ٦١١م أخذوا الرها ثانيةً وانتهبوا وأخربوا أباميا وكل ما كان منها إلى انطاكية.واعترض مسيرهم بعض الجنود، ولكن على غير انتظام ولا قوّة كافية، فبدد الفرس شملهم وتملكوا انطاكية وكل ما يليها من المدن حتى بلغوا دمشق ونهبوها وأسروا كثيرين من أهلها.ولم يستفق هرقل من غفلته، وثار اليهود في صور وحاولوا أن يتولوا على هذه المدينة لكثرة عددهم فيها ويخرجوها عن الطاعة لهرقل. وأرسلوا خفية سعاة إلى قبرس ودمشق وأورشليم يدعون بني ملتهم لحمل السلاح والخروج، وافتضح تآمرهم ونالهم شر الجزاء لفعلتهم على غير تروٍّ في عاقبة شرّهم.

وفي سنة ٦١٥م حمل جيش عرمرم يقوده سربار إلى فلسطين فغشوا الجليل وضفتي الأردن إلى بحيرة لوط فدمروا وأحرقوا ونهبوا، فولّى الأهلون هاربين ولم يبقَ إلّا بعض الرهبان والنساك العجّز فقتلهم الفرس عن آخرهم. وحمل سربار على أورشليم فدخلها كأنها مدينة في فارس إذ ترك الحرس المدينة وانهزموا، وقبض سربار على سكان المدينة الرجال والنساء والأطفال واستاقهم مكبلين ليأخذهم إلى ما وراء دجلة، ولم يضرر باليهود بل أسرّهم بأن يروا خصومهم النصارى على هذه الحال، وقد افتدوا كل من تيسر لهم أن يفتدوهم لا شفقة عليهم بل ليتشفوا بذبحهم. ويقال أنهم ذبحوا منهم ثمانين أو تسعين ألف نفس. وكان أثمن ما سلبوه ما كان

في أورشليم من خشبة الصليب المقدّس، فأخذها سربار معه إلى فارس وأخذ البطريرك زكريا أسيراً وحرق كنيسة القبر المقدّس وغيرها من الكنائس، وسلب الآنية المقدّسة وكل ما كان فيها ثميناً من التقادم المتراكمة هناك منذ ثلاثة قرون. وعثر نيقيطا ابن أخي هرقل على الاسفنجة التي أدناها اليهود من فم المخلّص على الصليب، وعلى الحربة التي طعنوا جنبه بها، فشراهما بمبلغ جسيم من أحد جنود الفرس وأرسلهما إلى قسطنطينية.

ووثب العرب قبل أخذ أورشليم بثمانية أيام على دير القديس سابا فهرب رهبانه وبقي منهم أربعة وأربعون راهباً أقعدتهم الشيخوخة والتقشّف عن الفرار، وكان بعضهم لم يخرج من الدير من نحو خمسين أو ستين سنة، فلم يشاءوا أو لم يقدروا أن يغادروا ديرهم فقبض المعتدون عليهم وأذاقوهم أعذبة متنوعة آملين أن يهدوهم إلى خزينة أو كنز. ولما خاب أملهم ذبحوهم جميعاً فتحملوا الاستشهاد فرحين شاكرين لله لأنه أهلهم له، وبقيت جثثهم أياماً لم يأوها أحد التراب إلى أن عاد الرهبان المتشتتون بعد انصراف العرب، فجمع مودست رئيس دير القديس توادوسيوس جثث هؤلاء القديسين بالاجلال وذرف الدموع ودفنها في مدفن أسلافهم بعد أن صلّى عليها كالعادة. والكنيسة الرومانية تعيّد لهؤلاء القديسين في ١٦ من أيار (كما في تراجم القديسين في ذلك اليوم).

وكان مودست في غياب البطريرك زكريا حينئذٍ يدبر كنيسة أورشليم ويهتم بالمدينة والأبرشية والأديار التي في البرية. وقد مرّ في الكلام على كنيسة القبر المقدّس أنه اهتم بمرمّة هذه الكنيسة وغيرها من الكنائس والأديار، وكان يعاونه في النفقة على ذلك يوحنا الرحوم البطريرك الاسكندري الذي مرّ ذكره، وصار مودست بطريركاً على أورشليم بعد وفاة زكريا كما سوف ترى. ومن انهزموا من فلسطين مضى السواد الأعظم منهم إلى اسكندرية فقبلهم البطريرك يوحنا الرحوم بالترحاب والاكرام، وكان ينفق على جميعهم ما يحتاجونه كل يوم من قوت وملبس ومأوى. وأرسل رجلاً إلى أورشليم وزودوه مبلغاً من المال والحنطة والملابس ليعاون بها من مكثوا في أوطانهم. وبعث أيضاً بمال ورجال ليفتدي بعض من أسروا، وشكا إليه بعض من أقامهم على توزيع حسناته أنّ بعض الموزّع عليهم غير فقراء فقال أن كنتم وكلاي أو وكلاء المسيح فاعملوا بأمره، أن نحسن إلى كل من سألنا فلا يريد هو ولا أريد أنا وكلاء مستبدين فلو كان ما أعطيه ملكاً لي لكان

لي الخيار في صرفه، ولكن ما أعطيه إنما هو لله فيلزم تنفيذ أمره في إعطاء ماله.

وفي السنة التابعة أي سنة ٦١٦م أو سنة ٦١٧م زحف الفرس إلى مصر فأخذوا اسكندرية وانتهبوها وتوغلوا في البلاد إلى الحبشة مخربين ناهبين، وحمل جيش آخر منهم على آسيا الصغرى فاجتازها ناهياً مخرباً دون معارض، واتصل إلى خلكيدونية (قاضي كوي) ولم يبقَ بينه وبين العاصمة إلّا البوسفور، فاستحوذ الرعب واليأس على سكانها ففاق حينئذٍ هرقل من غفلته وأرسل وفداً إلى الفرس يسألهم الصلح، فقبضوا على رسله وأودعوهم السجن ثم قتلوهم. ولحق بهذه الرزايا مصيبة أخرى فإنّ اجتياح الفرس مصر حال دون نقل المؤن منها ودون زرع أراضيها، فثقل القحط في قسطنطينية وغلت أسعار المؤن وبيت المال فارغ، ولزم الحكومة أن تزيد في الخراج والضرائب فوفّر التذمّر التشكي، ولو لم يكن هرقل محبوباً لأفضى الأمر إلى ثورة عليه. فضاق ذرعه عن تحمل هذه المصائب والمصاعب فعزم على الفرار والعزلة في افريقيا، بل شحن كل ما كان نفيساً في سفن وأمر أن تمخر قرطاجنة. فثار عاصف شديد غرّق بعض هذه السفن وكسر بعضها. وذاع خبر عزم الملك على الاعتزال فاحتشد جمّ غفير حول القصر، وكان بعضهم يصيح إليه بألّا يغادرهم، وبعضهم يهدده بقتله إن أصرّ على عزمه، فرقّ الملك لهم، وكان لما أبدوه من التعلّق به وقع شديد في قلبه، فاستدعى البطريرك إليه وسار معه إلى كنيسة القديسة صوفيا فحلف هناك يميناً على أنه لا يغادر عاصمة ملكه، فجأر الشعب بالدعاء له وأكثروا من مظاهر السرور التي أنستهم إلى وقت تراكم المصائب عليهم (مخلص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

عد ٦٧٣

حرب هرقل مع الفرس وانتصاره عليهم واسترداده خشبة الصليب المقدّس

قد استمر هرقل على تقاعده وتوانيه بملاذه عشر سنين بعد ملكه، واستفاق أخيراً من رقاد غفلته وهمّ أن يقي بلاده غزوات الفرس وتخريبهم لها، وكان يخشى أن يثب الافاريون (أو الاباريون وهم قبيلة من التتر كانت قد ظعنت إلى المغرب) على قسطنطينية في مدة غيابه واشتغاله في حرب الفرس، فراسله ملكهم

أن يشافهه لتوطيد علاقات السلم بينهما، وفي نيّته أن يقبض عليه ويتولّى على قسطنطينية فأجابه هرقل إلى سؤاله ومضى لملاقاته، وشعر في أثناء طريقه بمكيدة عليه، ولم ينجه منها إلّا فراره متنكراً. وفتك الافاريون بعسكره وحاشيته ثم عاد بعد سنة يبدي لهرقل ندامته وأسفه مما كان ويعتذر عنه بطمع قومه بالغنائم فلم يركن هرقل إلى كلامه ولم يقاطعه بل تخلّى عن بعض أعمال ملكه لثلاث قبائل حديثة، أعني الصقالبة والخرواطيين والسربيين ليسكنوها ويكونوا فاصلاً بين مملكته والافاريين. وفي ٤ نيسان سنة ٦٢٢م صمم على السفر لمحاربة الفرس. وروى شدرانس وزوناراس (في تاريخهما) أنه اقترض مالاً من الأديار والكنائس وأخذ بعض آنيتها الذهبية والفضية فسكها نقوداً قائلاً إنّ ضمانته ثمنها خير الكنائس من أن ينتهبها الأعداء. وأقام ابنه هرقل قسطنطين وكان عمره عشر سنين نائباً للملك يدبره البطريرك سرجيوس والبطريق بونوز. وعند سفره مضى إلى كنيسة القديسة صوفيا فجثا خاشعاً مناجياً الله بقوله: «اللهمّ لا تسلمنا إلى أعدائنا جزاءً لآثامنا بل ارفق بنا وأولنا الظفر لينكفّ الأشرار عن الاعتداء على ميراثك». والتفت إلى البطريرك وقال: «إنني أدع عاصمة ملكي وابني لحراسة الله والعذراء القديسة وعنايتك». وتناول بيده صورة قديمة للمخلّص وخرج بها إلى البوسفور فعبر إلى آسيا وصرف الأشهر الأولى في تدريب جنده واعادة الحمية والشجاعة إلى قلوبهم، ومن كلامه لهم: «اخوتي وأبنائي إنكم ترون أعداء الله توطأوا بلادنا، وغادروا مدناً خراباً، وأحرقوا معابدنا، ودنسوا مذابحنا، وملأوا من الأقذار كنائسنا إذ جعلوها مأوى لجنودهم» وأخذ بيده صورة المخلّص المذكورة وأقسم بها على أنه يحارب معهم كواحد منهم إلى مماته، وإنه يشاطرهم المخاطر التي تحف بهم ويكون متحداً بهم كأب ببنيه وقد برّ بيمينه (توافان وشدرانس).

ومضى أولاً إلى أرمينيا وظهر على الفرس في مواقع كثيرة وأظهر أنه يريد أن يصرف فصل الشتاء في بنطس خدعة لأعدائه، وسار إلى بلاد فارس وتوغّل فيها وفتك بجيش كبير واستحوذ على معسكره، وأحرز جنوده غنائم، واستمر يغالب الفرس في بلادهم وجوارها ست سنين. وفي سنة ٦٢٦م قسم كسرى رجال حربه من وطنيين ومستأجرين إلى ثلاثة جيوش. فأمّر سربار على أحدها وأرسله إلى خلكيدونية يحاصر قسطنطينية، وأخلف ملك الأفارايين وعده وحاصرها من جهة أخرى. على أنّ سكانها والحامية التي كانت فيها أبدوا آيات البسالة والدفاع فارتدّ

الفرس والأفاريون على أعقابهم خاسرين.وأرسل كسرى جيشه الثاني إلى أرمينيا فظهر عليه توادورس أخو الملك هرقل وبدد شمله، وحمل بالجيش الثالث على نينوى حيث كان هرقل فتأججت نار الوغى من الصباح إلى المساء فهلك قائد جيش كسرى الأكبر، وثلاثة قوّاد كانوا تحت أمرته ونصف جنوده. ولم يُقتل من جنود هرقل إلّا قليلون، وكثر الجرحى ولكن عناية هرقل بهم جعلت عدد موتاهم يسيراً. فزحف هرقل من نينوى إلى قطيسون وحرق في طريقه إليها كل ما كان من القصور ومنازل الفرس بعد أن غنم جنوده كل ما كان فيها. وفرّ كسرى من مدينة إلى أخرى وهرقل يتتبعه، وقد عرض عليه في بداية سنة ٦٢٨م الصلح فأباه، وعظم حنق الفرس عليه وضاق بالنجاة ذرع كسرى، ولم يجد له من وسيلة إلّا أن يستقدم إليه سربار الذي كان باقياً في خلكيدونية، فكتب إليه أن يأتي مسرعاً، فقبض جنود هرقل على رسوله وأتوا به إلى هرقل، فأخذ رسالة كسرى وكتب إلى سربار غيرها قال له فيها حذار أن تأتي إليّ إلّا وبيدك مفاتيح خلكيدونية. واستبطأ كسرى سربار وسخط عليه لتقاعده عن العمل بأمره، فكتب إلى نائبه أن يبطش بسربار الخؤون ويأتي بالجيش إليه، فوقع هذا الرسول بيد الجنود الرومانيين فأتوا به إلى قسطنطينية، فطلب ابن الملك سربار ليأتي إليه مسرعاً وأمّنه، فأتى ودفع إليه رسالة كسرى إلى نائبه فاستشاط على كسرى وأخذ الرسالة وزاد عليها أن يقتل أيضاً أربع مئة رجل من رؤساء الجيش. وعاد إلى معسكره واستدعى رؤساء الجيش وتلا عليهم الرسالة. وسأل النائب الموجهة إليه ما يريد أن يصنع. فصاح الرؤساء بأجمعهم لا عدو لنا إلّا كسرى، فهلموا بنا نهلك هذا الظالم العاتي. ووافق سربار ابن الملك وقدّم له رهينة ابنيه وابني نائبه على حفظهما الأمانة لهرقل. وسارا بالجيش إلى فارس. وكان كسرى قتل أباه هرمزدا ليأخد ملكه فسلّط الله عليه ابنه فعامله بما عامل أباه به، فقد أصاب كسرى مرض ظنّه مميتاً له فأوصى أن يخلفه في الملك ابنه مرداس، فحنق ابنه البكر المسمى شيرويه (ويسميه العرب قباذ أيضاً) لتفضيل أبيه أخاه الأصغر عليه. واستمال كبراء البلاد والجنود إليه فسموه ملكاً، وقبض على أبيه، وأتى به إلى قطيسفون في ٢٤ شباط سنة ٦٢٨م، وطرحه في سجن مظلم مغللاً بالقيود. وكانت باكورة أعماله الحكم على أبيه أن يموت جوعاً قائلاً فليأكل الذهب الذي خرب العالم لحشده، وأمات كثيرين جوعاً من أجله. وأمر بقتل أخيه مرداس وأبنائه بحضرته، وأنفذ وفداً إلى هرقل يبشره بارتقائه إلى

منصّة الملك، ويكاشفه بأمر الصلح والعهدة بينهما. فأرسل هرقل رسالته إلى قسطنطينية فتُليت على منبر الكنيسة فيها يوم العنصرة في ١٥ أيار سنة ٦٢٨م.

وعقد شيرويه صلحاً محكم العرى مع هرقل، وردّ إليه جميع النصارى الذين كانوا أسرى في بلاده، وفي جملتهم زكريا بطريرك أورشليم وخشبة الصليب المقدّس التي كان سربار أخذها من أورشليم منذ أربع عشرة سنة. وعاد هرقل ظافراً غانماً إلى قسطنطينية وبالغ الشعب في مظاهر المسرّة والاحتفاء بعوده. وفي السنة التالية أي سنة ٦٢٩م أتى إلى أورشليم ليشكر الله على ما قيض له من النصر، ويردّ الذخيرة التي لا يعادلها ثمن إلى محلها، وكانت قد بقيت في صوانها كما أُخذت، وتفحّص البطريرك وكهنته ختومها فإذا هي سالمة لم تفض. وفتح الصوان بمفتاحه وبارك الشعب بالخشبة المقدّسة، فكان مشهد باهر عظُمت فيه البهجة وطمت الدموع سروراً. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيّدان لذكر ردّ خشبة الصليب إلى أورشليم في ١٤ من ايلول. وكانتا تعيّدان في هذا اليوم لذكر ظهور الصليب للملك قسطنطين فصارتا إلى اليوم تعيّدان للذكرين معاً. وطرد هرقل اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال. وردّ إلى الكاثوليكيين كنيسة الرها التي كان كسرى قد سلمها إلى النساطرة، وفرض جعلاً لكنيسة قسطنطينية الكبرى يُدفع لها كل سنة وفاءً لما اقترضه منها ومن الأديار لنفقة الحرب (ملخص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم للسنين المذكورة).

عد ٦٧٤

تتمة تاريخ هرقل

إنّ هرقل عاد بعد انتصاره على الفرس إلى ترفه وانغماسه بملاذه، وأتى حمص التي كان يؤمها يومئذٍ محبّو الترف وترويح القلوب. وكان ذلك في بداية خلافة أبي بكر الصديق. وكان العرب يشنون الغارة على سورية فيزدريهم هرقل ويحسب أنهم لا يطمعون بمناوأة من قهر الفرس. ورأى أبو بكر فتح سورية متيسراً فجهز عسكراً وخطب فيهم عند سفرهم قائلاً: «إذا لقيكم العدوّ فقاتلوه مستبسلين والموت أولى بكم من القهقرى، وإذا انتصرتم فلا تقتلوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ولا

تقطعوا النخيل ولا تحرقوا الزرع ولا تذبحوا من الماشية إلّا ما كنتم في حاجة إليه لقوتكم. وامنوا من ذُل لكم ورغب في اداء الجزية ولا تخلفوا وعدكم ولو لأعدائكم. وسترون في طريقكم رجالاً متوحدين ناسكين فاحتفظوا بهم ولا تمسوا أديارهم بضرّ، واهلكوا اليهود إلّا أن يسلموا» وأمّر أبا عبيدة على الجيش وكان عشرين ألف مقاتل، ولما سمع هرقل أخبار حملة العرب أتى إلى دمشق وبعث سرجيون والي قيصرية بخمسة آلاف جندي ليوقف العرب عن المسير ويقاتلهم إذا اضطر إلى قتالهم. فلم يكن مفر من قتالهم وسحق العرب جنوده القلائل وأخذوه أسيراً ثم أماتوه وأحرزوا غنائم وعادوا.

فتهايج العرب برؤية هذه الغنائم لفتح سورية، وتألّب جمّ غفير منهم، فأمّر أبو بكر عليهم عمروا بن العاص واستمر أبو عبيدة على جيشه، ثم استدعى أبو بكر خالداً بن الوليد من العراق وأمّره على الجيشين فكانت وقعة اليرموك الشهيرة التي كانت سبب فتوح الشام على ما قال أبو الفدا. ثم قصدوا بصرى في حوران وكانت حاميتها اثني عشر ألف فارس فلم يقووا على الدفاع، فاستحوذ عليها أبو عبيدة وخالد سنة ٦٣٥م ثم فتحا تدمر وحاصر عمرو غزة فافتتحها، وجمع خالد جيشه كله وكان نحواً من خمسة وأربعين ألف مقاتل، وحاصر دمشق فخاف هرقل ومضى من حمص إلى انطاكية، وأرسل منها خمسة آلاف مقاتل لنجدة دمشق، فكانت هذه النجدة معثرة للدمشقيين، لأنّ قائد هؤلاء الجنود نازع والي المدينة الأمارة فيها، وأبى الوالي الاذعان لدعواه، فنشأ بينهما مباراة ومعارضة فلم يحكما عملاً. وتقدّم خالد إلى الاسوار فصاح بالدمشقيين أن يبرزوا إليه من يقاتله، فبرز القائد المذكور فقتله خالد بأول سهم رماه به وأخذه أسيراً. وبارزه والي المدينةولم يكن أسعد حظاً.

ورأى هرقل أنّ فتحهم دمشق منذراً بخسارة سورية كلها، فجمع كل ما كان له من الحامية في مدن سورية، وأمّر على الجيش أخاه توادورس ليزحف إلى دمشق، فأرسل خالد فريقاً من جيشه ليعارضه بمسيره فقوي الرومانيون عليه وأسروا قائده، فهبّ خالد بفريق آخر من الجيش فأوقع بالرومانيين وبدد شملهم. وتواثبت كتيبة من فرسان العرب على الجنود الذين كانوا يحرسون قائدهم الاسير فانتزعوه منهم وأتوا به إلى معسكر خالد. وعاد توادورس إلى انطاكية مدحوراً خجلاً، فعنّفه الملك هرقل أخوه وأنّبه على سوء تصرفه وأرسله إلى قسطنطينية، وأما الدمشقيون فطلبوا

الأمان من خالد فلم يعطوه، وطلبوه من أبي عبيدة الذي كان على جهة أخرى من المدينة، فأمنهم على أن يدفعوا الجزية ويتركهم وما يدينون، وأخذ منهم رهائن ودخل المدينة بمئة رجل وهو لا يعلم أنّ خالداً أنكر الأمان عليهم. ودخل خالد المدينة من جهة أخرى عنوة وعتب أبا عبيدة على ما صنع دون علمه. وخيّر أهل المدينة بين أن يبقوا فيها مسلمين أو يؤدون الجزية صاغرين، وبين أن يرتحلوا عنها في مدة ثلاثة أيام، فارتحل بعض وأقام بعض. وكان فتح دمشق في خلافة عمر بن الخطاب.

ولما علم هرقل بفتح دمشق علا على نشز من الأرض والتفت إلى الشام وقال: «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده». وعزم أن يعود إلى قسطنطينية لكنه أراد أن يمضي أولاً إلى أورشليم فذهب إليها وأخذ منها خشبة الصليب المقدّس لئلا تقع في أيدي أعدائه، وعاد إلى عاصمته براً منكباً ما أمكن عن رؤية الناس خجلاً. ومضى أبو عبيدة بجيشه فذُلّت له حمص وأداه أهلها الجزية، وكذلك حماه وقنسرين وبعلبك وغيرها. وكان الغزاة يعاملون الأهلين باللين والحلم حتى خلع أهل بعض الأعمال ولاتهم واستسلموا للظافرين. وحاول هرقل مرة أخرى أن يوقف سيرهم في مملكته، فجمع جنوده من اوروبا وآسيا وألّف منهم جيشاً كثيفاً أمّر عليه قائداً اسمه عمانويل، ولقيه أمير مسيحي يسمى جبلة انضوى إلى لوائه وسار معه رجال هذا الأمير يسيرون في طلائع الجيش. وخيّم جيش المسلمين على شاطئ نهر اليرموك يقوده أبو عبيدة. واستعرت نار الحرب هناك ثلاثة أيام، وكانت الحرب سجالاً على أنّ بعض رؤساء جيش الروم أتوا أمراً فظيعاً عاد عليهم بالهلاك. فقد دخل هؤلاء بيت رجل مسيحي موسر في البرموك وسطوا على امرأته. ولما صدّهم صراخ طفلها عن بغيتهم قطعوا رأسه، فأخذت المرأة رأس الطفل إلى قائد الجيش تسأله انصافها فلم يسمع لها. وعمد زوجها إلى اهلاك جيش الروم فخدعهم بأخبار كاذبة، وكشف لأبي عبيدة أسراراً لهم يسّرت له الظفر بهم حتى أخذ عمانويل أسيراً وقتله وفتك بجيشه الكثير. واضطر جبلة أن يسلم ولعله جبلة آخر ملوك غسان الذي ذكرنا خبره في الكلام على هؤلاء الملوك أنه أسلم ثم ارتد وهرب إلى قسطنطينية.

ومضى جيش المسلمين إلى أورشليم سنة ٦٣٦م فحاصروها وعرضوا على أهلها أن يسلموا أو يؤدوا الجزية صاغرين، فلم يجيبوهم أولاً، ودام الحصار نحو من أربعة

أشهر، ولما لم يرَ الأهلون من منجد عولوا على التسليم وشرطوا أن يكون على يد الخليفة عمر بن الخطاب فأتى متواضعاً مستصغراً، ورأى كثيرين عليهم ملابس من حرير كانوا قد غنموها فضربهم بالسوط وأمر بتمزيق الثياب. وكان بطريرك أورشليم حينئذٍ صفرونيوس اللبناني فأحبه الخليفة وأبرم معه شرائط الصلح التي كانت مثالاً لكل صلح جرى بعده. وإليك نص هذه العهدة مترجماً عن الافرنسية إذ لم نظفر بنسخة من الأصل العربي.

«بسم الله الرحمان الرحيم من جانب عمر إلى سكان اليا (هو اسم أورشليم سمّاها به اليوس ادريان بعد أن جدد بناءها) أمرنا أن تكون لهم من قبلنا الحماية والصّيانة لأنفسهم وأموالهم. ولا تنقض كنائسم ولهم وحدهم قضاء عباداتهم فيها،ولكن ليس لهم أن يمنعوا المسلمين من الدخول إليها نهاراً أو ليلاً، ولهم أن يفتحوا أبوابها للمارة والمسافرين وليس لهم أن يقيموا فوقها صلباناً أو أن يقرعوا أجراساً أو أن يبنوا كنائس حديثة في المدينة أو خارجاً عنها. ولا يجبرون على أن يعلموا أبناءهم القرآن، ولا يسوغ لهم أن يغروا المسلمين باتباع دينهم. ولا أن يمنعوا أهلهم عن تركه لاتباع دين المسلمين وعليهم حرمة المسلمين،وأن لا يتزينوا بأزيائهم ولا يلبسوا قبعاتهم وعمائمهم. ولا يفرقوا شعوردهم كما يفرقها المؤمنون، ولا يستعملوا اللغة العربية، ولا يركبوا الخيل مسرجة، ولا يحملوا سلاحاً ولا يبيعوا الخمر ولا يستخدموا من خدم مسلماً، ويؤدّون الجزية دون هضم شيء، ويكونوا أمناء للخليفة أمانتهم لحبرهم، ولا يبدوا شيئاً مخلاً بخدمته تعمداً أو بوسيلة».

ودخل الخليفة بعد التوقيع على هذه العهدة إلى المدينة وبجانبه البطريرك صفرونيوس، وطاف في الكنائس وحان وقت الصلوة وهو في كنيسة القبر المقدّس فجثا في الرواق وصلّى. وسأله البطريرك لِمَ لم يصلِ في المكنيسة فقال حباً بكم لئلا يأتي المسلمون بعدي فيصلّون حيث صلّيت. واختار محل هيكل سليمان فبنى فيه جامعاً للمسلمين وهو المعروف بالجامع الأقصى.

وقد قسم عمر سورية إلى قسمين، فولّى أبا عبيدة على كل البلاد الكائنة بين حوران وحلب وأمره بتكملة الفتح، وولّى يزيد على فلسطين وشواطئ البحر، وأعدّ عمرواً بن العاص لغزوة مصر بعد فتح سورية. وعاد عمر إلى المدينة فاستحوذ قواده على السامرة ونابلس واللّد ويافا وسائر مدن فلسطين. ثم جمع يزيد وأبا عبيدة

جنودهم ومضوا لحصار حلب، وكان فيها من الحامية اثنا عشر ألفاً خرجوا لمناوأة العرب فتقهقروا ذلك اليوم. وكان سكان المدينة تهمهم تجارتهم أكثر من تأييد ملك الروم ودينهم، فراسلوا يزيد وأبا عبيدة واستسلموا إليهما، ودرى الوالي فقتل كثيراً من الأهلين، وعزم أن يصنع كذلك بجيش المسلمين. ووفد حينئذٍ خالد بن الوليد فهاجم المدينة بجيش المسلمين فافتتحها وحصر الوالي والحامية في قلعة حلب، واستمروا فيها أربعة أشهر يدافعون إلى أن تسلّق المسلمون ليلاً على أسوارها ولم يعد من فتحها مناص، فأسلم الوالي وكثيرون من الجنود. وكان بين انطاكية وحلب قلعة حصينة في عزاز، فسار والي حلب ومعه مئة مسلم بزي جنود الروم، ولم يكن اسلامه معروفاً فدخل بهم القلعة وفتحوا أبوابها لغيرهم من جنود المسلمين فقتلوا الحامية الذين كانوا فيها، وزحفوا إلى انطاكية وكان فيها والٍ شجاع، ولكن الرعب كان قد أخذ في قلوب جنده كل مأخذ، فخرج للقياهم وتسعرت نار الحرب فظهر جيش المسلمين عليهم وقتلوا منهم كثيرين، وتشتت الباقون، واستحوذ على المدينة، ولم يترك يزيد الجيش فيها إلّا ثلاثة أيام لئلا تفسد أخلاقهم بأسباب الترف والخلاعة التي كانت متوافرة في هذه المدينة. وكان هرقل الملك أرسل ابنه قسطنطين بأسطول إلى السويدية لينجد انطاكية، فلم يقدر أن يصنع شيئاً مذكوراً، بل أرسل غادراً يغتال الخليفة عمر في المدينة، ولما رآه رجفت يداه فلم يقدر أن يأتي بضرّ، وأقرّ باثمه، فعفا عنه عمر وخلى سبيله، فكسب فخراً يذكر إلى اليوم مكان أن يسلبه الغادر الحياة، وأخذ المسلمون اللاذقية وطرطوس واطرابلس.

ولم يبقَ من مدن سورية الحصينة إلّا قيصرية فلسطين فسار إليها عمرو بن العاص بجيش كثيف، ومضى قسطنطين بن هرقل بأسطوله إلى مرفأها، وأحبّ أن يقابل أمير جيش المسلمين فأجابه عمرو إلى ذلك. فسأله قسطنطين بأي حق تتملكون سورية فأجابه عمرو بالحق الذي أولانا اياه الخالق، فللرب الأرض بكمالها فيولي عليها من شاء، وظفرنا دليل ناطق على ارادته. والتفت إلى الرومانيين وقال: لكم وسيلتان للنجاة إما أن تسلموا، وإما أن تخضعوا وتؤدوا الجزية. فقالوا نحن في غنىً عنهما. فأجابهم الحرب إذاً فاصلة بيننا. وقام من المجلس يستعد للقتال وحمي وطيس الحرب فذُعر الرومانيون، وانسلّ قسطنطين إلى سفنه وأقلع بها إلى قسطنطينية. فاستحوذ المسلمون على قيصرية وذلّ لهم كل من بقي في سورية فخسر الرومانيون في ست سنين سورية كلها التي تولوها سبع مئة سنة. فابتدأت

الحرب سنة ٦٣٣م وانتهت سنة ٦٣٨م وتوفي هرقل في ١١ شباط سنة ٦٤١ وانبسط حكم الخلفاء في زمان وجيز إلى مصر وما يليها والعراق وما بين النهرين وبلاد فارس كما سنبيّن في الجزء الثالث من هذا التاريخ.

عد ٦٧٥

جدول في اسماء الملوك الرومانيين وسني تمليكهم ووفاتهم أو عزلهم

اسماء الملوك	سنة تمليكهم	سنة وفاتهم أو عزلهم
١ اغوسطوس قيصر	٢٩ ق م ١٤	للميلاد
٢ طيباريوس	١٤ للميلاد	٣٧
٣ كاليكولا	٣٧	٤١
٤ كلود الأول	٤١	٥٤
٥ نيرون	٥٤	٦٨
٦ غلبا	٦٨	٦٩
٧ اوتون	٦٩	٦٩
٨ ويتاليوس	٦٩	٦٩
٩ فسبسيان	٦٩	٧٩
١٠ طيطس ابنه	٧٩	٨١
١١ دوميسيان	٨١	٩٦
١٢ نرفا	٩٦	٩٨
١٣ ترايان	٩٨	١١٧
١٤ ادريان	١١٨	١٣٨
١٥ انطونينس بيوس	١٣٨	١٦١
١٦ مرقس اورليوس		

٣٧ كلود الثاني	٢٦٨	٢٧٠
٣٨ كوينتلس	٢٧٠	٢٧٥
٣٩ اورليان	٢٧٥	٢٧٦
٤٠ تاسيت	٢٧٦	٢٧٦
٤١ فلوريان	٢٧٦	٢٧٦
٤٢ بروبس	٢٧٦	٢٨٢
٤٣ كارس	٢٨٢	٢٨٤
٤٤ كارين ونومريان	٢٨٤	٢٨٤
٤٥ ديوكلتيان	٢٨٤	٣٠٥
٤٦ مكسيميان هرقل	٢٨٦	٣٠٥
٤٧ قسطنس كلور	٣٠٥	٣٠٦
٤٨ كالر	٣٠٥	٣٠٥
٤٩ هاويرس	٣٠٦	٣٠٨
٥٠ مكسيمينس	٣٠٨	٣١٣
٥١ ليشينيوس	٣٠٧	٣٢٣
٥٢ قسطنطين الكبير الأول		
مع غيره	٣٠٦	٣٢٣
:: قسطنطين وحده	٣٢٣	٣٣٧
٥٣ قسطنس ابنه في المشرق	٣٣٧	٣٦١
٥٤ يوليانس الجاحد	٣٦١	٣٦٣
٥٥ يوفيان	٣٦٣	٣٦٤
٥٦ والنس	٣٦٤	٣٧٩
٥٧ توادوسيوس الكبير	٣٧٩	٣٩٥
٥٨ اركاديوس	٣٩٥	٤٠٨

٥٩ توادوسيوس الثاني	٤٠٨	٤٥٠
٦٠ بولشارية وحدها	٤٥٠	٤٥٠
٦١ مرقيان مع بلوشارية	٤٥٠	٤٥٣
:: مرقيان وحده	٤٥٣	٤٥٧
٦٢ لاون الأول	٤٥٧	٤٧٤
٦٣ لاون الثاني	٤٧٤	٤٧٤
٦٤ زينون المرة الأولى	٤٧٤	٤٧٥
٦٥ باسيليسكس	٤٧٥	٤٧٧
:: زينون ثانية	٤٧٧	٤٩١
٦٦ انسطاس	٤٩١	٥١٨
٦٧ يوستينس الأول	٥١٨	٥٢٧
٦٨ يوستنيانس الأول	٥٢٧	٥٦٥
٦٩ يوستينس الثاني	٥٦٥	٥٧٨
٧٠ طيباريوس الثاني	٥٧٨	٥٨٢
٧١ موريق	٥٨٢	٦٠٢
٧٢ فوقا	٦٠٢	٦١٠
٧٣ هرقل	٦١٠	٦٤١

فعدد هؤلاء الملوك الذين تولّوا سورية ثلاثة وسبعون ملكاً، ومدة ولايتهم فيها من بدء ملك اغوسطس قيصر إلى تقلص ولايتهم سنة ٦٣٨م في أيام هرقل ستة مئة وسبع وستون سنة.وقد كانوا تولّوها من فتح بمبايوس لها سنة ٦٤ قبل الميلاد إلى تمليك اغوسطس سنة ٢٩ ق. م. خمساً وثلاثين سنة فتكون كل مدة استحواذهم على سورية سبع مئة سنة وسنتين. اه